موسوعة الكتابة العربية

دراسات حول الكتابة العربية

التدوين اللغوى

حتى نهاية القرن الخامس الهجرى

تقديم

الأستاذ الدكتور

عبده الراجحى

أستاذ العلوم اللغوية

كلية الآداب - جامعة الأسكندرية

وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة

إعداد

أستاذ دكتور

عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمة

أستاذ تاريخ العلوم

كلية الآداب . جامعة المنوفية

دبلوم تحسين الخطوط العربية

دبلوم التخصص فى الخط والتذهيب

بكالريوس العلوم فى الكيمياء الحيوية

ماجستير فى فلسفة العلوم الفيزيائية

ماجستير فى الفنون الحضارية

دكتوراه فى فلسفة العلوم البيولوجية

دكتوراه الآداب فى التنمية السياحية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بِسمِ اَللّه الّرحُمَنِ الّرحِيمِ

"وقل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"

صَدَقَ اَللَّه العظيِم

تقديــــــــــــــــــم:

بسم الله الرحمن الرحيم، نحمده تعالى، ونستعينه، ونستهديه، ونصلى ونسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وبعد

فيكاد يكون مستقرا بين الدارسين أن الصفة الجوهرية للتراث العربى أنه يستند إلى "الرواية"، وسادت -عبر القرون- مصطلحات "السند" و "الشيخ" و "الراوية" و"السماع" مما يبنى أصلا إنسانيا من أصول التعلم، وذلك بتأكيد الحقيقة الكبرى أن نقل العلم يكون "بالتلقي" المباشر عن المصدر شاعرا، أو محدثا، أو فقيها .... وهذه الحقيقة الكبرى هى التى أثمرت إلى العربية إنتاجا خاصا لا يكاد يعرف فى الثقافات الأخرى، نقصد ما يتصل "بعلم الرجال" تتبعا لصفاتهم وأحوالهم ووصولا إلى التحقق من "ميزان" النقل بينهم.

ويبدو أن هذه الفكرة استهوت عددا غير قليل من الدارسين غير المسلمين، فسعوا إلى تأكيدها والتركيز عليها بما تتيحه من فتح أبواب عن "اضطراب الراوية" و "الوضع" و "الانتحال" أو التشكيك فى دقة النصوص على أدنى تقدير. ثم إن فكرة التدوين ــ فى المقابل ــ سوف تدفع بالضرورة إلى مقارنة غير متكافئة وبخاصة فيما يتصل بتدوين النصوص الدينية الذى تأخر قرونا فى الأديان السابقة، على حين كان التدوين مواكبا لنزول الوحى بما يمنع أية فرصة للتبديل والتحريف.

من هنا تأتى قيمة هذا الكتاب الممتاز الذى توفر عليه صاحبه الأستاذ الدكتور عبد الفتاح غنيمة، وقد استوت خبرته وتكاملت أدواته، عبر السنوات من الجهد المتصل فى ميدان الكتابة والتدوين، وهو ميدان يندر فيه المتخصصون على كل الأحوال، ورغم أن الدكتور غنيمة أثبت لنا أن العصر الجاهلى لم يكن خاليا من التدوين، فإن ثمة حقيقة غالبة لا يستطيع أن يمارى فيها أحد، وهى أن "التدوين" النقلى قد ارتبط ارتباطا عضويا بالإسلام، وذلك لسبب جوهرى: أن القرآن الكريم إعجاز لغوى، وهو فى الوقت "مركز" الحياة الاسلامية فى كل اتجاه، من هنا ندرك أن "العلوم" كلها نشأت من أجل غاية كبرى هى محاولة فهم النص القرآنى الكريم.

والمتتبع لهذا الكتاب الجاد الذى بين يديك يدرك هذه الحقيقة، كما يدرك هذا الجهد الهائل الذى بذله صاحبه فى جمع مادته، وفى تتبع دقائقها، وفى تصنيفها، وفى توثيقها، ثم فى تقديمها هذا التقديم اليسير الترتيب، وحين تنتهى من قراءة هذا الكتاب سوف تدرك أنك أحطت بخارطة العلوم العربية والإسلامية منذ نشأت إلى حين نضجها وانتشارها فى العالم، ولقد تعجب كيف يستطيع باحث أن يقدم لك فى فهم صحيح هذا التركيب الهائل من العلوم، من القراءات القرآنية، والحديث والفقه، والتفسير، واللغة، والبلاغة والأدب، لكن الرجل كما ذكرت يمتلك خبرة واسعة، وأكاد أجزم أن هذا الكتاب يسد فراغا فى المكتبة العربية ويقدم خدمة جليلة للتراث، ولعله يمثل اساسا صالحا نحو برمجة حاسوبية متدفقة لتاريخنا الفكرى كله.

والله ولى التوفيق

أ.د/عبده الراجحى

الاسكندرية فى ٨ من ربيع الاول ١٤٢٤ هـ

٩ من مايو (أيار) ٢٠٠٣ م

الحمد لله على ما أنعم ، والشكر على ما أولي ، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله ، دعاة الهدي ومصابيح الرشاد وبعد :

فهذا كتاب في التدوين اللغوي وما يتصل به من علوم، تدوين القرآن وتدوين الحديث والسنة والفقه وتدوين علوم التفسير والنحو والصرف والبلاغة وهذه العلوم هي دعامة العلوم العربية اللغوية. منه تستمد العون وتستلهم القصد ، وتتربى بيه في جليل مسائلها وفروع تشريعها ، ولن تجد علما فيها يستقل بنفسه، أو يستغني عن معونته، أو يسير بغير نوره وهداه. وهذه العلوم – على عظيم شأنها – خليق بمن يدلف إلى رياضها أن يعرف النشأة والمراحل التى اجتازتها و لا سبيل إلى استخلاص حقائقها والنفاذ إلى أسرارها بغير الغوص فى باطنها مجتمعة، فهل ندرك كلام الله تعالي ونفهم دقائق التفسير وأحاديث رسول ﷺ وأصول العقائد وأدلة الأحكام وما ينبع من مسائل فقهية وبحوث شرعية إلا إذا ألممنا بهذه اللغة.

واللغة العربية التى نتخذها أداة طيعة للتفاهم ، ونسخرها مركبا ذلولا للإبانة عن أغراضنا والكشف عما في نفوسنا ، ما الذي هيأها لنا وأقدرنا على استخدامها قدرة الأولين من العرب عليها ، فقد تمكنوا من نظمها ونثرها . وأطلقوا ألسنتنا في العصور المختلفة صحيحا فصيحا. وأجروا كلامنا في حدود مضبوطة سليمة، فعلوم النحو والصرف وسيلة المستعرب وسلاح اللغوي، وعماد البلاغي، وأداة المشرع والمجتهد، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية جميعا ، فليس عجيبا أن يصفه الأعلام السابقون بأنه ميزان العربية وأن يتفرغ له العباقرة من أسلافنا ، يجمعون أصوله، ويثبتون قواعده، ويرفعون بنيانه شامخا في إخلاص وصبر ، ولقد كان الزمان يجري عليهم بما جري على غيرهم من مرض وضعف، فلا يقدر على أن ينتزعهم مما هم فيه، ولا ينجح في إغرائهم بمباهج الحياة ، وإذا كان هؤلاء العلماء يعدون العدة ويدونون بحوثهم ويسجلون ويختارون من تلاميذهم، يهيئونهم ويشرفون على تنشئتهم وتنمية مواهبهم . حتى إذا جاء أجلهم ودعوا الدنيا بنفس مطمئنة واثقة أن ميدان الإنشاء والتعمير اللغوي لم يخل من فرسان، وأنهم خلفوا ورائهم خلفا صالحا يسير على الدرب ويحتذي المثال .

على هذا النهج الرفيع تعاقبت طوائف النحاة واللغويين ، وتوالت الأجيال في الميدان لتلقي الراية نابغ عن نابغ ، و قد تسابقوا مخلصين دائبين فرادي وجماعات في إقامة صروح العلوم اللغوية وتشييد أركانها بالتدوين. .

وليس من شك في أن التراث المدون من العلوم اللغوية الذي تركه الأسلاف حتى نهاية القرن الخامس الهجري ومن بعد ذلك بقرون . نفيس غاية النفاسة ، وأن الجهد الناجح الذي بذلوه خلال الأزمان المتعاقبة جهد لم يهيأ لكثير من العلوم المختلفة .

والحقيقة أن تلك العلوم اللغوية التى دونت نشأت ضعيفة، ثم أخذت طريقها إلى النمو والقوة والاستكمال بخطا وئيدة أو سريعة على حسب ما يحيط بها من ظروف، ثم يتناولها الزمان بأحداثه ، فيدفعها إلى التقدم والنمو والتشكل بما يلائم البيئة

وقد خضعت العلوم اللغوية لهذا القاموس الطبيعي ، فولدت في القرن الأول الهجري ضعيفة وحبت وئيدة أول القرن الثاني، ثم كانت مراحل النمو والقوة، ولمع الأئمة – والحق أن تدوين القرآن فى القرن الأول الهجرى أظهر علم القراءات والأصوات اللغوية، وفتح الباب لعلوم التفسير والتشريع والفقه ولعلوم النحو والصرف والبلاغة والمقال والرسائل والأدب إلا أن هناك صعوبة بالغة تواجه كل من يحاول التصدي لرصد المسار العام لتطور الدراسات التى تناولت التدوين اللغوي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، حيث أن تطورها لم يأخذ دائما مسارا تاريخيا مستقيما منتظما . ولكنه كان يسير في مجموعة من الخطوط المتعرجة المتشابكة التى لا تتوازي إلا لتتقاطع . ولا تلتقي إلا لتتفرق . وهذه الصعوبة تجعل من يتصدى لرصد هذه الدراسات بين خطرين: أن يتتبع هذه الخطوط الجزئية المتشابكة المتعرجة ، فيضل في منعرجاتها المسار العام الكلي لهذه الدراسات اللغوية وتضيع منه معالمه الأساسية . أو أن يلتزم هذا المسار الكلي في خطوطه العامة فتفلت منه الملامح التفصيلية الدقيقة والعميقة لهذا المسار ، هذه الملامح التى تتمثل في الخطوط لجزئية ذاتها ، ويجد نفسه في النهاية لم يرصد إلا كل ما هو عام وسطحي في هذا المسار ، وأنه يجمع بين أشياء ليس بينها جامع في الحقيقة .

ولا شك أن صعوبة تداخل العلوم القرآنية لن يمكن التغلب عليها قبل أن يتم مسح علمي للمساحة الزمنية التى يمتد عليها تاريخ التدوين اللغوي عن طريق مجموعة من الدراسات العلمية المتعمقة ، لكل مرحلة من المراحل التى قطعتها كتابة تدوين المصاحف، ومن بعد تدوين علم القراءات، والعلوم الصوتية و الحديث الشريف ، وصولا إلى تدريس النحو والصرف وعلوم البلاغة " المعاني ، البيان ، البديع " وعلم الكلام .... وكان علينا تتبع التدوين لكل علم من هذه العلوم في رحلته الطويلة حتى نهاية القرن الخامس الهجرى، و لكل خطوة خطتها في هذه المرحلة . وقد تمت بالفعل خطوات طيبة وكثيرة في هذا السبيل ... والحقيقة التى لا ريب فيها أنه ستظل كل محاولة تتصدي لمهمة التأريخ لدراسات التدوين اللغوي وتتبع مسار تطورها ضربا من المخاطرة والتعرض للوقوع في أحد المزلقين السابقين ، ولكن هذه المهمة تبقى بعد ذلك ضرورة ملحة تستأهل هذه المخاطرة ، ولا تحتمل الانتظار حتى تتم التغطية العلمية الكاملة لحقل الدراسات اللغوية

وهذه الدراسة المتواضعة ، تحاول – بكل ما في وسعها من جهد وإخلاص – أن ترصد حرص عرب الجاهلية على تدوين الفكر والمعرفة وأن ترصد تدوين الشعر الجاهلى.. لكى تصل إلى الأسباب والدواعي التى دفعت إلى الاهتمام بالكتابة عن المسلمين ، وتفضيل الكتابة والتدوين على الحفظ عند العرب بعد ظهور الإسلام من خلال مسار الدراسات اللغوية ، دون أن تغفل الخطوط الجزئية المتشابكة ، متحاشية بذلك – ما أسعفها الجهد – أن تنزلق إلى التسطيح والتعميم في أمور لا تحتمل بطبيعتها التسطيح والتعميم ، ومتحاشية – في الوقت ذاته – أن تضل الطريق إلى غايتها خلال منعرجات هذا المسار العام ودروبه الفرعية .

ولكي تصل هذه الدراسة إلى غايتها فقد تناولت فى الفصل الأول تدوين أول كتاب بعد ظهور الإسلام وهو القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ، وأسباب جمعه وتدوينه في عهد الخلفاء أبى بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وكيفية نسخ المصاحف بعد عهد الخلفاء الراشدين، وتطور الكتابة العربية بالنقط والتشكيل، والجوانب التى التزم بها الكاتبون للمصحف على الرسم العثماني ، وأعلام الكتابة والتدوين أمثال زيد ابن ثابت و أبى بن أبى كعب خلال هذه المرحلة ودور كل منهم.

إلا أن تفرق الصحابة في الأمصار الإسلامية ، وازدهار الحركة العلمية وكثرة الأعلام والاتجاهات في كل من المدينة ومكة والكوفة ، جعل التدوين ضرورة ملحة لضبط الروايات المأثورة وحفظا لها وضبطا لمدلولاتها ، وبخاصة بعد ظهور حركة الوضع في الحديث التى استهدفت تضليل المسلمين وتعميق جذور الفتنة في المجتمع الإسلامي الوليد . ولما أصبحت الخشية غير واردة لإمكان الفصل بين القرآن والسنة ... اتجهت الأنظار نحو تدوين الحديث والسنة والسيرة والفقه، وتشير المصادر التاريخية أن علماء نهاية الهجري الأول ابتدءوا يشعرون بأهمية قضية التدوين ويحضون تلاميذهم على تدوين ما يحفظون من روايات ، وأصبح الاتجاه العام يميل إلى قبول التدوين والتشجيع عليه والمساهمة فيه . وكانت أول دعوة رسمية عامة إلى جمع الحديث وتدوينه قام بها الخليفة الأموي الورع عمر بن عبد العزيز. وهذا ما خصصناه للفصل الثاني : فقد تناولنا في ثناياه تدوين الحديث والسنة والفقه . قدمنا له بمقدمة عن الحديث لغة وجهود المسلمين في تدوينه وأدوار التدوين فى عصر صغار الصحابة وكبار التابعين، ومن ثم عصر أوساط التابعين، وأواخر التابعين وتبع التابعين، وصولا إلى عصر المتأخرين – مما دعانا إلى ايضاح مصطلح طلب الحديث وألقاب المحدثين وتلقي الحديث وتصنيفه . وظهور علم رجال الحديث وفائدة هذا العلم، مع ذكر شروط الرواي وطبقات الرواة ، والكتب المدونة في الرواية ومراتبها وكتب الحديث المدونة .... ومكانة الحديث في التشريع واللغة والآداب وختمنا الفصل بذكر بعض علماء الحديث من الصحابة، أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . كما ذكرنا بعض علماء الحديث من التابعين، منهم سعيد

بن المسيب ، وابن شهاب الزهري ، والحسن البصري ، وعبد الله بن عباس . ثم ذكرنا المبرزين من علماء الحديث:

أمثال الإمام مالك ابن أنس (ت ١٧٩ هـ) صاحب كتاب الموطأ أول كتاب مدون لروايات السنة، والإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) وسفيان الثوري (ت١٦١هـ) والإمام أحمد بن حنبل ومسنده (ت ٢٤ هـ) والإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وكتاب صحيح البخاري ، والإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ) ، والإمام ماجة (ت٢٧٣هـ) وسنن أبى داود (ت٢٧٥هـ) والإمام الترمذى (ت٢٧٩هـ) والإمام النسائي (ت٣٠٣هـ)

آثرنا الدخول إلى الفصل الثالث : وعنوانه دراسات حول تدوين علم التفسير، المدخل: حول المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة التفسير، والفرق بين التأويل والتفسير، مع محاولة لإيضاح المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة التأويل . لكي نقف على أهمية علم التفسير عند المسلمين ومراحله الأولي في عصر النبي ﷺ ومصادر التفسير مع ذكر أشهر المفسرين من الصحابة، عبد الله بن عباس ، عبد الله بن مسعود وعلى بن أبي طالب، وأبي بن أبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين .... في المرحلة الثانية .... تناولت التفسير في عصر التابعين ، مصادره وحركته ومدارسه، وقيمة التفسير المأثور عن التابعين ومميزات التفسير في هذه المرحلة، انتقلت بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة لذكر التفسير في عصر التدوين وخطواته وأنواع كتب التفسير المدونة .... خاصة التفسير المأثور لكي نستشهد بمجاهد ابن جبر(ت٢٠٥هـ) و ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) والنيسابورى (ت٤٦٨هـ). وتعد نشأة النحو مظهرا من مظاهر العناية الفريدة التى أولاها المسلمون للقرآن الكريم، لذا رأينا أن نفرد فصلا رابعا لموضوع دراسات تدوين النحو والصرف، بذكر جهود الأعلام الكبار في هذا المجال نخص بالذكر أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) وعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) وعيسي بن عمر (ت ١٤٩ هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) وصولا إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) بصفته واضع فن الموسيقي العربية، وعلم العروض، وصاحب معجم العين، والواضع للغة العربية مقاييسها وللشعر مقاييسه ، انتقلت بعد ذلك إلى ذكر سيبويه (ت ١٨٠ هـ) وقد رأينا أن نذكر شيوخه وأقرانه وتلامذته ومناظراته وكتابه، اتبعت ذلك بذكر الكسائي (ت ١٨٩ هـ) مؤلفاته ومناظراته مع سيبويه، ومع صاحبي أبي حنيفة . وكان لزاما علينا ذكر الفراء أمير النحاة (ت ٢٠٧ هـ) وكيف أملي كتاب المعاني وتكوين مدرسة الكوفة وربطنا كل ذلك بمؤلفاته . ومن ثم المبرد (ت ٢٨٥ هـ) بداية من أساتذته وتلاميذه ومؤلفه الهام كتاب الكامل ... ولما كانت ضرورة البحث تتطلب أن نذكر مجموعة أخرى من أعلام النحو والصرف فقد ذكرنا إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١ هـ) وكيف التقي الزجاج بالمبرد، ومن بعده ابن دريد الأزدي صاحب معجم الجمهرة و (ت ٣٢١ هـ). ومن بعده إسماعيل بن القاسم المعروف بتاج علي القالى صاحب معجم البارع (ت ٣٥٦ هـ) وصاحب كتاب الأمالي ... وكيف انتشرت ظاهرة تدوين كتب الأمالي التى أوردها حاجى خليفة ، وحسب الترتيب في المنهج

التاريخي ذكرنا السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) وتحدثنا عن نشأته ومكانته ومؤلفاته، ثم تطرقنا إلى ذكر إسماعيل بن حماد الفارابي اللغوي والمعروف بالجوهري صاحب المعجم الصحاح والمتوفى على الأرجح ٣٩٨ هـ، اتبعنا ذلك بذكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ونظام الجملة العربية .

وكان لزاما علينا الحديث عن الدراسات التى دارت حول تدوين علم الصرف ، المدخل مادة العلم وموضوع علم الصرف ، وحصر مسائله وفائدته ، والفرق بين الصرف والنحو، ومتن اللغة العربية وفقهها ... ومدي الحاجة إلى دراسة علم الصرف، ثم ذكرنا أن أبو عثمان المازني (ت ٢٤٩ هـ) واضع علم الصرف ومراحل نشأته وتطوره خلال الأطوار الثلاثة .

وهكذا دنونا من تناول الفصل الخامس: وعنوانه دراسات حول تدوين البلاغة وعلومها ... المعاني ، والبيان ، والبديع . كان المدخل الطبيعي الحديث عن البلاغة والبيان في العصرين الجاهلي والإسلامي ومراحل نشأة البلاغة والعلوم التى ساهمت في نشأتها ، العلوم القرآنية والأدبية واللغوية ... واتبعنا ذلك بذكر سمات التأليف البلاغي في القرون من الثالث إلى الخامس الهجري وأغلبها يدور حول عدم التبويب واضطرب مدلول المصطلحات وامتزاج القضايا البلاغية بقضايا العلوم الأخرى وعدم تميز علوم البلاغة الثلاثة ، ثم تناولنا مرحلة التكامل والتدوين لتبلور البلاغة وأهم المؤلفات مثل مجاز القرآن لأبي عبيدة معمرين المثني (ت ٢١٠ هـ) وتأويل مشكل القرآن لأبن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) وإعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) . تناولنا أيضا نشأة علم البيان وتطوره في بعض الكتب المدونة ومنها كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ هـ) وكتاب البديع لعبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) وكتاب الوساطة للقاضي الجرجاني (ت٣٦٦ هـ) وكتاب الموازنة لبشر الأمدي (ت ٣٧٠ هـ) وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري(ت ٣٩٥ هـ).

وتناولنا فى الفصل السادس والأخير دراسات حول تدوين المقال والرسائل فى الأدب، بدأناه بالحديث عن القرآن المرجع الأول لرواة اللغة العربية وفضله فى انتشارها والحفاظ على الفصحى، وكيف أصبحت العربية لغة العلم والحضارة ودورها فى تدوين الكتاب العربى، ثم انتقلت للحديث عن تدوين المقال والرسائل فى الأدب منذ القرن الثانى للهجرة وحتى الخامس، مع تصفح بعض كتب الأدب للتعرف على آثار بعض أعلامه للوقوف على الخواص الأدبية والسياسية والاجتماعية وقد اخترنا الحسن البصرى (ت١١٠هـ) وعبد الله بن المقفع (ت١٣٩هـ) رائد صرح اللغة العربية القديمة والذى تبنى أسلوبا عربيا مبسطا يتصف بالعذوبة والفهم، وابن قتيبة الكاتب الناقد الأديب (ت٢٧٦هـ) ومؤلفاته الكثيرة لاسيما عيون الأخبار وأدب الكاتب وابن طباطبا الناقد العربى(ت٣٢٢هـ) ومؤلفه عيار الشعر، وأبو الفرج الأصفهانى (ت٣٥٦هـ) فى كتابه الأغانى، وأبو حيان التوحيدى الفيلسوف الأديب (ت٤١٣هـ) ومؤلفاته المدونه والمنشورة كثيرة، وقد اتخذ من العلم حرفته وجاء انتاجه الأدبى خصبا وافرا، وختاما لا يسعنى سوى تقديم جزيل الشكر لأساتذتى الأجلاء فى مجال العلوم اللغوية الذين أخذت

عنهم وأخص منهم بالذكر الدكاترة /عبده الراجحى (أستاذ العلوم اللغوية بآداب الإسكندرية وعضو المجمع اللغوى)، وابراهيم الإدكاوى (رئيس قسم اللغة العربية واستاذ النحو والصرف بآداب المنوفية).

وإنى لأرجو التوفيق من الله فى جمع شتات هذا الموضوع وأن أعود إليه من أجل الإفاضة فيما أوجزت، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د/عبد الفتاح مصطفى غنيمة

المحتويات

الفصل الأول : التدوين قبيل الإسلام وبعد ظهوره :

التدوين قبيل الإسلام وبعد ظهوره	٢١
حرص عرب الجاهلية على تدوين الفكر والمعرفة	٢٢
موضوعات الكتابة عند عرب الجاهلية : الكتب الدينية	٢٥
▪ كتب العهود والمواثيق والأخلاق ▪ كتابة الصكوك وحساب التجارة	٢٦
▪ كتابة الرسائل	٢٧
▪ الكتابة والنقش في الخاتم وعلى سطح الحجر	٢٨
تدوين الشعر الجاهلي بالكتابة	٢٩
ظهور الإسلام وانتشار الثقافة الإسلامية	٣٦
أهمية الكتابة والتدوين في الإسلام	٤٣
تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد ظهور الإسلام	٤٦
كتابة القرآن في عهد الرسول ﷺ	٤٨
أسباب جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر رضي الله عنه	٥٣
زيد ابن ثابت أول من كتب القرآن منظما	٥٥
أسباب جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه	٥٧
نسخ المصاحف بعد عهد الخلفاء الراشدين تطور الكتابة العربية بالنقط والتشكيل	٦١
ما يجب على كاتب المصحف	٦٣
لا يكتب المصحف إلا على الرسم العثماني	٦٨
القرآن وعلم القراءات	٦٩
نشأة القراءات ١. عثمان بن عفان ٢. على بن أبي طالب	٧١
٣. أبي ابن أبي كعب	٧٢
٤. زيد ابن ثابت ٥. عبد الله بن مسعود ٦. أبو موسى الأشعري	٧٥
تاريخ القراءات	٧٧
أولا : القرآن في حياة النبي ﷺ وفترة الخلافة الراشدة	٧٨
ثانيا : الاختيار وأثره في القراءات	٨٢
ثالثا : التدوين في علم القراءات	٨٥
رابعا : الكتب المطبوعة في علم القراءات والمؤلفة حتى نهاية القرن الخامس الهجري	٨٦
التدوين في الدراسات الصوتية الخليل بن أحمد الفراهيدي ، سيبويه ، ابن جني ، ابن سينا	٨٨

الفصل الثاني : تدوين الحديث والسنة والفقه

الحديث لغة جهود المسلمين في تدوين الحديث	٩٣
التدوين بعد أمر عمر بن عبد العزيز :	٩٦
الأول : في حياة النبي ﷺ	٩٧
الثاني : عصر الخلفاء الراشدين	٩٨
الثالث : عصر صغار الصحابة وكبار التابعين الرابع : عصر أوساط التابعين الخامس : عصر أواخر التابعين وتبع التابعين السادس : عصر تبع التابعين السابع : عصر تبع التابعين	٩٩
الثامن : عصر المتأخرين طلب الحديث	١٠٠
ألقاب المحدثين	١٠١
تلقي الحديث	١٠٣
تصنيف الحديث	١٠٤
علم رجال الحديث وفائدة هذا العلم	١٠٥
الجرح والتعديل والأسباب	١٠٦
الشروط التي يجب أن تتوافر في المعدل والمجرح	١٠٧
علماء لهم حق الجرح والتعديل أولا : الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ت ٣٢٧ هـ	١٠٨
ثانيا : ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ت ٣٤٨ هـ	١٠٩
شروط الراوي وطبقات الرواة	١١٠
الكتب المدونة في الرواية ومراتبها	١١٢
كتب أنواع الحديث المدونة	١١٣
أنواع الحديث	١١٤
مكانة الحديث في التشريع	١١٨
مكانة الحديث في اللغة والأدب	١٢٠
علماء الحديث من الصحابة ١. أبو هريرة	١٢١
٢. عبد الله بن عمر رضي الله عنهما	١٢٢
٣. السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها	١٢٣
علماء الحديث من التابعين ١. سعيد ابن المسيب	١٢٤
٢. ابن شهاب الزهري ٣. الحسن البصري	١٢٥
٤. عبد الله بن عباس	١٢٦
أصول التشريع وفقه العبادات	١٢٧

السنة حجة في التشريع وتجيء بعد الكتاب	١٢٨
الاجماع ، القياس ، الاستحسان ، المصالح المرسلة	١٢٩
تعريف الشريعة	١٣١
تعريف الفقه لغة واصطلاحا	١٣٢
موضوع علم الفقه	١٣٤
الفرق بين التشريع السماوي والوصفي	١٣٥
من أعلام رواية الحديث والفقه ... ١. الإمام مالك بن أنس ت ١٧٩ هـ	١٣٧
الموطأ أول كتاب مدون لروايات السنة	١٤٠
٢. الإمام الشافعي (٢٠٤ هـ)	١٤١
الشافعي وتدوين علم أصول الفقه	١٤٢
المذهب الشافعي	١٤٣
٣. سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ)	١٤٥
٤. الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ)	١٤٦
شيوخه محنة الإمام أحمد بن حنبل	١٤٧
منهجه في الحديث وأثره في المسند	١٤٩
ابن حنبل الفقيه والمتكلم	١٥١
٥. الإمام البخاري (٢٥٦ هـ)	١٥٢
رحلة البخاري في طلب الحديث والنقل عن الرواة	١٥٣
مؤلفاته	١٥٤
صحيح البخاري	١٥٥
منهجه في الجامع الصحيح	١٥٦
٦. الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ)	١٥٧
٧. الإمام ابن ماجة ٢٠٩ - ٢٧٣	
٨. الإمام الترمذي صاحب جامع الترمذي ٢٧٩ هـ	
٩. سنن ابن أبي داود ٢٧٥ هـ	
١٠. الإمام النسائي (٢١٥ – ٣٠٣ هـ)	

الفصل الثالث : دراسات حول تدوين علم التفسير

المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة التفسير	١٦٧
التأويل والفرق بينه وبين التفسير المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة التأويل	١٦٨
ظاهرة التأويل وصلتها باللغة أهمية علم التفسير عند المسلمين	١٧٠
مراحل التفسير	١٧٢
المرحلة الأولى : في عصر النبي ﷺ وأصحابه	١٧٣
مصادر التفسير في هذه المرحلة ١. القرآن الكريم	١٧٥

٢. النبي ﷺ	١٧٦
٣.الاجتهاد وقوة الاستنباط	١٧٧
٤. أهل الكتاب من اليهود والنصارى أشهر المفسرين من الصحابة	١٧٨
المرحلة الثانية : التفسير في عصر التابعين ▪ مصادر التفسير في هذه المرحلة	١٨٠
▪ حركة التفسير ومدارسه في هذه المرحلة	١٨١
▪ قيمه التفسير المأثور عن التابعين	١٨٢
▪ مميزات التفسير في هذه المرحلة	١٨٣
▪ عبد الله بن عباس رضي الله عنه	١٨٤
▪ عبد الله بن مسعود	١٨٦
▪ علي بن أبي طالب رضي الله عنه	١٨٨
▪ فتاوى علي مرجع للخلفاء والصحابة	١٩١
▪ الفتنة والمعاناة	١٩٢
المرحلة الثالثة : التفسير في عصر التدوين وخطواته	١٩٤
أنواع كتب التفسير المدونة ١. التفسير المأثور: ▪ تطور التفسير بين الرواية والتدوين	١٩٦
▪ تطرق الضعف إلي التفسير المأثور وأسبابه	١٩٨
▪ التفسير بالرأي الفعلي وموقف العلماء منه	٢٠٠
▪ العلوم التي يحتاج إليها المفسر	٢٠٣
من أشهر ما دون في التفسير المأثور	
● مجاهد بن جبر ومكانته في التفسير ت ١٠٤ هـ	٢٠٥
● مخطوطة تفسير مجاهد وتاريخها	
● ابن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ	٢٠٩
● أبو الحسن علي النيسابوري ت ٤٦٨ هـ	٢١٢

الفصل الرابع : دراسات حول تدوين النحو والصرف

النحو لغة تراجم مختصرة لعلماء اقترنت أسماؤهم بنشأة النحو	٢١٥
جهود الصفوة نحو تكامل النحو	٢١٩
قصة الخلاف في النحو العربي	٢٢١
من أعلام القياس ونشأة النحو ▪ أبو الأسود الدؤلي ٦٩ هـ / ٦٨٨ م	٢٢٢
▪ عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م)	٢٢٣
▪ عيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م)	٢٢٥
▪ أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ / ٧٧٠ م	٢٢٧

▪ يونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ / ٧٩١ م	٢٣١
• الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ / ٧٩١ م)	٢٣٣
▪ الخليل واضع فن الموسيقي العربية وواضع علم العروض	٢٣٤
▪ تدوين معجم العين	٢٣٥
▪ المعجم لم يخل من مأخذ	٢٣٦
▪ فكرة المعجم الأساسية ▪ الخليل مبتكر فكرة " تدوين المعاجم "	٢٣٧
▪ الخليل وضع للغة مقاييسها وللشعر مقاييسه	٢٣٨
سيبويه أرجح الأقوال أنه (ت ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م شيوخ : حماد البصري ، الأخفش الأكبر ، يعقوب الحضرمي ، عيسي بن عمر ، أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب ، الخليل بن أحمد ، أبو زيد الأنصاري	٢٤١
أقران سيبويه تلاميذ سيبويه : الأخفش الأوسط ، قطرب ، الناشيء	٢٤٦
مناظرات سيبويه ووفاته	٢٤٧
القرآن الكريم معين لا ينضب	٢٥٠
الكسائي (ت ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م)	٢٥١
مؤلفاته	٢٥٢
الكسائي والشعر مناظراته : بين الكسائي وسيبويه	٢٥٤
بين الكسائي وصاحبي أبي حنيفة ، وفاته	٢٥٥
الفراء أمير النحاة (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)	٢٦٠
الفراء يملي كتاب المعاني	٢٦١
الفراء يتعهد مدرسة الكوفة	٢٦٣
مؤلفاته	٢٦٤
وفاته	٢٦٥
المبرد (٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م) أساتذته وتلاميذه	٢٦٦
مؤلفاته : كتاب الكامل	٢٦٧
إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١ هـ / ٩٢٣ م) ▪ لقاء الزجاج بالمبرد	٢٧٣
▪ التحمس للمذهب البصري	٢٧٤
▪ مؤلفاته	٢٧٨
ابن دريد الأزدي صاحب معجم الجمهرة (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣ م)	٢٧٩
▪ مقارنة بين الجمهرة والعين	٢٨٠
▪ القصيدة المقصورة ▪ قصائد أخرى مشهورة	٢٨٢
إسماعيل بن القاسم بتاج على القالي صاحب معجم البارع (ت ٣٥٦ هـ ٩٦٦ م)	٢٨٥

■ تدوين كتب الأمالي ■ كتب الأمالي التي أوردها حاجي خليفة	٢٨٦
■ تختلف الأمالي باختلاف المملين	٢٨٧
■ مزايا الآمالي	٢٨٨
السيرافي (ت ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م)	٢٨٩
■ مؤلفاته	٢٩٠
● إسماعيل بن حماد الفارابي اللغوي والمعروف بالجوهري صاحب المعجم الصحاح (ت ٣٩٨ أو ٤٠٠ هـ / ١٠٠٧ أو ١٠٠٩ م	٢٩١
عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م)	٢٩٣
■ الجرجاني ونظام الجملة العربية	٢٩٤
دراسات حول تدوين علم الصرف	٢٩٧
علم الصرف له جانبان	
التغيرات التي تحدث في بنية الكلمة تكون لغرضين	٢٩٨
موضع علم الصرف ومسائله وفائدته	٢٩٩
الفرق بين الصرف والنحو ومتن اللغة وفقه اللغة	٣٠٠
أهمية دراسة علم الصرف	٣٠١
واضع علم الصرف معاذ بن مسلم الهراء الكوفي ، أبو عثمان المازني البصري (ت٢٤٩ هـ ، أبو الفتح عثمان بن جني ت ٣٣٠	٣٠٢
مراحل نشأة علم الصرف وتطوره	٣٠٣
علم الصرف مر بأطوار ثلاثة :	٣٠٤

الفصل الخامس : دراسات حول تدوين البلاغة وعلومها المعاني ، البيان ، البديع

البلاغة والبيان في العصرين الجاهلي والإسلامي	٣٠٧
مراحل نشأة البلاغة	٣١١
العلوم التي ساهمت في نشأة البلاغة	٣١٢
١ . العلوم القرآنية	٣١٣
٢. العلوم الأدبية	٣١٥
٣. العلوم اللغوية	٣١٦
سمات التأليف البلاغي في القرون من الثالث إلى الخامس	٣١٧
١. عدم التبويب	٣١٨
٢. اضطراب مداول المصطلحات	٣١٩
٣. امتزاج القضايا بقضايا العلوم الأخرى	٣٢٢
٤. عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة	٣٢٣
من المؤلفات البلاغية	
١. مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠ هـ / ٨٢٥ م)	٣٢٦
٢. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)	٣٣١
٣. إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ / ١٠٦٢ م	٣٣٢

مفهوم المعاني والبيان والبديع	٣٣٨
• كتاب البديع لابن المعتز المتوفي ٢٩٦ هـ	٣٣٩
ابن جني من أعلام الصرف وفقه اللغة والأصوات ت ٣٩٢ هـ	٣٤٣
كتاب الخصائص	٣٤٦
كتب الاشتقاق المدونة في العربية	٣٤٨

الفصل السادس : دراسات حول تدوين المقال والرسائل في الأدب

دراسات حول تدوين المقال والرسائل في الأدب	٣٥١
العربية لغة القرآن	
اللغة العربية وتدوين الكتاب العربي	٣٥٤
العربية لغة العلم والحضارة	٣٥٥
اختلفت الأجناس والكتاب العربي واحد	٣٥٦
الكتاب العربي سلاحنا في الماضي والمستقبل	٣٥٩
يتناول تاريخ الأدب المدون الأمور التالية	٣٥٩
في العصر الجاهلي	٣٦٠
في العصر الأموي في العصر العباسي	٣٦١
• الحسن البصري ت ١١٠ هـ	٣٦٣
• عبد الحميد بن يحيى الكاتب ت ١٣٢ هـ	٣٦٧
• عبد الله بن المقفع ت ١٤٠ هـ	٣٧٠
• الجاحظ ت ٢٥٥ هـ	٣٧٧
عالج الجاحظ باللغة العربية موضوعات الحياة كلها	٣٧٩
الجاحظ وكتاب البخلاء	٣٨١
• ابن قتيبة الكاتب الناقد الأديب	٣٨٢
كتاب عيون الأخبار	٣٨٣
مصادر عيون الأخبار	٣٨٦
العلم عند ابن قتيبة	٣٨٧
ابن طبا طبا الناقد العربي ت ٣٢٢ هـ	٣٩٠
كتاب عيار الشعر	٣٩٢
كيفية نظم الشعر ، وحدة القصيدة ضرورة	٣٩٤
الشاعر والعقلي	٣٩٦
• أبو الفرج الأصفهاني وكتاب الأغاني ت ٣٥٦ هـ	٣٩٧
غاية الأصفهاني الغناء وأصحابه	٤٠٣
تراجمه وأشعاره	٤٠٤
تحقيق كتاب الأغاني وطباعته	٤٠٥
• أبو حيان التوحيدي ت ٤١٣ هـ	٤٠٦
مؤلفاته	٤٠٩

كتاب المقايسات	٤١٢
الامتاع والمؤانسة	٤١٤
الفكاهة الطرافة عند أبي حيان	٤١٦
كتاب الهوامل والشوامل	٤١٧

تنويـــــه

تـرجع قصـة هـذا الكتـاب إلى أربعيـن عامـا مضـت ، عـندما فتـنت بكـتابات الموسوعيين من أعلام العرب ، ولقد همت باللغة العربية منذ طفولتي ... وقضيت عمري طالبا وباحثا لهذه اللغة ، ولم تترك لي الظروف الوقت لممارسة فن وعشق اللغة العربية والذي حالت مهام الحياة وواجبات المهنة بيني وبينها .

والحقيقة أنني لم أنقلب للكتابة في التدوين اللغوي فجأة ، وإنما كانت البداية اهتمامي بعلم الكتابة العربية والمخطوطات ، النشأة والتطور ، وكتبت فيهما ، وكم كنت حريصا على اقتناء كل ما يصدر من كتابات في المجالات اللغوية ، ولم أترك كتابا إلا وقرأته مرات ومرات .... مما كان يطرب نفسي ويسعدها ، وفي ساعات الهدوء والتأمل يعتمل في صدري أن أقوم بالكتابة ، ولا أبالغ أن هذه الظاهرة تمتلك مشاعري ووجداني ، حتى سولت لي نفسي أن أدخل إليها من باب الثقافة ، وأن أستغرق في دراسة ذاتية متعمقة في أصول التدوين اللغوي ، وتعلمت من صفوة الأعلام أنه ليس هناك مستحيل أمام عزيمة الإنسان إذا وجد في نفسه دافعا إلى ذلك في أية ظروف وفي أية مرحلة من العمر ، وعلى الباحث أن يعرف أصول موضوع البحث ويتقنه . لذلك ما لبثت أن أقدمت دون تردد استجابة لإلحاح شديد في داخلي لتحقيق ما أريد ، وبعد أن توافرت لي بحبوحة من فراغ .

وكل ما أرجوه من قارئ لهذا الكتاب ألا ينتظر أن أكون محترفا كأهل التخصص ، وإنما هو الحنين الذي دفعني لكوني لم أستطع دخول قسم اللغة العربية كجامعي ، وإنما فرضت علينا الجامعة التخصص الآخر .... الفلسفة والعلوم الاجتماعية .

وغاية ما أطمح إليه من صفحات هذا الكتاب أن يكون مدخلا للآخرين ، لهذا العالم من فنون الإبداع في العلوم اللغوية العربية ، والتي يمكن أن تعيد صياغة وتشكيل وجدان الأمة العربية واستعادة دورها الحضاري العظيم .

د. عبد الفتاح مصطفي غنيمة

الفصل الأول

التدوين قبل الإسلام وبعد ظهوره

كتابات الجاهلية ، تدوين القرآن ، وعلم القراءات ، والتدوين الصوتي

يقصد الباحث مصادر العصر الجاهلي لغيره من العصور الإسلامية وذلك للتمهيد عما يقصد ، وحتى يصل إلى مرحلة التدوين العلمي الفعلية عند رجال الطبقة الأولى من الرواة العلماء . مما يوجب على الباحث الإشارة إلى اتصال العرب بالحضارات القديمة المجاورة لهم وإلى الموروث من حضارتهم التليدة المتعاقبة ، والموصولة الحلقات ، بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ وانتهت قبيل الإسلام بفترة لا تزيد عن خمسين ومائة من السنين ، وكان من ذلك الحضارات المعينية والسبئية والعادية والثمودية والنبطية ، والتي ازدهرت في شمال الحجاز وجنوب الشام أربعة قرون . ولا نستطيع ان نستنكر ما كان لعرب الجاهلية من خط موروث في حضارات أصيلة سامقة وما كان لهم من سهم موفور في الاتصال بالحضارات المنتشرة لعهدهم ، أن يحيوا ، على تفاوت بيئاتهم ، حياة حضارية ، من ألوانها معرفتهم بالكتابة والتدوين ، ولا ننسي أن المنقبين عثروا على نقوش عربية نبطية كثيرة منها التى أرخت ٢٠٦ م في منطقة سلع ، والثاني تاريخه ٢٣٠ م عثر عليه في وادي فران بسيناء ، والثالث تاريخه ٢٥٣ م عثر عليه في طور سيناء .... والرابع تاريخه ٢٦٧ م تم اكتشافه في مدائن صالح ، والخامس تاريخه ٢٧٠ م تم العثور عليه في بلدة أم الجمال بحوران .

وقد عثر على نقش تاريخه ٣٢٨ م ، وهو خاص بمدفن امريء القيس ، ولهذا الشأن قيمه كبيرة في بحث تاريخ الكتابة العربية ذلك أن جميع كلماته تشبه صورة الخط العربي الإسلامي ، وهذا النقش عربي في لغته وخطه ، وهو في مرحلة تاريخية تظهر الخط العربي في القرن الثالث والرابع الميلادي .

في القرن السادس الميلادي تم اكتشاف نقشان أولهما في خربة زبد بالقرب من نهر الفرات وتاريخه ٥١١ م ، وعليه ثلاث كتابات يونانية وسريانية وعربية ، وخطه قريب الشبة بالخط الكوفي الإسلامي ، وثانيهما نقش تاريخه ٥٦٨ م عليه كتابتان باليونانية والعربية ، وقد وجد منقوشا في كنيسة في حران بمنطقة جبل الدروز . (١)

ولاشك أن منطقة الجزيرة ما زالت تضني بكنوز في بطنها ستجلوها جهود الباحثين والمنقبين في المستقبل .

---

(١) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . ط ٥ دار المعارف القاهرة ص ٢٥

حرص عرب الجاهلية على تدوين الفكر والمعرفة :

إن الكثرة من الصحابة ، إنما نشأوا وتم تكونهم الثقافي الفكري في الجاهلية ، ولقد كان عبد الله بن عمرو قارئا للكتب القديمة ويكتب السريانية والعربية . وتذكر كتب الطبقات من الصحابة عشرات بعد عشرات كلهم كاتب وضابط لما يكتب .. وكثيرا من هؤلاء الصحابة الكاتبين ازدادوا اهتماما بالكتابة في الإسلام ــ لأن الرسول الكريم حض المسلمين على التعلم وأمرهم بتعلم الكتابة . وعناية المسلمين والصحابة فى صدر الإسلام بالكتابة .. أمور فى غنى عن الإفاضة للاستشهاد بها . صحيح أن القرآن الكريم قد وصف العرب فى جاهليتهم بأنهم أميون ، وورد ذلك فى ثلاث آيات قال تعالى : **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم** (آل عمران :٢٠)، وقال تعالى : **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** (آل عمران :٧٥) وقال تعالى : **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم** (الجمعة :٢) . وهذا الوصف بالأمية لا يعنى عند الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع اللغوي الأردني ورئيس مجمع بحوث الحضارة العربية الإسلامية الملكي الأسبق .. الأمية الكتابية والعلمية وإنما يعني الأمية الدينية .. أي أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني . ومن هنا كانوا أميين دينيا ، ولم يكونوا مثل "أهل الكتاب" من اليهود والنصارى الذين كانوا لهم التوراة والإنجيل . (١)

إن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة العربية فى الجاهلية لمدة ثلاث قرون ، وقد ثبت ذلك بالبرهان القاطع والدليل المادى الملموس ، وعرفوا أمر النحو والعروض وعيوب القافية ، بحيث استطاعوا تمييز الصحيح من الخطأ ، وما أصبح بعد ذلك أساسا لعلمى النحو والعروض ، وخير الأدلة اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر . وكان أنيس أحد شعراء الجاهلية القائلين : والله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد .. ولابد لمن عرف الكتابة فى الجاهلية أن يكون قد أخذها عن معلمين انقطعوا إلى التعليم في أماكن خاصة أعدت لتلقى المعرفة .. وجود المعلمين فى الجاهلية أثبتته بعض المصادر العربية ومنهم عمرو بن زراره ، وغيلان بن سلمة بن معتب ، ويوسف بن الحكم الثقفى ، وشهرة قبيلة ثقيف بالطائف بالكتابة واتقانها فى الجاهلية دعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يجعل كتبة المصحف من قريش وثقيف ، ودعت عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يقول / اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف . (٢)

وكانت للعلم مجالس تعقد وتتدارس فيها الأخبار والأشعار والأنساب . قال ابن عباس رضي الله عنه : كانت قريش تألف منزل أبى بكر رضي الله تعالى عنه لخصلتين العلم والطعام . فلما أسلم أسلم عامة من كان يجالسه . وكان فى الجاهلية من يقوم بتعليم الأخبار وقصص التاريخ وقد عرفنا ذلك من القرآن الكريم قال تعالى : "**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا**"

(١) المرجع السابق ص ٤٥ (٢) المرجع السابق ص ٥٠

(٣) سورة الفرقان ٥

اذن كان فى الجاهلية معلمون يعلمون القراءة والكتابة وضروب العلم كأخبار الأولين وقصص التاريخ ، وقامت فى مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار وغيرها مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية . (١)

الكتابة مع بداية ظهور الإسلام :

ذكرت المصادر العربية الكثير عن شيوع الكتابة فى بداية ظهور الإسلام ، وقد أورد الجهشيارى فى كتابه الوزراء والكتاب ، وابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد والمسعودي فى كتاب التنبيه والإشراف ، أسماء الذين كتبوا لرسول الله ﷺ ، وجعلوهم درجات ومراتب ومنازل . فكتاب يكتبون بين يديه ﷺ وآخرون يكتبون بين الناس العقود والمعاملات والمداينات ، وآخرون يكتبون أموال الصدقات ، وكاتب يكتب عن تقدير النخل والرطب ، وآخر يكتب مغانم الرسول ﷺ ، وثالث يكتب للملوك ويرد على رسائلهم ويترجم بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وكتاب آخرون يكتبون الوحي . ويذكر المسعودي أن من ذكرهم من الكتاب هم من ثبت كتابته وطالت مدته وصحت الرواية عنه .. وهكذا نرى أن الكتبة من كثرتهم أصبحوا متخصصين فى أنواع ما يكتبون ، يستقل كل فرد أو كل جماعة منهم بضرب واحد من الكتابة . ولا ننسى أن فداء الأسير أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكتب للأفراد والقبائل يؤمنهم ، دلالة على أنهم يعرفون القراءة . (٢)

وكانت الكتابة فى الجاهلية ومع ظهور الإسلام من مظاهر المكانة فى القبيلة مثل الشجاعة والسباحة وإقراض الشعر .. بل كانوا يعتبرونها شرطا للتوجه إلى الاكتمال ، والبعض تجاوز إلى تعلم أكثر من لغة مكتوبة ، فقد اضطرتهم الأحوال التجارية والفكرية الثقافية إلى تعلم الفارسية .. وهكذا نجد لقيط بن يعمر الإيادي كاتبا بالعربية ويحسن الفارسية ومترجما فى ديوان كسرى . وكان ورقة بن نوفل يكتب بالعبرانية بجانب العربية ، وعبد الله بن عمرو بن العاص أجاد العربية والسريانية ، وزيد بن ثابت تعلم فى عهد الرسالة المحمدية الكتابات السريانية والفارسية والرومية والقبطية والعبرانية من أهل هذه الألسن بالمدينة . (٣)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ . تحقيق مصطفي السقا وآخرين . طبعة الحلبي ١٩٣٦ ص ٤٨

(٢) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي . ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٥٤ ــ ٥٥

وكان بعض اليهود فى المدينة يعرف الكتابة العربية ، وكان فى مصر من يكتب العربية كذلك ، كما كان فى بلاط كسرى كتاب ومترجمون يكتبون العربية ويترجمون منها إلى غيرها من اللغات ، ومن تلك اللغات العربية . ولم يكن الرجال وحدهم فى هذا المجال ، وإنما كان بعض النساء كذلك يكتبن ومنهن : الشفاء بنت عبد الله العدوية وهى التى علمت السيدة حفصة بنت عمر زوج رسول الله ﷺ الكتابة والقراءة .. (١)

وحسبنا أن نقتصر على ذكر الآيات القرآنية التى تضمنت الإشارة إلى معرفة الجاهلية الكتابة العربية معرفة واسعة عميقة ، أما الآية الأولى فهى من سورة الفرقان : **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا** . **والآية الثانية** تبين أن عرب الجاهلية كانوا يطالبون الرسول بآيات ومعجزات تعرفهم بنبوته ومنها أن ينزل عليهم كتابا من السماء يقرءونه قال تعالى : **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء .. ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه .. قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا.** (٢)

وفى **الآية الثالثة** إشارة إلى أن هؤلاء العرب مكابرون ، وسيشكون فى هذا الكتاب ولو نزل عليهم فى صورة مادية ملموسة ، قال تعالى فى سورة الأنعام الآية ٧ .

ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين . نخلص من هذا إلى أن الكتابة العربية بين عرب الجاهلية كانت شائعة بين نسبة منهم ولا نقصد الكثرة الغالبة ، وأن عدد الكاتبين كان طيبا وليس بالقليل ، وأن عدد الأميين كان كبيرا ، وتحديد النسبة إحصائيا أمر صعب للغاية لا سبيل للوصول إليه . (٣)

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦
(٢) سورة الإسراء من ٩٠ - ٩٣
(٣) المرجع السابق ص ٥٩

موضوعات الكتابة عند عرب الجاهلية :

كانت موضوعات الكتابة متنوعة ، فقد كانوا يكتبون كثيرا من شؤون حياتهم وأول هذه الموضوعات التى دونت هى :

١. **الكتب الدينية** : كانت كتب أهل الكتاب اليهود والنصارى مدونة بين أيديهم ويتلونها ، وأنها لم تكن قليلة أو موقوفة على الأحبار والرهبان وحدهم . وإنما كانت متداولة بين أهل الديانتين ، حتى أن المسلمين بعد فتح خيبر وجدوا صحائف من التوراة جمعوها ثم ردوها إلى اليهود . ولعلنا نذكر أن ورقة بن نوفل كان يكتب العبرانية "الآرامية" من الإنجيل ما شاء أن يكتب . مما يشير إلى أن التوراة والإنجيل كانا مكتوبين بالعبرية أو السريانية وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة ، وكانا يكتبان بالعربية أيضا ، وبالتالي قراءتهما بالعربية حيث تهودت وتنصرت قبائل عربية كثيرة .. وكان هؤلاء العرب يقرأون كتبهم بالعربية بعد ترجمتها ، وهذا أقرب إلى المنطق ويتفق مع شواهد الروايات . (١)

ففى حديث سويد بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ : لعل الذى معك مثل الذى معى ! فقال : وما الذى معك ؟ قال سويد : مجلة لقمان - يريد كتابا فيه حكمة لقمان ، فقال رسول الله ﷺ: أعرضها على ، فعرضها عليه فقال له : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى هو هدى ونور.

وقال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها فقال : أ متهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟
وقال عمرو بن ميمون الأودي : كنا جلوسا بالكوفة فجاء رجل ومعه كتاب ، فقلنا : ما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب دانيال ، وقالوا أ كتاب سوى القرآن !

يفهم من هذه الأخبار والأحاديث أنه هذه الكتب كانت مكتوبة بالعربية وأن القوم آنذاك كانوا يكتبونها بالعربية وغير العربية . (٢)

---

(١) المقريزي : أمتاع الإسماع ... تصحيح محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر القاهرة ١٩٤١ ص ٣١

وأيضا أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . دار الكتب بولاق . جـ ٩ ص ٨٩

(٢) البغدادي : تقييد العلم . تحقيق يوسف العش . دمشق ١٩٤٩ ص ص ٥١ ــ ٥٣

٢. كتب العهود والمواثيق والأحلاف :

التى يرتبط بها العرب فيما بينهم افرادا وجماعات .. وقد ورد ذكر هذه العهود فى الشعر الجاهلى ، قال الحارث بن حلزة اليشكرى فى شأن قبائل بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ينقضي ما فى المهارق الأهواء

ولا يقال للكتب مهارق إلا إذا كانت كتب دينية أو عهود ميثاق وأمان .
ويقول الأعشى :
ربى كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق أنشدا

وربه هذا إنما يعنى به سيدا كريما يتفضل عليه ، والمهارق تعنى الكتب الدينية والبيت يعنى أن هذا الكريم لا ينقض عهده وإنما يفي بما عاهد عليه .

ومن أشهر العهود والمواثيق : صحيفة قريش التى تعاقدوا فيها "على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا كذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة .

ومن أشهر العهود والمواثيق بين الأفراد ما ذكره عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا فى أن يحفظنى فى صاغيتى (جماعته) بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة . (١)

٣. كتابة الصكوك وحساب التجارة :

كان عرب الجاهلية يكتبون حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم وكان كثيرا من القوم آنذاك تجارا ، فكان من الطبيعي أن يكثر عندهم الكتابة لحفظ الحقوق ، وكانت النساء التاجرات يلجأن إلى هذه الوسيلة شأنهن شأن الرجال ، وقد حفظ لنا الشعر الجاهلي هذا الضرب من الصحف المكتوبة .. يقول علباء بن أرقم بن عوف:

أخذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أو ظلم

وثمة نوع من الصكوك يسجل فيها الأمير ما يقطعه للآخرين من الأرض وليس الإصر لكي يدفع إلى الناس بما أقطعهم إياه (٢)

---

(١) الجاحظ : الحيوان ... تحقيق عبد السلام هارون ١٩٣٨ ص ص ٦٩ ــ ٧٠

(٢) البطليوسي : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب . بيروت ١٩٠١ ص ٩٣

٤. كتابة الرسائل :

من يقرأ أخبار الجاهلية فى كتب الأدب والتاريخ يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك ، ويلمس أن كتابة الرسائل فى الجاهلية أمر مألوف وشائع . ومن أشهر الرسائل الرسالة التي كتبها حنظلة بن أبى سفيان إلى أبيه يخبره بقيام محمد بن عبد الله يدعو إلى الله ، ورسالة حاطب بن أبى بلتعه يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ، وكانت الرسالة إلى ثلاثة : صفوان بن أمية ، وسهل بن عمرو ، وعكرمه ابن أبى جهل يقول فيها : إن رسول الله ﷺ قد أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم . وقد أحببت أن يكون لى عندكم يد بكتابى إليكم . (١)

وكانوا يكتبون الرسائل يطلبون فيها العون والنصرة مثل كتاب السموءل إلى الحارث بن شمر الغسانى يوصى بامرئ القيس لعله يمده بما يحقق له أمله . وكان المسافرون يكتبون إلى أهلهم بما يعرض لهم من أمور ، فهذه أم سلمة لما قدمت المدينة وذلك قبل زواجها برسول الله صلى الله عليه وسلم . أخبرتهم أنها بنت أبى أمية بن المغيرة فكذبوها وقالوا : ما أكذب الغرائب ! حتى أنشأ ناس منهم للحج ، فقالوا : أتكتبين إلى أهلك ؟ فكتبت معهم ، فرجعوا إلى المدينة فصدقوها .. وقد ذكر ذلك فى الطبقات لابن سعد الجزء الثامن . (٢)

وكان عرب الجاهلية يبدأون الكتابة بعبارة "باسمك اللهم" ويقال أن أمية ابن أبى الصلت هو الذى علم أهل مكة ذلك ، فكانت قريش تكتب فى جاهليتها باسمك اللهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم نزلت سورة هود ومنها "بسم الله مجراها ومرساها" فأمر النبي ﷺ بأن يكتب فى صدر كتبه "بسم الله" ثم نزلت سورة بنى إسرائيل "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسني" فكتب بسم الله الرحمن ، ثم نزلت فى سورة النمل "أنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم" فجعل ذلك فى صدر الكطتب إلى الساعة ، وقد ذكر هذه التفاصيل أبو بكر الصولى فى كتابه أدب الكتاب .

---

(١) المقريزي : امتاع الأسماع . تصحيح محمود شاكر . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ ص ٣٦٢

(٢) الأصفهاني : الأغاني جـ ٩ ص ٩٩

٥- الكتابة والنقش فى الخاتم وعلى سطح الحجر :
والمقصود هنا هو خاتم ختم الرسائل ، وقد ورد ذكر فى الشعر الجاهلي من ذلك قول امرئ القيس :

ترى أثر القزح في جلده كنقش الخواتم فى الجرجس

والجرجس إما الطين وإما الصحيفة نفسها . ويقال أن أول من ختم الرسائل وطبعها عمرو بن هند ، وقد كان لرسول الله ﷺ خاتم من فضة نقش عليه محمد رسول الله فى ثلاثة أسطر ، وبقى هذا الختم فى يد رسول الله ﷺ حتى وافته المنية ، وفى يد أبى بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ، ثم صار إلى عثمان فظل معه ست سنين ، ولما كثرت عليه الكتب دفعه إلى رجل من الأنصار ليختم به ، وبعدها سقط فى بئر ضحلة الماء ، فلما التمسوه لم يجدوه ، فاغتم عثمان بعدها . واتخذ خاتما آخر من فضة أيضا ونقش فيه مرة أخرى محمد رسول الله ، وقد استأثر الختم على المكاتبات والرسائل بمكانة كبيرة فى عهد الخلفاء الراشدين ، لا تقل أهمية عما هو مدون فى الكتاب نفسه ، حتى قيل أن عمر بن الخطاب قد أوصى به ، ويأتي معاوية بعد ذلك ليؤكد هذه المكانة بإنشائه لديوان الخاتم .

وقد دلت النقوش التى يرجع تاريخها إلى ما قبل الإسلام على أن العرب قد كتبوا شواهد القبور بحروف نبطية متأخرة ، وتنقسم تلك الكتابات حسب الأماكن الموجودة بها إلى خمس أقسام :

١- كتابات وجدت فى العاصمة بترا عاصمة النبط .
٢- كتابات وجدت فى البلاد المجاورة للحجاز كالعلا والحجر .
٣- كتابات وجدت فى بلاد حوران السورية .
٤- كتابات وجدت فى أودية سيناء .
٥- كتابات وجدت فى الممرات التجارية على ألواح حجرية منقوشة .

ومن أقدم الكتابات النبطية نقش النمارة فى شرق حوران ويرجع إلى سنة ٢٣٨م ولقد أرخ به لقبر امرئ القيس من ملوك الحيرة . (١)

والواقع أنه لم توجد حتى الآن محاولات جادة لجمع المادة العلمية المتعلقة بتاريخ الكتابة العربية فى حدود البحث الأكاديمى المتفق عليه بين العلماء . ويمكن إرجاع فشل المحاولات فى جمع مادة الكتابة العربية القديمة لعدم إمكان تصنيف الموضوعات المتصلة بهذه الدراسات وقلة الدراسات المقارنة . كما أن اللغة العربية القديمة ولهجتها يصعب فهمها على المستشرقين .

إلا أن هناك محاولات فى بداية الطريق لبعض علماء المسلمين فى مصر والسعودية وتركيا لمواصلة الطريق لجمع أكبر كمية من المادة العلمية المتعلقة بهذه البحوث من الحفائر ومتروكات الأقدمين التى تم التوصل إليها .

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام . مطبوعات المجمع العلمي العراقي ... ص ١٩٥ وما بعدها

تدوين الشعر الجاهلي بالكتابة العربية :

كان عرب الجاهلية يقيدون سائر أمورهم بالكتابة ، رسائلهم وعهودهم وصكوك حسابهم ودواوين الشعراء منهم ، فالشعر في قمة الأمجاد والمفاخر والمآثر فقد جعله الله للعرب مستودعا ولآدابها حافظا ولأنسابها مقيدا ولأخبارها ديوانا لا يبيد على مر الزمان كما يقول ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن ... وكان العرب في الجاهلية يعظمون قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم ، يقول أستاذنا الدكتور ناصر الأسد : الحديث عن تقييد بعض الشعر لا كله ، ويقصد بالتقييد مجرد الإثبات بالكتابة لأبيات أو قصائد متفرقة من الشعر ، وحسبنا أن نشير إلى أسماء شعراء الجاهلية ممن كانوا يكتبون ، فمنهم عدي ابن زيد العبادي الذي أرسله أبوه إلى الكتاب حتى إذا حذق الخط العربي أرسله إلى كتاب الفارسية فصار من أفصح الناس واكتبهم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل إلى بلاط فارس فأصبح كاتبا بالعربية ومترجما في ديوان كسري . كما أن لقيط بن يعمر الإيادي وهو الذي أرسل إلى قومه ينذرهم بعزم كسري على قتالهم وصحيفته في ذلك مشهورة ابتدأها بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من إياد

وختمها بقوله :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأي رأيه منكم ومن سمعا

وهي قصيدة تزيد على الخمسين بيتا ... (١)

أما المرقش وأخذه حرملة من الشعراء الذين تعلموا الخط والكتابة في مدارس الحيرة وكان أبوهما سعد بن مالك . قد وصفهما عند رجل من أهل الحيرة ، فعلمهما الخط والكتابة

ومن شعراء المدينة الذين كانوا يكتبون : سويد ابن صامت الأوسي وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الأنصاري ، والأخير كتب شعرا في يوم أحد ... كما أن الربيع بن زياد العبسي كان سجين الكتابة وأيضا الزبرقان بن بدر والنابغة الذبياني الذي كتب قصائد أرسلها إلى النعمان يعتذر ويحلف أنه ما فرط منه ذنب (٢)

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ص ص ١٠١ ــ ١٠٢
(٢) ابن سعد : الطبقات جـ٣ ص ٧٩

أما كعب بن زهير ابن أبي سلمي وأخوه بجير . وقد كتب الأول إلى أخوه يلومه على دخول الإسلام ورد بجير ينذره ... ومن الشعراء الكتاب لبيد بن ربيعه العامرى وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه يطلب منه أن يكتب ما قاله في الإسلام من الشعراء فانطلق لبيد إلى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتي بها فقال : أبدلني إليه هذه في الإسلام مكان الشعر . (١)

ولا ننسي أن أميه ابن أبي الصلت كان يؤمن بالبعث في الجاهلية ويقرأ الكتب الدينية . أما مسروق بن عبد الرحمن وشريح بن الحارث الكندي فهما من الشعراء الذين ولدوا في الجاهلية ، وعمروا في الإسلام إلى زين عبد الملك بن مروان .

ومن الأمور الجديرة بالذكر ، أن كثيرا من شعراء الجاهلية . كان يدع القصيدة عنده زمنا يصل إلى العام أو أكثر يردد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلب فيها الرأي لإحكام الصنعة والألفاظ ، وما يروي عن زهير أنه عمل سبع قصائد في سبع سنين فكانت تسمي حوليات زهير لأنه كان يحوك القصيدة في سنة .

وكذلك كان أمرؤ القيس ممن يترددون في نظم القصائد وينقحها ، حيث أنه من الفئة التى كانت تري الشعر عملا عقليا تحسه بالعاطفة وتنظمه وترصعه كما ترصع مجارة الفسيفساء ...وهنا يتبادر التساؤل ... كيف يستطيع الشاعر أن تمكث عند القصيدة عاما يردد ويجيل ويقلب في ألفاظها ... كيف يستطيع هؤلاء الشعراء أن يقوموا بهذا العمل العقلي الذي يستغرق القرون دون أن يكون الشعر مفيدا أو مكتوبا أمامهم على صحيفة يرجعون إليها بين وقت وآخر ... يزيدون وينقصون ويستبدلون لفظة بأخرى وقافية بقافيه . هل يصح أن نذهب أن هؤلاء الشعراء كانوا يقوموا بهذه العمليات المعقدة بالفطرة والشعر معلق في ذاكرتهم . **الأرجح أنهم يملكون صحف الكتابة المقيدة .**

وإذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وما أكثره نجده حافلا بذكر الكتابة وصورها والإشارة إلى أدواتهاالجلد وكانوا يسمونه الرمة والأديم والقماش والحرير والقطن والمهارق زسعف النخيل والكرانيف والعظام والحجارة والورق في أواخر القرن الثاني للهجرة وذكر هذه الأدواتِ في الشعر الجاهلي (٢) ... مما يدل على أن هؤلاء الشعراء كانوا على علم وإتقان لأنواع الكتابة وهذا ذؤيب الهذلي يصف في أبيات كتابه بأنها دقيقة يتأنق كاتبها حتى يجعلها مزخرفة مزينة كالعروس ليلة الزفاف فيقول :

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر . مطبعة عيسي الحلبي ١٣٦٤ هـ جـ١ ص ٩١

(٢) عبد الفتاح غنيمة : صناعة الكتاب المخطوط عند المسلمين . الإسكندرية ١٩٩٤ ص ١٩٩ وما بعدها .

عرفت الديار كرمتم الدواة يزبرها الكاتب الحميري
برقم ووشي كما زخرفت بميشمها المزدهاة الهدي
أدان وأنباه الأولون أن المدان الملي الوفي
فنمنم في صحف كالرباط فيهن إرث كتاب محي

ولعقل بن خويلد أبيات تشتمل على ذكر الكتابة وتدل على إلمامه بالقراءة والكتابة

وأني كما قال مملي الكتاب في الرق إذا خطه الكاتب
يري الشاهد الحاضر المطمئن من الأمر ما لا يري الغائب

وقد لاحظ أستاذنا الدكتور ناصر الدين الأسد أن الرسائل الشعرية كانت شيئا مألوفا في العصور الإسلامية وأن كل الأدلة ترجح أن الشعر الجاهلي كان يقيد في صحف متفرقة لأغراض شتي . (١)

١. النقوش الحجرية خير الأدلة الملموسة على أن عرب الجاهلية عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي وكتبوا بهذا الخط العربي قبل الإسلام بثلاثة قرون على الأقل .

٢. وفرة النصوص والروايات المؤكدة للنشاط التعليمي والكتابة في الجاهلية في مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبا ر .

٣. وصف أدوات الكتابة وأوصاف الخط الجاهلي بصورته الساذجة ونقش الخواتم وشواهد القبور.

ومنذ مطلع القرن الأول الهجري حتى نهايته فيما تتبعه أستاذنا الدكتور ناصر الدين الأسد كانت صحف الكتابة كثيرة ، موجودة في الأسواق ، زهيدة في الأثمان . وبذلك وجدت الكتب والمدونات ، وكان عدد القارئين كثيرا . ولم تكن هذه الكتب والمدونات خاصة بالأفراد أو مقصورة على الاستعمال الشخصي . بل كانت تعرض في مكتبات عامة وكانت تباع في الأسواق لمن أراد أن يشتريها أو يقتنيها ، فقد ذكروا أن همام بن منبه كان يشتري الكتب لأخيه وهب ابن منبه (ت ٦١ هـ) وكان وهب هذا مشهورا بسعة إطلاعه وكثرة الكتب التى قرأها ... ويستدل أستاذنا بالألفاظ التى كانت تطلق على مجموعة الصحف المدونة . حيث أن استخدام هذه الألفاظ يدل على المعرفة بالتدوين ومنها الدفتر والدفاتر والكراسة والكتاب ، والمصحف ، والسفر ، والزبور ، والتوراة ، والإنجيل . (٢)

(١) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٦٣
(٢) المرجع السابق ص ص ٦٣ – ٦٤

الكتابة في الحضارة الإسلامية :

إذا انتقلنا إلى فجر الحضارة العربية نتلمس تاريخ الكتابة وجدنا المعلقات في الجاهلية أقدم صور الكتاب في التاريخ العربي • والمعلقات كما هو معروف في تاريخ الأدب العربي هي أروع القصائد للشعراء في الجاهلية • وأنهم كانوا يعلقونها على الكعبة تعظيما وتشريفا لتلك القصائد • ومهما شك النقاد والمؤرخون في إجراءات تعليق القصائد أو شكوا في كثير من الشعر الجاهلي برمته ، فإن شكهم لا ينفي ازدهار الشعر في الجاهلية ، ولا ينفي أن العرب كانوا يعلقون في أستار الكعبة أو في جوفها ما يكبرون أمره • (١)

ويروي بعض مؤرخي الشعر الجاهلي أن ملوك الغساسنة المتأخرين كانوا يحتفظون في خزائنهم بديوان يضم القصائد التي مدح بها الشعراء أجدادهم من الملوك • ولكن هذا الديوان لم يصل إلى المتأخرين منسوخا أو مكتوباً ، ،إنما ظل النقل الشفاهي للقصائد المتفرقة حتى عصر التدوين في الدولة الإسلامية • (٢)

والصحيفة المكتوبة في العهد المكي للنبوة هي صحيفة المقاطعة التي تعهدت فيها قريش بمقاطعة بني عبد المطلب بحيث لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، وذلك بغية إجبار أبي طالب زعيم العشيرة • وعم الرسول صلي الله عليه وسلم على تسليمه محمدا أو القضاء على الإسلام • وقد علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم ، وتشددوا في المقاطعة • وقد لقي أبو طالب ومعه بنو هاشم (عدا أبو لهب) وبنو عبد المطلب عنتا شديد من الحصار الذي بلغ حد التجويع ، حتى نقض بعض أصحاب الصحيفة شروطها الجائرة • ومزقها مصعب بن عدي • ذلك الرجل الذي أجار رسول الله ﷺ عقب عودته من ثقيف بالطائف • أما الصحيفة المكتوبة في العهد المدني فهي أول وثيقة في تاريخ الأمة الإسلامية عقب الهجرة مباشرة • وفيها بيان الحقوق والواجبات للمسلمين من مهاجرين وأنصار ، ولمشركي المدينة ، ولليهود • وهذه الوثيقة التي أوردها ابن هشام في كتابة المشهود عن سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم • ولم يذكر النص المكتوب الذي نقل منه • ولكن المشهور أنه كتب السيرة عن ابن اسحق بطريقة المشافهة •

---

(١) ابن النديم : الفهرست المكتبة التجارية مصر. ص ٢٢٣
(٢) البغدادي : تقييد العلم . تحقيق يوسف العش دمشق ١٩٤٩ ص ٥٥ وما بعد ها

وتروي لنا كتب السيرة أن صلح الحديبية كان مكتوبا ٠ كذلك تروي لنا كتب الحديث جوانب عما جمع من بعض أحاديث الرسول ﷺ٠ فقد روي نافع عن ابن عمر أنه وجد في قائم سيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة فيها صدقة السوائم ٠ وروي محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ في الصدقات ، وكتاب عمر بن الخطاب ، ووجد عند آل عمر كتاب عمر في الصدقات مثل كتاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ٠ قال فنسخناه له ٠ وروي محمد بن على ابن أبي طالب رضي الله عنهما قال أرسلني أبي ، وقال : خذ هذا الكتاب فاذهب به إلى عثمان ، فإن فيه أمر النبي صلي الله عليه وسلم بالصدقة، أما أشهر الكتب أو الصحف التي عرفتها العربية ، غير القرآن الكريم، فهو صحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرة بن العاص (٥٧هـ - ٦٥ هـ) ٠ (١)

والصادقة تحتوي أحاديث عن الرسول ﷺ٠ وفي تاريخ الإسلام مشكلة تتعلق بتدوين الحديث ٠ ذلك أن النبي والخلفاء الراشدين من بعده صرفوا جهدهم الأول في العناية والتدوين والمحافظة على القرآن الكريم ٠ ولم يسمحوا لنص آخر يختلط به أو يواجهه أو يصرف الناس عنه ٠ غير أن المشكلة التي تواجه الباحثين في تدوين الحديث هي أنه في عصر النبوة ن ثم في عصر الخلفاء الراشدين ، لم يكن النبي قاطعا عن تدوين الحديث ، ولكن بصفة عامة كان الانصراف إلى حفظ القرآن ٠ ومن الحالات النادرة التي دون فيها بعض الحديث حالة الصادقة ٠ فقد سمح الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما بكتابة الحديث ٠ لأنه كان كاتبا محسنا ، واشتهرت صحيفته بالصحفية الصادقة كما أراد كاتبها أن يسميها ٠ ولم تصلنا الصادقة كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطه ، وإنما نقل الإمام أحمد محتواها في مسنده ٠ وضمت كتاب السنن جانبا منها ٠ ومن ثم فإن انتقالها من التدوين إلى المشافهة ثم إلى التدوين يجعل ما نقل منها يخضع لدراسة علماء الحديث ٠ ومما نستشفه عن عبد الله بن عمرو أنه كان باحثا بالمعني القريب من البحث العلمي في عصرنا هذا ٠ أو كان مهتما بالكتابة على وجه من الوجوه ٠

فيروي أنه كان يملي الحديث على تلاميذ في مصر ٠ وأنه عقب معركة اليرموك حصل على كتب كثيرة مما كان في حوزة أهل الكتاب حملها على بعيرين . (٢)

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية جـ٢ ص ٢٢٦

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ... جـ ١ ص ٢٢٣

وإذا كانت الصحيفة الصادقة لم تصلنا بخط كاتبها ، فإن صحيفة أخرى وصلتنا مكتوبة هي الصحيفة لهمام بن منبه (٤٠ – ١٣١ هـ) ٠ وهمام ليس صحابيا ولكنه تابع ، أي أدرك بعض الصحابة ٠ ولقد لقي همام الصحابي الجليل أبا هريرة وكتب عنه كثيرا من الأحاديث التي رواها عن النبي ، وجمعها في صحيفة أطلق عليها الصحيحة على مثال الصادقة ، ولقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين في دمشق وبرلين ٠ وكان الإمام أحمد قد نقلها بتمامها في مسنده ٠(١)

وإلى جانب تلك الجهود المتفرقة في تدوين الحديث كانت تظهر جهود أخري في التأليف المبكر ، تتمثل فيما ترجم لخالد بن يزيد بن معاوية من علوم اليونان ، وما ألف هو من كتب الطب والكيمياء ،وما ألفه عبيد الله بن شرية لمعاوية بن أبي سفيان من أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وقد طبع هذا الكتاب في " حيدر أباد " سنة ١٣٤٧هـ ٠ ويرجع بعض المحققين نسبتها لابن هشام ٠ ثم ما ألفه وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠هـ من كتاب التيجان في ملوك حمير، وقد طبع هذا الكتاب من رواية ابن هشام سنة ١٣٤٧هـ مع سابقه ٠ كما ذكر بعض الباحثين أن زياد بن أبيه وضع لابنه كتابا في مثالب العرب ، وأن يونس بن سليمان وضع كتابا في الأغاني ونسبتها إلى المغنيين ، وأن " ماسرجويه " الطبيب ترجم كتاب " أهرن بن أعين " من السريانية إلى العربية ٠ (٢)

ولا نكاد نصل إلى عهد عمر بن الخطاب حتى نجد الكتابة والتدوين وقد أصبحت جزءا أساسيا من أعمال الدولة ٠ فقد فتحت البلاد وأبرمت العهود والمواثيق بين المسلمين وغيرهم ممن دخلوا في طاعتهم دون حرب ، وكثرت المراسلات بين الخليفة والولاة في حالات السلم والحرب على السواء ٠ ودونت الدواوين ، ووجدت نظم وسجلات تدون فيها الأسماء والأرزاق التي تجري على المسلمين ٠ وكان الفتح الإسلامي لمصر فتحا في تاريخ الكتابة والكتب ، فقد أتيح للعرب أن يتعرفوا على مادتين جديدتين صالحتين للكتابة وهما البردي والكتان " القباطي " ، وهما أيسر من العسب والكرانيف من النخيل في الكتبة ، كما أنهما أفضل من أكتاف وأضلاع الإبل والأغنام وأخف من الخف وهي الحجارة البيض الرقيقة ، وأرخص من الرق والجلود ، وأوفر من المهارق الحريرية ، ولقد ظل البردي يتصدر مواد الكتابة ، طوال عصر بن أمية وخلال الفترة الأولي من عصر بني العباس لأنه كان في متناول عامة الناس ، وبلغ من كثرته وانتشاره أن وجد له درب يعرف بدرب القراطيس ببغداد، ذكره الطبري في كتابه المحاسن والأضداد ٠ (٣)

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٤

(٢) ابن النديم : الفهرست . ص ٣٥٤

(٣) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ٢٠٤

وفـي العصـر العباسـي يظهـر الـورق كمنـافس جديـد للبـردي فاسـتعملوه فـي الكتابة والتدوين بعد أن صنعوه بأيديهم وعلى أرضهم في زمن الرشيد ، إثر انتصار الجيوش الإسلامية بقيادة زياد بن صالح عام ١٣٣هـ (٧٥١م) ، فقد عاد المسلمون إلى سمرقند ومعهم الأسري الصينيون ممن يعرفون صناعة الورق ٠ ثم لم تلبث أن انتقلت من بغداد إلى الكوفة والبصرة ، وإلى أنحاء العالم العربي كله ، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار ، وبظهور صناعة الورق في المشرق والمغرب العربي ، يدخل المخطوط أو الكتاب العربي إلى آفاق جديدة ، وإلى أهم مرحلة من مراحل نموه وتطوره ، وهي مرحلة خصبة تمتاز بكثرة الإنتاج ووفرته وسهولة تداوله بين القارئين ٠ (١)

كما كان للعرب فضل الحفاظ على تراث الإنسانية، وما أنتجته قرائح اليونان في الفلسفة والهندسة والعلوم، وكانت اللغة العربية هي الوعاء الذي انتقلت فيه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية والصينية والمصرية القديمة إلى أمم الغرب في العصور الوسطي ٠ وكان للأمة العربية الفضل في إدخال صناعة الورق إلى أوروبا من طليطلة بالأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي ٠ كما أن حركة تأليف الكتب عند العرب بدأت في القرن الثاني الهجري ولم تلبث أن ازدهرت ازدهارا رائعا مع أوائل القرن الثالث ، وكنتيجة طبيعية تظهر أول مكتبة ضخمة في تاريخ العرب وهي التي يطلق عليها بيت أو خزانة الحكمة ، والتي تنسب إلى الرشيد والمأمون ، والأخير جلب إليها الكتب من كل حدب وصوب ، وأمر العلماء بتعريبها ، وجعل سهل بن هارون أمينا لها ٠ ولم تكن خزانة الحكمة هذه مجرد مخزن للكتب ، وإنما كانت مركزا للثقافة بأوسع معانيها ، فقد كانت منتدى للعلماء وقاعة للباحثين والدارسين ، ومركزا للترجمة والنسخ والنشر ، حتى كثرت الكتب والمصنفات لدرجة تلفت النظر ويصعب إحصاؤها ، خاصة وان بعض هذه المصنفات كانت مجلدات ضخمة ٠ والواقع أن الكثرة والضخامة لكمية الكتب لم تكن عنصر الإبهار في هذا العصر ، فقد كان يقابلها شغف شديد بالقراءة ، كان يدفع بعجلة التأليف والترجمة ويمدها بأسباب القوة والانطلاق ٠ وحيث قضت الظروف أن تكون الكتب وحدها السبيل إلى تحصيل المعرفة والثقافة والعلم ٠ ونظراً لأهمية موضوع التدوين والمخطوطات العربية ، فقد آثرنا أن نبدأ بسرد قصة الكتابة مع بداية ظهور الإسلام وانتشار الرسالة المحمدية ٠ (٢)

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٣

(٢) أحمد فريد رفاعي : عصر المأمون . المجلد الأول . مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٧ ص ٣٧٧ وما بعدها

ظهور الإسلام وانتشار الثقافة الإسلامية :

ولد محمد بن عبد الله في مكة حوالي سنة ٥٧٠ ميلادية ، ونشأ يتيما فقيرا إذ توفي أبوه عبد الله وهو لا يزال جنينا في بطن أمه ، كفله جده عبد المطلب وأحسن رعايته وتربيته ، حتى بلغ الثامنة ، ثم كفله بعد موته عمه أبو طالب وجعله كأحد بنيه ، وأسبغ عليه من عطفه وحمايته ما كان له أكبر الأثر في حياته ، اشتهر بصدقه وأمانته ، فتزوجته وهو في الخامسة والعشرين السيدة خديجة ، إحدى ثريات قريش ، ونعم بالعيش معها واطمأن إليها ، وظل يذكرها طوال أيام حياته ، وهي أول من آمن به إذ كذبه الناس ، وأول من أغدقت عليه من مالها إذ حرمه الناس ، وفي الأربعين نزل عليه الوحي ، وبدأ يدعو للإسلام ، وخاض صراعا عنيفا انتصر في نهايته وتكونت دولة الإسلام وخضع العرب لأول بشير في تاريخهم استطاع أن يجمعهم تحت راية واحدة ، ويوجههم نحو هدف مشترك ،

محمد في المفهوم الإسلامي هو النبي الذي أرسله الله ليبلغ الناس كافة دينه الحق – دون أنبيائه ورسله جميعا ، وليقضي على الشرك – وليجعل كلمة الله هي العليا ،

(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (البقرة ١٣٦) ،

هذا فيما يتعلق بالإيمان بالرسالات السابقة ، أما فيما يتعلق " بالله " فالإسلام يدعو إلى " إله " واحد " ، **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) (الإخلاص)** ، كذلك هو يدعو إلى مجتمع واحد **(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (سبأ / ٢٨)** ،

محمد إذن بلغ الناس كافة رسالة ربه ، أما من حيث علاقة المسلم بربه ، فالإسلام لا ينطوي على أي مبدأ يجعل أحدا حتى رسول الإسلام ذاته بين الله وعباده ، فعلاقة الإنسان بربه في الإسلام مباشرة وبغير واسطة ، والإنسان منذ مولده حتى وفاته في حضرة الله ، وتحت سمعه وبصره ، إذن فالعقيدة مسألة شخصية والله وحده القادر على الحكم على عباده المؤمنين ، ومن هنا لا يوجد في الإسلام رهبنة ولا قدسيون ولا تقديس ، ولا أحد أيا كان بين المسلم وربه ، (١)

اعتنقت جميع القبائل العربية الدين الجديد وتوحدت لأول مرة في تاريخها الطويل الحافل بمختلف ضروب بطولات الفتح الإسلامي ، وكان من الواجبات الأولى التي حثهم عليها دينهم الجديد ، والجهاد في سبيل الله لنصرة الدين ونشره بكل وسائل الاتصال المعروفة لديهم آنذاك ، وهي التلقين بما حفظته الصدور وبما كتبته أيدي كتاب الإسلام الأوائل ،

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد . ط ١١ دار المعارف القاهرة ١٩٧١ ص ١٢٤ وما بعدها

اجتاحت جحافل المسلمين جزءاً كبيراً من العالم المعروف في ذلك الوقت ، واستطاعت أن تؤسس في أقل من قرن من الزمان أكبر وأقوى دولة عرفتها القرن الوسطى، استولى المسلمون على شاطئ الفرات في سنة ٦٣٣م • وانتصروا على الروم في أجنادين في سنة ٦٣٤م ودخلوا دمشق في سنة ٦٣٥م وحققوا نصر اليرموك الرائع في سنة ٦٣٦م ، وانتصروا على الفرس في القادسية في سنة ٦٣٧م ، وخضعت لهم سوريا في سنة ٦٣٨م وجميع فارس في سنة ٦٤٢م ومصر في سنة ٦٣٩ – ٦٤٢م وأذربيجان في سنة ٦٤٢م وأفغانستان في سنة ٦٦١م ، وتونس في سنة ٦٧٤م ، وبخاري في سنة ٦٧٤م ، والسند في سنة ٧٠٨م ، ومراكش في سنة ٧٠٨م ، وأسبانيا في سنة ٧١١ – ٧١٢م ، وسمرقند في سنة ٧١٢ م . (١)

واستولوا في خلال القرنين والثامن والتاسع على معظم جزر البحر المتوسط ، وأصبحوا سادة الدنيا بلا منازع • وهنا يجدر بنا أن نشير بعض التساؤلات • كيف كانت حالة الشعوب التي فتحها المسلمون قبل الفتح وكيف صارت بعده ؟ هل كانت المبادئ التي حكمت هذه الشعوب بمقتضاها خطوة إلى الأمام أم إلى الوراء ؟ هل حدث تطور وتقدم أم لا ؟ هل حققت الشعوب المغزوة رواجا اقتصاديا ومزيدا من الحرية أم لا ؟ وهل حققت رواجا ثقافيا ودينيا وعلميا أم لا ؟ • وسواء أكانت طبيعة هذه الحروب دينية بحتة أم اقتصادية أم مزيجا من هذا وذاك فذلك أمر لا يعنينا كثيراً في هذا البحث • وإنما يعنينا في المقام الأول الآثار الحضارية المترتبة على نقل واستساغة الثقافة الإسلامية المباشرة لهذه الانطلاقة العربية الإسلامية التي غيرت وجه التاريخ • ونحن إذا نظرنا في صفحات هذا التاريخ نظرة موضوعية صرفه ، إذن لاستطعنا أن نستوضح حقيقتين هامتين جداً • أولاً أن الإسلام كان خطوة تقدم وكبري في التخفيف عن عاتق الشعوب ، الكثير ، بل الكثير جدا من القيود والظلامات التي فرضتها عليها الإمبراطورية الرومانية • وثانياً أن الإسلام كان باعثا على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون في حركة من أهم حركات تاريخ العلم •

ترك الإسلام لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) حريتهم الكاملة في أن يقيموا شعائرهم الدينية كيفما يريدون • وكانت كنيسة القسطنطينية تدعمها قوة الإمبراطورية المادية والحربية، قد أذاقت السوريين والمصريين وكل إتباع كنائس سوريا وأرمينيا ومصر ألوانا من الاضطهاد لأنهم تحدوا كنيسة القسطنطينية التي تشبثت بالاعتقاد بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين ، في حين اعتقدت كنائس مصر وسوريا وأرمينية بأنه ذو طبيعة واحدة لا ذو طبيعتين (٢) •

---

(١) الواقدي : المغازي . طبقة المعمدانية المسيحية بكلكتا عام ١٨٥٥ م ص ١١٣ وما بعدها

(٢) القول بالطبيعة الواحدة يعني أن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح • أما القول بالطبيعتين فيعني أن المسيح إله حق وإنسان حق في نفس الوقت ، استغفر الله العظيم •

والحقيقة المؤكدة هي أن اليهود والنصارى أصبحوا في الواقع تحت الحكم الإسلامي آمنين على أموالهم وأنفسهم وأبنائهم وتمتعوا – بغض النظر عن بعض القيود التي فرضت عليهم – بكثير من الإمتيازات التي لم يحلموا بها منذ قرون تحت الحكم الروماني ، لذلك نجدهم وقد تنفسوا كثيرا من ريح الحرية فازدهروا ، وظهر كثير من الفلاسفة والعلماء النصارى واليهود ونالوا حظوة كبيرة في بلاد الخلفاء والأمراء المسلمين .

ومما يدلنا أبلغ دلالة على ترحيب الشعوب المغزوة بالفتح الإسلامي الذي خفف عن كاهله كثيراً من أعباء الماضي ، وما جاء في فتوح البلدان للبلاذري من أنه " عندما جمع هرقل (العاهل الروماني) للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهض اليهود وقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، (١)

وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : أن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فانا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد " ، (٢)

إذن نستطيع القول مطمئنين بأن طابع التسامح الديني الذي كان سائدا في أنحاء العالم الإسلامي في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية كان كبيرا جدا ، ولنا أن نشير هنا إلى أقوال بعض كبار المؤرخين الذين أعجبوا أيما إعجاب بهذا التسامح الذي كان مثله في غير الدولة الإسلامية ضربا من المستحيلات في ذلك العصر ، يقول الأستاذ " سيديو " أن المذهب النسطوري المسيحي قد تغلغل وانتشر في الأجزاء الشرقية من آسيا تحت الحماية العسكرية الإسلامية ، ويعجب الأستاذ " دريبر " من أن المسلمين لم يسمحوا للنساطرة بممارسة شعائرهم الدينية بحرية فحسب ، وإنما عهدوا إليهم في بعض الأحيان بتثقيف أبناء العائلات الكبيرة ، ويضيف إلى ذلك قوله أن هذا الموقف تحر مذهل إذا قورن بتعصب أوروبا في ذلك الوقت ، وهو تحرر ، تطرف فيه هارون الرشيد لدرجة أنه جعل يوحنا بن ماسويه وهو نسطوري مسيحي مشرفا على التعليم العام في عصره ، (٣)

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ..... مصر ١٩٠١ ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠

(٣) Sedillot , Histoire Generale Des Arabes vol II P .108

أما مجلس الخليفة المأمون فكان يتكون من ممثلين لجميع الطوائف التي تدين بملكه، ويذكر الأستاذ " دوزي " مبرهناً على حرية الفكر في ذلك العصر ، أي عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، قصة نقلها عن أحد علماء الكلام العرب ، يروي فيها كيف أنه كان يحضر في بغداد دروسا كثيرة عن الفلسفة يشترك فيها يهودٌ وزنادقة ومجوس ومسلمون ونصارى ، وكيف أن الحضور كانوا يستمعون إلى كل منهم باحترام عظيم ، وأنه لم يكن ينبغي لأي منهم أن يستند إلا إلى الأدلة الصادرة عن العقل ، لا إلى الأدلة المستقاة من أي كتاب مقدس ٠ (١)

لا غرو إذن أن سمح الخلفاء والأمراء المسلمون للنصارى واليهود أن يتقلدوا مناصب الدولة كالمسلمين تماما ٠ ويدلل الأستاذ " جوستاف لوبون " على ذلك بقوله : أن أسبانيا الإسلامية كانت الدولة الوحيدة في أوروبا التي تمتع فيه اليهود بحماية الدولة ورعايتها فازداد عددهم زيادة كبيرة ٠ وفي ذلك تقول الموسوعة البريطانية أيضا أن حكام طليطلة العرب كانوا يحمون الجالية اليهودية الكبيرة فازدهرت فيها وأينعت أعمالها التجارية والثقافية ، ولكنهم فقدوا كل شيء بل طردوا منها عندما انتهت دولة الإسلام في أسبانيا ٠

ولاشك أن طابع التسامح الإسلامي كان ذا أثر فعال هائل في حركة الأحياء العلمي والبناء الحضاري التي تولاها العرب بعد الفتح ٠ ذلك أن علماء النساطرة كانوا قد لجأوا إلى فارس التي حمتهم من اضطهاد الروم ٠ وسرعان ما ازدهرت تعاليمهم في المدرسة الفارسية في " جند يسابور " وكانوا يستعينون بشيء من الفلسفة اليونانية لبث تعاليمهم ٠

كما لجأ العلماء والفلاسفة اليونان عندما أغلق الإمبراطور جيستنيان في سنة ٥٢٩م أكاديمية أفلاطون في أثنيا ، وكانت آخر معقل من معاقل العلوم في العالم الروماني في ذلك الوقت ، إلى فارس والتقت الثقافات المسيحية واليونانية والهندية والفارسية في هذه المدرسة التي اشتهرت شهرة واسعة ٠ وعندما وقعت جند يسابور في قبضة العرب في القرن السابع ، لقي هؤلاء العلماء المسيحيون تسامحا كبيرا وتشجيعا عظيما من الحكام المسلمين الذين استعانوا بهم في تشييد صرح الدولة العلمي والثقافي ، فظهر منهم كثير من الأطباء والعلماء والتراجمة (٢)

---

(١) Dosy . R ; Histoire Dès Masulmans . 1861 . p . 370

وأيضا لحمد فريد رفاعي : عصر المامون . ص ٤٠٦ .

(٢) من مشاهير المترجمين في عهد الرشيد يوحنا بن مساوية ، وابن البطريق وحنين ابن اسحق ، وعمر بن القرحان ، واسحق بن حنين وثابت بن قرة ، وكثير من أسرة بختيشوع . راجع للمؤلف ميادين الحضارة العربية الإسلامية الإنسانيات جـ١ ١٩٩١ ص ص ٢٥ ــ ٣٩

لم يخرج العرب في واقع الأمر من جزيرتهم إلى الأقطار المغزوة خالي الوفاض أو مجرد غازين فحسب ، وإنما خرجوا إلى رحاب هذا العالم الفسيح الذي فتحوه وهم يحملون ثروة هائلة من أدبهم الجاهلي تتمثل في لغة كاملة وخطابه وشعر وحكم وأمثال ، وفوق ذلك ثروة هائلة من الأحكام الدينية والأخلاقية والاقتصادية والتشريعية المنظمة لمختلف شئون المجتمع والتي تضمنها القرآن والحديث ، ولا عجب إذن أن كان للدين الجديد وتعاليمه الفضل في دفع الناس إلى تعلمه وتسابقهم للاستزادة منه والوقوف على حقائقه ، وأن في تعاليم محمد لنورانية : " الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج " ،

" أطلب العلم من المهد إلى اللحد " ، " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " ، " أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ما جرت به إقلاع العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله " ،

لقد رفع الإسلام الحنيف من قدر العلم والعلماء ، وحث على طلب العلم ثم أن معجزته هي القرآن الكريم ، ومن آياته (أقرأ باسم ربك) (ورفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات) (**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**) ومن أقوال الرسول ﷺ أيضا : " غدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة " ، ثم " لموت قبيلة أيسر من موت عالم " وقوله : " أطلبوا العلم ولو بالصين " وقوله : " لا خير فيمن كان من أمتي ليس بعالم ولا متعلم " وقوله : " لا يزال طالب العالم عالما حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل " ، (١)

ومن ثمة كان طبيعيا وضروريا أن يظهر في أعقاب الاستقرار الإسلامي الكثير من الكتبة الدين يعلمون غيرهم القراءة والكتابة ، ومن ثم أنشئت المدارس اللازمة لتعليم القراءة بالقدر الكافي على الأقل للتمكن من الإطلاع على القرآن ، وكان حفظ القرآن وتلاوته في جميع المناسبات هم الناس الأول وشاغلهم الذي لا يشغلهم عنه شيء ، كذلك كان الخليفة يوصي ولاته بالعدل حسبما جاء في القرآن والسنة ، إذن كان الإسلام ذاته في واقع الأمر أول حافز على ازدياد حركة القراءة والكتابة والنسخ لتعليم الناس مبادئ الدين الجديد ، وأسلوب تعامل الإنسان مع غيره من الناس ، بعد ذلك تطور الأمر بطبيعة الحال ، ونشأت علوم جديدة مثل علوم التفسير والحديث واللغة والبلاغة والبيان ، فلما اتسعت دائرة العلوم ، اتسع بطبيعة الحال مجال العلم والتدريس وشمل هذه العلوم أيضا ، (٢)

---

(١) القلقشندى . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء جـ ٣ ص ١٦٢

(٢) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية . الأنجلو القاهرة ١٩٨٨ ص ١٦٤ وما بعدها .

ورث العرب عن الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ثلاث مدارس ، هي مدرسة جند يسابور الزرادشتيه التي اختلطت فيها ثقافة اليونان وعلومهم بثقافة الهنود والفرس وعلومهم ، ثم مدرسة حران الوثنية ، وكانت مركزاً للتأثر الإغريقي منذ عصر الاسكندر المقدوني ثم مدرسة الإسكندرية المسيحية المتأخرة . على أن العرب لم يرثوا هذه المدارس فارغة ، وإنما ورثوها بالعلماء والفلاسفة والمترجمين الذين كانوا يعلمون بها . وما كان الإسلام دينا واقعيا ، حض المسلمين على الاستزادة من العلم ولم يضع أي عقبات في هذا السبيل ، كان طبيعيا أن تستمر هذه المدارس وأن تنشأ مدارس جديدة وأن يستفيد المسلمون من هذه المدارس وهؤلاء العلماء . في وضع حجر الأساس للحضارة العلمية الإسلامية . ولم يلبث العرب طويلاً بعد استقرارهم في الإمبراطورية التي فتحوها حتى بدأت أنظارهم تتوجه إلى العلوم الدنيوية . وقد يكون الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي المتوفى في سنة ٧٠٤م ، ممن ساهموا في إضاءة شعلة العلم في الإسلام . ذلك أنه كان أول من عمل على ترجمة كتب القدماء في الطب والفلك والكيمياء كما يقول ابن النديم في كتابة الفهرست . ثم جاء العباسيون واهتم أبو جعفر المنصور منذ البداية بترجمة العلوم ، واتسعت الحركة اتساعا كبيرا في عهدي هارون الرشيد وولده المأمون على الأخص . (١)

أسس الرشيد بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التي أخذت في عصر المأمون صورة أكاديمية . ووضع المأمون على رأسها يوحنا بن ماسوية ، فقامت المدرسة بأكبر مجهود في ترجمة العلوم والفلسفة والمعارف القديمة . وفي حدود منتصف القرن التاسع الميلادي أصبح تحت يد العرب مختلف علوم الأسبقين ومعارفهم . حيث أشتمل العلم اليوناني على علوم الأقدمين كالمصريين القدماء والبابليين ، زيادة على الإنجازات التي حققها اليونان أنفسهم .

وانحصرت العلوم حتى ذلك العصر في الطب والرياضيات والجغرافيا والفلك . وكانت أهم الكتب التي اعتمد عليها العرب في بناء صرح حضارتهم العلمية كتب أبقراط وجالينوس (٢) وديسقوريدوس (٣) اليونان في الطب مع بعض الكتب الهندية ، وكتاب المجسطي لبطليموس السكندري في الفلك وكتابه في الجغرافيا ، وكتب اقليدس وأرشميدس (٤) وأبولونيوس وديوفنطس اليونان في الرياضيات وكتاب " السندهند " في الفلك ، والرياضة ، وهو النسخة الهندية المنقحة من كتاب سندهانا لبراهما كويتا الهندي

---

(١) أحمد فريد رفاعي : عصر المأمون ... المجلد الأول . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ ص ٣٥٩ وما بعدها

(٢) جالينوس Galen (١٢٩ – ١٩٩ م)الطبيب الإغريقي المعروف ، ولد في برجاموم بآسيا الصغرى وتعلم الطب في أزمير والإسكندرية وروما، عمل طبيبا لبلاط قصر الرومان ، وظل سلطان علمه قائما في أوروبا حتى منتصف القرن الحادي عشر ، وقد بحث جالينوس بين الظواهر الجسمية والظواهر النفسية ، راجع تاريخ الطب عند العرب للمؤلف

(٣) ديسقوريدوس : طبيب يوناني عاش في القرن الأول الميلادي . ألف كتاب الحشائش به ٦٠٠ عشبة وعددا من الأدوية المعدنية والزيوت والدهون والسموم ترجم اصطفن بن بسيل هذا الكتاب ودرسه كل أطباء العرب من ابن سينا حتى داود الأنطاكي . راجع : جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٥١٣ .

(٤) أرشميدس Archimedes : هو عالم الفيزياء ، والهندسة اليوناني الشهير ولد بمدينة سيراكيوز بجزيرة صقلية في نحو عام ٢٨٧ ق . م ، ثم تفرغ لدراسة العلم والرياضة ، وهو الوحيد بين القدماء الذي خلف لنا شيئا نافعا في الميكانيكا والهيدروماتيكا (علم موازنة السوائل) ومن هذه الأخيرة نظرية أرشميدس المعروفة بنظرية الأواني المستطرقة . راجع المؤلف : ميادين الحضارة العربية . تاريخ العلوم عند العرب ط ٤ ٢٠٠٢ ص ١٨٢

وهذه هي أهم الكتب العلمية التي تلقاها العرب من الدنيا القديمة عن طريق اليونان والهنود ، والتي كونت المادة العلمية التي بنوا عليها ثقافتهم العلمية ٠

والحق أن طريقة اكتساب المسلمين للعلوم واستيعابهم لها وقصر المدة التي استغرقوها ليصبحوا قادرين على تصحيح هذه العلوم وإضافة جديد لم يسبقهم إليهم أحد ، أمور كانت فريدة في التاريخ ، بعد جيل واحد أو جيلين من دخولهم دنيا العلم ، تربعوا على عرشها وأصبحوا سادتها لا منازع لهم ٠ ويكفي أن نذكر في هذا المقام قولة الأستاذ جورج سارتون : " حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى ٠ فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ، والتي كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري كله ، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن ، إذا ما أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ، أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها " (١)

صحح المسلمون علوم الأقدمين بالقدر الذي سمح به علم عصرهم ، وأضافوا علوما جديدة مثل الكيمياء والجبر في صورته الجديدة ، وعلم البصريات الهام ، وحساب المثلثات المسطحة والكروية ، والحساب الجديد الذي نقلوه عن الهنود وطوروه وجعلوه علما ذائعا ٠

هذا فضلا عن كثير من الإضافات الأخرى مما سيأتي ذكره فيما بعد ٠ وبم يتأتى ذلك لهم إلا بظهور فئة الكتاب والنساخ أو هؤلاء الذين يطلق عليهم كتبة ديوان الإنشاء ٠

بذلك كون المسلمون تراثا علميا جديدا مميز الطابع ، نستطيع بحق أن نصفه بالتراث العلمي الإسلامي (٢) ٠ الذي أصبح فيما بعد الأساس الذي ارتكزت عليه الحضارة الحديثة التي ترجع إلى إسهام مقتضيات العقيدة الإسلامية بكتابة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في بادئ ظهور الإسلام بلغة عربية خالية من النقط والتشكيل متفاوتة في أسلوب الكتابة متأثرة باللهجات العربية المختلفة ، إلى أن تم كتابة المصحف الإمام في عهد عثمان ٠ وهذا ما سنفصله في الصفحات الآتية وبعد ذكرنا لأهمية الكتبة والعلم في الإسلام ٠

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم جـ ٣ دار المعارف ٠ ص ٤٨ ٠

(٢) كانت إضافات العلماء العرب في الطب والتشريح والكيمياء والمعادن والنبات والحيوان من أمثال جابر بن حيان وابن طفيل والزهراوي والرازي ، والجلدكي ، والخازن وابن النفيس والبغدادي ، والقزويني ، وداود الانطاكي ، وابن البيطار ، والإدريسي ، والدينوري والصوري وابن حمزة ، وابن يونس والجاحظ وابن خلدون وابن مسكويه وغيرهم ، وأن مؤلفاتهم لتعد بالمئات وبالألوف ٠ كما أن مؤلفات بعضهم ظلت المراجع المعتمدة في أوروبا حتى القرن السابع عشر ، لقد سبق العلماء العرب إلى كثير من النظريات والآراء وأنها لتنسب في الوقت الحاضر إلى علماء النهضة الأوروبية دون إشارة إلى هؤلاء الرواد ٠

أهمية الكتابة والتدوين في الإسلام :

(أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، أقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) سورة الفلق آية ١ – ٥ .

هذه أول آيات بينات نزلت على سيدنا محمد الرسول الأمين ، تنبئه بالرسالة وتحمله مسئوليتها ، تصدع أول كلماتها بالقراءة ، وهي مفتاح التعليم ، وتنطق آياتها بتعليم الله عز وجل لعباده ما لم يعلموا ، وتذكر القلم وسيلة الكتابة وحفظ العلم ونقله ، وآلة التدوين بما يجول في الخواطر

لقد استرعى الله عز وجل انتباهنا إلى أهمية العلم ، في أولي آيات القرآن الكريم ، لأنه سبيل إلى التحرر من العبودية لغير الله ، والطريق القويمة إلى معرفة الله عز وجل ومعرفة شرعه وحسن تطبيقه والعمل به ٠

وحسبنا أن تنوه الآيات الأولي من دستور الإسلام بالعلم ، لندرك اهتمام هذا الدين الحنيف به ، ولو أننا تأملنا فيما ورد في القرآن الكريم من آيات تتناول العلم وفضله وسبله ، وما يلحق به ، وما ورد في السنة في هذا الباب ، لوقفنا على مكانة العلم في الإسلام ، وأدركنا اهتمامه الكبير به ، ومن خلال الآيات التي تحث على العلم والتعليم وتشجيع طلاب العلم ، وترفع من شأن العلماء ، ومحاربة الجهل والظلام (١) ، وتريد للإنسانية نور العلم والمعرفة بدلاً من ظلام الجهل والغفلة – ومن هنا خاطب الإسلام العقول والقلوب ، وجعل العقل مدار التكليف ، وبه ميز الله عز وجل الإنسان عن سائر مخلوقاته – من هذا قوله عز وجل : (أنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (٢) وقوله عز وجل : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (٣) ، وقوله سبحانه وتعالي : (هل يستوي الأعمى والبصير أفلا يتفكرون) (٤) ، وقوله سبحانه وتعالي : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٥)٠ وأنا لنجد دعوة القرآن الكريم إلى العلم والرفع من شأنه مبثوثة في كثير من آياته قال تعالي : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (٦) ورفع مكانة العلماء في قوله عز وجل : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٧) ، وقال سبحانه : (وفوق ذي كل علم عليم) (٨) ٠

---

(١) محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص١٣ ٠
(٢) سورة الزخرف آية ٣ ٠
(٣) سورة العنكبوت آية ٤٣ ٠
(٤) سورة الأنعام آية ٥٠ ٠
(٥) سورة النحل آية ٤٤ ٠
(٦) سورة الزمر آية ٩ ٠
(٧) سورة المجادلة آية ١١ ٠
(٨) سورة يوسف آية ٧٦ ٠

وترى من خلال آيات القرآن الكريم ما للعلم والعلماء من أهمية كبيرة في الدعوة إلى الله والتحرر من عبودية ما سواه ٠

وقد خاطب الإسلام في الإنسان عقله وحواسه وجوارحه ، التي تنفذ به إلى المعرفة والتعليم (١)، فاسترعى انتباهه إلى مفاتيح العلوم بالنظر والمشاهدة والتأمل والاعتبار ، وغير ذلك مما يدفع به إلى ذروة المعرفة والوقوف على الحقيقة الكبرى لهذا الكون ٠ وقد حض الرسول ﷺ على طلب العلم ، وبين منزلة العلماء فقال : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (٢) ، وجعل طلب العلم الشرعي الذي يحتاج إليه كل مسلم ليقيم أمور دينه فريضة على كل مسلم بنص قوله ﷺ: " طلب العلم فريضة على كل مسلم" (٣) ٠ ولم يترك الرسول ﷺ طريقة من طرق التعليم والتبليغ والتوصيل والإعلام في ذلك العصر إلا سلكها في سبيل نشر الإسلام وتبليغه – فكان يعقد مجالس العلم بنفسه ، ويبعث الرسل ويرسل الكتب ويوجه الأمراء والقضاء والمعلمين ليفقهوا الناس بالدين – فكان ﷺ خير مبلغ ٠ ومنزلة العلماء المعلمين من أرفع المنازل في الإسلام بنص قول الرسول ﷺ : " العلماء ورثة الأنبياء " (٤) ، ومن هنا حث الإسلام على احترام أهل العلم ، على لسان سيدنا محمد ﷺ فقال : " ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه " (٥) ٠

هكذا يتبين لنا حرص الشريعة الإسلامية على العلم والتعليم ، وقد مارس الرسول ﷺ ذلك بنفسه ، وشجع على طلب العلم ، وأوصي بطلابه ، وبين ما للمشاركة فيه من أجر حتى بلغ التشجيع العلمي مداه ، وفتح باب العلم للجميع ليس بينه وبين أحد حاجز أو مانع ، وأبلغ من هذا كله ، أن الرسول ﷺ حذر العلماء من أن يتساهلوا في أداء واجبهم وتعليم الجاهلين وأنذرهم بالعقاب ، وحذر الجاهلين من البقاء على جهلهم (٦)، وحثهم على طلب العلم ٠

إن أغلى ما يعبر الإنسان عن فكره وأحاسيسه هو الكلام بمجموع ألفاظ مفرداته وجمله ، وهو الوسيلة الأولى للخطاب ونشر العلم وكسب المعرفة ، والإنسان في خطابه وعبارته المنطوقة أقوى على التعبير عما يريد ، وأفصح من محاولته تلي بأي وسيلة أخرى ٠ ويلي العبارة المنطوقة في الإفصاح عن الفكر ، العبارة المكتوب ٠

---

(١) محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص ١٦ ٠
(٢) أخرجه الإمام احمد عن أبي هريرة مسند احمد جـ١٢ ص١٨٠ حديث ٧١٩٣ ٠
(٣) أخرجه ابن ماجه عن أنس – سنن ابن ماجه جـ١ ص ٥ ٠
(٤) مجمع الزوائد ص ١٢١ جـ١ ٠
(٥) مجمع الزوائد ص ١٢٧ جـ١ ٠
(٦) محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص ٢١ ٠

ومن ثم كان للكتابة والتدوين عند الأمم جميعا أثر بعيد ، وكان لها الفضل الكبير في حفظ تراث الأمم السابقة في دواوين العلم – وقد ازدادت أهمية الكتابة وآثارها في العصر الحاضر ، وتطورت وسائل الطباعة تطوراً سريعا يناسب روح العصر ، ويفي بحاجته (١) .

ولقد كتب القلقشندى كتابا ضخما في أربعة عشر جزءاً عن الكتابة أسماه " صبح الأعشى في صناعة الإنشا" لن نذكر الكثير عنه رغم أنه قاموس زاخر بالفوائد الرائعة فيما يتعلق بهذه الصناعة من جميع نواحيها .. ويقول الكاتب في فضل الكتابة (٢) ، أن أعظم شاهد لجليل قدرها مثل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إليه جل جلاله ، واعتبرها من وافر كرمه . ثم قال بأن الله سبحانه وتعالي وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته ، فقال جلت قدرته ، (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين) (٣)

ويقول القلقشندى : ليس بين الصناعات ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يكسب ما تكسبه من الفوائد مع الحصول على الرفاهية والتنزه عن دناءة المكاسب، ثم مع ما توصل إليه من مشاركة الملوك والرؤساء وكفى بهذه الصناعة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ، ولا يزاحمه الكاتب في سيفه. وقد أشتغل بالكتابة عليه البشر ، ومنهم من صاروا أنبياء أو خلفاء ، ومن هؤلاء يوسف الذي كان يكتب للعزيز بمصر – وهارون ويوشع ابن نون وكانا يكتبان لموسى ، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية ، وكانوا يكتبون للرسول ﷺ .ثم أصبحوا بعده خلفاء الواحد بعد الآخر . وقد تنبه قوم بالكتابة بعد الخمول، وصاروا إلى الرتب العلية والمنازل السنية ، منهم " سرجون" الذي كان روميا خاملا فرعته الكتابة، حتى اتصل بمعاوية وكتب له ولابنه يزيد ولمروان بن الحكم ، ومنهم " عبد الحميد بن يحيي " الذي اشتهر باسم الكاتب الأول حتى غمر اللقب نسبه – وشرف بضاعته واشتهر بها (٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : " أو أثارة من علم " والمقصود كتابة الخط ، ويروي أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال : ريح لا يبقي . قال : فما قيده ؟ قال : الكتبة . وقال عبيد الله بن العباس : الخط لسان اليد . وقال النظام : الخط أصل الروح له جسدانية في سائر الأعمال إلى ما يجري هذا المجري . وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : الخط لسان اليد وبهجة الضمير وسفير العقول ، ووصي الفكر ، وسلاح المعرفة ، وأنيس الأخوان عند الفرقة ، ومحادثهم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الإنشا تحقيق عبد اللطيف حمزة . أعلام العرب . القاهرة . ١٩٦٣ . ص٢ .
(٣) سورة الانفطار آية ١٠ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص٣٩ – ٤٢ .

على بعد المسافة ، ومستودع السر وديوان الأمور (١)٠ ولو لم يكن من شرف الكتابة إلا أن الله تعالي أنزلها على آدم أو هود عليهما السلام كما تقدم ذكره – وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة (٢): وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة لكان فيه كفاية٠ ففي الآيات الكريمة الآتية قول الله سبحانه وتعالى: (أم لم ينبأ بما في صحف موسى) (٣)(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتي صحفا منشرة) (٤) (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) (٥) (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (٦) هذا وفي الكتابة حفظ الحقوق ومنع تمرد ذوي العقوق ، بما يسطر عليهم من الشهادات التي تقع في السجلات والمكاتبات بين الناس لحوانجهم من المسافات البعيدة التي لا ينضبط مثل ذلك لحامل رسالة ، ولا يناله الحاضر بمشافهة وأن كثر حفظه ، وزادت بلاغته ولذلك قيل : الكتابة أفضل من اللفظ – لأن اللفظ المنطوق يفهم الحاضر فقط واللفظ المكتوب يفهم الحاضر والغائب (٧)٠

تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد ظهور الإسلام :

لم يقدر للحروف العربية أن تتطور تطورا كافيا يجعل شكلها مقاربا للشكل الذي نعرفه الآن مع ظهور الإسلام وبعده ، وقد مرت الحروف العربية التي كانت في الأصل نبطية متفرعة من الهجاء الفينيقي في سلسلة من التطور جعلتها شيئا فشيئا من العيوب التي ورثتها عن الحروف التي نقلت منها ٠ وكان حذق العرب للكتابة في الجاهلية حدثا في تاريخ الفكر لم يظهر أثره إلا بظهور الإسلام ، وقد عرف أهل الذمة الكتابة ونقلها عنهم الصحابة من كتاب الوحي ٠ وفي الواقع كان للكتبة أثر بالغ في نقل الإسلام ، ولا عجب في هذا ، فهي الوسيلة إلى تعلم وحفظ القرآن وتعاليم السنة النبوية وتدوين الأحاديث الشريفة والتفسير ٠ وهذا بالإضافة إلى خدمة الدولة وأولي الأمر

ومن أبرز مظاهر التطور التي أدخلت على الهجاء العربي ، زيادة حروف الروادف وابتكار التنقيط والإعجام والحركات والضوابط والهمزة ٠

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ١ ، ٢ ٠
(٢) المرجع السابق جـ٣ ص٣ ٠
(٣) سورة النجم آية ٣٦ ٠
(٤) سورة المدثر آية ٥٢ ٠
(٥) سورة البنية آية ٢
(٦) سورة البينة آية ٢
(٧) القلشندي : صبح الأعشي جـ٣ ص٣ ٠

وفي عصر النبوة كان كتبة الوحي يكتبون بذلك الخط العربي الذي تحددت صورته ولكنه لم يستطع أن يتخلص من بعض مظاهر الخط النبطي ولم تصل إلينا أمثلة من هذا الخط الحجازي الذي كان مستعملاً أيام النبي صلوات الله عليه في مكة والمدينة المنورة ، وأغلب الظن أنه تحددت لهذا الخط منذ ذلك الوقت صورتان :

صورة لينة يميل فيها إلى التدوير وكانت تستعمل في التدوين السريع وصورة جافة يميل فيها إلى التربيع ، وكانت تستعمل في كتابة الشئون الهامة التي يراعي في كتابتها التأني والتؤدة ، والراجح أن كتاب الوحي كانوا يكتبون القرآن فور نزوله على النبي بالخط اللين ، لأنه أطوع لهم وأيسر عليهم ، حتى يلاحقوا النبي

وهو يتلو الآية ، وكانوا عندما يعودون إلى دورهم ويستقرون في مجلسهم يعيدون كتابة ما دونوه بالخط اللين في حضرة النبي صلوات الله عليه – بالخط الجاف تعظيما لكلمات الله وتقديرا لها ٠ (١)

وكان النبي ﷺ يدرك قيمة الكتابة ، ويقدر أثرها ، ولذلك كان يطلق الأسير في غزوة بدر إذا علم عشرة من صبيان لمسلمين الكتابة ، كما كان أقرب الناس إلى نفس الرسول كتاب الوحي ٠ وبظهور الإسلام أخذ شأن الكتابة العربية في الإزدهار ، ولم يلبث العرب أن انتشروا في كثير من أجزاء العالم المتحضر في ذلك الوقت ، وامتد نفوذ العرب المسلمين في نحو قرن من الزمان من حدود الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلى جانب أهميتها الدينية والأدبية ، وتبع ذلك بطبيعة الحال التمكين في هذه الأقطار للكتابة العربية التي لم يقتصر نفوذها على اللغة العربية ، بل امتد نطاقها فصارت تكتب بها لغات أخري مثل الفارسية والأردية . (٢)

٠٠ وهكذا نجد أن العرب نقلوا إلى الأقطار الإسلامية بدايات الخط العربي كما نقلوا إليها اللغة العربية والإسلام سواء بسواء ٠ ويستشف من الأخبار التي وصلتنا أن العرب كانوا يضعون الكتابة في مرتبة أعلي من الحفظ ، وكانت القصيدة التي تحوز تقديرهم فيما قبل الإسلام تكتب بماء الذهب وتعلق في الكعبة إجلالاً لشأنها ، ولذلك سميت هذه القصائد بالمعلقات ٠ وتأكدت نزعة تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد الإسلام ، ولقد عبر ذو الرمة عن ذلك حين قال لعيسي بن عمر : أكتب شعري فالكتاب أعجب على من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسي الكلمة " قد تعب في طلبها يوماً أو ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس " (٣)

---

(١) ابن النديم :الفهرست القاهرة ، المكتبة التجارية ١٣٤٨ هـ ص
(٢) محمود عباس حمودة : دراسات في علم الكتابة العربية ١٩٨١ ص ٥٥ – ٥٨
(٣) المرجع السابق ص ٥٩

كتابة القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ :

ليس جديداً القول بأن بزوغ شمس الإسلام كان إيذانا بنهضة تدوينة عظيمة تتمثل في حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام على تعلم الصحابة الكتابة ، وعلى تدوين القرآن الكريم منذ فجر الإسلام · لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فلم يكن هناك بد من أن يلقن القرآن الكريم تلقينا ، فأنزله الله عليه أقرب إلى الحفظ في الصدور وأبعد عن النسيان ، فكانت تنزل عليه الآيات القرآنية بين وقت وآخر ، تتتابع أحيانا وتبطئ أحيانا أخري ، يقول الله تعالي في سورة الفرقان : **(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) (١) ·**

واستغرق نزول القرآن بضعة وعشرين عاماً ، ولقد حرص النبي ﷺ منذ اللحظة الأولي على حفظه وتحفيظه لأتباعه ، كما حرص في الوقت نفسه على تدوينه فور نزوله ، وكان هذا التدوين يتم تحت إشرافه ، وهكذا أصبح القرآن صورتان واضحتان · صورة صوتية عندما يتلى وصورة مكتوبة ، والصورة الأولي تتجلى في تلقي القرآن بالمشافهة من جبريل ، إذ كان النبي يقرأ ما ينزل عليه والصحابة حوله يسمعون بآذانهم ما يقرأه النبي ، فيعرفون عن طريق السماع حقيقة النظم القرآني ويقفون على أسلوب أدائه ، وتكررت القراءة ، وتكرر التلقي عن النبي ، فالرسول الكريم حافظ للقرآن ، والصحابة الآخذون عنه كانوا يحفظونه كذلك ، ثم تتكرر قراءة القرآن خلال الصلوات · فيزداد حفظ القرآن في الصدور · ولم تكن اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم قد تهيأت لها السيطرة اللغوية حنئنذ ، بل كانت متعددة اللهجات نظراً لاتساع شبه الجزيرة العربية واختلاف البيئات فيها ، الأمر الذي جعل التباين في نطق الألسن وفي التعبير بالصوت · (٢)

---

(١) الفرقان ٣٢
(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن – جزء أول ص ١٧١٠

ولما كان من العسير على الصحابة أن يحفظوا القرآن بغير اللهجة التي يتكلمون بها ، فقد أجاز لهم النبي تلاوته باللهجات التي درجوا عليها ، وأقرأهم بهذه اللهجات ، أو بعبارة أخري بهذه القراءات ، وفقا لما تستطيعه ألسنتهم عند النطق ، وقد كان من الطبيعي أن يترتب على هذه اللهجات المختلفة ظهور شيء من الخلاف بين العرب في قراءة القرآن عندما كان واحد منهم يقرأ بلهجة أو حرف على حد تعبير رجال القراءات لم يقرأ به أخ له فيفزع لذلك ، ويسارع إلى الرسول يسأله الحقيقة في هذه القراءة التي سمعها من أخيه ، فيطمئن النبي خاطره ويقول له " كلاكما على صواب " وهكذا نجد بين قراءات الصحابة اختلافات في الأداء والنطق وفي وجوه القراءة ، ناشئ عن كلا منهم تلقي عن النبي باللهجة التي اعتادها لسانه (١) هذه هي الصورة الصوتية للقرآن الكريم عندما يتلى ، يحفظه النبي وأصحابه عن ظهر قلب ومن أشهر هؤلاء عثمان بن عفان وأبي بن كعب وزيد بن ثابت(٢).

أما الصورة المكتوبة فإن التدوين والكتابة لم تكن من الأمور الشائعة بين العرب في ذلك العصر ، فقد كانت الأمية طاغية عليهم ، والكاتبون قلة ، ولكن حرص النبي على حفظ كلمات الله قد دفعه إلى العمل على تدوينها فور نزولها ، فاتخذ كتبه يكتبون آيات القرآن أولا بأول ، ويلازمون النبي حينما ذهب وأني أقام ، لكي يزدوا هذا العمل الذي تفرغوا له ، لا يشغلهم عنه شاغل ، وقد تمت هذه الكتابة بين كتاب من قريش في مكة وكتاب من الأنصار في المدينة ، ولم يكن في رسم الحروف فروق واضحة كما كان الحال في القراءة الشفوية ، ومن أشهر هؤلاء الكتاب معاوية بن أبي سفيان في مكة ، وزيد بن ثابت في المدينة (٣).

وسجلت آيات الكتاب على مواد متباينة متعددة ، فقد اختلفت في أحجامها كما اختلفت في مادتها ، فكانت قطعاً كبيراً وصغيرة من العظم ومن الخشب ومن الفخار ومن الحجر ومن جلود الحيوان ، ومن الكتان ومن الرق .

وقد كانت جلود الحيوانات عامة مما يكتب عليه بعد أن تربع وتعالج بالطرق المختلفة لتصلح لهذا الغرض ، ثم رأي الإنسان أن المعدة والأمعاء في بعض الحيوانات مثل الماعز والعجل والغزلان لا تحتاج إلى جهد في إعدادها للكتابة مثل الجلود ، ففضلت واستخدمت بكثرة في الكتابة .

---

(١) الزركشي : البرهان في علوم القرآن – جزء أول ص ١٧٢ .
(٢) د . عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن – القاهرة ١٩٦٦ . ص ٤٥ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص٤٨ وأيضا أبو عمرو الداني : جامع البيان في القراءات السبع (مخطوط) دار الكتب المصرية ورقة ١٠ أ

وهكذا أصبح للقرآن الكريم وسيلة الكتابة إلى جانب صدور الحفاظ التي استوعبته ، وحيث خطته يد الكتبة في مكة والمدينة على المواد السالفة الذكر ، بدليل تلك الصحيفة التي كانت تقرأ فيها أخت عمر بن الخطاب مع زوجها آيات القرآن من سورة طه ٠٠ عندما دخل عليها عمر ، مع بداية قصة إسلامه ٠ ولقد كتبت هذه الآيات القرآنية في مكة والمدينة بالخط العربي في صورته الأولى التي استقامت له بعد أن استقل في كيانه عن الخط النبطي الذي ولد منه ، والواقع أننا يجب أن نفرق بين نوعين من الخط العربي ، مما كان مستعملاً في تلك الفترة من تاريخ العرب والإسلام ، الخط اللين الذي يميل إلى الاستدارة والمتميز بالطواعية والمرونة عند كتابته ، والمستخدم في الكتابات المعتادة ٠ والخط الجاف المتميز بالزوايا والتربيع والمسمي بذي الحواف ، والذي عرف فيما بعد بالخط الكوفي ، حيث كان يتطلب وقتا كافيا للكتابة ، لما يتمتع به من جلال وجدية وفخامة ، خاصة عند كتبة الوحي للقرآن الكريم فور نزوله بالأسلوب اللين لسهولته وطواعيته ، فإذا ما استقروا في الديار ، كتبوه بأسلوب التأني والتؤدة ، تفخيما وتكريما وتعظيما لكلمات الله عز وجل ٠ ويمكن أن نشهد الصورة الأولي للكتابات القرآنية فيما وصل إلينا من نصوص قرآنية كتبت في العصور الأولي للإسلام ، وهي موزعة بين المكتبات العامة ، والمتاحف والمجموعات الخاصة ٠(١)

والمتأمل في هذا النصوص ، يكشف لنا في وضوح عن مظاهر لا تعرفها اليوم في كتابتنا العربية ففيها حروف يعبر كل واحد منها على صورتين مختلفين لا صوت واحد مثل حرف الدال فقد يكون (د) أو (ذ) ومثل حرف الراء فقد يكون (ر) أو (ز) ومثل حرف السين فقد يكون (س) أو (ش) ومثل حرف الصاد فقد يكون (ص) أو (ض) ومثل حرف الطاء فقد يكون (ط) أو (ظ) ومثل حرف العين يكون (ع) أو (غ) ٠ ومثل حرف الفاء فقد يكون (ف) أو (ق) ٠ (٢)

ومنها حروف يعبر الواحد منها عن أصوات مختلفة مثل حرف الباء فقد يكون (ب) أو (ت) أو (ث) أو (ن) أو (ى) ومثل حرف الجيم فقد يكون (ج) أو (ح) أو (خ) ٠ (٣)

---

(١) الطبري : التاريخ تاريخ الأمم والملوك . طبعة مصر وطبعة بريل في ليدن جـ ٣ ص ١٩٩
(٢) الداني : المحكم في نقط المصاحف تحقيق د . عزة حسني . دمشق ١٩٦٠ ص ٦
(٣) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٥٣

ومنها كلمات رسمت بطريقة لا يتفق فيها المنطوق مع المكتوب مثل كلمة أشياعكم وكلمة جنات ، فهي قد دونت وكتبت (أشيعكم) و(جنت) ٠ وهناك كلمات كثيرة في المصحف الشريف يضيق المقام عن ذكرها يختلف فيها المكتوب عن المنطوق نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (الحياة – الصلاة – الزكاة – النجاة – مشكاة) فقد كتبت الألف الوسطي فيها واوا فصارت (الحيوة – الصلوة – الزكوة – مشكوة) ٠ وفيها كلمات مجزأة بين سطرين أو الكلمة في آخر الكلمة في السطر الذي يليه ، وهكذا تحددت معالم صورة المصحف الشريف كما نعرفه اليوم مقسما إلى ثلاثين جزءاً ٠ وهذه هي الصورة المكتوبة للقرآن الكريم في عهد النبي ﷺ ، حروف يعبر الواحد منها عن صوتين أو أكثر ، وكلمات ترسم بطريقة لا يتفق فيها المنطوق مع المكتوب ، وكلمة مجزأة بين سطرين ، وهكذا ٠ (١)

وإذا نحن تذكرنا أن النبي صلوات الله عليه قد أجاز للصحابة رضوان الله عليهم أن يقرءوا القرآن بلهجاتهم التي درجوا عليها ، وأنه قد أقرأهم بهذه اللهجات وفقا لما تستطيعه ألسنتهم ، إذا نحن تذكرنا ذلك ، رأينا أن هذه الصورة المكتوبة التي تم وصفها ، كانت محققة لما ينطق به العرب ، ومحققة أيضا لما أراده النبي ﷺ من تسهيل قراءة القرآن وفهمه للعرب جميعا على اختلاف لهجاتهم ٠ (٢)

وتم نزول القرآن ، وتولي النبي ﷺ بنفسه ترتيب آياته فعين موضعها من بعضها البعض ، وحدد مكانها في السور المختلفة طبقاً لما تلقاه من الوحي ٠ أما ترتيب السور فقد ترك شأنه في أول الأمر إلى الصحابة أنفسهم ، فنسخ كل صحابي منهم القرآن على النحو الذي رآه ، فمنهم من رتب السور على أساس التنزيل مثل الإمام على كرم الله وجهه – فقد كانت نسخة القرآن التي عنده تبدأ بسورة أقرأ تليها سورة المدثر تليها صورة (ق) ، تليها سورة المزمل ٠ وهكذا بحسب نزول الآيات

وكانت نسخة القرآن التي عند الصحابي الجليل ابن مسعود ، تبدأ بسورة البقرة ثم تليها سورة النساء ثم تليها سورة آل عمران ٠ وكانت نسخة القرآن التي عند الصحابي أبي ابن كعب ، تبدأ بسورة الفاتحة تم تليها سورة البقرة ، ثم تليها سورة النساء ٠ ثم تليها سورة آل عمران ، ثم تليها سورة الأنعام ٠ وأغلب الآراء ترجيحا أن النبي لوان الله عليه بعد أن تم تزول القرآن عليه رأي ترتيب السور على النحو الذي بين أيدينا اليوم : أي يبدأ بطوال السور ثم أوساطها ثم قصارها ، وطبيعي أن يستجيب الصحابة لهذا الرأي فيعيدون النظر في ترتيب نسخ القرآن التي لديهم على النحو الذي رآه النبي ﷺ ٠

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ وما بعدها .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٧٨

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وقد انتظم عقد القرآن في مائة وأربع عشرة سورة سميت كل سورة منها بالكلمة التي تبدأ بها ، أو بكلمة وردت فيها ، أو بموضوع بارز فيها ، أو بقصة تدور حولها ، وبعض السور عرف له أكثر من اسم : مثل سورة الفاتحة التي تعرف أيضا بسورة أم الكتاب أو السبع المثاني أو الحمد ، وسورة التوبة التي تعرف أيضا بسورة براءة ، وسورة الإسراء التي تعرف أيضا بسورة بني إسرائيل وسورة السجدة التي تعرف أيضا بسورة الملائكة ، وسورة المؤمن التي تعرف أيضا بسورة " غافر " وسورة محمد ﷺ التي تعرف أيضا بسورة القتال ، وسورة الملك التي تعرف أيضا بسورة تبارك ، سورة النبأ التي تعرف أيضا بسورة " عم " (١) ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن ترتيب الآيات والسور في القرآن لم يكن موضوعيا أو زمنيا ، بل انفرد هذا الكتاب السماوي بترتيب خاص به ، فقد قصد به أن يكون كتاب هداية نفسية وخلقية واجتماعية تتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية وانتشارها واستمرارها إلى آخر الدهر ، كما تتناسب أيضا مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلى الأرض ، فهو يمس دائما الأصول الكبرى والأسس العامة ٠

وقد ظهرت كلمة مصحف أول ما ظهرت في هذا الوقت ، وكان سالم بن معقل المتوفى سنة ١٢ هجرية أول من أطلق هذه الكلمة على القرآن الكريم بعد أن جمع القرآن في صحف وضعت بين دفتين ٠ بحيث يحفظ محتوي الكتاب وييسر الانتفاع به ، ويصونه في تماسك وجمال ٠ وقد أوضح السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن : أن القوم اختلفوا فيما يسمونه ، وقال بعضهم سموه السفر ، وقال آخرون تلك تسمية اليهود وكرهوه ، وقال آخرون : رأيت مثله في الحبشة سمي بالمصحف ، فاجتمع رأيهم على أن يسموها المصحف ٠ وهكذا ذاعت كلمة المصحف للدلالة على الكتاب المدون به القرآن الكريم ٠ وهكذا تحددت معالم صورة المصحف الشريف كما نعرفه اليوم ٠ أما تقسيمه إلى أحزاب وأجزاء وأخماس وأعشار فهي محدثة على حد قول الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين – باب ظاهر آداب التلاوة من الجزء الأول) وقد كان ذو النورين – عثمان ابن عفان – حريصا على تلاوة القرآن الكريم جميعه كل أسبوع ٠ فكان يبدأ ليلة الجمعة بقراءة سورة البقرة حتى نهاية سورة المائدة ، ويبدأ ليلة السبت في قراءة سورة الأنعام حتى نهاية سورة وهود ويبدأ الأحد بقراءة سورة يوسف حتى نهاية سورة مريم ، ويبدأ ليلة الاثنين بقراءة سورة طه حتى نهاية سورة طسم ، ويبدأ ليلة الثلاثاء بقراءة سورة العنكبوت حتى نهاية سورة " ص " ويبدأ ليلة الأربعاء سورة الزمر حتى نهاية سورة الرحمن ، ويختم ليلة الخميس ما بقي من سور القرآن الكريم ٠ وقد كان هذا التقسيم أساسا لما عرف بأحزاب المصحف وهي سبعة على عدد أيام الأسبوع ٠ ويلاحظ أن المصحف الشريف مقسم إلى ثلاثين جزءاً وأن كل سورة قد قسمت إلى خميسات أي خمس آيات وعشيرات أي عشر آيات ٠ (٢)

---

(١) محمد علي الأشقر : الجوانب من تاريخ القرآن – طبعة النجف الأشرف بالعراق وأيضا أمين الخولي : بحث عن القرآن دائرة معارف الشعب ١٩٦١ ٠

(٢) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن جـ ١ ص ١٦٨

وأيضا ابن حجر : فتح الباري . بولاق ... جـ ١ ص ٣٨٦

وقد ميزت الأحزاب والأجزاء والخمسيات والعشيرات بعلامات خاصة عند كتابة المصحف ، لعب الفن الجميل فيها دوراً واضحاً يرجع ذلك إلى تمجيد وتعظيم المسلمين لهذا الكتاب الكريم ، فهو في الحقيقة عمل فني متكامل ، تسهم فيه طوائف شتي من الفنانين ، تفرغ كل طائفة فيها جهدها لكي تجعل منه تحفه فنيه ، يسر العين ويشيع الغبطة والانشراح في النفس ، ويفتح قلوب المؤمنين لهديه ، فيقبلون على التلاوة فيه آناء الليل والنهار ٠

أسباب جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر رضي الله عنه :

لما قام بأمر المسلمين بعد الرسول صلي الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمبايعة الصحابة له ٠ حدث في عهده ما نبهه إلى وجوب جمع القرآن في مكتوب واحد خشية عليه من الضياع والتفرق ٠ خصوصا بعد نشوب الحرب بينه وبين أهل الردة من إتباع مسليمة الكذاب وغيرهم ٠ وكان من أكبر الملاحم التي اشتبك فيها جموع المسلمين بجموع المرتدين ٠ موقعة اليمامة المشهورة ٠ وسببها – أنه لما أنتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولي أبو بكر الخلافة ، أظهر مسيلمة الكذاب على أبي بكر ما كان سبب هلاكه ٠ فجهز إليه أبو بكر فئة من المسلمين ذات بأس شديد ، وأمر عليها سيف الله خالد بن الوليد فسارت إليه ، فبما التقت الفئتان واشتعلت نار الحرب بينهما وتأخر الفتح ٠ ومات من المسلمين ألف ومئتان ، وكان منهم سبعمائة من حملة القرآن الكريم ٠ ثار البراء بن مالك مع من سلم من المسلمين على مسيلمة الكذاب وجيشه ، وجاء نصر الله فانهزموا وتبعهم المسلمون حتى أدخلوهم حديقة ٠ فأغلق أصحاب مسيلمة بابها عليهم ٠ فحمل البراء بن مالك وألقي بنفسه عليهم حتى صار معهم في الحديقة وفتح بابها للمسلمين فدخلوا وقتلوا مسيلمة وأصحابه ومات من المشركين زهاء عشرة آلاف فسميت حديقة الموت ٠ (١)

وقد هال ذلك المسلمين ، وعز الأمر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدخل على أبي بكر رضي الله عنه ، وأخبره الخبر ، وبين له ما يخشاه من ضياع القرآن إذا كثر القتل في قراء الصحابة واقترح عليه جمع القرآن ٠ فتردد أبو بكر أولا ٠ لأن ذلك أمر محدث لم تكن له سابقة في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم ٠ وكان أبو بكر أحرص الناس على إتباع الرسول ٠ ومجانبه كل ما لم يفعله ٠ ولكن بعد نقاش مع عمر رضي الله عنه ٠ اقتنع بصواب رأي عمر ٠ وتجلي له وجه المصلحة فيه ٠ وعلم أن ذلك الجمع ، وأن لم يفعله الرسول ، من أكبر وسائل حفظ القرآن الكريم وصيانته من الضياع ، فأقدم على رأي عمر مراعاة لتلك المصلحة ٠ وكان موفقا غاية التوفيق ٠

---

(١) الطبري : التاريخ جـ٣ (أخبار السنة الحادية عشرة)
وأيضا ابن الجزري : النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ٧

ورأي بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلا من خبرة رجال الصحابة وهو زيد بن ثابت ، فأرسل إلى زيد بن ثابت ، بعد استشارة عمر ، يدعوه إلى كتابة القرآن وجمعه في مكان واحد ، وإنما آثر الصديق زيداً رضي الله عنهما بهذه المنقبة ، مع أن في الصحابة من هو أكبر سنا وأقدم إسلاما ٠ وأكثر فضلا ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال ، إذ كان من حفاظ القرآن ٠ ومن كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ فيها بيان ما نسخ وما لم ينسخ من القرآن ، وكان فوق ذلك معروفا بشدة ورعة ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه ٠ فاجتمع فيه من المزايا ما لم يجتمع لغيره من أكابر الصحابة ٠ فلذلك اختاره أبو بكر لهذه المهمة العظمي ، ولما شرع زيد في جمع القرآن اعتمد على مصدرين : الأول ، ما كان مكتوبا بحضرة النبي ﷺ ، الثاني ما كان محفوظا في صدور الحفاظ ، وكان يستوثق في الأخذ من المكتوب غاية التوثق حتى يتيقن أنه مما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة ، وأنه لم تنسخ تلاوته ٠ ولذلك لم يكن يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان ٠ أنه كتب أمام الرسول ﷺ ، يدل على لك ما أخرجه ابن أبي داود ، قال : قدم عمر فقال من تلقي من رسول الله صلي الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به ٠ (١)

وشرع زيد في ذلك ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه ٠ فكان يتبع القرآن ويجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، ويتحرى أن يكون جمعه مما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، تحريا دقيقاً حتى أتم جمعه في صحف ، وإنما كان زيد يتتبع المكتوب في هذه الأشياء مع حفظه القرآن كله ٠ مبالغة في الضبط وزيادة في الاحتياط حتى تكون الكتابة معاضدة مؤازرة للحفظ ٠ (٢)

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر عقب استشهاد القراء في واقعة اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه : أن عمر أتاني فقال أن القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وأني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ٠ وإني أري أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال عمر هذا والله خير ٠ فلم يزل عمر يراجعني ٠ حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأي عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهم ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ٠ فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال .

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف مصر ١٩٣٦ ، ص ١٠
وأيضا العز بن عبد السلام : الفوائد ص ٢٦
وأيضا ابن حجر : فتح الباري جـ ١٠ ص ٣٨٦

(٢) ابن حجر : فتح الباري ص ٣٨٧

ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن . قلت كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم (١) .

حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر طيلة حياته ثم عند حفصة بنت عمر ، وقد ثويلت هذه الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة .

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار ، وقد راعي زيد في كتابة هذه الصحف أن تكون مشتملة على ما ثبتت قرآنيته بطريق التواتر ، واستقر في العرضة الأخيرة ، ولم تنسخ تلاوته ، وأن تكون مرتبة الآيات والسور جمعيها . ومقتضي كلام العلماء ومنهم الإمام الداني والإمام الشاطبي في العقلية والإمام ابن الجزري في كتابة المنجد أن الصحف المذكورة كتبت مشتملة على الأحرف السبعة (١) التي نزل القرآن بها والتي وردت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن رسول الله ﷺ . وكان جمعه في عهد الصديق رضي الله عنه من أجل مناقبه ، وأفضل مزاياه لأنه ضمن للمسلمين حفظ كتابهم من التفرق والضياع .

وقد قال الإمام على كرم الله وجهه " أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمه الله . فأبو بكر هو أول من جمع كتاب الله " أخرجه ابن أبي داود في كتابه المصاحف بإسناد حسن .

زيد بن ثابت أول من كتب القرآن منظماً :

زيد بن ثابت أنصاري ، خزوجي من جهتي الأب والأم ، فأبوه ثابت بن الضحاك النجاري ، وأمه النوار بنت مالك من بني النجار ، وكنيته ، كما يذكر عز الدين بن الأثير في أسد الغابة : أبو سعيد او أبو عبد الرحمن أو أبو خارجة . وكان عمره يوم قدم الرسول . ﷺ المدينة أحدى عشرة ، ولذلك استصغره رسول الله يوم بدر يوم أحد ، فرده عن المشاركة في الوقعتين فيمن رده يومئذ ، ثم أجازه يوم الخندق لبلوغه الخامسة عشرة ، وكان ينقل التراب مع المسلمين في حفر الخندق ، فقال رسول الله ﷺ : أنه نعم الغلام . (٢)

---

(١) كثرت الأقوال في تفسير النزول على سبعة أحرف كثرة لخصها المفسرون وعلقوا عليها . والذي يعنينا هنا من هذه الأحرف السبعة أنها ليست القراءات السبع المشهورة بهذا العدد ، وأن هذه الأحرف إنما هي لهجات مختلفة في اللغة العربية ، وكان إقراء الرسول عليه والسلام القرآن لأصحاب هذه اللهجات بما تستطعه ألسنتهم ، فاختلف الإقراء باختلاف لهجاتهم اقتضته الضرورة تيسيراً على أصحاب اللهجات المختلفة وتسهيلاً لهم . راجع د . عبد الصبور شاهين تاريخ القرآن ١٩٦٦ . ص ، ص ١٣٨

(٢) ابن حجر : فتح الباري ص ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨ وأيضا ابن الأثير : أسد الغابة دار الشعب القاهرة

وعند مقدم النبي إلى المدينة ، قرأ زيد بن ثابت على مسمع من النبي سبع عشرة سورة ، فأعجبه ذلك فقال : تعلم كتاب اليهود ، يعني العبرية ، فأني ما آمنهم على كتابي ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حذقتها ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له ، وقال زيد قال لي النبي ﷺ أني اكتب إلى قوم ، فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية فتعلمتها في سبعة عشر يوما .

ولكن زيد بن ثابت ، وهو صغير ، كان يحظى بتقدير خاص من الرسول ﷺ إذ أرسله في وقعة أحد ، وهو دون الخامسة عشرة ، ليتفقد سعد بن الربيع بين القتلى ، ليبلغه السلام من رسول الله ، إن كان على قيد الحياة ، فينادي زيد على سعد فيجده بين جراحه ودمائه الزكيه الطاهرة ، فيقول له يا سعد : رسول الله يقرئك السلام ويسأل كيف نجدك ؟ فيجيب سعد : وعلى رسول الله السلام ورحمة الله .. أجد ريح الجنة ، ثم يقول أبلغ رسول الله مني السلام ، وقل له جزاك الله عن الإسلام خيرا ، ثم يؤكد سعد لزيد ، أن مبتغاة الوحيد ، وهو يودع الدنيا ، أن يسلم الرسول ، وهذا هو الحب الذي أظهر الإسلام على الدين كله .. وإذا كان رسول الله يثق كل الثقة بزيد ، فمن الضروري بالتالي أن يثق به أبو بكر وعمر ، فقد أبي أبو بكر أن يستجيب إلى ما دعاه إليه عمر من جمع القرآن استنادا إلى أن رسول الله ﷺ لم يفعله ، وأنه كيف يفعل أمرا لم يفعله رسول الله ، فلما قال عمر لأبي بكر أن الجمع هو خير ، رأي أبو بكر أنها حجة سليمة ، فأقر عمر على وجهة نظرة واقتنع بها وطلب من زيد بن ثابت أن يتولى جمع القرآن ، فأبي أولا حتى إذا قال له أبو بكر نفس العبارة التي قالها عمر اقتنع زيد ، واستجاب وخاصة بعد أن قال له أنك شاب عاقل لا نتهمك . (١)

ولما لم يسترح عثمان بن عفان إلى اللهجات العربية التي كان القرآن يتلى بها يومئذ ، أمر بأن تكتب رواية واحدة فريدة بلغة قريش ، فاختيرت لجنة برياسة زيد بن ثابت انتهت إلى قراءة واحدة هي التي نتلوها اليوم ويتلوها المؤمنون بعدنا حتى قيام الساعة .

وفي كتاب " من بلاغة القرآن " للدكتور أحمد أحمد بدوي في موضوع : الفاصلة قد تتحتم ، روي عن زيد بن ثابت أنه قال : أملي على رسول الله ﷺ لهذه الآية : " **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما** " (٢) وهنا قال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ، فقال له معاذ : لم ضحكت يا رسول الله ؟ قال بها ختمت .

---

(١) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ١٠٦
(٢) المؤمنون : ١٢ ـ ١٤

واختلف في تاريخ وفاة زيد ، فقيل في سنة خمس وأربعين ، وقيل اثنتين وقيل ثلاث وأربعين أو إحدى وخمسين ، وصلي عليه مروان بن الحكم ، ولما توفي قال أبو هريرة " اليوم مات حبر هذه الأمة ، وعسي الله أن يجعل في ابن عباس خلفا منه " ٠

وروى المسعودي في مروج الذهب عن سعيد بن المسيب ، أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ، ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار ٠

ولا يصح أن يدور بخلد أي إنسان أن ما خلفه زيد كان نتيجة لاكتناز ، لأن زيدا أول من يعلم أن جزاء الاكتناز النار ، ولكنه خلف ما خلف بعد أن أدي الزكاة ، وبعد أن تصدق ما وسعه التصدق لأن عدالة الإسلام جعلت كل فرد في ظله غنيا بحقه ، فقد حدث في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وقد امتد سلطان الدولة الإسلامية شرقا إلى الصين وغربا إلى مراكش ، أنه لم يوجد شخص واحد يقبل الزكاة ، فحول عمر حصيلتها إلى شراء سلاح للمسلمين ، ومن قبل قال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم الطائي : سيجئ يوم لا يجد المسلم فيه من يقبل الصدقة منه ٠ (١)

أسباب جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه :

ظلت الصحف التي جمع فيها القرآن في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق مدة خلافته ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها ، وبقيت عندها إلى أن طلبها الخليفة الثالث عثمان بن عفان في صدر خلافته ، ففي عهده اتسعت الفتوحات ، وامتد العمران ٠ وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ، ونبتت ناشئة جديدة في حاجة إلى دراسة القرآن ٠ وطال عهد الناس بالرسول ﷺ٠ وبالوحي والتنزيل ٠ وكان كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر عندهم من الصحابة ٠ فأهل الشام يقرءون أبي بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عند الله بن مسعود ٠ وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري ٠ (٢)

---

(١) الذهبي : سير اعلام النبلاء جـ١ ص ١٢٢ وأيضا ابن قتيبة : : المعارف ص ١١٩
(٢) ابن حجر : فتح الباري جـ ١٠ ص ٤٠٢

لذا كان بينهم اختلاف في وجوه القراءة ، ومنشأ هذا الاختلاف إنزال القرآن على سبعة أحرف كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ بالأحاديث . ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : " سمعت هشام ابن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساور في الصلاة – أي أقاتله – فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه – أي جمعت رداءه على لبته – فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ . قال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت كذبت . فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت أني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها .

فقال رسول الله اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ . فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم كذا أنزلت . ثم قال أقرأ يا عمر فقرأت القراءة التي أقرانى فقال صلي الله عليه وسلم كذلك أنزلت ، أن هذه القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه " . (١)

وكان هذا الخلاف مدعاة إلى فتح باب الفرقة والشقاق بين المسلمين في قراءة القرآن العظيم ، خصوصا بهد هؤلاء المختلفين عن النبوة . وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه ويأخذون جميعا برأيه . واستحفل الداء ، وكادت أن تكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، وكانت الأمصار النائية عن المدينة والحجاز أشد خلافات ونزاعاً . أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل القرآن الكريم لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار البعيدة ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها عند الاختلاف ، إنما كان كل صحابي في إقليم يقرئهم بما يعرف من الحروف التي نزل القرآن بها . ولم يكن بينهم مصحف جامع يرجعون إليه .

وفي السنة الثانية أو الثالثة على اختلاف الروايات من خلافة عثمان رضي الله عنه ، سنة خمس وعشرين من الهجرة ، كان حذيفة بن اليمان مأموراً بغزو الري وهي مدينة مشهورة بالعرق . فرأي كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة . ورأي أن كلا من جماعات المسلمين يزعم أن قراءته أفضل من قراءة غيره ، فاستعظم ذلك حذيفة وأكبره . وفزع إلى الخليفة عثمان وأخبره الذي رأي وقال له : أدرك الناس قبل أن يختلفوا في القرآن ، الذي هو أصل الشريعة ودعامة الدين كما اختلف اليهود والنصارى في كتبهم . (٢)

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ص ٢٢
(٢) ابن دريد : الجمهرة جـ٢ ص ١٣٨

فلهذه الأسباب والأحداث أدرك عثمان رضي الله عنه بثاقب نظره أن رواء هذا الاختلاف فتنة كبري ففكر في علاجها • قبل أن يستفحل خطرها : فجمع أعلام الصحابة وذوي الرأي منهم وكان عددهم أثني عشر ألفا للبحث عن علاج هذه الفتنة ووضع حد لهذا الاختلاف • فأجمعوا رأيهم على نسخ مصاحف يرسل لكل إقليم مصحف منها يكون مرجعا للناس عند الاختلاف • وعلى إحراق ما عداها من المصاحف • ومنها مصاحف كانت لبعض الصحابة ، وهي مصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أبي بن كعب ، ومصحف عائشة ، ومصحف الإمام على • ومصحف سالم مولي حذيفة بن اليمان وغيرها • أصبحت كلها مغسولة بالماء ثم حرقت بالنار وعندئذ طهر الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع •

وبذلك استأصل الخلاف في كتاب الله العزيز • وبعث عثمان إلى حفصة أم المؤمنين واستحضر من عندها الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه • (١)

وأحضر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبيد الرحمن بن الحارث ابن هشام • وأمرهم أن ينسخوها ، وشرط عليهم أن يكون النسخ على لسان قريش أي على مصطلح كتابتهم كما نص على ذلك جماعة من المحققين •

وجعل الرئيس عليهم زيد بن ثابت لعدالته وحسن سيرته • ولكونه كان كاتب الوحي المداوم عليه بين يدي النبي ﷺ ، ولاعتماد أبي بكر وعمر عليه في كتابة المصحف في خلافة الصديق ، قيل ، وقد انضم لمساعدتهم جماعة منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبي بن كعب ، وأنس بن مالك ، وإيان بن سعد ، ومالك بن عامر جد الإمام مالك ، وابن أنس ، وكثير بن مفلح ، فنسخوها في المصاحف بالتحرير التام • وكان نسخ هذه المصاحف بإشراف الخليفة عثمان ، وأعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار • وكانوا لا يكتبون في هذه المصاحف شيئا إلا بعد أن يعرض على الصحابة جميعا ويتحققوا أنه قرآن ، وأنه لم تنسخ تلاوته ، وأنه استقر في العرضة الأخيرة ، فلم يكتبوا ما نسخت تلاوته ، ولا ما لم يكن في العرضة الأخيرة • (٢)

---

(١) حفصة ابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، عرفت فى عصرها بإتقانها للقراءة والكتابة هذا بخلاف بنوتها للخليفة وزوجيتها للرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب تحقيق على محمد نهضة مصر ١٩٦٠ جـ ٣ ص ٩٠٥ وأيضا ابن حجر : فتح الباري جـ ١٠ ص ٣٩٢

وقد كتبوا مصاحف متعددة وكان قصد الخليفة وعثمان إرسال ما وقع عليه إجماع الصحابة إلى الأقطار الإسلامية ، وهي متعددة ، وكتبوا هذه المصاحف خالية من النقط والشكل لتكون مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم ٠ فالكلمة التي اشتملت على أكثر من قراءة وخلوها من النقط والشكل يجعلها محتملة لما اشتملت عليه من القراءات تكتب برسم واحد في جميع المصاحف وذلك نحو " فتبينوا و " نشرها " و " هيت لك " و " أف " وهكذا ٠ أما الكلمات التي تضمنت قراءتين أو أكثر ، وتجريدها من النقط والشكل لا يجعلها لما ورد فيها من القراءات ٠ لا تكتب برسم واحد في جميع المصاحف بل ترسم في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ٠ وفي بعضها برسم آخر يدل على القراءة الأخرى نحو " ووصى بها إبراهيم " بالبقرة فقد رسمت في بعض المصاحف بواوين قبل الصاد وفي بعضها بإثبات همزة الواوين ففي قراءة " ووصى " وفي قراءة " وأوصى " " ونحو " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم " بآل عمران رسم في بعض المصاحف بواو قبل السين وفي بعضها بحذف الواو ٠ ونحو تجري تحتها الأنهار ، بالتوبة في الموضع الأخير منها رسمت في المصحف المكي بزيادة من قبل تحتها وفي بقية المصاحف بحذفها ونحو " فإن الله هو الغني الحميد ، كتبت في بعض المصاحف بإثبات ضمير الفصل " وهو " وفي بعضها بحذفها ٠ والذي دعا الصحابة إلى سلوك هذا المنهج في كتابة المصاحف أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته التي نزل بها القرآن الكريم ، فكانت هذه الطريقة أدنى بالإحاطة بالوجوه التي نزل عليها القرآن الكريم ٠ فلا يقال أنهم أسقطوا شيئا من قراءاته لأنها منقولة متواترا عن رسول الله ﷺ ٠ ومن هنا يتضح أن اختلاف القراء الذي أفزع حذيفة وعثمان رضي الله عنهما ، وكان سببا في كتابة المصاحف إنما كان في أحرف وقراءات تلقاها قراؤهم قبل العرضة (١) الأخيرة ثم نسخت بهذه العرضة ولكن نسخها لم يبلغ هؤلاء القراء ٠

ولما أتموا نسخ الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة أم المؤمنين وأرسل إلى كل أفق من الآفاق الإسلامية مصحفا مما نسخوا ٠ وأمر بما سواه من صحف أو مصاحف أن يحرق سدا لباب الشر وحملا للمسلمين على أن يجعلوا هذه المصاحف مرجعهم الوحيد وأصلهم المعتمد ، فرضي الله عن ذي النورين عثمان ٠ فقد أرضي بذلك العمل الجليل ربه ٠ وحافظ على القرآن الكريم وجمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنعه إلى اليوم وما بعج اليوم ٠ ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن رسم الحروف التي كتب بها مصحف عثمان كل يمثل البداية الأولي لتكوين حروف الهجاء العربية واستقلالها ، وان رسم هذه الحروف بلغ في التطور مبلغا كبيرا مع ازدهار الحضارة الإسلامية في مختلف الأقطار التي دخلها الإسلام ٠

---

(١) العرضة : أن يقرأ واحد ويقابل عليه الآخر للمراجعة ٠ وقد ورد في حديث عائشة وفاطمة رضي الله عنهما من أن جبريل كان يعارض النبي صلي الله عليه وسلم القرآن في كل سنة رمضان مرة واحدة ٠ وفي السنة الأخيرة من حياته عارضه مرتين فأحسن الرسول صلي الله عليه وسلم بدنو أجله ٠ وبأن القرآن بعد العرضة الأخيرة كتبه زيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ من كبار الصحابة ٠

راجع : د ٠ محمود غنيم : حفني ناصف أعلام العرب العدد ٤٧/ ١٩٦٥ ص ٧٣ ٠

نسخ المصاحف بعد عهد الخلفاء الراشدين :

ما كاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه يرسل المصاحف إلى الأقطار الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة الإسلامية من كل صوب وحدب · وحتى اجتمعت عليها الكلمة في الشرق والغرب · وحتى نسخت على غرارها الآلاف المؤلفة من المصاحف المقدسة في كل جيل · وكانت من النقط والشكل· ولم يكن الشكل والإعجام معروفاً عندهم . وأخذت يد التحسين تتناول المصاحف بألوان شتى ، وضروب متنوعة · فهناك تحسينات مادية ترجع إلى النسخ والتجليد والتذهيب ونحو ذلك ، وهذه فيها بعض التيسير والترغيب والتشويق إلى القرآن الكريم ·

وهناك تحسينات معنوية وجوهرية ترجع إلى تقريب النطق بالحرف · وتمييز الكلمات بوضع النقط والشكل لتحقيق الفروق بين الحروف المشابهات · وفي هذا نسوق الحديث ، والمعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطا ولا مشكولا · لإبقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات الصحيحة المتواترة عن النبي ﷺ ، وضبط المصاحف بالشكل لم يحدث على المشهور إلا في عهد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان · ففي عهده اتسعت رقعة الإسلام ، واختلط العرب بالعجم ، وكادت ألسنة الأعاجم أن تطغي على اللغة الفصحى وفشا اللحن · وشق على الناس التمييز بين حروف المصحف وكلماته ، وخشي أمير المؤمنين أن يفضي ذلك إلى اللحن والتحريف في كتاب الله تعالي ، فعمل هو وأمراء المؤمنين من بعده على تلافي ذلك وأحدثوا من الوسائل ما يكفل صيانة الكتاب العزيز من اللحن وحفظة من التحريف ·(١)

تطور الكتابة العربية بالنقط والشكل :

كانت الطريقة لإصلاح اللحن هي تعديل شكل الحروف ، والمقصود بالشكل أو التشكيل هو ضبط الكلمة بالحركات ، لتؤدي المعنى المقصود منها وفقا للغة العرب الصحيحة · وكان أول من وضع مبادئ التشكيل في الكلمات هم السريان ، وذلك عندما دخلوا في المسيحية ، ونقلوا الكتب المقدسة إلى لغتهم ، ورأوا أن بعض الناس يلحنون في قراءتها ، فخافوا أن ينشأ عن ذلك تحريف في اللفظ قد يغير المعني ويؤدي إلى الكفر والزندقة · فاخترع الأسقف الرهاوي الملقب بمفسر الكتب والمتوفى عام ٤٦٠م مبادئ التشكيل ، وكان ذلك بالنقط ، فاقتدي العرب بالسريان في اتخاذ الحركات بالنقط الكبيرة والصغيرة ثم استبدلوها بالحركات المستقلة · (٢)

---

(١) ابن أبي داود : المصاحف ص ٢٧ وما بعدها

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام : الزينة في الكلمات الإسلامية العربية جـ ١ ص ٧٧

للنقط معنيان : الأول ما يعرض من حركة أو سكون أو شد أو نحو ذلك ويسمي هذا النقط الإعراب • **الثاني** : ما يدل على ذات الحرف ويبين المعجم منه والمهمل كالنقطة الموضوعة على الباء من أسفل • وعلى الجيم كذلك • والنقطتين على التاء من أعلاها ، والثلاث نقط على الثاء من أعلي ، والثلاث نقط الموضوعة على الشين والنقطتين تحت الياء ، قد ميزتها عما يشاركها في رسمها من التاء والثاء والياء ، ونقطة الجيم قد ميزتها عن الحاء والخاء ، ويسمي هذا النقط نقط الأعجام • والشكل هو ما يعرض للحرف من حركات كالفتح والكسر والضم والسكون ونحو ذلك ، ويرادفه الضبط ، وعلى هذا يكون المعني الأول للنقط مساويا لمعني الشكل والضبط •

والذي جنح إليه المحققون من العلماء أن المخترع الأول للنقط بمعناه الأول المرادف للشكل والضبط **هو" أبو الأسود الدولي "** وهو أول من ابتدع علم النحو ووضع أساس الشكل لأحرف العربية • وليس من المستبعد أنه استعان بطريقة السريان في وضع النقط إذ كان كثير المخالطة لهم • وربما درس وتعلم على أيدي أساتذة منهم • (١)

فقد ذكر الإمام الداني قال : كتب معاوية رضي الله عنه إلى زياد عامله بالبصرة يطلب عبيد الله ابنه • فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن • فرده إلى زياد ، وكتب إليه كتابا يلومه فيه ويقول : أمثل عبيد الله يضيع ، فبعث زياد إلى أبي الأسود الدولي • فقال يا أبا الأسود أن الأعاجم قد أفسدوا اللغة العربية ، فلو وضعت شيئا يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله تعالي ، فأبي ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل • فوجه زياد رجلاً • فقال اقعد في طريق أبي الأسود فإذا مر بك فأقرأ شيئا من القرآن وتعمد اللحن • ففعل ذلك ، فلما مر به أبو الأسود ، رفع الرجل صوته فقال : " أن الله برئ من المشركين ورسوله " بكسر اللام " ورسوله " فأستعظم ذلك أبو الأسود وقال " عزوجه الله أن يتبرأ من رسوله ، ثم رجع من فوره إلى زياد فقال : يا هذا أجبتك إلى ما سألت • ورأيت أن أبدأ بأعراب القرآن فابعث إلى ثلاثين رجلا • فأحضرهم زياد • فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلا من عبد القيس ، فقال له خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد كتب به ، فإذا فتحت شفتي فأنقط واحدة فوق الحرف ، فإذا أضممتها فأنقط النقطة إلى جانب الحرف ، وإذ كسلاتهما فأجعل النقطة في أسفله ، فإذا أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فأنقط نقطتين ، ويريد بالغنة التنوين لأنه يخرج من الخيشوم • فابتدأ بالمصحف حتى أتي على آخرة •(٢)

---

(١) أبي الطيب : مراتب النحويين ٨ ص وأيضا السيرافي : أخبار النحويين البصريين جـ ١٢
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٦٦

وعلى كل حال كان أبو الأسود الدؤلي صاحب الفضل في اختراع هذه الطريقة التي من شأنها أن تعلم الناس القراءة الصحيحة لكتاب الله تعالى ٠ لأنه أول من وضع قواعد للنقط المرادف للشكل ، وقد كتب هذا النقط كما قلنا بمداد يخالف لون المداد المكتوب به المصحف ٠ ويؤخذ مما تقدم أن من وضع النقط بمعناه الأول هو أبو الأسود الدؤلي وأنه لم يتعرض لنقط الإعجام وإنما تعرض لنقط الأعراب وعنه أخذ العلماء من بعده ، وأدخلوا عليه الإصلاح الثاني وهو أعجام الحروف (وضع النقط في الحروف) بعد الإصلاح الأول بحوالي ٢٠ سنة في عهد عبد الملك بن مروان وعلى يد واليه الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان واليا على العراق ٠ فقد دعا الحجاج الكتاب ومنهم **نصر بن عاصم الليثي** المتوفى سنة ٨٩هـ ويحيي بن يعمر العدواني قاضي خراسان المتوفى سنة ١٢٩هـ لوضع الإعجام بمعنى النقط ٠ ونقطت الحروف بنفس مداد الكتابة باعتبار أن النقط جزء من الحرف نفسه ٠ وظلت نقط الأعراب تكتب بحبر مخالف لحبر الكتابة ، كما رأيا أن إعجام الحروف يستلزم إعادة ترتيب الحروف الهجائية بحيث ترتب الحروف المتماثلة وتتتابع ٠ فيعد أن كانت أبجد هوز حطي كلمن سعفص ثخذ ضظغ أصبحت كالتالي أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ٠٠الخ .

ما يجب على كاتب المصحف :

تساؤل يتردد بين قراء القرآن ٠٠ هل يكتب المصحف الشريف حسب القواعد العامة للإملاء ، أو يكتب حسب قواعد الرسم العثماني ؟ اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب : **المذهب الأول :** يجوز كتابة المصحف الشريف حسب القواعد العامة للإملاء ، ولا يجب التزام الرسم العثماني في كتابته ، وممن أيد هذا القول وانتصر له ابن خلدون والقاضي أبو بكر الباقلاني وآخرين ٠ وقد استدل أصحاب هذا المذهب بثلاثة أدلة : (١)

(١) أن هذه الخطوط والرسوم هي إلا علامات وأمارات ، فكل رسم يدل على الكلمة ، ويفيد وجه قراءتها فهو رسم صحيح موافق للصواب ٠

(٢) أن كتابة المصحف على الرسم العثماني قد توقع الناس في الحيرة والالتباس ، والمشقة والحرج ، ولا تمكنهم من القراءة الصحيحة السليمة ، فيحرمون الثواب الموعود به على تلاوة القرآن الكريم ، وربما يتعرضون للعقوبة والإثم إذا قرءوا قراءة بعيدة عن جادة الصواب – فتيسيرا على الناس في قراءة القرآن ٠ ورفعا للمشقة والحرج عنهم ، وتمكينا لهم من القراءة الصحيحة السليمة حتى يحصلوا على الأجر الموعود به على قراءة القرآن – يكتب المصحف حسب قواعد الإملاء الحديثة ٠

(٣) ليس في الكتاب ، ولا في السنة المطهرة ، ولا في إجماع الأمة ولا في قياس شرعي – ليس في شئ من ذلك ما يدل على وجوب كتابه المصحف برسم معين ، وكيفية مخصوصة ، ولم يرد عن الرسول الأعظم أنه أمر أحدا من كتاب الوحي حين كتابة الآيات القرآنية أن يكتبها برسم خاص ، ولا نهي أحدا أن يكتبها بهيئة معينة ٠

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٦٣٩ وما بعدها

المذهب الثاني : تحب كتابة المصحف لعامة الناس على القواعد الإملائية المعروفة لهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني ، وإنما يكتب بالرسم العثماني للخاصة من الناس ، وممن جنح إلى هذا المذهب الإمام بدر الدين الزركشي في كتابة البرهان ، والإمام شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام • (١)

وقد استدل أصحاب هذا المذهب بأن كتابة المصحف حسب قواعد الرسم العثماني توقع الناس لا محالة في العسر والمشقة ، وتقضي بهم إلى اللحن والخطأ الفاحش والتحريف المشين ، والتغيير في كتاب الله تعالي بالزيادة فيه والنقص منه • وقال أصحاب هذا المذهب : ومع هذا يجب الاحتفاظ بالرسم العثماني ، لأنه من آثار سلفنا الصالح ، فلا نتغاضى عنه بالكلية مراعاة لجهل الجهلاء ، بل يبقي في أيدي العارفين الذين لا يخلو زمان من وجودهم ، ويشرف الزمان بهم • قال صاحب التبيان : أما كتابة المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء فقد جري عليه أهل المشرق بناء على كونها أبعد عن اللبس وتحامل أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك ، وقد سئل هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : لا – إلا على الكتابة الأولي • وقال الإمام الزركشي في البرهان : قلت : وهذا كان في الصدر الأول والعلم غض حي ، وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الإمام الشيخ عز الدين بن عبد السلام : لا يجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة ، لئلا يوقع في تغيير من الجهال • ثم قال في البرهان : ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه لئلا يؤدي إلى درس العلم ، وشئ قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأمة من قائم لله بحجة • واستند أصحاب هذين المذهبين أيضا في تعزيز مذهبيهما إلى أن الكتابة لم تغز ربوع الجزيرة العربية إلا قبل الرسالة المحمدية بزمن يسير ، وكانت منحصرة في نفر قليل من أهل مكة من قريش خاصة • (٢)

فكانت الكتابة حين نزول القرآن ووقت كتابته في العهود الثلاثة المتقدمة في دور الطفولة والتكوين والتدرج ، لم تبلغ أشدها ولم تستكمل نموها • وكان الكتاب حينئذ لم يحذقوا الكتابة ، ولم ينضجوا فيها – بل تقاصروا على جودتها وأحكامها •

وإذا كان القرآن الكريم قد كتب في هذا العهد – عهد طفولة الكتابة وضعفها – على يد هؤلاء البدائيين السذج في الكتبة الذين لم يحذقوها ولم يمهروا فيها ، فلا ينبغي لنا أن نقتدي بهم ، ونقتفي آثارهم في كتابة المصحف ، بل علينا أن نكتبه حسب القواعد المحدثة للكتابة ، وقد بلغت القمة ووصلت إلى الأوج في الرقي والتقدم •

---

(١) عز الدين عبد السلام :الفوائد ٣١ وأيضا الزركشي : البرهان في علوم القرآن جـ ١ ص ١٧٣
(٢) المرجع السابق ص ١٧٤

قال عبد الرحمن بن خلدون في المقدمة " فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط : لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع ، وأنظر ما وقع من أجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجادة ، فخالف الكثير من رسمهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بممارسة أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله – تعالي – وكلامه . كما يقتفي لهذا العهد خط ولي تبركا ويتبع رسمه صوابا أو خطأ ، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ، فتبع ذلك ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم كما يتخيل ، بل لكل وجهة ، يقولون في زيادة الألف في " لا أذبحنه " أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع . (١)

وفي مثل زيادة آلياء " بأييد " أنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض ، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم لنقص في قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وليس ذلك بصحيح .

هذا وقد مال إلى هذا المذهب من علماء هذا القرن المغفور له العلامة الشيخ " **حسين والي** " ، حيث قال في " كتاب الإملاء " لو كتبنا القرآن بخطنا المستعمل الآن لخرجنا من العهدة وقمنا بالأمر أحسن القيام ، كمن كلف شيئا ففعل خيرا منه ، لأنك قد علمت أن الخط الحاضر أحسن مما كان عليه من الطريقة القديمة التي كانت في زمن الصحابة رضي الله عنهم " . ومال إلى هذا المذهب أيضا الأستاذ العلامة الكاتب الكبير **أحمد حسن الزيات** .

قال رحمه الله من حديث طويل كتبه في مجلة الرسالة " ولو كان هذا الرسم – وهو الرسم القديم الذي كتبت عليه المصاحف العثمانية – موحي به من الله تعالي لآمنا به ، وحرصنا عليه ، ولكنه من عمل قوم كانوا قريب عهد بالخط ، فوقع فيه الخطأ والنقص والأشكال ، والغرض من كتابة القرآن أن نقرأه صحيحا لنحفظه صحيحا ، فكيف نكتبه بالخطأ لنقرأه بالصواب ، وما الحكمة في أن نقيد كتاب الله تعالي بخط لا يكتب به اليوم أي كتاب ؟؟

المذهب الثالث : يجب التزام الرسم العثماني في كتابة المصحف الشريف وإلى هذا ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف . وقد استدل أصحاب هذا المذهب بأن النبي صلي الله عليه وسلم كان له كتاب يكتبون الوحي ، وقد كتبوا القرآن كله بهذا الرسم ، وأقرهم الرسول على كتابته ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقد كتب القرآن كله على هذه الكيفية المخصوصة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٦٤١ وما بعدها

ثم تولى الخلافة بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأمر بكتابة القرآن كله في المصحف على هذه الهيئة ، ثم جاء عثمان رضي الله عنه فنسخت المصاحف العثمانية بأمره من صحف أبي بكر على هذا الرسم أيضا ، ووزع عثمان هذه المصاحف على الأمصار لتكون إماما للمسلمين ، وأقر أصحاب – رسول الله ﷺ – عمل أبي بكر وعثمان في المصاحف ولم ينكر أحد منهم عليهما شيئا ، بل ظفر كل منهما بإقرار جميع الصحابة لعملهم ، واستمر المصحف مكتوبا بهذا الرسم في عهد بقية الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، والأئمة المجتهدين في عصورهم المختلفة ، ولم يثبت أن أحداً من هؤلاء جمعيا حدثته نفسه بتغيير هجاء المصاحف ورسمها الذي كتبت عليه أولا وكتابتها برسم آخر يساير الرسم المحدث الذي حدث في عهد ازدهار التأليف في البصرة والكوفة ، بل ظل الرسم الحادث ، نعم ظل الرسم القديم منظورا إليه بعين التقديس والإكبار في سائر العصور المختلفة والأزمنة المتفاوتة ، مع أنه قد وجد في هذه العصور المختلفة إناس يقرءون ولا يحفظون وهم في الوقت نفسه لا يعرفون من الرسم إلا هذا الرسم الذي وضعت قواعده في عصر التأليف والتدوين ، وشاع استعمال هذه القواعد بين الناس في كتابة غير القرآن . ولم يكن وجود هذا الصنف من الناس مما يبعث الأمة على تغيير رسم المصحف بما تقضي به هذه القواعد الجديدة .

وإذا ثبت أن الرسم القديم الذي كتبت عليه المصاحف حظي بإقرار الرسول ﷺ له ، وإجماع الصحابة عليه ، ورضا أئمة الصدر الأول – وهم خير هذه الأمة - ، واتفاق التابعين وأتباعهم والأئمة المجتهدين عليه ، فلا يجوز العدول عنه إلى غيره ، وخاصة وأنه أحد أركان القراءة الصحيحة .

وهناك نصوص الأئمة من صدور هذه الأمة : روي الإمام السخاوي أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة سئل : أرأيت من استكتب مصحفا ، أرأيت أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ فقال : لا أدري ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الأولى . قال السخاوي : والذي ذهب إليه مالك هو الحق إذ فيه بقاء الحالة الأولي ، إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأخرى ، إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولوية ما في الطبقة الأولى .

وقال الإمام أبو عمرو الداني لا مخالف لمالك من علماء هذه الأمة . وقال الداني أيضا : سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو ، والياء ، والألف ، أتري أن يغير من المصحف إذا وجد فيه شئ من ذلك قال لا ، قال أبو عمرو : يعني الواو والياء والألف الزائدات في الرسم ، المعدومات في اللفظ نحو " لا أذبحنه ، بأييد ، أولو " (١)

---

(١) أبو عمرو الداني : المحكم في نقط المصاحف تحقيق د. عزة حسني . دمشق ١٩٦٠ ص ٣٣

وهكذا وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو ألف أو ياء أو غير ذلك ، وقال صاحب المداخل : ويتعين على كاتب المصحف أن يترك ما أحدثه بعض الناس في هذا الزمان من نسخ المصحف على غير المرسوم الذي اجتمعت عليه الأمة .

وقال النيسابوري : و جماعة من الأئمة :أن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا هذا الرسم في خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت وكان أمين رسول الله ﷺ وكاتب وحيه . وقال الإمام البيقهي في شعب الإيمان : من كتب مصحفا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوه شيئا ، فإنهم كانوا أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استداركا عليهم ، ونقل الإمام الجعبري وغيره إجماع الأئمة الأربعة على وجود إتباع رسم المصحف العثماني . **ولا شك أن المذهب الذي تطمئن إليه النفس ، وينشرح له الصدر ، ويستجيب له الضمير هو المذهب الثالث لأمور :**

١ – أن ما أورده أصحاب هذا المذهب الثالث نصوص علماء الإسلام ظاهر ، بل قاطع في الدلالة على وجوب التزام الرسم العثماني في كتابة المصاحف .

٢ – أن قواعد الهجاء والإملاء الحديثة عرضه للتغيير والتنقيح في كل عصر وفي كل جيل ، فلو أخضعنا رسم القرآن لهذه القواعد لأصبح القرآن عرضة للتغيير والتبديل ، وحيطتنا للكتاب العزيز ، وتقديسنا له يضطرنا إلى أن نجعله بمنأى من هذه التغييرات في رسمه وكتابته .

٣ – أن تغيير الرسم العثماني ربما يكون مدعاة من قريب أو من بعيد إلى التغيير في جوهر الألفاظ والكلمات القرآنية ، ولا شك أن في ذلك القضاء على أصل الدين – وأساس الشريعة – وصد الذرائع – ومهما كانت بعيدة – أصل من أصول الشريعة الإسلامية التي يبني عليها الأحكام ، وما كان موقف الأئمة من الرسم العثماني إلا بدافع من هذا الأصل العظيم مبالغة في المحافظة على كيان ألفاظ القرآن وصيانتها من تطرق التحريف إليها ، والعبث فيها .

٤ – أن في الرسم العثماني خصائص كثيرة ، ومزايا عظيمة ، وقد تكفل علماء الرسم ببيانها فارجع إليها أن شئت .

ومن الطريف ما يذكر في هذا الموضوع أن محكمة استئناف مصر حكمت بمصادرة مصحف ، وعللت حكمها بأن هذا المصحف مكتوب حسب قواعد الإملاء ، ومخالف للرسم العثماني الذي يجب أن تكتب المصاحف كلها حسب قواعده ، وكان من حيثيات حكمها أيضا أن الأمم تحافظ على آثار سلفها وتقدمها . وتجعلها في المحل الأول من العناية والمحافظة – ومن ذلك أن الشعب الإنجليزي لم يسمح لطابع ما ، ولا لناشر كائنا من كان – أن يكتب أشعار " شكسبير " شاعرهم العظيم بغير لغة العصر الذي عاش فيه .. مع تغير كثير من كلماته وطرق إملائه عن المعهود المتداول في عصر الشاعر المذكور ، ولم يسمح الإنجليز بهذا لأن شعر الشاعر المذكور أصبح في نظرهم رائداً لا يجوز المساس به حتى في طريقة إملائه

، أفلا يكون الأجدر بالمسلمين – وهم يقدسون كتابهم أشد من رأي الإنجليز لشعر هذا الشاعر – أن يحافظوا على رسمه وكتابته .

وأما ما يتعلل به أصحاب المذهبين الأولين من أن كتابة المصاحف على الرسم العثماني توقع القارئين في حيرة وارتباك • الخ ما قالوه – فمردود بأن المصاحف في هذا العصر – خصوصا المصحف المعتمد من الأزهر الشريف ومن إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة السعودية قد ضبطت بالشكل التام ، ووضعت علامات مخصوصة تدل على الحروف المحذوفة التي ينطق بها ، وإمارات معينة تدل على الحروف الزائدة التي لا ينطق بها ، وألف الناس القراءة في هذه المصاحف ، ومرنوا عليها من غير حرج ولا مشقة •

لا يكتب المصحف إلا على الرسم العثماني :

ومن قرأ – بإمعان وروية – اصطلاحات رسم المصحف وضبطه ، الموضوعة في ذيل المصحف تحت عنوان " التعرف بالمصحف الشريف ، يستطيع أن يقرأ في المصحف بغاية اليسر والسهولة • وبناء على هذا يجب على كاتب المصحف وطابعه وناشرة أن يتحرى كل منهم كتابته على قواعد الرسم العثماني ولا يخل بشئ منها ، ولا يغير فيها شيئا ما بزيادة أو نقص ، أو إثبات أو حذف ، حفظا لهذا التراث الخالد ، وإقتداء بالصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، وأعلام الإسلام في سائر الأمصار ، ولا فرق في ذلك بين المصاحف الكاملة والمصاحف الصغيرة " الأجزاء " التي يتعلم فيها الصغار ، ومن في حكمهم من الكبار ليتمرنوا على قواعد الرسم العثماني منذ طفولتهم ، ونعومه أظفارهم •

وعلى معلمي القرآن – حيثما كانوا – ألا يدخروا وسعا في تعليم أبنائهم تلك القواعد من الصغر ، حتى يشبوا وقد وقفوا عليها ، وأحاطوا بها خيرا ، وأصبحت القراءة في المصحف ميسورة عليهم وسجية لهم •

ويجب على كاتب المصحف أيضا أن يرسم الكلمات رسما يوافق الرواية التي يكتب المصحف عليها ويستحب من كاتب المصحف أن يجتهد في تحسين كتابته وإيضاحها – وتبين حروفه وتجويدها ، وأن يكتبه في حجم كبير احتراما للقرآن الكريم وتعظيما لشأنه ، ولذلك ورد أن عمر بن الخطاب وجد مع رجل مصحفا كتبه بخط دقيق – فكره ذلك عمر وضرب الرجل وقال له : " عظموا كتاب الله تعالي " وتجوز كتابة المصحف بالذهب : وقد استحسن هذا الإمام الغزالي ، ولكن ورد عن ابن عباس وأبي ذر وأبي الدرداء أنهم كرهوا ذلك ، وقد مر على ابن مسعود رجل يحمل مصحفا قد زين بالذهب فقال ابن مسعود : " أن أحسن ما يزين به المصحف أن يتلى حق تلاوته وأن يعمل بما فيه وروي عن الإمام مالك أنه أباح نقط المصحف وشكله في مصاحف الصغار •

ومن في حكمهم من الكبار ، ومنع ذلك في الأمهات ، أي المصاحف الكاملة • وعن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : لا بأس بنقط المصحف ، وعن ربيعة ابن أبي عبد الرحمن أنه قال ، لا بأس بشكل المصحف

وقال الإمام النووي من كبار علماء الشافعية نقط المصحف وشكله مستحب ، لأن ذلك صيانة له من اللحن والتحريف • وقال الإمام الداني في كتاب النقط " والناس في جميع أمصار المسلمين من لدن التابعين إلى وقتنا هذا على الترخيص في ذلك – أي في نقط المصحف وشكله – في الأمهات وغيرها ، ولا يرون بأسا برسم فواتح السور ، وعدد الآيات ، ورسم الخموس والعشور في مواضعها والخطأ مرتفع عن إجماعهم •

القرآن وعلم القراءات :

عرف ابن الحاجب القرآن الكريم بأنه : " الكلام المنزل للإعجاز بسورة منه (١) . وعرفه البزدوي بأنه : " كلام الله – تعالي – المنزل على رسوله ﷺ المنقول عنه نقلا متواترا بلا شبهة " (٢)

وقد ذكر الإمام الشوكاني تعريفات عدة للقرآن الكريم ، وأورد بعض الاعتراضات عليها ، والقرآن عنده هو : " كلام الله المنزل على محمد المتلو المتواتر " (٣) . وعرف الزركشي القراءة بأنها : " هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفية نطقها من تخفيف ، وتثقيل وغيرهما " (٤) .

مباديء علم القراءات :

علم القراءة هو علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالي ، واختلافهم في الحذف والإثبات والتحريك والتسكين ، والفصل والوصل ، وغيز ذلك من هيئة النطق والإبدال ، وغيره من حيث السماع (٥) . وقيل : " علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها ، معزوا لناقله " (٦) .

---

(١) ابن الحاجب : مختصر المنتهي الأصولي جـ ٢ ص ١٨
(٢) البزدوي : كشف الأسرار جـ ١ ص ٢١
(٣) الشوكاني : ارشاد الفحول ، ص ٣٠
(٤) الزركشي : البرهان في علوم القرآن جـ١ ص ٣١٨
(٥) المرجع السابق ص ٣١٩
(٦) المرجع السابق ص ٣١٩

وموضوعه : كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها وكيفية أدائها .
واستمداده : من النقول الصحيحة والمتواترة عن علم القراءات الموصلة السند إلى رسول الله ﷺ (١) وفائدته : العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية ، وصيانتها عن التحريف والتغيير ، والعلم بما يقرأ به كل من أئمة القراءة ، والتمييز بين ما يقرأ به وما لا يقرأ به (٢) . وفضله : أنه من أشرف العلوم الشرعية ، أو هو أشرفها لشدة تعلقه بأشراف كتاب سماوي . واسمه : علم القراءات ، جمع قراءة ، جمع قراءة بمعني وجه مقروء به .

واضعه : أئمة القراءة ، وقيل : أبو عمر حفص بن عمر الدوري ، وأول من دون فيه أبو عبيد القاسم بن سلام (٣) . حكم الشارع فيه : الوجوب الكفائي تعلما وتعليما . ومسائله : قواعده الكلية كقولهم : كل راء مفتوحة أو مضمومة وقعت بعد كسرة أصلية ، أو ياء ساكنة يرققها ورش ... الخ (٤) .

وقد نظم هذه المباديء الشيخ أحمد المقر المالكي في مقدمة نظم الإضاءة في علم التوحيد فقال (٥) :

من رام فنا فليقدم أولا	علما بحده وموضوع تلا
وواضع ونسبة وما استمد	منه وفضله وحكم يعتمد
واسم وما أفاد والمسائل	فتلك عشر للمنا وسائل
وبعضهم منها على البعض اقتصر	ومن يكن يدري جميعها انتصر

(١) المرجع السابق : البدور الزاهرة ص ٥
(٢) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ص ٦
(٣) ابن سلام : مقدمة شرح الإمام الزبيدي ص ٥٥
(٤) المرجع السابق ص ٥٦
(٥) المرجع السابق ص ٥٦

نشأة القراءات :

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ في مدة ثلاثة وعشرين عاما وكان النبي ﷺ يتلو ما نزل عليه أصحابه في الصلاة وغيرهما ، وكانت تلاوته بحروف شتى ، فمن الصحابة من أخذ عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذ عنه بحرفين ، ومنهم من زاد على ذلك (١) . ومن هنا نعلم نشأة القراءات وبدايتها كانت مع بداية نزول القرآن الكريم إلى نهايته ، سواء في ذلك المكي منه والمدني . وكان أخذ الصحابة عن النبي ﷺ على طبقتين :

الطبقة الأولي : أخذت عن النبي ﷺ نذكر منهم على سبيل المثال :

١. **عثمان بن عفان** – رضي الله عنه – ثالث الخلفاء الراشدين (٢) ، تلمذ عليه الكثير منهم : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي (ت ٩١)

٢. **على بن أبي طالب** - رضي الله عنه وكرم الله وجهه ابن أبي طالب ابن هاشم بن عبد مناف هاشمي قرشي تربى في بيت النبوة ، ولما كلف النبي ﷺ بتبليغ الرسالة ..

كان على بن أبي طالب أول من اسلم من الشباب وعند الهجرة وقد في فراش النبي حتى لا تتنبه قريش إلى خروجه من مكة ، ولما لحق به الرسول ﷺ بالمدينة زوجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء ، وقد أنجب منها السبطين الشريفين الحسن والحسين وكذا السيدتين الفاضلتين زينب وأم كلثوم رضي الله عنهم جميعا . وجاهد وقاتل مع رسول الله ﷺ وبعد وفاة الرسول عاون خلفاءه بمشورته ورأيه ولقد بويع الإمام على بالخلافة بعد استشهاد الخليفة الراشد عثمان بن عفان وأصبح – رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة (٣) ، تتلمذ عليه كل من

- أبي عبد الرحمن السلمي (ت ٧٣ هـ) .
- أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) .
- عبد الرحمن بن أبي ليلي (ت ٨٣ هـ) .

(١) القرطبي : المقدمة ص ٩٩
(٢) الذهبي : معرفة القراء الكبار ص ٢٤
(٣) الذهبي : معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٣١

٢. أبـي ابـن أبـي كـعـب : وتتلمذ عليه الكثير منهم عبد الله بن عباس وأبو هريرة وأبو عبد الرحمن السلمي . (١)

رضي الله عنهم أجمعين وأبي بن كعب خزرجي النسب من جهتي الأب والأم أبوه كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية ابن عمرو بن مالك النجار وأمه صهيلة بنت الأسود من بني النجار ، ولأبي من الولد الطفيل ومحمد " ولأبي كنيتان : الأولي أبو المنذر . كناه بها النبي ﷺ في حديث ، والثانية : أبو الطفيل كناه بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وكان أبي أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله وأقرأ الأمة على الإطلاق ولا يفهم من ذلك أنه أقرأ الصحابة على الإطلاق فهو لا يرجحهم جميعا، روي عن النبي ﷺ أنه قال أقرأ أمتي أبي ، وروي أنه قال لأبي : أمرت أن أقرأ عليك القرآن أو أعرض عليك القرآن . قال : الله سماني لك ؟ قال الله سماك لي ، فجعل أبي يبكي ، قال قتادة : نبئت أنه قرأ عليه لم يكن .

فلقد شاءت إرادة الله أن يقرأ الرسول بعضا من القرآن على أبي للإرشاد والتعليم ، فيتعلم ألفاظه وصيغه وأدائه ، ومواضع الوقوف ، وصنع النغم في نغمات القرآن في أسلوب ألفه الشرع . وقدره بخلاف ما سواه من النغم المستعمل في غيره ، فكانت القراءة عليه ليتعلم منه (٢)

ومع كثرة أصحاب رسول الله ﷺ فإنه كان يعرف لكل واحد منهم خصيصته التي هي به ألصق ، وهو بها أجدر وهذا من عطاء الله الذي منحه لرسوله ، فكان حقيقيا بالاصطفاء الإلهي الذي بلغ في ضوئه الرسالة ، وأدي الأمانة ، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ونهارها كليلها وقد مهدله الرسول ﷺ سبيل الاشتغال بالقرآن والاحاطة بمواضع النزول ، حتى أصبح أهلا لكي يجيب من يسأل عنها ، ولم يقتصر ما أتاحته الصحبة للرسول ﷺ على علم أبي بمواضع نزول الوحي وأوقاته ، فلقد أحاط أبي بأسباب النزول ووقف على كثير من أحوال الذين نزل القرآن فيهم .(٣)

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ١ ص ٣١
(٢) ابن العربي : صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي جـ ١٣ ص ٢٦٥ وأيضا ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ١ ص ٣١
(٣) السيوطي : أسباب النزول ص ١٢٨

قال رسول الله ﷺ : أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على بن أبي طالب ، وأقرأهم أبي ابن كعب ، وأفرضهم – أعلمهم بالفرائض – زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت النبي ﷺ **يقول خذوا القرآن من أربعة ، من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ ، وأبي بن كعب** ، أي تعلموا منهم . والأربعة المذكورين اثنان من المهاجرين واثنان من الأنصار ، وربما كان ذلك لأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذ القرآن عنه ﷺ مشافهة . ولأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأن يؤخذ عنهم . (١)

وكان أبي يكتب في الجاهلية قبل الإسلام ، وكانت الكتابة في العرب قليلة – ولذلك سماهم القرآن الأميين – وكان أبي ممن كتب لرسول الله ﷺ ،الوحي قبل زيد بن ثابت ومعه أيضا ، وأول من كتب لرسول الله ﷺ بعد مقدمه إلى المدينة .وشهد أبي العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار في رواية أصحاب السير جميعا ، كما شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وآخي رسول الله ﷺ بينه وبين طلحة بن عبيد الله ، وقيل آخي بينه وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

وكانت لأبي مكانة فريدة وعظيمة لدي المسلمين جميعا ، لا فرق في ذلك بين رئيس ومرءوس كبير أو صغير ، فهو سيد المسلمين بلا خلاف ... طلب رجل حاجة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته وإلى جنبه رجل أبيض الشعر أبيض الثياب ، فقال أبي : فيها بلاغنا وزادنا إلى الآخرة ، وفيها التى نجازي بها في الآخرة – قلت من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا سيد المسلمين أبي بن كعب وكان يحدث بالمدينة ويختم القرآن في ثماني ليال ومثله في هذا عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود . ونظرا لورعه وشدة تدينه ، أجابه عمر حين قال له : ما لك لا تستعملني أي تجعلني عاملا لك في أحد قطاعات الدولة أجابه عمر بقوله أكره أن يدنس دينك، فقصر جهده على العمل في رحاب القرآن (٢)

وبالرغم من أن أبيا كان في إحدى حالاته يسأم كثرة السؤال وخاصة عندما يكون متعبا ومريضا ، إلا أنه كان في نهاية المطاف يبكي ويترضى السائل ، تكفيرا عما بدا منه ، فهذا الصحابي الجليل حريص دائما على ارتياد مواطن الرحمة والغيث من الله تبارك وتعالي أينما تكن لا يسمح لنفسه أن تفلت منها ، فهو حين يستيقن من الرسول عليه السلام أن الأمراض كفارات وتطهير للأجسام من الذنوب ، يود مصاحبتها له ، ولكنه يود مع ذلك إلا تشغله عن الحج ولا العمرة ولا الجهاد في سبيل الله ، ولا عن الصلاة المكتوبة في جماعة . فانظر كيف كان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام حريصين أشد الحرص وأوكده على أن ينالوا ثواب الله في جميع حالاتهم ، في الصحة والمرض والصحو والغفوة والحركة والسكون والقيام والقعود والسراء والضراء ، ولن يتأتى بغير المداومة على طاعة الله واستجلاب رضاه . (٣)

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٨
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٣ ص ٦ وأيضا ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ٢ ص ٣٣٠
(٣) المرجع السابق ص ٣٣٢

فقد روي عن جذوب بن عبد الله البجلي قال : أتيت المدينة ابتغاء العلم ، فدخلت مسجد رسول الله ﷺ ، فإذا الناس فيه حلق يتحدثون فجعلت أمضي – أتجاوز – الحلق حتى أتيت حلقة فيها رجل شاحب عليه ثوبان ، كأنما قدم من سفر ، فسمعته يقول : هلك أصحاب العقدة ورب الكعبة ولا آسي عليهم أحسبه قال ذلك مرارا فجلست إليه فتحدث بما قضي له ، ثم قام فسألت عنه بعد ما قام : من هذا ؟ قالوا سيد المسلمين أبي بن كعب ، فتبعته حتى آتي منزله ، فإذا هو رجل زاهد منقطع يشبه أمره بعضه بعضا فسلمت عليه ، فرد علي السلام ، ثم سألني من أنت ؟ قلت من أهل العراق قال أكثر مني سؤالا فغضبت وجثوت على ركبتي ورفعت يدي حيال وجهه ، فاستقبلت القبلة وقلت : اللهم نشكوهم إليك . إنا ننفق نفقاتنا وينصب أبداننا ونرحل مطايانا ابتغاء العلم ، فإذا لقيناهم تجهموا لنا وقالوا لنا ، فبكي أبي وجعل يترضاني ويقول ويحك ، لم أذهب هناك ، لم أذهب هناك وقال اللهم إني أعاهدك لئن أبقيتني إلى يوم الجمعة لا تكلمن بما سمعت من رسول الله ﷺ لا أخاف فيه لومة لائم ، فانصرفت عنه ، وجعلت أنتظر الجمعة ، فلما كان يوم الخميس ، خرجت لبعض حاجتي ، فإذا السكك غاصة من الناس ، لا أجد سكة إلا يلقاني فيها قلت : ما شأن الناس ... ؟ قالوا أنا نحسبك غريبا ... قلت أجل قالوا : مات سيد المسلمين أبي بن كعب ، قال جندب : فلقيت أبا موسي بالعراق فحدثته حديث أبي قال : والهفاه لو بقي حتى تبلغنا مقالته . (١)

وفي الصحيحين لأبي بن كعب ، قال قال لي رسول الله ﷺ أي آية في كتاب الله أعظم .... ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : أبي أتدري أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، قال فضرب رسول الله ﷺ في صدري ليهنئك العلم أبا المنذر . وقال ابن حبان في حديث أبي بن كعب : ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل من الثواب مثل ما يعطي لقاريء أم القرآن .(٢)

وممن روي عن أبي بن كعب من الصحابة عمر رضي الله عنه ، وكان يسأله عن النوازل ويتحاكم إليه في ابن عباس وعبد الله بن خباب وابنه الطفيل رضوان الله عليهم أجمعين .

واختلف في وفاة أبي بن كعب فقال ابن عبد الله في الاستيعاب مات أبي في خلافة سنة تسع عشرة أو اثنتين وعشرين من الهجرة ، وقيل مات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين . وقال على بن المديني : مات العباس وأبو سفيان بن حرب وأبي بن كعب قريب بعضهم من بعض في صدر خلافة عثمان .

---

(١) المرجع السابق ص ص ٣٣١ – ٣٣٢
(٢) المرجع السابق ص ٣٣٢

ورجح الواقدي في الطبقات الكبرى أن أبيا ، مات سنة ثلاثين في خلافة عثمان وهو أثبت الأقوال عنده بدليل ، أن عثمان بن عفان أمر أبيا بجمع القرآن يؤيد ذلك ما أخبر به عمار بن الفضل قال : حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهمام عن محمد بن سيرين أن عثمان جمع اثني عشر رجلا من قريش والأنصار فيهم أبي بن كعب وطلب منهم جمع القرآن . (١)

كان أبي بن كعب سيد المسلمين حقا ، وقد تجلي ذلك فيما أصابهم من حزن يوم وفاته ، فقد روي عن عتي السعدي : قال : قدمت المدينة في يوم ريح وغبره وإذا الناس يموج بعضهم في بعض فقلت : ما لي أري الناس يموج بعضهم في بعض ... ؟ أما أنت من هذا البلد ؟ قلت : لا قالوا : مات اليوم سيد المسلمين أبي بن كعب .

وهكذا يكون أبي بن كعب بدأبه في قراءة القرآن وإقرائه قد أسهم بدور له تأثيره في عملية تدوين وتوثيق النص القرآني والمحافظة على صحبته .

٤. **زيد بن ثابت** : أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، وهو الذي جمع القرآن في عهد الخليفتين (٢) " أبى بكر الصديق " ، و " عثمان " رضي الله عنهم ، وتتلمذ عليه الكثيرون ، منهم : مالك رضي الله عنهم أجمعين .

٥. **عبد الله بن مسعود** – رضي الله عنه - ، من أجلاء الصحابة ، ومن السابقين إلى الإسلام ، أتم حفظ القرآن في حياة النبي ﷺ (٣) قال عنه ﷺ : " من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ ابن أم عبد " (٤) . تتلمذ عليه كثيرون منهم : علقمة بن قيس ، والأسود النخعي ، ومسروق بن الأجدع وأبو عبد الله السلمي .

٦. **أبو موسي الأشعري** – رضي الله عنه – الصحابي الجليل ، كان من أطيب الناس صوتا بالقرآن وكان أبو موسي الأشعري يعلم الناس القرآن في مسجد البصرة ، ويجلسون إليه حلقا حلقا وكان يعلم القرآن خمس آيات خمس آيات (٥) سمع النبي ﷺ قراءته فقال : " لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود " (٦) . تتلمذ عليه كثيرون ، منهم : سعيد بن المسيب ، وحطان الرقاشي ، وأبو رجاء العطاردي .

---

(١) ابن مجاهد : السبعة . تحقيق شوقي دار المعارف ط ٣ ص ٦٣
(٢) ابن سعد : الطبقات جـ ٢ ص ٣٥٨
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ١ ص ٤٦١
(٤) حديث صحيح رواه أحمد ٧/١ وابن ماجه والبيهقي ٤٥٢/١
(٥) بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٥٣/١
(٦) أخرجه البخاري : (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣) والنسائي ١٨٠/٢

الطبقة الأخرى : هى التى أخذت عن الصحابة – رضي الله عنهم – كابن عباس ، وعبد الله بن السائب ، وأنس بن مالك ، وغيرهم .

المشهورون من التابعين : اشتهر من التابعين عدد كثير بإقراء القرآن الكريم نذكر منهم ما يلي :

أولا : في المدينة المنورة : اشتهر في المدينة : ابن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن يسار ، وزيد بن أسلم ، وابن شهاب الزهري ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث (١) .

ثانيا : في مكة المكرمة : كما اشتهر في مكة : مجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وابن أبي مليكة ، وعبيد بن عمير ، وغيرهم (٢) .

ثالثا : في البصرة : كما اشتهر في البصرة : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وعامر بن عبد القيس ، وجابر بن الحسن ، وابن سيرين ، وغيرهم (٣) .

رابعا : في الكوفة : كما كان بالكوفة : الأسود بن زيد النخعي وسعيد بن جبير ، والحارث بن قيس ، وأبو عبد الرحمن بن شرجبيل ، وعمرو بن ميمون وغيرهم (٤)

خامسا : في الشام : كذلك كان بالشام : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، وأبو الدرداء (ت ٣٢ هـ) قاضي دمشق وسيد القراء فيها ، يجعل الناس حين يجتمعون عليه بعد الصلاة الغداة للقراءة عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة عريفا أو ملقنا ، حتى بلغ عدد الذين يقرأون القرآن عنده أزيد من ألف رجل فكافة المسلمين يحرصون على تعلم القرآن ، ويدل على ذلك ما ذكره ابن الجزري (منجد المقرئين ص ٨) وأن حمزة كان يقدم الفقهاء من طلبة العلم وأن أبا عبد الرحمن السلمي وعاصما كان يبدآن بأهل السوق لئلا يحتسبون عن معايشهم . ويقف أبو الدرداء في المحراب يرفق القراء ببصره ، وقد يطوف عليهم قائما ، فإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء يعرض عليه . ولما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر ومن القراء أيضا خليد بن سعيد صاحبْ أبي الدرداء وغيرهم (٥)

---

(١) **الذهبي :** سير أعلام النبلاء جـ١ ص ٤٦٣
(٢) **ابن العماد الحنبلي :** مناهل العرفان ٤١٥/١
(٣) **المرجع السابق** ص ٤٦٥
(٤) **ابن العماد الحنبلي :** شذرات الذهب ٧٠/١
(٥) **ابن العماد الحنبلي :**مناهل العرفان ١/ ٤١٥

ثم تفرغ – بعد ذلك – علماء تخصصوا في علم القراءات يضبطونها حتى صاروا في هذا المجال أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وهم الأئمة الذين نسبت إليهم السبع أو العشر ، رحمهم الله جميعا وجزاهم الله خير الجزاء .

ولما توفى النبي ﷺ ، وقاتل الصحابة أهل الردة ، وقتل منهم نحو الخمسمائة ، استقر رأي أبي بكر رضي الله عنه على جمع القرآن في مصحف واحد خشية أن يذهب بذهاب الصحابة (١) .

وقال الصحابة رضوان الله عليهم بتعليم القرآن كما سمعوه من رسول الله بحروفه المختلفة ، وكثر الأخذون عنهم مع تعدد الوجوه واللغات في القراءة التى يحويها (نزول القرآن على سبعة أحرف) فكل يقرأ بما علم حتى كان العام الثلاثين من الهجرة ، ووقع الخلاف بين الناس في القراءة ، فأفرغ الأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فنسخ من المصحف الذي جمعه الصديق مصاحف وبعث بها إلى الأمصار ، وجمع المسلمين عليها ، ومنع من القراءة بما خالف خطها ، وساعده على ذلك زهاء اثني عشر ألفا من الصحابة والتابعين ، واتبعه على ذلك جماعة المسلمين بعده. وكان هذا العمل رمزا للوحدة في الأمة الإسلامية ، ومضت المائة الأولي من الهجرة والناس يقرؤون بها في المصاحف على ما أقرأهم الصحابة والتابعون وتابعو التابعون . (٢)

تاريخ القراءات :

إن المعرفة الصحيحة لتاريخ القراءات وبيان علاقتها بالرسم تقتضي الرجوع إلى العصر الأول للدعوة الإسلامية حين تلقي رسول الله ﷺ أمر السماء لأول مرة **(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم "** (العلق ٩٦/١-٥) ، ثم تتبع الكيفية التى تلا بها رسول الله القرآن على أسماع الناس امتثالا لأمر الله **(يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)** (المائدة ٥/ ٦٧) ، ثم كيف كان الصحابة يقرأونه ويقرئونه للأجيال المتتالية منذ عصر الخلافة الراشدة وما تلاها حتى ظهرت اختيارات القراء التى اقترنت شهرتها بأسماء معينة مثل قراءات السبعة أو غيرهم .إلا أن الأمر ليس من السهولة بحيث يمكن الاحاطة بكل جوانب ذلك التاريخ ، بسبب قصور الهمم في محاولات البحث عن تاريخ هذا الموضوع ، خاصة أن مصادر القراءات الأولي لم يزل أكثرها مخطوطا ، وأقدم ما طبع فيها لا يرجع إلى أبعد من أواخر المائة الثالثة وهو كتاب (السبعة) القيم لابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) وقد لا يكون هناك أقدم منه قد بقي من المؤلفات الأساسية الأولي في القراءات من مثل كتاب أبي عبيد وأبي حاتم وابن جرير الطبري وغيرهما من المؤلفات التى يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الهجري الأول .

---

(١) الزبيدى : على متن الدرة ص ٦٤

(٢) مكي : الإبانة عن معاني القراء ص ٢٢

وليس الهدف هنا تفصيل ذلك التاريخ أو استقصاء كل ما تقدمه المصادر المتاحة في هذا المجال ، إذ إن ذلك يحتاج إلى مكان أوسع مما تسمح به طبيعة هذا البحث ، وإنما اكتفي بما يحقق القصد الذي أشرت إليه وهو معرفة العلاقة بين القراءات وبين التدوين بالرسم العثماني ، وما سأذكره إنما هو نتيجة للمعلومات التى توصلت إليها ولا أدري ما ستكون عليه صورة ذلك العرض إذا ما توفرت روايات وأخبار جديدة تؤيد أو تصحح ما سأذكره ، ولست جامدا عند رأي يظهر خطؤه ولا معرض عن رأي جديد تظهر صحته إن شاء الله .

أولا : القرآن في حياة النبي ﷺ وفترة الخلافة الراشدة :

إن بداية ذلك التاريخ مرتبط ببداية نزول الوحي على رسول الله – وتلاوته القرآن على الناس بمكة ، فكانت تلاوة القرآن أولي وسائل الدعوة التى كان يلقي بها النبي ﷺ - الناس في المواسم ، فكان يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن ، وكان الداخلون في الإسلام يقرأون القرآن أو يتلي عليهم لمعرفة أركانها الإسلامية ومتطلبات الإيمان من جانب ، ويتلونه للتعبد من جانب آخر (١) ، وكان رسول الله ﷺ يحثهم على ذلك بمثل قوله " تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها " (٢) ، أو مثل قوله الذي ورد في حديث عثمان " أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " (٣) .

وقد كان النبي ﷺ يوجه الصحابة الذين أتقنوا القرآن عنه أن يقرئوا الداخلين في الإسلام ، إذ لم يكن يجد الفرصة دائما ليتلو هو على كل المسلمين خاصة بعد أن كثروا ، فقد أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة بعد بيعه العقبة قبل الهجرة : " وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمي المقريء بالمدينة ، مصعب " (٤) ، وإذا دخل رجل في الإسلام دفعه رسول الله ﷺ إلى الصحابة ، وقال لهم " فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه وعلموه القرآن ... " (٥) ولعل مما يصور جانبا من ذلك الحرص على أن يتعلم كل مسلم القرآن حديث الصحابي عبادة بن الصامت قال (٦) : " كان رسول الله ﷺ يشغل فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا ، يعلمه القرآن ، فدفع إلى رسول الله ﷺ رجلا ، وكان معي في البيت ، أعشية عشاء أهل البيت ، فكنت أقرئه القرآن فأنصرف انصرافة إلى أهلة ، فرأي أن عليه حقا ، فأهدي إلى قوسا لم أر أجود منه عودا ولا أحسن منه عطفا ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت ما تري يا رسول الله فيها ؟ قال جمرة بين كتفيك تقلدتها أو تعلقتها وكان من أخلاق القراء ألا يأخذوا على تعليم القرآن شيئا

---

(١) ابن هشام : السيرة
(٢) مسلم : جـ١ ص ٥٤٥
(٣) أبوحيان :البحر المحيط جـ١ ص ١٢
(٤) السخاوي : الوسيلة ورقة ١٦أ
(٥) المرجع السابق ورقة ١٦أ
(٦) الطبري : التاريخ جـ٢ ص ٢٧٤

وتضـع هذه الروايات اللبنات الأولـي فـي مجـال قـراءة القرآن ، وتصـدق قـول علـم الـدين السـخاوي " ولـم يـزل المسلمون يدينون بتلاوة القرآن ، ويرون ذلك أفضل الأعمال في أول الإسلام وهلم جرا (١) " .

وكـان قـاريء القرآن ويقدم فـي كثير مـن مجـالات الحياة ، فقد روي عن ابن عمر أن سـالما مولـي أبـي حذيفـة ، كـان يؤم المهاجرين بقباء فيهم عمر بن الخطاب وأبو سلمة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ لأنه كان أقرأهم وأكثرهم قرآنا ، وحين دفن المسلمين شـهداء أحد كـان في القبر الواحد الاثنين والثلاثة ، وقال لهم رسول الله ﷺ " قدموا أكثرهم قرآنا " (٢) .

وكـان النبـي ﷺ قـد امتدح بعض الصـحابة لحسـن قـراءتهم مـثل أبـي موسـي الأشـعري ، وأبـي بـن كعب مسعود ، وكـان عدد من الصحابة قد حفظوا القرآن في حياة النبـي ﷺ . وكانـت طـريقة قـراءة القرآن فـي هذه الفترة تشير إلى حرص كبير علـى الإتقـان وتحـري الدقـة والضبط ، فقد كان رسول الله ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثـلاث ، ولعل هذا بعد اكتمال نزول القرآن . وكان أبي بن كعب يختم القرآن في ثمانـي ليال ، وكان تميم الداري يختمه في سبع ، وسئلت أم سلمة – رضي الله عنها – عن قـراءة رسـول الله ﷺ فوصفت حرفا حرفا ، وسئل أنس بن مالك عنها فقال : كان يمد صـوته مدا (٣) .

وتشـير طـريقة تلقـى الصـحابة للقـرآن مـن النبـي ﷺ إلـى تلـك المعانـي مـن الحرص على الإتقان وتحـري الدقة والضبط ، فقد روي عن أبي عبد الرحمن السلمي حديثا مشـهورا يبين فيه تلك الطريقة ، قال ابن مجاهد (٤) : " وحدثونا عن يحيى بن أبي كثير ، عن عطاء بن السائب قال : أخبرنـي أبو عبد الرحمن ، قال : حدثنـي الذين كانـوا يقرئوننا : عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب – رضـي الله عنهم – أن رسـول الله ﷺ كـان يقرئهم العشـر فلا يجاوزونها إلى عشر أخري حتى يتعلموا ما فيها من العمل فتعلموا القرآن والعمل جميعا " ، والعشر المذكورة في هذه الرواية يقصـد بهـا عشـر آيـات كمـا توضـح ذلك روايات المصادر الأخرى لهذا الخبر (٥) .

---

(١) السخاوي : الوسيلة ورقة ١٦أ
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ١٢١ وما بعدها
(٣) ابن سعد : الطبقات جـ ٧ ص ٢٣٥ وأيضا الزبيدى : على متن الدرة ص ٥٦
(٤) ابن مجاهد : السبعة ص ٦٩
(٥) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ص ١٧٢ وأيضاً الذهبي : معرفة القراء جـ١ ص ٤٦

وقد سبق الذكر أن قراءة القرآن في حياة النبي ﷺ كانت تتم في ظلال رخصة الأحرف السبعة ، حتى أن بعض الصحابة أنكر قراءات سمعها ، لكن النبي ﷺ صوب الجميع بقوله " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه أو منها " . وقصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم وغيرهما مشهورة .

وفي عهد الخلافة ازدادت الحاجة إلى تعليم القرآن لكثرة من دخل في الإسلام من العرب وغيرهم من الأمم ، وقد تم في هذه الفترة جمع القرآن في خلافة الصديق ، ثم توحيد المصاحف في خلافة عثمان ، ويبدو أن تعليم القرآن لم يكن متروكا للجهود الفردية ، بل كان منظما وخاضعا لرقابة الولاة في الأمصار الإسلامية ، فقد كتب يزيد بن أبي سفيان – أحد قادة الجيوش الإسلامية التى فتحت الشام وأحد ولاتها – إلى عمر بن الخطاب أيام خلافته : إن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم ، **فوجه إليه معاذ بن جبل وعبادة ابن الصامت ، وأبا الدرداء** ، وقال لهم : ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة ، منهم من يلقن فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس ، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين ، وقدموا حمص ، فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين ، أما معاذ فمات عام طاعون عمواس ، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها ، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات . رضي الله عنهم (١) .

وعلى هذا النحو الذي تصوره الرواية بدأت تنشأ مدارس القراءة في الأمصار الإسلامية حين راح الصحابة يعلمون الناس في الأمصار التى نزلوا فيها ويقرئونهم القرآن على النحو الذي حفظوه ، وهو لا يخلو من وجوه رخصة الأحرف السبعة ، وقد أدي ذلك بمضي الزمن إلى تفاقم الخلاف والتراجع في القرآن ، مما دفع الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى توحيد كتابة المصاحف وبثها في الأمصار الإسلامية قطعا للخلاف وحفاظا على نص القرآن . ويبدو أنه كما كان الهدف توحيد طريقة التدوين المصاحف كان أيضا توحيد القراءة في الأمصار ، وقد أورد الجعبري عن أبي على أنه قال : أمر عثمان زيد بن ثابت (ت ٤٥ هـ على الأكثر) أن يقرىء بالمدني ، وبعث عبد الله بن السائب (ت في حدود ٧٠ هـ) مع المكي ، والمغيرة ، بن شهاب مع الشامي (ت ٩١ هـ) . وأبا عبد الرحمن السلمي (ت ٧٣ وقيل ٧٤ هـ) مع الكوفي . وعامر بن عبد قيس مع البصري ، لكن ذلك لم يحل – على ما يبدو – دون استمرار رواية القراءات المتعددة خاصة ان ابن أبي داود يذكر أن عثمان – رضي الله عنه – قد قال للذين أنكروا عليه تحريق المصاحف المخالفة وأمرهم بالقراءة بما كتب : اقرأوا كيف شئتم ، إنما فعلت ذلك لئلا تختلفوا .

(١) ابن سعد : الطبقات جـ٢ ص ٣٥٦ وأيضا الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٤٨

لكن هجاء الكلمات في المصاحف ظلت كما رسمت في المصاحف العثمانية ، وقرأ الناس بما رووه وتعلموه من الصحابة الذين نزلوا بين أظهرهم ، ولا شك أن بعضا من تلك الروايات كان خارجا عن رسم المصحف ، ولكن تلك الروايات قل نقلها واعتمد الناس تدريجيا نقل الروايات التى لا تخرج عن الرسم . (١)

وفي فترة الخلافة الراشدة برزت مدارس القراءة وترسخت آداب تعلم القرآن وقراءته كان أبو الدرداء (ت ٣٢ هـ) قاضي دمشق وسيد القراء فيها (٢) ، يجعل الناس حين يجتمعون عليه بعد صلاة الغداة للقراءة عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريفا أو ملقنا ، حتى بلغ عدد الذين يقرأون القرآن عنده أزيد من ألف رجل فقد كان كافة المسلمين يحرصون على تعلم القرآن وقراءته ، وهو يقف في المحراب يرمقهم ببصره وقد يطوف عليهم قائما ، فإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء يعرض عليه ، وكان ابن عامر عريفا على عشرة ، فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر ، وكان أبو الدرداء هو الذي سن الحلق للقراءة ، وكان أبو موسي الأشعري يعلم الناس القرآن في مسجد البصرة ، يجلسون إليه حلقا حلقا ، وكان يعلم القرآن خمس آيات خمس آيات (٣) ، كذلك كان أبو عبد الرحمن السلمي يقرىء عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي ، ويخبرهم بموضع العشر والخمس ، ويقرىء خمس آيات ، وكان يحيى بن وثاب (ت ١٠٣ هـ بالكوفة) قد تعلم القرآن من عبيد بن نضيلة (ت ٧٥ هـ) آية آية ، وكان أبو جعفر المدني وشيبة بن نصاح يقرآن على كل رجل عشر آيات عشر آيات (٤)

ويبدو أن القراءة العامة التى كتب عليها المصحف العثماني لم تزل متميزة عن غيرها طوال القرن الأول ، وكانت القراءات الأخرى لا تزال متميزة ، وقد كانت الكوفة من أكثر الأمصار الإسلامية التى شهدت تنافسا شديدا بين القراءات ، فقد كانت قراءة الكوفيين هى قراءة عبد الله بن مسعود الذي أرسله عمر إلى الكوفة ليعلمهم ، فأخذت عنه قراءته ونقلها عنه أصحابه ، قال بن مجاهد : ولم تزل قراءة عبد الله بالكوفة لا يعرف الناس غيرها ، وأول من قرأ بالكوفة القراءة التى جمع عثمان – رضي الله عنه – الناس عليها أبو عبد الرحمن السلمي واسمه عبد الله بن حبيب ، فجلس في المسجد الأعظم ونصب نفسه لتعليم الناس القرآن ، ولم يزل يقرىء بها أربعين سنة (٥) ، وذكر صاحب كتاب المباني في مقدمته أن السلمي أقام على زيد بن ثابت ثلاث عشرة يقرأ عليه القرآن ، وكان قد أخذ القراءة إضافة إلى زيد عن عثمان وابن سعود وأبي ، وقرأ على علي وقرأ عليه وهو يمسك المصحف . (٦)

---

(١) السخاوي :جمال القراء ورقة ٨٤ أ
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٤١ وما بعدها
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٤٥٤ ، جـ٢ ص ٢٤٩
(٤) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ص ١٧٢ وأيضا ابن الجزري : غاية النهاية جـ١ ص ٣١٦
(٥) ابن مجاهد : السبعة ص ٦٨
(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ ص ٣١٦

ولم تختلف قراءة ابن مسعود من الكوفة بسهولة – رغم إقامة أبي عبد الرحمن السلمي الطويلة فيها – فقد كان له تلامذة حملوا عنه قراءته ، وقد روي ابن مجاهد بسند إلى الأعمش أنه قال " أدركت الكوفة وما قراءة زيد فيهم إلا كقراءة عبد الله فيكم اليوم ، ما يقرؤها إلا الرجل والرجلان " ، وينقل الذهبي أن سعيد بن جبير (ت ٩٤ وقيل ٩٥ هـ) كان يؤم الناس في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت . (١)

وهناك ما يشير إلى أن قراءة ابن مسعود مما وافق خط المصحف رواها القراء ضمن قراءاتهم ، فقد قال عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٩ هـ) : ما أقرأني أحد حرفا إلا أبو عبد الرحمن السلمي وكان قد قرأ على علي – رضي الله عنه – قرأ على عبد الله بن مسعود . ويذكر ابن قتيبة أن بين روايتي أبي بكر بن عياش وأبي عمر حفص بن سليمان عن عاصم اختلافا في حروف كثيرة (٢) ، ونجد تعليلا لهذا الاختلاف في قول عاصم نفسه لحفص : القراءة التى أقرأتك بها فهي التى قرأتها عرضا على أبي عبد الرحمن السلمي عن علي ، والتى أقرأتها أبا بكر بن عياش فهي التى كنت أعرضها على زر بن حبيش عن ابن مسعود .

ثانيا : الاختيار وأثره في القراءات :

كان المصحف العثماني قد كتب على قراءة واحدة وخطه محتمل لأكثر من قراءة إذ لم يكن منقوطا ولا مضبوطا ، وبعد أن أرسلت المصاحف العثمانية إلى الأمصار " قرأ أهل كل مصر من قراءتهم التى كانوا عليها بما يوافق خط المصحف ، وتركوا من قراءتهم ما خالف خط المصحف (٣) ، ويبدو أن الذين أرسلهم عثمان مع المصاحف لم يحاولوا حمل الناس على القراءة التى يقرأونها ، وقد قال أبو طاهر بن أبي هاشم (ت ٣٤٩هـ) تلميذ ابن مجاهد : " إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التى وجهت إليها المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : فثبت أهل كل ناحية على ما كان لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن " .

---

(١) الذهبي : معرفة القراء جـ١ ص ٥٧
(٢) ابن مجاهد : السبعة ص ٧٠
(٣) مكي : الإبانة ص ٤ ، ٢٩

وإذا كان المصحف العثماني قد كتب على قراءة بعينها فلماذا لا نجدها متمثلة بقراءة قارئ أو مصر من الأمصار إذن ؟ يمكن القول بناء على ما تقدم إن قراءة أهل المدينة كانت في القرن الهجري الأول أقرب إلى أن تكون تلك القراءة القراءة وقراءة الجماعة ، ويبدو أن معالم تلك القراءة أخذت تختفي شيئا فشيئا ، لأن أئمة القراءة كانوا قد قرأوا على شيوخ كثيرين ، فكانوا ينتخبون من قراءات أولئك الشيوخ قراءة يستمرون عليها ، وقد حدثت هذه الظاهرة منذ وقت مبكر ، فينقل ابن الجزري أن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) " كان يقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت إلا ثمانية عشر حرفا أخذها من قراءة ابن مسعود (١) . وقد عرفت ظاهرة تأليف قارئ قراءة من مروياته عن أكثر من شيخ بالاختيار ، فكان أئمة الإقراء في القرون الأولى ينتخبون قراءة من مجموع ما يرونه عن شيوخهم ، وكان نافع بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ) إمام أهل المدينة يقول : قرأت على سبعين من التابعين ، " فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته ، وما شذ فيه واحد تركته ، حتى ألفت هذه القراءة من هذه الحروف " ، ويروي أن ابن القعقاع من أكبر شيوخ نافع . (٢)

وهناك أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة ، فعلي بن حمزة الكسائي قرأ على حمزة وهو يخالفه في نحو ثلاث مائة حرف لأنه كان يتخير القراءات فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضا ، قال ابن النديم : وكان الكسائي من قراء مدينة السلام ، وكان أولا يقرئ الناس بقراءة حمزة ثم اختار لنفسه قراءة فاقرأ الناس في خلافة هارون وقال عنه الأزهري واختياراته في حروف القرآن حسنة ، وكذلك قرأ أبو عمرو بن العلاء على ابن كثير ، وهو يخالفه في حروف كثيرة لأنه قرأ على غيره ، واختار من قراءته ومن قراءة غير قراءة (٣) ، وكان لكثير من علماء القراءات اختيار في القراءة ، فلأبي عبيد اختيار في القراءة وافق فيه العربية والأثر ، ولأبي حاتم السجستاني اختيار لم يخالف مشهور السبعة إلا في حرف واحد (٤) ، وكذلك ليحيى بن المبارك اليزيدي اختيار خالف فيه أبا عمرو في حروف يسيرة ، واختيارات القراء أكثر من أن نحصرها هنا ، وقد كان لكثير من القراء اختياران أو أكثر (٥) .

ويقول أبو عمرو الداني إن معنى إضافة ما أنزل الله تعالى إلى من أضيف إليه من الصحابة كأبي وعبد الله وزيد وغيرهم من قبل أنه كان أضبط له وأكثر قراءة واقراء به ، وملازمة له وميلا إليه ، لا غير ذلك ، وكذا إضافة أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة وآثره على غيره وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر به وعرف به وقصد فيه وأخذ عنه ، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء ، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد . (٦)

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية جـ١ ص ٤٢٦
(٢) ابن مجاهد : السبعة ص ٦٢
(٣) مكي : الإبانة ص ١٧
(٤) ابن الجزري : غاية النهاية جـ٢ ص ١٨
(٥) المرجع السابق جـ٢ ص ٣٧٦
(٦) المرجع السابق جـ١ ص ٥٢

ولـم تستمر ظاهـرة الاختـيار طـويل «ا فقد وجد الأئمـة بعد فتـرة أن تكاثـر اختيارات الأئمة بلـغ حدا يحتاج إلـى جهود كبيرة ، ورأوا أن يقصروا نشاطهم على ضـبط الـرواية عمن تقدمهم . ولعل خير من يمثل هذا الاتجاة الجديد أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) شيخ الصنعة الذي قال عنه ابن الجزري : " وبعد صيته واشتهر أمره وفاق نظراءه مـع الدين والحفظ والخير ، ولا أعلم أحدا من شيوخ القراءات يحملها عنه تلاميذ منه " ، وقد كان من اليسير على ابن مجاهد أن يختار له قراءة يحملها عنه تلاميذه ، لكنه لم يفعل ذلك ، وأبي حين طلب منه ، على نحو ما ينقل تلميذه أبو طاهر بن أبي هاشم (ت ٣٤٩ هـ) حين يقول : سأل رجل ابن مجاهد لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفا يحمل عليه ؟ فقال : نحن أحوج إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا ، أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا " . (١)

وإذا كان أبو بكر بن مجاهد قد امتنع أن يختار حرفا ينسب إليه فإنه قد عمل على حفظ اختيارات أئمة القراءة ، فأختار من كل مصر من الأمصار قراءة قارئ اشتهر بالحفظ والأمانة ، وأطبق عليه بلده ، فعمل من ذلك كتاب السبعة وقد كان لعمل ابن مجاهد هذا أثره في تاريخ القراءات إلى اليوم وتدفع ظاهرة الاختيار إلى البحث عن المسوغات التى تجعل قارئنا ما يرجح قراءة معينة من مرويات عن شيوخه ، فالذين اختاروا من القراء إنما اقرأوا لجماعة وبروايات ، فاختار كل واحد مما قرأ وروي قراءة تنسب إليه بلفظ الاختيار ، فالاختيار لا يكون إلا مما رواه الأئمة ، وقد كان عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) عالما بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق العامة ويستنكرها الناس لذلك ، ولعل أهم تلك المسوغات بعد ثبوت الرواية هو موافقة خط المصاحف العثمانية ، خاصة بعد أن صارت هى معتمد الأمة ، فما كان مخالفا للخط خارجا عليه قلت روايته واتجه أئمة القراء إلى رواية ما وافق الخط منه ، ويروي ابن مجاهد أن الكسائي قال : السين في (الصراط) أسير في كلام العرب ، ولكن أقرأ بالصاد اتبع الكتاب ، الكتاب بالصاد (٢) ، والمقصود بالكتاب هنا خط المصحف ، وقد جاءت كلمة (سل) في قوله تعالي (**وسئل القرية التى كنا فيها**) (يوسف /٨٢) بالهمز وتركه ، لكن يحيى بن زياد الفراء يرجح قراءة ترك الهمز ، فيقول : " ولست أشتهي ذلك ، لأنها لو كانت مهموزة لكتبت فيها الألف كما كتبوها في قوله (**فأضرب لهم طريقا**) (طه /٧٧) و (وأضرب لهم مثلا) يس ١٣/٣٦ بالألف " ، وقال أبو عبيد في الوقف على (الظنونا ــ الرسولا ــ السبيلا) : " اختياري تعهد الوقف على هذه الحروف الثلاثة ، وإن يسكت عليها بالألف ، ليوافق خط المصحف ، ولا يخرج بها عن مذهب من مذاهب العرب ، ولغة من لغاتهم " وردد العلماء هذا المعني كثيرا ، حتى قال مكي : إنك تنظر ما يوافق الخط فتؤثره على الآخر . (٣)

---

(١) الذهبي : معرفة القراء جـ١ ص ٢١٧

(٢) ابن مجاهد : السبعة ص ١٠٧

(٣) الزمخشري : الكشاف جـ٢ ص ٣٦٤

وبعد أن انتشر النحو ودرسه القراء صار في أيديهم للترجيح بين القراءات المروية التي توافق الخط في الاختيار ، فقد كان الغالب على الكسائي اللغات والعلل والإعراب وكان قد قرأ على حمزة الزيات ثم اختار لنفسه قراءة غير خارجة عما قرأ به السلف ، وكان ورش عثمان بن سعيد (ت ١٩٧ هـ) قد أخذ القراءة عن نافع إمام المدينة ثم أشتغل بالعربية ومهر فيها ، و " لما تعمق في النحو اتخذ لنفسه مقرأ يسمي مقرأ ورش " ، ونجد روايات كثيرة تشير إلى ترجيح بعض الروايات على بعض استنادا إلى القواعد التي قعدها علماء العربية ، لكن الاستعانة بالنحو لم تدفع أحدا من القراء إلى الخروج عن روايات الأئمة ، وإذا حدث ذلك أنكره علماء القراءة والناس ، ولم يقرأوا به كما مر مع عيسي بن عمر الثقفي . (١)

ثالثا : التدوين في علم القراءات

أهتم العلماء بتدوين علم (القراءات) والتأليف فيه ، والخروج به من حيز التلقي والمشافهة إلى حيز التصنيف . وبعد الرجوع إلى كتب التراجم ، تبين أن هناك من سبق هؤلاء جميعا في التأليف في هذا العلم ، منهم :

١. يحيى بن يعمر (ت ٩٠ هـ) .
٢. أبان بن تغلب الكوفي (ت ١٤١ هـ) .
٣. مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) .
٤. أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) .
٥. حمزة بن حبيت الزيات (ت ١٥٦ هـ) .
٦. عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الكبير (ت ١٧٧ هـ)
٧. هارون بن موسي الأعور (ت ١٨٠ هـ) .
٨. هشيم بن بشير السلمي (ت ١٨٣ هـ) .
٩. يعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥) .
١٠. عبد الرحمن بن واقد الواقدي (ت ٢٠٩ هـ) .
١١. أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) .
١٢. أبو حاتم سهل السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) .
١٣. أحمد بن جبير الكوفي (ت ٢٥٨ هـ) .
١٤. إسماعيل بن إسحاق المالكي (ت ٣١٠ هـ) .
١٥. ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) .
١٦. الإمام محمد بن أحمد الداجوني " ت ٣٣٤ هـ " (٣٠) .

---

(١) الذهبي : معرفة القراءة جـ ١ ص ١٥٠ وأيضا الفراء : معاني القرآن جـ ١ ص ٤٢

ثم ألف العلماء في زمان ابن مجاهد وبعده في مجال القراءات واتسعت حركة التأليف ، فمنهم من صنف للعشرة كابن مهران في (الغاية) ، ومنهم للست كسبط الخياط في (الكفاية) ، ومنهم للسبع كالداني ومكي وغيرهما ، ومنهم للثمانية كالأهوازي في (الوجيز) ومنهم في المفردات كالحصري في (القصيدة الحصرية) في قراءة نافع ، ومنهم فيما فوق العشرة كابن الجندي في كتاب (البستان في القراءات الثالثة عشرة) .وظهرت بعض الكتب النافعة مثل (الكامل) لأبني القاسم يوسف ابن جبارة الهذلي (ت ٤٦٥ هـ) جمع فيه خمسين قراءة في ألف وأربعمائة وتسعة وخمسين رواية وطريق .

وكان في عصره أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري (ت ٤٧٨ هـ وألف كتاب " سوق العروس " فيه ألف وخمسمائة وخمسون رواية وطريقا قال ابن الجزري : وهذان الرجلان أكثر من علمنا جميعا من القراءات . لا نعلم أحد بعدهما جمع أكثر منها إلا أبا القاسم عيسي بن عبد العزيز الإسكندري (ت ٦٢٩ هـ) فإنه ألف كتابا سماه " الجامع الأكبر والبحر الأزخر" يحتوي على سبعة آلاف رواية وطريق

رابعا : الكتب المطبوعة في علم القراءات والمؤلفة حتى نهاية القرن الخامس الهجري .

الكتب المؤلفة في علم القراءات كثيرة ، ولا يزال أكثرها مخطوطا والكتب التالية هى بعض من التى طبعت والتى تمثل الفترة من القرن الثالث حتى نهاية الخامس وبداية السادس الهجري .

- **جزء فيه قراءات النبي ﷺ** لأبي عمرو حفص بن عمر الدوري المتوفى سنة (٢٤٦ هـ) ، تحقيق د / حكمت بشير ياسين ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) ، الطبعة الأولي

- **كتاب السبعة في القراءات** لأبن مجاهد ت ٣٢٤ هـ ، تحقيق الدكتور / شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .

- **إدغام القراء** لأبي سعيد السيرافي المتوفى سنة (٣٦٨ هـ) ، تحقيق الدكتور / محمد على عبد الكريم الرد يني ، مطبعة الأمانة بمصر ، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م) ، الطبعة الأولي .

- **الحجة في علل القراءات السبع** ، تأليف الحسن بن أحمد الشهير بأبي على الفارسي المتوفى سنة (٣٧٧ هـ) ، ط القاهرة .

- المبسوط في القراءات العشر ، تأليف أبي بكر أحمد بن الحسين ابن مهران الأصبهاني المتوفى (٣٨١) تحقيق سبيع حمزة حاكمي ، دار القبلة الثقافية بجدة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) ، الطبعة الثالثة .

- الغاية في القراءات العشر : للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين ابن مهران النيسابوري المتوفى سنة (٣٨١ هـ) ، تحقيق محمد غياث الجنباز ، مطبعة شركة العبيكان بالرياض (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ، الطبعة الأولي .

- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات ، تأليف أبي الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة (٣٩٢ هـ) ، تحقيق الأساتذة د / على الجندي ، د / عبد الحليم النجار ، د / عبد الفتاح شلبي ، طبع بالقاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

- كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى (٤٣٧ هـ) ، تحقيق الدكتور محيى الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) ، الطبعة الرابعة .

- التبصرة في القراءات لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة (٤٣٧ هـ - ١٠٤٥ م) تحقيق الدكتور محيى الدين رمضان ، منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ، الطبعة الأولي .

- الأحرف السبعة للقرآن : لأبي عرو الداني المتوفى (٤٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور / عبد المهيمن طحان ، مكتبة المنارة بمكة المكرمة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) ، الطبعة الأولي .

- تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع ، تأليف الإمام أبي على الحسن بن خلف بن عبد الله بليمه المتوفى سنة (٥١٤ هـ) ، تحقيق سبيع حمزة حامي ، مطبعة دار القبلة بجدة ، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م) ، الطبعة الأولي .

التدوين فى الدراسات الصوتية

تدعى اللغة العربية لغة الضاد ، كما يدعى الناطقون بها " الناطقين بالضاد " لأن هذا الحرف الضاد: والصوت المقترن به لا يرد فى أي لغة أخرى فى جميع لغات العالم، ولا سيما فى اللغات التى كانت تحيط بالمنطقة التى تتحدث بالعربية فى العهود القديمة، وحتى اللغات السامية التى هى شقيقات اللغة العربية لإنتمائها إلى نفس العائلة من اللغات لا تعرف أي لغة فيها حرف الضاد وصوته ، ولا يوجد هذا الصوت فى العبرية ولا فى السريانية أو اللهجات الآرامية، كما لم يكن واردا فى اللغات الأكادية والبابلية والآشورية فى العراق القديم ، ولا فى اللغة الحبشية القديمة.

وقد ورد استعمال حرف الضاد فى حديث الرسول ﷺ إذ قال: أفصح من نطق

الضاد بين أني من قريش ولا شك في أن العرب الأقدمين لاحظوا أن جيرانهم فى البلاد المحيطة بهم الذين يستعملون كلمات سامية ولا يلفظون الضاد.

وعلم الأصوات هو العلم الذى يدرس الأصوات اللغوية، من ناحية وصف مخارجها وكيفية حدوثها، وصفاتها المختلفة، التى يتميز بها صوت عن صوت، كما يدرس القوانين التى تخضع لها هذه الأصوات فى تأثرها بعضها ببعض، عند تركبها فى الكلمات أو الجمل.

فالصوت الإنساني الحي، هو موضوع علم الأصوات اللغوية. ولم يكن هذا العلم وليد العصر الحاضر. فقد شغل اللغويون عند اليونان والرومان والهنود من قديم، بالنظر فى الأصوات اللغوية، غير أن ما وصلوا إليه قديما، لم يكن قائما على أساس علمي ثابت، ولهذا فإنه لا يبلغ من الدقة والإتقان والضبط، ما وصل إليه المحدثون من علماء اللغات.

وإذا نظرنا إلى جهود علماء العربية فى هذا الشأن، نجد أن أصوات اللغة، كانت من الأمور، التى جذبت انتباه علماء العرب الأوائل، فعملوا فى جهد لا يعرف الملل، على إتقان النطق بها، وعلى الأخص عندما انتشر الإسلام فى بقاع الأرض المختلفة، وطرقت أسماع العرب أصوات اللغات الأخرى ، فخشى العلماء أن تتحرف أصوات عربية، بتأثرها بأصوات تلك اللغات، فلم يكد القرن الثانى الهجرى يبدأ حتى قام بين علماء العرب، من يصف الأصوات العربية، معتمدا على التجربة باللسان والأذن، لا على المعامل والأجهزة، إذا لم تكن قد عرفت بعد، فى ذلك العصر.

واشتهر من بين العلماء فى ذلك العصر الأول، **الخليل بن أحمد الفراهيدي** (ت١٧٥ هـ) الذى عنى كثيرا بدراسة الأصوات، وموسيقى اللغة وقد ساعده سمعه المرهف الحساس، على التفوق فى هذه الناحية، فوجه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه، واستخرج بحور الشعر وقوافيه و علم العروض، الذى لا يعدو أن يكون دراسة صوتيه، لموسيقى الشعر، وأتجه كذلك إلى الألحان والأنغام،وألف فى الإيقاع والنغم.

وأخيرا حين بدا له وضع معجم لألفاظ اللغة، رتبه على حسب مخارج الأصوات ، وهذا المعجم هو كتاب: "العين". ومهما يكن القول في شان هذا المعجم من انه تضمن مساءل لغوية؟؟، نقدها علماء العربية، بعد ظهوره وانكروا نسبتها إلى الخليل، ونزهوه عن الوقوع في أمثالها، وذهب بعضهم لهذا إلى نفي نسبة هذا الكتاب إليه فالذي لا شك فيه أن الخليل، قد وضع هيكل هذا المعجم، ورسم منهجه ونظامه، وان ما جاء فيه مما أنكره هؤلاء العلماء، إنما أقحم في ثناياه بعد الخليل.

رأى الخليل بن احمد ان الترتيب المألوف لحروف الهجاء العربية، وهي: أ ب ت ث ج ح ... الخ، إنما استمده النساخ والكتبة من الترتيب السامي القديم، الذي اشتهر عند الأمم السامية القديمة كالفينيقيين والعبريين، وهو ترتيب أبجد هوز حطي

كلمن الخ، وان النساخ قد وضعوا الرموز المتشابهة الصورة بعضها بجوار بعض، ومن هنا جاء الترتيب الهجائي المألوف لنا ، كما وجد الخليل أن هذا الترتيب الهجائي المألوف، ليس قائما على أساس علمي ، فآثر أن يختار ترتيبا آخر، أساسه مخارج الأصوات، ورتب معجمه (العين) على ذلك، فبدا بأصوات الحلق، وجعلها أقساما ثم أصوات أقصى الفم ثم أوسط الفم ، ثم أدنى الفم ، ثم الشفتين، فجاء ترتيبه للأصوات اللغوية في العربية على النحو التالي:
ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ي.

كان الخليل بن أحمد أسبق من ذاق الحروف، ليتعرف مخارجها، يقول عنه تلميذه الليث بن المظفر: (وإنما كان ذواقة، إنه كان يفتح فاهه بالألف، ثم يظهر الحرف، نحو: ا ب ، ا ت، ا ح ، ا ع، ا غ، فوجد العين ادخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب).

وهذا معناه تجربة النطق بالصوت ساكنا لئلا يختلط بغيره، ويلتبس على الناطق معرفة كيفية صدوره ومخرجه الدقيق، وهذه الطريقة تقرب مما يدعو إليه المحدثون، من علماء الأصوات.

وجاء "سيبويه" تلميذ الخليل بن أحمد فخصص للدراسة الصوتية فصولا في كتابه: "الكتاب"، وذكر عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها ، وذلك في باب عقده للإدغام، وقال في آخرة "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك (١) ". وقد رتب "سيبويه" الأصوات العربية حسب مخارجها على النحو التالي مخالفا في بعضه لترتيب الخليل:
ء ا هـ ع غ خ / ق ك / ج ش ى ض / ل ر ن / ط د ت / ص ز س / ظ ذ ث / ف ب م و .

وقد تأثر بكتاب سيبويه كل من جاء بعده من النحاة واللغويين، لا فى آراءه النحوية فحسب، بل فى آراءه الصوتية كذلك، فأخذوا يرددون كلامه فى الأصوات دون أن يزيدوا عليه ما يستحق الذكر، فهذا ابن جنى في القرن الرابع الهجري، يؤلف كتابا مستقلا فى علم الأصوات هو: "سر صناعة الإعراب"، لا يكاد يخرج فيه عن كلام سيبويه فى تعداد المخارج، ووصف الحروف، فكثيرا ما يقتبس نص العبارات التى جاءت فى كتاب سيبويه، ويقف عند حدودها.

---

(١) الخليل بن أحمد : كتاب العين جـ١ ص ٥٣

وهو فى بداية كتابه، يلتمس لحدوث الأصوات وسيله للإيضاح، لم يهتد إليها سيبويه من قبل، إذ يشبه ابن جنى مجرى النفس فى أثناء النطق بالمزمار، كما يشبه مدارج الحروف ومخارجها، بفتحات هذا المزمار، التى توضع عليها الأصابع، أو بوتر العود وأثر الأصابع، فيقول:"شبه بعضهم الفم والحلق بالناى، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجرى الصوت فى الألف غفلا بغر صنعه، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة.

ونظير ذلك أيضا وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل، سمعت له صوتا، فإن حصر آخر وتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى إصبعه من أدنى الوتر، تشكلت لك أصداء مختلفة... فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق، والخفقه عليه بالمضراب، كأول الصوت من أقصى الحلق، وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور، كجريان الصوت فى الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع، كالذي يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا، وإنما أوردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب". (١)

وجاء القرن الخامس الهجري، يحمل إلينا رسالة صغيرة في الأصوات العربية، للرئيس بن سينا ، فيلسوف الإسلام (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦ م) ، واسمها :"أسباب حدوث الحروف"، وهى مقسمة على ستة فصول، الأول منها فى سبب حدوث الصوت، ويقصد به صوت الإنسان وغيره والثاني فى سبب حدوث الحروف، ويقصد بالحروف الأصوات الإنسانية، والثالث فى تشريح الحنجرة واللسان، والرابع في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب، والخامس في الحروف الشبيهة بهذه الحروف، وليست في لغة العرب، والسادس في ان هذه الحروف من أي الحركات غير النطقية قد تسمع وحديث ابن سينا في هذه الرسالة، أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فلا نكاد نلمح فيها انه تأثر كغيره بكتاب سيبويه، فله مصطلحاته، وله وصفه الأصيل لكل صوت، مما جعله محل إعجاب وتقدير من بعض اللغويين المحدثين.

---

(١) الخليل بن أحمد : سر صناعة الأعراب جـ١٠ ص ٩

ورغم كثرة كتب القراءات في العصور المتأخرة، وعلاجها المسهب للقراءات القرآنية السبع والعشر وغيرها، نرى أنها حين تعرض لأصوات اللغة، تكتفي ببضع صفحات، تصف فيها مخارج الحروف وصفاتها، في صورة مقتضبة مختصرة، لا تخلو من الغموض أو التحريف، في بعض الأحيان، كما ان عناية أصحابها قد وجهت كلها، إلى رواية القراءات وسندها، معتمدين على تلقين القراءات وضبطها، عن طريق التلقي الشفوي، جيل بعد جيل، حتى انتهى الأمر إلى بضعة متون صغيرة **"علم التجويد"** يحفظها الطالب عن ظهر قلب، دون فهم لها في غالب الأحيان ، وقد التزمت هذه المتون في غالب أحوالها، نصوص سيبويه وعباراته في شرح أصوات اللغة ووصفها.

وفي القرن السادس الهجري، يؤلف الزمخشري كتابه "المفصل" في النحو، ويخصص القسم الأخير منه للدراسة الصوتية، فيردد فيه كلام الخليل وسيبويه، دون زيادة تذكر.

ولا نكاد نجد بعد هذا في كتب المتأخرين، ما يمكن ان يتسم بالأصالة في دراسة أصوات اللغة، سوى تلك المحاولة التي جاءت في كتاب السكاكي: "مفتاح العلوم" في أوائل القرن السابع الهجري، من رسم بدائي لأعضاء النطق.

تلك هي الدراسات الصوتية عند قدامى العرب، إما الدراسات الصوتية عند علماء الغرب، فقد ظهرت بوادرها في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، حين اخذ العلماء هناك، يقارنون اللغات الهنداوروبية ببعضها البعض. (١)

---

(١) من المؤلفات الحديثة في علم الأصوات باللغة العربية:

د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية .. ١٩٤٧
د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة .. فصل منهج الأصوات ١٩٥٥
د. محمد المبارك: فقه اللغة .. فصل الأصوات اللغوية.

الفصل الثانـــــــي
تدوين الحديث والسنة والفقه

الحديث لغة : ضد القديم ، واصطلاحا : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو صفة . ولقد سمي بذلك تمييزا له عن القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالي .
والسنة لغة : (الطريق) ، حسنة كانت أم سيئة ، يبين ذلك قوله ﷺ : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " . واصطلاحا ما أثر عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

يتضح مما تقدم أن المعني الاصطلاحي واحد في (الحديث والسنة) . ويري أكثر الباحثين أن كلمة الحديث عامة في قول النبي ﷺ وفعله ، و (السنة) خاصة بأعماله . والذي عليه الإجماع أنهما مترادفان لأنهما من مورد واحد ؛ فتوجيهه عليه الصلاة والسلام بالقول أو التقرير ؛ وطريقته في الحياة بالفعل أو الصفة لا تباين فيها ، وعرف بعض المحققين الحديث بقولهم : ما أضيف إلى النبي ﷺ أو الصحابي أو التابعي ليشمل المرفوع ، والموقوف ، والمقطوع .

جهود المسلمين في تدوين الحديث :
إن أمر ازدهار الكتابة في عصر النبوة لم يعد موضع مناقشة ، فقد استعملها الرسول ﷺ في شئون الحياة وأمور الدين معا

وعني المسلمون بالحديث منذ أول الإسلام ، وبذلوا كل ما لديهم من جهد لسماعه وفهمه ثم استيعابه وحفظه ، وكتابته ، وحرص الصحابة والتابعين على تلقي الحديث من رسول الله ﷺ بلا واسطة ، وكان يطيب لهم أن يلازموه ليأخذوا عنه ما استطاعوا . (١)

وكان الرسول ﷺ يجعل لدرس الحديث مجالس في المسجد ، يقعد فيها ويحدث من معه من الصحابة في أمور الدين وشئون الدنيا . ولم يكن يطيل درسه وإنما كان يوزعه على الأيام حتى تظل النفوس نشطة وهى تستمع إليه وتتلقي منه ، لأنها إذا كلت ملت . وكان يتخير من كل يوم وقتا مناسبا للدرس ، يفرغ فيه ، فيجلس الصحابة إليه حلقا حلقا ، يتلقون القرآن ، ويأخذون الحديث ، وكان يجعل ذلك في الصباح حين يكون الذهن صافيا ومتأهبا .

---

(١) الهيثمي : مجمع الزوائد جـ ١ ص ١٣٢

كذلك كان يحدثهم في المساء ، ليكون لهم في بقية الليل متسع للحفظ والاستظهار.
وكان النبي ﷺ يرفق بالصحابة في الدرس فيختار ، لهم موضوعات تناسب امكاناتهم ، ولا تعلو على مداركهم ، كما لم يحدثهم بشيء هم في غني عنه . وإنما حدثهم بما كانوا في حاجة إليه بأسلوب قريب منهم ، يمكنهم أن يأخذوه عنه ويفهموه منه ، وكان ﷺ ينهي عن صعاب المسائل ، وكان يستحثهم على اطراح المنكر والمستحيل من الأحاديث . قال ﷺ " ما حدثتم عني بما تعرفونه فخذوه، وما حدثتهم عني مما تنكرونه فلا تأخذوا به ، قال : فإني لا أقول المنكر ولست من أهله (١)
وكان الدرس الديني له صدارة في نفوس من يحضرونه من الصحابة ، فكانت مواعظ الرسول ﷺ تتسامي بنفوسهم إلى آفاق عالية ، ودوا لو داقت فلا يشغلهم عنها شيء . ولقد تبع الرسول ﷺ في درس الحديث المنهج الذي سار عليه في درس القرآن (٢)

وكان الرسول ﷺ في درسه حين يحدث بالحديث يكرره ثلاث مرات لكي يفهم عنه ، ولا يفوت أحدهم بعض كلامه . وكان لا يسرد الحديث . ولا يعجل به حتى يتسنى للصحابة أن يأخذوه عنه ، ويقفوا على معانيه منه (٣)

وكان الرسول ﷺ إذا كثر الجمع حوله يتخذ من يبلغ عنه حتى يصل حديثه إلى كل سامعيه (٤) ويفسح صدره للصحابة من حوله ويقول لهم في سلوني عما شئتم ، فلم يتحرجوا في سؤاله عما لا يعرفونه ، والمسائل التى سألوه عنها ، ويبين لهم أحكامها (٥) ولم يكن الرسول ﷺ يسرد أو يضيق الأحكام ، وإنما كان ييسر فالإسلام سمح ، والشريعة لا تقوم على العسر (٦)

وكان من يستحي بأمر غيره بالسؤال ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يترك السائل وفي نفسه شيء وكان يفيض في الإجابة حتى لا يترك لسامع حاجة ، بل أنه كان يجيب السائل بأكثر مما سأله . وكان من يسمع منهم خبرا ، ويحيك في صدره شيء منه فيحول دون اقتناعه به ، لا يصبر عليه ، ويذهب من ساعته إلى الرسول ﷺ ليسأله عنه ليزيل ما خالجه من شك ولتطمئن نفسه بما سمع (٧)

---

(١) البغدادي : الكتابة في علم الرواية .. دار الكاتب العربي ... ص ٤٧٠
(٢) ابن ماجة : السنن . كتاب الدعاء جـ٢ ص ١٢٦٢
(٣) ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام جـ١ ص ١٢٤
(٤) السيوطي : تدريب الراوي ص ٣٣٨
(٥) أبو حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب العلم جـ١ ص ١٥٢
(٦) المرجع السابق ص ١٤٧ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٤١ باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله ..

وقد كانت النساء يحرصن على حضور مجالس الرسول ﷺ والاستماع إلى حديثه ، وكن يسألنه ويستكثرنه ، ولما رأين أن الرجال قد غلبوهن في هذه المجالس ، وأن ظروف الحياة لا تتيح لهن أن يأخذن الحديث عن غيره شكون ذلك إليه ، وكانت عائشة زوج النبي ﷺ عندما تسمع منه شيئا لا تعرفه تسأل فيه ، ولم يكن شأنها وحدها . وإنما كان شأن الصحابيات جميعا ، فقد سألن النبي ﷺ كثيرا في شئونهن الخاصة ليعرفن موقف الإسلام منها وحكمه فيها وقد تلقت النساء بعامة من الرسول صلي الله عليه وسلم كثيرا مما يتعلق بشئون النساء في حياتهن الخاصة ، وما يتصل بهن في فقه العبادات . (١)

وكان الصحابة يحرصون على ألا يفوتهم شيء من الحديث ، فكانوا يصرون على حضور مجالس الرسول ﷺ ويدافعون على ذلك ليسمعوا منه بآذانهم ، وليروا أفعال بعيونهم وليقفوا منه على الأحدث فالأحدث من أمره . غير أن بعضهم كانت تشغلهم مطالب الحياة وتعوقهم أعمالهم عن المواظبة على حضور تلك المجالس بانتظام ،فكانوا يتناوبون ذلك يوما بعد يوم حتى تتم لهم معرفة كل ما يقوله وما يعمله (٢)

وكان مما عد من فضل أبي هريرة مارآه النبي ﷺ من حرصه على الحديث ، وقد تمثل حرص أبي هريرة في أنه كان يعي ما يسمع من الرسول ﷺ ، ويفيد منه . وقد توفرت لأبي هريرة أحاديث لم تتوفر لغيره ، فأخذ يحدث بها ويحمل الناس عليها ، فلما أخذ عليه الإكثار من الحديث قدم للمعترضين الأسباب التى هيأت له ذلك . وقال عبد الله بن عمر ، : كان أبو هريرة ألزمنا لرسول الله ﷺ ، وأعلمنا بحديثه ، أما عن عبد الله نفسه فقد كان حين تشغله ظروف حياته عن لقاء الرسول صلي الله عليه وسلم والسماع منه . يسأل من يحضر عما قال رسول الله ﷺ (٣)

وكان الرسول ﷺ يشجع الراغبين في العلم ويهون عليهم وعثاء الطريق، ويجيبهم على مسائلهم . قال : من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وقال : مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها ، فيركب بعضها بعضا ، حتى تعلو إلى السماء الدنيا من جهم لما يطلب (٤)

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ١٨٤ و أيضا البخاري : صحيح البخاري كتاب الاعتصام جـ٩ ص ١٢٤
(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري .... جـ١ ص ١٥٠
(٣) البخاري : الجامع الصحيح جـ٩ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ص ١٣٣
(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص ص ٣٨ – ٣٩

وقد بشر الرسول ﷺ طالب العلم بأن له أجر على سعيه في طلبه قال : من طلب فأدركه كتب الله لـه كفيلين من الأجر ، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر . وكان النبي ﷺ سلم يوجه من يسمعونه إلى أن يحدثوا الناس بما تعلموه منه لينشروه بينهم ، فكان يقول لهم . " أني أحدثكم بالحديث فليحدث الحاضر منكم الغائب . "ليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعي من سامع " تعلموا العلم وعلموه ، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس فإني أمرؤ مقبوض (١)

" من أدي حديثا إلى أمتي لتقام به سنة ، أو تثلم به بدعه فله الجنة : وعن على ابن أبي طالب أن رسول الله ﷺ خرج عليهم فقال لهم " اللهم ارحم خلفائي ؟ قال : الذين يروون أحاديثي وسنني ويعلمونها للناس (٢)

وقد بلغ عدد من روي عنه نحو ستين ألفا وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه . وما جاء به ، وتبليغ معانيه .

يمكننا أن نقول أن الرسول ﷺ عمل على نشر حديثه ، واعلام الناس به ممن لم يكن يتيسر لهم حضور مجالسه ، والتلقي عنه مباشرة . فأمر من كانوا يجلسون إليه أن يتعلموا الحديث عنه ، ويرووته لغيرهم لكي تذيع السنة ، وتزول البدعة ، بل أنه أوجب العقاب على من يقصر في ذلك .

وقد كان الرسول ﷺ يدعو الوفود التى تفد عليه من أجل التفقه في الدين أن يعوا ما يتلقونه عنه من الإيمان والعلم ، ويحملوه إلى من ورائهم . أما من كانت ظروف حياته لا تمكنه من لقاء الرسول ﷺ . فضلا عن الجلوس إليه . والتلقي منه ، فقد كان يتجه إلى أخذ الحديث عمن أخذه عن الرسول ﷺ ، وقد استحثهم الرسول على ذلك ، وجببهم إليه ، يقول : من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة . (٣)

أدوار التدوين بعد أمر عمر بن عبد العزيز :

من المشهور لدي الكثيرين أن تدوين الحديث إنما كان في عصر أوساط التابعين في أول المائة الثانية من الهجرة حين أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه المتوفى (١٠١ هـ) عامله على المدينة أبا بكر بن محمد ابن حزم أن يكتب ما عنده بالمدينة من الحديث وأن يجمع ما عند (عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية) وما عند (القاسم بن محمد) خوفا على السنة من الضياع لكثرة موت العلماء وحملة السنة في الحروب والفتوح .

---

(١) البغدادي : شرف أصحاب الحديث ص ٩ وأيضا ابن عبد البر : جامع بيان العلم جـ١ ص ص ٤٩ ، ١٨٦

(٢) الرامهرمزي : الفاصل بين الراوي والواعي ص ص ١٦٣ – ١٦٤

(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ص ١٣١ ص ١٤٩

وما أن صدر هذا الأمر من الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلاشمر الأئمة عن ساعد الجد ، فلقد آن أوان جمع السنة بعد أن كانت مبعثرة صحيفة هنا وصحيفة هناك ، أحاديث يحفظها هذا وأحاديث يحفظها ذاك . وهذا الجمع وهذا التدوين كثيرا ما تمنوه وكثيرا ما أملوه ، فبدأ جمع الصحف ونسخها وإرسال النسخ إلى الخليفة ، ومن لم يكتب فقد كتب . ومن عنده صحف نسخ منها ما يرسله إلى الخليفة . والخليفة يرسل إلى كل إقليم دفترا ، وشهدت فترة خلافة عمر بن عبد العزيز ثم ما بعدها حركة علمية في ميدان السنة أسفرت عن كتابة السنة وجمع كل ما كتب – وهو ما يعرف بالتدوين – ثم تبويب وتصنيف هذا الجمع من الحديث . ومما يجدر التنبيه إليه أن فترة خلافة عمر ابن عبد العزيز لم تكن انطلاقا في عالم التدوين فقط ، بل كانت مع ذلك انطلاقا في عالم التحديث والرواية وكان أول من دونها (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري) المتوفى (١٢٤ هـ) . ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فقد بدىء بتدوين الحديث في حياة النبي ﷺ . ثم مر بأدوار متعاقبة حددها بعضهم بثمانية ، تبعا للتقسيم الزمني حتى آخر عصر الرواية في حدود السنة (الثلاثمائة هـ)

الدور الأول :

في حياة النبي ﷺ : لم يكتب من الحديث في حياته عليه السلام إلا القليل ؛ وذلك بسبب شيوع الأمية بين الصحابة ؛ فكانوا يعتمدون على الحفظ ، ولأن انشغالهم بالقرآن الكريم والفتوح ، صرفهم عن ذلك ؛ ولأن النبي ﷺ ، نهي عن كتابتها لئلا تلتبس بالقرآن . ولكنه أجاز جماعة من الصحابة وكتب كتبا فيها أحكام لبعض الأمصار ، وكذلك أصحابه فمنهم من أجاز جمعها وجمع لنفسه منها ، منهم (عمر وعلى وعبد الله ابن عمرو بن العاص . وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله) . (١)

فالنهي من رسول الله ﷺ محمول على كتابة غير القرآن في مكتوب واحد .

١. جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قوله : (لم يكن أحد أكثر مني حديثا إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب) .
٢. أمر النبي ﷺ بالكتابة لأبي شاه خطابته عليه السلام التى خطبها بمناسبة ما وقع بين بني ليث وخزاعة ، وقال عليه السلام : " اكتبوا لأبي فلان رواه البخاري .
٣. جاء في مسند الإمام أحمد (كتب النبي ﷺ أحكام الصدقة وأنصباءها ولم يخرجها إلى عماله ، وأخرجها بعده أبو بكر وعمر) .
٤. روي أبو داود في سننه (كتابة النبي صلي الله عليه وسلم للحارث بن مسلم وصاة ، وأنه ختم على المكتوب ورفعه إليه) .

---

(١) يري الدكتور يوسف العش في المقدمة التى كتبها لكتاب " تقييد العلم " أنه يجب تقسيم الأجيال التى مرت على تاريخ تقييد العلم " الحديث " تتفق وتطور العلم الإسلامي .

الدور الثاني : عصر الخلفاء الراشدين .

يري الدكتور محمد أبو زهو في كتابه " الحديث والمحدثون " أن الرواية في هذا الدور قليلة ، نظرا لتشدد الصحابة رضوان الله عليهم في قبولها مما أدي إلى عدم انتشارها وعدم تدوينها . فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن عليه أبو موسي الأشعري فلم يأذن له فانصرف ، فطلبه عمر فروي له الحديث : " من استأذن ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف " وأنه أستأذن ثلاثا ، فقال عمر : إما أن تأتيني ببينة على ما رويت وإلا لأفعلن بك – يريد تعزيره – فلما شهد له أبو سعيد الخدري ، قال له عمر : أما إني لم أتهمك في دينك ولكنها الرواية عن رسول الله . وروي أن عليا كرم الله وجهه كان يستحلف الراوي ويقول : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله) . (١)

الدور الثالث : عصر صغار الصحابة وكبار التابعين .

ولقد وجد في هذا الدور من يجيز كتابة الحديث تبعا لبعض الصحابة ممن سبق ، وأجازوا الكتابة مثل : (بشير ابن نهيك وسعيد بن جبير) كما وجد من كره تدوينه إقتداء بالبعض الآخر من الصحابة ممن كرهوا التدوين مثل (الشعبي وإبراهيم النخعي) . ولقد روي عن بشير ابن نهيك أنه قال : (كنت أكتب ما أسمع من أبي هريرة فلما أردت أن أفارقه أتيته بكتابي وقرأته عليه وقلت له : هذا ما سمعت منك ؟ قال : نعم) . (٢)

ومع هذا كانت الكتابة قليلة نظرا لتفرق الصحابة في البلدان أمراء وقضاة ومعلمين . ولموت بعضهم في البلدان التى دخلها الإسلام .

الدور الرابع : عصر أوساط التابعين .

وهو العصر الذي ابتدأ فيه التدوين بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما سبق وأشرنا إلى ذلك ، فقام العلماء بتدوين ما عندهم من السنة بنشاط وهمة .

---

(١) محمد أبو زهو :الحديث والمحدثون . دار الكتاب العربي ١٩٨٤ ص ٧

(٢) يقول ابن حجر العسقلاني : أنه حينما تحققت علة النهي منعت الكتابة وحينما زالت هذه العلة كان الإذن بها ، ويقول : النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره والإذن في غير ذلك وأن النهي خاص بكتابة القرآن مع غير القرآن في شيء واحد راجع د. الحسيني هاشم : أصول الحديث النبوي دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ ص ١٩

الدور الخامس : عصر أواخر التابعين وتبع التابعين .

شاع التدوين في هذا العصر وانتشر في جميع الأقطار الإسلامية تتميما للعمل ، وصونا للنصوص من أصحاب النحل التى ظهرت في ذلك الحين من المبتدعة وغيرهم ؛ وقد أخذ الدس والوضع طريقهما إلى السنة انتصارا للمذاهب في هذا الدور .

ومما يتميز به التدوين في تلك الآونة فقدان التنظيم ؛ إذ جمعت أقوال النبي ﷺ وأفعاله ممزوجة بأقوال الصحابة والتابعين وفتاويهم مرتبة على أبواب الفقه . كما يشاهد في موطأ الإمام مالك رضي الله عنه . وكان ممن عمل بالجمع والتدوين : (**مالك بن أنس**) المتوفى (١٧٩ هـ) و(**سفيان الثوري**) المتوفى (١٥٠ هـ) و (**الربيع بن صبيح**) المتوفى (١٦٠ هـ) و(**الأوزاعي**) المتوفى (١٥٦ هـ) . (١)

الدور السادس : عصر تبع التابعين :

يتميز هذا الدور عن الذي سبقه بتلافي الفوضى وتدارك التقصير ، إذ قام علماؤه بكتابه المسانيد مقتصرة على السنة النبوية وحدها دون أقوال الصحابة والتابعين وفتاويهم . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك غاية الكمال ، إذ جمعوا إلى جانب الصحيح من السنة الضعيف من الروايات منهم : (أبو داود الطيالسي) المتوفى (٢٠٤ هـ) و (عبيد الله بن موسي العبسي) المتوفى ١٢٣ هـ) و (نعيم بن حماد) المتوفى (٢٢٩ هـ) و (على بن بن موسي المديني) المتوفى (٢٣٤ هـ) و (ابن راهويه) المتوفى (٢٣٧ هـ) و (أحمد بن حنبل) المتوفى (٢٤١ هـ)

الدور السابع : عصر تبع التابعين

(ممن عاصر البخاري) دونت في هذا العصر السنة الصحيحة فقط . ورتبت على الأبواب والمواضيع . وكان من أعلام هذا العصر أصحاب الكتب الستة : (البخاري) المتوفى (٢٥٦ هـ) و (مسلم) المتوفى (٢٦١ هـ) و (الترمذي) المتوفى (٢٧٩ هـ) و (أبو داود) المتوفى (٢٧٥ هـ) و (ابن ماجه) المتوفى (٢٧٣ هـ و (النسائي) المتوفى (٣٠٣ هـ) . (٢)

---

(١) **السيوطي** : تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ط١ ١٩٥٩ ص ٢٦٩ وما بعدها
(٢) **محمد على قطب** : علوم الحديث ط ٣ دار الأمصار ١٩٧٥ ص ١١

الدور الثامن : عصر المتأخرين :

وهذا الدور هو آخر المطاف لعصور الرواية وتدوين السنة وذروة الاشتغال بها ؛ فيه رتبت كتب المتقدمين ، وهذبت ، واختصرت ، وشرحت . وكان أشهر من عمل في هذا المضمار ، (أبو عبد الله الحميدي) و (أبو السعادات مبارك بن الأثير) و (نور الدين على الهيثمي) و (السيوطي) . وجميعهم جمعوا المتون بغير إسناد . (١)

طلب الحديث :

نشأ الحديث أول ما نشأ في المدينة المنورة ، فكانت مستودعه الأمين ومستقره المكين ، فلا عجب أن سميت (دار السنة) ولما كثرت الفتوح وتفرق العلماء في الأمصار ، اتخذ أكثرهم (مراكز) جديدة شع منها نور السنة على الوجود الإسلامي كله ، وكان أن اشتهر في كل إقليم رواة ومرويات اتسمت بالتباين ؛ مما كان حافزا لطلاب السنة أن لا يكتفوا بما لديهم في بلدهم منها ، فنشأت عند الكثيرين الرغبة في الرحلة للتزيد . بدأ ذلك القرن الهجري الأول وكان من رواده (أبو الدرداء) رضي الله عنه إذ كان يقول : (لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها على إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه) و (جابر بن عبد الله الأنصاري) الذي ابتاع بعيرا وشد عليه رحله وسار شهرا حتى قدم الشام ليسأل عبد الله بن أنيس عن حديث في القصاص .

ولم يكن التزيد في العلم وحده هو الحافز على الرحلة في طلب الحديث ، بل التثبت من الراوي والرواية (لأن معرفة الرجال نصف العلم) كما يقول على بن المديني . ولقد جاء في وصف هؤلاء الرحالة أنهم (لا يعوقهم فقر ولا يفت في عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره في الصحراء والبحار إذ تغلغل في نفوسهم اعتقاد أن طلب العلم جهاد فمن مات في سبيله مات شهيدا) .

لا ريب أن هذه الصورة المشرفة من صور الكفاح ؛ آية من آيات الجهاد العلمي العظيم الذي احتمل مشاقة طائفة كريمة من الجدود والآباء ؛ يقابلها صورة (هابطة) للنفوس الضعيفة التى اتخذت من الحديث والرحلة في طلبه تجارة وتكسبا ؛ (فيعقوب بن إبراهيم بن سعد) كان يحفظ الحديث الذي رواه أبو هريرة والذي ينهي فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الاغتسال في الماء الدائم إذا أصابته نجاسة ؛ وكان لا يحدث بهذا الحديث إلا بدينار . ولم يترك يعقوب وأمثاله يمضون في (تجارتهم) إذ تصدي لهم العلماء الأشراف يضربون على أيديهم ويكافحونهم ، حتى تحرج بعض الرواة أن يقبل (الهدية) . روي عن محمد بن الحجاج قال : (كان رجل يسمع من حماد بن سلمة فركب بحر الصين ، فقدم ، فأهدي إلى حماد ، فقال له حماد : اختر ، إن شئت قبلتها ولم أحدثك أبدا ، وإن شئت حدثتك ولم أقبل هدية .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢

فقال : لا تقبل الهدية وحدثني ، فرد الهدية وحدثه) أثر الرحلات. (لقد كان لهذه الرحلات أثار بعيدة المدى متعددة الجوانب ، فمنها : (١)

أولا : جعل العالم الإسلامي المترامي الأطراف أشبه بالمدينة الواحدة : إذ لم تعد المسافات الشاسعة تشكل عائقا عسيرا يحجز الطلاب عن بلوغ أهدافهم ، وهانت المشاق أمام عزائمهم ، وحرصهم على التلقي . وأضحت المدن التى يقطنها حملة السنة تستقطب طلابه ، ويلتقي في المدينة الواحدة العديد ممن وفدوا على الأعلام يشافهونهم ويستمعون منهم .

ثانيا : توحيد النصوص : إن تفرق الرواة في الأقاليم كان سببا لاختلاف العبارات . ولكن الأمر لم يستفحل ، فسرعان ما أعطت الرحلات نتائجها وظهرت آثارها وأخذت الروايات المتباينة في التقارب حتى توحدت .

ثالثا : توحيد التشريع والاعتقاد : ومن الأمثلة البارزة على ذلك حديث النية : " إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امريء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه .... " . فمن هذا الحديث استنبط العلماء كثيرا من المسائل الفقهية التى صدروا فيها عن سماحة الإسلام في معالجة الضمير البشري وتعويله على القلوب والسرائر لا على الصور والأشكال (٢) .

ألقاب المحدثين :

١. **المبتدىء** : وهو من يروي الحديث بإسناده وليس له علم بأسانيد المتون ومعرفة رجالها ، ولا بعلل المتون ولا معانيها ، ويسمي طالب أو مسند .

٢ . **المحدث** : قال التاج السبكي – المحدث - : (من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون ، وسمع الكتب الستة (٣) ، ومسند أحمد (٤) وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية) وقال : (هذا أقل درجاته) .

وقال أبو الفتوح ابن سيد الناس : أما المحدث في عصرنا ، (فهو من أشتغل بالحديث رواية ودراية ، وجمع رواته ، وأطلع على كثير من الرواة والمرويات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر ضبطه) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥
(٢) د. صبحي صالح : علوم الحديث ومصطلحاته ص ٦٠
(٣) مصنفات البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه
(٤) أحمد ابن حنبل تحقيق عبد القادر عطار محمد أحمد عاشور . طبقة الاعتصام ١٩٧٤

٣. **الحافظ :** وأيضا اختلف العلماء في حده وضبطه ؛ لأنه مأخوذ من الحفظ ، والحفظ يطلق على كل تعهد ورعاية ويطلق على هيئة النفس التى يثبت بها الحافظ ما يؤدي . وعلى استعمال تلك القوة ؛ ومقدار الحفظ الذي يكون به العالم حافظا في الاصطلاح ، يرجع فيه إلى العرف وهو يختلف باختلاف الأزمان . عرفه جمال الدين المزي بأنه : (من بلغ حدا يرجع فيه إلى العرف) ثم فسره بأنه (من كان الرجال الذين يعرفهم أكثر من الذين يجهلهم) . وعرفه أبو الفتح ابن سيد الناس فقال : (فإن توسع – أي المحدث – في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله فهذا هو الحافظ) وعرفه بعض العلماء بأنه من أحاط علمه مائة ألف حديث مع معرفة رجالها وأسانيدها .

٤. **الحجة :** هو الحافظ البالغ في الحفظ والإتقان مبلغا يصح به أن يكون حجة عند العام والخاص .

٥. **الحاكم :** هو (من أحاط علمه بجميع الأحاديث المروية متنا وسندا وجرحا وتعديلا وتاريخا ، ونحو ذلك مما يتعلق بها من ناحية هذا الفن) .

من وصل لدرجة المحدث :

١. هشيم بن بشير بن أبي خازم قاسم الواسطي المتوفى (١٨٣ هـ) .
٢. أحمد بن مروان المالكي – صاحب كتاب المجالسة – المتوفى (٢٩٣ هـ)
٣. أحمد بن حجر الهيثمي ، أبو الفضل صاحب الفتاوى الحديثية المتوفى(٩٧٣ هـ .

من وصل لدرجة الحافظ :

١. عبد الرحمن بن مهدي المتوفى ١٩٨ هـ
٢. ابن أبي حاتم الرازي المتوفى ٣٢٧ هـ
٣. أبو نعيم الجرجاني ، عبد الملك بن محمد المتوفى ٣٢٣ ه

من اشتهر بوصف الحاكم :

١. أصحاب الكتب الخمسة (البخاري ، ومسلم وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي) أما ابن ماجه فمن درجة (الحافظ) .

٢. أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع المتوفى (٤٠٥ هـ)

٣. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ) .

تلقي الحديث :

تنوعت صور التلقي حتى بلغت الثمانية ؛ وهي : (١) السماع ، (٢) القراءة ، (٣) الإجازة ، (٤) المناولة ، (٥) المكاتبة ، (٦) الإعلام ، (٧) الوصية ، (٨) الوجادة . وهذا التدرج في تصنيفها يخضع لمراتبها في الضعف والقوة . وسنحاول أن نعرف كلا منها موضحين أهم خصائصها :

أولا : السماع : وهو أعلى هذه الصور وأرفعها ، وهو أن يسمع المتحمل من لفظ شيخه سواء كان السماع من كتاب يقرؤه الشيخ أم من محفوظاته ، وسواء أملي عليه أم لم يمل عليه ، وألفاظه المتفق عليها بين علماء الحديث (حدثنا) و(أخبرنا) و (سمعت) و (قال لنا) و (ذكر لنا فلان) ؛ وأكثر العلماء على تقديم لفظ (سمعت)

ثانيا : القراءة : وهي قراءة التلميذ على الشيخ حفظا من قلبه أو كتاب ينظر فيه ، وسمي المحدثون هذه الطريقة (عرضا) . وإذا ما سمع التلميذ غيره يقرأ على شيخه اشترط أن يكون الشيخ حافظا لهذا المقروء عليه أو متمكنا من مقابلته على أصله الصحيح ؛ وألفاظها (قرأت على الشيخ وهو يسمع) أو (قرىء على الشيخ وهو يسمع وأنا كذلك أسمع) .

ثالثا : الإجازة : وهي إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه ؛ ويلاحظ من ذلك أن الإجازة تختلف عن الطريقتين السابقتين : (السماع) و (القراءة) لأن كلتاهما تشتمل على الرواية مع الإسناد المتصل إما من النطق والشهادة ، وإما من النقل الصحيح ، والإجازة لا تشتمل على شيء من هذا .

ولقد جري الخلاف حول الإجازة بين العلماء حتى عدها بعضهم (بدعة) كابن حزم . (لأن الشرع لا يبيح رواية ما لم يسمع) ؛ وتنعقد (الإجازة) بلفظ (أجزت) من الشيخ لتلميذه .

رابعا : المناولة : وهي أن يعطي الشيخ تلميذه كتابا أو حديثا مكتوبا ليقوم بأدائه وروايته عنه . وأعلي صورها المتعددة (المناولة مع الإجازة) كأن يقول الشيخ لتلميذه عند مناولته الكتاب أو الحديث (قد ملكتك إياه وأجزتك بروايته فخذه مني وأروه عني) .

خامسا : المكاتبة : وهي أن يكتب الشيخ بخطه أو يكلف غيره ليكتب عنه بعض الحديث لتلميذ له بين يديه يتلقى عنه أو لشخص غائب .

سادسا : الإعلام : وهو أن يخبر الشيخ تلميذه بأن هذا الكتاب أو هذا الحديث من مروياته أو من سماعه من فلان دون أن يصرح بإجازته له في أدائه .

سابعا : الوصية : وهي تصريح الشيخ عند سفره أو على فراش موته بأنه يوصي (لفلان) بكتاب معين كان يرويه ؛ وهى من الصور النادرة الوقوع وأضعف صور التحمل وأدني من المناولة فالإعلام على ما فيها من خلاف وتشدد . ويشترط لها أن يلتزم الموصي له عبارة الموصي فلا يزيد ولا ينقص وأن يكون الموصي به واضحا ككتاب أو كتب أو حديث أو أحاديث أو مسموعات أو مرويات .

ثامنا : الوجادة : بكسر الواو – وهى أخذ العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة ؛ كأن وجد الشخص حديثا بخط شيخ قد لقيه فألف خطه وعرفه ووثق به ، أو لم يلفه ولكنه استوثق من نسبته إليه . وألفاظها أن يقول : (وجدت بخط فلان) أو (بخط يغلب على ظني أنه خط فلان) أو (في الصحيح المشهور) ثم يسوق الحديث .

وإذا جاز للعلماء – السابقتين – أن يتشددوا في الصور النازلة من التحمل ، حرصا على العلم نفسه ، لسبب ضعف وسائل التدوين والكتابة عندهم ؛ فإن مقتضيات العصور الحديثة ووسائلها تخفف إلى حد بعيد ذلك التشدد .

تصنيف الحديث

علم الحديث رواية : وهو علم يشمل على نقل ما أضيف إلى النبي صلي الله عليه وسلم قولا أو فعلا ، أو تقريرا أو صفة حتى الحركات والسكنات في اليقظة والمنام .

والمراد بالعلم : المسائل التى تشتمل على نقل أحوال النبي صلي الله عليه وسلم اشتمال الكل على أجزائه . **وموضوعه :** أحوال النبي صلي الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله ، وحكمه الوجوب الكفائي عند التعدد ، والعيني على من انفرد .

والسند : هو الأخبار عن طريق المتن ، وطريق الرواة ، وأما المتن فهو ما انتهي إليه السند من الحديث . **علم الحديث دراية :** هو علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد . ويراد بالعلم القواعد والمسائل .
و (الراوي) هو الذي ينقل الحديث بإسناده سواء كان رجلا أو امرأة وأحواله المبحوث عنها من حيث القبول والرد ؛ ومعرفة حاله في التحمل والأداء ومن الجرح والتعديل . ومعرفة وطنه وقبيلته ووفاته ونحو ذلك . و (المروي) أعم من أن يكون مضافا إلى النبي ﷺ أو غيره ؛ والمراد بالقبول : قبول من جهة النقل لا من جهة العمل ، فقبول الراوي : (الأخذ بمرويه) وقبول المروي (اعتقاد ثبوته) .

وواضع هذا العلم أبو محمد عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى (٣٦٠ هـ) ، ولما كانت أحوال السند وأحوال المتن المبحوث عنها في هذا العلم كثيرة ، أفردت

أحوال الرواة وحدها ، وسمي العلم الخاص بمعرفتها (علم رجال الحديث) وكذلك أفردت أحوال المتن والأحوال المشتركة بين المتن والسند ومعرفة الاصطلاحات التى تتصل بالسند مما يقصد للمتن وسمي العلم الخاص بها (مصطلح الحديث)
يقول الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم : تميزت الرواية في الإسلام بصفة عامة ، وفي الحديث النبوي بصفة خاصة بدقة ا لتحري وشدة التمحيص . فقد شدد العلماء فيها ووضعوا لها قواعد . وصاغوا لها الشروط وأصلوا لها الأصول بعناية فائقة تعتبر أدق ما وصل إليه النقد في القديم والحديث .

وكان من مميزات الرواية في الإسلام ومن خصائصها الهامة ، الإسناد الصحيح المتصل برواية العدول الضابطين .... وظل علماء الحديث يتحرون الدقة ويعنون بالتثبيت من الأخبار ونقدها سندا ومتنا ... ورأوا أن الإسناد من الدين : قال الإمام أحمد بن حنبل " الإسناد العالي سنة عمن سلف ، وللرواية في الإسلام مكانتها ومنزلتها وأثرها الهام في العلوم الأخرى فلقد تأثر كثير من العلماء في كثير من علوم اللغة والأدب والتاريخ والسير بعلماء الحديث ومناهجهم وأسانيدهم وقلدوا أئمة السنة في ذكر المسانيد .

علم رجال الحديث و فائدة هذا العلم :

هو : (العلم بأحوال رواة الحديث من حيث القبول والرد) ، ويختص بمعرفة : تاريخ المواليد والوفيات ، والأسماء والكني والألقاب و الأنساب والأوطان والرحلات ، والشيوخ والتلاميذ ، والجرح والتعديل ، والمتفق والمفترق من الأسماء ، والمؤتلف والمختلف والمتشابه والثقات والضعفاء وأهمها / الجرح والتعديل .

وموضوع العلم : (الراوي) ؛ من حيث قبوله أو رده في الرواية . وهو أعم من الرجل والمرأة . وإنما سمي بعلم (الرجال) تغليبا . لأن الرجال هم الذين عنو بالرواية ، بنقلها وحفظها والرحلة من أجلها .

إن معرفة الأسماء والكني والألقاب . ومعرفة المتفق والمفترق والمؤتلف والمختلف والمتشابه ، يعرف بها شخص الراوي ، وتعيين ذاته ، ويؤمن بها اللبس والخلط بين الرواة بظن الاثنين واحدا ؛ فقد يكون أحدهما ضعيفا والآخر موثقا .

وأما معرفة المواليد والوفيات والأوطان والرحلات والطبقات فيعرف بها الإرسال والانقطاع والتدليس والكذب ؛ كراوية سهيل بن ذكوان بأنه رأي عائشة رضي الله عنها (بواسط) وأنه روي عنها ؛ فإذا علمنا أن عائشة توفيت سنة (٥٧ هـ) . وأن واسط إختطها الحجاج سنة (٨٣ هـ) علمنا كذب هذه الرواية .
ويفيدنا هذا العلم أيضا بإمكان الحكم بصحة الحديث أو ضعفه إذا لم ينص أحد من المتقدمين على ذلك ، إذا علمنا صفات رجاله من كتب الجرح والتعديل .

وقد عدل النبي ﷺ وجرح فسن لنا بذلك القول في الناس على سبيل النصيحة ، فقد ذكر له عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال : " إن عبد الله رجل صالح " . وهذا تعديل ، واستأذن عليه رجل فقال : " ائذنوا له فبئس أخو العشيرة" وهذا تجريح . فاقتدي به من بعده من العلماء في عصور الرواية وتقربوا إلى الله بتحصيل الإصابة فيه . (١)

الجرح والتعديل والأسباب :

الجرح – بالفتح – مصدر جرح ، وهو في اللغة التأثير في الجسم بالسيف ونحوه ؛ والاسم : (الجرح) – بالضم – وكثيرا ما يستعمل – بالفتح – في المعاني . كجرح فلان فلانا – سبه – وجرح الحاكم الشاهد – اسقط عدالته – وهما في اللغة بمعني واحد .

وفي الاصطلاح (رد الحافظ المتقن رواية الراوي لعلة قادحة فيه أو في روايته) بسبب الفسق أو التدليس أو الكذب أو الشذوذ ونحوها . **والتعديل :** التقويم والتزكية والتسوية ، يقال : عدل الحكم أقامه ، وعدل الرجل زكاة ؛ وعدل الميزان سواه . واصطلاحا (وصف الراوي بما يقتضي قبول روايته) .

اختلف العلماء في التعديل والتجريح ، أيقبلان أو أحدهما من غير ذكر السبب ؟ أم لا يقبلان إلا مفسرين بذكر السبب ؟

١. **قال بعضهم :** يقبل التعديل المبهم ، ولا يقبل التجريح إلا مفسرا ، لأني في ذكر أسباب التعديل طول ومشقة ، ولأن الأصل – العدالة – في المعدل والمعدل ، ولأن الناس يختلفون في أسباب الجرح ، وهذا مذهب الجمهور الصحيح المعتمد .

٢. **وقال البعض :** يجب ذكر سبب التعديل فقط ولا يجب ذكر سبب التجريح ، لأن أسباب العدالة يكثر فيها التصنع ، ولأن التعديل المبهم لا يحصل إلا العدالة الظاهرة ، بخلاف التجريح المطلق ، فإنه يحصل الجرح ظاهرا وباطنا ، ويبطل الثقة من المجروح .

٣. **وقال آخرون :** يجب ذكر أسبابهما معا ، لأنه كما يجرح الجارح بما لا يقدح ، كذلك قد يوثق المعدل بما لا يقتضي العدالة .

٤. **وقال آخرون :** لا يجب ذكر سبب واحد منهما ويقبلان مطلقين إذا كان الجارح أو المعدل عالما بأسباب الجرح والتعديل مرضيا في اعتقاده وأفعاله (١)

الشروط التي يجب أن تتوافر في المعدل والمجرح : يشترط في المعدل والمجرح ما يشترط في الراوي وبعض ما يشترط في الشاهد : (٣)

---

(١) محمد أسد : الإسلام في مفترق الطرق . ترجمة عمر فروخ ط٤ ص ٢٠٤

(٢) أبو حاتم الرازي :الجرح التعديل . طبعة حيدر أباد ١٣٧٥ هـ جـ١ ص ٣٤ وأيضا ، سعيد بن المسيب : الكفاية . باب المراسيل ومن يلحق به من كبار التابعين ص ٤٠٤

(٣) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث تحقيق السيد صقر . القاهرة . ص ٥٥

١. العدالة الشرعية : وتجمع الإسلام والعقل والبلوغ .
٢. أن يكون عالما بما يعدل ويجرح من الصفات المعتبرة عند العلماء .
٣. أن يكون منصفا لا متعنتا ولا متشددا .
٤. أن لا يكون قرينا منافسا .
٥. أن لا يكون داعية لمذهب متعصبا له .

ثبوت الجرح أو التعديل : اتفق جمهور العلماء على أن التزكية من اثنين كافية في التعديل والتجريح ، واختلفوا في قبول التزكية من الواحد . فمنهم من قبلها وعلى ذلك الباقلاني . ومنهم من ردها مثل الرازي .

تعارض الجرح والتعديل : إذا تعارضت أقوال المجرحين والمعدلين في راو واحد ؛ عدله بعضهم ، وجرحه البعض الآخر ففي ذلك أقوال ثلاثة :

الأول : وإليه ذهب الجمهور – يقدم الجرح على التعديل مطلقا – ولو كثر عدد المعدلين .
الثاني : يقدم التعديل في حالة كثرة المعدلين ، لأن الكثرة تقوي حال المعدلين وتضعف حال المجرحين .
الثالث : يترجح أحدهما على الآخر بمرجح وهو – أي الترجيح – يكون (بكثرة العدد وبشدة الورع وبزيادة العلم وزيادة البصيرة) . (١)

علماء لهم حق الجرح والتعديل :

١. **على بن عبد الله المديني** توفى سنة (٢٣٤ هـ) قال فيه البخاري : (ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند على بن المديني) .
٢. **أبو خيثمة** (زهير بن حرب بن شداد) قال فيه ابن معين : (يكفي قبيلة) توفى (٢٣٤ هـ) .
٣. **عمرو بن على الفلاس** توفى سنة (٢٤٩ هـ) قال فيه أبو زرعة : (ذاك من فرسان الحديث لم ير بالبصرة أحفظ منه) .
٤. **أبو حاتم الرازي** (محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي) توفي (٢٧٧ هـ) قال فيه الخلال : (أبو حاتم إمام في الحديث) وقال أبو نعيم : (إمام في الحفظ.
٥. **ابن عدي (أبو أحمد عبد الله بن عدي القطان)** المتوفى (٣٢٢ هـ) قال السهمي فيه : (كان حافظا متقنا لم يكن في زمانه أحد مثله) .
٦. **الدار قطني (أبو الحسن على بن عمر البغدادي)** المتوفى (٣٨٥ هـ) قال الخطيب : (كان فريد عصره وإمام وقته . انتهي إليه علم الأثر والمعرفة والعلل وأسماء الرجال ، مع الثقة والصدق وصحة الاعتقاد) .

---

(١) **ابن أبي الحديد :** شرح نهج البلاغة . دار إحياء التراث العربي جـ٣ ص ٦٨ وأيضا **الذهبي :** تذكرة الحفاظ . دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٥٩ جـ١ ص ٧ وأيضا **البغدادي :** شرف أصحاب الحديث . طبعة لاهور باكستان ١٩٦٤ ص ٤٨

٧. الحافظ ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن على العسقلاني) المتوفى (٨٥٢ هـ) .
قيل للعراقي لما حضرته الوفاة : (من تخلف بعدك ؟ قال : ابن حجر ، ثم ابني أبا زرعة . ثم الهيثمي) . (١)

ولكي تتم الصورة نرى أنه لابد من التعرض لكاتبين مدونين فى الجرح والتعديل باختصار:

أولا:الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ت ٣٢٧هـ :

ولد الإمام عبد الرحمن بن أبى حاتم بالرى عام ٢٤٠هـ وأخذ العلم على كبار علماء عصره وكان منهم أبوه الإمام أبو حاتم الرازي، وقد اجتهد هذا الإمام فى طلب العلم فلم يدع فرصه إلا انتهزها، حتى أنه لم يكن يجد وقتا لطعامه، وكتاب الجرح والتعديل جاء فى ثماني مجلدات مسبوقة بمقدمه جليلة الفائدة، قصرها ابن أبى حاتم على التعريف بالجرح والتعديل، وضرورة الأحكام إلى السنة، والاحتياج إلى معرفة الصحيح من السقيم، وذلك مرتبط بمعرفة الرواة، وعلم الدراية، ثم أخذ فى ذكر طبقات الرواة، وذكر عدالة الصحابة، وتكلم عن التابعين، وأرخ لأئمة النقاد وترجم لهم، وضمن المقدمة قضايا تعرب عن ثقافة واسعة، ومعرفة عريضة عميقة، وذكاء حاد وتوفر على المادة.

أما متن الكتاب فقد استفاد مؤلفة من الكتب السابقة عليه فى فنه، فنقل نصوصا كثيرة من أبيه، وأبى زرعة الرازي وعبد الرحمن بن مهدى ويحي بن سعيد القطان وسفيان الثوري وغيرهم.

وفى الكتاب هذا ميزة حيث لم يقتصر مؤلفه على رواية أقوال أئمة هذا العلم من السابقين عليه، بل نقل - أيضا - آراء المعاصرين له، فجاء مرجعا وافيا للإمتداد التاريخي والثقافة المعاصرة للمؤلف.

وميزة أخرى نفتقدها فى كثير من الكتب العامة، فقد يكون المؤلف عالما فاضلا جمع فأوعى، ولكنه غير جرئ فى الحق ، فلا يستطيع أن يقول رأيه علانية، أو تكون ملكة النقد عنده ميتة، فيكتفي بالجمع والجلب من غير أن يعرف ما يحتوى كتابه، ولا اختلاف العلماء فى القول ، ولكن ابن حاتم كان ناقدا شجاعا فأخذ أشياء على علماء أجلاء لهم مكانتهم مثل محمد بن إسماعيل البخاري وغيره.

---

(١) المرجع السبق ص ص ٤٨ - ٤٩

أما منهجه فقد رتب أسماء الرواة حسب ترتيب حروف المعجم، فبدأ بالهمزة هكذا: (باب أحمد) (باب إبراهيم) (باب إسماعيل) ثم يأتي على كل الرواة الذين يحملون اسم أحمد ثم إبراهيم حتى يأتي عليها، وإذا كثرت الأسماء في أحمد مثلا ثنى بالحرف الأولى من الأب فيقدم من أول اسم أبيه هذا الحرف ثم الباء حتى ينتهي، فإذا زادت الأسماء أخذ في الاعتبار اسم الجد كما في (باب محمد بن عبد الله).
وبعد أن انتهى من الأسماء المعلومة، وجد أن هناك رواة لا يدخلون في التقسيم السابق فأنشأ ستة أبواب:

الأول : لمن عرف بابن كذا (كابن مالك وابن هانئ) مثلا.
الثاني : من اشتهر بأنه أخو كذا (أخو بنى فلان).
الثالث : للمبهمات، وفيه ترجمتان فقط وهما (رجل عن أبيه) و (مولى سباع).
الرابع : من عرف أبنه ولم يعرف أبوه. وهكذا عكس الباب الأول.
الخامس : من لم يعرف إلا بكنيتها من النساء.
السادس : من تعرف بكنيتها من النساء.

والكتاب بهذا هو دائرة معارف متقدمة في ذلك الزمن الأول من النصف الأول من القرن الرابع، ويكفى أنه ترجم لما يقرب من عشرين ألف ترجمة وهو بهذا أصل من الأصول ذلك العلم، وقد أفاد منه كل من جاء بعده من العلماء.

ثانيا: ميزان الاعتدال في نقد الرجال (للذهبي ت ٧٤٨ هـ) (١)

من الأئمة الذين يشار إليهم بالبنان ، ذلك هو العالم الثقة الحافظ محمد بن أحمد الذهبي، التركماني الأصل ، هذا الرجل غير عربي الجنسية، ولكنه المسلم لسانا وقلبا ، استطاع أن يكون إماما تقدره العلماء، فقد استطاع بجده ونشاطه ودأبه وحرصه على العلم أن يحصل ويفهم، ثم يؤلف إنتاجا غزيرا مفيدا يقارب المائة، أغلبها كتب تنوء بتأليفها لجنة من العلماء في عصرنا هذا.

ولو أننا استعرضنا أسماء بعض كتبه لتعجبنا من هذا الفيض العميم والعلم الغزير، فمن مؤلفاته (دول الإسلام) و (المشتبه في الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب) و (تاريخ الإسلام الكبير) لا يزال بعضه مخطوطا و(سير أعلام النبلاء) خمسة عشر مجلدا و(تذكرة الحافظ) مطبوع في أربعة أجزاء.

والذهبي كان رجلا جادا في طبعه، متشددا في قوله، ولذلك لم يقصر كتابة على ذكر الضعفاء والمتروكين، وإنما ذكر بعض الثقات فيهم الذين مقال، فتكلم في أول من أخرج لهم البخاري ومسلم لأدنى تجريح، وأهون قول.
ومن الغريب أن هذا العالم الجاد المتشدد لم يتطرق شكة إلى أحد من الصحابة ، ووثق الذهبي أيضا الأئمة الأعلام من الأمصار، فقهاء مثل: الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم وقال عنهم: "فإن ذكرت أحدا منهم فاذكره بالأنصاف ، وما يضره ذلك عند الله، ولا عند الناس".

---

(١) ذكرنا هذا العالم الجليل المتوفى سنة ٧٤٨ هـ كنموذج هام للتدوين في الجرح والتعديل ، رغم أنه يبعد ثلاثمائة عام تقريبا عن القرن الخامس الهجري الذي التزمنا به في عنوان الكتاب . المؤلف

وقد قسم الرواة هذه الأقسام الفنية:

١- الوضاعون المعتمدون.
٢- الكذابون الذين يدعون السماع ولم يسمعوا.
٣- المتهمون بالوضع.
٤- الكذابون فى لهجتهم، وليس فى الحديث النبوي.
٥- من كثر خطؤهم وترك حديثهم، ولم يعتمد على روايتهم.
٦- من فى دينهم رقة، وفى عدالتهم وهن.
٧- المحدثون الضعفاء لوهمهم، والذين قبل حديثهم فى الشواهد، والاعتبار، لا فى الأصول والأحكام.

وهذا النوع جمع أشتاتا من الناس منهم الشيوخ المستورون، والمجهولون والثقات الذين لهم بدعة، والثقات الذين تكلم فيهم من دونهم. ثم رتب الأسماء للرجال حسب حروف المعجم، والتزم في ذلك اسم الأب والجد ، ولذلك فمن اليسير الرجوع إلى الذهبي دون غيره ، حيث لم يلتزم الترتيب عادة، فإذا ذكر الراوي أتبعه بذكر من ضعف وقوله فيه ، وذكر نموذجا له. ولما كان الذهبي متأخرا، وهو بطبعه واسع الإطلاع، فقد توفرت له مادة علمية لا نظير لها، فأفاد منها إفادة جيدة، واستخدمها استخداما حسنا لوضوح ذهنه وقوة الذهبي لأنه جمع - تقريبا- كل ما في الكتب المتقدمة عليه.

شروط الراوي :

اتفق جمهور نقاد الحديث (متأخرين وقدامي) على أن العقل والضبط والعدالة والإسلام شروط لابد منها لقبول الرواية ، من فقدها أو بعضها ردت روايته . وترك حديثه . ومما يلاحظ في شروط العقل شرط البلوغ ضمنا لأن في وسع الصبي أن يتحمل الرواية ولكنه لا يؤديها إلا بعد بلوغ ؛ ولقد كثرت الرواية عن بعض الصحابة ممن سمعوا في الصغر مثل : أنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وأبو سعيد الخدري . أما المراد **بالضبط** فهو سماع الراوي للرواية كما يجب وفهمه لها فهما دقيقا وحفظه لها حفظا كاملا ، وثباته على هذا كله من وقت السماع إلى وقت الأداء . (١)

وعرف الخطيب البغدادي : **العدل** بأنه من عرف بأداء فرائضه ولزوم ما أمر به ، وتوقى ما نهى عنه ، وتجنب الفواحش المسقطة ، وتحري الحق والواجب في أفعاله ومعاملته ، والتوقي في لفظه مما يثلم الدين والمروءة ، فمن كانت هذه حاله فهو الموصوف بأنه عدل في دينه ومعروف بالصدق في حديثه والغاية من اشتراطه واضحة ، فالراوي يؤدي أحاديثا وأخبارا تتعلق بهذا الدين وبأحكامه وحكمه وتشريعاته : فالأحوط أن يقوم بهذا الشأن من كان مؤمنا بهذه العقيدة التى يتحمل مسؤولية تفهيمها للناس) . (٢)

---

(١) ابن الصلاح : المقدمة . تحقيق د. عائشة عبد الرحمن ١٩٧٤ ص ٢١٨
(٢) النواوي : التقريب . ط . حيد أباد . الهند ١٩٥٢ ص ١٩٧
وأيضا الحاكم : معرفة علوم الحديث ص ٥٣
وأيضا البغدادي : الكفاية في علم الرواية . دار الكاتب العربي ص ١٠١

طبقات الرواة :

الطبقة في اللغة (القوم المتشابهون) وفي الاصطلاح (القوم المتشابهون في الأسنا ولقاء المشايخ) ؛ وقد يقع للرجل أن يكون من طبقة ومن طبقتين ؛ وكذلك يمكن تقسم الجماعة إلى جماعات كل جماعة يجتمع أفرادها في صف واحد مثل طبقة الصحابة تجتمع فيها طبقات متعددة بالنسبة إلى الهجرة والسوابق الإسلامية (وشهود المشاهد . فيعد أبو بكر (رضي الله عنه) من طبقة الصحابة ، ومن طبقة السابقين ، ومن طبقة المبشرين بالجنة ، ومن طبقة المهاجرين .

ولقد قسم ابن حجر العسقلاني جميع الرواة من عصر الصحابة إلى آخر عصر الرواية إلى اثنتي عشرة طبقة وتبعه على ذلك من جاء بعده . (١)

الأولي : الصحابة على اختلاف مراتبهم .
الثانية : طبقة كبار التابعين (كابن المسيب)
الثالثة : الطبقة الوسطي من التابعين (كالحسن وابن سيرين) .
الرابعة : طبقة أخرى تلي الوسطي جل مروياتهم عن كبار التابعين (كالزهري وقتادة) .
الخامسة : الطبقة الصغرى من التابعين الذين لم يثبت لبعضهم السماع من الصحابة (كالأعمش) .
السادسة : طبقة حضروا مع الخامسة ولم يثبت لهم لقاء أحد من الصحابة (كابن جريج) .
السابعة : طبقة كبار تبع التابعين (كمالك والثوري) .
الثامنة : الوسطي من تبع التابعين (كابن عيينة وابن علية) .
التاسعة : الطبقة الصغرى من تبع التابعين (كأبي داود الطيالسي والشافعي) .
العاشرة : كبار الآخذين عن تبع الأتباع ممن لم يلق التابعين (كأحمد بن حنبل) .
الحادية عشرة : الطبقة الوسطي منهم (كالذهلي والبخاري) .
الثانية عشرة : صغار الآخذين عن تبع التابعين (كالترمذي) .

ولمعرفة الطبقات فوائد جلي منها :

الأمن من تداخل المشتبهين باتفاقهما في الاسم والكنية . والوقوف على التدليس ، والإطلاع على حقيقة العنعنة ومعرفة المرسل والمنقطع . والصحابي هو (من لقي النبي ﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام) والتابعي هو من لقي صحابيا مؤمنا بالنبي صلي الله عليه وسلم ومات على الإسلام) ؛ وتابع التابعي هو : (من لقي التابعي مؤمنا بالنبي صلي الله عليه وسلم ومات على الإسلام) .

---

(١) يمكن الرجوع لمزيد من المعلومات إلى
ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ط دار الثقافة العربية . مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ
وابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ط ١٣١٨ هـ .

الكتب المدونة في الرواية ومراتبها :

وتنقسم الكتب المؤلفة في الرواية إلى قسمين :
١. فهى إما كتب في فنون الحديث ٢. وإما كتب في أنواعه.

وتنقسم كتب فنون الحديث المدونة بدورها إلى ثمانية أقسام : (١)
١. **العقائد** : وتسمي (علم التوحيد) ، وفيها كتاب التوحيد **لابن خزيمة** .

٢. **الأحكام** : وتسمي (السنن) ، وفيها كتب السنن الستة .

٣. **الرقاق** : (علم السلوك والزهد) وفيها كتاب الزهد **للإمام أحمد بن حنبل** .

٤. **آداب الأكل والشرب** : وتسمي (بعلم الأدب) وفيها الأدب المفرد **للإمام البخاري** .

٥. **التفسير والتاريخ والسير** : وتسمي (بعلم التفسير) وعلم (بدء الخلق) أما قسم السير ، فهو ما كان متعلقا بحياة النبي ﷺ. وفيها كتب ابن مردويه وابن جرير والدر المنثور للسيوطي ؛ وكتاب العظمة لأبي الشيخ ، وسيرة بن اسحق ومغازي موسي بن عقبة الواقدي .

٦. **السفر والقيام والقعود** : وتسمي (الشمائل) ؛ وفيها كتاب الشمائل للترمذي .

٧. **الفتن** : وفيها كتاب الفتن لنعيم بن حماد .

٨. **المناقب والمثالب** : وفيها كتاب مناقب قريش ومناقب الأنصار ، ومناقب العشرة المبشرين بالجنة . وجميعها للمحب الطبري ؛ ويسمي الكتاب الذي يجمع نموذجا لكل فن من هذه الفنون الثمانية (بالجامع) كجامع البخاري .

---

(١) البغدادي : الكفاية في علم الرواية . تحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم . دار الكاتب العربي ص ٢٠٧ وما بعدها .
وأيضا الرامهرمزي : المحدث الفاضل بين الراوي والواعي . بيروت ١٩٧١ / ص٥٣١ وما بعدها .

وأما كتب أنواع الحديث المدونة فهي : (١)

١. الجوامع : جامع البخاري ، وجامع الترمذي ؛ (وليس صحيح مسلم معها ، لخلوه من فن التفسير والقراءة) .

٢. المسانيد : مسند بقي بن مخلد ، مسند أبي داود الطيالسي ، مسند ابن راهويه .

٣. المعاجم : معجم الطبراني الكبير والمتوسط والصغير .

٤. الأجزاء : جزء أبي بكر ، وجزء في قيام الليل للمروزي ، وجزء في صلاة الوتر للمروزي أيضا ، وجزء في صلاة الضحى للسيوطي .

٥. المستخرجات : مستخرج الإسماعيلي على البخاري ، ومستخرج أبي عوانة على مسلم ، ومستخرج أبي على الطوسي على الترمذي ، ومستخرج محمد بن عبد الملك بن أيمن على سنن أبي داود .

٦. المستدركات : مستدرك الحاكم على صحيحين (البخاري ومسلم) ولخصه الذهبي .

٧. العلل : العلل لمسلم ، ولأبي يحيى زكريا الساجي ، ولأبي على الزجاجي حسن بن محمد ، والعلل المتناهية لأبن الجوزي وغيرهم .

٨. الأطراف : الإشراف على معرفة الأطراف (لأبن عساكر) تحفة الأشراف لمعرفة الأطراف (للمزي) أطراف الكتب الستة (لمحمد بن طاهر المقدسي) .

٩. كتب الأحكام : (المنتقي) لأبن الجارود ، و (الأحكام الكبرى) لأبي محمد عبد الحق الأشبيلي و (الأحكام الكبرى) لمحب الدين الطبري ، و (عمدة الأحكام) لعبد الغني المقدسي ، و (إحكام الأحكام) لابن دقيق العيد ، و (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) لابن حجر .

١٠. كتب الصحاح : وهي الكتب الستة المشهورة (للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) . وسميت بالصحاح على سبيل التغليب ولكل منها ميزة خاصة ، فالبخاري لمن يريد التفقه ، وأبو داود لمن يريد حصر أحاديث الأحكام واستيعابها ، والترمذي المعلم بفنون الصناعة الحديثية ، وابن ماجة لقوة التبويب في الفقه ، أما النسائي فقد جمع أكثر هذه المسالك .

---

(١) من أشهر المصنفين في هذه الفترة أبو داود الطيالسي البصري المتوفى ٢٠٣ هـ قال فيه ابن المديني : ما رأيت أحدا أحفظ من أبي داود . راجع ابن معين : التاريخ ص ٢٢٩ وما بعدها ومحمد بن يوسف الفرياني المتوفي ٢١٢ هـ . روي عن الأوزاعي وروي عنه أحمد والبخاري وإسحاق الكوسج . راجع ابن معين : التاريخ ص ٥٤٣ ، وعبد الله بن الزبير المتوفى ٢١٩ ، ويحيى بن معين ، وأبو خثيمة زهير بن حرب ت ٢٣٤ هـ وغيرهم .

وهناك كتب صحاح غير هذه . منها صحيح ابن خزيمة (أبي بكر محمد بن اسحق) المتوفى (٣١١ هـ) وصحيح ابن حبان (محمد بن حبان البستي) المتوفى (٣٥٤ هـ) ، وصحيح أبي عوانة (يعقوب بن إسماعيل الاسفراييني) المتوفى (٣١٦ هـ) ، والصحاح المختارة للضياء المقدسى (محمد بن عبد الواحد المقدسى الحنبلي) المتوفى (٦٣٤ هـ) .

١١. **كتب الضعيف :** كتب العقيلي وابن عدي وكتب الخطيب البغدادي وابن عساكر ، والحكيم الترمذي ومسند الديلمي ، وتاريخ الحاكم وابن النجار .

أنواع الحديث

قسم معظم العلماء الحديث والإسناد ثلاثة أقسام رئيسية :

١. صحيح ٢. حسن ٣. ضعيف

٢. (وأحوال المتون وصفاتها) أنواعا كثيرة ؛ أوصلها بعضهم إلى المائة وعدها النووي خمسة وستين . ولما كان البعض منها لا يحسن عده نوعا بالإضافة إلى ترك علماء الفن لكثير من هذه الأنواع ، رأيت أن أذكر الأنواع الشائعة الاستعمال ، وتنحصر في خمسة وثلاثين ،

الأول : الصحيح . وهو **قسمان :** صحيح لذاته ، وصحيح لغيره ، أما الصحيح لذاته فهو : ما اتصل إسناده بنقل العدل الضابط ضبطا تاما من غيره إلى منتهي السند من غير شذوذ ولا علة قادحة ، وأما الصحيح لغيره فهو : المشهور رواته بالعدالة والضبط ، إلا أنه أقل في ذلك من الصحيح ذاته . (١)

الثاني : الحسن ؛ وهو أيضا قسمان :

١. **حسن لذاته :** وهو ما اتصل إسناده برواية العدل الضابط ضبطا غير تام عن مثله إلى منتهي السند مع الشهرة التى لم تصل إلى شهرة الصحيح من غير شذوذ ولا علة .
٢. **حسن لغيره :** وهو ما لا يخلو إسناده من مستور أو سيء أو نحو ذلك بشرط ألا يكون مغفلا ولا كثير الخطأ ولا ظهر من مفسق .

الثالث : الضعيف ؛ وهو ما فقد شرطا أو أكثر من شروط الصحة والحسن ، وينقسم بهذا الاعتبار أقساما كثيرة ، وتتفاوت مراتبه في الضعف بحسب ضعف رواته وخفته إسنادا ومتنا . (٢)

---

(١) **السيوطي :** تدريب الراوي في شرح تقريب النووي . تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف / ١٩٦٦ ص ٦٥
(٢) **المرجع السابق** ص ١٢٩ وأيضا **الجاحظ :** رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون القاهرة جـ٣ ص ٣٣١

الرابع : المسند ، وهو ما اتصل إسناده (ظاهرا) إلى منتهاه . فيشمل المرفوع والموقوف وغيره ، وقد قيل ظاهرا ليشمل ما فيه انقطاع خفي (كعنعنة المدلس) : وهو الذي يخفي في ثنايا كلامه خلاف ما يظهر منه .

الخامس : المتصل ، ويسمي الموصول ، وهو ما اتصل إسناده إلى منتهاه لسماع كل واحد ممن فوقه مرفوعا كان أو موقوفا ، والاتصال بالعنعنة كالاتصال بالسماع إذا لم يكن الراوي مدلسا وأمكن اللقي (على شرط مسلم) أو ثبت على (شرط البخاري) أو طالت الصحة (على شرط غيرهما) .

السادس : وهو ما أضيف إلى النبي ﷺ. (خاصة) قولا أو فعلا أو تقريرا أو وصفا ، ومنه قول الصحابة كنا نفعل أو نقول كذا في حياة رسول الله ﷺ. أو وهو فينا أو وهو بين أظهرنا ، أو كنا لا نري بأسا بكذا في حياة رسول الله ﷺ. .

السابع : الموقوف ؛ وهو المروي عن (الصحابة) قولا أو فعلا ، أو تقريرا متصلا أو منقطعا .

الثامن : المقطوع ، وهو الموقوف على (التابعي) قولا أو فعلا .

التاسع : المرسل ، وهو ما سقط منه الصحابي سواء أكان الراوي المرسل تابعيا كبيرا أم صغيرا ، وهذا النوع ضعيف عند الإمام الشافعي ، صحيح عند أبي حنيفة ومالك .

العاشر : المنقطع ، وهو ما سقط من رواته راو واحد قبل الصحابي في الموضع الواحد .

الحادي عشر : المعضل ، وهو ما سقط منه اثنان أو أكثر قبل الصحابي بشرط التوالي .

الثاني عشر : المعلق ، وهو ما سقط منه راو أو أكثر على التوالي من أول السند ، وحكمه أنه صحيح إذا وقع في كتاب التزمت صحته .

الثالث عشر : المدلس ، وهو قسمان :

١. مدلس الإسناد .　　　　٢. مدلس الشيوخ .

أما مدلس الإسناد فهو ما رواه الراوي عمن لقيه ولم يسمع منه متوهما أنه سمع منه ، أو سمع منه ولكنه يروي ما لم يسمع . وحكمه الكراهة الشديدة . (١)

وأما المدلس الشيوخ فهو ما سمي الراوي فيه شيخه أو كناه أو وصفه بما لا يعرف به ، وحكمه الكراهة إلا أنه أخف من الأول .

الرابع عشر : الشاذ ، وهو ما رواه الثقة مخالفا لمن هو أرجح منه .

الخامس عشر : المنكر ، ويجتمع مع الشاذ في المخالفة ، وينفرد برواية الضعيف .

---

(١) السيوطي : تدريب الراوي ص ١٨٣
وأيضا البغدادي : الكفاية في علم الرواية . بيروت ص ٢١

السادس عشر : المحفوظ ،وهو ما رواه الأرجح عمن خالفه من الثقة ، فهو مقابل للشاذ .
السابع عشر : المعروف ، وهو ما رواه الراجح المخالف لرواية الضعيف ، فهو مقابل للمنكر .
الثامن عشر : المتابع ، وهو الذي تابع رواية غيره في الرواية من شيخه ، أو شيخ شيخه إلى منتهي السند والمتابعة قسمان :

١. المتابعة عن شيخ الراوي وتسمي متابعة كاملة .
٢. المتابعة عمن فوقه وتسمي متابعة ناقصة .

التاسع عشر : الشاهد ، والفرق بينه وبين المتابع ، أن المتابعة : ما حصلت باللفظ ، والشاهد : ما حصل بالمعني . ومثاله حديث روي عن طريقتين ، طريق قوي وطريق ضعيف ، فإذا كان الضعيف موافقا باللفظ يقال له متابع ، وإذا كان مخالفا للقظ موافقا بالمعني فشاهد .
العشرون : المتروك ، وهو ما انفرد به راو اتهم بالكذب مع مخالفة القواعد المعلومة ، أو كان كثير الغلط أو الفسق أو الغفلة .

الحادي والعشرون : المعلل ،وهو الذي ظاهره الصحة ، ثم اطلع فيه على قادحة بوصل مرسل أو منقطع أو موقوف ؛ أو بإدخال حديث في حديث أو نحو ذلك من الأشياء القادحة . وهو قسمان :
١. واقع في الإسناد . ٢. واقع في المتن .
وما وقع في الإسناد قد يقدح في الإسناد والمتن كالإرسال والوقف ، وقد يقدح في الإسناد خاصة ويكون المتن صحيحا ، كالحديث " البيعان بالخيار " ، رواه يعلى بن عبيد عن سفيان الثوري عن عمرو بن دينار ، وقد غلط يعلي في قوله عن عمرو بن دينار ، إنما هو عبد الله بن دينار وكلاهما ثقة . (١)
وأما ما وقع في المتن كإدخال حديث في حديث يقدح في المتن والإسناد معا .
الثاني والعشرون : المضطرب ، وهو الذي روي على أوجه مختلفة متفاوتة من غير ترجيح لأحدي الطرق ، ويكون الاضطراب في الإسناد وفي المتن وفيهما من راو واحد أو أكثر .

الثالث والعشرون : المدرج ، وهو إما مدرج المتن كذكر الراوي كلاما لنفسه أو لغيره في أول الحديث أو في وسطه أو في آخرة . أو مدرج الإسناد وهو أن يكون عند الراوي متنان باسنادين مختلفين فيرويهما عن الراوي بأحدهما : أو يروي عنه الراوي أحد الحديثين المختلفين بإسناده الخاص به ويزيد فيه من المتن الآخر ما ليس بذلك الإسناد ، أو يكون عنده المتن بإسناد إلا طرفا ، فإنه عنده بإسناد آخر فيرويه تاما بالإسناد الأول ، فهو ثلاثة أقسام أيضا .

(١) المرجع السابق ص ص ٢٢ - ٢٤

الرابع والعشرون : المقلوب ، وهو المشهور عند راو فيجعل مكانه آخر في طبقته ، أو يؤخذ إسناد متن فيجعل لمتن آخر وبالعكس . كما امتحن أهل بغداد الإمام البخاري إذ قلبوا له مائة حديث فردها كلها على وجهها فاعترفوا بفضله وعمله .

الخامس والعشرون : المشهور ، وهو ما رواه أكثر من اثنين ، ومنه المتواتر وهو ما نقله جمع عن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وهو قسمان : متواتر لفظا كحديث / مسح الخفين ، ومتواتر معني كأن يتفق الناقلون على أمر في وقائع مختلفة كشجاعة على رضي الله عنه .

السادس والعشرون : الغريب ، وهو ما انفرد به راو عمن يجمع حديثه ، وهو قسمان غريب متنا وإسنادا ، وغريب إسنادا لا متنا ، ولا يوجد غريب متنا لا إسنادا .

والأول ما انفرد به راو واحد ، والثاني : ما روي متنه جماعة من الصحابة وانفرد واحد بروايته عن صحابي أخر . (١)

السابع والعشرون : غريب الحديث ، وهو ما وقع فيه لفظ غامض بعيد عن الفهم لقلة استعماله .

الثامن والعشرون : العزيز ، وهو ما رواه اثنان عن اثنين ولو في مرتبة واحدة .

التاسع والعشرون : المسلسل ، وهو ما تتابع إسناده على حالة أو صفة واحدة في الرواية ، وأفضله ما دل على اتصال السند وعدم التدليس ، ومن فوائده زيادة الضبط وقلما تسلم المسلسلات من خلل التسلسل ، فقد ينقطع التسلسل في الوسط أو الأول أو الآخر .

الثلاثون : المدبج ، وهو أن يروي القرينان كل عن صاحبه كعائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما . ومالك والأوزاعي رضي الله عنهما .

الحادي والثلاثون : المؤتلف والمختلف ، وهو أن تتفق أسماء الرواة أو ألقابهم أو نحوها في الخط دون اللفظ فمن لا يعرف يكثر خطؤه .

الثاني والثلاثون : المتفق والمفترق ، وهو ما اتفق فيه أسماء الرواة أو أنسابهم أو ألقابهم أو نحوها لفظا وخطأ مع اختلاف المسميات – ومعرفته مهمة – خشية أن يظن الشخصان شخصا واحدا .

الثالث والثلاثون : المتشابه ، وهو مركب من النوعين قبله .

الرابع والثلاثون : المشتبه المقلوب ، وهو أن يقع الاشتباه فيه ذهنا لا خطأ ، والمراد بذلك الرواة المتشابهون في الاسم والنسب المتمايزون بالتقديم والتأخير .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ – ٣١

وأيضا . الرامهرمزي : المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ... ص ٥٣٢ وما بعدها

الخامس والثلاثون : العالي والنازل وأقسام العلو خمسة : (١)

- القرب من رسول الله ﷺ
- القرب من إمام من أئمة الحديث ،
- العلو بالنسبة لرواية أحد الكتب الستة ونحوها ،
- العلو بتقدم وفاة الراوي
- العلو بتقدم السماع .

مكانة الحديث في التشريع :

مما لا يختلف فيه اثنان أن السنة مفتاح الكتاب ، والنبراس الذي يهتدي به إلى كشف حقائقه ، والوقوف على دقائقه ، فإن القرآن ينبوع الشريعة ، حوي علم كل شيء حسبما دل عليه قول الله تعالي : **(ما فرطنا في الكتاب من شيء (٢)) (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء (٣) (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا (٤))** . ومنصب الرسالة منصب التبليغ عن الله تعالي والبيان لأوامره ونواهيه . قال تعالي : **(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته (٥) (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم (٦)** . فمن ثم كانت السنة واجبة الإتباع .

ونحن إذ نستمسك بالسنة ونعمل بها ، إنما نعمل بكتاب الله ، قيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن . فقال : والله لا نبغي بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن . وروي الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك ، فلم يكن للنبي صلي الله عليه وسلم فيما يصدر عنه : من قول أو فعل أو تقرير ، إلا مصدرا عن الوحي **(وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحي (٧))** .

وإننا لنسمع بين آونة وأخرى قولا عجبا من أناس يستخفون بالسنة المطهرة ، ويدعون الناس إلى طرحها ؛ فضلوا – هم – أنفسهم وأضلوا نفرا ممن تبعهم ، وحجتهم أن في الكتاب تبيان لكل شيء . وظنوا خطأ أن نظرهم المجرد يكفيهم في الوصول إلى مقاصده ، وهذا هو ما وقع الرافضة والجهمية والخوارج في مخالفة أهل الإجماع ، فالروافض ردوا حديث رسول الله ﷺ القائل " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة " بعموم قول الله تعالي **(يوصيكم الله في أولادكم (٨)** .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣٢
(٢) الأنعام ٣٨
(٣)النحل ٨٩
(٤)المائدة ٣٤
(٥)المائدة ٧٠
(٦)النحل ٤٤
(٧)النجم ٤ – ٥
(٨) النساء ١١

ورد الجهمية أحاديث الصفات بآية (ليس كمثله شيء (١) وردت الخوارج أحاديث الشفاعة بقوله تعالي : (يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (٢) . وكذلك ردوا الأحاديث الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بما فهموا من آيات الوعيد في القرآن .

وقد تحدثت النبوة عن ذلك بما أوتيت من الغيب ، ونعي النبي ﷺ على من رد سنة صحيحة . فقد روي عنه ﷺ أنه قال : " يوشك رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، إلا وإن ما حرمه رسول الله ﷺ مثل الذي حرمه الله " .

فما الذي سوغ لهؤلاء القوم أن يقفوا عند ظواهر الكتاب ولا يسترشدوا بنور النبوة ، وهدي الرسالة ، والكتاب يأمر بإتباعها ، ويتوعد على مخالفتها ؟ قال تعالي : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا (٣) وقال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله (٤) وقال : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٥) وقال : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٦) وقد دلت هذه الآيات على حجية السنة ووجوب الرجوع إليها واعتبارها . (٧)
ورتبها في الاعتبار بعد رتبة الكتاب فهي في المقام الثاني منه والدليل على ذلك :

١. ثبوت الكتاب قطعي جملة وتفصيلا وثبوتها في الجملة قطعي وفي التفصيل ظني .
٢. حديث معاذ بن جبل حين أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن وسأله : (بم تحكم ؟ فقال : بكتاب الله ، قال لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله
٣. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى شريح القاضي (انظر ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبن لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ ومثل هذا كثير في كلا السلف والعلماء .

---

(١) الشورى ١١
(٢) البقرة ٢٥٤
(٣) المائدة ٩٦
(٤) النساء ٨٠
(٥) الحشر ٧
(٦) النور ٦٤
(٧) يمكن الرجوع إلى كتاب " السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ... تأليف مصطفي السباعي ط ٢ دمشق ١٩٧٨

مكانة الحديث في اللغة والأدب :

كما اتفق أهل العلم والأدب على أن القرآن الكريم في أعلى مراتب البلاغة ، اتفقوا على أن الحديث النبوي في المرتبة التالية لبلاغة القرآن ؛ ففي السنة من روعة اللفظ ، وسمو المعني ، والحكمة البالغة ، واختيار العبارة ، وجمال البيان ما يدهش البليغ ، ويعقد لسانه ، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يؤخذ ببلاغة الرسول ﷺ فيقول : (لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت من هو أفصح منك ، فمن أدبك ؟) وهذا على كرم الله وجهه يسمع الرسول يخاطب وفد بني نهد فيقول : (يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، وإنك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه ؛ فمن علمك ؟) فيجيب الرسول ﷺ صاحبيه بجواب واحد هو : " **أدبني ربي فأحسن تاديبي** " لقد اجتمع للرسول ﷺ ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع ، وصفاء الحس ، ومحض السليقة ، وثقوب الذهن ، وتمكن اللسان وموازرة الوحي ، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق وينهج المذاهب البيانية ، ويرتحل الأوضاع التركيبية ، ويضع الألفاظ الاصطلاحية ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسرا من أسرار اللسان ، يزيد في ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب ، كقوله : (مات حتف انفه) ؛ (الآن حمي الوطيس) ؛ (هدنة على دخن) ؛ (يا خيل الله أركبني) ؛ (لا ينتطح فيها عنزان) : وقوله لحادي النساء : (رفقا بالقوارير) . أو تسميته لصفر الأول (محرما) حين أبطل الإسلام النسيء ، وحرم القتال ، ووصفه لفرس عري لأبي طلحة ركبه في ليلة بأنه (بحر) مريدا بذلك أنه لا ينقطع جريه كما لا ينقطع تيار البحر ؛ أو استحداثه عليه السلام كلمة (الصبير) حين يقول : (من اطلع من صبير (١) باب فقد دمر (٢) ، يزيد بها الشق . قال أبو عبيد إمام اللغة المعروف : لم يسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث . ؛ أو وصفه للزانية (بالزمارة) كما في حديث أبي هريرة (أن النبي ﷺ نهي عن كسب الزمارة) . قال ثعلب : الزمارة : (الزانية) لأنها تشيع أمرها وكأنها تنفخ في بوق . وهذا الحرف لم يسمع إلا في هذا الحديث

ومن جوامع كلمه – الذي يضيق به المقام – (وعد المؤمن كأخذ اليد) (جدع الحلال أنف الغيرة) . (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوي) . (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) (اليد العليا خير من اليد السفلي وأبدأ بمن تعول (٣) (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) (إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون (٤) المتفيهقون (٥) .

---

(١) صبير الباب شق
(٢) دمر : دخل
(٣) تعول : تكفل
(٤) المتشوق : الذي يلوي شدقه للتفصح
(٥) المتفيهقون : المتقطع كلامه

أضف إلى ذلك ما كان للحديث النبوي الشريف من أثر فعال في نهضة الأدب لإقبال الأدباء عليه يستظهرون كثيرا من عباراته ، ويقتبسون منها ، ويستعينون بها في خطبهم وشعرهم وتهذيب عباراتهم وتغذية عقولهم . كما وأنها – أي السنة المطهرة – كانت سببا في وجود كثير من العلوم نهل الكل منها ، فالفقهاء وجدوا فيها ما يشبع نهمهم ، فقد عكفوا على دراستها واستنباط أحكام الفقه منها ، وعلماء الحديث يفسرونها ويتلقون ما فيها من هدى وحكمة ونور ومثل عليا ، ترفع شأن الإنسانية وتوضح سماحة الإسلام ؛ وأهل اللغة أخذوا يدرسونها للإفادة بعباراتها وألفاظها وتراكيبها وأخيلتها ؛ وأهل البلاغة والأدب أخذوا يترسمون أثرها فيما أحدثت من معان بليغة وما أوجدت من تعابير .

كان ذلك للعربية ثروة في الأدب والعلم تفخر بها على كر الليالي ومر الأيام ؛ كما أن الحديث رفع منزلة النثر وقضي على وحشي الكلام وسجع الكهان ، وأوجد في الشعر أغراضا جديدة قضت على أغراض الجاهلية .

علماء الحديث من الصحابة :

١. أبو هريرة (رضي الله عنه) (١)

هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، كناه رسول الله ﷺ بأبي هريرة لهرة كان يحملها ، أسلم عام خيبر سنة سبع للهجرة ، وكان عريف أهل الصفة الذين كانوا في مسجد رسول الله ﷺ ؛ لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله حال ، يتدارسون القرآن ويروون السنة ويتعلمون الأحكام ، ولعل كثرة رواياته راجعة في الأصل إلى ملازمته اللصيقة لرسول الله ﷺ ؛ ، فعن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ . لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولي منك لما رأيت من حرمتك على الحديث ، رواه البخاري في باب العلم دعا له النبي ﷺ ؛ بالحفظ وعدم النسيان كما ورد في سنن النسائي أنه قال أسألك علما لا ينسي . فقال رسول الله ﷺ أمين ، فقال الجلوس يا رسول الله ، ونحن نسألك علما ، فقال سبقكم بها الغلام الدوسي ، فكان حافظ الصحابة ، أخرج الشيخان والترمذي عنه أنه قال : قلت : (يا رسول الله ، أسمع منك أشياء فلا أحفظها . فقال : أبسط رداءك ، فبسطته ، فحدثني

---

(١) لمن يرغب في المزيد من المعلومات يمكن الرجوع الى
ابن قتيبة : المعارف وأيضا ابن عبد البر : الاستيعاب ، البلاذري : انساب الأشراف
وأيضا محمد عجاج الخطيب : أبو هريرة . رواية الإسلام . اللام العرب القاهرة .
وأيضا محمود أبو رية : أبو هريرة شيخ المضيرة دار المعارف . القاهرة

كثيرا فما نسيت شيئا حدثني به) ولازم النبيﷺ في كل أحواله ثلاث سنين وأشهر لعدم شغله بشيء من الدنيا يحفظ عنه ، حتى كان كما قال الشافعي (أبو هريرة أحفظ من روي الحديث في دهره) . وكان الإمام مالك يرضاه وهو ثقة . فقد كان أكثر الصحابة تحديثا عن رسول الله ﷺ

روي عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي بن كعب وأسامة بن زيد وعائشة وغيرهم ، وروي عنهم أكثر من ثمانمائة رجل من صحابي وتابعي ، كابن عباس وابن عمر وجابر وأنس وابن المسيب وابن سيرين وعكرمة ومجاهد وعطاء والشعبي . وكان في الحفظ والضبط بمكان كبير . قال سالم أبو الزعيزعة مولي مروان بن الحكم وكاتبه : (إن مروان دعا أبا هريرة فأقعده خلف السرير فجعل يسأله وجعلت أكتب حتى إذا كان رأس الحول دعا به فأقعده من وراء الحجاب فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر) .

أخرج له بقي بن مخلد (٥٣٧٤) حديثا توفى سنة (٥٧ هـ) وأصح الأسانيد عنه (ابن شهاب الزهري عن ابن المسيب عنه) وأضعفها (السري بن سليمان عن داود ابن يزيد الأودي عن والده يزيد عنه) .

٢. عبد الله بن عمر (١) (رضي الله عنهما) .

عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى ، و كنيته أبو عبد الرحمن ، ولد بعد البعثة النبوية بقليل ، أسلم مع أبيه وهاجر قبله وعمره عشر سنوات ، استصغر يوم أحد وحضر كثيرا من الغزوات ، شهد القادسية واليرموك وفتح إفريقية ومصر وفارس وقدم البصرة والمدائن .

كان ابن عمر مقبلا على الله محتاطا لدينه راغبا عن الدنيا ، إذا أعجبه شيء أخرجه من ملكه وتصدق به حتى عرف عبيده ذلك منه ، فكان أحدهم يلازم المسجد ليعجب ابن عمر فيعتقه فقيل له : إنهم يخدعونك فقال : (من خدعنا بالله انخدعنا له) .

شهد له رسول الله ﷺ فقال : (إن عبد الله رجل صالح) ، وشهد له العلماء بالفقه والرواية والعمل ، وعاش حتى بلغ السادسة والثمانين ، أفتي منها ستين سنة للوفود .

---

(١) من يرغب في المزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى :
ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة وأيضا ابن عبد البر مختصر جامع العلم وفضله وأيضا البغدادي : تقييد العلم وأيضا الجاحظ : البيان والتبيين

روي عن أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وعائشة وحفصة وغيرهم ، وروي عنه ابن المسيب ؛ والحسن البصري وابن سيرين والزهري ونافع ومجاهد وطاوس وعكرمة وبنوه – عبد الله وسالم وعاصم وحمزة وبلال وواقد – ومن عقبه عمر بن عبد العزيز . قال ابن المسيب : (مات ابن عمر وما من الدنيا أحد أحب أن يلقي الله بمثل عمله منه) . وروي له (٢٦٣٠) حديثا واصح الأسانيد عنه (مالك عن نافع عن ابن عمر) وهي السلسلة الذهبية ، وأضعفها (محمد بن عبد الله بن القاسم عن جده عنه) .

٣. السيدة عائشة أم المؤمنين (١) (رضي الله عنها) :

هي أم المؤمنين بنت أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، أبا بكر الصديق وأمها رومان بنت عامر ، كناها رسول ﷺ بأم عبد الله ، أسلمت صغيرة بعد ثمانية عشر إنسانا ، تزوجها رسول الله ﷺ في العام العاشر من رسالته ولم يتزوج بكرا غيرها

كانت رضي الله عنها فقيهة ، ذكية زاهدة صابرة ، تعلم اللغة والأنساب والشعر وأيام العرب والطب . و كانت تصوم حتى يضعفها الصوم ، وتنفق حتى ما يبقي عندها درهم ، روي أنها تصدقت بغزارة من الدراهم وأفطرت على خبز الشعير . أنزل الله في شأنها قرآنا وبرأها من السماء . شهد لها الصحابة والتابعون بالعلم والفقه والحديث ، قال أبو موسي الأشعري : (ما أشكل علينا – أصحاب محمد ﷺ – أمر قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) . أوصت ابن أختها عروة أن تدفن بالبقيع وتوفيت سنة (٥٧ هـ) على الصحيح ، وصلي عليها أبو هريرة .

روت عن أبيها وعن عمر ، وسعد بن وقاص وأسيد ابن حضير وغيرهم ، وروي عنها : أبو هريرة وأبو موسي الأشعري وزيد بن خالد الجهيني وصفية بنت شيبة وابن المسيب وعلقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعائشة بنت طلحة وحفصة بنت سيرين وغيرهم .

روي عنها (٢٢١٠) أحاديث ، وأصح أسانيدها مما رواه : (يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن عمر بن حفص عن القاسم بن محمد عنها) وما رواه (الزهري أو هشام ابن عروة عن عروة بن الزبير عنها) وأضعفها رواية : (الحارث بن شبل عن أم النعمان عنها) .

---

(١) لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى :
ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ط ١ ١٣١٨ هـ
ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة . دار الثقافة . مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ
ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب العالمين . دار الجيل بيروت ٧٣
الذهبي : تذكرة الحفاظ . دار إحياء التراث العربي بيروت ٥٩

علماء الحديث من التابعين :

سعيد بن المسيب (١) ت ٩٤ هـ / ٧١٢ م

هو سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت وسعد بن أبي وقاص وابن عباس وابن عمر ، وعن السيدتين عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما ، كما سمع عن عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وجل روايته المسندة عن أبي هريرة ، وكان زوج ابنته . ولقد شهد له أجلاء التابعين ، وكان عمر بن عبد العزيز لا يقضي بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب ، ولقد عرف عن ابن المسيب أنه كان يبالغ في ستر عورات الناس ويقول زينة العلم العمل به ، وزينة المسلم كرامته ، وزينة المؤمن صدقة ،وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، ومن كبار التابعين فقها ودينا وعبادة وفضلا ، قال ابن حبان (كان أفقه أهل الحجاز وأعبر الناس للرؤيا ، ما نودي للصلاة من أربعين سنة إلا وسعيد بالمسجد ملازما الصف الأول مع الجماعة) . وقال أحمد بن حنبل (أفضل التابعين سعيد بن المسيب) .

ولد في خلافة عمر بن الخطاب . ولما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيام عبد الملك ، ضربه نائبه على المدينة هشام بن إسماعيل ، وأطافه وعرضه على السيف فلم يبايع . وضربه الوالي ستين سوطا ووضعه في السجن ، ولكن ذلك لم يلنه ، ولم يجعله يغير رأيه . ولقد بلغ من أنفته لله أنه كان يدعي ليأخذ ماله من بيت المال فيأبى ويقول : لا حاجة لي في ذلك حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان . وكان سعيد بن المسيب يري الاعتزاز بالعلم ويأبى أن يهينه أو يدنسه بالجري في ركاب الحكام

حج أربعين حجة وكان يتابع الصوم ، شهد له العلماء بالورع والأمانة وكان يقال له : (فقيه الفقهاء) قال ابن المديني : (لا أعلم في التابعين أو سع علما منه ، وإذا قال سعيد مضت السنة ، فحسبك به ، وهو عندي أجل التابعين) وقال الزهري (جالسته سبع حجج ، وأنا لا أظن عند أحد علما غيره) .

وروي عن أبي بكر وسمع من عمر ومن عثمان ومن زيد بن ثابت وعائشة وأبي هريرة وغيرهم . وروي عنه : سالم بن عبد الله ، والزهري ، وقتادة وشريك ، وأبو الزناد ويحيى بن سعيد الأنصاري وغيرهم وستظل قصص الصالحين مددا زاخرا يفيض بالخير والبركة ويتزود منه الناس في مختلف عصورهم – الزاد الذي يعينهم على مشقة الحياة وكدر الزمان وغلبة الهوى وفتنة التسلط ، ونموذج سعيد بن المسيب من النماذج العليا في الكمال الإنساني الذي يشع بالخير والفضيلة في شتي صورها . توفى سنة (٩٤ هـ) .

---

(١) لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى :
البغدادي : تقييد العلم
البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع . مخطوط
ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله
محمد أبو زهو : الحديث والمحدثون دار الكتاب العربي ١٩٨٤

ابن شهاب الزهري توفي ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م :

هو العالم الفقيه محمد بن مسلم بن عبد الله الذي قال فيه الليث بن سعد :

ما رايت عالما قط أجمع من الزهري ، يحث في الترغيب فكأنه لم يحسن غيره ، ويحدث عن السنة والقرآن فيكون حديثه جامعا .

كان يسكن في قرية بين الحجاز والشام تسمي آيلة ، وقد ذهب صيته حتى أمسي مرجع علماء الحجاز والشام . وقد جالس " سعيد بن المسيب " ثماني سنوات في قرية له بأطراف الشام تسمي " شعبدا " وبها كانت وفاته سنة (١٢٣ هـ) .

كان يدون ما يسمع من الحديث . قال بن كيسان : كنت أطلب العلم أنا والزهري فقال : تعال نكتب ما جاء عن النبي ﷺ . ثم قال : تعالي نكتب عن الصحابة ، فكتب ولم أكتب . فنجح - أي الزهري – وضعينا : أي نحن . ويروي عنه – في معرض الاستشهاد على حفظه وضبطه – أن " هشام بن عبد الملك بن مروان " سأله أن يملي على بعض ولده شيئا فأملي عليه أربع مائة حديث ، وخرج الزهري . فقال : أين انتم يا أصحاب الحديث ؟ فحدثهم بتلك الأربع مائة ، ثم لقي " هشاما " بعد شهر ونحوه فقال " هشام " للزهري : إن الكتاب ضاع مني ؛ فدعا – أي هشام - فأملاها عليه – أي الزهري – ثم قابل ما أملاه بالكتاب الأول ، فما غادر حرفا واحدا ، فلما أعجب بعلمه جعله مؤدب أولاده . من أجل هذا الضبط وتلك الدقة قال " عمرو بن دينار " معترفا بفضل " الزهري "

ما رايت أنص للحديث من الزهري . وقد قيل إن أحاديثه قد بلغت ألفا ومائتين (١٢٠٠) روي عن " عبد الله بن عمر " و " عبد الله بن جعفر " و " سهل بن سعد " و " عروة بن الزبير و " عطاء بن أبي رباح " ويري الإمام البخاري أن أصح أسانيده ما كان عن ابن شهاب الزهري عن سالم عن أبيه . وأما ابن أبي شيبه فيري أن أصح أسانيده عن الزهري عن على بن الحسين عن أبيه عن جده على . ولا مشاحة في أن صحة الرواية عن الاثنين تبدأ بابن شهاب الزهري .

الحسن البصري (١) ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م :

الحسن بن أبي الحسن يسار البصري أبو سعيد مولي الأنصار . ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، ونشأ فصيحا عالما عاملا شجاعا .

---

(١) لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى
السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور بيروت ١٩٨٣
البغدادي : الرحلة في طلب الحديث . ط ١ ١٩٧٥
البغدادي : شرف أصحاب الحديث . لاهور باكستان ١٩٦٤
د/ صبحي الصالح : علوم الحديث مطبعة دار العلم ١٩٧٣
ابن سعد : الطبقات

كان يزهد الناس في الدنيا ، استولي عليه الخوف من الله فعاش حزينا ومن قوله (إن المؤمن ليصبح حزينا ، ويمسي ولا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين بين ذنب قد مضي لا يدري ما الله فاعل فيه . وأجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك).

. كان إذا ذكر عند أبي جعفر الباقر يقول : (هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء) . وقال قتادة (ما جالست رجلا فقيها إلا رأيت فضل الحسن عليه قال ابن سعد فيه – في الطبقات – (كان الحسن جامعا عالما . رفيع القدر ، فقيها ثقة مأمونا عابدا ناسكا . كثير العلم . فصيحا جميلا وسيما ، وكان ما أسند من حديثه وروي عمن سمع منه فهو حجة وما أرسل فليس بحجة) .

ولي قضاء البصرة في أيام عمر بن عبد العزيز ثم استعفي . توفى سنة (١١٠ هـ)

.

روي عن أبي بن كعب وسعد بن عبادة وعمر بن الخطاب (ولم يدركهم) .

وروي عن عمار بن ياسر وأبي هريرة ومعقل بن سنان (ولم يسمع منهم) ورأي عليا وطلحة وعائشة . روي عنه : حميد ، وأيوب السختاني وقتادة وسماك بن حرب وجرير بن حازم .

عبد الله بن عباس (١) : ت ٦٨ هـ / ٦٨٧ م رضي الله عنهما)

ابن عم رسول الله ﷺ ، وأمه (أم الفضل أخت أم المؤمنين ميمونة وكنيته أبو العباس ، كان رضي الله عنه بدر الأحبار ، وفخرهم و مفسر التنزيل ومبين التأويل

.

ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وروي أبو نعيم في الدلائل أن النبي ﷺ قال لأم الفضل : (إنك حامل بغلام فإذا ولدت فأتيني به ، فلما ولدته أتته به فأذن في أذنه وأقام في أذنه اليسري والتاه (صب ريقه في فيه) وسماه عبد الله) .

رأي ابن عباس جبريل مرتين ، وشهد الفتح وحنينا والطائف وحجة الوداع . وفتح إفريقية والجمل وصفين . كان فصيحا و مجتهدا في تحصيل العلم ، سئل بما نلت العلم ؟ فقال : (بلسان سئول وقلب عقول) . شهد له أصحاب رسول الله ﷺ بالتقدم في القرآن والسنة والفقه واللغة قال عمر : (ابن العباس أصبح الفتيان وجها ، وأحسنهم خلقا وأفقههم في كتاب الله) يرجع ذلك إلى أدبه الجم وتواضعه وتوقيره للعلم ، وبعد نظره ، وحرصه على طلب الحديث وعدم المبالاة بما يستتبع ذلك من جهد ومشقة .

لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى

السيوطي : تدريب الراوي

العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري

البغدادي : شرف أصحاب الحديث

ويقي بعد ابن مسعود نحو خمس وثلاثين سنة تشد إليه الرحال للفتوى والرواية ولكمال خلقه وتواضعه واحترامه للعلماء .

قال ابن عيينة (الناس ثلاثة : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه وعن مجاهد ، قال : كان ابن عباس يسمي البحر لكثرة علمه وعن ابن الحنفية ... كان ابن عباس خير هذه الأمة .

لقبه رسول الله ﷺ بترجمان القرآن وكان ذلك ببركة دعائه عليه السلام له : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ، اللهم آته الحكمة ، اللهم بارك فيه وأنشر منه) .

قيل في تفسيره : (لو سمعه أهل الروم والديلم ، لأسلموا) . توفي سنة (٦٨ هـ) ، وصلي عليه ابن الحنفية فكبر عليه أربع تكبيرات ، وأدخله القبر من قبل رجليه وضرب عليه البناء وقال : مات اليوم رباني هذه الأمة ؟؟ ودفن بالطائف.

روي عن علي وعمر وأبي بن كعب ، وعن معاذ بن جبل وأبي ذر الغفاري ، وروي عنه ابن عمر وأنس ، وسهل بن حنيف .

أصح أسانيده (الزهري عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة عن ابن عباس) وأضعفها (محمد بن مروان السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح) روي عنه ١٦٦٠ حديثا .

ولقد خلف عباس ثروة قيمة من الأحاديث المروية عن طريقة الآراء الاجتهادية النادرة والآثار المرشدة ، والتف حول إتباع ومريدون ، اغترفوا من فيض علمه العذب ، ونهلوا منه منهم مجاهد بن جبير المكي ، مولي السائب ، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي ، عكرمة البربري الموني وعطاء بن رباح . وعمرو بن دينار ، وعبيد بن عمير ، سعيد بن المسيب ، عروة بن الزبير وغيرهم ومن الصحابة عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وأبو الطفيل . وغيرهم من التابعين وأولاد الصحابة .

أصول التشريع وفقه العبادات :

ليس التشريع الإسلامي من وضع أحد من الناس ، بل هو تشريع إلهي ، جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول وعمل الفقهاء وهو فهم هذين المصدرين العظيمين واستنباط الأحكام الشرعية منهما وذلك في غير الأحكام التى جاءت بالنص في أحدهما . ومن هذه الأصول ما أنفق عليه العلماء جميعا وهى الكتاب والسنة والإجماع ومنها ما هو مختلف فيه وهى القياس والاستحسان والمصالح المرسلة .

الكتاب : هو كلام الله تعالي الذي أنزله على رسوله المصطفي بمعانيه وألفاظه العربية ، فكان كتاب الإسلام الأول وهو يشتمل على نظام كامل للدين والدنيا . وقد جاءت فيه الأحكام التشريعية على نحو كلي عام ومن ثم كانت الحاجة للسنة

السنة :

ولا نزاع في أن السنة حجة في التشريع بجانب القرآن وفي وجوب العمل بها معه ، وفي هذا يقول الله تعالي : " وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا " ويقول : " يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول " ، ويقول مخاطبا رسوله المصطفي : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " إلا أنها تجيء بعد الكتاب في الاحتجاج بها وتعرف الأحكام الشرعية منها ، وإذا ، فلا يصار إليها إلا عند عدم وجود نص من القرآن يفي بما نريده ، أو عند الحاجة لتفصيل أو بيان لبعض ما جاء في القرآن ، وهكذا كان الصحابة والفقهاء جميعا يفعلون وكانت السنة كذلك ؛ لأن القرآن بصدق كل حرف منه وصحته ، أما هي فمنها ما هو مقطوع به ، ومنها ما ليس كذلك ، ولا شك في أن المقطوع به منها لا يبلغ في اليقين مبلغ القرآن بطبيعة الحال . ثم السنة تعتبر كالتفسير والبيان للقرآن ، وما كان كذلك يكون تاليا في الرتبة والمنزلة . (١)

الإجماع :

هو أن يجتمع المجتهدون من الفقهاء ، لبحث هذه المسألة أو تلك ، وبعد تبادل الآراء ، وبعد تبادل الآراء وتمحيصها يجمعون على حكم المسألة المطلوب بيان الحكم الشرعي فيها ، ويصير ما يجمعون عليه حكما شرعيا ملزما للمسلمين .

ويمكن تعريف الإجماع : بأنه اتفاق جملة المجتهدين من الفقهاء المسلمين في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع ، أو مسألة من المسائل .

ويري بعض الفقهاء : أن هذا الإجماع من الفقهاء المجتهدين جميعا في البلاد الإسلامية ، لا يمكن تحققه فعلا ؛ لأنه يتعذر معرفتهم ، ومعرفة آرائهم جميعا في المسألة التي يراد معرفة الحكم الشرعي فيها ، ونحن نري أن هذا كان صحيحا فيما مضي أما اليوم فإنه من اليسير تحقق الإجماع لسهولة المواصلات بين العالم كله . (٢)

ومن البديهي أن الإجماع على حكم شرعي لا يكون إلا عن دليل يستند إليه ، وأمارة تشهد بصحته شرعا ، فإن القول في الدين من غير دلالة أو أمارة خطأ شرعا كما يقرر العلماء .

وقد يكون ذلك الدليل قياس هذه المسألة أو تلك ، التي نريد معرفة حكمها الشرعي ، على مسألة معروف حكمها من الكتاب أو السنة .

---

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين جـ١ ص ٢٠٢ وأيضا محمد يوسف موسي : التشريع الإسلامي وأثره في الفقه . القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٨ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ص ٢٩ ـــ ٣٠

القياس :

يري جمهور الفقهاء – ورأيهم هو الحق – أن نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تفي بأحكام كل ما يحدث من الحوادث والمسائل ، وكل ما يجد من المشكلات ، وقد رأينا أن الإجماع يكاد يكون متعذر حصوله كلما جدت مسألة تتطلب بيان حكمها الشرعي . (١) فلم يبق إلا أن تكون هناك أصل آخر للأحكام الشرعية يلجأ إليه الفقيه وحده دون حاجة إلى الاجتماع بغيره ، وهذا الأصل هو القياس الذي لجأ إليه الفقهاء في كل عصر من عهد الصحابة رضوان الله عليهم جميعا .

ومعني القياس في اللغة هو التقدير ؛ فيقال : قست الأرض بالمتر مثلا ، أي عرفت مساحتها بالأمتار المربعة . وله تعريفات مختلفة مأثورة عن علماء أصول الفقه ، وكلها تتضمن معني التقدير والمساواة ؛ ولهذا ، نستطيع أن نعرفه شرعا بأنه : إلحاق فرع بأصل في حكمه ، بمساواته له في علة هذا الحكم الشرعي .

ومن أمثلة ذلك إلحاق النبيذ مثلا بالخمر الثابت تحريم تناولها بالكتاب والسنة ، ووجوب حد من يقدم على تناوله ، وذلك لأنه يسكر مثلها . وكذلك كراهة البيع التى نص القرآن عليها في هذا الوقت ، وبذلك لما في هذا من الاشتغال عن الصلاة . (٢)

الاستحسان :

اشتهر الفقهاء الأحناف بالأخذ بهذا الأصل والعمل به ، وإن ذهب إليه غيرهم من الفقهاء الآخرين ، ولا يراد به طبعا ما يستحسنه المجتهد بعقله من غير دليل ، وإنما المراد به هو العدول في مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر لوجه هو أقوي ، فهو ليس قولا بالرأي المجرد أو الهوى ، بل هو قول لدليل رجح لدي القائل به .

ومن أدلة وجوب اللجوء إليه عند الحاجة والاحتجاج به ، وجعله أصلا من أصول الأحكام الشرعية ، قوله تعالي : " فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : " ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن "

ويجيء الاستحسان في المرتبة بعد الأصول التى سبق الكلام عليها ، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وكثيرا ما انتفع به الفقهاء في التشريع ن فنراهم يقولون مثلا : هذا العمل يجوز استحسانا لا قياسا ، وذلك الأمر محظور قياسا مباح استحسانا ، فكأنهم يجعلونه مقابلا للقياس . (٣)

(١) المرجع السابق ص ٣١

(٢) المرجع السابق ص ص ٣١ – ٣٢

(٣) المرجع السابق ص ص ٣٢ - ٣٣

ونجد كثيرا من المثل على الآخذ به في كتب الفقه المختلفة في كل المذاهب المعروفة ، ونشير من هذه المثل إلى ما يأتي :

١. لا يصح بيع الشيء المعدوم لسبب الشك في وجوده أو خوف النزاع في تسليمه وتسلمه ، ولكن أجيزت الإجازة شرعا مع أنها بيع منافع الشيء المستأجر ، وهذه المنافع معدومة طبعا وقت العقد ، فكان القياس عدم جواز هذا العقد ، ولكنه أجيز استحسانا لتيسير المعاملات .

٢. ومن هذا القبيل ما يسمي بالاستصناع ، وهو أن تتعاقد مع صانع على أن يصنع لك رداء أو شيئا من الأثاث مثلا ، فالمعقود عليه معدوم وقت العقد ، ولكنه جاز استحسانا لجريان العرف والتعامل به من الأمة جميعا .

ومن هذا وذاك نري أن الاستحسان أصل من أصول التشريع ، وأنه كثيرا ما يلجأ إليه الفقيه ، وأن العرف جري عليه ، وأن تيسير المعاملات يقتضيه ؛ ولهذا ، كان من الخير أن اعتبره جمهور الفقهاء أحد أصول التشريع الإسلامي . (١)

المصالح المرسلة :

كان الإمام مالك بن أنس " رضي الله عنه " أكثر الفقهاء أخذا بهذا المصدر من مصادر الأحكام التشريعية ، وحسنا فعل ؛ ذلك بأننا لو وقفنا في التشريع عند المصالح التى أمر الشارع باعتبارها ، لتعطل كثيرا من المصالح الحقيقية للناس والأمة ، هذه المصالح التى تختلف وتتجدد في كل زمان ومكان ؛ ولعجزت الشريعة الإسلامية عن مسايرة التطور الذي لا نعلم له مدي ينتهي إليه ، بل هو دائم ما دام الزمن .

ويراد " بالمصالح المرسلة " : كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها ، وفي اعتبارها مع هذا جلب نفع أو دفع ضرر ، بشرط ألا تعارض مقصدا من مقاصد الشريعة ، ولا دليلا من أدلتها المعروفة ، وأن تكون مصلحة حقيقية ضرورية للمجتمع ، أو على الأقل يكون فيها تحصيل نفع أو درء ضرر حقيقي .

وإن من يبحث في تشريعات الصحابة والتابعين ، ومن إليهم من الفقهاء المجتهدين ، يعرف يقينا أن هذا الأصل قد روعي في كثير من تلك التشريعات . بل إن من هؤلاء من عمل على تأويل بعض النصوص ، أو إهمال القياس ، رعاية لهذه المصالح وتحقيقها وقصدا إلى المصلحة العامة فيما سنوا من تشريعات ، كما يتضح ذلك من هذه الأمثلة : (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤

(٢) المرجع السابق ص ص ٣٥ - ٣٦

١. ليس في القرآن ولا سنة الرسول نص يوجب أو يحرم جمع القرآن من الصدور والرقاع التي كان محفوظا فيها ، ومع هذا أجمع الصحابة أيام أبي بكر على كتابته وجمعه ، رعاية لمصلحة الأمة ، بعد أن تخرج سيدنا أبو بكر أول الأمر من هذا العمل وقال : كيف أفعل شيئا لم يفعله الرسول ؟ ولكن سيدنا عمر بن الخطاب ظل يراجعه حتى شرح الله صدره له .

٢. يجب شرعا قطع يد السارق كما هو معروف بنص القرآن ، ولكن عمر بن الخطاب أوقف هذا الحد الشرعي عام المجاعة ، والأمر معروف مشهور .

٣. أبقى سيدنا عمر أيضا أرض العراق وغيرها بعد فتحها بأيدي أهلها ، ووضع الخراج عليهم ، وبدل توزيع أربعة أخماسها بين الجنود الذين فتحوها وهم أصحاب الحق في ذلك وهذا رعاية للمصلحة العامة للمسلمين جميعا وللأجيال الآتية منهم .

٤. أجاز الفقهاء أن يفرض الوالي والإمام العادل على الأغنياء من المال مالا بد منه ، لتكثير الجند وإعداد السلاح وحماية البلاد ، وسند هذه الإجازة هو رعاية المصلحة الحقيقية للأمة .

تعريف الشريعة :

كلمة التشريع مصدر لكلمة شرع المأخوذة من الشريعة وتطلق الشريعة عند علماء اللغة على معنيين :

أولهما : الطريقة المستقيمة يدل على ذلك قول الله تعالي ، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (١)

ثانيهما : مورد الماء الجاري الذي يقصد للشرب يدل ذلك قول العرب شرعت الإبل . أي وردت مكان الماء .

وقد عرف الفقهاء بأنها : الأحكام التي سنها الله لعباده على لسان رسله وسميت هذه الأحكام شريعة لاشتمالها على المعنيين اللغويين .

فهي طريقة مستقيمة : لأنها مستقيمة لا اعوجاج فيها ولا التواء ، وهي شبيهة بمورد الماء الجاري : لأنها – سبيل إلى غذاء الأرواح وحياة النفوس : كما أن مورد الماء سبيل إلى حياة الأبدان .

---

(١) الجاثية ١٨

وقد اشتق من الشريعة بهذا المعنى كلمة شرع – بفتح الراء – بمعنى أنشأ الشريعة وسن قواعدها وأظهر أحكامها . يدل لذلك قول الله تعالى ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (١)

وبناء على ذلك يكون معنى التشريع المأخوذ من شرع – بتشديد الراء – هو : سن الشريعة وبيان الأحكام وإنشاء القوانين

والتشريع الإسلامي بهذا المعنى قاصرا على ما ورد على لسان ﷺ في حياته . لأن الله تبارك وتعالى لم يعط لغيره ﷺ سلطة التشريع ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى (٢) ، وقد اكتملت الشريعة قبل وفاته ﷺ ، حيث قال جل ذكره ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا (٣) .

وعلى هذا يكون ما ورد على لسان الصحابة والتابعين من بعده ليس تشريعا بالمعنى المتقدم وبناء على هذا لا يطلق تاريخ التشريع الإسلامي إلا على ما جاء به عنه ﷺ لكن لما كان علم تاريخ التشريع غير مقتصر في أبحاثه على ما ورد في عهده ﷺ ، بل أشتمل عليه وعلى غيره مما طرأ على الفقه حتى الآن .

لذلك كان لزاما على العلماء التوسع في إطلاقه فأطلقوا على العلم الذي يبحث فيه عن حالة الفقه الإسلامي من عهد رسول الله إلى وقتنا الحاضر . وعن حالة المجتهدين من الفقهاء وآثارهم في الأحكام . (٤) وعلى هذا تكون كلمة تاريخ التشريع مساوية لكلمة تاريخ الفقه .

وقد ورد في تعريف الفقه لغة أقوال ثلاثة :

أولهما : الفهم مطلقا سواء كان المفهوم دقيقا أم غير دقيق وسواء كان غرضا لمتكلم أم غيره . والدليل على ذلك قوله تعالى على لسان قوم شعيب " ما نفقه كثيرا مما تقول (٥).

---

(١) الشورى ١٣

(٢) النجم ٣ – ٤

(٣) المائدة ٣

(٤) عبد الفتاح الشيخ : فقه العبادات . معهد الدراسات الإسلامية ١٩٩١ ص ٧ وما بعدها

(٥) هود ٩١

، وقوله في شأن الكفار " فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (١) وقوله " وإن من شيء إلا يسبح بحمده . ولكن لا تفقهون تسبيحهم " (٢) فهذه الآيات تفيد أن الفقه هو الفهم مطلقا

ثانيها : هو الفهم للأشياء الدقيقة فقط فلا يصح أن تقول فهمت أن السماء فوقنا وأن الأرض تحتنا ويرد هذا القول : بما سبق من آيات ، وربما أئمة اللغة من أن الفقه هو الفهم مطلقا .

ثالثها : هو فهم غرض المتكلم من كلامه فلا يسمي فهم لغة الطير فقها ويرد هذا القول أيضا بالآيات السابق بيانها في الرأي الأول .

تعريف الفقه اصطلاحا :

يعرف الفقه اصطلاحا بأنه : العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية **والعلم :** يراد به هنا مطلق الإدراك للشامل للتصور والتصديق **والأحكام :** يراد منها النسب التامة بين الطرفين . التى هى ثبوت المحمول للموضوع أو نفيه عنه ، **كقولنا :** الصلاة واجبه ، والزنا حرام .

والشرعية : أي المنسوبة إلى الشرع وهى ما كانت مأخوذة ، أدلة الشرع المبعوث به النبي ﷺ كالكتاب والسنة وغيرهما من الأدلة المتفق عليها والمختلف فيها **والعملية :** أي المنسوبة إلى العمل ، بأن يكون الموضوع فيها عملا من أعمال المكلف والمحمول حكم شرعي كقولنا الزكاة واجبة . والزنا حرام . والمراد هنا أفعال الجوارح الظاهرة كالصلاة . والباطنة غير الاعتقادية كالنية . (٣)

وكون الأحكام الفقهية عملية أمر أغلبي . لأن منها ما ليس عمليا . فثبوت طهارة الخمر إذ تخللت بنفسها . ومنع الرق للإرث . وغير ذلك لأن المحمول وإن كان حكما شرعيا وهو الطهارة في الخمر . مثلا لكن الموضوع ليس عملا من أعمال المكلف لأنه ذات وهى الخمر ، فالطهارة ليست صفة عمل بل صفة ذات المكتسب : يقرأ بالرفع على أنه صفة العلم . ولا يصح أن يقرأ بالجر على أنه صفة للأحكام لأنها مؤنثة . والمكتسب مذكر . لأن الصفة يجب مطابقتها للموصوف تذكيرا وتأنيثا مادام النعت حقيقيا .

---

(١) النساء ٧٨

(٢) الإسراء ٤٤

(٣) المرجع السابق ص ٩ وما بعدها

ومعني المكتسب : الحاصل بعد أن لم يكن .

والأحكام الشرعية تتناول أعمال المكلفين كالصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وشرب الخمر الخ من الأعمال الظاهرة . كما تتناول الباطنة كالنية ، وتتناول أيضا الحكم على الأشياء كالطيبات من الرزق . وما أخرجت الأرض . فيقال إنهما حلال ، ولحم الخنزير فيقال أنه حرام . (١)

موضوع علم الفقه : يبحث الفقه في أفعال المكلفين وصفات الأشياء ، لبيان الأحكام الشرعية لها المستفادة من الأدلة التفصيلية .

التعريف بالفقيه : الفقيه هو : المجتهد الذي تكونت عنده الملكة الفقهية التى تمكنه من استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية على أن المجتهد أنواع ثلاثة هى :

(أ) **المجتهد المطلق :** وهو الذي يشتغل بقواعد لنفسه يبني عليها الأحكام من أدلة الشرع بعد أن تتوافر فيه شروط المجتهد .

(ب) **مجتهد الفتوى :** هو المتبحر في مذهب إمامه والمتمكن من ترجيح قول على آخر مع التوجيه .

(ج) **مجتهد المذهب :** هو المقلد لإمامه فيما ظهر فيه قول الإمام ، لكنه يعرف قواعد إمامه وما بني عليه مذهبه . فإذا وقعت حادثة لم يعرف لإمامه نصا فيها اجتهد فيها على منواله . (٢)

حاجة الناس للتشريع :

١ . مما لاشك فيه أن التشريع أمر ضروري لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية فهو السبيل الوحيد الذي ينظم حياة الفرد والأسرة والجماعة على أحسن ما يكون ، فلولاه ما تحقق الأمن والسلام بين الناس . ولما تحقق لهم العدل الناشيء عن تطبيق ما ورد فيه من قواعد وأحكام .

٢ . ميز الله الإنسان عن مخلوقاته الحيوانية بعقله . لكن أودع فيه من الصفات ما يجعله أحيانا محبا لذاته ومستأثرا لنفسه بكل ما يجده .

---

(١) المرجع السابق ص ص ١٠ – ١١

(٢) المرجع السابق ص ١١

وقد نشأ عن ذلك تعارض بين ميوله الخاصة وميول غيره . كما نشأت المنازعات بين الأفراد والجماعات . فقامت الحروب وتقطعت الأواصر وبطش القوي بالضعيف ، من أجل هذا وجدت الضرورة الداعية إلى شرع الله ليعم العطف والود والإخاء بين بني البشر وليس أدل على ذلك من قول الله تبارك وتعالي " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١)

٣. النفس الإنسانية في غالب أحوالها أمارة بالسوء تدعو أحيانا صاحبها إلى ترك العمل الصالح والسير في طريق الغواية والضلال لهذا أرسل الله لعباده رسلا مبشرين ومنذرين يدعون إلى الخير والبر والصلاح . (٢)

الفرق بين التشريع السماوي والوضعي :

١. **التشريع السماوي :** وهو عبارة عن مجموعة الأوامر والنواهي والقواعد والإرشادات التى يشرعها الله لأمة على يد رسولها . ليبلغهم إياها .

٢. **التشريع الوضعي :** وهو عبارة عن مجموعة النظم والقواعد التى يضعها صاحب السلطة ليتعامل من يحكمهم بمقتضاها . وأهم الفروق بينهما ثلاث هى :

١. التشريع السماوي ينظم العلاقة بين الفرد وخالقه ، وبينه وبين غيره من الأفراد ، أما التشريع الوضعي فقاصر على تنظيم العلاقة بين الأفراد بعضهم مع بعض .

٢. التشريع السماوي من الله العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، لذلك لا غني للإنسانية عنه . لأن الله لا يختار لهم إلا ما فيه دوام سعادتهم وأمنهم وسلامهم .

أم التشريع الوضعي فمن فرد أو أفراد تتأثر اتجاهاتهم وميولهم بالثقافة والزمان والمكان . والعرف . والحر . والبرد . والصحة . والمرض أضف إلى ذلك أن العقول البشرية ليست على درجة واحدة في إدراك الحسن والقبح فما يراه إنسانا حسنا يراه غيره قبيحا كما أنها لا نعلم شيئا عن المستقبل وما يحيط به من ملابسات . (٣)

لهذا وغيره كان القانون الوضعي غير ملائم للمجتمع في جميع الأحوال والأزمان لذلك نجد رجال القانون يعالجون ما يظهر فيه من قصور بالتعديل أو الزيادة أو الحذق .

---

(١) الحجرات ١٣

(٢) المرجع السابق ص ١٢

(٣)المرجع السابق ص ١٣

٣. الجزاء في التشريع السماوي دنيوي وآخرون ، بخلاف القانون الوضعي فجزاؤه دنيوي فقط .

٤. التشريع السماوي يحاسب على فعل الإنسان الظاهر عن طريق جوارحه وعلى ما في قلبه بخلاف القانون الوضعي فهو لا يحاسب إلا على الأعمال الخارجية . (١)

---

(١) المرجع السابق ص ١٤

من أعلام رواية الحديث والفقه

الإمام مالك بن أنس

(٩٣-١٧٩هـ) (٧١١ – ٧٩٥ م)

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث. ولد بالمدينة المنورة من أبوين عربيين من قبائل يمنية وأمه تنتهي إلى قبيلة نت شريك الأزدي ، رجح الروايات أنه ولد عام ٩٣هـ/ ٧١١ م وكان أبوه أنس راوية للحديث.. وكان مقعداً يحترف صناعة النبل، بدأ مالك يتعلم القراءة والكتابة صغيراً تحت تأثير البيئة التي عاش فيها. وكان يريد أن يتعلم الغناء ،وجهته أمه إلى طلب العلم. يقول مالك: حينما بلغت سن التعليم عممتني وقالت: اذهب فاكتب (تريد الحديث) - ولعلها كانت تريد أن يكون مثل جده مالك أحد كبار التابعين الثقاة ، روى عن كثير من الصحابة وهو أحد الذين كتبوا المصحف الشريف في عهد عثمان رضى الله عنه، وانطلق يلتمس العلم فأحبه من صغره ، وحرص على جمعه ، وتفرغ له ، ولازم العلماء وحمل عنهم العلم والعمل. ولعل أشدهم أثراً فى تكوين عقليته العلمية هو: ابو بكر عبد الله بن يزيد المعروف بابن هرمز المتوفى عام ١٤٨ هـ ، فقد روي مالك أنه قال : كنت آتي ابن هرمز مبكرا فما أخرج من بيته حتى الليل لثلاثة عشر سنة، وكان ابن هرمز يجله ويخصه ، لكثرة ملازمته له ، ولما بينهما من ود وحب وتآلف. وابن هرمز هو العالم الجرئ الذى خرج مع محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الذكية ضد أبى جعفر المنصور ، وحمل سلاحه وحارب، فلما خمدت الثورة ، ووقف أمام الوالى سأله عن سبب خروجه فقال: فتنة شملت الناس فشملتنا فيهم، فتركه الوالى لمكانته عند الناس.

جد مالك في طلب العلم من كل نواحيه ، ومن كل رجاله وبذل الجهد في طلبه ، ولم يدخر وسعا في مال أو نفس فكان يتحمل في سبيله كل مشقة ، وكان يتحمل حدة الشيوخ ويذهب إليهم فى هجير الحر وقارس البرد ، وابتدأ مالك بعلم الرواية وهو أحاديث رسول الله ﷺ ، علم بفتاوي الصحابة وتتبعها ، وبذلك أخذ الدعامة التى بني عليها فقهه . والعلم الذي قرنه بعلم الحديث هو فتاوي الصحابة وفتاوي التابعين الذين لم يلقهم ، فتلقي فتاوي عمر رضي الله عنه وفتاوي عبد الله بن عمر ، وفتاوي زيد بن ثابت ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفتاوي عثمان بن عفان وغيرهم من الصحابة الذين تصدوا للفتوي . وكان معنيا بتعرف فتاوي كبار التابعين كسعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وسليمان بن يسار واتجه مالك إلى فقه الرأي وقد تلقاه بعض فقهاء الرأي بالمدينة كيحيى بن سعيد ، وربيعة بن عبد الرحمن حيث أن الرأي الذي يعرفه ربيعة أساسه التوفيق بين النصوص والمصالح المختلفة.

لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلي
أمين الخولي : مالك تجارب حياة . وزارة الثقافة أعلام العرب العدد ١١ ١٩٦٢
وأيضا السيوطي : تنوير الحوالك شرح موطأ مالك طبعة عيسي الحلبي
وأيضا الإمام مالك : الموطأ محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء الكتب . الحلبي
وأيضا ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب . القاهرة

وأخذ عن الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى وهو ممن دونوا الحديث ومن أشهر شيوخ المدينة ، وقد روى عنه مالك فى موطنه مائة واثنين وثلاثين حديثاً بعضها مرسل.

وكذلك روى مالك عن نافع مولى ابن عمر. وأخذ عن جعفر الصادق الإمام الشيعى من آل البيت ، وأخرج له فى الموطأ تسعة أحاديث منها خمسة متصلة مسندة ، أصلها حديث واحد طويل هو حديث جابر فى الحج والأربعةمنقطعة.

وروى عن شيوخ كثيرين منهم هشام بن عروة ، ومحمد ابن المنكدر ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وسعيد بن أبى سعيد المقبرى ، وغيرهم، وقد بلغ عدد شيوخه على ما قيل ثلاثمائة من التابعين وستمائة من أتباعهم.

وكان الإمام قوى الحافظة، جيد التحرى فى رواية الحديث مدققاً لا ينقل إلا عن الثقات لقد آتاه الله حافظة واعية ، وحرصا شديدا على الحفظ ... ولاشك أن الحافظة القوية أحد أسباب النبوغ في العلوم والمعرفة ، لأنها تمد العالم بغذاء لعقله يكون أساسا لفكره ، وكان مالك بهذه الحافظة القوية المحدث الأول في عصره حتى لقد قال فيه الشافعي : **إذا جاء الحديث فمالك النجم الثاقب " وقال فيه شيخه ابن شهاب أنه وعاء علم .**

ولقد بهر مالك أساتذته كما بهر أقرانه بمواهبه الفطرية وجهاده الدائب وشغفه الشديد بالعلم وتأدبه ودقته وتحريه فيما يقبل وفيما يظهر من العلم، لقد كانت المدينة ملاذ العلماء ولم يخل محدث ممن رحلوا من المرور بها لزيارة القبر الشريف ولتلمس العلم من مكانه ، والحديث من مصدره ، فالتقى مالك بأكثرهم واستفاد منهم، فهو أحد الأئمة الأربعة المشهورين طوال حياته مجتهداً فى إطار الكتاب والسنة واقره علماء عصره على صحة استخراجه للحديث ومتانة اجتهاده ونزاهة نظرته، فاستحق مكانته رضى الله عنه.

حدث الثقات أن رسول الله ﷺ قال: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالم أعلم من عالم المدينة " وهذا الحديث يسوقه المالكية للدلالة على تقدم مالك رضي الله عنه ، وعلى أنه المقصود بهذا الخبر ، ونسوقه لبيان فضل العلم في المدينة واستبحار علمائها وامتيازها بالكثرة ... والمدينة هى البيئة الفكرية التى أظلت الإمام مالكا . وأن امتياز المدينة بالعلم في عصر الأمويين وأول عصر العباسيين ، أمر ينتهي إليه السياق التاريخي . نشأ مالك في ذلك الوسط العلمي وأخذ العلم من كل المناهج الفكرية ، وأخذ من بعض الشيوخ الفقه والرأي وأخذ من البعض الأخر الحديث وأثار الصحابة ، وكان مالك يتلقي ثم يفحص ويمحص ، يقبل بعضه ويرد بعضه ، ولذا كان يكثر ابن هرمز بالمحادثات العلمية حتى أصبح محدثا وفقيها .

وكان الإمام مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وسرح لحيته ، وجلس متمكناً فى جلوسه على صدر فراشه فى وقار وهيبة، وحدث. فقيل له فى ذلك؟ فقال: أحب أن

أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث إلا على طهارة متمكنا. وكان يكره أن يحدث فى الطريق أو وهو قائم.

وكان يتتبع الآثار النبوية ويميل إلى الأخذ برأى أهل المدينة ، ويتجنب أهل الفرق ، ويأبى أى انحراف عن الدين. فالدين فى نظره واحد لا يتغير ويتمثل فى الأخذ بكتاب الله الكريم وسنة الرسول صلى الله وعليه وسلم، وما قال به الخلفاء الراشدون، وما رواه الصحابة وأهل العلم والتقى من علماء المدينة.

ولقد كان هذا الاحترام للحديث ولصاحبه نابعاً من اعتزاز منه بما أنعم الله عليه من العلم ، ولعل فى موقفه من الخلفاء ما يدل على ذلك: فقد روى أن الخليفة هارون الرشيد زار مالكا فى بيته ومعه بنوه ، ورغب إليه أن يقرأ عليهم الموطأ. فقال مالك: ما قرأت على أحد، وإنما يقرأ على، فقال هارون: أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك، فقال مالك: إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص. وأمر معن بن عيسى أن يقرأ فقرأ.. فلم يجد الرشيد بداً من النزول على رأى مالك.

ومن صفاته وأخلاقه أنه كان جواداً كريما سمح المحيا ، وكان مهيبا وحازما فى الدفاع عن الحق، يكره الجدال واللغط ورفع الصوت ، خاصة فى مجلس الحديث، وكان لا يهاب السلاطين ويرسم للعامة طريق المصارحة بالحق معهم.

ناظره أبو جعفر المنصور فى مسجد الرسول صلى الله وعليه وسلم ، فرفع صوته فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله عز وجل قال: "لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى"، ومدح أقواماً فقال: "إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى".

ولما قدم الخليفة المهدى المدينة أقبل الناس عليه لتحيته ، فلما أخذوا مجالسهم جاء مالك فقالوا: اليوم يجلس مالك آخر الناس. فلما دنا ونظر ازدحام الناس وقف وقال: يا أمير.. أين يجلس شيخك مالك؟ فناداه المهدى: عندى يا أبا عبد الله. فتخطى الناس حتى وصل إليه. فرفع المهدى ركبته اليمنى وأجلسه بجانبه. وهو فى ذلك تصرف عن فهم واسع وخبرة عميقة واحترام للعلم.

ترك الإمام آثاراً تمثلت فى تلك النخبة من تلاميذه وحملة علمه. فقد روى عنه كثيرون منهم الإمام أبو حنيفة، ومنهم الإمام الشافعى ومحمد بن الحسن وله رواية للموطأ وابن المبارك ويحيى بن سعيد القطان وكثيرون من شيوخ البخارى ومسلم وأئمة الحديث. وقد روى عنه من شيوخه الإمام الجليل الزهرى ويحيى بن سعيد الأنصارى.

وقد انتشر المذهب المالكي في مصر في حياة الإمام مالك ، أدخله فيها تلاميذه عبد الرحمن بن القاسم وعثمان بن الحكم ، وعبد الرحمن بن خالد ، وأشهب وغيرهم من التلاميذ الذين اتخذوا مصر مستقرا ومقاما ، وقد استمر المذهب المالكي له الغلب في مصر حتى جاء المذهب الشافعي فنازعه السلطان، ولا يزالان كذلك بالنسبة ،

ولا يزالان كذلك بالنسبة للعبادات وفي الأندلس كان المذهب المالكي صاحب السلطان ، فقد ولي القضاء يحيى بن يحيى والذي كان صاحب الكلمة عند أميرها ، فكان لا يولي القضاة إلا من فقهاء المذهب المالكي . قال له ابن حزم الأندلسي في ذلك : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : الحنفي بالمشرق والمالكي بالأندلس وكان للمذهب في المغرب مثل ذلك .

"الموطأ". أول كتاب مدون لروايات السنة :

كان الناس قبل الموطأ يعتمدون على ذاكرتهم ، ولأن كثيرين من الرواة كانوا يجهلون أهمية الكتابة . وكان الاتجاه إلى التدوين في عصر الإمام مالك ، وقد فكر عمر بن عبد العزيز من قبل في جمع السنن ، ولكن لم يتم له ما أراد ، وقد فكر من بعده أبو جعفر المنصور في جمع الناس على قانون واحد ، وهو ما عليه الفقه في المدينة والآثار التي عند رواتها،وقد وجدت دعايات مختلفة لذلك ، فقد قرر ذلك ابن المقفع في رسالته الصحابه ، ودعا إليه لتكون الأقضية كلها على أمر واحد ، لا يختلف في بلد عن بلد . وجرت الدواعي لتدوين الموطأ ، وقد بتدأ في تدوينه في عهد أبي جعفر ، ولكن لم يتم الكتاب في عهده ، بل أتمه في عهد المهدي ، ولكن لم يصبح قانونا عاما شاملا لأن مالكا نهي عن ذلك ، وحاول الرشيد أن يجعله قانونا ، ويعلق نسخا منه بالكعبة ليعلمه الناس جميعا ولكن لم يرتض مالك ذلك ، وعدل عنه تيسيرا على الناس في أقضيتهم .

والموطأ كتاب حديث وفقه ، تذكر فيه الأحاديث في الموضوع الفقهي الذي يجتهد فيه ، وأحاديث الموطأ اختلف مقدارها باختلاف رواته ، والسبب في ذلك أنه كان دائم التثبيت مما رواه ، فكان يحذف مما روي وقتا بعد آخر ، وقد روي بعده روايات ، وأشهر الروايات له روايتان : إحدهما رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المتوفى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م و الأخرى رواية محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب أبي حنيفة .

وهو الكتاب الذى طبقت شهرته الآفاق، والسبق على كل كتب الحديث إلى عهد الإمام البخارى. قال الإمام الشافعى: ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتب مالك، وفى رواية أكثر صوابا وفى رواية أنفع.

وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى شرح الترمذى: "الموطأ هو الأصل واللباب وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب، عليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى".

وعدد أحاديث الموطأ كما قال أبو بكر الأبهرى: **"جملة ما فى الموطأ من الآثار عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين ألف وسبعمائة وعشرون حديثا المسند منها ستمائة حديث والمرسل مائتان واثنان وعشرون حديثا والموقوف ستمائة وثلاثة عشر، ومن قول التابعين مائتان وخمسة وثمانون". وقد ورد غير ذلك فى عدده.**

وقد عنى العلماء بشرح موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي حتى بلغت شروحه مائة ، وصار الأمر كما قال القاضي عياض: لم يعتن بكتاب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ. وأهم هذه الشروح: التمهيد للحافظ أبو عمر بن عبد البر، رتبه على أسماء ، وهو كتاب فى عشرين جزءاً ، مدحه ابن حزم رغم تهجمه على العلماء.

عاش مالك جزءا كبيرا من حياته عليلا ، ولكنه ما كان يعلم بعلته أحدا ، فكان بعض الناس يظنون الظنون حول مرضه ، ولكن لا ينطق بذلك ، ولم يذكر مرضه إلا ساعة أن حضرته الوفاه ، فعندئذ أعلنه وقال : لولا أني في آخر يوم من أيام حياتي ما أخبرتكم ، مرضي سلس البول ، كرهت أن آتي مسجد رسول الله بغير وضوء كامل ، وكرهت أن أذكر علتي فأشكو ربي .

وبعد حياة عريضة حافلة توفى رحمه الله فى ربيع الأول سنة ١٧٩هـ عن خمس وثمانين سنة قضاها فى خدمة العلم والدين وأعطى صورة للعالم العامل وصلى عليه أمير المؤمنين عبد الله بن محمد بن إبراهيم العباسى ، وشيع جنازته ، واشترك فى حمل نعشه ، ودفن فى البقيع. رضى الله عنه وأرضاه.

الإمام الشافعي

(١٥٠ ــ ٢٠٤ هـ) (٧٦٧ ــ ٨١٩ م)

هو أبو عبد الله محمد إدريس الشافعي القرشي ، ولد بغزة عام ١٥٠ هـ ، وكانت أم الإمام الشافعي سبب نبوغه وعظمته إذ أن والده مات وهو مازال رضيعا ، وحرصت أمه على أن يتلقى العلم بمكة المكرمة وهو ابن عشر سنوات . وقد ظهرت عليه دلائل النبوغ والمعرفة وهو ما زال شابا يافعا . حفظ القرآن بمكة ، وبها تعلم اللغة والشعر وفنون الأدب وعلوم القرآن والحديث والفقه ، وكان ذلك موضع إعجاب شيوخه من فرط ذكائه وشدة فهمه . ومن مشهوري العلماء الذين تلقي عنهم العلم سفيان بن عيينة ومسلم ابن خالد الزنجي .

ولما قارب العشرين من عمره انتقل إلى المدينة ، وكان قد سمع بالإمام مالك وعلو مقامه في العلم ، فذهب إليه وتلقي عنه فقهه ، ثم رحل إلى العراق ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم فقههم ، ورحل إلى بلاد فارس وشمال العراق وكثير من البلاد ، ثم عاد إلى المدينة بعد أن قضي سنتين في هذه الرحلة من سنة ١٧٣ إلى سنة ١٧٤ هـ . وقد زادته هذه الرحلة علما ومعرفة بشئون الحياة وطبائع الناس .

وبعد أن توفى الإمام مالك سافر إلى اليمن مع واليها ، وأقام بها ملازما الإمام يحيى بن حسان ومتفرغا لتدريس العلم وإفادته ، فاشتهر أمره بها .

ثم وشي به إلي الخليفة هارون الرشيد ، فأخذوه إلى بغداد وهناك ظهرت براءته وعرف فضله وعلمه ، فأغدق عليه الرشيد الخير الوفير ، فأقام ببغداد يدرس العلم وينشر مذهبه ، فأقبل عليه الناس أفواجا يأخذون عنه . وقد أتم في مدة إقامته بها كتاب " القديم " أو مذهبه القديم . ثم عاد إلى مكة ، وفيها تفرغ لنشر مذهبه فتلقاه عنه بعض العلماء الوافدين إلى الحج ونقلوه إلى بلادهم . وفي سنة ١٩٨ هـ قدم إلى مصر من بغداد أن ذهب إليها وأقام بها شهرا ، وأقام بمصر حتى توفي . وقد كان الشافعي في مبدأ أمره يعد من أتباع مالك ، لأنه أخذ عنه مذهبه ، وأملي " الموطأ " على بعض الوافدين إلى المدينة من علماء الأمصار .

ولما رحل إلى العراق ، وقرأ كتاب الأوسط للإمام أبي حنيفة ودرس مذهبه ومذهب أصحابه ، ورأي في العراق من الأحداث والقضايا ما لم يره في الحجاز ، استجدت له آراء تخالف آراءه الأولي المالكية ، وتتفق وهذه الأحداث الجديدة وما ألفه الناس في بلاد العراق ، ولهذا ألف مذهبه " القديم " وخالف في كثير من مسائله مذهب أستاذه الإمام مالك .

ذكر ابن خلدون أن الإمام الشافعي رحل إلى العراق من بعد مالك ، ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، واختص بمذهب ، وخالف مالكا رحمه الله في كثير من مذهبه .

الشافعي وتدوين علم أصول الفقة :

ولما جاء الشافعي إلى مصر واستقر بها ، قام بتدوين مذهبه الجديد ، ورجع عن بعض الأحكام التى كانت له بالقديم . ويظهر لنا أنه تأثر بالبيئة المصرية وما كان فيها من نظم وعادات خاصة ، وقد وجد لمن تقدموه من العلماء بمصر فتاوى خاصة بأحوال المصريين لم يكن أطلع عليها من قبل ، فرجع عن بعض آرائه العراقية إلى ما يخاله من الأحكام .

قدم الشافعي مصر – وكان الغالب علي المصريين المذهب المالكي والمذهب الحنفي – فنشر مذهبه بها ودون كثيرا من الكتب ، منها : كتابه " الجديد " ، وكان

لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى :
الإمام الشافعي : تحقيق أحمد شاكر . طبعة الجلي ١٩٤٠
وأيضا الإمام الشافعي : الأم . القاهرة
وأيضا ابن أبي حاتم : آداب الشافعي ومناقبه . القاهرة ١٩٥٣

يدرس فيه مذهبه بمسجد عمرو بن العاص ، وكتاب " الأم " ، و " الأمالي الكبرى " ، و " الإملاء الصغير " ، وكتاب " الرسالة " ، وغير ذلك من الكتب . ووضع بمصر علم أصول الفقه ، وهو أول من وضعه ودونه .

وتلقي عن الشافعي مذهبه كثيرون من العلماء ، وكتبوا عنه ما ألفه وعملوا بما ذهب إليه . ومن أشهرهم : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني ، وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي ، والربيع الجيزي . كذلك أخذ عنه أشهب وابن القاسم من أصحاب الإمام مالك .

المذهب الشافعي :

ولم يزل مذهب الشافعي يقوي بمصر وذكره ينتشر ، حتى استولت على مصر دولة الفاطميين فأبطلت العمل به مع بقية المذاهب الأربعة . وفي الدولة الأيوبية عادت القوة والنشاط لمذهب الشافعي لأنه كان مذهب الأيوبيين ، وقد أختص بالقضاء لأنه مذهب الدولة .

وبني صلاح الدين لعلماء الشافعية سنة ٥٦٦ هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو ، وهى أول مدرسة بنيت بمصر . ولما كملت وقف عليها الضاغة . وكانت بجوارها . وفي سنة ٥٧٢ هـ بني بجوار قبر الإمام الشافعي في المدرسة الصلاحية لتدريس مذهبه بها ووقف عليها جزيرة الفيل وأوقافا أخرى دارة ، وكانت أعظم المدارس في ذلك العهد سعة وعمرانا . وقد وصف فخامتها ابن جبير في رحلته وقال أنه يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته .

وهذه المدرسة هى التى بني مكانها الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ـ مسجد الإمام الشافعي الذي انتهت عمارته أخيرا إلى الشكل الموجود عليه الآن . وفي سنة ٦٠٨ هـ ، بني المالك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب القبة العظيمة التى على ضريح الإمام الشافعي وصفحها بالرصاص وأنفق عليها خمسين ألف دينار مصرية

وبقي مذهب الشافعي مختصا بالقضاء بمصر في الشطر الأول من عصر دولة المماليك البحرية ، حتى أحدث الظاهر بيبرس القضاه الأربعة وجعل لكل قاض التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب النواب ، وميز الشافعي باستقلاله بتولية النواب في بلاد القطر كافة ، كما خصه بالنظر في مال الأيتام والأوقاف ، وجعل له المرتبة الأولي بين بقية القضاة . واستمر الحال كذلك في بقية مدة هذه الدولة ودولة المماليك الثانية ، حتى جاء العثمانيون فقصروا القضاء على الحنفي .

وأول من أدخل مذهب الشافعي الشام القاضي الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي المتوفى سنة ٣٠١ هـ على بعض الأقوال . وكان المذهب الغالب

على أهل الشام مذهب الأوزاعي ، فلما ولي أبو زرعة القضاء حكم به ونشره بين الناس . وكان يعطي لمن يحفظ مختصر المزني مائة دينار . ومن عصر أبى زرعة أخذ علماء الشافعية يكثرون حتى غمروا الشام بمذهب إمامهم . وذكر المقدسي في " أحسن التقاسيم " أن الفقهاء بإقليم الشام في زمنه – أي في القرن الرابع – كانوا شافعية . قال : ولا ترى به مالكيا ولا داوديا . وانتشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر بمحمد بن إسماعيل القفال الكبير الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ .

وكان الغالب على بغداد مذهب أبي حنيفة ، ثم زاحمه فيها مذهب الشافعي ، وقد نشره فيها بنفسه كما ذكرنا . واستمر ظاهرا ببغداد بمن كان بعد الشافعي من علماء مذهبه ، ومن أشهرهم الحسن ابن محمد الزعفراني المتوفى سنة ٢٦٠ هـ .

والذي أدخل مذهب الشافعي إلى " مرو " أحمد ابن سيار ، ثم أظهره بها الحافظ عبد الله بن محمد ابن عيسي المروزي ، فإن ابن سيار حمل كتب الشافعي إلى مرو يد فأعجب بها الناس ، ولما أراد عبد الله أن ينسخها أبي عليه ذلك ، فباع ضيعة له وخرج إلى مصر فأدرك الربيع الجيزي ، وغيره من أصحاب الشافعي ، فنسخ كتب الشافعي ورجع بها إلى مرو ، وأظهر كتبه بها ، فعرف الناس مذهبه ، ثم توفى في سنة ٢٩٣ هـ . وأول من أدخل مذهب الشافعي وتصانيفه إلى " **إسفراين** " أبو عوانة يعقوب ابن إسحاق النيسابوري صاحب " **الصحيح** " المستخرج على مسلم ، وقد أخذ فقه الشافعي عن الربيع والمزني ، وتوفى سنة ٣١٦ هـ .

ونقل مذهبه إلى " غزنه " وخرسان "على يد وجيه الدين أبي الفتح محمد بن محمود المروروزي . فقد اتصل بغياث الدين صاحب غزنه وبعض خراسان – وكان على مذهب الكرامية – وأوضح له مذهب الشافعي ، وبين له فيه فساد مذهب الكرامية ، فصار شافعيا ، وذلك في سنة ٥٩٥ هـ ، ثم بني بغزنة مسجدا للشافعية وبالغ في مراعاتهم . وعلى الجملة فإن مذهب الشافعي انتشر في أهم البلاد الإسلامية في بلاد الشرق ، وانتقل منها إلى ما عداها من الممالك والأمصار . والمذهب الشافعي منتشرا الآن في ربوع مصر وفلسطين وبلاد الكرد وأرمينية . وأكثر أهل السنة من أهل فارس شافعية ، ومسلمو جزيرة سيلان وجزائر الفلبين ، ومسلمو الهند الصينية واستراليا شافعية .وأهل عسير شافعة والسنيون في اليمن. وعدن وحضرموت شافعية ، عدا عدن فإن بها بعض حنفية . وهو غالب في الحجاز مع مذهب أحمد بن حنبل ، وفي سوريا أيضا . ويلي مذهب أبي حنيفة في الانتشار في بلاد العراق . ويوجد بقلة في جهات أخرى غير ما ذكر ، ويتبعه في الباكستان والهند ملايين المسلمين وتوفى الإمام الشافعي بمصر / عام ٢٠٤ هـ ودفن بها .

وكان الشافعي رضي الله عنه – قد جرت على لسان الكثير من الأشعار ، وكان عالما بمعاني الشعر ، ناقدا له ، ومن موهبته الشعرية كان يمكنه أن يقرض الشعر بسهولة فائقة ولكنه منعه من ذلك اشتغاله الشديد بالعلم وشجرة في أصول الدين ومسائل الفقة ، ولكن يكون المقتن الثبت الذي لا ينازع .... رحمه الله

٣. سفيان الثوري :
توفي ١٦١ هـ / ٧٧٧ م

سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الكوفي – كان أبوه من علماء الكوفة – الإمام الحجة الحافظ الضابط أمير المؤمنين في الرواية التقي الناسك المتقن قال ابن المبارك (كتبت عن مائة شيخ وألف شيخ فما كتبت عن أفضل من سفيان ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله رأيت سعيد بن جبير وغيره وتقول ذلك ؟ قال : هو ما أقول : ما رأيت أفضل منه) . قال مالك : (كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان .

قال الخطيب (كان إماما من أئمة المسلمين . وعلما من أعلام الدين ، مجمعا على إمامته . بحيث يستغني عن تزكيته ، مع الإتقان والحفظ والمعرفة والورع والزهد) .

توفي في البصرة متخفيا من المهدي لأنه كان قوالا بالحق ، شديد الإنكار ، سنة (١٦١ هـ) وعمرة أربع وستون سنة .

روي عن الأعمش . وعاصم الأحوال وسليمان التيمي وعبد الله بن دينار . وابن المكندر . وغيرهم .وروي عنه (أبان بن عبد الله الأحمسي الكوفي . والأوزاعي . ومسعر بن كدام . وعبد الرحمن بن مهدي وآخر من حدث عنه على بن الجعد ؛ وله كتاب الجامع الكبير والصغير وكتاب الفرائض .

الإمام أحمد بن حنبل

(١٦٤-٢٤١هـ)(٧٨٠ ــ ٨٥٥ م)

هو الإمام والفقيه والمحدث ومؤسس المذهب الحنبلى ، أحد المذاهب السنية الأربعة، هو أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبانى. ساق البيهقي نسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ــ فهو عربى من العرب الخلص ، ومع ذلك لم يتعصب لعربيته ولم يفتخر بها. قال ابن معين: "ما رأيت خيراً من أحمد ، ما افتخر علينا بالعربية قط". وقال محمد بن الفضل السدوسى الملقب بعارم: قلت لأحمد يوماً: بلغنى أنك من العرب فقال: يا أبا النعمان نحن قوم مساكين.

قدم به أبوه من مرو وهو فى بطن أمه ، فوضعته فى بغداد فى ربيع الأول عام ١٦٤هـ/٧٨١م، وتوفى أبوه وهو ابن ثلاث سنين ، فكلفته أمه ، يقول أحمد: فثقبت أذنى وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتها إلى فبعتهما بثلاثين درهماً.

توجه فى حداثته إلى دراسة الفقه فى مجلس القاضى أبى يوسف ، ثم ترك ذلك وتوجه إلى سماع الحديث من مشايخه سنة ١٨٩هـ ، وقد بلغ من العمر ست عشرة سنة ، وكان قد خرج إلى الحج لأول مرة سنة ١٨٧هـ، ثم خرج إليه مرة ثانية سنة ١٩١هـ، ثم سنة ١٩٦هـ، وجاور فى سنة ١٩٧هـ، ثم حج فى سنة ١٩٨هـ، وجاور إلى سنة ١٩٩هـ، وسافر إلى اليمن فقابل عبد الرزاق الصنعانى فكتب عنه.

قال أحمد: حججت خمس، منها ثلاث راجلاً، أنفقت فى إحداها ثلاثين درهماً. ولقد ضللت فى بعضها عن الطريق وأنا ماش ، فجعلت أقول يا عباد الله دلونى على الطريق حتى وقفت على الطريق.

وكان رحمه الله فقيرا فى المال ، غنياً فى النفس ، قال عن نفسه: خرجت إلى الكوفة فكنت فى بيت تحت رأسى لبنة ولو كان عندى تسعون درهماً لرحلت إلى جرير بن عبد الحميد بالرى، ولقد خرج بعض أصحابنا ولم يمكنى الخروج لأنه لم يكن عندى شئ. ولعل حجه ماشياً إنما كان لهذا العذر. وعن الشافعى قال: وعدنى أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر فلم يقدم. قال ابن أبى حاتم: يشبه أن تكون قلة ذات اليد منعته من أن يفى بالعدة.

ورغم نشأته فى بغداد ــ بلد الخلافة والعلم والحضارة ــ لم يكتف بما لقى فيها من كبار العلماء والحفاظ المقيمين والوافدين، بل رحل إلى بلاد العالم الإسلامى باحثاً عن العلم، فرحل إلى الكوفة حوالى سنة ١٨٣هـ، وإلى البصرة سنة ١٨٦هـ، وإلى مكة والمدينة وإلى اليمن والشام والعراق.

---

(١) لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى

محمد أبو زهرة : أحمد بن حنبل حياته وعصره ، أراؤه وفقهه . دار الفكر العربي مصر .

عبد الحليم محمود : السنة في مكانتها وتاريخها المكتبة الثقافية العدد ١٦٦ .

مسند الإمام أحمد : تحقيق عبد القادر عطا ومحمد أحمد عاشور ٣ أجزاء طبعة الاعتصام ١٩٧٤ .

شيوخه:

سمع من كثيرين ، وروى عن العلماء والحفاظ، فروى عن بشر بن المفضل وإسماعيل بن علي ، وسفيان بن عيينة ، وجرير بن عبد الحميد ، ويحيى بن سعيد القطان ، وأبي داود الطيالسي ، والشافعي. وقد ذكر أحمد في المسند وغيره الرواية عن الشافعي حتى أنه لما توفي وجدوا في تركته رسالتي الشافعي القديمة والجديدة. وقد بلغ ما رواه عن الشافعي حوالي عشرين حديثاً، وكان الشافعي يقدره ويحترمه فقد قال له عندما اجتمع به في بغداد سنة ١٩٠هـ: يا أبا عبد الله!.. إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به.. وهو قول يبين مدى ثقة الشافعي في مكانة أحمد من رواية الحديث .

وعن أحمد بن سليمان الواسطي قال: ما رأيت يزيد بن هارون هارون لأحد أشد تعظيماً منه لأحمد بن حنبل ، وكان يزيد يقعده إلى جنبه إذا حدث ، ولما مرض أحمد ذات مرة ركب إليه يزيد وزاره ـ ولما مات أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج بحمص بالشام طلب كبار علمائها أحمد بن حنبل ، وهو شاب للصلاة عليه تقديراً منهم لمكانته وعلمه وقياماً بحق الأدب نحوه.

وقال البخاري: لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول: لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثة.. وقال إسماعيل بن الخليل: لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان نبياً. وقال المزني: أحمد بن حنبل يوم المحنة وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان يوم الدار ، وعلي يوم الجمل وصفين ، أي أقاموا الدين وحموه وحرسوه وحفظوه ، فقرن موقفه بموقف هؤلاء. وقال الشافعي: خرجت من العراق فما تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من ابن حنبل.

محنة الإمام ابن حنبل:

تدخلت قيادة الدولة العباسية آنذاك متمثلة في الخليفة المأمون في مسألة كلامية أثارت جدلاً بين المسلمين ، وهي مسألة القول بخلق القرآن التي تنادي بها فرقة المعتزلة. وقد أقرت الدولة النظرية بتفسيرها الاعتزالي ، وحاولت فرضها على علماء السلمين بالقوة. وأخذت بالشدة جميع الفقهاء الذين لم يقولوا بها. ويجدر بنا المقام أن نذكر من هم المعتزلة ومدى خلافهم مع أهل السنة في إيجاز.. البداية أن **الحسن البصري** من سادات التابعين، ولد قبل انتهاء خلافة سيدنا عمر بن الخطاب بعامين، وتوفي سنة ١١٠ هجرية. وكانت له حلقة في مسجد البصرة يقصدها كثير من الطلاب، وكان **واصل ابن عطاء** من أولئك التلاميذ النابهين (٨٠- ١٨١هـ) .

ومرة عرض الخلاف في المؤمن الذي يرتكب الكبيرة من الذنوب، وقد قال الخوارج في ذلك أن مرتكبها كافر. وقال أهل السنة أن مرتكب الكبيرة فاسق بارتكابها، ولكنه مؤمن وليس بكافر. فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال "أن الفاسق من أمة محمد لا هو مؤمن ولا هو كافر، وإنما هو منزلة بين المنزلتين".

فطرده الحسن البصرى من مجلسه، واعتزل واصل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد (٨٠-١٤٤ هـ) فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون. ويقال أن أول من أطلق عليهم هذا اللقب هو قتادة (٦٠- ١١٧هـ) وهو من كبار العلماء، وكان مكفوف البصر. فدخل يوماً مسجد البصرة ـ بعد اعتزال واصل ومؤيديه ـ فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معه متحلقون، ترتفع أصواتهم بالمناقشات العلمية. فحضرت الصلاة فأمهم وهو يظن أنها حلقة الحسن البصرى، فلما صار معهم عرف أنها ليست هى ، فقال "إنما هؤلاء المعتزلة. ثم قام عنهم، فمن يومئذ سموا بالمعتزلة".

وقد وجد لهم أتباع كثيرون، وبين أتباعهم بعض الخلاف فى الآراء ككل جماعة فيها مفكرون. هذا هو مبدأ الاعتزال ، وعصره هو أواخر عصر بنى أمية.

وأما الاختلاف بينهم وبين السنيين، فإن ابن حزم فى كتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" أورد في الجزء الثانى صفحة ١١١ إلى آخره، وفى أغلب الجزء الثالث مسائل الخلاف بين الفرق الإسلاميةومنها المعتزلة، وأتى بحجج كل فريق وما يعارضها. وليس المجال هنا متسعاً لتوضيح ذلك، ويكفى أن نذكر أمثلة من خلافهم غير ما كان سبب اعتزالهم..

١- أن لله علماً حقيقيا لا مجازاً، وأن علمه تعالي غير مخلوق، لم يزل. وقال المعتزلة أن علم اللهِ مجاز لا حقيقة، ومعناه أن الله تعالى لا يجهل، وبعضهم قال: أن علمه مُحدَث مخلوق.

٢- كلام الله قديم، لم يزل، وغير مخلوق. وقال المعتزلة: أن كلام الله صفةُ فعلٍ مخلوق. ومعلوم أن هذه المسألة ترتب عليها ما كان له أشد الفتنة في أيام المأمون والمعتصم والواثق، وهى فتنة القول بخلق القرآن، وابتلى فيها الإمام أحمد بن حنبل وغيره.

٣- أفعال العباد مخلوقة، خلقها الله فى الفاعلين لها. وقال المعتزلة: أن أفعال العباد مُحدثة فعلها فاعلوها، ولم يخلقها الله عز وجل.

٤- جواز رؤية الله تعالى بلا كيف ولا حد في الدنيا والآخرة، وأغلب المعتزلة قال: أن الله تعالى لا يُرى، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وبعضهم قال، أنه يُرى فى الآخرة، ولا يُرى فى الدنيا أصلاً، وبعضهم قال أن الرؤية جائزة.

طلب المأمون من الناس القول بخلق القرآن ولم يكتف باعتقاد ذلك ، بل حاول فرضه بالقوة ، وكلف نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب بذلك. فاستدعى جماعة من أئمة الحديث ودعاهم إلى ذلك ، فامتنعوا ، فتهددهم بالضرب والمضايقة وقطع الأرزاق عنهم ، فأجاب أكثرهم مكرهين ، أخذاً بالرخصة التى فتحها الله للمكره قال تعالى: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان". وفى الحديث "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

ولم يمتنع من ذلك إلا أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فحملا مقيدين على بعير وهددا بالقتل ، ومات المأمون فردوهما إلى بغداد مع بعض الأسارى ، ومات ابن نوح بالطريق إلى بغداد مع بعض الأسارى ، فانفرد الإمام بالمعارضة ـ وأودع السجن نحواً من ٢٨-٣٢ شهراً، ثم أخرج إلى الضرب بين يدى المعتصم وكان يصلى فى السجن بمن فيه ، وهو مقيد من رجليه. ولما خرج إلى المعتصم مكنه من مناظرة خصومه، فطلب أحمد على القول بخلق القرآن دليلاً من القرآن أو السنة وبين أنه لا يقول إلا بهما ، وأن الإسلام قام عليهما ، ولكن خصومه يئسوا من التغلب عليه، وهيجوا عليه الخليفة وخوفوه من تعلق الناس به، وكبر على الخليفة أن يمتنع أحمد عن إجابته ولو ظاهراً لئلا تذوب الفكرة بعد طول تثبيت فى قلوب الناس ، فأمر بضربه وسحبه، وظلوا يضربونه بالسياط حتى أغمى عليه مراراً ، يدعونه كلما أفاق إلى الاستجابة فيأبى ، حتى يئسوا منه ، و خافوا من الفتنة بقتله ، فأطلقوا سراحه وأخرجوه من سجنه إلى أهله ، وعولج مما أصابه حتى شفى وسأل لكل من آذاه العافية إلا أهل البدع . **هذه هى المحنة التى رفعت اسم أحمد عالياً وشهرت ذكره و قدره بين أهل عصره.**

ولما خلص من المحنة لزم منزله لا يخرج منه، وامتنع من التحديث ، واكتفى بإيراده من ملك له يدر سبعة عشر درهماً فى الشهر ، ينفقها على عياله صابراً محتسباً. فلما ولى المتوكل على الله الخلافة كان الفرج على يديه ، فمنع القول بخلق القرآن واستدعى نائبه الإمام أحمد إليه وأكرمه وعظمه، ثم استدعاه الخليفة المتوكل فامتنع عن ذلك لمرضه ، فألح عليه فاستجاب ، وامتنع عن قبول مظاهر الملك وإكرام الخلافة ، واكتفى بالصيام وشرب السويق وأقام على مضض حتى أذن له الخليفة بالعودة إلى داره. وتوفى رحمه الله يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله ـ وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله لا يعلم عددهم إلا الله، حتى لقد قيل أن من حضر جنازته كانوا ما يقرب من مليونين من البشر، وقد عاصر ابن حنبل أعظم مراحل الثقافة الإسلامية حيوية فى الحديث والتشريع وعلم الكلام. وكان له فى كل منها دور كبير فى التطور التاريخى للفكر الإسلامى وفى نهضته الحديثة. وقد اختار لنفسه دراسة الدين وعلوم اللغة والحديث والقرآن والسيرة.ودراسة فقه الرأى دراسة ناقدة.

منهجه فى الحديث وأثره فيه:

جلس ابن حنبل فى بيته للحديث والإفتاء بعد أن بلغ الأربعين. حيث كان يقصده خاصة تلاميذه، وكثرت أحاديثه فى المساجد لكثرة الراغبين فى علمه، وقد اشتهر عنه أنه كان يحدث مما كتب ، على الرغم من حفظه، وكان ينهى تلاميذه عن التحديث من غير كتاب، وكان بارع الفهم لمعرفة الحديث صحيحه وسقيمه ، حتى لقد تعلم الشافعى منه أشياء من معرفة الحديث، وكان الشافعى يسأله حديث كذا وكذا قوى الإسناد محفوظ؟ فإذا قال أحمد: نعم، جعله أصلاً وبنى عليه. وكان الإمام يتشدد فى قبول أحاديث الأحكام ، ويتساهل فى أحاديث الفضائل ، فقد روى عنه قال: نحن إذا روينا فى الحلال والحرام شددنا وإذا، روينا فى الفضائل تساهلنا. وكان يأخذ بما

فيه ضعف قريب محتمل يزول بتعدد الطرق وهو الحسن لغيره فيها وكان يقدم السنن على أقوال الرجال ، ويود أن يكون الفقه مبنيا على النقل قبل أى أى اجتهاد.

ومن أشهر آثاره مسنده فى الحديث ذلك الكتاب الخالد أبو السنن وأكبر المراجع فى مجال السنة من كتب أئمة الحديث التى كتب لها البقاء.

مسند الإمام أحمد:

هناك إجماع بين علماء المسلمين على أن ابن حنبل من كبار المحدثين. ويعد كتابه "المسند" أشهر مؤلفاته. ففيه جمع الأحاديث التى ظل يرويها طوال حياته. وقد سمى بالمسند لأنه يقوم على جمع أحاديث كل صحابى على حدة ، دون نظر إلى موضوع الحديث ، وهذا هو المسند فى اصطلاح المحدثين. وقد رتبه على حسب فضل الصحابة ، فبدأ بالعشرة المبشرين بالجنة ، ثم بمن بعدهم، وقد شهد له المحدثون قديماً وحديثاً بأنه أجمع كتب السنة للحديث وأوعاها لكل ما يحتاج إليه المسلم فى أمر دينه ودنياه. قال أحمد عن مسنده: عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس فى سنة رسول الله صلى الله وعليه وسلم رجع إليه. وقد انتقاه من ألوف الأحاديث التى كان يحفظها ، حتى لقد قيل أنه انتقاه من سبعمائة وخمسين ألف حديث..

وكتاب المسند فى منهجه يخالف ما سارت عليه كتب الحديث من قبله ، مثل الموطأ. ومن بعده مثل الصحاح.. فكلها مرتبة بحسب الموضوعات الفقهية وغير الفقهية. ولذلك لاحظ العلماء أن كتاب "المسند" تصعب مراجعته للاستشهاد به فى المسائل الفقهية، والمسند يفيد فى التعرف على عدد ما يروى ابن حنبل عن كل صحابى ونوع ما يرويه من الأحاديث. ويشتمل المسند على أحاديث بإسناد الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وينتهى بمسانيد الأنصار والمكيين والمدنيين وأهل الكوفة والبصرة والشام. ولذلك لم تبلغ أحاديثه فى صحتها مبلغ أحاديث البخارى ومسلم التى يضعها المحدثون فى الدرجة الأولى من الصحة..

وقد اشتمل المسند على أربعين ألف حديث بالمكرر ، وثلاثين ألفاً من غير المكرر ، ومع ذلك لم يستوعب كل الأحاديث، قال كثير: لا يوازى مسند أحمد كتاب مسند فى كثرته وحسن سياقاته ، وقد فاته أحاديث كثيرة جداً بل قيل: "أنه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين فى الصحيحين قريباً من المائتين" ولكنه أكبر جهد بذله عالم فى مجال السنة وجمعها والعناية بها.

والمسند الذى بأيدينا اليوم ليس كله من رواية الإمام أحمد ، ولكن أضاف إليه ابنه عبد الله زيادات ليست من رواية أبيه ، وكذلك فعل الإمام أبو بكر القطيعى راوى المسند عن عبد الله بن أحمد. قال الشيخ أحمد الساعاتى: "بتتبعى لأحاديث المسند وجدتها تنقسم إلى ستة أقسام:

١- قسم رواه عبد الله بن أحمد سماعاً من أبيه ، وهو المسمى بمسند الإمام أحمد وهو كبير جداً يزيد على ثلاثة أرباع الكتاب.

٢- قسم سمعه عبد الله من أبيه ومن غيره وهو قليل جداً.

٣- قسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى بزوائد عبد الله ، وهو كثير بالنسبة لما عدا القسم الأول.

٤- قسم قرأه على أبيه ولم يسمعه منه وهو قليل.

٥- قسم وجده فى كتاب أبيه بخط يده.

٦- قسم رواه الإمام ابو بكر القطيعى عن غير عبد الله وأبيه ، رحمهما الله تعالى وهو أقل الجميع.

وكل هذه الأقسام من المسند إلا زيادات عبد الله وزيادات القطيعى (القسم الثالث والسادس) وقد امتاز مسند أحمد بثلاثياته ، وهى الأحاديث التى ليس بينه وبين الرسول صلى الله وعليه وسلم فيها إلا ثلاثة رواه ، وتزيد هذه الأحاديث فى المسند عن ثلاثمائة حديث. وقد جمع الإمام مسانيد كثيرة من الصحابة ، قال ابو موسى المدينى: أما عدد الصحابة فيه فنحو سبعمائة رجل ومائة ، ونيف امرأة ، وبلغ عدد شيوخه الذين روى عنهم فيه مائتين وثمانين رجلاً.

ابن حنبل الفقيه والمتكلم:

وعلى حين يجمع العلماء على مكانة ابن حنبل الكبيرة فى الحديث ، فإن هناك من يخالف حول مكانته فى الفقه والتشريع وخصوصاً ما يتصل منهما بالأحكام القياسية ، فقد كان هناك من يصفه بأنه رجل حديث لا رجل فقه ، كما فعل ابن جرير الطبرى ، الذى ثارت عليه الحنابلة، وكما فعل بعض العلماء الذين اقتصروا فى دراستهم للفقهاء على الأئمة الثلاثة (أبى حنيفة – مالك – والشافعى) ولكن الكثيرين من علماء المسلمين وخاصة المتأخرين منهم لا يوافقونهم فى ذلك ، إذ يعدونه من كبار فقهاء المسلمين كما يعدونه من كبار محدثيهم ، وقد أخذ بهذا الرأى أيضاً بعض المستشرقين.

أما من حيث آراء ابن حنبل العقدية المتصلة بالمسائل الكلامية التى أثيرت فى عصره فقد مال مؤرخو الفرق إلى تجاهل دوره فيها اعتماداً على أنه يكره الخوض فى علم الكلام ، حتى وإن كان ذلك فى نصرة السنة والجماعة، ولكن ثبات موقفه فى مسألة خلق القرآن كما رأينا يدل على تصور معين لبعض قضايا علم الكلام يجب تقديره من وجهه النظر التاريخية ، ولابن حنبل كتابان مطبوعان يمكن الرجوع إليهما لتصوير منهج الإمام العقلى وهما **(الرد على الجهمية والزنادقة)** و**(كتاب السنة)** ، وفى كلا الكتابين نجد آراءه فى عدد من المسائل الجدلية ، التى يثيرها رداً على أقوال الجهمية والمعتزلة وفى هذين الكتابين نتبين تمسك ابن حنبل بأصول السنة.

وبعد: فما زال مسند الإمام أحمد مدرسة كبيرة ومجالاً واسعاً لفرسان الحديث نقداً واستخراجاً وشرحاً وتعليقاً إلى اليوم..

الإمام البخاري

(١٩٤-٢٥٦هـ) (٨٠٩ ـ ٨٦٩)

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي ولاء البخاري مولداً ، شرف الله جده المغيرة بالإسلام على يد اليمان الجعفي والي بخاري فانتمى إليه بولاء الإسلام ، وسرى منه هذا الولاء إلى ذريته جيلاً بعد جيل ومنهم الإمام البخاري . وبخاري مدينة من أعظم مدن ما وراء النهر "نهر جيحون" وهي الآن بجمهورية أزبكستان في آسيا الوسطي.

ولد رحمه الله ببخاري لثلاث عشر ة ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م في بيت مبارك بالعلم ، معطر بالتقوى ، فقد كان أبوه إسماعيل من العلماء الورعين قابل مالكاً وابن المبارك وحدث عن جماعة من مشاهير المحدثين ، وحدث عنه بعض العراقيين ، وشهد له كثيرون بالصدق والوثوق ، وكان إلى جانب علمه وتقواه كثير المال الحلال.

واستقبل منزل الحديث والتقوى محمد بن إسماعيل البخاري فقرت به عيناً والديه، ثم ما لبث الوالد أن توفي وتركه يتيماً في ظل والدته التقية تحبوه بعطفها وتستلهم السبيل القويم لتربيته. وقد ولد البخاري في عصر راجت فيه كتابة الحديث وانتصرت مدرسته بعد صراع عنيف مع المبتدعة ، برز فيه دور الإمام أحمد بن جنبل في عهد المأمون والمعتصم والواثق حتى ختمه المتوكل على الله بن المعتصم برفع المحنة عن أهل الحديث والوقوف ضد المبتدعة ، وهو صراع امتد عشرين عاماً من سنة ٢١٢هـ في عهد المأمون إلى سنة ٢٣٢هـ في عهد المتوكل، وككل معارك الفكر كان يميل أهل التقوى مع المحدثين طوال المحنة، فلما زالت المحنة عنهم زاد الميل إليهم وكثر جمهورهم. من هنا كان توجه والدته في تربيتها له إلى مجال العلوم الدينية والحديث على وجه الخصوص ، فهو من البيت الذي تفوح منه رائحة العلم الذكية.

---

(١) لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى :
الذهبي : تذكرة الحفاظ . طبقة الهند جـ٢ ص ٢٥ وما بعدها .
ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري . طبقة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٧
وأيضا ابن حجر العسقلاني : هدي الساري " مقدمة فتح الباري .

ولقد هيأ الله للإمام البخاري وسائل الرفعة وآيات الارتقاء فظهرت عليه مظاهر الذكاء والنجابة فى صغره ، فحفظ القرآن وبدأ يحفظ الحديث وهو فى سن العاشرة.

وما أن دخل فى سن الحادية عشرة حتى ترك الكتاب ، وانصرف إلى مدارس الحديث لينهل مواردهم حاملاً عقلاً وذاكرة واعية ، وخلقاً كريماً ، فاكتسب بذلك ثقة مكنته من التحصيل ، ودفعته لأن يقف وهو فى سن مبكرة ليصحح ما أخطأ فيه أستاذ من عمالقة الحديث وهو: أستاذه "الداخلي" – ويدخل معه فى مناقشة علمية انتهت بتسليم أستاذه له ، واعترافه بصحة ما قال به البخاري . واستمر الفتى النابه يطرد تقدمه ، ويتكاثر علمه ، حتى لفت إليه أنظار أقرانه وأساتذته ، فلما بلغ السادسة عشرة من عمره حفظ كتب ابن المبارك ووكيع وهما المحدثان المشهوران فى عالم الحديث.

رحلة البخاري فى طلب الحديث:

وأخذ يطوف فى أرجاء الدنيا طالباً للحديث ورجاله. جامعاً لكل ما يمكن منه متعرفاً على كل ما يدور فيه وحوله. وبدأ رحلته المباركة بمكة المكرمة مهبط الوحي ومنبت الرسالة والمدينة ، وكانتا في ذلك الوقت لا تزالان مورد الإسلام العذب للقادمين من مشارق الأرض ومغاربها ، فأقام في تلك الأراضي المقدسة حتى يجمع من رواة الحديث ما عندهم من تركة عن رسول الله ، واستغل وجوده وفى موسم الحج لتأدية الفريضة واستصحب معه السيدة التى ربته والأم التى رعته ، وأخاه أحمد الذى يكبره سناً ، وكان ذلك سنة ٢١٦هـ .

تنقله في الأمصار ، ينقل ويدون عن رواتها :

وبعد أن ارتوي من ماء زمزم ، وما حولها من البقعة المباركة ، وارتوي كم حديث الرسول ﷺ بالحجاز ، أخذ ينتقل في الأمصار الإسلامية مصرا مصرا ، فانتقل إلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وإلى ما وراء النهر ، لا يعلم بأرض ثبتا ثقة إلا رحل إليه . وقد رحل إلى دار السلام ، حيث التقي بإمامها أحمد بن حنبل ، وروي عنه وتلقي حديثه وضمنه كتابه ، إلا إذا كان قد أخذه من راويه . فقد كان من شرطه في الرواية ألا يأخذ عن معاصر إلا إذا لقيه ، فمن مات قبله أخذ عمن روي عنه .

أما من عاصره فإنه لا يأخذ عنه ، ومهما عظمت المشقة ، ولذلك كثر ترحاله ، لا يقيم في بلد إلا على نية الرحيل عنه إلى آخر يكون فيه محدث معاصر علم أمره . وقد أخذ يجمع ما سمع ويدون ، يسهر الليالي ذوات العدد في تدوين ما جمع ، ويشكر بالعمل نعمة الله تعالي عليه في أن رد بصره . فقد ذكر ابن كثير في تاريخه : " أن البخاري كان يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه ، فيوقد السراج ويكتب العابرة تمر بخاطره ، ثم يطفيء سراجه ، ، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى ، حتى كان يتعدد منه ذلك قريبا من عشرين مرة . فكان ذلك عبادة يتعبد الله تعالي بها ، وهذا مع نسكه وكثرة صلاته وتهجده بالليل مما يرفعه إلى مراتب العباد الزهاد .

جلوسه للعلم :

تذاكرت الركبان باسم البخاري ، وتناقلت الأسماع ، وقد صار ينتقل للإلقاء بعد أن كان ينتقل في الأمصار للتلقي . وصار يروي للأجيال من بعده بعد أن كان يروي عمن سبقه من الثقات ، وبذلك صار يعقد مجالس للحديث في الأمصار التى يحل فيها ، أو بعبارة أدق صارت المجالس تنعقد حوله عندما يحل في أي مكان ، من طالبي الحديث الذين يحفون بالثقات ، ويريدون أن يسمعوا من البخاري راوية عصره .

وقد انعقدت له مجالس علم في البصرة والكوفة ومصر والري وسمرقند ، وابتدأت هذه المجالس ، وهو بعد شاب لم يصل إلى حد الكهولة ، وهو في كل مجالسه كان الثقة الذي لا يمكن أن يضعف له حديث لعلة في متنه ، أو شذوذ في حكمه أو ضعف في رجاله ، حتى كان علمه وشهرته به أكبر من سنه .

كان البخاري لا يجهل مكانته وحب الناس له فآثر أن لا يترك مجالاً يمكن أن ينفذ منه هذا الحب كأثر مادي فى حياته. فقد حكم "وراقة" أنه سمعه يقول: ما توليت شراء شئ قط ولا بيعه كنت آمر إنساناً فيشترى لي قيل له ولم؟ قال لما فيه.

وكان غاية فى الحياء والكرم والسخاء والزهد فى الدنيا والرغبة في الآخرة وكان له مال كثير ينفق منه سراً وجهراً لاسيما فى طلب العلم وعلى طلبته وقد قال عن نفسه: كنت استغل فى كل شهر خمسمائة درهم فأنفقها فى الطلب وما عند الله خير وأبقى.. وكان دائم المراقبة لله تعالى فى حركاته وسكناته وكل أموره.

مؤلفاته:

وشخصية كشخصية الإمام البخاري رغم أثرها الهائل فى مجال الدر والرواية والدراية لم يخل أثرها من مؤلفات فى شتى المجالات التى تتص الشريف والسنة النبوية الكريمة ومن هذه المؤلفات:

١- الجامع الصحيح "صحيح البخاري".
٢- الأدب المفرد – مطبوع.
٣- رفع اليدين فى الصلاة – مطبوع.
٤- بر الوالدين.
٥- التاريخ الكبير – مطبوع.
٦- التاريخ الأوسط.
٧- التاريخ الصغير – مطبوع.
٨- كتاب الضعفاء – مطبوع.
٩- كتاب التفسير الكبير – موجود بمكتبة الجزائر.
١٠- القراءة خلف الإمام – مطبوع.
١١- الكنى – مطبوع.
١٢- العلل.
١٣- أسامي الصحابة.
١٤- الأشربة.
١٥- الوجدان.

وهكذا ترك البخاري علما كثيرا يتصل بالرواية والأثر ، فقد كتب كتابين في التاريخ ، هما الصغير والتاريخ الكبير ، وهما في تاريخ رجال الحديث والأثر ، وترك كتابين آخرين هما كتاب الضعاف الصغير والضعاف الكبير

وهذه الكتب بإجمالها إما فى مجال الحديث فى مجالات خاصة ، أو بصورة عامة ، أو فى مجال البحث عن رواة الحديث من ناحية الجرح والتعديل والتمييز بين الرواة ، رغم عددهم الهائل ومجال إنتاجهم الغزير.

صحيح البخاري:

قال فيه العلماء بحق أنه أصح كتاب بعد كتاب الله ، وهو الكتاب الذى أصبح به البخاري أمير المؤمنين فى الحديث ، وكتب له به الخلود ، ورفع ذكره مقترناً بالصحيح من حديث رسول الله ﷺ سماه البخاري: **"الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه"** ولما كانت ميزته الكبرى التى اختص بها هى وصفه بالصحيح ، اشتهر بذلك اختصاراً فقيل **"صحيح البخاري"**، وهو يمثل خلاصة عصره فيما يتصل بالسنة النبوية الكريمة ، وكان أقدر الناس على هذا العمل الجليل الإمام البخاري ، وقد طلب منه ذلك أستاذه **إسحاق بن راهويه** فى مجلس حافل بالعلماء فاستحث همته وحرك عزيمته.

ثم أنه رأى النبي ﷺ وهو واقف بين يديه يذب عنه بمروحة في يده فى المنام ، وفسرت الرؤيا بأنه يذب الكذب عن رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر: فلما رأى البخاري هذه التصانيف (الموجودة فى عصره) واستنشق رياها واستجلى محياها وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين ، والكثير منها يشمله التضعيف ، فتحركت همته لذلك – ثم ذكر قول إسحاق ابن راهويه لمن معه فى مجلس العلم: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ ، وأن البخاري كان أول من استجاب لذلك.

وقد استغرق انتقاء الجامع الصحيح ست عشرة سنة وخرجه من ستمائة ألف حديث وكان يغتسل ويصلى ركعتين قبل أن يكتب فيه حديثا ويستخير الله تعالى فى كتابته.

طلب إليه أمير بخاري بعد أن عاد إليها أن يذهب إليه ليقرأ له كتاب الجامع الصحيح والتاريخ ليسمع منه فقال البخاري لمن أرسله : أنا لا أذل العلم ، ولا أحمله إلى أبواب الناس ، فإن كانت لك حاجة ، فأحضرني في المسجد أو داري . وهكذا عاش البخاري عزيزا .

منهجه فى الجامع الصحيح :

لم يضع فى كتابه إلا ما صح مسنده ،واتصل بنقل العدول الضابطين وخلا من الشذوذ والعلة ، واشترط أن يثبت لقاء الراوي من روى عنه ولو مرة إذا روى بعن زيادة فى التأكد ، وانتقى من الرجال أكثرهم صحبة لمن روى عنه ، وأعرفهم بحديثه وأشهرهم بالرواية عنه ، ولا ينزل عن ذلك إلا فى حديث له أصل ثابت بالطريق الأولى ، لذلك أجمع العلماء كابن حجر والنووي والسيوطي وغيرهم على وجوب العمل بأحاديث البخاري بل لقد قال ابن الصلاح ومن تابعه أن كل ما ورد فى البخاري ومسلم بالإسناد المتصل مقطوع بصحته والعلم النظري حاصل بصحته فى نفس الأمر لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول.. وقد قال الجويني: لو حلف إنسان بالطلاق أن ما فى كتابي البخاري ومسلم مما حكم بصحته ، من قول النبي ﷺ لما لزمه الطلاق ، ولا حنث فيه لإجماع المسلمين على صحته.

وعدد أحاديث صحيح البخاري كما قال ابن حجر بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات سبعة آلاف وسبعة وتسعين حديثاً ، وجملة ما فيه من التعليق ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون ، وأكثرها مخرج من أصول متونه ، والذي لم يخرجه مائة وستون وأربعة وثمانون.

ومعنى المعلق ، ما ورد بسند غير متصل ، بأن حذف من أول إسناده راو أو أكثر وجاء به البخاري هكذا ليبين أنه ليس من مقصود كتابه ، وإنما أتى به إيناساً واستشهاداً ولزيادة التوضيح.

وقد إكثر فى كتابه " الصحيح من التراجم فقبل أن يذكر الحديث أو الأحاديث يذكر الترجمة التى تناسبه ، كأنها شرح له أو توجيه إلى بديعة فيه ، أو معنى خفى يدرك بإجهاد الذهن معه ، وغرضه من ذلك كما قال الإمام النووي: الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها من الفقه والأصول ، والزهد والأدب والأمثال ، وغيرها وربط كثيراً من أحاديثه بآيات من القرآن وأقوال السلف ، وما يستنبطه من روح الأحاديث ، فكانت مفتاحاً لفهم الحديث وشرحا مركزاً شرح به البخاري صحيحة حتى قيل: "أن فقه كالعقيدة والعبادة والسلوك وغير ذلك.

وقد سمي الصحيح بالجامع لجمعه كل أو أكثر مقاصد العلم الديني ، وشموله لكل ما عبرت عنه السنة من أوجه النشاط كالعقيدة والعبادة والسلوك وغير ذلك. ومن فوائده:

١- الحكم على أساس ما فيه من الأحاديث الصحيحة على اجتهاد المجتهدين تصويباً أو تخطيئاً.
٢- الرد على المبتدعة والزنادقة والمفسدين بما فيه من الأحاديث الصريحة الصحيحة.
٣- تنشيط مدرسة الحديث وعلومه وفتح المجال للانتقاء والمبالغة فيه.
٤- تدعيم النشاط فيما يتصل بلغة العرب وقواعده والاستشهاد لها وبها.

وفاة البخاري:

وفى سن الثانية والستين بعد حياة حافلة بالعلم خرج البخاري إلى خزنتك (من قرى سمرقند) ونزل ضيفاً على بعض أقربائه بعد ، أن أنهكه الجهاد وأرهقه العمل فدعا قائلاً: "اللهم قد ضاقت على الأرض بما رحبت فأقبضني إليك" وأقام في خزنتك أياماً ، فمرض حتى وجه إليه رسول من سمرقند يتلمسون منه الخروج إليهم فأجاب وتهيأ للركوب ولبس خفية وتعمم ، فلما مشى عشرين خطوة أو نحوها إلى الدابة ليركبها قال أرسلوني فقد ضعفت فتركوه ، فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى وكان ذلك ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ بعد أن ملأ الدنيا نوراً بأحاديثه عن النبي صلى الله وعليه وسلم ، وترك الأثر الخالد الذى ينير الطريق أمام البشرية ويهديها الصراط المستقيم. فقد عاش حياته آية في السخاء وبذل الدنيا ، وآية في عفة اللسان ونزاهة القول ..... رحمه الله

الإمام مسلم :
(٢٠٦ – ٢٦١) (٨٢١ – ٨٧٤)

هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري وكنيته : أبو الحسين ولد بنيسابور عام ٢٠٦ هـ وتوفي بها عام ٢٦١ هـ عن خمس وخمسين عاما . أجمع العلماء على إمامته في الحديث وتضلعه في الرواية وقد رحل كثيرا في طلبه عن شيوخه : يحيى بن يحيى ، وإسحق بن راهويه ، ومحمد بن مهران وسعيد بن منصور ، وأحمد بن حنبل ، وعبد الله بن مسلمة ، وعمرو بن سواد ، وحرملة بن يحيى .

وروي عنه : الترمذي وأبو حاتم الرازي وأحمد ابن سلمة وموسي بن هارون ويحيى بن صاعد ومحمد بن مخلد ويعقوب ابن إسحق الاسفرايني والفراء : محمد ابن عبد الوهاب ، وعلى بن الحسين ، والحسين بن محمد ابن زياد القباني ، وإبراهيم ابن محمد بن سفيان (راوية صحيح مسلم) .

ولـه مؤلفات كثيرة أهمها : صحيحه المشهور ، وكتاب (العلل) ، وكتاب (أوهام المحدثين) ، وكتاب (من ليس له إلا راو واحد) ، وكتاب (طبقات التابعين) ، وكتاب (المخضرمين) ، وكتاب (المسند الكبير) على أسماء الرجال ، وكتاب (الجامع الكبير) على الأبواب .

أما (صحيحه) مع (صحيح) البخاري ، فهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالي (القرآن الكريم) ، وقد تلقتهما الأمة بالقبول ، وأكثر أهل العلم على أن صحيح البخاري أصحهما .

كان الأمام مسلم رضي الله عنه شديد الاعتزاز بصحيحه لما بذل وأنفق في سبيل جمعه وتدوينه من الجهد ، فقد صنفه من ثلاث مئة ألف حديث مسموعة متداولة (٣٠٠,٠٠٠ حديث) ، فكان يقول : (لو أن أهل الحديث يكتبون مئتي سنة الحديث فمدارهم على هذا المسند) يقصد – رضي الله عنه – صحيحه . (١)

منهج الإمام مسلم في صحيحه يمكن تلخيصه في النقاط التالية :

١. جملة ما في صحيح مسلم حوالي أربعة آلاف حديث . وقد رتبها ترتيبا حسنا
٢. بدأ بذكر أحاديث الإيمان ، فالطهارة ، فالصلاة ، فالزكاة ، فالنكاح ، والطلاق ، فاللعان فالعتق ، فالبيوع ، فالمساقاة ، والمزارعة ؟ فالفرائض ، فالهبات ، فالوصية ، فالنذر فالإيمان ، فالقسامة ، فالحدود ، فالأنصبة ، فاللعظة ، فالجهاد والسير ، فالإمارة فالصيد والذبائح والأضاحي ، فالأشربة ، فاللباس والزينة ، فالآداب ، فالسلام ... وانتهي بالزهد والتفسير
٣. لم يضع للأحاديث تراجم
٤. جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع في مكان واحد ولا يجزيء الحديث ولا يعيده إلا للضرورة

وأهم شروحه :

١. إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم للإمام القاضي عياض ت ٥٤٤ هـ

٢. المناهج في شرح صحيح مسلم للإمام النوري ت ٦٧٦ هـ

---

(١) النوري : شرح صحيح مسلم . القاهرة

الإمام ابن ماجه

[٢٠٩هـ - ٢٧٣هـ] [٨٢٤م - ٨٨٦ م]

هو أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي القزويني الشهير " **بابن ماجه** " وفي كتاب إتحاف النبلاء المتعين بإحياء ما تري الفقهاء أن ماجه لقب والد عبد الله وليس اسما لجده أو لأمه ٠ وقد كتب المحدث الرافعي في كتابه تاريخ قزوين عن ابن ماجه لقب ليزيد وهو اسم فارسي ، ويؤيد ذلك ما ذكره الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات ٠ ومن هذا يتضح أن الإمام ابن ماجه أعجمي الأصل

وكانت ولادة ابن ماجه عام ٢٠٩هـ ، وعلى هذا يكون مشاركا في المعاصرة لأصحاب الصحاح الستة والإمام ابن حنبل والإمام يحيي ابن معين وغيرهم (١) ٠

والغالب أن ابن ماجه حفظ القرآن الكريم ، وعندما شب توجه لسماع الحديث الشريف وذلك في عهدي المأمون والمعتصم ٠ حيث كانت قزوين مهداً خصبا لعلوم الحديث ، وقد تلقي العلم على مشايخه على بن من أبو الحسن الطنافسي محدث قزوين وعالمها ، كما تتلمذ على بن عمرو بن رافع أبو حجر من حفاظ الحديث ، وإسماعيل بن توبة أبو سهل القزويني وهو محدث وفقيه مشهور ٠ وهارون بن موسي بن حيان التميمي ، ومن بن خالد القزويني وكان زمن ابن ماجه زاهراً بمختلف العلوم والفنون ، إذ كانت شمس الخلافة العباسية في أوجها وخاصة في عهد المأمون ٠

وتروي في شأن الرحلات لطلب العلم الديني ، وتحقيق الحديث الشريف قصص تدل على ما بذله العلماء من جهد ومشقة وتضحية في هذا السبيل ٠ وقد سار ابن ماجه على هذه القاعدة ، ومن رحلات ابن ماجه في طلب الحديث يذكر المؤرخون أنه رحل إلى خراسان ، العراق ، الحجاز ، مصر – الشام ، ومن المدن على وجه الخصوص – البصرة – الكوفة ، بغداد ، مكة ، دمشق (٢)

وفي سنن ابن ماجه – رباعيات كثيرة ٠ أي أحاديث سلسلة رواتها أربع طبقات، وهو يعتبر بذلك من أصحاب هذه الميزة التي انفرد بها ٠٠

مصنفات ابن ماجه :

أولا : **في التفسير**: ذكر ابن كثير في كتاب البداية والنهاية : لابن ماجه تفسير حافل ، وقد نقل فيه الأمام ابن ماجه كثيراً من الأحاديث والأقوال المروية عن الصحابة والتابعين

---

(١) بلغ الأمام ابن ماجه ٢٤ عاماً ٢٣٣ تاريخ وفاه الأمام يحيي بن معين ، وكان عمره ٣٢ عاماً عند وفاة ابن حنبل عام ٢٤١هـ ، وكان عمره ٤٧ عاماً عند وفاة الإمام النجاري المتوفى عام ٢٥٦ هـ ، كما كان عمره ٥٢ عاماً عند وفاة الأمام مسلم المتوفى ٢٦١هـ وهذا يعني معاصرته لأقطاب المحدثين ، رضي الله عنهم

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٠ ص٥٣ ٠

ثانياً : التاريخ : ذكر الحافظ ابن طاهر المقدسي المتوفى ٥٠٧هـ أنه رأي في قزوين نسخة من كتاب التاريخ ، وفي ذيلها تعليق بخط تلميذ ابن ماجه ٠٠ جعفر ابن العربي " وقال عنه ابن خلكان ، تاريخ مليح ، وقال ابن كثير تاريخ كامل ويذكر أنه جمع فيه من عهد الصحابة حتى وقته ٠

ومما يؤسف له أن هذا الكتاب وكتاب التفسير لم يعثر عليهما ٠

ثالثا: السنن: استحق ابن ماجه بسننه الإمامة في الحديث ، وهو أحد الصحاح الست حيث طوقت شهرتها الآفاق ٠ وكتب ابن كثير في البداية والنهاية عن علم ابن ماجه وعمله وتبحره وإطلاعه وإتباعه للسنة في الأصول والفروع وقد لقي كتاب السنن قبولا عاما لدي خاصة القوم وعامتهم ، وشاعت له إرادة الله الذيوع والانتشار لأنه قوي التبويب في الفقه ٠

* من الأمور التي تميز بها مصنف سنن الإمام ابن ماجه ، هي وجود أحاديث كثيرة لم ترو ها الكتب الأخرى ، وقد أضافه الحفاظ بعد الإطلاع عليه ، والنظر فيه إلى الصحاح الخمسة فصارت بإضافته إليها ستة ٠

غير أن الحافظ ابن السكن يعد الصحاح أربعة فقط : البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ، وأضاف إلى ذلك من بعده الإمام الحافظ أبو طاهر السلفي جامع الترمذي وذكروا أن هذه الصحاح الخمسة هي التي عليها اتفاق علماء المشرق والمغرب ، وذهب إلى ذلك أيضا الشيخ ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٢هـ والإمام النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ ولم يعدا سنن الإمام ابن ماجه (١) ولكن المتأخرين لم يتفقوا معهما في هذا الرأي ، ولهذا استدرك العلامة الحافظ جلال الدين السيوطي في (تدريب الراوي) شرح تقريب النواوي على هذا فقال : " لم يدخل المصنف سنن ابن ماجه في الأصول ، وقد اشتهر في عصر المصنف وبعده جعل الأصول ستة بإدخاله فيها " (٢)

ويتضح من التاريخ أن أول من جعل سنن ابن ماجه إزاء الصحاح الخمسة هو الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٥٠٧هـ وهو الذي صنف كتاب شروط الأئمة الستة وأطراف الكتب الستة ، والكتاب الأول طبع في مصر والهند وقد بحث في هذا الكتاب شرط الإمام ابن ماجه مع أصحاب الكتب الخمسة ، وفي الكتاب الآخر – أطراف الكتب الستة – جمع الأحاديث التي تشتمل عليها وبعد ذلك اتفق معه في الرأي جميع مصنفي الأطراف والرجال ولذلك يقول الحافظ السيوطي " فتابعه أصحاب الأطراف والرجال " (٣) .

---

(١) (أ) مقدمة ابن الصلاح سنة ٣٨٧ طبعة حلب والعلامة النووي والنوع الستون في كتاب التقريب والتيسير ٠

(ب) أوضح الإمام ابن الصلاح عدم إدراج سنن ابن ماجه في الصحاح فيما ذكره الإمام السخاوي في (فتح المغيث) من قوله " هو كونه سالجا عما حرص عليه أصحاب الكتب الخمسة من المقاصد التي بتدبيرها يتمرن المحدث خصوصاً ، وفيه أحاديث كثيرة ضعيفة جداً بل منكرة ٠

(٢) السيوطي : تدريب الراوي ص ٣٠

(٣) المرجع السابق ص ٣٠

سنن أبي داود

(٢٠٢ – ٢٧٤ هـ) (٨١٧ – ٨٨٨ هـ)

هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني ولد عام ٢٠٢ هـ ، تلقي العلم على أعلام عصره أحمد بن حنبل والذي حاول أن يتشبه به في كل شيء ، ومنهم مسلم بن إبراهيم وعبد الله بن رجاء وأبو الوليد الطيالسي وغيرهم . وتتلمذ عليه بعض من أئمة رواية الحديث منهم عبد الرحمن النسائي وأبو عيسي الترمذي ، وأبو على اللؤلؤي وأبو بكر بن داسة وابنه أبو بكر بن أبي داود وغيرهم .

وقد رحل إلى معظم الأقطار الإسلامية . رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق وخراسان ، واتخذ من البصرة مركزا لنشر علمه ، فعمرت به وأصبحت كعبة لقصاد علمه

أهم مصنفاته :

ألف أبو داود العديد من الكتب منها : كتاب السنن وكتاب المراسيل ، وكتاب القدر ، وفضائل الأعمال . إلا أن أشهرها وأبقاها كتابه السنن .

منهجه في كتاب السنن :

ذكر أبو داود أنه جمع من حديث رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث ثم انتخب منها ٤٨٠٠ حديث وإن كان بعض الباحثين عدها فكانت ٥٢٧٤ حديثا واتسم كتابه بالسمات التالية :

١. قسم أبو داود الأحاديث النبوية الغزيرة إلى كتب وقسم الكتب إلى أبواب : فكانت ٣٥ كتابا والأبواب ١٨٧١ بابا منها ثلاثة كتب لم يبوب فيها وهى كتاب الفقه – ويشتمل على ٢٠ حديثا . وكتاب الحروف والقراءات ويشتمل على ٤٠ حديثا ، وكتاب المهدي ويشتمل على ١٢ حديثا .

٢. رتب الكتاب ترتيبا فقيها حسنا ، فبدأ بكتاب الطهارة ، فالصلاة ، فالجهاد فالضحايا ، فالصيد ، فالوصايا ، فالفرائض ، فالخراج وانتهي بالسنة والأدب .

٣. يضع لكل باب ترجمة إلا نادرا .

٤. في خلال ذكره لأسانيد الأحاديث يلاحظ عليه أمور منها :

- الدقة في نسبة كل لفظ لقائله عند تعدد الرواة عن الشيخ الواحد .
- قد يذكر نقدا على الرواة فيذكر ما لهم وما عليهم .

- يتعرض لمتون الأحاديث بذكر المراد ببعض الألفاظ إذا كان تفسيرها مختلفا في تحريره
- قد يشير إلى أراء بعض أئمة الفقه
- قد يعلق على متون بعض الأحاديث بذكر قواعد فقهيه عامة .
- لا يكتفي بذكر الصحيح ، إنما يذكر الضعيف أيضا ، مع التنبيه عليه .
- قد يكرر الحديث بتمامه ، دون أي زيادة أو نقص في سنده وذلك لتعدد مواطن الاستدلالية به
- ذكره فتاوي بعض التابعيين للتدليل على المنهج السليم .

أهم شروحه المدونة :

١. **معالم السنن** : وهو شرح وسط ، اعتني بالروايات والأحكام والآداب صحابه سليمان أحمد بن إبراهيم البستي الخطابي ت ٣٨٨ هـ وهو مطبوع .

٢. **عون المعبود على سنن أب داود** ومؤلفه محمد أشرف بن على حيدر العظيم أبادي وقد طبع في الهند .

الإمام الترمذي صاحب جامع الترمذي

(٢٠٩ – ٢٧٩ هـ) (٨٢٤ – ٨٩٢ م)

هو أبو عيسي محمد بن عيسي ابن سوره ابن الضحاك ، السلمي ، الترمذي ولد عام ٢٠٩ هـ ورحل في طلب العلم إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي منها الحجاز والعراق وخراسان وغيرها .. وقابل مشاهير العلماء وتلقي عليهم وأخذ عنهم . من أشهر شيوخه الإمامين البخاري ومسلم وأبو داود وقتيبة ابن سعيد ، وإسحاق بن موسي ، ومحمود بن غيلان ، وسعيد بن عبد الرحمن ومحمد بن بشار ، ومحمد بن المثني وغيرهم .

وتلقي عليه العلم أبو عباس المحبوبي ، ومكحول بن الفضل ، ومحمد بن عنبر وحماد ابن شاكر ، والهيثم بن كليب وغيرهم .

وأهم مصنفاته هي :

جامع الترمذي ، والعلل ، والتاريخ والشمائل النبوية ، والزهد ، والأسماء والكني ... وغيرها ...

منهجه في كتاب الجامع :

يشتمل الكتاب على ٤٠٥٠ حديثا ما عدا الأحاديث التى ذكرها في خاتمة الكتاب والتى سماها كتاب العلل . ويتميز الكتاب بالسمات التالية :

١. رتب الأحاديث ترتيبا فقهيا ، بدأها بأبواب الطهارة ، ثم أبواب العيدين ، ثم أبواب السفر ، الزكاة ، الصوم ، الحج ، الجنائز ، النكاح ، الرضاع ، الطلاق ... واختتم الكتاب بأبواب التفسير والدعوات والمناقب .

٢. يذكر درجة الحديث ، صحيح أو حسن أو غريب أو حسن صحيح والأسباب

٣. يورد طريقا واحدا عن أحد الصحابة .

٤. يذكر العلماء الذين يحتجون بما ذكر عن حديث بطريقة مجملة .

٥. يذكر الأحاديث المخالفة لوجهة النظر التى يميل إليها .

٦. يذكر من نقل عنهم علل الحديث كالبخاري وعبد الله بن عبد الرحمن ، وأبي زرعة وغيرهم . ثم ناقش ست قضايا هى :

الكلام عن الرواية ، قضية الرواية بالمعني

مناهج التحمل والأداء ، الحديث المرسل

قضية اختلاف النقاد في الحكم على الرواي ، قضية المصطلحات

أهم شروحه المدونة :-

ابن العربي : عارضة الأحوذي المتوفى ٥٤٣ هـ تكلم فيه عن الرجال والأسانيد والغريب وذكر فنون النحو والعقائد والأحكام والآداب (١)

---

(١) محمد نجيب المطيعي : تبسيط علوم الحديث وأدب الرواية

الإمام النسائي
(٢١٥ – ٣٠٣ هـ) (٨٣٠ – ٩١٥ م)

هو عبد الرحمن ابن أحمد بن شعيب ، وقد ولد تقريبا سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ ميلادية وتوفى سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ، وكان مولده ببلدة نسا بخراسان ونسب لها فأصبح يعرف بالنسائي ،نشأ منذ صباه محبا لعلم الحديث ونال قسطا وافرا من الحديث على علماء خراسان والتى اهتمت بالحديث في ذلك الوقت ورحل في طلب الحديث فزار الحجاز والعراق والشام ، وأقام في مصر إقامة طويلة ، ثم عاد للشام فالحجاز ، ومن أساتذته الذين روي عنهم الحديث إسحق بن راهويه ، وأبو داود السجستاني . وإسحاق بن إبراهيم ، وأحمد بن سعيد ، وإبراهيم بن محمد ، والحسن الزعفراني وقتيبة بن سعيد ، والحارث بن مسكين وعمران بن بكار ومحمد بن إسماعيل الترمذي

وكان النسائي قوي الحافظة ، حسن الإدراك ، ثقة ، ثبتا ، عميق النقد ، ولذلك فهو أقل الرواة للأحاديث الضعيفة وله في الحديث عدة كتب أهمها " السنن " وهو مقسم تقسيما موضوعيا إلى واحد وخمسين قسما ، وتحت كل قسم عدة أبواب وقد اختصره في كتاب المسمي " **المجتبي** " وقد شرحه الإمام السيوطي . وقد ترك مصنفات أخرى عديدة منها الخصائص وفضائل الصحابة والمناسك . إلا أن أهم كتبه هو المجتبي

واتسم منهج النسائي في المجتبي بعده سمات أهمها ما يلي :

١. رتب أحاديثه ترتيبا فقهيا مثل كل كتب السنن خصوصا سنن أبي داود والترمذي
٢. وضع تراجم دقيقة جدا للأبواب تتمشي مع ما يحدث في الواقع
٣. يذكر النسائي الأحاديث ويعلق عليها ببعض الشرح نادرا فقد اعتبر مهمته الأساسية ذكر ما يحفظ من حديث رسول الله ﷺ
٤. العناية بإسناد كل لفظ إلي قائله في السند أو المتن . ويحرص على ذكر اختلاف الرواة في الألفاظ مما يؤثر في استنباط الأحكام الشرعية .
٥. الاهتمام بمختلف الحديث التى تبدو متعارضة
٦. رواية الحديث الضعيف لبيان حالة وقد أعانه على ذلك علمه بقواعد الجرح والتعديل
٧. يبدأ بما هو غلط ثم يذكر بعد ذلك الصواب .
٨. ذكر بعض النماذج لتوثيق العقود الشرعية .

وكان النسائي إمام عصره في الحديث ، وكان بمصر مرموقا يلتف حوله الطلاب والباحثون في علم الحديث ويأخذون عنه .

وكان النسائي أيضا يميل للتشيع وله كتاب في فضائل على بن أبي طالب ، ويقول أنه عندما دخل دمشق بعد إقامته بمصر وجد كثيرين من المنحرفين عن على

بن أبي طالب ، فأراد أن يهديهم بواسطة هذا الكتاب إلى أفضال الإمام ولكن أهل الشام لم يستمعوا له لشدة ارتباطهم بالأمويين فلم يحسنوا استقباله وأساءوا إليه مما جعله يعجل في ترك بلادهم والاتجاه إلى الحجاز ، حيث مات هناك ودفن في مكة المكرمة . رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) النسائي : المجتبي جـ٨ طبعة عيسي الحلبي " السنن " ١٩٦٤

الفصل الثالث

دراسات حول تدوين علم التفسير

لاشك أن مفتاح الفهم للإسلام أو باب الفقه لدعوته ورسالته وشريعته ، إنما يكون عن طريق التفسير السليم القويم لهذا الكتاب الإلهي المجيد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولتفسير القرآن الكريم قصة يجب أن تروي ، لأنها قصة الإسلام كله ... وهذه القصة يجب أن تسمعها الآذان الواعية وتتدبرها العقول السامية ، وتعمر بها القلوب الصافية ، لأنها قصة الكتاب المنقذ المنجد ، الواعد الصالحين بالخير والفلاح في الدنيا والأخرة .

وقد تناولنا في هذا الفصل عرض متواضع لقصة التفسير منذ بدأت إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ولم يزل القرآن الكريم بحرا لا ساحل له ، ومن أي النواحي يأتيه المفسرون يجدون فيه الدرر الغالية ، ومهما جد المفسرون وأجهدوا أنفسهم في البحث عن حكمه وأسراره . فلن يبلغوا غاية ، ولن يقفوا عن نهاية ، وسيظل المشتغلون بالتفسير على اختلاف ميولهم وتعدد مشاربهم يقرأون القرآن الكريم ليكشفوا عما حواه من علوم ، وما أشتمل عليه من هداية ، وستظل طائفة منهم اليوم وغدا وإلى أن تقوم الساعة يعملون في حقل التفسير أملا في أن يتكشف لهم من خلال آياته جديد ، وآيا كان هذا الجديد فهو قطرة من مكنون علم الله القائل ، **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** (١) وإذا كان التفسير في الماضي قد تعددت مذاهبه وتنوعت مناهجه ، واختلفت اتجاهاته ومقاصده ، فإنه في حاضرنا لم يخرج عن هذا بمنهج دائما تناول كل ألوان التفسير بالرأي والموضوعي والصرفي والعلمي وعلى الجملة فالتفسير في حاضرنا سيظل موصولا بالماضي ، لأن الأولين بذلوا جهدا كبيرا في التفسير ومهدواا الطريق أمام المشتغلين به .

المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة : التفسير :

يطلق لفظ (التفسير) في اللغة العربية ويراد منه : الإيضاح والتبيين ، وقد ورد اللفظ بهذا المعني في القرآن الكريم في قوله تعالي " **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** " (٢) أي وأحسن بيانا وتفصيلا . والكلمة في ؟أصل اشتقاقها مأخوذ من (الفسر) بمعني الإبانة والكشف والإيضاح قال في القاموس : الفسر : الإبانة وكشف المغطي وقال في لسان العرب : الفسر : البيان ... والتفسير مثله .... ثم قال : الفسر : كشف المغطي . والتفسير : كشف المراد من اللفظ المشكل . ومن هذا الذي تقدم يتبين لنا أن التفسير يستعمل – لغة – في الكشف الحسي ؛ كما يستعمل في الكشف عن المعاني ، واستعماله في الأخير أكثر من استعماله في الأول

(١) " سورة الإسراء " الآية ٨٥.
(٢) سورة الفرقان ٣٣

وكلمة التفسير تطلق في اصطلاح علماء التفسير والمعنيين به – على العلم الذي يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه ... هكذا عرفه الزركشي كما نقله عنه صاحب الإتقان (١) وهناك تعاريف أخرى للتفسير نقلها صاحب الإتقان هو وغيره عن بعض علماء التفسير ، وكلها تدور على أن التفسير : علم يبحث عن مراد الله تعالي بقدر الطاقة البشرية ؛ فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعني وبيان المراد .

التأويل والفرق بينه وبين التفسير :

وكان لزاما على علماء التفسير والمعنيين به وبعلومه أن يعرضوا لمعني كلمة (التأويل) كما عرضوا لمعني كلمة (التفسير) ؛ لأن كلا اللفظين ورد على لسان المفسرين وفي كتبهم ، وكان لزاما عليهم أن يفرقوا بين اللفظين في مصطلحهم إن كان هناك فرق . أو أن يبينوا لنا ترادفهما ، إن كانا مترادفين يراد بهما شيء واحد ونوضح هذه القضية في كثير من الإيجاز فنقول :

المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة التأويل :

التأويل – في اللغة – مأخوذ من الأول وهو الرجوع : قال في القاموس : آل إليه أولا ومآلا : رجع ، وعنه : ارتد ... ثم قال : وأول الكلام وتأوله : دبره ، وقدره وفسره . وقد وردت كلمة تأويل في مقام الكشف عن المعاني القرآنية في الكتاب العزيز سبع عشرة مرة ، وهي مرادفة لكلمة التفسير في ؟أشهر معانيها اللغوية . وكلمة التأويل تطلق عند علماء السلف ويراد بها : تفسير الكلام وبيان معناه سواء أكان موافقا للظاهر أم مخالفا له ، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين ، وهذا هو ما يعنيه ابن جرير الطبري ، بقوله في تفسيره : " القول في التأويل قوله تعالي ... كذا وكذا " ، وهو ما يعنيه – أيضا – بقوله : " اختلف أهل التأويل في هذه الآية " . وهكذا يصبح التأويل وسيلة من وسائل الكشف عن المعني ، ويظل مرادفا للتفسير ومصاحبا له

وتطلق كلمة التأويل عند علماء السلف – أيضا – على نفس المراد بالكلام : فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وعلى هذا فالتأويل والتفسير أمران متباينان . وتطلق كلمة التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين على صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعني المرجوح لدليل يقترن به وعلى هذا فالتفسير أعم من التأويل ... هذا وقد نقل صاحب الإتقان (٢) عن بعض العلماء : " أن التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية ؛ وعلى هذا فهما متباينان .

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ... جـ٢ طبعة الحلبي ١٩٣٥ ص ١٧٤
(٢) المرجع السابق ... جـ٢ ص ١٧٣

وهذا الرأي الأخير نقله الزركشي في كتابه البرهان (١) عن أبى نصر القشيري حيث قال ما نصبه :

" قال أبو نصر القشيري : ويعتبر في التفسير الاتباع والسماع ، وإنما الاستنباط ما يتعلق بالتأويل "

وبعد : فالذي نرتضيه من بين ما نذكره في هذه القضية هو : أن التفسير ما كان راجعا إلي الرواية ، والتأويل ما كان راجعا إلي الدراية ؛ وذلك لأن التفسير معناه : الكشف والبيان . والكشف عن مراد الله تعالي لا يكون إلا بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي ؛ وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع ، وخالطوا رسول الله ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم . وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب ، واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية ، واستنباط المعاني من كل ذلك .

فقد كان الرسول ﷺ ورجاله في الصدر الأول يدركون علاقة الألفاظ باللغة والقرآن والحديث ، ويفسرون غريب القرآن ، ويحتجون بالشعر واللغة ، واشتهر منهم في هذا المضمار عبد الله بن عباس . فكانت الأصالة العربية والحس الفطري باللغة معوانا لهم على الفهم والإدراك .

وبعد وفاة النبي انقطع الوحي ، وانقطعت السنة ، ولكن أحداث الحياة المتجددة لا تقف عند حد ، والنصوص محدودة ، فكان لابد من إيجاد مصدر ثالث بعدهما ، يمد للعلم والفكر بحلول للمشاكل الإنسانية الجديدة .

فكان الرأي بأشكاله المختلفة بدأ متحرجا في أول الأمر ، واتسع بعد ذلك ، وتعددت مناحيه . والتأويل مدار نشاط الرأي . (٢)

وعندما تطورت الحياة الإسلامية ، واتسعت الفتوحات ، وتعددت الاتجاهات السياسية والدينية ، وثارت الخلافات ، وتصارعت الآراء ، وكثرت الفرق والنحل ، ونشبت المعارك الكلامية ، ولم تكن النصوص الدينية بمعزل عن تلك المعارك ، بل كانت وسيلة كل فريق في نصرة مذاهبه . كما كانت سلاحا يشهر في وجه أعداء الإسلام دفاعا عن سلامة العقيدة .

وكان أن اكتملت ظاهرة التأويل وأصبحت مصطلحا يعمل على صرف المعني الظاهر من اللفظ إلي معني محتمل يعضده دليل فاستعمل التأويل وظهرت معه اتجاهات كان لها خطرها على الفكر الإسلامي .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) السيد عبد الغفار : ظاهرة التأويل وصلتها باللغة . دار الرشيد للنشر والتوزيع الرياض ١٩٨٠ ص ٧

فتناول الناس النصوص بالتحريف والزيف لاستخدامها في مناصرة الاتجاهات العقدية . وذهب الكثير إلى أن التأويل ظهر في أحضان تلك الفرق خاصة عند ظهور مصطلحات : الظاهر والباطن ، والعقل والنقل ... وما إلى ذلك . وبعد عنهم أن التأويل ظاهرة لغوية أصالتها من أصالة اللغة العربية نفسها ، وما استعملته الفرق لم يكن إلا لونا من ألوانه .

إن دراسة ظاهرة التأويل وصلتها باللغة توصلنا إلى ما يلي :

أولا : التعريف بأصالة الظاهرة في المجتمع الإسلامي بعامة ، وفي الدرس اللغوي المدون بخاصة ، فهي ظاهرة من وحي اللغة نفسها ، وضرورة لا غنى عنها للتعمق فيها وفقه أسرارها .

ثانيا : بيان ما افترقه المتأولون على حساب تلك الظاهرة ، وما أحدثوه من تشويه للدلالات اللغوية ، وتحريف للنصوص الدينية ، وتوضيح ما أصاب هذه الظاهرة من بعد عن اللغة ، واستعمالها في مناصرة مذهب فاسد أو نحلة باطلة .
وإذا نظرنا إلى ما يسمونه علم الكلام ، وجدنا أن مصطلح التأويل كان المحور الذي دارت عليه اختلافات المتكلمين ، سواء أكانوا معتزلة أم شيعة ، أم غير ذلك من الفرق الإسلامية ، إذ كانت هذه الفرق توجه الاتهامات بعضها إلى بعض ، وإن كانوا قد التقوا في عصر واحد ... كانت كل فرقة تكشف حقيقة التأويل في وعي الأخرى (١)

أهمية علم التفسير عند المسلمين
حظي علم التفسير باهتمام خاص ، وليس هذا أمرا غريبا ، لأن هذا الاهتمام هو في الواقع اهتمام بكتاب الله مصدر الخير ومورد الهدي ومناط العزة
يعتبر علم التفسير أرفع العلوم الإسلامية قدرا وأجل علم عرفته البشرية شأنا العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها وتنوع مقاصدها ، وتلك حقيقة برهانها قائم ، فموضوع علم التفسير : كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وكل العلوم في شرف خدمته ، وما من علم إلا وهو وسيلة من وسائل توضيح معانيه ، وتجلية مقاصده ومراميه : فعلوم البلاغة : وسيلة إلى الكشف عن بلاغة القرآن الكريم وسر إعجازه وعلم الفقه وأصوله : وسيلة إلى الكشف عن تشريعاته وأحكامه ؛ وعلم النحو والصرف : كلاهما وسيلة إلى ضبط ألفاظه وفهم معانيه ؛ وعلم الكلام والجدل : وسيلة إلى تجلية عقائده ومساندتها بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ؛ والعلوم الكونية والطبيعية : وسيلة إلى الكشف عما أودعه الله كتابه واسترعي إليه أنظار عباده من دلائل قدرته وأسرار ملكوته . وعجائب مخلوقاته التي بثها في الأنفس والآفاق .... وهكذا بقية العلوم – مهما كثرت وعلا شأنها – كلها مسخرة لخدمة القرآن الكريم ، ولا عجب . فهو كتاب رب العالمين **" كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير "** (٢) .

---
(١) المرجع السابق ص ص ٨ – ٩
(٢) سورة هود

ومن هنا كانت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه عناية دونها كل عناية بذلت بالنسبة لأي من العلوم الإسلامية ، البعيد ، بل هي بنت الأمس الموغل في البعد ، لأنها ولدت منذ الساعة الأولي من نزول القرآن في أول أمره ينزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يقرأ جبريل عليه السلام فيبادر النبي ﷺ إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ؛ فأمره الله – عز وجل – إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له : أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يفسره له ويبينه ، ويوضحه : وفي ذلك يقول الله تعالي موجها الخطاب لنبيه عليه السلام : " **لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه** " (١) ضمن له الحفظ ، وضمن له قراءته كما قرأه جبريل ، ثم ضمن له بيان معانيه .

ولم يقف أمر بيان معاني القرآن الكريم عند رسول الله ﷺ وحده بل تعداه – من أول الأمر أيضا – إلى صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يبين للناس ما نزل إليه ، فقال عز من قائل : " **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** (٢) .

ولم يقف القرآن عند هذا الحد ، بل تعداه إلى دعوة الأمة إلى التدبير في آياته والبحث عن معانيه بقوله سبحانه : " **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** " سورة ص ٢٩ وقوله بأسلوب التبكيت لمن أعرضوا عن ذكره : " **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** " (٣)

ولقد حرص أصحاب رسول الله ﷺ على أن يعرفوا معاني ما يحفظون من القرآن أولا فأول : روي ابن جرير الطبري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن " (٤) .

وروي ابن جرير أيضا بسنده إلى أبي عبد الرحمن السلمي قال : " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا آيات لم يخلفوها حتى يعلموا ما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا " (٥) .

---

(١) القيامة ١٦ – ١٩
(٢) سورة النحل ٤٤
(٣) سورة محمد ٢٤
(٤) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٦
(٥) المرجع السابق جـ٢ ص ٢٧

مراحل التفسير

بدأت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه وأسراره من أول نزوله على رسول الله ﷺ واستمرت هذه العناية وستبقي مستمرة ما دام القرآن الكريم . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

غير أن معالجة المسلمين للكشف عن معاني القرآن الكريم لم تجر على نمط واحد . ولم تكن في مستوي واحد من الفهم والإدراك ، وتلك طبيعة الحياة في كل كائن حي ؛ ومن هنا لم يكن بدعا أن نري تفسير القرآن يمر بمراحل مختلفة يتدرج فيها تدرج الكائن الحي : يبدأ شيئا صغيرا . ثم ينمو شيئا فشيئا حتى يبلغ أشده ، ويصل إلى أوج الكمال .

غير أن تفسير القرآن الكريم بدأ واستمر يزكو عوده ، وسيستمر يزكو ويزكو دون أن ينتهي إلى غاية ، أو يقف عند نهاية ... ولا عجب ، فالقرآن كلام رب العالمين الذي لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه .

وكان طبيعيا أن يبدأ تفسير القرآن الكريم على صورة ضيقة ؛ لأن القوم – وقت نزوله – كانوا عربا خلصا . يعرفون اللسان العربي ولا يخفي عليهم من معانيه إلا النزر اليسير الذي لا يلبث أن ينجلي لهم برجوعهم فيه إلى رسول الله ﷺ ثم تتسع دائرة التفسير شيئا فشيئا كلما ازداد الغموض على الناس ، ضرورة بعدهم عن معين اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم في ثلاث مراحل : (١)

المرحلة الأولي : في عصر النبي ﷺ وصحابته .
المرحلة الثانية : في عصر التابعين .
المرحلة الثالثة : ما بعد عصر التابعين ، أو منذ بدأ التدوين للتفسير

وتتناول كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث بالحديث عن مسار التفسير فيها ، وتدرجه ، واتجاهاته ، وألوانه ؛ فنقول :

---

(١) محمد حسين الذهبي : علم التفسير دار المعارف ١٩٣٧ ص ١٣

جرت سنة الله مع رسله عليهم السلام أن يرسل كلا منهم بلسان قومه حتى يستطيعوا الأخذ منه ، والفهم عنه ، مصداق ذلك قوله تعالي :" **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** " سورة إبراهيم ٤

وعلى هذه السنة نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ قال عز من قائل : " **إنا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** " سورة يوسف ٢ وقال : **وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين** " سورة الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥ .

وكان من الضروري – وقد نزل القرآن بلغة العرب على رسول هو أعلم الناس بلغة العرب ، ثم هو بعد قد ضمن الله له بيان القرآن بقوله :

" **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه**) سورة القيامة ١٨ ـ ١٩ - كان ضروريا – مع هذا كله – أن يفهم رسول الله ﷺ القرآن الكريم جملة وتفصيلا ، بحيث لا يغيب عنه من معانيه وأسراره وحكمه وأحكامه – شاردة ولا واردة .

وكان من الضروري – أيضا – وقد عاصر الصحابة نزول القرآن الكريم ، وعرفوا أسباب نزوله – أن يفهموا القرآن الكريم في جملته ، أما فهمه تفصيلا ، ومعرفة دقائقه وأسراره ، بحيث لا تخفي عليهم منه خافية – فذلك أمر لا نقول به ، ولم يقل به أحد ممن يعتد برأيه ؛ لأن الأمثلة والشواهد قائمة وصريحة في أنه خفي على بعض الصحابة . بل على أرسخهم في العلم قدما – بعض معاني القرآن الكريم ، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

ثم إن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – كانوا إذا خفي على أحدهم بعض آيات القرآن الكريم لا يقبل من هذا شأنه منهم أن يقيم على جهل بها ، بل كان يسارع إلى رسول الله ﷺ ليستوضحه معناها وربما سارع إلى من هو أفقه منه من الصحابة ، فيجد عنده ما يريد من علم ومعرفة .

ولقد نجد خلافا بين علماء المسلمين : فمنهم من ذهب إلى النبي ﷺ يبين لأصحابه كل معاني القرآن الكريم ، ومنهم من ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام – لم يبين لهم إلا القليل ، ولا متسع لسرد كل من القولين ، ولا أدلة كل من الفريقين ، وأمامنا عبارة لأبن عباس يرويها عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١) ونصها : " التفسير على أربعة أوجه :

١. وجه تعرفه العرب من كلامها .
٢. وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .
٣. وتفسير تعرفه العلماء .
٤. وتفسير لا يعلمه إلا الله .

---

(١) ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن جـ١ ص ٥٢ طـ : الأميرية

ومن خلال هذا النص لترجمان القرآن ابن عباس – نستطيع أن نخرج بحقيقة تقضي على هذا الخلاف الذي أمسكنا عن تفصيله ، هذه الحقيقة هي :

أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم القسم الأول ، وهو : ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم . ولم يفسر لهم القسم الثاني ، وهو : ما تتبادر الأفهام إلى معرفته ، وهو الذي لا يعذر أحد بجهله ؛ لأنه لا يخفي على أحد .ولم يفسر لهم القسم الرابع وهو ما استأثر الله بعلمه : كوقت قيام الساعة ، وحقيقة الروح . وغير ذلك من كل الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه . وإنما فسر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات التى أخفاها الله عنهم وأطلع عليها نبيه وأمره ببيانها لهم .

وفسر لهم - **أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث** ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم : كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وغير ذلك من كل ما خفي معناه ، والتبس المراد به . وإذن فبعض ما يروي عن الصحابة في التفسير مأخوذ عن رسول الله ﷺ ، وبعضه وهو ما لم يتيسر لهم أخذه عنه وكان بحاجة إلى نظر واجتهاد – قالوا فيه برأيهم ، وأعملوا فيه نظرهم واجتهادهم مستعينين في ذلك بما يعرفونه من أوضاع اللغة وأسرارها ، وعادات العرب وتقاليدها ،والحوادث التى نزلت بعض الآيات بشأنها وأحوال أهل الكتاب الذين كانوا في جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم ..ثم بقوة الفهم وسعة الإدراك – كما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه – لما سئل : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ - قال : لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ... " (١)

ومن البدهي أن قول على رضي الله عنه (ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن) يساعدنا في تثبيت ما قلنا قبل : من أن الصحابة متفاوتون في فهم القرآن الكريم ، وقد يخفي عليهم الكثير من معانيه . ولو أننا رجعنا إلى عصر الصحابة لوجدنا أن الكثير منهم كانوا يكتفون بالمعني الإجمالي للآية : ومما يشهد لهذا ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر " وفاكهة وأبا " فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : " إن هذا لهو التكلف يا عمر " (٢)

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتي أعرابيان يتخاصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها : يقول : أنا ابتدأتها ، ولا ضير في هذا لأن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم ، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها .

---

(١) صحيح البخاري ... في باب الجهاد جـ٤ ص ٦٩ وأيضا محمد حسين الذهبي : علم التفسير ص ١٦ وأيضا السيوطي : الإتقان في علوم القرآن . طبعة الحلبي جـ٢ ص ١١٣

(٢) السيوطي : الإتقان جـ٢ ص ١١٤

ولو أننا رجعنا إلى عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، لوجدنا أن منهم من كان يفهم الآية على غير وجهها : يشهد لذلك ما رواه البخاري من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى :

" وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر " (١) وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود ، فلما كان بعض الليل نظر إليهما فلم يستبينا ، فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه ، فعرض بقلة فهمه ، وأفهمه المراد (٢)

ولو أننا رجعنا إلى عصر الصحابة – رضي الله عنهم لوجدنا من شيوخهم من لا يدركون إشارات القرآن الكريم على حين يفهمها من هو في أول سلم الشباب : يشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : " كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال : لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله ؟

فقال عمر : إنه من أعلمكم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون في قوله تعالى " إذا جاء نصر الله والفتح ... " فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ولم يقل شيئا ، فقال لي : أكذلك تقول يا بن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ؛ قال إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك(فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول "

مصادر التفسير في هذه المرحلة : أما مصادر التفسير في هذه المرحلة :

فبالنسبة إلى رسول الله ﷺ : لا مصدر له إلا الله عز وجل ؛ لأنه : إما أن يأخذ عن الله مباشرة . وإما أن يأخذ عن القرآن الكريم نفسه . وإما أن يجتهد رأيه ، وهو في كل ذلك آخذ عن الله سبحانه : " وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى (٣) . وسنذكر – بعد قليل – بعض ما أثر عن الرسول ﷺ في التفسير .

وأما بالنسبة إلى الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – فمصادر التفسير الأربعة :

(١) القرآن الكريم :

لم يختلف أحد من المسلمين في أن القرآن هو الأصل الأول للإسلام عقائده وتشريعاته وأخلاقه وآدابه وذلك أن القرآن يشتمل على الإيجاز والإطناب . وعلى الإجمال والتبيين . وعلى الإطلاق والتقييد ، وعلى العموم والخصوص . وما أوجز في مكان قد يذكر مفصلا في مكان آخر ، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر ، وما جاء مطلقا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى ، وما كان عاما في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى .

---

(١) سورة البقرة ١٨٧
(٢) الحديث عن البخاري في باب التفسير
(٣) سورة النجم ٣ - ٤

من أجل هذا كان لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالي أن ينظر في القرآن أولا ، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد ، ويقابل الأيات بعضها ببعض ؛ ليستعين بما جاء مسهبا على معرفة ما جاء موجزا ، وبما جاء مبينا على فهم ما جاء مجملا ؛ وليحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ؛ وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن ، وفهم مراد الله بما جاء عن الله ، وهذا مصدر لا يجوز لأحد – مهما كان – أن يعرض عنه ، ويتعداه إلى غيره من المصادر .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن :

١. قوله تعالي : " **فتلقي آدم من ربه كلمات ....** " (١) : فسر (الكلمات) قوله تعالي في آية أخري : **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** (٢) "

٢. وقوله تعالي : " **.. ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** " (٣) : فسر الاسم الموصل بأهل الكتاب في قوله " ألم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل " (٤) والأمثلة كثيرة لهذا التفسير .

٢. النبي ﷺ :

السنة هي الأصل الثاني بعد القرآن بالإجماع وهى حجة فيما جاءت به ، إذ أن أحاديث الرسول تؤيده في المنهج الذي سلكه وطاعة الرسول هى العمل بسنته الصحيحة

وذلك يكون بالرجوع إليه في حياته ، وبالرجوع إلى سنته بعد وفاته ؛ وذلك لأن وظيفة الرسول ﷺ - البيان كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه العزيز بقوله : " **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** " (٥) وكما نبه على ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عنه أنه قال " ... ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ... " الحديث .

ومن أمثلة تفسير القرآن والسنة

١. ما أخرجه الترمذي عن على قال : سألت رسول الله ﷺ – عن (يوم الحج الأكبر (٦) فقال : يوم النحر .

ما أخرجه مسلم وغيره عن عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : " **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** (٧) " ألا وإن القوة الرمي .
والأمثلة كثيرة لهذا النوع من التفسير ، وفي كتب السنة منها الكثير

---

(١) سورة البقرة ٣٧
(٢) سورة الأعراف ٢٣
(٣) سورة النساء ٢٧
(٤) سورة النساء ٤٤
(٥) سورة النحل ٤٤
(٦) سورة التوبة ٣
(٧) سورة الأنفال ٦٠

٣. الاجتهاد وقوة الاستنباط :

وذلك إذا لم يجد التفسير في كتاب الله تعالي ، ولم يتيسر لهم أخذه عن النبي ﷺ – مباشرة أو بالوساطة ؛ فحينئذ يكون الاجتهاد واجبا على من تتوافر فيه شروط الاجتهاد وهذا – بالضرورة – إنما يكون فيما يحتاج إلى نظر واجتهاد ، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر واجتهاد ، ضرورة أنهم عرب خلص يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول ، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه . هذا ، وأدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة تنحصر فيما يلي :

١. معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها ، لأنها تعين على فهم الآيات التى لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب .

٢. معرفة عادات العرب ، لأنها تعين على فهم الكثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم .

٣. معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن ؛ لأنها تعين على فهم الآيات التى فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم .

٤. معرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات ؛ وذلك لأنها تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية ؛ ولهذا قال الواحدي : " لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها (١) .

٥. قوة الفهم وسعة الإدراك – وهذا فضل الله يعطيه من يشاء من عباده – وذلك لأن كثيرا من آيات القرآن يدق معناه ، ويخفي المراد منه ، ولا يظهر إلا لمن أوتي حظا من الفهم ونور البصيرة ، ولقد أوتي ابن عباس حظا وافرا من ذلك ، وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بقوله : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) " .

---

(١) الواقدي : منهج الفرقان في علوم القرآن جـ١ ص ٣٦
وأيضا محمد حسين الذهبي : علم التفسير ص ٢٣

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري جـ١ ص ص ١٢٤ – ١٢٥

أهل الكتاب من اليهود والنصارى :

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل وبالأخص في قصص الأنبياء وما يتعلق بالأمم الغابرة :

وكذلك يشتمل القرآن على موضوعات وردت في الإنجيل كقصة ميلاد عيسي عليه السلام ومعجزاته ، غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجا يخالف منهج التوراة ومنهج الإنجيل ، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل ، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها – كما جري عليه الأمر في التوراة والإنجيل – بل اقتصر من ذلك على مواضع العبرة فقط .

ولما كانت العقول – دائما – تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء – جعل بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين – يرجعون في استيفاء القصص التى لم يتعرض لها القرآن الكريم من جميع نواحيها إلى من دخل في الإسلام من أهل الكتاب : **كعبد الله بن سلام** ، **وكعب الأحبار** وغيرهما من علماء اليهود والنصارى ، وهذا – بالضرورة – كان بالنسبة لمن ليس عندهم فيه شيء عن رسول الله ﷺ ؛ لأنه لو ثبت في ذلك شيء عن رسول الله ﷺ ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه .

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب لم يكن له من الأهمية في التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة ، وإنما كان مصدرا محدودا ؛ وذلك لأن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل ، وكان طبيعيا أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم ، ويصونوا القرآن عن أن يخضع في فهم معانيه لشيء مما جاء ذكره في هذه الكتب غير الموثوق بها . (١)

أشهر المفسرين من الصحابة :

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، وقد عد السيوطي في الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم ، **وهم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسي الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، رضي الله عنهم .**

وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء : **كأنس بن مالك ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعائشة أم المؤمنين ، وما نقل عن هؤلاء في التفسير قليل جدا .**

---

(١) محمد حسين الذهبي : علم التفسير دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٥

غير أن أربعة من الصحابة اشتهروا بالتفسير ، ونقل عنهم فيه أكثر من غيرهم ، وهؤلاء الأربعة هم

١. عبد الله بن عباس ٢. عبد الله بن مسعود ٣. على بن أبي طالب .

٤. أبي ابن كعب وقد رتبناهم على حسب كثرة المروي عنهم

وتتلخص قيمة التفسير المأثور عن الصحابة فيما يلي : (١)

١. إذا كان تفسير الصحابي مما يرجع إلى أسباب النزول ، أو كان مما لا مجال للرأي فيه – فهو في حكم المرفوع إلى رسول ﷺ ، لأنه لا يعقل أن يقول فيه الصحابي برأيه ، ولهذا يجب الأخذ به ، ولا يجوز رده اتفاقا .
٢. إذا كان تفسير الصحابي مما يكون للرأي فيه مجال – فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ ، وهذا تختلف فيه أنظار العلماء :

فذهب فريق منهم إلى أنه يجب ألا يؤخذ به ، لأنه لما يرفعه علم أنه اجتهد فيه ، والمجتهد يخطيء ويصيب في اجتهاده كسائر المجتهدين .

وذهب فريق آخر : إلى أنه يجب الأخذ به ؛ لظن سماعه له من رسول الله ﷺ . ولأنهم فسروا برأيهم فريهم صواب ؛ لأنهم أدري الناس بكتاب الله .

ويمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

١. لم يفسر كل القرآن ، وإنما فسر بعضه ، وهو ما كان خافيا على الصحابة ، وسألوا عنه رسول الله ﷺ
٢. إن الاختلاف في التفسير كان قليلا .
٣. الاكتفاء – في كثير من الأحيان – بالمعني الإجمالي ، فيكفي أن يفهموا من مثل قوله تعالي " فاكهة وأبا (٢) " أنه تعداد لنعم الله تعالي على عباده ، أما ما الأب ؟ فذلك هو التكلف ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد ذكرنا القصة من قبل ص ١٧ .
٤. الاقتصار في توضيح المعني اللغوي الذي فهموه على أخصر لفظ ، مثل قولهم : " غير متجانف لإثم (٣) " أي غير متعرض لمعصية ، فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من سبب النزول .

---

(١) محمد حسين الذهبي : علم التفسير ص ٢٦
(٢) سورة عبس ٣١
(٣) سورة المائدة ٣

٥. ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية ، وعدم الانتصار للمذاهب الدينية ضرورة اتخاذهم في العقيدة ، لأن الخلافات المذهبية لم توجد إلا بعد عصر الصحابة . (١)

٦. لم يدون شيء من التفسير في هذه المرحلة كعلم ، لأن تدوين العلوم لم يبدأ إلا في القرن الثاني الهجري

٧. أتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث ، ولم يكن التفسير إلا مجرد روايات تروي منثورة بآيات متفرقة : يسأل الرسول عن معني آية من القرآن الكريم فيقول فيها ما شاء الله أن يقول ، ويحمل ذلك عنه بعض أصحابه فيروونها لمن لم يسمعها منهم ، أو لمن يتلقون عنهم من التابعين وبالجملة فإن التفسير لم يتجاوز في هذه المرحلة طريق الرواية . وهى الأصل فيما يعرف بالتفسير المأثور .

المرحلة الثانية التفسير في عصر التابعين

بدء هذه المرحلة :

تبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة ، فجلسوا إليهم وأخذوا عنهم • وكما اشتهر بالتفسير بعض أعلام الصحابة أشتهر بالتفسير – كذلك بعض أعلام التابعين

مصادر التفسير في هذه المرحلة :

وكما كان للتفسير في عصر الصحابة مصادر يرجعون إليها ويقبسون منها – كذلك كان للتابعين مصادر للتفسير يرجعون إليها ويقبسون منها والفارق بين مصادر هؤلاء وأولئك فارق بسيط ضرورة تقارب العصرين وإليك هذه المصادر :

١ – القرآن الكريم ، فليس لمفسر أن يعدل عنه إلي غيره

٢ – ما أثر وضح عن رسول الله صلي الله عليه وسلم في التفسير " أن هو إلا وحي يوحي (٢)

٣ – ما روى عن الصحابة من تفسيرهم هم ، لأنهم عاصروا الرسول صلي الله عليه وسلم • عاصروا نزول القرآن ، وعرفوا أسباب نزوله •

٤ – ما نقل عن أهل الكتاب مما جاء في كتبهم ، على نحو ما قلنا بالنسبة للصحابة ، غير أن بعض التابعين توسعوا في ذلك وتساهلوا في نقل المروي منه دون تحر للصحة •

٥ – ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله • (٣)

---

(١) محمد حسين الذهبي علم التفسير ص ص ٢٧ ـ ٢٨
(٢) سورة النجم – الآية ٤
(٣) محمد حسين الذهبي : علم التفسير ص ص ٢٨ – ٢٩

٦. لم يدون شيء من التفسير في هذه المرحلة كعلم لأن تدوين العلوم لم يبدأ إلا في القرن الثاني الهجري

٧. أتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث ولم يكن إلا مجرد روايات تروي لآيات متفرقة ، يسأل الرسول عن معني آية من القرآن الكريم فيقول فيها ما شاء الله أن يقول ، ويحمل ذلك عنه بعض أصحابه فيروونها لمن لم يسمعها منه ، أو لمن يتلقون عنهم من التابعيين وعليه فالتفسير لم يتجاوز طريق الرواية وهى الأصل فيما يعرف بالتفسير المأثور

حركة التفسير ومدارسه في هذه المرحلة :

ذكرنا فيما سبق : أن ما نقل عن الرسول ﷺ في التفسير قليل ، وكذلك ما نقل عن أصحابه ، وكان هذا أمراً طبيعيا ، لأن القوم حين ذاك كانوا عرباً خلصا ، ولم يكن هناك من الغموض عليهم بالنسبة لآيات القرآن إلا النزر اليسر .

ثم يمضي عصر النبي ﷺ وأصحابه ، ويمتد الزمن بالناس إلى عهد التابعين ، وفيه يزداد الغموض على الناس فيحتاجون إلى من يكشف لهم الغموض ، ولا يرون أمامهم إلا فقهاء التابعين وعلماءهم ، فيسألوهم عما غمض عليهم ، فيفسروه لهم ، ويبصروهم به ، وبذلك يكون التابعون قد زادوا في التفسير بمقدار ما زاد على الناس من غموض .... وهكذا تمضي حركة التفسير ، وتسير في نمو مطرد مع زيادة الغموض إلى أن ينتهي الأمر بتفسير القرآن كله .

ولم تقف حركة التفسير حيث استقر الرسول وأصحابه في دار الهجرة بل نري حركة التفسير تسير بسير من اشتهر بالتفسير من الصحابة ، وتستقر حيثما استقروا : فمن رحل منهم بعد الفتح الإسلامي إلى مكة رحل معه التفسير إليها ، ومن استقر منهم بالمدينة استقر معه التفسير بها ، ومن نزح منهم إلى العراق نزح معه التفسير إليها .... وحيثما يقم عالم التفسير في أي مكان يجلس للناس يفسر لهم كتاب الله عز وجل ، فيحملوا عنه علمه ، وينقلوه بعد لمن وراءهم ، ولقد قامت على أيدي هؤلاء العلماء الأعلام من الصحابة مدارس نسبت إليهم ، وتتلمذ عليهم فيها نفر كثير من التابعين ، وأشهر هذه المدارس : (١)

أولا – مدرسة التفسير بمكة : وتنتمي إلى عبد الله بن عباس وأشهر تلاميذه بها من التابعين : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولي بن عباس ، وطاوس بن كيسان اليماني ، وعطاء بن أبي رباح .

ثانياً – مدرسة التفسير بالمدينة : وتنتمي إلى أبي بن كعب . وأشهر تلاميذه بها من التابعين : أبو العالية : رفيع بن مهران الرياحي ، ومحمد ابن كعب القرظي ، وزيد بن أسلم .

ثالثاً – مدرسة التفسير بالعراق : وتنتمي إلى عبد الله بن مسعود ، وأشهر تلاميذه بها من التابعين : علقمة بن قيس النخعي ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري ، وقتادة بن دعامة السدوسي .

---

(١) المرجع السابق ص ص ٣٠ - ٣١

.... وبعد فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين ، وهذه هي مدارسهم التي انتموا إليها . وأولئك هم شيوخهم الذين تتلمذوا عليهم ، ولا شط أن كل هؤلاء الآخذين والمأخوذ عنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم بكتاب الله ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعل الجنة مثواهم . (١)

قيمة التفسير المأثور عن التابعين :

اختلف العلماء في قيمة ما يروي عن التابعين في التفسير . وفي الأخذ بأقواهم إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ونلخص ذلك فيما يلي :

١ – عن الإمام أحمد – رضي الله عنه – روايتان في ذلك : رواية بالقبول . ورواية بعدم القبول .

٢-وذهب بعض العلماء – وحكي عن شعبة – إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي : وحجتهم في ذلك : أن التابعين ليس لهم سماع من رسول الله صلي الله عليه وسلم . فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي : أنه محمول على سماعه من النبي صلي الله عليه وسلم ، وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن . فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد من النص القرآني .. قالوا : ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة : نقل عن أبي حنيفة رضي اله عنه أنه قال " ما جاء عن رسول الله صلي الله عليه وسلم فعلي الرأس والعين : وما جاء عن الصحابة تخيرنا . وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال " .

٣ – وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة . فمجاهد – مثلاً – يقول : " عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله : فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ (٢) وقتادة يقول : " ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً (٣) " : ولذا حكي أكثر المفسرين أقوال التابعين في كتبهم ، ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها .

والذي تميل إليه النفس في هذه المسألة هو : أن قول التابعي في التفسير يجب عدم الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه ؛ فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة ؛ فإن ارتبنا فيه بأن كان يأخذ عن أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه ، أما إذا أجمع التابعون على رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره . (٤)

---

(١) المرجع السابق ص ٣١
(٢) ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ : ط : الهند سنة ١٣٢٥ هـ
(٣) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٨ وعزا الرواية للترمذي .
(٤) محمد حسين الذهبي : علم التفسير ص ص ٣٢ - ٣٣

مميزات التفسير في هذه المرحلة :

يتميز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

١ – دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات ، وقد تساهل بعض المفسرين من التابعين ، فزجوا بها في التفسير برغم بطلانها ، ولا شك أن هذا أمر مأخوذ عليهم ، كما هم مأخوذ على من بعدهم

٢ – ظل التفسير محتفظا بطابع التلقي والرواية ، غير أنه لم يكن تلقيا ورواية على الشمول كما كان عليه الشأن في عصر النبي صلي الله عليه وسلم ٠ وإنما كان تلقيا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص : فأهل كل مصر يغنون – بوجه خاص – بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم : فالمكيون عن ابن عباس ، والمدنيون عن أبي ، والعراقيون عن ابن مسعود ٠٠٠ وهكذا ٠

٣ – ظهر في التفسير تفسيرات تحمل في طياتها الانتصار لبعض المذاهب الدينية التي ظهرت في هذا العصر ٠٠ عصر التابعين : فنجد مثلا – قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى الخوض في القضاء والقدر ، ويتهم بأنه قدري ، كما نجد الحسن البصري يفسر القرآن على إثبات القدر ويكفر من يكذب به ٠

٤ – كثر الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم ، وأن كان اختلافا قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين ٠ (١)

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤

عبد الله بن عباس رضي الله عنه
توفي عام ٦٨ هـ

هو أول مفسر للقرآن بعد النبي ﷺ ، ويقال له بحر العلم ، وحبر الأمة ، وترجمان القرآن ، وروي أن النبي ﷺ دعا له ربه بأن يعلمه التأويل . وهو فهم معاني القرآن الحكيم ، وقال فيه مجاهد : كان إذا فسر آية من القرآن رأيت على وجهه النور . ويعبر عنه البعض بأنه الحجة الكبرى في مسائل التفسير وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وكان ابن عباس يستعين في تفسيره القرآن بشواهد من الشعر العربي ، وبسؤال من أسلم من أهل الكتاب . مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام . ويقول ابن عباس : إذا تعاجم شيء من القرآن (أي خفي معناه) فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي وكان يقرر أن القرآن أشتمل على بعض الكلمات المعربة . ويعد ابن عباس صاحب أول مدرسة في التفسير استعانت باللغة والشعر واتسع نطاقها فيما بعد .

ويقول النووي تعليقا على هذا القول : وعاش ابن عباس بعد ابن مسعود نحو خمس وثلاثين سنة ، تشد إليه الرحال ، ويقصد من جميع الأقطار ، ومشهور في الصحيحين تعظيم عمر بن الخطاب لابن عباس واعتداده به وتقديمه مع حداثة سنة ، وعاش بعده ابن عباس نحو سبع وأربعين سنة ، وكان ابن عباس يستعين في تفسير القرآن بشواهد " **اللهم فقهه** " . ولما مات ابن عباس صلي عليه محمد بن الحنفية وقال : " **اليوم مات رباني هذه الأمة** " ! .

ولقد طبع لابن عباس تفسير يوجد أصله المخطوط في المكتبة الحميدية باستنبول ، واسم هذا التفسير " **تنوير المقياس بتفسير ابن عباس** " ، ويظهر أن هذا العنوان ليس من وضع ابن عباس ، وقد طبع هذا التفسير على هامش كتاب " **الدر المنثور** " **للسيوطي** بالقاهرة سنة ١٣١٤ هـ .

وقد روي على بن أبي طلحة الهاشمي مجموعة من التفسير عن ابن عباس ، ويقول أحمد بن حنبل :

" إن في مصر تفسيرا عن ابن عباس ، رواه على بن أبي طلحة وليس بكثير أن يرحل إلى مصر من أجله " . ورووا في سبب وجود هذا التفسير بمصر أن ابن صالح أحد كتاب الليث بن سعد الفقيه المصري كتب نسخة من هذه المجموعة لنفسه ، ويذكر بعض الباحثين أن ابن أبي طلحة لم يسمع هذه المجموعة سماعا مباشرا من

ابن عباس . كما أن الشافعي يقول : " لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث " .

ويذهب الأستاذ أمين الخولي إلى أن التفسير المنسوب لابن عباس ، والمطبوع بعنوان **" تنوير المقياس من تفسير ابن عباس "** ، ليس لابن عباس ، ولكنه لمجد الدين الفيروز أبادي صاحب **" القاموس المحيط "** .(١)

---

(١) أحمد الشرباصي : قصة ص ص ٦٨ – ٦٩

وقد اعتمدت في عرض لشخصية عبد الله بن عباس رضي الله عنه على المراجع التالية :

١. سهل التستري : تفسير القرآن العظيم
٢. الطبري : مقدمة التفسير . وأيضا جامع البيان في تفسير القرآن
٣. أبو الليث السمرقندي : بحر العلوم
٤. أبو عبد الرحمن السلمي : حقائق التفسير

عبد الله بن مسعود
توفي ٣٢هـ /٦٥٢م

الصحابة الذين أحبهم النبي ﷺ كثيرون ، ولكنا نراه قد اختص عبد الله بن مسعود بخصوصية لم نرها لغيره ، وما ظنك برجل يقول الرسول الكريم في وصفه : " لو كنت مؤمرا أحداً عن غير مشورة لأمرت عليهم ابن أم عبد ، (١) ويقول : " رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد " ٠

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة ، وتركت بها رجلا يملي المصاحف عن ظهر قلب ، فغضب عمر وانتفخ ، وقال : من هو ويحك ؟ فقال : عبد الله ابن مسعود ، فسري عن عمر ، وقال : ويحك والله ما أعلم أنه قد بقي أحد من الناس هو أحق بذلك منه ، وسأحدثك :

كان النبي ﷺ لا يزال يسمر عند أبي بكر ، وأنه سمر ليلة وأنا معه ، فخرج وخرجنا معه ، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام الرسول يسمع قراءته وسألته عنه ، فغمزني بيده – أي أسكت – فلما كدنا أن نعرفه قال :

" من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل ، فليقرأه على ابن أم عبد " ٠ ثم أخذ عبد الله في الدعاء ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : " سل تعط " ٠ وكان دعاء عبد الله : اللهم أني أسألك إيماناً لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلي جنان الخلد ٠

قال عمر : فغدوت إليه لأبشره ، فوجدت أبا بكر قد سبقني وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني ٠

كان عبد الله بن مسعود من أوائل الناس إسلاماً ، هاجر الهجرتين (٢) ، وشهد بدراً ، واليرموك وغيرها ٠

وكان النبي ﷺ ينزله منزلة واحد من أهله ويكل إليه القيام بشئونه الخاصة ، فكان يدخل عليه بيوته ويلبسه نعليه ، ثم يمشي أمامه بالعصا ، حتى إذا نزع نعليه عند المسجد حملهما عبد الله وأعطاه العصا ٠ وكان يستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ، ثم كان فوق هذا كله صاحب سره والآذن عليه ٠

---

(١) أم عبد : هي أم عبد الله بن مسعود وكان يكني بها ٠
(٢) الهجرتين : أي إلى الحبشة وإلى المدينة ٠

قال أبو موسى الأشعري : لما قدمت المدينة مكثت سنة وأنا ما أحسب عبد الله بن مسعود وأمه إلا من آل رسول الله ﷺ لكثرة دخولهما عنده وخروجها من بيته . وقال حذيفة : أن أشبه الناس هدياً ودلاً وسمتاً وخطبة برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع لعبد الله بن مسعود .

قال عبد الله بن مسعود : قال لي ﷺ : " اقرأ على القرآن " قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : أني أشتهي أن أسمعه من غيري " فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً " (١) فغمزني برجله ، فإذا عيناه تذرفان .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة : إنني قد بعثت عليكم عماراً أميرا وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي .

وقال عبد الله بن مسعود : كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ ، عشر آيات لم نتعلم العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها (يعني من العلم) . وقال على بن أبي طالب يصف ابن مسعود : (٢)

قرأ القرآن وأحل حلاله وحرم حرامه ، فقيه في الدين ، عالم بالسنة . وقال أبو موسى الأشعري: مجلس كنت أجالسه ابن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة

ومن كلام عبد الله بن مسعود :لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً ، وإني لأكره أن أري الرجل فارغاً ليس في عمل آخرة ولا دنيا .

أرض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس ، واجتنب المحارم تكن من أورع الناس . وأد ما افترض عليك تكن من أعبد الناس .

وكان عبد الله بن مسعود على كثرة ملازمته النبي ﷺ وسماعه حديثه ، يتهيب أن يروي أحاديثه الشريفة ، قال عمرة بن ميمون : صحبت عبد الله ثمانية عشر شهرا فما سمعته يحدث عن رسول الله صلي الله عليه وسلم إلا حديثاً واحداً ، فرأيته يفرق (٣) ثم غشيه بهر (٤)

مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان . فقال ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال الطبيب أمرضني : قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه .

مات ابن مسعود بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين هجرية وعمره بضع وستون سنة .

---

(١) سورة النساء : آية رقم ٤١ .

(٢) البخاري : في باب التفسير جـ٨ من فتح الباري وأيضا الترمذي : في أبواب التفسير جـ٢ طـ الأميرية ١٢٩٢ هـ وأيضا أحمد الشرباصي : قصة التفسير – الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٨٧

(٣) في القاموس المحيط فرق يفرق كفرح يفرح : فزع

(٤) البهر : انقطاع النفس

على بن أبي طالب رضي الله عنه

هو أول من تكلم في تفسير القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ . وهو أعلم المسلمين بكتاب الله وتأويله بلا مدافع ، بل هو باب مدينة العلم . قال ابن مسعود : أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، ما منها إلا وله ظهر وبطن ، وإن عليا عنده من الظاهر والباطن .

وكان على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – يراقب ابن عمه محمد بن عبد الله في رواحه وغدوه ، وكان يسائل نفسه عن السر الذي يدفع بمحمد إلى هذه الخلوة ، وإلى القلق والحيرة التي تسيطر عليه ·· ومرت الأيام ، وأدرك على – في هذه السن المبكرة – أن أمرا على جانب عظيم من الأهمية هو الذي يقلق هذا الإنسان الكريم الذي أفسح له داره واحتضنه ، ورعاه ··

كان على يري محمدا وهو ذاهب إلى الغار – بعيداً عن ضوضاء ، مكة يتخيله وهو منطو على نفسه في هذا الهدوء الذي يحيط به من كل ناحية ، وفي نظراته المتأملة إلى الأفق الواسع من حوله، وفي شرود ذهنه ·· كان على يتصور ابن عمه في كل هذه الحالات ، ويفكر فيها ، فتعلم هو الآخر التفكير العميق الهاديء ، والبحث الدقيق ، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة نزوعا إلى المعرفة ، وجريا وراء الحقيقة ، وأملا في الوصول إلى الرأي السديد ·· وعرف على بعد ذلك بأنه العالم الفقيه ، وبأنه صاحب الرأي ، وانه المرجع في المعضلات ، فقد روي عن أنس بن مالك – رضي الله عنه · أنه قال : " كنت عند النبي – ﷺ – فرأي عليا مقبلا فقال : يا أنس ·· قلت لبيك ·· قال : هذا المقبل حجتي على أمتي يوم القيامة ·

وعن أبي حازم قال : " جاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة فقال : سل عنها على بن أبي طالب فهو أعلم ، قال : يا أمير المؤمنين ، جوابك عنها أحب إلى من جواب على ، قال : بئس ما قلت ·· لقد كرهت رجلاً كان رسول الله – ﷺ – يغزره بالعلم غزرا ، ولقد قال له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ، وقد رجع له عمر وغيره من الصحابة – رضوان الله عليهم – في المشكلات لدقة نظره في الشريعة ، وحفظه لأدلتها ، وضبطه إياها ، واهتدائه لكيفية توظيف تلك الأدلة في المقاصد الشرعية بتوفيق الله تعالى :

لمزيد من المعلومات عن على ابن أبي طالب رضي الله عنه يمكن الرجوع إلى .

(١) الشريف المرتضي : نهج البلاغة وشرح الفصاحة
(٢) القضاعي : دستور معالم الحكم
(٣) ابن عبد الواحد : غرر الحكم ودرر الكلم
(٤) الميداني : حكم سيدنا على مخطوطة بدار الكتب المصرية
(٥) أحمد تيمور : على ابن أبي طالب. لجنة نشر المؤلفات التيمورية

وما أظن هذا الحس الصادق ، وهذا الفهم العميق ، وهذا الحكم الصحيح على ما كان يعرض عليه من مشكلات ، وما يستفتي فيه من مسائل ، إلا نتيجة لما أخذ به نفسه من التفكير المتريث فيما كان يعرض أمامه في الحياة اليومية لأبن عمه ، نتيجة لملازمته المدرسة النبوية المحمدية التي كان ربنا تبارك وتعالي يعدها لدينه .. فلقد تعود منذ صغره أن يناقش المسائل التي تعرض عليه ليتبين أدلة الرأي السديد ، فلما أكرمه الله بالإسلام بعد ذلك ، استطاع بما في هذا الإسلام من دعوة إلى العلم ، وإلى التأمل والتفكير والتدبر ، والبحث والروية أن يتحرى الدقة ، وأن يسدي الرأي الصحيح ..

وكان يقول عن نفسه : " بعثني رسول الله – ﷺ – إلى اليمن قاضيا ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثني إلى قوم ذوي أسنان ، وأنا شاب لا أعلم القضاء ؟ فوضع يده على صدري وقال : أن الله سيهدي قلبك ، ويثبت لسانك .. يا على : إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ، كما تسمع من الأول . إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء " .

وما من شك في أن على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وهو لا يزال في الثالثة عشر من عمره على أكثر تقدير ، وعلى حد قول بعض المؤرخين قد شهد كل هذه الأحداث ، واستمع إلى محمد وهو يقص قصته على خديجة ، واستمع إلى الزوجة الحانية وهي تثبت زوجها وتبشره .. وما من شك في أن على بن أبي طالب قد استمع إلى محمد وهو يتلو ما أوحاه إليه رب السماوات والأرض على لسان جبريل – عليه والسلام – واستمع إلى هذا الذي أوحي إليه والسيدة خديجة تعيد تلاوته على مسامع زوجها ليتثبت من أنها وعته وحفظته . وليس من شك في أنه أخذ بهذا الكلام الذي سمعه فتفتح له قلبه ، وامتلأ بروعته فؤاده ، واهتزت له نفسه ، وانحصر فيه فهمه وتفكيره ..

لقد استمتع على بسماع النبي وهو يتلو القرآن الكريم الذي هو معجزته الكبرى في أول الليل أو آخرة ، في مطلع الفجر أو في غروب الشمس ، واستمتع على بما كان يشنف به أذنيه من شرح النبي لهذا الإعجاز البياني في لغة القرآن الذي الجم السنة العرب ، وكان حجة عليهم ، وبرهانا على أنه من عند الله .. وكان من أثر ملازمة على للنبي في داره ، ومن كثرة ما تردد على مسامعة من أي الذكر الحكيم ، ومن تفسير لآيات هذا الذكر أن تفقه على في أمور الدين والدنيا ، وفي الأخذ بأسباب البلاغة والفصاحة اللذين ضرب فيهما بسهم لم يتح لغيره ، ووصل فيهما جميعا لمرتبة لم يستطيع أحد أن يدانيه فيها .

لمزيد من المعلومات عن على ابن أبي طالب رضي الله عنه يمكن الرجوع إلى .
(١) الثعالبي : من المضاف والمنسوب : رجز للإمام على
(٢) لسان الدين بن الخطيب : نفح الطيب
(٣) السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور .. نشر بيروت
(٤) أحمد الشرباصي : قصة التفسير ص ص ٨٧ - ٨٨

كان على يرهف سمعه إلى ذلك الكلام العذب ، بينما " عيناه تفيض من الدمع اجلالا ورهبة من عظمته ، واستعظاما لقدرته ، وإشفاقا على أمته ، وتأثرا بآياته وكلماته وحكمته " ٠٠ ولقد كان من أثر سماع على لهذه الآيات المحكمات التي تهتز لها نفسه وترتجف عندما تتنزل عليه ، ٠٠ كان من أثر ذلك أن أسرع إلى ابن عمه يطلب إليه تفسير وإيضاح الذي يسمعه ، ومعرفة حقيقة هذا الأمر الذي بات يؤرق صاحبه ، والسؤال عما يستطيع أن يفعله وهو الصبي الصغير تجاه كل ما يراه وما يسمعه ٠٠ ولم يكن غريبا أن يدرك بعض الذي يصل إلى مسامعه ولا عجب أن يأخذ القرآن الكريم – وهو يتلى لأول مرة في دار محمد – بمجامع قلبه ، ويملأ صدره ، ويهز مشاعره ، فيكرر سماعه وتلاوته وحفظه على يدي الرسول الكريم ، وفي المدرسة الأولي التي لم تكن قد فتحت أبوابها لأحد بعد ٠٠ ولا عجب أن يكون على من كثرة ما قرأ ، وحفظ ، واستوعب من شروح وتعليقات ، من أكثر الناس علما ، ومن أفصحهم لسانا ٠٠

" لقد اشرب قلبه جمال القرآن ، وجلاله ، وأسراره ، هذا الذي كان يشهد نزوله آية آية حتى صار جديرا بأن يقول وهو صادق :

سلوني ، وسلوني ، عن كتاب الله ما شئتم ٠٠ فو الله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت في ليل ، أم في نهار ٠

وحتى كان كما وصفه الحسن البصري رضي الله عنه : " أعطي القرآن عزائمه ، وعلمه ، وعمله ٠٠ فكان منه في رياض مونقة ، وأعلام بينه " ٠

ولقد أخرج الباز والطبراني عن جابر بن عبد الله ، كما أخرج الترمذي والحاكم عن على أنه قال : " قال رسول الله – ﷺ – أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه " ٠٠ وعن أبي الطفيل قال : " شهدت عليا يقول : سلوني ٠٠ والله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار ، في سهل أم في جبل " ٠٠ وعن عبد الله ين عباس أبي ربيعة أنه قال : " كان لعلي ما شئت من درس قاطع وكان له البسطة في العشيرة والقدم في الإسلام ، والعهد برسول الله – ﷺ – والفقه في السنة ، والنجدة في الحرب ، والجود في المال " ٠

ولذلك كان : " المسلم الحق في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، أنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده التعليم على الطباع ٠٠ " كان عابدا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه ٠٠ وكان يري في كهولته وكأنما جبهته ثفنه بعير من إدمان السجود ٠٠

وكان على محجة في الإسلام لا يحيد عنها لغرض ولا لخشية ، فكلما زينوا له الهوادة أبي أن يداهن حق دينه ويعطي الدنية في أمره ، وأثر الخير كما يراه على الخير كما يراه على الناس ٠٠

" وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يلقاه ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه

فتاوى على مرجع للخلفاء والصحابة :

أحسن على ابن أبي طالب الإسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا •• فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء ••

" إلا أن المزية التي امتاز بها على بين فقهاء الإسلام في عصره أن جعل الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عبادته ، ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد أمتاز على بالفقه الذي يراد به التفكير المحض والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه العلمية ، •• "ويصح أن يقال أن عليا ، رضي الله عنه ، أبو علم الكلام في الإسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة " •

وشهد على النبي المصطفي وهو يتحمل العنت من قريش ، ويصبر على البلاد ، ويقابل الأذى بالحلم ، ويواجه العدوان بقلب شجاع لا يهاب ، ونفس راضية بما يلقاه •• لقد هددت قريش محمدا وأهله وأصحابه •• فعلت قريش هذا كله مع النبي المصطفي ولكنه لم يضعف ، ولم يستكن ، ولم ييأس ، وإنما تحمل كل هذا العنت والإرهاق بإيمان صادق ، وقلب قوي ، ونفس لا تجزع ، فعلم صحابته والتابعين الصبر على المكارة ، واحتمال الشدائد ، والتوجه إلى الله بقلوب سليمة حيث يأذن الله بالنصر الذي تعلو به كلمته ، وينتشر دينه •

ورأى على النبي المصطفي وهو يقف في وجه قريش وقفه الصمود والتحدي لكل محاولات الإيذاء والنيل من رسول الله ، ورآه وهو يقاومهم بكل ما يملك من أسلحة الغلبة والنصر ، قاومهم بالحجة ، وبالصبر ، والانتشار بين القبائل لنشر الدعوة •• وقاومهم باحتمال الأذى والمكروه ، وقاومهم بالهجرة والانتقال إلى بلد يجد فيها العون والتأييد لدينه ، وقاومهم بالسلام ، ولقد أحس على كل هذه المحاولات من رسول الله ، وشهد كل الندوات ، وشهد الرسول وهو يقاوم بالسيف حتى يجرح •• أحس على هذا كله وشهده فأعجب بهذه الشجاعة النادرة التي لا يقوي عليها إلا من اختصهم الله برعايته وتأييده •• وحببت إليه هذه الشجاعة منذ الصغر ، فمارسها وأخذ نفسه بها حتى أصبحت سمة من مزاياه العديدة ، وأصبحت ميزة تمتاز هي الأخرى بكثير من الخصال الحسنة التي ترفع من شأن الرجل ، وتعلي من قدره ، وتجعله مذكورا بالخير من محبيه ومن مبغضيه على السواء •• " ويزيدها تشريفا أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الأقوياء •• فلا يعرف الناس حيلة للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على بغير كلفة

ولا مجاهدة رأي ، وهي التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضعيفة على العدو بعد الفراغ من القتال ٠
وكان علي أول من تعلم من رسول الله صدق الإيمان ، وقوة القلب ، وشجاعة النفس ، وأول من تعلم الصبر على المكارة ، واحتمال الشدائد ، والتوجه إلى الله بقلب سليم

الفتنه والمعاناة :

وامتحن علي أشد الامتحان عند مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان — رضي الله عنه — فمن الناس من أراد الوقيعة بين الرجلين العظيمين ولينالوا ما يريدون ، وليحصلوا على ما يبتغون ، ومنهم من كانوا يشيرون إليه على اعتبار أنه مشترك في تأليب الرعية على الخليفة ، وإشعال نار الفتنة ، ومنهم من اتهموه في الاشتراك في قتله أو على الأقل ، العلم بما بيت للخليفة — رضوان الله عليه — ومنهم من برأه من هذا كله ، ونفي اشتراكه في أي عمل يمكن أن يسيء به إلى نفسه أو إلى الخليفة ، بل وعدد له كثيرا من المواقف التي حاول أن يزحزح بها الخليفة عن نهاية خيل إليه أن الأمر سوف ينتهي إليها إن لم يغير سياسته ، وينهج نهجا غير النهج ، وينقذ المسلمين من فتنة هوجاء لا تبقي ولا تذر ، ومنهم من جعله فوق الشبهات ، وأنه المعصوم الذي لا تتطاول إليه الإبصار ، وتسبر غوره الأفكار ٠

ولسنا هنا في موقف الدفاع عن هذا أو ذاك ، وتحليل مواقف الصحابة وما قام به من عثمان وعلى لتصل إلى الرأي فيما كان بين اثنين من صحابة رسول الله ، واثنين من الخلفاء الراشدين الأربعة ٠٠ لا نريد أن نصدر في هذا الخلاف الذي امتد على طول الزمن ، وإنما نريد أن نبين أن الإمام علي قد ابتلي بهذا الأمر أشد البلاء ، وقاسي منه ما لم يقاسه غيره ٠٠ والواقع الذي لا خلاف فيه أنه كان في حيرة من أمره ، لا يستطيع من شدة العواصف التي تعلو وتهب من كل ركن من أركان الدولة الناشئة ، أن يرسو على شاطئ الأمان ٠ فقد كان موقعه كما يقول الأستاذ العقاد :

" كان عليه أن يكبح الغرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من الطريق ٠٠ كلما حيل بينها وبين الانطلاق ٠٠

" كان ناقدا لسياسة عثمان وبطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه ٠٠ ناصحا للخليفة بإقصاء تلك البطانة ، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه بإتباعها وصم الأذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها ٠٠

" وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة ٠٠

" وكان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الإصلاح ،وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار ٠٠

" ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ولا خلاص "

وامتحن على أشد الامتحان عندما وقفت منه السيدة عائشة – رضي الله عنها – موقف العداء والتحدي ، وهي على ما نعلم ، تحتل مكانة عالية ومنزلة من رسول الله ، فضلاً عما لها من قدم ثابتة في علوم الإسلام ‥ وامتحن على أشد الامتحان في موقفه من معاوية ، ومن تلك الحرب الضروس التي دارت رحاها بين الرجلين إلى أن انتهي الأمر بما انتهي عليه من قتل على ليصبح سيرة عطرة على كل لسان ٠

ولولا أن عليا – كرم الله وجهه – كان أول الرواد في مدرسة النبوة ، وأول من تلقي دروس الصبر على المكارة من رسول الله مباشرة ، كما استطاع أن يتحمل ما تحمله ، ويجاهد هذا الجهاد الذي لم يعرف الضعف أو الوهن أو الاستكانة ‥ وله في الصبر واحتمال عند نزول النوائب شعر نذكر منه :

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد عسي نكبات الدهر عنك تزول
يعز غني النفس إن قل ماله ويغني غني المال وهو ذليل

وإذا كان النبي المصطفي – صلوات الله وسلامه عليه – قد اتصف بالعدل ، والعفة ، والصدق ، والأمانة ، والتواضع ، والكرم ، وغير هذا وذاك من الصفات الحميدة التي اختصه الله بها جميعا ليكون المثل الأعلى للبشرية ، وليكون المعلم ، والهادي ، والمرشد ‥ وإذا كان النبي قد اتصف بالشجاعة والعفو عند المقدرة ، والحلم الذي أسر به القلوب ، والرحمة التي حببته إلى كل من اتصل به أو سمع عنه ، والزهد الذي آثر به فقراء المسلمين ومصالح الإسلام على نفسه ، والحياء الذي كان مبعثه الشعور بمراقبة الله وعظم حقه ، والتواضع الذي شمل معاملاته ، وأعماله ، ومظهره ، والوفاء الذي هو من تقوي الله ، والوسيلة إلى نيل ما وعد به عباده الأوفياء : إذا كان النبي المصطفي قد اتصف بهذا كله ، وبما هو أكثر منه مما لسنا بسبيل حصره وتعداده ، فإن على بن أبي طالب قد عرف هذه المعاني ‥ سمع بها من الرسول الكريم ‥ ورآه وهو يمارسها رأي العين ، ورأي نتائجها في أعماله وتصرفاته ، وفي أحاديث الناس عنها ، وتأثرهم بها ، فحببت إليه ، وغرست في نفسه منذ الصغر ، ونمت في هذه النفس بنمو صاحبها ، ذلك لأنها ثمرة من ثمار تلك المدرسة ، ونفحة من نفحاتها ٠

" فهؤلاء آل البيت ، في كل صفحة من صحف التاريخ الإسلامي ، يفيضون في الناس فقههم ، وحكمتهم ، وأدبهم ، لهم في كل علم ، وفي كل فن مكان الصدارة والقدرة ، وهم ليسوا إلا ثمرة هذا الغراس الطيب ، الذي مسه طيب النبوة ، وسرت فيه أعراق هذا الميراث الكريم في أبناء على وفاطمة رضي الله عنهما " ٠

رحم الله الإمام على الذي ولد بالكعبة ، وكان أول من تلقي العلم على رسول الله ، الذي قال له : " يا على ‥ لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق ‥ رحم الله الإمام على الذي قتل بالمسجد ‥ فكانت بدايته ونهايته في بيت من بيوت الله ، ثم كانت حياته كلها جهادا في سبيل الله ٠

المرحلة الثالثة : التفسير في عصر التدوين وخطواته :

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ التدوين ، وذلك في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة العباسيين .

كانت الخطوة الأولي للتفسير في مرحلتين : الأولي والثانية – كما قدمنا – هى رواية التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين ولم يكن هناك من سبيل لتلقي التفسير المأثور عن هؤلاء إلا بطريق الرواية ؛ لأن تدوين العلوم – ومنها علم التفسير – لم يبدأ إلا بعد زمن التابعين .

ثم جاءت المرحلة الثالثة للتفسير ، وفيها ابتدأ تدوين العلوم ، وخطأ التفسير **خطوته الثانية** : وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ ، فكانت أبوابه متنوعة ، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب التى أشتمل عليها الحديث . فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية من مبدئه إلى منتهاه ، بل وجد من العلماء من طوف في الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ؛ فجمع بجوار ذلك ما روي في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو إلى التابعين : ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هـ **وشعبة بن الحجاج** المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

ثم خطأ التفسير **خطوته الثالثة** : وبها انفصل عن الحديث ، فأصبح علما قائما بنفسه ، ووضع التفسير لكل آية من القرآن على حسب ترتيب المصحف ، وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم : **ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما** ، وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وليس في أحد منها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور ، اللهم إلا ابن جرير الطبري ، فإنه ذكر الأقوال ، ثم وجهها ، ورجح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة ، كما استنبط الأحكام التى تؤخذ من الآيات القرآنية . وسنعود إلى الحديث عن هذا بشيء من التفصيل المأثور بين الرواية والتدوين

ثم خطأ التفسير **خطوته الرابعة** : لم يتجاوز فيها حدود التفسير بالمأثور . وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد ، فصنف في التفسير خلق كثير : اختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها إلى قائليها ؛ فدخل الوضع في التفسير ، واختلط الصحيح بالعليل ، وكان هذا هو مبدأ الوضع في التفسير

ثم جاءت **الخطوة الخامسة** : وهى أوسع الخطي وأفسحها : امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا ، فبعد ما كان تدوين التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن

سلف الأمة – تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه التفسير العقلي بالتفسير النقلي المأثور ، وهنا بدأ التفسير العقلي يظهر بصورة ملحوظة ... ولكن على تدرج : بدأ التفسير العقلي – أولا – على هيئة محاولات فهم شخصي ؛ وترجيح لبعض الأقوال على بعض ... ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصي تزداد شيئا فشيئا متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ؛ حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم :

دونت علوم اللغة ، ودون النحو والصرف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبي على قدمه وساقه في العصر العباسي ، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، فامتزجت كل هذه العلوم بالتفسير حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلي فيها على جانب النقلي .

وإنا لنلاحظ أن الكتب المؤلفة في التفسير قد اتجهت اتجاهات متنوعة ، وتحكمت المصطلحات العلمية ، والعقائد المذهبية – في عبارات القرآن الكريم ؛ فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين في تفسير القرآن ؛ كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه وكذلك ظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهور جليا .

وإنا لنلاحظ – أيضا – في وضوح وجلاء – أن كل من برع في فن من فنون العلم يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذي برع فيه :

فالنحوي تراه لا هم له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل في ذلك من أوجه ، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه ، وخلافياته : وذلك كالزجاج ، والواحدي في تفسيره البسيط ، وأبي حيان في البحر المحيط .

وصاحب العلوم العقلية نراه يعني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ؛ كما نراه يعني بذكر شبههم والرد عليها : وذلك **كالفخر الرازي** في تفسير المسمى **(مفاتيح الغيب) .**

وصاحب الفقه نراه يعني بذكر الفروع الفقهية وسرد المذاهب فيها ، وسوق الأدلة عليها ، وفي تعصب ظاهر لمذهبه : وذلك **كالحصاص الحنفي وابن العربي المالكي .**

وصاحب التاريخ يهتم بالقصص ، وذكر أخبار من سلف ، وما صح منها وما لا يصح : **كالثعلبي والخازن** .

وصاحب البدع والأهواء يحرص كل الحرص على ترويج بدعته ، وتفسير القرآن على هواه ومذهبه : **كالجبائي والزمخشري من المعتزلة** ، وملا محسن الكاشي من الإمامية الأثني عشرية .

والمتصوفة قصدوا إلى الترغيب والترهيب ، واستخراج المعاني الإشارية بما يتفق مع مشاربهم ، ويتناسب هو ورياضتهم ومواجيدهم : **كابن عربي ، وأبي عبد الرحمن السلمي .**

.... وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يناسب فنه الذي برع فيه ، ومذهبه الذي استمسك به .

وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية المذهبية ، وراجت في بعض العصور رواجا عظيما ؛ كما راجت في عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أصحابها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن الكريم كل العلوم ما ظهر منها وما بطن في غلو ظاهر يخرج بالقرآن الكريم عن أهدافه ومقاصده !

أنواع كتب التفسير المدونة

وإذا نحن تتبعنا كتب التفسير على اختلاف أزمانها ، وتنوع مناهجها واتجاهاتها ، - وجدنا أن المناحي العامة التى تجمع هذه المناهج والاتجاهات تنحصر في خمسة أنواع من التفسير ، وهى :

١. التفسير المأثور

نريد بالتفسير المأثور : ما نقل عن الرسول ﷺ . وما نقل عن صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم . وإنما أدرجنا في التفسير المأثور ما روي عن التابعين – وإن كان فيه خلاف : هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي ؟ - لأنا وجدنا كتب التفسير تروي ما نقل عن التابعين بجوار ما نقل عن النبي ﷺ وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم .

تطور التفسير بين الرواية والتدوين :

ولقد مر التفسير بالمأثور بطورين : **طور الرواية ، وطور التدوين** :

أما طور الرواية : فقد بدأ من عصر النبي ﷺ حيث كان عليه الصلاة والسلام يفسر لأصحابه ما خفي عليهم من القرآن الكريم ، وكان الصحابة يتلقونه عنه . ثم يرويه بعضهم لبعض ، أو لمن عاصرهم من التابعين . ثم وجد من الصحابة من تكلموا في التفسير بما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ أو بما توصلوا إليه بنظرهم واجتهادهم ، ونقل ذلك عنهم بعض من عناصرهم من التابعين .

ثم وجد من التابعين من تكلموا في التفسير بما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ . أو عن بعض أصحابه أو بما فتح الله به عليهم ، ونقل ذلك عنهم من عاصرهم من أتباع التابعين .

ولقد كان شأن رواية التفسير المأثور كشأن رواية الحديث بعامة من ناحية تحري الصحة وعدمها ، فقد استمر هذا التحري والتثبيت إلى آخر عصر الصحابة ، أما بعد عصر الصحابة فقد دخل بعض الرواة في التفسير ما ليس منه تهاونا منهم ، أو نصرة لمذهب معين .

وأما طور التدوين :

فقـد بـدأ بانـتهاء مرحلة الرواية وابتداء مرحلة التدوين للعلوم بعامة . وكان التفسير من بين العلوم التى دونت ، وكان تدوينه على تدرج ملحوظ نجمله فيما يلي :

١. بدأ تدوين التفسير على أنه جزء من الحديث ، فأفردوا له بابا من أبواب الحديث المختلفة ، فكانوا يجمعون فيه ما أثر في التفسير عن النبي ﷺ وعن الصحابة التابعين متحرين الصحة في ذلك ما أمكنهم .

٢. ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث ، وأفرد بتأليف خاص . وكان أول ما عرف من ذلك تلك الصحيفة التى رواها على بن طلحة عن ابن عباس (١)

٣. ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت في التفسير خاصة : كالجزء المنسوب لأبي روق . والأجزاء الثلاثة التى يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج المتوفى عام ٣٧٥ هـ . وكانوا يتحرون الصحة فيما يجمعون ما أمكنهم .

٤. ثم دونت موسوعات في التفسير جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروي عن النبي . وعن أصحابه والتابعين . دون أن يلتزموا بالصحيح من ذلك مكتفين بذكر أسانيد ما يجمعون ؛ ذلك لأنهم يرون أنهم بذكرهم للأسانيد قد خرجوا من العهدة ، وحملوا غيرهم تبعة البحث عن حال الرواة . وقد قرر ذلك علماء أصول الحديث بقولهم : " من أسند لك فقد حملك " : ومن هذه الموسوعات تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

---

(١)السيوطي : الإتقان جـ٢ ص ٨٨

٥. ثم دونت بعد ذلك موسوعات في التفسير ، ولم يتحر أصحابها الصحة فيما يروون . ولم يذكروا الأسانيد . وهؤلاء قد أساءوا للتفسير المأثور إساءة بالغة : لأنهم خلطوا بين ما يصح وما لا يصح . ولم يبينوا لنا رجال الأسانيد حتى نستطيع أن نحكم لهم أو عليهم : ومن هذه الموسوعات تفسير **(بحر العلوم) لأبي الليث السمرقندي** المتوفى سنة ٣٧٣ هـ (١) . فلا تكاد تقع فيه على إسناد إلا نادرا

٦. ثم بعد ذلك انتقل التدوين في التفسير من تدوين التفسير المأثور إلى تدوين التفسير بالرأي على تدرج ملحوظ ؟

تطرق الضعف إلى التفسير المأثور وأسبابه :

مما لاشك فيه أن الضعف قد تطرق إلى التفسير المأثور حتى كاد يذهب بالثقة فيه والاطمئنان إليه ولقد بدأ الضعف في أول عصر التابعين ، وعلى وجه التحديد سنة إحدى وأربعين من الهجرة : حينما انقسم المسلمون إلى شيعة وخوارج وجمهور ، وحينما كثرت الفتوح الإسلامية وانتسب إلى الإسلام حاقدون عليه يريدون تخريبه من أساسه ، وحينما تعددت المذاهب الدينية والسياسية وأراد أصحابها أن يدعموها ولو بالأحاديث الموضوعة ، التى يختلقونها ثم ينسبوها إلى نبي الإسلام أو إلى أحد أصحابه . ونستطيع أن نرجع أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إلى نقاط ثلاثة :

١. كثرة الوضع في التفسير المأثور .
٢. دخول الإسرائيليات فيه .
٣. حذف الأسانيد منه .

أما كثرة الوضع في التفسير المأثور : فقد أضعف الثقة فيه ، وأحاطته بسياج من الشك جعلت العلماء يردون كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف ، وربما كانت صحيحة في ذاتها كما أن اختلاط الصحيح بالعليل من الروايات جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بينها – ينظر إلى الجميع نظرة واحدة ، فيحكم لها جميعا بالصحة ، وبهذا يختلط الأمر على الناظرين في هذه الروايات ، ويبقي دور نقاد الحديث الذين يقدرون على تمييز صحيحه من عليله ، وما أشقها من مهمة !

وأما دخول الإسرائيليات في التفسير المأثور : فقد بدأ من عصر الصحابة ، ولكنهم لم يتعدوا منطقة الإباحة التى حدها رسول الله ﷺ بقوله : " بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (٢) ، ويقوله " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : " آمنا بالله وما أنزل إلينا ... " الآية ٢

---

(١) فتح الباري جـ٦ ص ٣٢٠ " البخاري "
(٢) فتح الباري جـ٨ ص ١٢٠

وفي زمن التابعين توسع القوم في الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت في عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية .

ثم جاء بعد عصر التابعين من شغفوا بالإسرائيليات ، وأفرطوا في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا ، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروي لهم وإن كان لا يتصوره عقل بشر !

..... وقد استمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع برواياتها – مهما كان فيها من خرافة – حتى جاء عصر التدوين ، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها .

ولقد كان للقصاص والإخباريين دور كبير في ترويج هذه الخرافات والأباطيل ، وهؤلاء وغيرهم ممن ساروا في ركابهم قد وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير ، وشككوا في كثير من الأخبار الصحيحة رووها ضمن ما رووه من قصص مكذوب .

وأما حذف الأسانيد :

فلم يعرف ذلك إلا بعد عصر التابعين حيث تهاون الرواة في الرواية ، ولم يصلوها برواتها ، وقد اندفع بعض المشتغلين بالتفسير وراء هذا المبدأ : فوجدنا منهم من ألفوا في التفسير ، فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال غير معزوة لقائلها ، ولم يتحروا الصحة فيما يروون ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ! ثم صار كل من يسنح له قول – يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك من يجيء بعده ظانا أن له أصلا غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف .

..... وبعد فلعله قد تبين أن أخطر العوامل وأشدها خطورة هو حذف الأسانيد ؛ ذلك لأن خطر الوضع ، وخطر الإسرائيليات كان من الممكن تلافيهما لو ذكرت الأقوال بأسانيدها ، ولكن حذفها – مع الأسف – عمي علينا كل شيء ، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد ذكروها لنا لننقد رجالها ؛ حتى نعرف من يؤخذ عنه ، ومن يرد عليه ! .... هذا ، وإن من أشهر ما دون في التفسير المأثور حتى نهاية القرن الخامس الهجري ما يلي :

١. جامع البيان في تفسير القرآن : لابن جرير الطبري – المتوفى سنة ٣١٠ هـ.(١)

---

(١) ظهرت كتب تفسير أخرى مع بداية القرن السادس الهجري والقرنين الثامن والعاشر منها
- معالم التنزيل : لأبي محمد الحسين البغوي المتوفى ٥١٠ هـ
- تفسير القرآن العظيم : للحافظ بن كثير الدمشقي ٧٧٤ هـ
- الدر المنثور : لجلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ

٢. التفسير بالرأي " العقلي " وموقف العلماء منه :

التفسير بالرأي أو التفسير العقلي معناه : تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ، ومناحيهم في القول ، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها ، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ، ووقوفه على أسباب النزول ، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم ، وقد مر بنا الكلام عن نشأة التفسير بالرأي وتطوره عند الكلام عن الخطوة الخامسة للتفسير في المرحلة الثالثة

وقد اختلف العلماء من قديم في جواز التفسير بالرأي ففريق منهم قال بعدم جوازه حتى لمن كان ملما بكل العلوم والأدوات التى يحتاج إليها المفسر . وقالوا بوجوب انتهاء المفسر إلى ما ثبت عن النبي ﷺ . وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة . وعن الذين أخذوا عنهم من التابعين . وفريق آخر من العلماء قال بجوازه لمن كان ملما بكل العلوم والأدوات التى يحتاج إليها المفسر . وقد استدل كل فريق بأدلة نوجزها فيما يلي :

- معالم التنزيل : لأبي محمد الحسين البغوي – المتوفى سنة ٥١٠ هـ
- تفسير القرآن العظيم : للحافظ بن كثير الدمشقي – المتوفى سنة ٧٧٤ هـ
- الدر المنثور : لجلال الدين السيوطي سنة ٩١١ هـ

أدلة القائلين بعدم الجواز :

١. قالوا : إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم . والقول على الله بغير علم منهي عنه ، فالتفسير بالرأي منهي عنه .

٢. قالوا : إن الله تعالي قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم " فقد أضاف البيان إليه ، فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن .

٣. قالوا : ورد في حديث الترمذي مرفوعا وحسنه " .... ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار (١)

وورد في حديث رواه الترمذي وأبو داود عن جندب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ (٢) .

٤. قالوا : ورد عن السلف من الصحابة والتابعين من الآثار ما يدل على أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ، ويتحرجون من القول فيه بآرائهم ،

---

(١) الترمذي : في أبواب التفسير جـ٢ ط : الأيدية ١٢٩٢ هـ ص ١٥٧
(٢) المرجع السابق ص ١٥٧

فمن ذلك : ما جاء عن أبي مليكة أنه قال : سئل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في تفسير حرف من القرآن فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ، وأين أذهب إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالي (١) " ؟ وما جاء عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم ، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كان لم يسمع شيئا وغير ذلك من الروايات التى تدل على تخرج كثير من السلف عن القول في القرآن باجتهادهم . (٢)

أدلة القائلين بالجواز :

١. قالوا : ورد في القرآن نصوص كثيرة تدل على جواز التفسير بالرأي لمن هم أهل لذلك ، فمن ذلك :

قوله تعالي : " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " سورة محمد ﷺ ٢٤

ومنه قوله تعالي : " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب " سورة ص ٢٩

ومن قوله تعالي : " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " سورة النساء ٨٣ .

٢. قالوا : لو كان التفسير بالرأي غير جائز ما كان الاجتهاد جائزا واتعطل كثير من الأحكام ، وهذا باطل بين البطلان ؛ لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحا إلى اليوم والمجتهد مأجور ، والنبي - ﷺ - لم يفسر لنا جميع آيات القرآن ، ولم يستنبط لنا جميع أحكامه .

٣. قالوا : إن الصحابة – رضوان الله عليهم – قالوا في القرآن برأيهم ، واختلفوا في فهم بعض نصوصه ، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه عن رسول الله ﷺ ، ولو كان القول بالرأي في القرآن محظورا لكانوا قد خالفوا ووقعوا فيما حرم الله ، وهذا ما نعيذ الصحابة من الوقوع فيه .

٤. قالوا : إن النبي ﷺ دعا لابن عباس – رضي الله عنهما – بقوله : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " فلو كان التأويل مقصورا على السماع والنقل كالتنزيل ما كان هناك فائدة لتخصيص ابن العباس بهذا الدعاء ، فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا به الرسول ﷺ – لابن عباس أمر آخر وراء السماع والنقل ، وهو التفسير بالرأي والاجتهاد .

---

(١) مقدمة تفسير ابن جرير جـ١ ص ٧٨
المرجع السابق جـ١ ص ص ٨٥ – ٨٦

هذه هى أدلـة الفريقين ، وقد رد الفريق الأخير أدلة الفريق الأول ، ولا داعي – أبدا – إلـى تحليل أدلـة المانعين والمجيزين ؛ لأن ذلك قد يطول بنا ونحن في موطن الإيجاز ، وحقيقة الأمر هى :

أننا لو رجعنا إلـى هؤلاء المتشددين فـي التفسير ، وعرفنا سر تشددهم فيه ، ثم رجعنا إلـى هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأي ، ووقفنا علـى ما شرطوه من شروط لأبد منها لمن يتكلم فـي التفسير برأيه ، وحللنا أدلة الفريقين تحليلا دقيقا – لظهر لنا أن الخلاف لفظي لا حقيقي ، وذلك أن الرأي قسمان :

قسم جـار علـى موافقة كـلام العرب ومناحيهم فـي القول ، مـع مـوافقة الكتاب والسنة ، ومراعاة سائر شروط التفسير ، وهذا القسم جائز لاشك فيه ، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي .

وقسم غير جـار علـى القوانين العربية ، ولا موافق للأدلـة الشرعية ، ولا مستوف لشرائط التفسير ، وهذا هو مورد النهي ومحط الذم ، وهو الذي يرمي إليه كلام عمر – رضي الله عنه – إذ يقول " إنمـا أخـاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه " فهذا ونحوه وارد في حق من لايراعي فـي تفسير القرآن قوانين اللغة ، ولا أدلة الشرعية جاعلا هواه رائده ، ومذهبه قائده ؛ وهذا هو الذي يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأي : قال ابن تيمية – بعد أن ساق الآثار عمن تحرج من السلف من القول بالتفسير – فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال فـي التفسير ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عمـا جهلوه ، هذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به . فكذلك يجب القول فيما جاء عنه مما يعلمه ؛ لقوله تعالي : " لتبيننه للناس ولا تكتمونه سورة آل عمران ١٨٧ ، ولما جاء فـي الحديث المروي من طرق : " من سئل عن علم فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من النار (١) : .

هذا ، وما دمنا قد ألمحنا إلـى ضرورة الإلمام بالعلوم والأدوات التى يحتاج إليها المفسر برأيه حتـى لا يجانب الصواب – نري لزاما علينا أن نعرض لبيان هذه العلوم . ثم لبيان المصادر التـى يجب على المفسر برأيه أن يرجع إليها . ثم للأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره فنقول :

---

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ص ٣١ – ٣٢

العلوم التى يحتاج إليها المفسر :

اشترط العلماء في المفسر الذي يريد أن يفسر القرآن برأيه فيما لم يرد فيه أثر صحيح : أن يكون ملما بجملة العلوم التى يستطيع بها أن يفسر القرآن تفسيرا عقليا مقبولا . وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ . وتحميه من القول على الله بغير علم ، وهذه العلوم هى : (١)

١. **علم اللغة :** لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع

٢. **علم النحو :** لأن المعني يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلابد من اعتباره

٣. **علم الصرف :** لأن به تعرف الأبنية والصيغ .

٤. **علم الاشتقاق :** لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما .

٥. ٦. ٧ . **علوم البلاغة الثلاثة : (المعاني ، والبيان ، والبديع)**

فعلم المعاني : يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعني .

وعلم البيان : يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها .

وعلم البديع : يعرف به وجوه تحسين الكلام .

٨. **علم القراءات :** إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

٩. **علم أصول الدين (وهو علم الكلام) :** وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالي ، وما يجوز ، وما يستحيل ، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد .... وما إلى ذلك نظرة صائبة .

١٠. **علم أصول الفقه :** إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها ، ويعرف الإجمالي والتبيين ، والعموم والخصوص ، والإطلاق والتقييد والنهي ، وما سوي ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم .

١٢. **علم أسباب النزول :** إذ إن معرفة سبب النزول تعن على فهم المراد من الآية .

---

(١) محمد حسين الذهبي : علم التفسير ص ص ٥٣ - ٥٤

١٢. علم القصص : لأن معرفة القصة تعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن .

١٣. علم الناسخ والمنسوخ : وبه يعرف المحكم من غيره . ومن فقد هذه الناحية فربما أفتي بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال .

١٤. علم الحديث : ليستعين به على معرفة المجمل والمبهم . وغير ذلك مما جاءت السنة شارحة ومبينة له .

١٥. علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالي بما علم وإليه الإشارة بقول الله عز وجل : " واتقوا الله ويعلمكم الله " (١) وقوله عليه الصلاة والسلام : " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (٢) " .

هذا وقد زاد بعضهم علم أحوال البشر ، وبعضهم علمي وتقويم البلدان ، وبعضهم نقص مما ذكرناه ، وأياما كان الأمر فكل علم يتوقف عليه تفسير شيء من كتاب الله تعالي تجب على المفسر معرفته وإلا كان غير مستوف لشروط التفسير . (١)

---

(١) المرجع السابق ص ص ٥٤ – ٥٥

من أشهر المفسرين

مجاهد بن جبر

توفي ١٠١ /١٠٢ /١٠٣/١٠٤هـ

مكانته في التفسير :

كان مجاهد بن جبر من أشهر رجال مدرسة التفسير بمكة ، التى قامت على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وكان مجاهد رضي الله عنه أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير ، وكان أوثقهم ؛ لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي ، والبخاري وغيرهما ، ونجد البخاري رضي الله عنه في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، ينقل لنا كثيرا من التفسير عن مجاهد ، وهذه أكبر شهادة من البخاري على ثقته وعلمه بالتفسير وقد روي الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهدا يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وعرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟

ولا تعارض بين هاتين الروايتين ؛ لأن الإخبار بالقليل لا ينافي الإخبار بالكثير ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط ، ودقة التجويد ، وحسن الأداء وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات ؛ طالبا لتفسيره ومعرفة ما دق من أسراره ، وخفي من معانيه ، وروي عبد السلام بن حرب عن مصعب قال : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد ، وقال قتادة : أعلم من بقى بالتفسير مجاهد وقال ابن سعد : كان ثقة ، فقيها ، عالما كثيرا الحديث . وقال ابن حبان : كان فقيها ، ورعا ، عابدا متقنا .

وأخرج بن جرير في تفسيره عن أبي بكر الحنفي قال : سمعت سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وكان رحمة الله عليه – جيد الحفظ وقال الذهبي في الميزان ، أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة .

كل هذه شهادات من العلماء النقاد تشهد بعلو مكانته في التفسير . ومحبته للعلم ، وكان يلتمس العلم أينما كان . فإذا رأي أهل الكتاب يعملون شيئا لم يستح أن يسأله منهم ، ولم يوقفه حبه للعلم على الكتب والرجال فحسب ، وإنما كان يسافر لطلب العلم ، ولم يرد بعلمه إلا وجه الله تعالي . فسار في الأرض وزار العلماء ، فزاد علما وتجربة ، وعاشر العلماء لمعرفة اللغة العربية ، وأساليب العرب ، وتراه لا يتكلم إلا في المعلوم من اللغة وأساليبها ومعاني القرآن ، وإذا علم الحق رجع إليه ، ولا يخاف في الله لومه لائم وأعتمد على تفسيره المحدثون ، والمفسرون .

كان – رحمه الله – عالما بالقراءات واختلافها جمع الطبري في تفسيره ما اختلف فيه من القراءات ، وينسب إليه بعض القراءات المختلفة ، أخذ عنه القراء عبد الله بن كثير وأبو عمرو بن العلاء وغيرهما وقرأ عليه الأعمش (١) وابن محيصن (٢) وحميد بن قيس ، وزمعة ابن صالح (٣)

---

(١) مفتاح السعادة جـ١ ص ٣٦٠

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٨٠

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء جـ٢ ص ٤١

مصادر التفسير في عهد التابعين :

أعتمد مجاهد في تفسيره على مصادر الأربعة التى أعتمد عليها الصحابة وعلى رأسهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهى :

١. **القرآن الكريم** : بأن يجمع الناظر فيه ما تكرر منه في موضوع واحد ، ويقابل الأيات بعضها ببعض ، ليستعين بما جاء مسهبا على ما جاء موجزا ، وبما جاء مبينا على فهم ما جاء مجملا ، وليحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن . وفهم مراد الله بما جاء عن الله وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها ويتخطاها إلى مرحلة أخرى ؛ لأن صاحب الكلام أدري بمعاني كلامه ، وأعرف به من غيره وشرح ذلك يطول وتكفي إشارة إليه .

٢. **النبي ﷺ** : والذي يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير بابا من الأبواب التى اشتملت عليها ذكر فيه كثيرا من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . ومن هذا المأثور يتضح مقدار ارتباط السنة بالكتاب المبين بالمبين من بيان المجمل في القرآن ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق الخ ...

٣. **الاجتهاد وقوة الاستنباط** : إذا لم يجد الناظر التفسير في كتاب الله تعالي ، ولم يتيسر له أخذه عن رسول الله ﷺ عند ذلك يرجع إلى اجتهاده وإعمال رأيه بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد .

٤. **أهل الكتاب من اليهود والنصارى** : ويعتبران مصدرا في حدود ما شرعه رسول الله ﷺ . حيث ينبغي على المفسر أن يعتمد ما صدقه الكتاب العزيز ، ومن هذه المصادر الأربعة يتضح منهج مجاهد في التفسير في :

١. **شرح الألفاظ الغريبة – في القرآن – عن الفهم** . بما عنده من ملكة معرفة اللغة العربية ، ويفسر العبارات المشكلة والمغلقة بما عنده من العلم بأساليب العرب واصطلاحاتهم ، ويراعي في شرح الألفاظ ، والتعبيرات مجرى الكلام وسياقه ويزيل عن القاريء ما يختلج في صدره من معاني القرآن ، وما في الآيات من إشكال وإيهام .

٢. **يشرح مجاهد ما في الآيات من عوائد العرب ، وتقاليدهم شرحا وافيا** ، ويذكر شيئا من سبب النزول ، يتكلم في المسائل الفقهية ، أو في الناسخ والمنسوخ . أو في اختلاف القراءات فمجاهد يشجع قارئه على التفكير والابتكار .

٣. **أن تفسير مجاهد مرآة فقهه** ، ورأيه ، وفهمه من القرآن على ضوء ما كان معه من معرفة لغة العرب ، وكلامهم واصطلاحاتهم يكشف عن أنه مفسر مجتهد يراعي مقتضيات عصره .

٤. **يفسر مجاهد القرآن بالقرآن ويحرص على ذلك أشد الحرص ما أمكنه ذلك** ويلتزم في تفسيره بمصادر التفسير الأربعة التي سبق ذكرها .

٥. **وكان مجاهد يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص التي يبدو ظاهرها بعيدا** ، فإذا ما مر بنص قرآني من هذا القبيل وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه ، والتمثيل ، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدأ معترفا به ومقررا لدي المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي : في الآية (٦٥) من سورة البقرة **(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين)** نجده يقول : (١) **(مسخت قلوبهم ولم يمسخوه قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا)** .. وإن كان ابن جرير لا يرتضي هذا التفسير من مجاهد ويعقب عليه مفندا بأدلة واضحة قوية .

وعند تفسير مجاهد للآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة **(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)** (٢) يقول : تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شيء ، وهذا التفسير من مجاهد كان فيما بعد متكئا قويا للمعتزلة فيما ذهبوا إليه في مسألة (رؤية الله تعالي في الآخرة) خلافا لأهل السنة القائلين بجوازها ولعل هذا المسلك من مجاهد هو الذي جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتحرجون من القول في القرآن برأيهم – يتقون تفسيره ، ويلومونه على قوله في القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة في الرأي ؛ فقد روي عن ابن مجاهد أنه قال : قال رجل لأبي : أنت الذي تفسر القرآن برأيك ؟ فبكي أبي ثم قال : إني إذا لجريء ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم .

ومهما يكن من شيء فمجاهد رضي الله عنه إمام في التفسير غير مدافع وليس في إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته . أو يقلل من مكانته أو يقدح في منهجه ، فقد روي الذهبي في ميزانه : " أن أبا بكر عياش قال : قلت للأعمش : ما بال تفسير مجاهد مخالف ؟ أو ما بال يتقون تفسير مجاهد . – كما هي رواية ابن سعد – قال : كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب هذا كل ما أخذ على تفسيره ، ولكن لم نر أحد طعن عليه في صدقه وعدالته وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فلن يتخط حدود ما يجوز له من ذلك ؛ لاسيما أنه تلميذ حبر الأمة ابن عباس الذي شدد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهي الوارد عن رسول الله ﷺ فيما يتعارض مع القرآن الكريم .

---

(١) ابن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن جـ١ ص ٢٥٣
(٢) المرجع السابق جـ ٩ ص ١٢٠

مخطوطة تفسير مجاهد وتاريخها :

تفسير مجاهد مخطوط بدار الكتب المصرية برقم : (١٠٧٥ تفسير) وتاريخ نسخها سنة ٥٤٤ هـ وعدد أجزاء المخطوطة ثمانية أجزاء .

الجزء الأول : من سورة البقرة وينتهي إلى سورة النساء الآية : ٤٣ .
الجزء الثاني : من سورة النساء الآية ٤٦ وينتهي إلى سورة الأنفال .
الجزء الثالث : من سورة التوبة وينتهي إلى سورة بني إسرائيل الآية ٢٤.
الجزء الرابع : من سورة بني إسرائيل الآية ٢٥ وينتهي إلى سورة الفرقان الآية ٢٥
الجزء الخامس : من سورة الفرقان الآية : ٢٧ وينتهي إلى سورة يس .
الجزء السادس : من سورة الصافات وينتهي إلى سورة نجم .
الجزء السابع : من سورة اقتربت (القمر) وينتهي إلى سورة عم يتساءلون .
الجزء الثامن : من سورة والنازعات وينتهي إلى سورة الناس (١) .

ثم إن هذه المخطوطة تفسير مجاهد هي رواية أبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبيد الهمزاني ، وينتهي سنده إلى مجاهد عن طريق إبراهيم عن آدم عن ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد وهذا معظم طرق إسناده وهناك طرق أخرى أيضا وهذه المخطوطة تم تصويرها بدار الكتب المصرية في يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧ لجامعة الدول العربية معهد المخطوطات وعلى صورة النسخة المصورة بدار إحياء المخطوطات بالجامعة العربية طبعت (قطر) تفسير مجاهد الطبعة الأولي عام ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ وقدم لها وحققها وعلق عليها عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي مجمع البحوث الإسلامية – إسلام آباد باكستان وعدد صفحات هذا التفسير ثمانية وتسعون وسبعمائة صفحة ذات طباعة جيدة في مجلد واحد .

ومعظم تفسير مجاهد شرح واف لغريب القرآن ، وتعبيرات خاصة ، وحل للكلمات الصعبة ، وتوضيح لألفاظ يغمض فهمها على من ليس له دراية بعمق اللغة العربية ، وتبيين العبارات غير المألوفة ، وفى التفسير يتجلى مجاهد لمن يقرأ له أنه لغوي خبير قادر على كلام العرب وعارف بلغتهم وأساليب بيانهم ، وتصريف لسانهم واصطلاحاتهم وكان يقول : من لم يكن عالما بلغات العرب لا يحل له التفسير (١)

ثم إن مجاهد فوق ذلك فقيه يدرك بقريحته الوقادة فحوي الكلام وكنه معاني الآية ، والحق أنه كان من رواد اللغويين العرب ، وتفسيره أول معجم شرح فيه كلمات القرآن : غريبة ومشكلة على طراز كتب اللغة المعاجم التى لم تكن مؤلفة في عهده حسب ترتيب حروف الهجاء وقد توفي بمكة وهو ساجد للصلاة عن ثلاثة وثمانون عاما .

---

(١) الألوسي : روح المعاني جـ١ ص ٥

ابن جرير الطبري
توفي ٣١٠ هـ / ٩٩٢ م

ولد محمد بن جرير الطبري في مدينة أمل بطبرستان ، وكان أباه أحد أثرياء هذه المدينة وأصحاب العلم والفضل من أبنائها ، ولذا نشأه محمد نشأة صالحة على يدي أبيه ، ثم على أيدي العلماء والفضلاء محمد اختارهم له وقد حفظ القرآن وهو ابن سبع سنوات وصلي بالناس وهو ابن ثمانية وروي الحديث وهو ابن التاسعة ومن أجل ذلك وهبه أبوه للعلم ووفر له وسائله وأسبابه ، فملكه قرية كان يملكها في طبرستان . وتفرغ لطلب العلم والمعرفة وأثر الحياة البسيطة بين الكتب والتلاميذ . أخذ العلم على أيدي ابن حميد ومحمد بن موسي الحرشي وعمار بن موسي القزاز وغيرهما في البصرة ، وعلى أيدي هناء بن السري وإسماعيل بن موسي بالكوفة ثم ذهب إلى مدينة السلام وجلس إلى من فيها من الفقهاء والقراء والمحدثين ، ثم اتجه إلى مصر حيث كانت مجمع الأدباء والشعراء والفقهاء من أصحاب الشافعي ومالك بن أنس أمثال أبو الحسن على بن السراج وإسماعيل بن إ'إبراهيم المازني ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني . ثم سافر ابن جرير بعد ذلك إلى بغداد حيث قضي بها بقية حياته . (١)

واجمع المفسرون على أن أعظم كتاب يضم المأثور من التفسير هو تفسير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة عشر وثلاثمائة ، وهو يعد حجر الأساس في أدب التفسير القرآني ، وفيه بذور لإبداء النظر في التفسير ، وفتح للباب أمام إعمال الرأي في التفسير . والطبري من أعظم العلماء في التاريخ الإسلامي ، وهو مفسر ومحدث وفقيه ولغوي ومؤرخ ، والأوربيون يسمونه " أبو التاريخ الإسلامي " ، ويقال إنه أسس مذهبا فقهيا ببحثه المستقل ، ولكن هذا المذهب لم يكتب له البقاء .

ولقد اشتهر تفسير الطبري ، وحظي بمكانة عالية ، وحرص بعض السابقين على نسخه ، حتى روي ابن النديم أن يحيى ابن عدي نسخ نسختين منه ، ويقول أبو حامد الأسفرايني : " لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا " . وبعض الأوروبيين يقول إنه يمكن الاستغناء بتفسير الطبري عن كل كتب المتأخرة عليه ، ولكن ياقوت يذكر أن هناك تفسيرا مفقودا لبقي بن مخلد القرطبي ، كان الأندلسيون يجعلونه فوق تفسير الطبري الذي لا يشق له غبار . (٢)

---

(١) أحمد الشرباصي : قصة التفسير ص ص ٧٥ – ٧٦
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١ ص ١٤٦

والطبري يسير في تفسيره على ذكر وجود التفسير المروية ، مع ذكر إسنادها ، منسقة بعضها عقب بعض ، ويحدث من ذلك تكرار النص مع اختلاف السند ، ولكنه لا يكتفي بالسرد ، وهو يعني كثيرا بالرواية ، ويعتمدها أساسا للصواب في التفسير ما دامت قد تسلسلت وصحت . ومتى وجد إجماع الأمة استظل به ونقد غيره ، كأن يقول عن رأى مجاهد في بعض مواطن التفسير إن رأيه " يخالف إجماع الحجة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب " . والطبري واسع المعرفة بقراءات القرآن ، وهو قد ألف كتابا في القراءات ، يتكون من ثمانية عشر جزءا ، جمع فيه كل القراءات الواردة ، وتناولها بالتمحيص والنقد . (١)

وطريقته في التفسير هى أن نراعي في المرتبة الأولي المعني الظاهر للفظ الذي لا نتركه إلا لداع وسبب ، وهو يستشهد بكثير من القصص التى تبدو فيها طائفة من الإسرائيليات ، وهو ينفر من التعمق الفارغ في أمور قليلة الجدوى ، كالبحث مثلا عن أنواع الأطعمة التى كانت على مائدة عيسى التى أنزلت من السماء ، ويقول : " العلم بذلك غير نافع ، ولا صار الجهل به ضارا ، ويكفي الإقرار من القارىء بالآية بظاهر ما احتمله التأويل " . أو كتعيين الدراهم المذكورة في قوله تعالي :

" **بثمن بخس دراهم معدودة** " فيقول الطبري : " وليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين ، ولا في الجهل به دخول ضر فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض ، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه " ويكرر الطبري أمثال هذه الملاحظات في مناسبات مختلفة . (٢)

والطبري يحرص على الاستعمال اللغوي العربي :

ويعني الطبري – مع حرصه على الرواية – بالاستعمال اللغوي العربي ، لأن هذا الاستعمال هو المرجع الموثوق به في كل تفسير العبارات التى لم يرد في تفسيرها أثر صحيح ، وهو يكثر من الإستشهاد بالشعر العربي ، متأثرا في ذلك بخطة ابن عباس .

وقد اتسعت شهرة الطبري في ذلك بما أورده من استشهادات شعرية ، واستطرادات لغوية ، واستقصاءات نحوية ، ويستعين بكل ذلك في التفسير ، ولكنه يقيده بعدم التعارض مع ما صح من الرواية الموثوق بها ، فمع كثرة استشهاده لا يترك مذهبه الأساسي ، وهو الاعتماد على الرواية والنقل ، وهو يتبع مذهب أهل السنة في غالب مواقفه . ويعد كتاب الطبري مرحلة أولي في التفسير ، مهدت لفتح الباب أمام المرحلة الثانية من مراحله .

---

(١)الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : ت ٣١٠ له مؤلفات منها

- جامع البيان عن تأويل أي القرآن . تحقيق محمود شاكر ط. دار المعارف مصر
- التاريخ . تاريخ الأمم والملوك طبعة مصر وطبعة ليدن

(٢) أحمد الشرباصي : قصة التفسير ص ٧٧

ولأهل السنة نقد لابن جرير الطبري في بعض المسائل ، كما أن الحنابلة يلومونه على مواقفه في بعض آخر ، إذا كانت بعض أقواله يشمون منها رائحة مذهب المعتزلة ، وإن كان هو قد عارض المعتزلة في كثير من المسائل ، ورد عليهم فيها . وقد يسوق الطبري آراء مختلفة في المعني ، ثم لا يتبعها برأي خاص له ، أو لا يجزم بتأييد واحد منها ، ولكن هذا قليل . ومع هذا لم يقف الطبري موقفا سلبيا دائما في المسائل الخلاف المتنازع عليها في مسائل الاعتقاد ، بل كانت له تفصيلات واستطرادات وآراء تعد معبرا واضحا إلى مدرسة التفسير التي تلت عصره ، وهى مدرسة التفسير بالرأي ! . بل إن تفسير ابن جرير نفسه يظهر فيه أثر التفسير بالرأي أو بالنقل ، وذلك حينما يختار أحد الأقوال ، ويرجح بعض المعاني على بعض ، ويقول مثلا " والرأي عندي ... " . ولاشك أن هذا الاختيار يدل على نظر وتأمل في بعض نواح مختلفة .(١)

---

(١) المرجع السابق ص ص ٧٨ – ٧٩

من أعلام التفسير
أبو الحسن على النيسابوري
المتوفى ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م

هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي النيسابوري ، أصله من ساوة بجوار خراسان . كانت أسرته تعمل بالتجارة أنفق صباه وشبابه في التحصيل وإتقان الأصول على أيدي الأئمة والرحلة في طلب المزيد من العلم حتى صار أستاذ عصره وانقطع إلى التدريس والإملاء وقد كشف الرواة أن الواحدي كان حقيقيا بكل احترام وإعظام ، حيث كان من الأئمة المتقدمين وأنه من أصحاب التقارير المشهورة وهو أستاذ عصره وأجمع الناس على حسن تفاسيره ، وكان رأسا في اللغة العربية وإماما في النحو واللغة والتفسير والقراءات ، عالما بالأدب والعروض ، ونعت شعره بالجودة وكان إماما للفقه الشافعي ومحدثا ، ونعته الذهبي بأنه : إمام علماء أهل التأويل . وكان الواحدي يحظى باحترام الوزير نظام الملك (٤٠٨ ــ ٤٨٥ هـ) فقد كان نظام الملك شاعرا ومشاركا في حب العلوم ولم تشغله السياسة عن تقدير العلم ومن مؤلفات الواحدي

(١) شرح ديوان المتنبي
(٢) الإعزاب في علم الإعراب
(٣) التجبر في شرح أسماء الله الحسني
(٤) تفسير أسماء النبي عليه السلام
(٥) الدعوات
(٦) المغازي
(٧) حرار المعاني
(٨) الحاوي لجمع المعاني
(٩) كتاب الأمثال

وكان الواحدي قد اهتم بتفسير كلام الله ووثق أنه لن يتم ذلك إلا بعد التطلع من علوم اللغة والتمكن من الأدب والمعرفة بطرائق العرب في الكلام . فأقبل على تلك العلوم بجلد ودأب لا يعتريه ضعف أو كلال وقرأ بإتقان ما أنتجته قرائح الأجيال واتيح له أن يتتلمذ على طائفة من العلماء البارعين في علومهم كما سعد بصحبتهم منهم أبو الفضل أحمد بن عبد الله السهلكي ، وأبو الحسن على بن محمد بن إبراهيم الضرير " النحوي المحدث " وأبو الحسن عمران بن موسي المالكي المتوفى ٤٣٠ هـ وأبو عثمان سعيد بن محمد الزعفراني الحيري المتوفى ٤٢٧ هـ . وهؤلاء هم الذين مكنوا الواحدي من التأليف في تفسير القرآن

يمكن الرجوع إلى الوسيط في تفسير القرآن المجيد للإمام المفسر " الواحدي " تحقيق وتقديم محمد حسن أبو العزم . القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م

وقد درس الواحدي اللغة على الشيخ أحمد بن عبد الله العروضي (٣٣٤ – ٤١٦ هـ وتفرغ للتلمذة على يد الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى ٤٢٧ هـ وصاحب التفسير الملقب بـ " الكشف والبيان عن تفسير القرآن " وقرأ عليه مصنفاته لاسيما الكامل في علم القرآن " وأهم تلامذة الواحدي هم أحمد بن عمر الأرغياني وعبد الجبار بن محمد الخواري

مؤلفات الواحدي :

وقد أجمع الذين ترجموا للواحدي أنه ألف في التفسير ثلاثة كتب هى البسيط و الوسيط والوجيز كما ألف كتاب مقاتل القرآن وكتاب جامع البيان في تفسير القرآن وكتاب أسباب نزول القرآن وكتاب نفي التحريف عن القرآن الشريف

الوسيط في تفسير القرآن المجيد :

في مقدمته لهذا الكتاب يعبر الواحدي عن مقصده " بتصنيف تفسير أعفيه من التطويل والإكثار ، وأسلمه من خلل الوجازة والاختصار ، وأتي به على النمط الأوسط والقصد الأقوم ، حسنة بين السيئتين ومنزلة بين المنزلتين ، لا إقلال ولا إملال . كما يفصح عن منهجه في تفسيره بقوله :

ومن شرف هذا العلم " تفسير القرآن الكريم " وعزته في نفسه ، أنه لا يجوز العقول فيه بالعقل والتدبر والرأي والتفكر ، دون السماع والأخذ عمن شاهدوا التنزيل بالرواية والنقل والنبي ﷺ ، ومن بعده من الصحابة التابعين قد شددوا في هذا حتى جعلوا المصيب فيه برأيه مخطئا .

وقد استمد الواحدي المادة اللغوية والنحوية في تفسيره من مصادر كثره ومتنوعة أكتفي بالنقل عن أصحاب الكتب اللغوية والنحوية دون أن يذكر هذه الكتب التى نقل عنها ، ومن ذلك مصادر جمعت بين اللغة والنحو ولها صلة وثيقة بالنص القرآني مثل كتاب معاني القرآن للفراء المتوفى ٢٠٧ هـ وكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثني المتوفى ٢٠٩ هـ وكتاب معاني القرآن لأبي إسحاق بن السري الزجاج المتوفى ٣١١ هـ وكتاب الأغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني لأبي على الفارسي المتوفى ٣٧٧ هـ ، وكتاب العين للخليل بن أحمد المتوفى ١٧٥ هـ وكتاب إصلاح المنطقة والألفاظ لأبن السكيت المتوفى ٢٤٤ هـ وكتاب الفصيح لأبي العباس بن ثعلب المتوفى ٢٩١ هـ ومصادر نحوية بحته مثل الكتاب لسيبويه المتوفى ١٨٨ هـ والمقتضب لأبي العباس بن يزيد المبرد المتوفى ٢٨٥ هـ ومؤلفات البصريين والكوفيين في النحو .

وقد تعود الإمام الواحدي أن يبدأ تفسيره لكل سورة من سور القرآن بذكر فضائل هذه السورة ، بسند متصل إلى الرسول الكريم ﷺ أو إلى أحد كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ويمتليء الكتاب بالرواية عن الصحابة وكبار التابعيين في تفسير

آيات الذكر الحكيم مثل ابن عباس ومجاهد وأم سلمة وعائشة والضحاك وقتادة وعطاء وأبي عبيدة بن الجراح ، وأبي هريرة وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي إمامة ، وأبي ذر ، وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر ، وعبادة بن الصامت ، رضي الله عنهم أجمعين .

كما يفيض الواحدي بالنقل عن كبار المفسرين والفقهاء وعلماء اللغة والمحدثين مثل ابن الأنباري والكلبي والفراء ، وأبي عبيدة والزهري ، ومؤرج السدوسي والزجاج ومقاتل، والأعمش ، والمبرد ، وابن الإعرابي ، والشافعي وأبي ضيفة ، وأحمد بن حنبل ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، والأصمعي والأخفش وغيرهم .

وفي الكتاب شواهد شعرية قليلة لوضاح اليمن وابن الرقبات وجرير ولبيد ، وقفاس العائدي ، إلى جانب بعض الأبيات المجهولة القائل

الفصل الرابع

دراسات حول تدوين النحو والصرف

" النحو " لغة : القصد والطريق . تكون ظرفا وتكون اسما . وتقول : نحاه ينحوه وينحاه نحوا ، وكذلك انتحاه . والنحو مصدر شائع ، تقول : نحوت نحو فلان : أي قصده ، ثم خص به علم العربية ، فأصبح النحو – اصطلاحا – قواعد اللغة العربية . فأنت حين تتكلم العربية كما تكلم بها أهلها : سليمة في إعرابها وبنائها ، وأفرادها وجمعها ، وإضافتها ونسبها ، وغير ذلك من ضروب تصرفها في مذاهب الكلام ، إنما تنحو " نحو " العرب في كلامهم ، وتقصد قصدهم في لغتهم .

والنحو ، أو قواعد العربية ، علم من أوسع علوم العربية وأكثرها أصالة . ولقد توفرت على خدمة النحو العربي منذ القديم جهود جبارة ، وعقول نافذة ، وضمائر مخلصة ، حتى قام لعلم النحو بناؤه الرائع المهيب ... وكان علم النحو – كغيره من العلوم العقلية – خاضعا لقانون التطور والارتقاء ، وبذلك انتقل عبر القرون من مرحلته البدائية ، مرحلة التأمل في اللغة واستقراء شواهدها ، إلى مرحلته التى أصبح فيها علما استنتج أهله قواعده وحصروا أحكامه . (١)

كان العرب قديما ينطقون بلغتهم بطريقة ، غير عارفين معني لرفع أو نصب أو جر أو تنوين . ثم انتشرت اللغة العربية بانتشار الإسلام ، وغدت ديار الإسلام واسعة عريضة فيها من كل أجناس البشر وألوانهم وألسنتهم ، وضم المجتمع الإسلامي شعوبا متباينة اللغات ، وسادت العربية بين الشعوب المفتوحة لغة دين ودولة . وتكلم بالعربية غير أبنائها ، فظهر اللحن وانتشر حتى بين أبناء العرب أنفسهم . وتنبه لذلك رجال أولو غيرة على العربية لغة القرآن . ومن هنا بدأ التفكير في ضرورة وضع قواعد تيسر للناطقين بالعربية أن ينحوا بها " نحو " أصحابها . وكان ذلك أول وضع النحو العربي . ولا تزال حقيقة نشأة علم النحو – كيف نشأ كمظهر من مظاهر العناية الفريدة التى أولاها المسلمون للقرآن الكريم وكيف كان وليدا للتفكير في قراءة القرآن ؟؟ ومن هو أول من كتب فيه ؟ وماذا كتب ؟ - لا يزال كل ذلك من الأمور التى كثرت حوله الروايات ، وتباينت الآراء . (٢)

تراجم مختصرة لعلماء إقترنت أسماؤهم بنشأة النحو :

وقد رأينا ، تيسيرا للبحث ، وإنارة لطريقه ، أن نسوق أولا تراجم مختصرة لعدد من علماء البصرة والكوفة الذين اقترنت أسماؤهم بقصة نشأة النحو الأولي .

---

(١) السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها .. عيسي الحلبي ط ٢ . المقدمة وأيضا ابن جني : الخصائص ط الهلال ١٩١٣ ص ٣٩

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان : الإعراب واللحن) جـ٢ ص ١٥٨ وما بعدها

أبو الأسود الدؤلي : ت ٦٩ هـ

هو ظالم بن عمرو من كبار التابعين . وقد صحب عليا بن أبي طالب وشهد معه وقعة صفين . قرأ القرآن على عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب . وكان عالما بالعربية ، وشاعرا ذكيا . وقد اقترن اسمه بنشأة النحو حتى قيل أنه أول من كتب فيه . وهو أول من وضع النقط – من رفع ونصب وجر وتنوين – في المصحف كما سبق أن ذكرنا ذلك تفصيلا في تدوين القرآن . وأخذ العربية عنه جماعة منهم : ميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ونصر بن عاصم . وقد ولاه على ابن أبي طالب قضاء البصرة ، ومات سنة ٦٩ هـ عن خمس وثمانين سنة

ميمون الأقرن :

أخذ ميمون عن أبي الأسود ، وبرع في العربية ، وأخذ عنه عبد الله بن أبي إسحاق .

نصر بن عاصم : ت ١١٧ هـ

نصر بن عاصم الليثي ، كان يسند في القرآن والنحو إلى أبي الأسود ، وقيل أنه أخذ أيضا عن يحيى بن يعمر ، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء . ومات سنة ٨٩ هـ .

عبد الرحمن بن هرمز :

أبو داود عبد الرحمن بن هرمز ، من أهل المدينة ، وهو أول من تحدث فيها بالنحو ، وقد كان بارعا فيه ، بصيرا بالأنساب والقراءات . أخذ عن الأسود الدؤلي ومات بالإسكندرية سنة ١١٧ هـ . (١)

يحيى بن يعمر العدواني : ت ٨٩ هـ

أبو سليمان ، يحيى بن يعمر . برع في الفقه والقراءة والنحو ، وكان قد أخذ العلم عن أبي أبو الأسود الدؤلي . ولاه قتيبة بن مسلم قضاء خراسان وكان فصيحا بليغا يستعمل الغريب في كلامه ومات سنة ١٢٩ هـ

---

(١) محمد الطنطاوي : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : دار المعارف ١٩٧٣ ص ٧١ وما بعدها

عبد الله بن أبي إسحاق : ت ١١٧ هـ

هو عبد الله بن زيد ، الحضرمي ، أخذ عن تلاميذ أبي الأسود : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وميمون الأقرن . وبرع في النحو ومال فيه إلى القياس والتعليل وكان شديد التجريد للقياس والعمل به . أخذ عنه عيسي بن عمر ومات عن ثمان وثمانين سنة .

أبو عمرو بن العلاء : ت ١٥٤ هـ

اشتهر بأبي عمرو ، وقيل أن أسمه زيان . أخذ عن نصر بن عاصم ، ولقي عبد الله بن أبي إسحاق . وكانت اللغة والغريب أغلب عليه من النحو . أقرأ القرآن في مسجد البصرة . وأخذ عنه عيسي بن عمر ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبو الخطاب الأخفش ، وأبو جعفر الرؤاسي وأشتهر بالكرم رغم زهده وتنسكه . وفي أخريات أيامه تفرغ للعبادة وأحرق كل ما كتب . وكانت كتبه ملء بيته إلى السقف (١) ومات في خلافة المنصور بالكوفة .

عيسي بن عمر : ت ١٤٩ هـ

كان مولي لخالد بن الوليد . أخذ عن عبد الله ابن أبي إسحاق ، وأبي عمرو ابن العلاء . وبرع في القراءة والنحو واللغة . واشتهر بفصاحته وكان مولعا بالغريب والتشادق. ويقال أنه صنف كثيرا من كتب النحو . ومن تأليفه فيه كتابا " الأكمال " و " الجامع " . وقد أخذ عن عيسي بن عمر: حماد ابن سلمة ، والخليل بن أحمد ، وأبو جعفر الرؤاسي ، وسيبويه . ومات في خلافة المنصور .

الخليل بن أحمد : ت ١٧٥ هـ

أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي ولد عام ١٠٠ هـ كان ذكيا ، استنبط ما لم يسبق إليه في علم النحو ، وحصر اللغة ، ووزن الشعر ، وهو أول من ألف معجما في العربية ، وأول من استخرج أبحر العروض ، وكان تقيا زاهدا عفيف النفس . أخذ عن عيسي بن عمر . وأخذ عنه حماد بن سلمة ، وسيبويه ، والنضر بن شميل ، وعلى بن نصر ، ومؤرج السدوسي ، والليث بن نصر . (٢) .

---

(١) أبو طيب : مراتب النحويين ص ١١
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٣٥ وأيضا ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ٢٥
وأيضا ابن قتيبة : عيون الأخبار ، كتاب العلم والبيان ، التشادق والغريب جـ٢

يونس بن حبيب : ت ١٨٢ هـ

يونس بن حبيب الضبي ، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ، وعن حماد بن سلمة . وروي عنه سيبويه ، وسمع منه الكسائي والفراء واجه العرب فسمع منهم حتى غدا مرجع الأدباء والنحويين ، وكانت له حلقة دراسة في المسجد الجامع بالبصرة يؤمها العلماء والأدباء وفصحاء العرب ... وله مصنفات كثيرة في غير النحو وأخباره كثيرة في الكتب المعاجم ومات بالبصرة في خلافة الرشيد . (١)

أبو جعفر الرؤاسي :

هو محمد بن الحسن بن أبي سارة ، واشتهر بالرؤاسي لكبر رأسه أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ، وعن عيسي بن عمر ، وكان عالم الكوفة . وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو ، عنوانه " الفيصل " . وأخذ عنه عالما الكوفة : الكسائي ، والفراء . وتوفي بالكوفة في عهد الرشيد (٢)

ومن العسير على الباحث اليوم أن يجزم عن أول من كتب في النحو وماذا كتب ؟ فالروايات عن نشأة النحو وبدايات التدوين فيه روايات كثيرة مختلفة ، منها ما يقول أن أمير المؤمنين عليا بن أبي طالب هو أول من بدأ استقراء اللغة واستنتج منها أقسام الكلم من اسم وفعل وحرف ، ثم طلب إلى أبي الأسود الدؤلي أن يتابع عمله من استقراء واستنتاج ، وأن ينحو نحوه .ومن تلك الروايات ما يقال أن أبا الأسود نفسه هو أول من قام على أمر النحو والكتابة فيه . ويختلف أصحاب هذه الرواية ، فيذهب فريق منهم إلى أن أبا الأسود فعل ذلك بتكليف من على بن أبي طالب . ويذهب فريق آخر إلى أن زيادا بن أبيه - وكان واليا على العراق – هو الذي كلف أبا الأسود وضع ضوابط اللسان العربي ، ويذهب آخرون إلى أن أبا الأسود استأذن زيادا أن يضع للناس قواعد تصون ألسنتهم من اللحن ، فلم يأذن له أول الأمر ، ثم هال زيادا انتشار اللحن فطلب أبا الأسود وكلفه أن يضع ما كان نهاه عنه . ولكل من أصحاب هذه الروايات شاهد يستدل به على صحة روايته ، فمنهم من ينسب إلى أبي الأسود نفسه أنه قال حين سئل عن وضعه للنحو : أنه أخذه عن أمير المؤمنين على . ومنهم من يجعل اللحن في آية من آيات القرآن الكريم سببا دفع أبا الأسود إلى وضع النحو . ومنهم من يجعل لحن أولاد زياد بن أبيه في قراءة القرآن ، أو لحن الناس في حضرته ، سببا دفعه إلى تكليف أبي الأسود . ومنهم من يري أن أبا الأسود وضع ما وضعه من النحو حين سمع ابنته تلحن أمامه .

---

(١) محمد الطنطاوي : نشأة النحو . ص ٧٩
(٢) المرجع السابق ص ١١٥

ومهما يكن من أمر هذه الروايات المختلفة ، فالذي لاشك فيه أن أول ما بذل في سبيل هذه اللغة إنما بذل في سبيل حفظ اللسان وقراءة القرآن ، وأن أبا الأسود الدؤلي هو الذي قام بنقط المصحف ، وذلك أنه طلب إلى زياد بن أبيه أن يبعث إليه بكاتب فطن سريع الفهم ، فبحث زياد حتى وجد طلب أبي الأسود في رجل من قريش ، فبعثه إليه فقال له أبو الأسود : " إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه . وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف . وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف . فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين " .

وجعل أبو الأسود يقرأ والكاتب يدون ، فكان هذا أول نقط وضع للمصحف . (١)

ولاشك أن هذا العمل الذي قام به أبو الأسود إنما هو " نحو " في معني من معانيه ما دام يؤدي إلى النطق السليم والقراءة الصحيحة .

ويري بعض الباحثين أن أبا الأسود زاد على ذلك ووضع بعض أبواب النحو : كباب الفعل والمفعول والمضاف وغيرها . وهم يختلفون في تقديم هذه الأبواب وتأخيرها باختلاف نظرتهم إلى طبيعة عمل الأسود ، لأن منهم من يري أن أبا الأسود وضع – أول ما وضع – أبواب النحو التى وقع اللحن فيها . ومنهم من يري أن أبا الأسود استقرأ اللغة عامة ، وصنف قواعدها تصنيفا عقليا . ويوفق بعضهم بين النظرتين فيري أن مواطن اللحن نبهت أبا الأسود ودفعته إلى ضبط قواعدها ، ولكنه لم يقتصر عليها بل تجاوزها في عمله إلى سائر الضوابط الأخرى .

جهود الصفوة نحو تكامل النحو :

ولقد توالت على خدمة النحو جهود صفوة من العلماء العربية الأذكياء ما زال بعضهم يأخذ عن بعض ، ويزيد على ما أخذ استقراء للعربية ، وجمعا لشواهدها ، واستنتاجا لأحكامها ، حتى تكامل النحو ، وثبتت أصوله على يد الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه .

وهكذا فالذي نطمئن إليه إذن هو أن النحو العربي وضع بدافع الغيرة على لغة القرآن من أن تضيع على ألسن اللاحنين ، وأن ذلك بدأ منذ النصف الأول من القرن الأول للهجرة ، وأن أبا الأسود وضع نقط المصحف فأعان على حفظ لغة القرآن بكتابتها على شكل يعين على النطق الصحيح بها – وهذه غاية النحو – فكأنه أول من وضع شيئا في النحو ، وقد يكون زاد على ذلك بوضع أصول بعض أبواب النحو ، ثم ما زال الذين أخذوا يزيدون على ما وضع – كل حسب طاقته ومقداره من علم العربية .

---

(١) ولا تزال لدينا إلى اليوم نسخة من أقدم نسخ القرآن الكريم تحتفظ بهذا الشكل من النقط ، وهي في معرض مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة .
راجع : الزركشي : البرهان في علوم القرآن .. جـ١ ص ١٧٢

وكان ممن أخذ عن أبي الأسود جماعة أشهرهم : عبد الرحمن بن هرمز ، ونصر بن عاصم، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر . ثم جاء من بعد هؤلاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، فأخذ عن يحيى بن يعمر ، وعن ميمون الأقرن ، وزاد في النحو شيئا كثيرا بما عرف عنه من ميل إلى القياس (١) ونزوع إلى التعليل . وتلاه أبو عمرو بن العلاء ، وكان علم اللغة أغلب عليه . وتلاهما عيسى ابن عمر الذي أخذ عنهما جميعا واستقرت عنده ثقافة من قبله ، حتى قيل أنه وضع في العربية نيفا وسبعين كتابا ، وصل إلينا منها اسما كتابيه : " الجامع " و " الأكمال " وعن عيسى بن عمر هذا أخذ الخليل بن أحمد ، وحماد بن سلمة ، وأبو جعفر الرؤاسي . ثم أخذ حماد عن زميله الخليل ، وأخذ يونس بن حبيب – وكان قد أخذ عن أبي عمرو بن العلاء – وسيبويه عن حماد . ثم لزم سيبويه الخليل واختص به ، وكان " الكتاب " ثمرة رائعة لدراسة سيبويه على أستاذه الخليل . وكان ممن أخذ مع سيبويه عن الخليل جماعة ، منهم : النضر بن شميل ، والليث ابن نصر ، ومؤرج السدوسي ، وغيرهم .

على أننا لا نستطيع أن نعرف مقدار ما زاده كل من هؤلاء في علم النحو ، فلقد كان المجال بكرا أمام كل منهم ، وكان كل من أسهم بجهد في هذا العلم نسب إليه وضعه فقيل ، أنه صنع النحو ، أو نهج سبيله ، أو مد قياسه ، أو فتق علله ... حتى تعددت أسماء الذين نسب إليهم ذلك . ولاشك أن كل طبقة من هؤلاء العلماء المتقدمين زادت على الطبقة التى قبلها حتى ظهرت التآليف النحوية وشاعت أسماؤها ، وعرف الناس " الجامع " و " الأكمال " كتابي عيسى بن عمر . ثم جاء تلاميذ عيسى من بعده وأتموا صنيعه : فوضع أبو جعفر الرؤاسي كتاب " الفيصل " وظهر علم الخليل بن أحمد – زميل الرؤاسي في الأخذ عن عيسى بن عمر – في كتاب تلميذه سيبويه .

وعلى هذا فليس عجيبا أن نرى كتاب سيبويه كتابا كاملا شاملا ، وهو أقدم كتاب نحوي وصل إلينا، وذلك لأن النحو كان قبله قد مر بمرحلة طويلة ، وتوالت في ميدانه جهود الكثيرين حتى تكامل خلالها وتم له منهجه ، فكانت من بعد ذلك تآليف عيسى بن عمر ، وكانت عبقرية الخليل بن أحمد ، وكان ذكاء سيبويه تلميذ الخليل وصنيعة يدية .

---

(١) القياس محاكاة العرب في كلامهم ، والتزام طرائقهم في فنون القول ، والعرب الموثوق بعربيتهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثاني ، وأهل البدو من جزيرة العرب إلى أخر القرن الرابع فقد ظلت لغة العرب سليمة في بواديهم حتى نهاية القرن الرابع الهجري . وفي حواضرهم حتى نهاية القرن الثاني للهجرة وأن ما ظهر من اللحن والخطأ خلال تلك الفترة ضئيل يمكن الإغضاء عنه ، تجنبا لمشكلات تعوق اللغة وتوقف تقدمها

راجع عباس حسن : اللغة والنحو بين القديم والحديث دار المعارف ١٩٧١ ص ص ٢٣ – ٢٤

قصة الخلاف في النحو العربي :

نشأ علم النحو وتكاملت وسائله وظهرت فيه المؤلفات . وكان من أبرز الحلقات التى تعني به وتدرسه في عصره المبكر حلقة عيسي بن عمر التى تخرج فيها الخليل بن أحمد وعمرو بن عثمان (سيبويه) وأبو جعفر الرؤاسي ... وقد جمعت حلقة عيسي بن عمر رءوس الخلاف في النحو العربي ، وذلك أن هؤلاء الأعلام هم الذين اختلفت بينهم الآراء ، ثم تباعدت بين تلاميذهم المذاهب . (١)

لقد كان الخلاف في أول أمره يسيرا لا خطر فيه ، إذ كان النحو قائما على استقراء اللغة ووضع الأحكام على مقتضاها ، وقد يحدث أن يسمع نحوي من أعراب قبيلة من القبائل ما لم يسمع بمثله أو ما سمع بخلافه نحوي آخر ، فتختلف وجهتا النظر ، ويختلف الحكمان ، وكلاهما عربي مسموع . وقد يحدث أن يختلف التلميذان في رأي من الآراء أو تعليل حكم من الأحكام ، ويكون ذلك سببا في نشاط الدرس وسرور الأستاذ بنبوغ بعض تلاميذه . ولعل شيئا من هذا الخلاف المثمر كان يقع بين الخليل بن أحمد الرؤاسي في حضرة شيخهما عيسي بن عمر . إلا أن هذا الخلاف لم يلبث أن تخلي عن غايته العلمية في توجيه وجه الحق والصواب ، وذلك بعد أن انتشر أمره ، واتسعت دائرته ، وقام فيه طرفان قويان يلتقيان ويتناقشان . وكان مما ساعد على وجود هذا الخلاف وإنمائه أمور عدة ، قد لا يكون لأكثرها صلة بالعلم : منها تنافس البصرة منشأ النحو ، والكوفة الحاضرة الناشئة . ومنها تنافس علماء المدينتين على التقرب من السلطان والحظوة لديه . (٢)

وقد كثرت المؤلفات التى تحكي الخلاف بين النحويين مما أختلف البصريون والكوفيون . أول من كتب في ذلك ثعلب ... مؤلفه اختلاف النحويين وصنف ابن كيثان كتابة : المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون ، ثم دون أبو جعفر النحاس مؤلفة : المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين . ثم ألف بعده ابن درستويه كتابه : الرد على ثعلب في اختلاف النحويين وجاء بعد هؤلاء كمال الدين الأنباري وجرد قلمه لكتابة : الأنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين وذكر فيه ١١٨ مسألة مؤيدا كل مسألة بأدلة الفريقين القياسية والسماعية مع التفصيل ووقف منها موقفا محايدا . جاء بعده أبو البقاء العكبري ليؤلف كتابه التبيين في مسائل الخلاف أما ابن اياز البغدادي فقد ألف كتابه الإمعان في مسائل الخلاف ورحم الله السيوطي الذي لخص هذه المؤلفات في الجزء الثاني من كتابه الأشباه والنظائر مع الإيجاز والإفادة (٢)

وقد لمعت في عالم الخلاف أسماء نحاة مشهورين تفيدنا معرفتهم التفصيلية في تفهم حقيقة الخلاف .

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني جـ٦ ص ٥٥ وما بعدها
(٢) محمد الطنطاوي : نشأة النحو ص ١٢٢ وما بعدها

من أعلام القياس ونشأة النحو

أبو الأسود الدؤلي ت ٦٩ هـ / ٦٨٨ م :

لا يفصل القدماء بين نشأة قواعد العربية والقياس ويعدونهما منطلقا واحدا ويعزو البعض نشأة قواعد اللغة والقياس إلى أبي الأسود الدؤلي . **يقول ابن سلام** : " أول من استن العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي ، وإنما فعل ذلك حين اضطرب لسان العرب وغلبت السليقة وكان سراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل والمفعول وحروف الرفع والنصب والجزم " (١) . **ويقول الزبيدي** في ترجمته لأبي الأسود : " وهو أول من أسس العربية ونهج سبلها ووضع قياسها ، وذلك حين اضطرب كلام العرب ، وصار سراة الناس ووجوهم يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف النصب والرفع والجزم " (٢)

يقول الدكتور **شوقي ضيف** (٣) : " جاء في بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ وشبه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئا من قواعد النحو ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئا ، إنما الذي وضعه حقا وكان أول واضعيه نقط المصحف نقطا يعين أواخر الكلم فيه ، أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب ، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ونقطة بين يديه إشارة للضمة ونقطة تحته إشارة للكسرة ، وإذا تبع شيئا من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين ، واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع أبواب النحو أو بعض مسائله (٤) **ويشير السيرافي إلى هذا الاختلاف فيقول** : (اختلف الناس في أول من رسم النحو ، فقال قائلون أبو الأسود الدؤلي ، وقال آخرون نصر ابن عاصم الدؤلي ويقال الليثي ، وقال آخرون عبد الله بن هرمز ، وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمرو بن سليمان بن عمرو بن الدؤلي وكان من سكان البصرة (٥)

وقال أبو الأسود لكاتبه : (إذا رأيتني قد فتحت بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف ، فإن أتبعت من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين) ويعلق السيرافي على عمل أبي الأسود فيقول : (فهذا نقط أبي الأسود) (٦)

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء . دار المعارف ص ١٢
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين تحقيق محمد أبو الفضل نهضة مصر ١٩٥٥
(٣) شوقي ضيف : العصر العباسي الأول دار المعارف ص ١٢١
(٤) المرجع السابق ص ص ١٢١ – ١٢٢
(٥) السيرافي : أخبار النحويين البصريين فريتس كرنكو ص ١٣
(٦) المرجع السابق ص ١٦

عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي : ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م :

هو عبد الله بن أبي إسحاق مولي آل الحضرمي ، وهم حلفاء بني عبد شمس بن مناف ، ويقول الزبيدى (كان مائلا إلى القياس في النحو وكان من أئمة القراء في البصرة . ويقال أنه أخذ النحو عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر . توفي سنة ١١٧ هـ (١) ويمكن أن نلتقي بمحاولات مبكرة في القياس عند الحضرمي ونستطيع من خلال تلك المحاولات أن نظن أن القياس بدأ عنده ، وفيه يقول ابن سلام : (كان أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل) (٢)

وكان يسعى إلى اطراد القاعدة إذعانا للقياس الذي حكمه في مسائل النحو . ومن محاولاته المبكرة التى نقلها عنه القدماء ما يروي عن يونس ابن حبيب حين سأل الحضرمي عن كلمة السويق وهو الناعم من دقيق الحنطة ، هل ينطقها أحد من العرب " الصويق " بالصاد ؟ فأجابه نعم قبيلة عمرو بن تميم تقولها . ثم قال له : (وما تريد إلى هذا عليك بباب من النحو يطرد وينقاس) (٣) وكان إذعانه للقياس يتطلب تفريعا لمسائل النحو وبعجا له ، يقول أبو الطيب اللغوي : (كان يقال : عبد الله أعلم البصرة وأعقلهم ، ففرع النحو وقاسه) (٤)

وتلك المحاولات التى رويت عن الحضرمي كانت قليلة بحيث لا نستطيع أن نقيم عليها حكما ، وإنما نستطيع القول إنه وضع القياس أساسا للحكم في مسائل النحو بحيث تطرد القاعدة النحوية وتلتزم بقاعدة تنضبط لها ، وبنى قياسه على أساس من استقراء لغة العرب ، وعلى السماع من قبائل في نجد وبوادي الحجاز وتهامة ، كما رحل إلى قبائل تميم وقيس وأسد وطيء وهديل وبعض عشائر كنانة . كما بني هذا القياس على العلة التى تفسره . وكان احتكام الحضرمي للقياس سببا في معارضات من فحول الشعراء ويقول ابن سلام : (كان ابن أبي إسحاق وعيسي بن عمر يطعنان على العرب) قال ابن أبي إسحاق للفرزدق في مديحه لأمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك رضي الله عنهما :

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا وأرحلنا ... على زواحف تزجي مخهارير

أسأت إنما هو " مخهارير " (بالرفع) ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع – قال يونس – والذي قال جائز حسن – فلما ألحوا على الفرزدق قال على زواحف تزجيها محاسير . فترك الناس هذا ورجعوا إلى الأول) ويقول ابن سلام مقارنا بينه وبين معاصره أبي عمرو بن العلاء (وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وكان ابن أبي إسحاق أشد قياسا وأبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغتها وغريبها (٥)

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٢٤
(٢) المرجع السابق ص ٢٦
(٣) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٧٣ جـ٢ ص ١٠٥
(٤) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٢٥
(٥) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ١٢

ويقول أبو الطيب اللغوي : (كان عبد الله يقدم على أبي عمرو في النحو ، وأبو عمرو يقدم عليه في اللغة) ومن أمثلة التزام الحضرمي بقواعد النحو قياسا ، ما روي من أن الفرزدق حضر مجلس ابن أبي إسحاق ، فقال : كيف تنشد هذا البيت

وعينان قال الله كونا فكانتا   فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقال الفرزدق : كذا أنشده . فقال ابن أبي إسحاق الحضرمي : ما كان عليك لو قلت فعولين ؟ فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبح لسبحت . فقال ابن أبي إسحاق : لو فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ولكنه أراد : هما يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر) (١) . ولم يقصر الحضرمي تحكيمه القياس على ما سمع من الشعر ، شعر الفحول ، وإنما خالف جمهور القراء في بعض قراءاتهم للقرآن الكريم ، إذعانا للقياس وتمكينا له . ومما خالف القراء فيه قراءة (والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما) قرأها بالنصب على المفعولية بينما ذهب جمهور القراء إلى الرفع على الابتداء . وكذلك كان يقرأ (الزانية والزاني) بالنصب . يقول سيبويه : (وقد قرأ أناس : " والسارق والسارقة " و " الزانية والزاني " وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة . ولكن أبت العامة (يعني عامة النحويين) إلا القراءة بالرفع) (٢) وكان يقرأ : (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) (٣) بالنصب وهو خلاف ما قرأ به القراء .

وكان ابن أبي إسحاق يري أن يحقق في الهمزتين رغم أنه ليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا جميعا . خلافا لما ذهب إليه النحويون (أما ابن أبي إسحاق فكان يري أن يحقق في الهمزتين ، كما يراه في الواحدة ، ويري تخفيفها على ذلك ، ويقول : هما بمنزلة غيرهما من الحروف ، فأنا أجريهما على الأصل وأخفف – إن شئت – استخفافا . وإلا فإن حكمهما حكم الدالين وما أشبههما . وكان يقول في جمع خطيئة إذا جاء به على الأصل : هذه خطائيء ويختار في الجمع التخفيف ، وأن يقول خطايا ولكنه لا يري التحقيق فاسدا (٤)

وتعد تلك البداية عند الحضرمي كاشفة للمحاولات المبكرة في القياس في تاريخ النحو العربي وتأتي أهميتها في أنها أثمرت بعد وفتحت رؤى كثيرة للخلاف وتحكيم القياس بما يصور كيفية تفكير العقل والمحصلات الثقافية التى حصلها ، وما أفاده مما كان موجودا ثم من معارف ، بحيث إذا وصل بنا البحث إلى القياس الخليل وجدنا أصولا نبت منها .

---

(١) الزجاجي : مجالس العلماء ... تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ ص ٨٥ وما بعدها
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين ص ١٤
(٣) الزجاجي : مجالس العلماء ص ١٤٤
(٤) ابن أبي إسحاق : المقتضب . تحقيق محمد عبد الخالق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٦ هـ ص ١٥٩

يقول الدكتور شوقي ضيف : (واضح أنه – يعني الحضرمي – فتح لنحاة البصرة من بعده تلاميذه وغير تلاميذه بمراجعاته للفرزدق أن يخطئوا الشعراء الفصحاء ، لا من الإسلاميين مثل الفرزدق فحسب ، بل أيضا من الجاهليين) وأطلق بعض الباحثين المعاصرين على ما قام به الحضرمي من تحكيم القياس تخطئة العرب وعد ذلك ظاهرة جديدة . (١)

يقول الدكتور عبد الرحمن السيد : (الظاهرة التى تبدو جديدة فيما نقل إلينا من أخبار عبد الله الحضرمي ، هى أنه لم يكن عنده ما يمنعه من أن يخطيء العرب الذين عرفوا بفصاحتهم ، ونصاعة أسلوبهم كالفرزدق الذي كان من الطبقة التى اتجه أكثر الباحثين في النحو واللغة إلى الأخذ عنها ، إلا أن عبد الله كان لا يري عصمته من الخطأ ، لأنه كان يعتقد ، كما نقل عنه وعن عيسي بن عمر ، أن العرب يجوز عليهم أن يخطئوا) . وربما كان الحضرمي يستهدف من صنيعه المبكر توحيد القياس في النحو حتى لا تتعدد صور العبارة بما يعكس شططا وتنوعا في الدلالات المعنوية . (٢) وهذا النحو إنما يعكس أسلوب الموالي الذين عاشوا في البيئة الثقافية العربية ، فكانوا حريصين على الالتزام بالقاعدة أكثر من حرصهم على تعدد صور العبارات بما يثريه هذا التعدد من خلافات تتطلب جهدا كبيرا . (٣)

وليس دور الباحث هنا تقويم عمل الحضرمي أو الوقوف منه موقف المؤيد أو المعارض كما يحلو لكثير من الباحثين أن ينهجوا ، وإنما يستهدف البحث الكشف عن تطور مضمون القياس الذي بدأ عند الحضرمي بملاحظات فردية يمليها تصوره الخاص لفهم القاعدة وتحول بعد إلى سيل دافق من ربط الأشباه بالنظائر إدراكا لكنه اللغة ومدي ما يربط ظواهرها من وشائج وصلات (٤)

عيسي بن عمر ت ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م

هو عيسي بن عمر الثقفي من أهل البصرة وكان تلميذا لعبد الله بن أبي إسحاق وغيره وعنه أخذ الخليل بن أحمد وله كتابان في النحو سمي أحدهما الجامع والآخر المكمل ويروي عنه أشياء كثيرة من القراءات لم يكن عيسي بن عمر بأقل من شيخه في تحكيم القياس وكان قياسه قائما على أساس من التفسيرات الفردية وقد روي عنه أنه أخذ على النابغة قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

يقول : (وجهه أن يكون السم ناقعا) (٥)

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية . دار المعارف . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٤ وما بعدها
(٢) عبد الرحمن السيد : مدرسة البصرة النحوية . نشأتها وتطورها . سجل العرب القاهرة ص ٦٩
(٣) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ٣١ وما بعدها
(٤) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٣٥
(٥) المرجع السابق ص ٣٦

ولعل توجيه ابن عمر بيت النابغة السابق ينطلق من خلال هذا التفسير لوجهين في القياس . وكان عيسي يبني قياسه على قاعدة من السماع عن بعض العرب الموثوق بعربيته . ومن آراء عيسي التى انفرد بها في قياسه ما جاء في (باب ما ينصرف من الأفعال إذا سميت به رجلا) من ذلك منعه صرف ضارب أسما لرجل (١).

ويروي الزبيدى أن الحسن بن قحطبة بن شبيب الطائي أحد قواد المنصور ، قد جمع عند مقدمه مدينة السلام الكسائي والأصمعي وعيسي بن عمر ، فألقي عيسي على الكسائي هذه المسألة : همك ما أهمك ، فذهب الكسائي يقول : يجوز كذا ويجوز كذا ، فقال له عيسي : عافاك الله إنما أريد كلام العرب ، وليس هذا الذي تأتي به كلام العرب) (٢)

وكان عيسي ينزع في قياسه إلى النصب ويظهر أنه استخف الفتحة في إعرابه سهولة وتيسيرا . يقول القفطي : (كان عيسي بن عمر ينزع إلى النصب إذا اختلفت العرب) (٣) ويتضح أسلوبه في القياس فيما نقل عنه " قال أحد العلماء لعيسي ابن عمر : أخبرني عن هذا الذي وضعته في كتابك ، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال : لا ، قلت : فمن يتكلم خلافك واحتذي ما كانت العرب تتكلم به ، تراه مخطئا ؟ قال : لا ، قلت : فما ينفع كتابك ؟) والحجة مع عيسي وليست مع السائل ، فأجابه ابن عمر تصور مرونة اللغة وتعدد التأويلات كما تصور أسلوبه ومنهجه في القياس . (٤)

وحذا حذو شيخه الحضرمي في معارضة القراء ، وخالف جمهورهم ، وكان يقرأ : " هؤلاء بناتي هن أطهر لكم " (٥) . وهذا مخالف لما قاله النحويون أجمعون ولما قرأت به القرأة . وأنكرها أبو عمرو بن العلاء عليه ، فقال : كيف تقول : هؤلاء بني هم ماذا ؟ فقال عشرين رجلا فأنكرها أبو عمرو وكان عيسي بن عمر وأبو عمرو يقرآن : (يا جبال أوبي معه والطير) بالنصب ويختلفان في التأويل ، كان عيسي يقول : هو على النداء ، كما يقول يا زيد والحارث . لما لم يمكنه ويا الحارث . وقال أبو عمرو : لو كان على النداء لكان رفعا ، ولكنها على إضمار : وسخرنا الطير ، كقوله على أثر هذا : (ولسليمان الريح) وتأتي أهمية عنايته بالقياس بوصفها فاتحة لتحكيمه في مسائل النحو في مدرسة البصرة كلها . (٦)

فالشيخان الحضرمي وابن عمر عنيا بالقياس وحكماه ، فكانا بداية الطريق لتغليب البصريين له . واعتبروه أساسا مهما أقاموا عليه صرح النحو العربي أصولا وفروعا ، ومهد الحضرمي وابن عمر الطريق لكل البصريين من بعدهما بملاحظاتهما التى أخذت طابع القياس الذي يصور بعض أوجه الخلاف والاتفاق في مراحله الأولي .

---

(١) سيبويه : الكتاب جـ٣ ص ٢٠٦
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٣٧
(٣) القفطي : انباه الرواة جـ٢ ص ٣٧٥
(٤) السيرافي : النحويين البصريين ص ٢٣
(٥) سورة هود ٧٨
(٦) الزبيدى : طبقات النحويين ص ٣٦

ويعد الحضرمي البداية الحقيقية للقياس بشكله التجريدي ، يقول السيرافي : (ويقال أن ابن إسحاق كان أشد تجريدا للقياس ، وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها) بل يعد أول من وضع في ظل القياس القواعد الكلية للنحو العربي بشكل ما ، وذلك عن طريق استقراء كلام العرب ، من ذلك استنباطه مثلا أن كل اسم بعد إن منصوب ، ووضع القاعدة القياسية لهذه الكليات وطردها وهاجم كل من يخالفها حتى إن كان عربيا . وجد في استقراء كلام العرب وجمع لغتهم ، فمهد الطريق وأعان على فتح أبواب القياس . (١)

ويبدو أن عيسي بن عمر جمع ملاحظات المتقدمين في تدوين كتابيه **الأكمال والجامع** ، وكانت هذه الملاحظات مع سبق الحضرمي مدخلا ونواة للتأليف والتدوين في النحو العربي . وتأتي أهمية الحضرمي وابن عمر في أنهما كانا يمثلان العقل المنتمي إلى العرب ، ولكنهما لم يكونا عربيين ، فعبد الله بن أبي إسحاق مولي آل الحضرمي وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف ، أما ابن عمر فهو مولي خالد بن الوليد المخزومي كما ذكرنا ، ولعل هذا يفسر من ناحية كيف كانا يطعنان على العرب أحيانا ومن ناحية أخرى كيف لجأ كل منهما إلى تجريد القياس . حتى ولو خطيء فحول الشعراء العرب، وكيف جعلا من القياس سيفا مصلتا على رقاب الذين لا يسيرون وفق القاعدة التى جعلاها ملزمة .

أبو عمرو بن العلاء : ت ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م

هو ابن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهمة بن خزاعة بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ويقال اسمه زيان ، نشأ بالبصرة ، وأخذ عن ابن أبي إسحاق وكان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها منه ، وكان من القراء الموثوق بهم ، وكان يقرىء الناس القرآن في مسجد البصرة . الحسن بن أبي الحسن البصري إمام أهل البصرة آنذاك . هذا ما نقله الزبيدى (٢) ويقول فيه ابن مجاهد وكان مقدما في عصره عالما بالقراءة ووجوهها . قدوة في العلم باللغة ، أمام الناس في العربية ، وكان مع علمه وفقهه بالعربية متمسكا بالآثار . لا يكاد يخرج اختياره عما جاء عن الأئمة قبله متواضعا في علمه . قرأ على أهل الحجاز ، وسلك في القراءة طريقهم ولم تزل العلماء في زمانه تعرف مكانته ، وتقر له بفضله . وتقبل على القراءة بمذهبه .

وتأتي أهميته القصوي في جمعه للغات العرب وتوفره على جمع الكم الهائل من تلك اللغات فكان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر، وبأيام العرب وأيام الناس . أخذ عن ابن أبي إسحاق " وكان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها من عبد الله ابن أبي إسحاق ، وكان من القراء الموثوق بهم " .

---

(١) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ٢٥
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨

يقول أبو الطيب اللغوي : أن أبا عمرو (كان سيد الناس وأعلمهم بالعربية والشعر ومذاهب العرب) (١)

وكان يقف على مقاييس اللغة وأحكامها ، يتضح ذلك بما رواه أبو الطيب اللغوي قال : (أخبرنا محمد بن يحيى قال : حدثنا المبرد قال : حدثني العباس بن ميمون قال : حدثنا الأصمعي عن سفيان الثوري قال : كنا عند الأعمش وعنده أبو عمرو بن العلاء ، فحدث عن أبي وائل عبد الله : " كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة " ثم قال الأعمش : " يتعاهدنا " فقال أبو عمرو : أن كان يتعاهدنا فيتخوننا أما يتخولنا فيستصلحنا) (٢)

ويقول أبو الطيب : (الأمر على ما قال أبو عمرو ، يقال : تخولت الشيء أتخوله تخولا إذا تعهدته بالإصلاح له ، وقد خال المال يخوله خولا إذا رعاه . والتخون : التعهد في الوقت بعد الوقت ، يقال : تخونه يتخونه تخونا) (٣) .

ولعل إلمام أبي عمرو بالعربية ومعرفة مساربها جعلت أبا الطيب اللغوي يقول : (ولم يوجد على أبي عمرو خطأ في شيء من اللغة إلا في حرف قصر عن معرفته علم من خطأه فيه وروايته) (٤) .

وبلغ أبو عمرو درجات كبرى من الثقة جعلت يونس بن حبيب يقول فيه : (لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد لكان ينبغي لقول أبي عمرو أن يؤخذ كله) ويوضح لنا يونس منهج أبي عمرو وموقفه من لغة العرب فيقول : (وكان أبو عمرو يسلم للعرب ولا يطعن عليها) . وذكر حسين بن فهم قال حدثنا ابن سلام قال : أخبرنا يونس : أن أبا عمرو كان أشد تسليما للعرب وكان ابن أبي إسحاق وعيسي بن عمر يطعنان على العرب) (٥) .

ويقول فيه ابن جني : (كان ممن نظروا في النحو والتصريف وتدربوا أو قاسوا) غير أن أبا عمرو كان يختلف عن الحضرمي وابن عمر في أنه كان يسلم للعرب ولا يطعن عليهم كما أسلفنا ، ويؤكد هذا المنهج ما رواه ابن أبي سعد قال : (قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء أخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال لا . فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات) .

---

(١) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ١٥
(٢) المرجع السابق ص ١٦
(٣) المرجع السابق ص ١٧
(٤) المرجع السابق ص ١٩
(٥) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨

وهكذا كان أبو عمرو أكثر ميلا إلى تغليب الأكثر الأعم من كلام العرب ، غير أنه لم يكن يهمل الشاذ ولا النادر وإنما كان يحفظ ولا يقاس عليه ، قال ابن قتيبة : كانت وفاة أبي عمرو في طريق الشام وذلك أنه خرج إليها يجتدي عبد الوهاب بن إبراهيم فمات سنة أربع وخمسين ومائة . وكان مولده بمكة (١) ، ونشأ بالبصرة وتوفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ.

وقد اختلف منهجه عن منهج سابقيه لأنه عربي يحرص على كل ما أتي عنهم ، وهو بحسه اللغوي وقف على أن الخلاف إنما يعكس صورة صادقة لتعدد منابع اللغة ومصادرها ، ومن ثم أيضا قدم للغة وللغويين عملا مجيدا بجمعه الجم الغفير منها ، وأخلص نفسه لهذا الجمع بما فيه من معاناة وجهد ، وجذب بعمله الجليل الأنظار للظواهر اللغوية ، لأن جمعه كان يمثل نماذج مختلفة من اللغة ، وكان جمعه ركيزة القياس والقاعدة الصلبة التي أقام عليها بنيانه ، وأتاح للقياس بهذا الصنيع قاعدة عريضة متمكنة الأسس والأصول ، فكان عمله أساس القاعدة النحوية وركيزة الأنظار اللغوية والأشباه ، وأتاح للذين جاءوا من بعده إطلاعا واسعا على مسارب اللغة وأساليب العرب في الكلام . ولا يقتصر تقويم عمل أبي عمرو على الكم اللغوي الذي وهب نفسه لجمعه ، وإنما ينسحب كذلك على الدقة الشديدة في جمع لغات العرب بحيث يستطيع الذين يقفون على القياس في النحو العربي أن يقيموا استنتاجهم على مادة لغوية لا يدخلها زيف بقدر ما هي نتاج عمل موثوق به لواحد من القراء بل من أوائلهم .

قال ابن مجاهد : (حدثونا عن وهب بن جرير ، قال : قال لي شعبة تمسك بقراءة أبي عمرو فإنها ستصبر للناس إسنادا) (٢) . **ويضيف ابن مجاهد قوله** : (حدثني محمد بن عيسي بن حيان ، قال : حدثنا نصر بن على قال : قال لي أبي : قال شعبة : أنظر ما يقرأ به أبو عمرو مما يختار لنفسه فإنه سيصير للناس إسنادا . قال نصر ، قلت لأبي كيف تقرأ ؟ قال : على قراءة أبي عمرو) (٣) .

وقال ابن الجزري في ترجمة أبي عمرو بن العلاء تعليقا على هذين الأثرين من رواية ابن مجاهد : قد صح ما قاله شعبة رحمه الله ، فالقراءة التي عليها الناس اليوم بالشام والحجاز واليمن ومصر هي قراءة أبي عمرو ولقد كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر إلى حدود الخمسمائة فتركوها إلى أبي عمرو (٤) .

---

(١) ابن مجاهد : السبع في القراءات . تحقيق د. شوقي ضيف ص ٨٠
(٢) المرجع السابق ص ٨٣
(٣) المرجع السابق ص ٤٨
(٤) ابن مجاهد : السبعة في القراءات ص ٤٨

وأبو عمرو يمثل مرحلة الالتزام في القياس ، لأنه لا يهدر لغة من اللغات ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لمرحلة الجمع المبكرة ، وهى سمة من سمات اللغوي الذي يحرص كل الحرص على كل ما جمع عن العرب ، وهو من ناحية أخرى انعكاس لأسلوبه في القراءة ، يقول ابن مجاهد : وقد كان أبو عمرو بن العلاء وهو إمام أهل عصره في اللغة ، وقد رأس في القراءة والتابعون أحياء ، وقرأ على التابعين : مجاهد وسعيد ابن حبير وعكرمة ويحيى بن يعمر ، وكان لا يقرأ بما لم يتقدمه فيه أحد (١) .

ويصور نفسه بهذا الأسلوب ألالتزامي بما رواه الأصمعي حين قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قرىء به لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا وهو من ثم يستند على السماع أساسا من أسس القياس ، قال ابن مجاهد : (وحدثني عبيد الله بن على ، قال : حدثنا ابن أخي الأصمعي عن عمه ، قال : لأبي عمرو بن العلاء : (هذه هند بنت عبد الله) فيمن (وتركنا عليه) في موضع أيعرف هذا ؟ فقال : ما يعرف إلا أن يسمع من المشايخ الأولين . قال : وقال أبو عمرو : إنما نحن فيمن مضي كبقل في أصول نخل طوال . قال أبو بكر : وفي ذلك أحاديث اقتصرت على هذه منها) (٢).

وكان يعزز قياسه بما عرفه من شعر ، يتضح ذلك مما رواه السيرافي قال : (قال الأصمعي : سألت أبا عمرو عن قوله تبارك وتعالي : " فعززنا بثالث " مثقلة فقال شددنا وأنشد (للمتلمس) :

أجد إذا ضمرت تعزز لحمها وإذا تشد بنسعها لا تنبس (٣)

وقرأ أبو عمرو وحده : أن مشددة النون (هذين) بالياء في قوله تعالي : (إن هذان لساحران) (٤) .

ومن مقاييسه تصغير حباري : حبيرة فيحذف الألف ويبدل منها هاء التأنيث ، لتكون في الاسم علامة تأنيث ، ويطرد القاعدة في كل ما فيه ألف التأنيث خامسة فصاعدا . ويقول لم يجز إثباتها لأنها ساكنة . فإذا حذفتها لم أخل الاسم من علامة تأنيث ثابتة (٥) .

قال المبرد : (من قال في حباري : حبيرة قال في تحقير لغيزي : لغنغزة على مذهب أب عمرو) (٦) .

---

(١) المرجع السابق ص ص ٤٨ ــ ٤٩
(٢) المرجع السابق ص ٤٩
(٣) السيرافي : أخبار النحويين ص ٢٨
(٤) سورة طه ٦٣
(٥) ابن أبي إسحاق : المقتضب جـ٢ ص ٢٦٢
(٦) المرجع السابق جـ٢ ص ٢٦٢

وذهب أبو عمرو إلى أن حذف التنوين جائزا لالتقاء الساكنين في مثل (هذه هند بنت عبد الله) فيمن صرف هندا ، لأنها بمنزلة اسم واحد لالتقاء الساكنين . ويحتج بما جاء في النداء مثل : يا زيد بن عبد الله . وقال : هذا هو بمنزلة قولك : هذا أمرؤ ، ومررت بأمرىء ورأيت أمرأ تكون الراء تابعة للهمزة ، فكذلك آخر الاسم الأول تابع لنون ابن وهو وابن شيء واحد . تقول : هذا زيد بن عبد الله ، ومررت بزيد بن عبد الله ورأيت زيدا بن عبد الله (١) .

وأنشد ابن العلاء : وكأنها تفاحة مطيوبة على الأصل . " قال أبو عثمان وسمعت الأصمعي يقول أبا عمرو بن العلاء يقول سمعت في شعر العرب .... (٢). وأنشد الشطر السابق . وقرأ أبو عمرو (بتؤثرون) (٣) فأدعم وقرأ (هثوب الكفار) (٤) .

ويقول المبرد : (أما قراءة أبي عمرو " هثوب الكفار ما كانوا يفعلون) فإن التبيين أحسن مما قرأ ، لأن الثاء لا تقرب من اللام كقرب التاء وأختيها وكذلك التاء في قراءته (بتؤثرون الحياة الدنيا) (٥) .

يونس بن حبيب ت ١٨٢ هـ /٧٩٨ م

هو أبو عبد الرحمن الضبي ، ولد سنة ٩٤ هـ ، ويقول أبو الطيب اللغوي أنه أخذ النحو عن أبي عمرو، وكان شديد الاختصاص بروية بن العجاج . واشتغل يونس بجمع اللغة والنوادر والأمثال ، وقد سمع منه الكسائي والفراء ، وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الإعراب .

وجاء يونس بن حبيب بعد أبي عمرو بن العلاء الذي أخذ عنه . يقول السيرافي : أما يونس بن حبيب فإنه بارع في النحو من كتاب أبي عمرو بن العلاء ، وقد سمع من قبله ، وقد روي عنه سيبويه ، وأكثر ، وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها (٦)

سلك يونس مسلك أبي عمرو في القياس وسار على منهجه ، وكانت له مذاهب وأقيسة تفرد بها ، وكان وكده وكد المؤسسين للمذهب البصري في أنه رحل إلى البادية وسمع عن العرب في مواطنهم ، وذكرت له خلافات مع الخليل تمثل وجهة نظره في مقاييس العربية . وليونس آراء متناثرة في كتاب سيبويه ، ويعد معلما من معالم الكتاب . يقول الزبيدى : (لما مات سيبويه قيل ليونس أن سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة في علم الخليل ، فقال يونس ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله . جيئوني بكتابه ، فلما نظر في كتابه ورأي ما حكي قال يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه ، كما صدق فيما حكي عني) (٧)

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٤
(٢) ابن جني : المنصف شرح تصريف المازني جـ١ ص ٢٨٦
(٣) سورة الأعلى ١٦
(٤) المطففون ٣٦
(٥) ابن أبي إسحاق : المقتضب جـ١ ص ٢٥٢
(٦) سيبويه : الكتاب جـ١ ص ١٢٠
(٧) المرجع السابق ص ١٢١

ومن نماذج قياسه ما رواه ابن سلام قال : (قال يونس تقول العرب : طس وطست فمن قال طس قال طساس ومن قال طست قال طسات) .

ويعد يونس بن حبيب دعامة أساسية من دعامات الكتاب ، فقد روي سيبويه عنه كثيرا وتظهر آراؤه في الكتاب واضحة في مسائل كثيرة ويسوق صاحب الكتاب آراء يونس كشفا لقياس يدعم رأيه أو دركا لندرة في الاستعمال أو الشذوذ . (١)

وكان يونس يمثل صورة الغريب في الكتاب ، ويبدو أنه دعم آراءه بكثير مما قال رؤبة : ويقول أبو الطيب اللغوي : كان شديد الاختصاص بروية ابن العجاج (٢)

ومن المقاييس التى ذهب إليها يونس أنك إذا سميت رجلا باسم مؤنث جمعته جمع تأنيث على أساس الأصل في جمع المؤنث وليس على أساس الأصل في أن الرجل مذكر ، فتقول في طلحة طلحات . يقول سيبويه في باب جمع الاسم الذي في آخره هاء التأنيث : زعم يونس أنك إذا سميت رجلا طلحة أو امرأة أو سلمة أو جبلة ، ثم أردت أن تجمع جمعته بالتاء ، كما كنت جامعه قبل أن يكون اسما لرجل أو امرأة على الأصل . إلا تراهم وصفوا المذكر بالمؤنث ، قالوا رجل ربعة وجمعوها بالتاء : فقالوا ربعات ولم يقولوا : ربعون . وقالوا : طلحة الطلحات ولم يقولوا : طلحة الطلحين . فهذا يجمع الأصل لا يتغير عن ذلك ، كما أنه إذا صار وصفا للمذكر لم تذهب الهاء (٣) .

ودعم يونس القياس بما نقله عن أبي عمرو بن العلاء من لغات من ذلك ما جاء في باب ما شبه من الأماكن المختصة بالمكان غير المختص شبهت به إذا كانت تقع على الأماكن ويبدو أنه أقام قياسه على قاعدة صلبة من معرفة لغة العرب ، قال يونس : تقول العرب : الآل من غدوة إلى ارتفاع الضحى الأعلى ثم هو سراب سائر اليوم وإذا زالت الشمس فهو فيء وغدوة وظل وأنشد لأبي ذؤيب :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل (٤)

ويعزو صاحب الفهرست ولعه بلغات العرب بأن له من الكتب ، كتاب اللغات وكتاب النوادر الكبير وكتاب الأمثال وكتاب النوادر الصغير (٥) .

ويقول أبو الطيب : (حدثنا عبد القدوس بن أحمد قال : حدثنا المبرد قال سمعت أبا عثمان بن بحر الجاحظ يقول : مات يونس بن حبيب سنة اثنين وثمانين ومائة . وهو ابن ثمان وثمانين سنة . (٦)

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١
(٢) المرجع السابق ص ٤١٦
(٣) المرجع السابق جـ٣ ص ٣٩٤
(٤) السيرافي : أخبار النحويين ص ٢٦
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٤٢
(٦) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٢٨

الخليل بن أحمد الفراهيدي
(١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) (٧١٨ ـ ٧٩١ م)

وإذا حاولنا أن نلقي الضوء على تلك الشخصية نجد أن الخليل بن أحمد قد ولد بالبصرة وشب على حب العلم وتخرج من البصرة . كما تخرج عدد كبير من أعلام الفكر الإسلامي درس الفقه واللغة على أبي أيوب السجستاني ، ورأي الفروق في صباه ، كما تلقي العلم على " عاصم الأحول و " العوام بن هوشب " . وعن أبي عمرو بن العلاء وعيسي ابن محمد الثقفي وغيرهم . ثم ساح في بوادي الجزيرة العربية وشافه الأعراب في الحجاز ونجد وتهامة إلى أن ملأ جعبته ، ثم رجع إلى مسقط رأسه البصرة . واعتكف في داره دائبا على العلم ليله ونهاره ، هائما بلذاته الروحية ، فنبغ في العربية ، وبلغ الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو.

وقد ذهب في شبابه إلى بلاد الروم مجاهدا للدفاع عن ثغور الإسلام ، و أحب علماء العربية والنحو ، وأمضي ثلاث سنوات يجلس إليهم فيسمع منهم ، ولا يشترك في الجدل والمناظرة ، وعاصر شيخ العربية " أبا عمرو بن العلاء " وحضر مجلسه . وكان قد مضي على أبي عمرو أكثر من خمسين سنة يدرس اللغة ، وقد أغراه بعض أصحابه أن يجادله ، وينتصر عليه ، فيتحدث عنه الناس ويرتفع اسمه ، ولكنه رفض ذلك وآثر أن يظل منه بمنزلة التلميذ مهما بلغ به العلم ، وكان الخليل محبا للوحدة ، راغبا في الصحراء ، يخرج من المدينة إليها ، حيث ينفرد بنفسه ويدبر في عقله أفكارا ومعاني كانت مقدمات لاكتشافه قواعد النحو وضوابطه . ذلك أنه بدأ يضع قواعد جديدة فيه لم يكتشفها أصحاب العربية ، ولم يلبث أن انقطع عن الناس كلية يخرج في الصباح إلى الصحراء ، فلا يعود إلا في الغسق يسير على غير هدي ، وهو في خلال ذلك يدون شيئا في صحيفة معه . (١)

ولم تلبث كثرة التفكير أن تكشف عن شيء واضح وصفه في قوله " إن أبا الأسود الدؤلي ضبط حركات الحروف مع فتح وضم وسكون بوضع نقاط بأعلى الحروف أو أسفل منها ، أو عن يمينها أو شمالها ، وقد اختلطت النقاط المميزة للحروف بالنقاط المميزة للكلمات . يقول الخليل " وقد أردت أن أسهل على الناس بأن أوجد ما يضبط به الناس الكلمات دون أن يضطرموا من كثرة النقاط واستعمالها والأمر الذي خطر في بالي هو أن أرسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذي يقابل حركته ، فإن كانت حركة الفتح وضعنا ألفا صغيرة .. وإن كانت الكسرة وضعنا ياء صغيرة ، وقد كان صدي هذه الطريقة الجديدة التى أبدعها الخليل غريبا حيث قالوا إنها بدعة وخروج عما ألف الناس ، كما كانت عادة الناس في مثل هذه الأزمان عندما كانت تستقبل جديدا ! . (٢)

---

(١) ابن النديم : الفهرست طبعة فلوجل ص ٤٤ وأيضا شوقي ضيف : المدارس النحوية دار المعارف ١٩٦٨ ص ٤٦

(٢) سعيد الأفغاني : في أصول النحو . ط ٣ . جامعة دمشق ١٩٦٤ ص ٨٤ وأيضا أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ٢ ص ٢٧٨

وقد دافع الخليل عن طريقته حتى أقنع الكثير من مخالفيه ، وكانوا قد خافوا على نص القرآن أن يغير بهذه البدعة .

الخليل واضع فن الموسيقي العربية وواضع علم العروض

ومضت فترة من الزمن فإذا الخليل يخرج على الناس بشيء جديد . وذلك إنه كان يسير في السوق فسمع أصوات المطارق على الطسوت ، هناك اكتشف سر الموسيقي وأصلها ، ولم يقف عند هذا ، بل قاده ذلك إلى وضع أصول علم العروض .

قال الخليل . أن هناك ثلاث فقرات :
الأولي – دقة وسكون " تن " الثانية – دقتان وسكون " تتن " الثالثة – ث٣لاث دقات وسكون "تتتن " وقال : أن هذه النقرات إذا تتابعت وتداخلت كونت الموسيقي ، وأن اختلاف تداخلها وتتابعها هو الذي يولد اختلاف النغمات . واتصل الخليل بأهل الغناء وأستاذهم " أبو رافع " ومضي يعيش في ألحانهم ويغشي مجالسهم ومعه لوح يكتب فيه رموزا لا يفهمها أحد سواه .

ولم يلبث أن قال كلمته الخالدة : " السكون في الشعر هو السكون في الموسيقي " . وقد أداه ذلك إلى أن يصل " **العروض** " فقد كان الشعر العربي قبله لا ضابط له ، فمضي يحصر أصول الأنغام والتواقيع موقنا بأنه يستطيع وضع مقاييس الشعر . وكان في خلال تأملاته تلك يعكف في منزله على بئر ، وقيل أن من يدخل عليه في داره لا يري منه إلا قامته ... أما رأسه فقد أخفاه في فوهة البئر ، ويسمعونه يخرج أقوالا لا معني لها يكررها ، ويقتربون منه ، فيرون رأسه وقد تدلي في البئر منفوش الشعر . ولما سئل في ذلك ، قال : أن مقاطع الشعر تظهر واضحة في الصدى الذي يحدثه البئر ، وانتقل بعد ذلك إلى مرحلة أخرى في عمله هذا ، حيث رجع إلى أشعار العرب ، فأخذ يقطعها معتبرا الحرف الساكن آخر المقطع وقابل بين المقاطع ، وانتهي من ذلك بوضع أصول الشعر والنظم . ولما أتم بحثه قصد المسجد الجامع وعرضه على الناس عليه لتعلمه فوقف نفسه على إفهامه للناس . وقد قال الخليل في ذلك : " أن العرب استخدموا التفاعيل الثمانية خمسة عشرة بحرا مع أنها تعطي أكثر من ذلك حين تجمع وتركب . ومضي الخليل بركب بحورا جديدة ويخرج بها شعرا من أوزان جديدة .(١)

---

(١) حسين نصار : المعجم العربي . نشأته وتطوره دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٥ هـ جـ ١ ص ٢٣٣ وأيضا محمد كامل حسين : النحو المعقول . مطبعة جامعة أسيوط ١٩٧٢ ص ٢٢ وما بعدها

ومن أبرز الأمور التى تحسب للفراهيدي تفتق ذهنه واستنباطه علم العروض الذي استخرج منه خمسة عشر بحرا وزاد عليها الأخفش (١) بحرا سماه الخبب ، وعلى أثر ذلك استطاع ضبط أوزان هذه البحور ووزنها على المقاطع والحركات ، مستعينا بالموسيقي الذي ألف كتابا فيها على غير معرفة بلغة أجنبية ، ومن أطرف ما روي عنه إنه كان يقضي الساعات الطوال ذاهلا عن نفسه ، يرفع أصابعه ويحركها لضبط هذه الأوزان وتنسيقها ، وكان له ابن متخلف عقليا ، فدخل عليه وهو في هذه الحال فظنه جن ، فخاطبه الخليل بقوله : (١)

" لو كنت تعلم ما أقول عذرتني   أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني   وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

تدوين معجم العين :

إن الخليل بن أحمد بذهنه المتأهب والمبدع ابتكر طريقة تدوين أول قاموس عربي لضبط اللغة وحصرها ، فجمع ما كان معروفا في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها ، ورتب حروف الهجاء حسب مخارجها على النسق التالي : الأحرف الحلقية وهى : ع ح هـ خ غ ، وحرفا اللهاة (وهى اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم) وهما : ق ، ك والأحرف الشجرية وهى : ج ، ش ، ض وسميت بشجرية لخروجها من الشجر أي مخرج الفم . وأحرف الصفير وهى : ز ، س ، ص ، والصفير صوت يخرج من الشفتين . والأحرف النطعية : ت ، د ، ط لخروجها من النطع (أي موقع اللسان من الحنك) وذلك من بين طرف اللسان وبين أصول الثنايا العليا مصعدا إلى الحنك ، والأحرف اللثوية (الصادرة من اللثة) وهى ظ ، ذ ، ث ، والأحرف الذولقية وهى : ر ، ل ، ن وسميت كذلك لخروجها من ذلق اللسان أي طرفه ، والأحرف الشفهية وهى : ف ، ب ، م ، وأخيرا أحرف العلة الثلاثة مضيفا إليها الهمزة ، فاستقام له الترتيب التالي : ع ، ح ، هـ خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ز ، س ، ص ، ت ، د ، ط ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، أ ، و ، ى ، أما ترتيب الحروف على المخارج فلم يعرف في اليونانية ولا السريانية ولا اللغات التى عرفها الشرق الأدنى قبل الإسلام ، إلا أن دائرة المعارف الإسلامية اكتشفت له أصلا في اللغة السنسكريتية ، فهذه اللغة الهندية القديمة كانت ترتيب حروفها على هذا النظام ، ابتداء من أقصى الحروف مخرجا إلى أدناها .وقد اتصل المسلمون بالهنود في الفتوح ، بل اتصل بهم عرب الجاهلية منذ زمن بعيد ، كما جاء الكثيرون منهم إلى العراق وعاشوا فيه ، فقيل إن الخليل الذي كان مقيما بالبصرة عرف منهم النظام ، أي الابتداء بأحرف الحلق والانتهاء بالأحرف الشفوية ، فاتبعه في معجم " العين " واتخذه أساسا له في ترتيب معجمه الجديد ، وسمي كل حرف من هذه الحروف كتابا ، فبدأ المعجم بكتاب العين ، فكتاب الهاء الخ ، ونظرا لاشتهاره باسم كتاب " العين " شمل هذا الاسم القاموس كله بأجزائه المختلفة (٢) ،

---

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية . ص ٢٠ – ٣١
(٢) المرجع السابق ص ٣٢

وفي رواية للأزهري في معجمه " التهذيب " نقلا عن الليث بن المظفر ويقال أنه متمم كتاب " العين " بعد الخليل " لما أراد الخليل الابتداء في كتاب " العين " أعمل فكرة فيه ، فلم يمكنه أن يبتديء من أول أ ب ت ث الخ لأن الألف حرف معتل ، فلما فاته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولا وهو الباء ، فتدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها ، فوجد مخرج الكلام كله من الحلق ، وكان إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بألف أي الحرف الطبيعي في النطق ، ثم أظهر الحرف الذي يريد ذوقه نحو أ ت أ ح أ ع ، فوجد العين أقصاها في الحلق وأدخلها ، فجعل أول الكتاب العين " . ويقع معجم العين في نحو ٢٥٠٠ صفحة ولم يصل إلينا كله . (١)

المعجم لم يخل من مآخذ :

افتتح الخليل عصر المعاجم في القرن الثاني للهجرة بوضعه " كتاب العين " فكان أول معجم عربي ظهر إلى حيز الوجود ، فاعتمده العلماء واللغويون ، ونسج على منواله أكبر أساطين اللغة وأشهر الموسوعيين ، إلا أن المعجم لم يخل من مآخذ ، لأن مؤلفه توفي قبل أن يتم تأليفه ، فأكمله تلميذاه النحويان من أهل البصرة النضر بن شميل ومؤرخ السدوسي وغيرهما . وقد أجمع النقاد والباحثون المعاصرون له والذين أتوا بعده على أن معظم هذه المآخذ مرده التصحيف ، وأشار إلى ذلك أبو العباس ثعلب (٨١٥ – ٩٠٤ م) بقوله : " إنما وقع الغلط في كتاب " العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه " . وعلل الأستاذ أحمد أمين في كتابه " ضحي الإسلام " بأن الكتابة في ذلك العصر لم تكن تنقط ، وحروف اللغة العربية متقاربة في الشكل ، فبين الفاء في الوسط والعين تقارب ، وكذلك بين التاء والنون فأوقع هذه اللغة ومعاجمها في كثير من اللبس . وقد وقع أيضا في أخطاء صرفية اشتقاقية كذكر لفظ مزيد في مادة أصلية ، أو مادة ثلاثية في مادة رباعية ، كما أنه أهمل أبنية مستعملة في اللغة باعتبار إنه لم يسمع عنها شيئا ، وقد تأثرت بهذه الأخطاء بعض المعاجم التى وضعت بعده كمعجم " البارع " للقالي و " التهذيب " للأزهري وغيرهما ، وليس من المستغرب وقوع مثل هذه الأخطاء لأن الخليل أول من جمع في اللغة معجما فضلا عن أن التحقيق العلمي في عهده لم يكن له أثر .

وقد تناول عدد من العرب القدامى والمحدثين وبعض المستشرقين معجم " العين " بالدراسة ، ووصف جلال الدين السيوطي (١٤٤٥ – ١٥٠٥ م) القواميس منذ صدور " العين " حتى " القاموس المحيط " للفيروز أبادي ، وأشار إشارة مختصرة إلى كل قاموس إلا قاموس " العين " فإنه عني بوصفه وشرحه عناية كبيرة ، وعدد الأخطاء التى أرتكبها مؤلفه وخاصة الأخطاء المتعلقة بالتصحيف ، وقد نشر المستشرق الألماني براونتج (١٨٩٢ – ١٩٤٢) عام ١٩٢٦ مقالا مستفيضا في المجلد الثاني من مجلة " اسلاميكا " عن كتاب " العين " تناول فيه حياة الخليل وثقافته وقضية النحو والعروض والموسيقي ، مبديا تقديره لما اشتملت عليه مقدمة القاموس من آراء لغوية ونحوية ، وكذلك تناول المستشرق الإنجليزي كونكوف (١٨٧٢ – ١٩٥٣) المعاجم العربية بالبحث ، وخاصة معجم " العين " وقد نشر أبحاثه في المجلة الشرقية النمسوية عام ١٩٣٢ وقد حظي هذا المعجم باهتمام

العلامة انستاس الكرملي ، فنشر عام ١٩١٤ جزءا منه بلغ عدد صفحاته ١٤٤ صفحة . (١)

ونظرا لأهمية هذا الكتاب وثروته اللغوية التي لا ينضب لها معين ، اختصره اثنان : أولهما أبو الحسن بن القاسم السنجابي وأشار إلى ذلك على الباخرزي مشيدا بمختصره : " هو صاحب كتاب " العين " ومحله من الأدب محل العين من الإنسان ، ومحل الإنسان من العين ، وقد سهل طريق اللغة على طالبيها ، وأدني قطوفها من متناوليها باختصار كتاب " العين " ولا تكاد تري جحور المتأدبين منه خالية " . أما المختصر الثاني وهو أشهرهما فقد اختصره أبو بكر محمد بن حسن الزبيدى (٩٢٦ ـ ٩٨٩ م) وهو من علماء النحو واللغة . وأشار إلى الأسباب التى دعته إلى اختصار " العين " ثم قال " أمر أمير الحكم المستنصر بالله بأن : " تؤخذ عيونه ، ويلخص لفظه ، ويحذف حشوه ، لتقرب بذلك فائدته ، ويسهل لفظه " .

فكرة المعجم الأساسية :

وكان للخليل بن أحمد الفضل في اكتشاف فكرة المعجم حين ألف أول معجم " كتاب اللغة وحصرها ، فقد رأي أن اللغة العربية تتألف من تسعة وعشرين حرفا لا يخرج عنها أية كلمة ولا أي حرف منها ، ووصل إلى اليقين . من أن الكلمات العربية تنحصر بين الثنائي والخماسي ، فلا تقل ولا تزيد إلا بحروف زوائد لا دخل لها في المعني الأصيل . واستطاع من خلال الحروف التسعة والعشرين وفيما بين الثنائي والخماسي في الكلمات أن يحصر اللغة بتتبع دوران كل حرف من كل بناء من هذه الأبنية . وقد قام الخليل بترتيب الحروف أولا ، وابتكر نظاما جديدا قائما على الأصوات فالأصوات اللغوية أصوات شبيهة بأنغام الآلات الموسيقية ، فأقام دراسته حول الأصوات اللغوية أو الحروف ، ثم رتب الأبنية فيما بين الثنائي والخماسي ، وجعل هذه الأبنية أساس تقسيم الكتب إلى أبواب وكانت فكرة الخليل عامة ترمي إلى حصر اللغة جميعا ، واستيعاب كلام العرب الواضح والغريب ، بينما كانت فكرة المعاجم في اللغات الأخرى خاصة ترمي إلى حصر موضوع معين .

الخليل مبتكر فكرة " تدوين المعاجم "

وقد شهد المؤرخون للخليل بأنه ابتكر طريقة " تدوين المعاجم " وأنه صاحب الشكل المستعمل منها إلى الآن : فقال : (حمزة بن الحسن الأصفهاني) : أن دول الإسلام لم تخرج أبدع العلوم التى لم يكن لها عند العرب أصول إلا بالخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لم يسبقه إليه أحد .

---

(١) انستاس الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها . المطبعة العصرية ١٩٣٨ ص ١١٣

وقد عاني الخليل في ذلك العمل . فقد شافه الأعراب في البادية ، فأحاط من ذلك بما لم يحط به أحد ، وقد انبعث لهذا العمل من تحد خطير وواضح ، فقد رأي أن العرب قد ضعفت فيهم السليقة العربية ، بعد أن تعاملت الألسنة ، وفشا اللحن وأخذت المقاييس غير العربية تسيطر . فكان من ذلك عمله في اللغة ، ثم عمله في الشعر ، أما في اللغة فقد وضع كتاب العين ، وفي الشعر جمع شعر العرب من كل فج ، ورتبه ترتيبا عجيبا ، وجعله طوائف ، وأرجع كل طائفة إلى الأصل ، ووضع لكل أصل تفصيلات تعرف بها وتتميز ، وقد بلغت هذه الأصول خمسة عشرة أصلا ،سماها بحورا ، وجعل لكل بحر اسما يقاس به . فلما أظهر ذلك للناس دهشوا له وعجبوا . (١)

الخليل وضع للغة مقاييسها وللشعر مقاييسه :

وكان الخليل هو أول من علل أسباب النحو وأدخل فيه القياس ، ولم يكن قبل ذلك علما له أصول وقواعد ، ما عدا جملا قصيرة وضعها أبو الأسود الدؤلي ومن خلال هذه الأعمال حفظ لغة القرآن من الاضطراب ، ووضع للغوي مقاييسه وللشاعر مقاييسه . وقد امتد هذا العمل بتلاميذه واتسع نطاقه ، فأكمل النضر بن شميل كتاب العين ومضي سيبويه في إتمام عمله في النحو . وإذا تناولنا الوجه الآخر لشخصية الخليل نجد أن حياته لم تكن صفوا ... كان رقيق الحال يملأ نفسه ورع عجيب ، فهو لا يقبل العطاء ، ولا يريد أن يكون خادما للملوك والأمراء حتى قالوا : " أنه أقام في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين " وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال ، وآية خلقه أنه كان يستمع في حلقات العلم دون أن يشارك في الجدل . كان الخليل بن أحمد شديد الورع ، وعاش زاهدا فقيرا ، وكان سليمان بن حبيب يدفع والى فارس والأهواز في ذلك الحين يدفع له راتبا معينا ، فبعث إليه برسول يستدعيه إليه لتعليم ابنه ، فرفض ذلك ، ثم قدم إليه خبزا يابسا وقال له كل فما عندي سواه ، وما دمت أجده فلا حاجة إلى سليمان " فقال الرسول فما أبلغه فقال :

ابلغ سليمان أني عنه في سعه — وفي غني غير أني لست ذا مال
شحا بنفسي أني لا أري أحدا — يموت هزلا ولا يبقي على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه — ولا يزيدك فيه حول محتال

فقطع عنه سليمان الراتب ، فقال الخليل :

إن الذي شق فمي ضامن — للرزق حتي يتوفاني
حرمتني خيرا قليلا فما — زادك في مالك حرماني

فبلغ ذلك سليمان ، فاضطربت نفسه ، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه ، فانشد الخليل :

وزلة يكثر الشيطان إن ذكرت منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

وذكر ابن خلكان في كتابه " وفيات الأعيان " أن الخليل اجتمع وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان حتى الفجر ، فلما افترقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله . وقيل لأبن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال رأيت رجلا عقله أكثر من علمه. (١)

ومن دلائل توقد ذهن الخليل وفنون ابتكاره أنه زاد في الشطرنج قطعة سماها جملا استعملها الناس زمنا ، واخترع نوعا من الحساب تمضي به الجارية إلى البائع ، فلا يمكنه أن يظلمها ، ويقال أن الخليل كثيرا ما كان ينشد بيتا للأخطل وهو :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

وللخليل كتب أخرى هي : **" معاني الحروف " و " وجملة آلات العرب " و " تفسير حروف اللغة " و " كتاب العروض " و " النقط والشكل "** . وقد ألف كتابا في الموسيقي على غير معرفة بلغة أجنبية سماه **" النغم "** يقول سفيان الثوري : من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ولقد رحل الخليل في أيامه الأخيرة من البصرة إلى خراسان تلبية لدعوة تلميذه الليث بن المظفر أمير خراسان ، وقد ودعه أثناء رحيله ثلاثة آلاف رجل ساروا معه حتى بلغوا " المربد " ، فاستوقفهم وخطب فيهم بما يشبه الاعتذار عن رحيله : " كانت هذه أيام سد فيها باب المعاش على وتضرر الأهل والولد ، وكثر اللوم فلم يثني عن عزمي إلا دعوة رجل صالح عالم فقد أراد أن يوفر لي الراحة في الشيخوخة بأجر أتقاضاه على علمي ، فيسهل العيش على الأهل " . ثم لم يلبث الخليل أن هتف به هاتف الحج ، فسافر إلى مكة ، وقصد منها إلى البصرة التى استقبلته مكرمة إياه حيث أقام بقية حياته .

وفي هذه الفترة التقى بتلميذه " سيبويه " الذي كان يكتب كل ما يقال ، والذي كثر تردده على مجالس الخليل حتى أحبه ، قال له عبارته الخالدة : " مرحبا بزائر لا يمل " .

ثم جاء ختام حياته منسقا مع طبيعته العامة الحاذقة المندفعة إلى البحث وإلى تجميع الأصول ، ذلك أنه رأي الجارية تخاصم البائع وهى تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها فاستخدم الحساب الذي ابتدعه لكي تمضي به الجارية إلى البائع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهو يعمل فكرة في ذلك ، فاصطدم رأسه بالسارية الضخمة فوقع وأحدث صوتا شديدا وانقلب على ظهره وتدحرج إلى الأرض مضرجا بالدماء . وكانت هذه نهاية الرأس المفكر الذي أخرج للناس علما وفكرا سيظل أثره باقيا ما بقيت العربية . فلما أجتمع حوله قال لهم عباراته الأخيرة .

" لا تبكوا ، فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسي منه .... وما علمت أني كذبت متعمدا قط ، وأرجو أن يغفر لي التأول " وقد توفي عام ١٧٥ هـ ٧٩١ م ، بعد أن عاش حياة خصبة عريضة ، هكذا نبغ هذا الموسوعي العربي الأول في علوم العربية ، وإذ كان أول من وضع الشكل الآن في ضبط الحروف . وكان سيد أهل الأدب في تصحيح القياس واستخراج النحو وتعليله ، فكان هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو المعروف باسم سيبويه الذي اعترف في أكثر فصول كتابه بأنه تلقاه عنه وتعلمه عليه .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ١٩٤٩ ص ٣٨

سيبويه
أرجح الأقوال أنه توفي ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م

ولد سيبويه بالبيضاء ، وهى أكبر مدينة في كورة إصطخر بفارس ، ويقال : إن مولده ومسقط رأسه كان بالأهواز . ثم هاجر أهله إلى البصرة فنشأ بها ، وكانت الهجرة إلى الحواضر الإسلامية متواصلة في ذلك الزمان إلى مدن العراق الثلاث : البصرة والكوفة وبغداد . فكان اختيار أسرته للبصرة يحلون بها ، ويحيا الفتى في أرجائها ، يطلب العلم بكل درجات الاجتهاد ، فيبني لنفسه مجدا علميا خالدا .

وبدأ سيبويه يطلب العلم بها ، فكان الحديث والفقه من أول ما يدرس العلماء ، فأعجبه ذلك ، وصحب الفقهاء وأهل الحديث ، وكان يستملي الحديث على حماد بن سلمة بن دينار البصري ، قال القفطي : " وكان شديد الأخذ " فبينما هو يستملي قول النبي ﷺ: " ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء " فقال سيبويه : " ليس أبو الدرداء " وظنه اسم ليس . فقال حماد : لحنت يا سيبويه ليس هذا حيث ذهبت ، وإنما ليس ها هنا استثناء فقال لا جرم ، سأطلب علما لا تلحنني فيه . فلزم الخليل فبرع (١)

وفي رواية مجالس العلماء للزجاجي أنه لزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين . وخبر آخر يرويه حماد بن سلمه ، أنه جاء إليه سيبويه مع قوم يكتبون شيئا من الحديث ، قال حماد : فكان فيما أمليت ذكر الصفا ، فقلت : " صعد رسول الله ﷺ الصفا " ، وكان هو الذي يستمل ، فقال " صعد النبي ﷺ الصفاء " فقلت : يا فارسي لا تقل الصفاء ، لأن الصفا مقصور . فلما فرغ من مجلسه كسر القلم وقال : " لا أكتب شيئا حتى أحكم العربية (٢)

ولعل هاتين الحادثتين المثيرتين هى التى وجهت سيبويه إلى العناية بتعلم النحو ونحو ذلك ما حفز من بعده عثمان بن جني حينما كان يقرأ النحو بجامع الموصل ، فمر به أبو على الفارسي فسأله في التصريف فقصر فيها ، فقال له أبو على : " زببت قبل أن تحصرم ! " فلزمه من يومئذ مدة أربعين سنة ، واعتني بالتصريف إلى أن تصدر مكان الفارسي فيه ببغداد (٣)

شيوخ سيبويه :

مع ملازمة بسيبويه للخليل إلا أنه كان يذهب إلى كبار الشيوخ والأئمة يستكمل علمه منهم . وألمع شيوخه :

---

(١) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٧٣ ص ٣٥٠ وأيضا السيرافي : أخبار النحويين ص ٤٣ والزجاجي : مجالس العلماء ص ١٥٤
(٢) المرجع السابق ص ١٥٤
(٣) السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٢٢

١ـ حماد بن سلمة بن دينار البصري ، أول من أخذ عنه العلم ، روي عن كثير من التابعين وكان مفتي البصرة ، ومن الأتقياء الصالحين المحابي الدعوة ، لم يكن بالبصرة قرين له في الفضل والدين والنسك ، والقمع لأهل البدع . تزوج كثيرا من النساء فلم يولد له طفل ، وقد روي له مسلم والأربعة . وكان عالما بالنحو ، ذكره الزبيدي في الطبقة الخامسة من النحاة مع الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب ، وهو أستاذ يونس . قال يونس بن حبيب : أول من تعلمت منه النحو حماد بن سلمه (١)

وحماد هو الذي دفع بسيبويه إتقان النحو بسبب تخطئته إياه في بعض المسائل النحوية واللغوية ، فكان بذلك ممن اشترك في صنع سيبويه النحوي . وتوفى حماد سنة ١٦٧ . فقال يحيى بن المبارك اليزيدي (٢)

يا طالب النحو ألا فابكه بعد أبي عمرو وحماد

٢ـ **الأخفش الأكبر** ، عبد الحميد بن عبد المجيد ، أبو الخطاب ، وهو شيخ يونس : وكان تقيا ورعا ، من أئمة اللغة والنحو . وله ألفاظ لغوية انفرد بها ينقلها عن العرب . وكان قد لقي الأعراب وأخذ عنهم وعن أبي عمرو بن العلاء وطبقته . وأخذ عنه سيبويه اللغة وشيئا من النحو . وروي عنه في كتابه نحو ٤٧ مرة ، ولم تعرف سنة وفاته إلا ما ذكر أنه كان إماما في العربية قديما (٣) .

٣ـ **يعقوب بن إسحاق الحضرمي** البصري القاريء ، وكان أعلم الناس في زمانه بالقراءات والعربية ، وله قراءة مشهورة هى احدي القراءات العشر . وبلغ من جاهه بالبصرة أنه كان يحبس ويطلق . توفى سنة ٢٠٥ عن ٨٨ سنة (٤) .

٤ـ **عيسي بن عمر الثقفي البصري** ، أبو سليمان ، مولي خالد بن الوليد ، نزل في ثقيف فنسب إليهم . أخذ عن عبد الله بن أبي إسحاق مولي آل الحضرمي الذي قيل إنه درس النحو ومد القياس وشرح العلل وكان ابن أبي إسحاق هذا وعيسي بن عمر يطعنان على العرب وكان لهما فضلهما الذي لا ينكر في العناية والحفاظ على لغة القرآن ونحو القرآن . (٥)

ويذكرون أن له كتابين في النحو . قال السيرافي : " ولم يقعا إلينا ولا رأينا أحدا ذكر أنه رآهما " . وهذان هما : " الجامع " و " الإكمال " ، وفيهما يقول الخليل ،

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسي بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

كما يذكرون أنه له مصنفات كثيرة ذهبت كلها . وذكر صاحب الفهرست أنه كان ضريرا . وهو أحد قراء البصريين . ومما يذكر أن في قراء الكوفة عيسي بن عمر آخر ، وهو همداني . وقد روي سيبويه عنه ٢٢ مرة وتوفى سنة ١٤٩ قبل أبي عمرو ابن العلاء بخمس سنين أو ست (٦)

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٤٨
(٢) السيرافي : أخبار النحويين ص ص ٤٢ ــ ٤٤
(٣) إحصاء هذه الروايات قام به الأستاذ على النجدي في كتابه " سيبويه " إمام النحاة
(٤) السيوطي : بغية الوعاة ص ٤١٨
(٥) الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣
(٦) السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٧٠

٥. أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي ، ، كان من بلدة بين النعمانية وواسط . أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعن حماد بن سلمة . وسمع من العرب أيضا . وممن تلمذ له أيضا الكسائي والفراء وأبو عبيدة . قال أبو حاتم : سمعت أبا عبيدة يقول : اختلفت إلى يونس أربعين سنة املأ كل يوم ألواحي من حفظه . " وكانت له مذاهب وأقيسة تفرد بها ، وكانت حلقته بالبصرة مليئة بطلبة العربية وفصحاء الأعراب والبادية " (١)

وقد أكثر سيبويه من النقل عنه في كتابه ، وقد بلغ نقله عنه نحو ٢٠٠ رواية ، فكان ثاني العلماء الذين أكثر سيبويه من النقل عنهم . **وله من الكتب :** كتاب معاني القرآن ، كتاب اللغات ، كتاب النوادر الكبير ، كتاب النوادر الصغير ، كتاب الأمثال (٢)

٦. الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري ،ويذكرون أن أباه أول من سمي بأحمد بعد النبي ﷺ. قال السيرافي : كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه . وليس الخليل بحاجة إلى الترجمة. وهو الأستاذ الأكبر لسيبويه ، وعامة الحكاية في كتابه عنه ، وكلما قال سيبويه : " وسألته " أو " قال " من غير أن يذكر القائل ، فهو الخليل ، كما نص السيرافي والخليل من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء وكان عفيف النفس .

وقد لزمه سيبويه يأخذ عنه اللغة والنحو ، فبرز مع ثلاثة آخرين هم النضر ابن شميل ، وعلى بن نصر الجهضمي ، ومؤرج السدوسي ، فكان سيبويه أبرعهم في النحو ، وغلب على النضر اللغة ، وعلى مؤرج الشعر واللغة ، وعلى على ابن نصر الحديث . وكان الخليل يفسح له صدره ويري فيه الطالب الذي لا يضن عليه ، وكان يحبه حبا . قال ابن النطاح : كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل : " مرحبا بزائر لا يمل ! " . قال أبو عمرو المخزومي : ما سمعت الخليل يقولها إلا لسيبويه (٣) .

٧. أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري . وكان ثقة مأمونا في رواية الحديث . وكذلك حاله في اللغة . وكان أبوه أوس من رجال الحديث . وجده ثابت بن بشير كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول ﷺ . وقد أخذ عنه سيبويه اللغة .قال السجستاني : حدثني أبو زيد قال : كان سيبويه يأتي مجلسي وله ذؤابتان ، فإذا سمعته يقول : أخبرني من أثق بعربيته فإنما يريدني . (٤)

---

(١) ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ٦٠
(٢) المرجع السابق ص ص ٥٩ – ٦٣
(٣) الزبيدى : طبقات النحويين ص ٦٨
(٤) أبو الطيب مراتب النحويين ص ٤٢ وأيضا ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ١٧٣

ومثل هذه الرواية عنه عند السيرافي بلفظ : " وذكر أبو زيد النحوي اللغوي كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه ، قال : كلما قال سيبويه : أخبرني الثقة ، فأنا أخبرته " ونجد في الكتاب من الأسانيد المهمة ما يشبه هذين ، كقوله : " وحدثنا من لا نتهم " . ولم يصرح سيبويه بذكر اسمه في الكتاب . ولكن هذه النصوص القديمة التي لم يعترض عليها العلماء تدل على أنه روي عنه في كتابه وإن لم يصرح . وقد أحصي الأستاذ على النجدي الرواية عنه بهذه الطريقة فبلغت تسع مرات . توفى أبو زيد بالبصرة سنة ٢١٥ بعد ما قارب المائة (١)

٨. **ومن شيوخه : هارون** . وقد ذكر الخطيب في تاريخ بغداد من اسمه هارون بن موسي النحوي . فالراجح أنه هو ، وإن لم ينسبه سيبويه ، وكان من أهل البصرة ، سمع طاوسا ، وثابتا البناني ، وحميدا الطويل وغيرهم وكان يهوديا ثم طلب القراءة فصار رأسا فيها ، كما حفظ . وقال السيوطي. وهو أول من تتبع وجوه القرآن وألفها ، وتتبع الشاذ منها ويحث على إسناده ومات في حدود سنة ١٧٠ هـ (٢)

٩. **وممن روي عنهم سيبويه : أبو عمرو العلاء** ، قاريء أهل البصرة ، والذي أخذ النحو عن نصر بن عاصم تلميذ أبي الأسود الدؤلي . وهو سيخ للخليل بن أحمد ويونس بن حبيب . ولم يأخذ عنه سيبويه إلا من طريق الرواية عمن روي عنه . وكانت وفاة أبي عمرو بالكوفة سنة ١٥٤ هـ . ومن هذا لم يتسن لسيبويه لقاؤه والأخذ عنه .

١٠. **ومنهم عبد الله بن زيد أبي إسحاق بن الحارس** ، مولي آل الحضرمي يروي له سيبويه عن طريق يونس بن حبيب . وعبد الله هذا ، يقال إنه أول من علل النحو ، وتناظر هو وأبو عمرو بن العلاء . وسئل عنه يونس فقال : " هو والنحو سواء " يعني أنه الغاية فيه . وكان ممن يطعن على العرب توفي سنة ١٢٧ هـ (٣)

١١. **ومنهم الرؤاسي** ، وهو محمد بن الحسن بن أبي سارة ، سمي بالرؤاسي لأنه كان عظيم الرأس . أخذ عن بن عمرو ، وهو يقول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو ، وكان أستاذا للكسائي والفراء . قال الرؤاسي : " بعثت إلى الخليل بطلب كتابي ، فبعث به إليه فقرأه ووضع كتابه " وفي فهرست ابن النديم : " وفي كتاب سيبويه : قال الكوفي ، يعني الرؤاسي ، وله من الكتب كتاب " الفيصل " ، رواه جماعة . وكذا كتاب التصغير . (٤)

أخذ سيبويه عن هؤلاء الأعلام اللغة والنحو كما أخذ عن غيرهم الحديث ، ومع هذا كان صاحب مشاركة . قال ابن عائشة .. كنا نجلس مع سيبويه النحوي في المسجد ، وكان شابا جميلا قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب في كل أدب بسهم ، مع حداثة سنة وبراعته في النحو . ومن الراجح أن سيبويه كان يعرف الفارسية ، أو يعلم طرفا منها على الأقل ومع أن شيخه أبا زيد كان من أهل العدل والتشيع كان هو كما قال العباس بن الفرج الرياشي : " سنيا على السنة " (٥)

(١) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٤٢ وأيضا ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ١٧٣
(٢) السيوطي : بغية الوعاة ص ٤٠٦
(٣) السيوطي : أخبار النحويين ص ٢٥ وأيضا ابن النديم : الفهرست ص ٦٢
(٤) المرجع السابق ص ٩٦ وأيضا القفطي : انباه الرواة ص ٣٥٢
(٥) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٤٢

أما أقرانه ممن أخذوا العلم على الخليل فهم ثلاثة :

١. مؤرج بن عمرو السدوسي ، كان قد قدم من البادية ولا معرفة له بالقياس في العربية قال : " أول ما تعلمت القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة . وقد غلب عليه الشعر واللغة ، توفي سنة ١٩٥ هـ
٢. على بن نصر بن على الجهضمي : كان من أصحاب الخليل في العربية ورفقاء سيبويه وقد غلب عليه الحديث . توفي على سنة ١٨٧ هـ.
٣. النضر بن شميل المازني التميمي ، أخذ عن الخليل والعرب ويقال إنه أقام بالبادية أربعين سنة ، وهو أول من أظهر السنة بمرو وخراسان وقد غلبت عليه اللغة ، وله فيها كتاب " الصفات " . وله أيضا " المدخل إلى كتاب العين " و " غريب الحديث " ، و " المصادر " . توفى سنة ٢٠٣ هـ .(١)

وأما تلاميذه فهم :

١. أبو الحسن الأخفش الأوسط ، سعيد بن مسعدة فارسي الأصل من أهل بلخ ، لم يأخذ عن الخليل . ثم أخذ عن سيبويه مع أنه كان أسن منه . وكان الطريق إلى كتاب سيبويه . وقد قرأ مسائل من الكتاب على سيبويه قال : " وكنت أسأل سيبويه عما أشكل على منه فإن تصعب على الشيء منه قرأته عليه " . فهو بذلك يعد في تلاميذ سيبويه . لكن مع ذلك يروي الزبيدى (٢) أن الأخفش كان يقول : " كان سيبويه . إذا وضع شيئا من كتابه عرضه على وهو يري أني أعلم منه - وكان أعلم مني – وأنا اليوم أعلم منه " . وهذا النص يؤكد تواضع سيبويه وحرصه على المشاورة في العلم ، ويدل كذلك أن الأخفش شهد مولد الكتاب ونشأته وقد توفى أبو الحسن بعد سيبويه في سنة ٢٢١ أو ٢١٥ هـ (٤) .
٢. قطرب ، أبو بن المستنير البصري . كان ملازما لسيبويه ، وكان يدلج إليه فإذا خرج رآه على بابه ، فقال : " ما أنت إلا قطرب ليل ! " والقطرب لا تستريح نهارها سعيا . وقد أخذ قطرب أيضا عن عيسي ابن عمر النحو ، كما أخذ عن النظام مذهبه الاعتزالي ، وتوفي سنة ٢٠٦ هـ . (٤)

---

(١) المرجع السابق ص ٦٨
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين ص ٦٧
(٣) القفطي : انباه الرواة جـ٣ ص ٢١٩
(٤) المرجع السابق ص ٢٢٠

٣. الناشيء : قال أبو الطيب وجدته في مراتب النحويين : " وكان ممن أخذ من سيبويه والأخفش ، رجل يعرف بالناشي ، ووضع كتبا في النحو قبل أن يستتمها وتؤخذ عنه ، فأخبرنا محمد بن يحيى قال : سمعت محمد بن يزيد يقول : لو خرج علم الناشي إلى الناس لما تقدمه أحد " وهو رجل مغمور لم يحظ من التاريخ بنصيب ، ولعل قلة هؤلاء التلاميذ ناجمة عما يذكرون من أنه كانت في لسانه حبسة ، قال معاوية بن بكر العليمي : " عمرو بن عثمان قد رأيته ، وكان حدث السن ، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد . وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو وكانت في لسانه حبسة . ونظرت في كتابه فعلمه أبلغ من لسانه " . (١)

ولعل تلك الحبسة على ما يبدو من مبالغة في تصويرها ، هى التى دفعته إلى التأليف ، وتنحت به عن مقام الأستاذية الواسعة إلى مقام التأليف البارع المقتدر ، الذي يجانبه فضول القول وفضول الفكر .

مناظرات سيبويه :

قصد سيبويه إلى بغداد في خلافة الرشيد ووزارة يحيى بن خالد البرمكي ، التى تقلدها سنة ١٧٠هـ ، وسأل يحيى أن يجمع بينه وبين الكسائي شيخ الكوفيين ، فنصحه يحيى ألا يفعل ، فأبي سيبويه إلا أن يفعل ، واجتمع بالكسائي عند البرامكة ، أو في دار الرشيد ، أو في مجلس الأمين على خلاف في ذلك ، فلقيه قبله أصحاب الكسائي ، كأنما فعلوا ذلك ليخضدوا شوكته قبل لقائه للكسائي ، ثم واجه الكسائي وناظره في المسألة المعروفة ، وهى المسألة الزنبورية : " كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هى ، أو فإذا هو إياها (٢) " .

ويذكرون أن سيبويه أخفق في هذه المناظرة إخفاقا مبلغ الظن أن الكوفيين افتعلوه ؛ إذ لم يكن إخفاقا علميا ، وإنما هو إخفاق مظاهرة علمية ليس لها وجه من الحق ، أو لها وجه من الحق كوفي يخالف وجه الحق البصري . ومهما يكن من شيء فإن يحيى البرمكي قد حفظ لسيبويه مقامه آخرا كما حفظه له أولا ، فأجازه بعد تلك المناظرة بعشرة آلاف درهم ، من تلقاء نفسه ، أو بإيعاز من الكسائي كما تذكر كتب التراجم . (٣)

---

(١) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٨٥
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٦٣
(٣) الزبيدى : طبقات النحويين ص ٧٣ وأيضا الزجاجي : مجالس العلماء ص ١٠

وفاته :

ولكن سيبويه لم تطب له الإقامة ببغداد ، فرأي أن يفارقها إلى الأهواز ، فيقال إنه سأل عمن يبذل من الملوك ويرغب في النحو ، فقيل له : طلحة بن طاهر ، فاعتزم الذهاب إليه ، فيقول بعضهم : أنه دخل شاطئ البصرة ووجه يطلب الأخفش تلميذه ، فجاءه فقص عليه ما جرى بينه وبين الكسائي ، ثم استودعه الله وسار إلى طلحة بالأهواز التى كانت مسقط رأسه ، فمات بها . ويختلف المؤرخون في تاريخ وفاته وأرجح الأقوال أنه توفى سنة ١٨٠هـ .

ويؤيد هذا أنه توفى قبل يونس بن حبيب المتوفى سنة هـ١٨٣ . وقبل الكسائي الذي توفى في هذه السنة أيضا (١) وجاء في طبقات الزبيدى : " ولما مات سيبويه قيل ليونس : إن سيبويه ألف كتابا في علم الخليل . فقال يونس : جيئوني بكتابه . فلما نظر في كتابه ورأى ما حكي قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه كما صدق فيما حكي عني " . (٢) ويذكرون أنه لما اعتل وضع رأسه في حجر أخيه ، فبكي أخوه لما به ، فقطرت منه دمعة على وجه سيبويه ؛ فرفع رأسه إليه فوجد في عينيه البكاء فقال :

أخيين كنا ، فرق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا (٣)

وأنه تمثل عند موته بقول القائل :

يؤمل دنيا أتبقي له قوافي المنية دون الأجل
حثيثا يروي أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

وأنه كتب على قبره بشيراز من قول سليمان بن يزيد العدوى :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأي المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفره لم يؤنسوك ، وكربة لم يرفعوا
وقضي القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا (٤)

كتـاب سـيبويه :

وقد عرف كتاب سيبويه من قديم الدهر إلى يومنا هذا باسم " الكتاب " ، أو كتاب سيبويه ، ومن المقطوع به تاريخيا أن سيبويه لم يسمه باسم معين ، على حين كان العلماء في زمنه ومن قبل زمنه يضعون لكتبهم أسماء : كالجامع ، والإكمال لعيسي بن عمر ، والعين المنسوب إلى الخليل .

(١) ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ٨١
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين ص ٤٩
(٣) السيرافي : أخبار البصريين ص ٥٠ وأيضا ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ٧٥
(٤) المرجع السابق ص ٧٥

وليست للكتاب مقدمة وليست له خاتمة مع جلالة قدره وإحكام بنائه . قال السيرافي : وكان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علما عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب ، فيعلم أنه كتاب سيبويه ؛ وقرأ نصف الكتاب ، ولا يشك أنه كتاب سيبويه . (١) ولقد سماه الناس قديما " قرآن النحو " . ومن طريف ما يروي أن أحد نحاة الأندلس ، وهو عبد الله بن محمد عيسي " كان يختم كتاب سيبويه في كل خمسة عشر يوما (٢) " . ولقد بلغ من إعجاب أبي عمر الجرمي (ت ـ ٢٢٥) أنه كان يقول : " أنا منذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه " (٣)

ولا ريب أنه ألفه بعد موت الخليل ؛ فإن مخطوطات الكتاب فيها كثرة التعقيب على قول الخليل بعبارة " رحمه الله " .ونص آخر ، ورد ذكره في المقدمة قال : قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه : تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل " . وممن شهد مولد الكتاب أبو الحسن الأخفش ، وجاء في المعارف لابن قتيبة عن الرياشي قال : سمعت الأخفش يقول : كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرضه على ، وهو يري أني أعلم منه ؛ وكان أعلم مني ، وأنا اليوم أعلم منه . (٤)

والحقيقة أن سيبويه انتفع بعلم الخليل انتفاعا ظاهرا ، كما انتفع بعلم شيوخه الذين سبق الكلام عليهم . ولا ريب كذلك أنه أفاد ممن سبقه من أئمة النحو الذين ألفوا فيه أو أثرت عنهم رواية فيه ، فنحن لا نعجب إذن حين نجد هذا النص الذي أورده ابن النديم في الفهرست : " قرأت بخط أبي العباس ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل " . (٥) و يعني هذا النص أن سيبويه انتفع بجهود النحويين قبله الذين بلغ تعدادهم هذا القدر . وهذا النص يعبر عن حقيقة علمية حتمية ، وهى أن مكانة سيبويه إنما هو خلاصة جهود النحاة الذين سبقوه ؛ إذ لا يعقل أن يبتدع سيبويه هذا العلم المتكامل دون أن يفيد من تلك الجهود الأصلية التى رسمت كثيرا من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله . وقال السيرافي : " وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكلما قال سيبويه " وسألته " أو قال " من غير أن يذكر قائله ، فهو الخليل (٦) .

---

(١) أخبار النحويين ص ٥٠
(٢) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٦٥
(٣) السيوطي : بغية الوعاة ص ٢٨٩
(٤) ابن قتبة : المعارف ص ١٣٨
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٧٥
(٦) السيرافي : أخبار النحويين ص ٤٠

الحرص التاريخي على الكتاب :

وكتاب سيبويه لم يقرأه سيبويه على أحد عليه . فيقال إن أبا الحسن الأخفش لما رأي أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته ، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه ، استحسنه كل الاستحسان ، فيقولون : إن أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني ، وكانا رفيقين للأخفش ، توهما أن أبا الحسن الأخفش قد هم أن يدعي الكتاب لنفسه ، فقال أحدهما للآخر : كيف السبيل إلى إظهار الكتاب ومنع الأخفش من ادعائه ؟ فقال له : أن نقرأه عليه ، فإذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنه لسيبويه فلا يمكنه أن يدعيه . وكان أبو عمر الجرمي موسرا وأبو عثمان معسر ، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش وبذل له شيئا من المال على أن يقرئه وأبا عثمان الكتاب ، فأجاب إلى ذلك ، وشرعا في القراءة عليه وأخذا الكتاب عنه ، وأظهرا أنه لسيبويه وأشاعا ذلك ، فلم يمكنا أبا الحسن أن يدعي الكتاب ، فكانا السبب في إظهار أنه لسيبويه (١) .

ولم يسند كتاب سيبويه إليه إلا بطريق الأخفش ، فإن كل الطرق مستند فيها إليه (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ وأيضا ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ١٨٤
(٢) السيرافي : أخبار النحويين ص ص ٤٩ ــ ٥٠

القرآن الكريم معين لا ينضب :

في عهد الخلفاء الراشدين ، ظل القرآن الكريم عرضة للتصحيف والتحريف رغم ما بذله الخلفاء من مساع محمودة خلصوا منها أخيرا إلى كتابته بطريقة موحدة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن ثم بدأت عملية النسخ لإرسال مصاحف إلى كل الأمصار ... وذلك من أجل إحفظه وصيانته . ثم من المولدة من عمل على إعرابه ، ومنهم من عمل على إعجامه ، عمل زياد ابن أبيه على إعرابه ، وعمل الحجاج بن يوسف الثقفي على إعجامه ، ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي ليضع حدا بين علامات الإعراب وعلامات الإعجام فوضع " الفتحة والضمة والكسرة " وعند هذا الحد رست قواعد اللغة ، واستقرت آيات الذكر الحكيم .

ثم طفق العلماء يدرسون القرآن وينتحون به مناحي مختلفة . فمنهم من اتجه نشاطه إلى تصحيح متن القرآن عن طريق الرواية الثابتة والراوي الثبت ، وهم الفراء . ومنهم من ركن إلى الجانب العملي منه فقصر عمله على تفهم واستنباط الأحكام التى تتضمنها آياته ، خدمة منهم للمجتمع ، وهؤلاء هم الفقهاء . وآخرون استأثروا بالجانب اللغوي من كتاب الله المنزل ، مستعينين برواية اللغة على إعراب نصوصه ، ثم تناولوا علل التأليف لأنهم عرفوا النحو بأنه علم النظم وعلم التأليف بمعني إنهم تناولوا أو علل الإعراب بالدراسة والتمحيص ، وأولئك هم النحاة . وظل القرآن محجة للعلماء والمتعلمين ردحا طويلا من الزمن ، كل يرفد منه ما تاقت إليه نفسه ، فلا هم في غني عنه ، ولا هو ينضب مما يستقون

ثم راح اللغويون يغذون السير إلى هذا المورد العذب أكثر من غيرهم ، يتناولون نصوصه وآياته بالدراسة والتعليل ، فمنهم من توحدت آراؤهم فانتهجوا لهم مذهبا خاصا في قواعد النحو والإعراب ، فمنهم من خالف أولئك في الرأي والمنحي فكان لهم مذهب مباين للمذهب الأول ، ويختلف معه في تعاليله وأحكامه ، وعند ذاك حان للمدارس النحوية أن تنشأ وتتعدد ، ومن تلك المدارس مدرسة الكوفة . ورائد هذه المدرسة هو الفراء ، وتفاقم الخلاف بين المدارس النحوية في البصرة والكوفة وبغداد وقد بهر الجميع كتاب سيبويه وكان قائلهم يقول :

" من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي " لذلك صار هذا (الكتاب) منطلقا لمناظراتهم ومرجعا لاختلافاتهم . وتعاقبت على تلك المدارس أحقاب زمنية تزعمتها طبقات من العلماء كانوا يأخذون العلم عن شيوخهم واحدا عن الآخر ، حتى صح القول أن " نحو " البصريين عند الخليل وسيبويه ، والكوفيين عند الكسائي والفراء (١)

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة ، جـ٢ ص ٢٢٢

الكسائي
ولد عام ١١٩ هـ وتوفى عام ١٨٩ هـ / ٨٠٤ هـ

هو على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان بن بهمن ابن فيروز ، مولي بني أسد النحوي وكنيته أبو الحسن في نسبة ثلاثة أسماء عربية هى حمزة ، عبد الله ، عثمان ثم اسما فارسيا هو بهمن ابن فيروز / وقد سمي بالكسائي لأنه كان يلتف بكساء يدل على زهده وفقره ولد في "باحمشا " القريبة من – بلدة بالجزيرة بين دجلة والفرات – في إقليم امتاز بجماله ، وخصوبة أرضه ، وسحر طبيعته . ثم نشأ بالكوفة ، فقد رحلت إليها أسرته . للسعي وراء القوت في هذه المدينة الفسيحة التى افتتح فيها والده دكانا للتجارة ، والتى هيىء فيها للكسائي قسط من التعليم ، فاستطاع أن يفتح مكتبا لتعليم القرآن ، ويلازم دكان أبيه في أوقات فراغه . وأبي أن يكون معلم صبيان ، واستعان باجتهاده وكفاحه ليكون شيخ مدينة السلام في عصره ، وأن يكون إمام القراءات واللغة والنحو ، وأن يسمو بوضعه التعليمي حتى يؤدب الأمين والمأمون ولدي هارون الرشيد

قرأ القرآن في صغره ، وتعلم اللغة ، وشيئا من العلوم الدينية من فقه ، وتفسير ، وحديث . وكانت الدراسة حلقات في المساجد – والطلاب يتلقون ما يريدون ، وما تميل إليه نفوسهم . اتجه الكسائي إلى تعلم القراءات على شيخه " حمزة : وتعلم النحو ، وبسبب أنه لحن يوما بحضرة جماعة من المشهورين بإتقان اللغة – وكان الكسائي يجالسهم – فعيروه قائلين : " أتجالسنا وأنت تلحن ؟ " فأنف من هذه الكلمة ، واتصل بأستاذه معاذ الهراء حتى يتعلم على يديه . ثم خرج إلى البصرة ، ولقي الخليل بن أحمد ، وسأله ذات يوم : " من أين أخذت علمك هذا ؟ " . قال : " من بوادي الحجاز ، ونجد ، وتهامة " . فأراد الكسائي أن ينهل من المنهل نفسه ، فخرج إلى الكوفة خفية . وفي البادية عاش الكسائي زمنا حتى شحب وجهه ، وبرزت عظامه ، وتفدت ثيابه ، فاشتري شملتين يأتزر بولحدة ويرتدي الأخرى ، ثم دفعه الحنين إلى وطنه ويقابل أستاذه " حمزة " في المسجد . ولم يعرفه شيخه لتغيره شكلا . ثم عرفه وسلم عليه ، وعاد بعد تلك إلى بيته ، وأستأنف سابق حياته . يقول الرواة : أنه كان فصيح اللسان مجتهدا في علوم العربية والقرآن . وآراؤه في القراءات مشهورة ومعروفة . (١)

تلقى الكسائي علمه على أساتذة مشهورين .. فقد درس علوم القرآن على حمزة بن حبيب الزيات ، أما علوم اللغة ، فبجانب رحلته إلى الصحراء ، فقد تعلم على يد نوابغ عصره منهم : أبو خطاب عبد الحميد الأخفش ، وأبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، ومعاذ الهراء ، وسفيان بن عيينه . وتلقى الشعر عن إسحاق بن عمار الجصاص المتوفى في أواخر أيام المنصور .

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١٣٨ وأيضا أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٧٤ وأيضا البغدادي : تاريخ بغداد . دار الكاتب العربي بيروت جـ١١ ص ٤٠٣ وأيضا الزجاجي : مجالس العلماء ص ١٥٤

أما تلاميذه فكثيرون ، وأشهرهم : علي بن الحسن الأحمر ، وعلي بن المبارك الكحياني ، والفضل ابن إبراهيم عبد الله الكوفي ، والقاسم بن سليمان أبو عبيد ، وهشام ابن معاوية ، ويحيى ابن زياد الأسلمي المعروف بالفراء ، وإسحق بن إبراهيم الموصلي .

اشهر من روي عن الكسائي : أبو العباس يحيى ثعلب ، درس كتب الكسائي وروي عنه . ومحمد ابن جعفر التيمي ، وكان من مجودي القراء ، ومحمد بن زياد المعروف ، بابن الأعرابي ، أخذ عن الكسائي كتاب النوادر ، وأبو عمرو حفص بن عمر بن عبد العزيز الدروي ، ويعقوب بن إسحق . (١)

مؤلفاته :

مؤلفاته كثيرة منها : **كتاب القراءات ، كتاب متشابهات القرآن ، كتاب النوادر الكبير ، كتاب مختصر في النحو ، كتاب العدد ، كتاب النوادر الأوسط ، كتاب النوادر الأصغر ، كتاب اختلاف العدد ، كتاب الهجاء ، كتاب المصادر ، كتاب الحروف ، كتاب أشعار المعاياة وطرائفها .**

وجهته البيئة وجهة خاصة ، وجرفته التيارات الفكرية والسياسية إلى معسكر الكوفيين الذين تعضدهم الدولة . أما تأثير البيئة فيرجع إلى اختلاف طبيعة البلدين : فالبصرة متطرفة بدوية ، عاشت في ظلال الحرية . أما الكوفة فهى قريبة من الحيرة ، في بقعة كانت تحت اشراف الأكاسرة ، وتطرقت إليها الروح الفارسية ، والخضوع لسلطان العقل .

ولهذا اختلفت النزعتان لهاتين البلدين ، وكان حتما أن تكون البصرة محافظة على المأثور ، وأن تسير الكوفة في طريق السهولة . ومن ثم أرادت البصرة أن يكون للغة نظام مطرد ، مستقي من الأساليب العربية المتواترة ، وسلكت الكوفة على احترام ما روي ، ولو كان نصا واحدا ، مع جواز القياس على مقتضي الرأي إذا نفد الشاهد . **ولذلك قيل عن مذهب البصريين : مذهب السماع ، وعن مذهب الكوفيين : مذهب القياس .** (٢)

ولقد ضرب الكسائي في الفيافي والقفار ، باحثا جامعا للغة من أفواه أهلها .... عاشرهم حتى صار كأحدهم ، ثم دنا إلى الحضر يروي ما علم ، ثم هو بعد ذلك يميل إلى الدولة التى فتحت له سبيل المجد ... خاصة وأن الجزيرة العربية لم تعد إلا مركزا للدولة التى اتسعت رقعتها اتساعا شمل العرب والعجم ، فاتخذ الكسائي طريق السهولة . وقد أعلن عن منهجه بقوله :

---

(١) ابن مجاهد : كتاب السبعة في القراءات ص ٧٨

(٢) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة جـ٢ ص ٢٦٧

إنما النحو قياس يتبع   وبه في كل أمر ينتفع

هذا هو منهج الكسائي في اللغة . وسنري إلى أي حد نجح هذا المنهج ، كما سنري رأي النقاد الأقدمين والمحدثين فيه . وكانت مشكلة القياس ، ضمن مذهب الكوفيين موضع جدل وخصومة بين أصحاب اللغة والمحافظين والمتسامحين ، منذ عرف مبدأ القياس .

ولا شك أن منهج البصريين يهدف إلى صيانة اللغة ، فيحصرها في نطاق لغة القبائل المحدودة . ولكنه بجانب ذلك يعتبر منهجا عقيما ، لأنه يقف باللغة ويحول بينها وبين التطور . ولقد ضاق الأدباء والشعراء ذرعا بذلك . أما منهج الكسائي – وهو مذهب أهل الكوفة – فإنه يتفق مع سنة التطور ، وهو الصواب ... إذ كيف يدعي أن اللغة قد تركزت في قبائل محدودة ، وتهمل لغة أكثر القبائل ؟ (١)

وكيف نعلل ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ كثيرة من لغات غير لغات العرب – كالهند والصين وفارس – مثل كافور ومسك ، وهما كلمتان هنديتان ؟ ومناهج القرآن الكريم قدوة . استعمل عرب الجاهلية ألفاظا نقلت عن الفارسية مثل : الكوز ، والجرة . وألفاظا نقلوها عن اليونانية والرومية ، مثل : الفردوس ، والصراط والقسطاس . وألفاظا أخذوها من الحبشية ، مثل : المنبر ، والرهان والفاظا عن العبرية : كالحج والكاهن . بالحضارات المختلفة . فإذن لم يأت الكسائي بجديد في مذهبه سوي أن توسع في القياس لدرجة اعتبار النص الواحد . ولم يكن فردا في هذا المذهب الذي ارتضاه . (٢)

أخذ عليه الأقدمون هذا التوسع ، وعابوه عليه ... فقد حدث الأصمعي قال : كان الكسائي يأخذ اللغة من أعراب ، ينزلون " من قري سواد بغداد . فلما ناظر سيبويه ، استشهد بكلامهم ، واحتج بهم وبلغتهم عليه . فقال أبو محمد اليزيدي :

كنا نقيس النحو فيما مضي   على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه   على لغي أشياخ " قطربل "
فكلهم يعمل في نقص ما   به يصاب الحق لا يأتل
إن الكسائي وأصحابه   يرقون بالنحو إلى أسفل

وقال ابن درستويه : " سمع الكسائي الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة، فجعله أصلا يقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك " .

---

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ١٧٦ وما بعدها
(٢) مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة وأثرها في النحو واللغة . الحلبي ١٩٥٥ ص ٣٦٩
(٣) المرجع السابق ص ٣٧٠ وأيضا ابن الأنباري : الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين مطبعة الاستقامة ١٩٤٩ ص ١٩٧

ومن أجل ذلك كان البصريون يفخرون على الكوفيين ، فيقول الرياش البصري : " نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع ... وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد ، أصحاب الكواميخ ، وأكلة الشواريز " . ومما يقلل من قيمة منهج الكسائي أن الشعر الذي يقيس عليه أكثره مصنوع ويري أستاذنا الدكتور شوقي ضيف أن الكسائي استطاع أن يفتح باب الاجتهاد في القياس بكلتا يديه . وقام قياسه على التقدير وهذا التقدير نقل أو قياس على لغة من لغات الإعراب ، والقياس عنده قرين الرأي يستوعب من خلال المسموع وغير المسموع (١)

ولولا هذه المآخذ التى أخذت على منهج الكسائي خاصة والكوفيين عامة ، لكان منهجا سليما . وهو مع ذلك قد أفاد اللغة توسعا ، ونهج نهجه المحدثون . (٢)

الكسائي والشعر :

لعل الحياة العلمية شغلت الكسائي ، فلم يلتفت لقول الشعر . ولكن سمع عنه بعض قصائد تناولها النقاد بين قادح ومشفق . فقد روي ياقوت في معجمة : " كان الكسائي أعلم من أبي زيد بكثير بالعربية واللغات والنوادر . ولو كان نظر في الأشعار ما سبقه أحد ولا أدركه أحد بعده " . وقال إسحاق الموصلي : " ما رأيت رجلا منسوبا إلى العلم أجهل بالشعر من الكسائي من أشد خلق الله تسكعا في تفسير الشعر " .

كتب الكسائي إلى الرشيد ، وهو يؤدب محمدا الأمين بعض أبيات الشعر فضحك الرشيد ، وأمر له ببغل بسرجه ولجامه ، وبجارية حسناء ، وخادم ، وعشرة آلاف درهم ومن شعره :

إنما النحو قياس يتبع   وبه في كل أمر ينتفع
فإذا ما نصر النحو الفتي   مر على المنطق مرا فاتسع
وإذا لم ينصر النحو الفتي   هاب أن ينطق جبنا فانقطع

ومهما يكن من هذا القول أو غيره ، فلا نستطيع أن نقول إن له ملكة شعرية حساسة فالشعر فن ، والكسائي عالم ... ولذلك جاء شعره متكلفا ثقيلا . (٣)

مناظراته : ١. بين الكسائي وسيبويه :

يحفظ التاريخ هذه المناظرة ، ويهتم بها لما لها من قيمة علمية خالدة .

---

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ١٧٧
(٢) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ٤٦ وما بعدها
(٣) ياقوت : معجم الأدباء دار المأمون القاهرة ١٩٣٦ ص ١٣٢ وأيضا السيوطي : الأشباه والنظائر جـ٣ ص ٢٢٥

قال الفراء : " قدم سيبويه على البرامكة ، فعزم يحيى بن خالد أن يجمع بينه وبين الكسائي ، وجعل لذلك يوما . فلما حضر تقدمت والأحمر ، فدخل فإذا بمثال في صدر المجلس فقعد عليه يحيى ، وقعد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم . وحضر سيبويه ، فأقبل عليه الأحمر فسأله عن مسألة ، فأجاب ، وسألته عن مسألة ومسألة ، وتكاثرنا عليه ... فقال : لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره . قال : فحضر الكسائي ، فأقبل عل سيبويه فقال : أتسألني أو أسألك ؟ فقال سيبويه : بل تسألني أنت . فقال الكسائي : كيف تقول :

" قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا الزنبور إياها بعينها ؟ "

قال سيبويه : " فإذا هو هي ، ولا يجوز فإذا هو إياها بالنصب " ، فقال الكسائي : " لحنت " ، ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : " خرجت فإذا عبد الله القائم " بالنصب أو " القائم " بالرفع . فقال سيبويه ، في ذلك كله ، بالرفع دون النصب .
فقال الكسائي : " ليس هذا من كلام العرب ، فالعرب ترفع في ذلك كله وتنصبه " . فدفع سيبويه قوله . **فقال يحيى بن خالد :** " قد اختلفتما ، وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن ذا يحكم بينكما ؟ . فقال له الكسائي : هذه العرب في بابك قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ... وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيحضرون ويسألون " . **فقال يحيى وجعفر :** " قد أنصفت " فأمر بإحضارهم ، فدخلوا ... فهم : أبو الجراح ، وأبو ثوران ، وأبو دثار ، وأبو فقعس ، فسئلوا عن المسائل التى جرت بين الكسائي وسيبويه ، فتابعوا الكسائي ، وقالوا بقوله . قال الفراء : فأقبل يحيى على سيبويه ، فقال : " قد تسمع أيها الرجل ؟ " فاستكان سيبويه . وأقبل الكسائي على يحيى فقال : " أصلح الله الوزير . إنه قد وفد عليك من بلده مؤملا ، فإن رأيت ألا ترده خائبا " . فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج وصير وجهه نحو فارس ، فأقام حتى مات ، ولم يعد إلى البصرة " ويقال إن هذه المناظرة كانت سببا في موت سيبويه ، فلقد مات حزنا وكمدا . (١)

١. **بين الكسائي وصاحبي أبي حنيفة :**

روي الأحمر النحوي هذه المحاورة ، قال " دخل أحمد صاحبي أبي حنيفة على الرشيد – وعنده الكسائي – فتكلم فقال كلاما لم يعجب الكسائي ، فقال : " أنا أفضل منك لأني أحسن ما تحسن ، وأحسن ما لا تحسن " ، ثم التفت إلى الرشيد وقال : " إن رأي أمير المؤمنين أن يأذن له في جوابي عن مسألة من الفقه " ، فضحك الرشيد وقال : " أبلغت يا كسائي إلى هذا ؟ " .

---

(١) السيوطي : الأشباه والنظائر جـ٣ ٢٢٧ وأيضا الزبيدى : طبقات النحويين ص ١٣٨

ثم قال لأبي يوسف : " أجبه " فقال الكسائي : " ما تقول في رجل قال لامرأته أنت طالق إن دخلت الدار ؟ " . فقال أبو يوسف : " إن دخلت الدار طلقت ؟ " . فقال الكسائي : " خطأ ... إذا فتحت (أن) فقد وجب الأمر ، وإذا كسرت فإنه لم يقع الطلاق بعد " فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو . وسمع أيضا عن الكسائي يقول : " اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد ، فجعل أبو يوسف يذم النحو ، ويقول : ما فائدة النحو ؟ فقلت – وأردت أن أعلمه فضل النحو - : ما تقول في رجل قال لرجل : أنا قاتل غلامك (بالإضافة) ، وقال له آخر : أنا قاتل غلامك (بالنصب) ... أيهما كنت تأخذ به ؟ قال : آخذهما جميعا . (١)

" فقال له هارون – وكان له علم العربية – أخطأت . فاستحيا ، وقال : كيف ذلك ؟ قال : الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال : أنا قاتل غلامك (بالإضافة) .... لأنه فعل ماض . وأما الذي قال : أنا قاتل غلامك (بالنصب) ، فلا يؤخذ ... لأنه مستقبل لم يكن بعد . كما قال الله عز وجل : " ولا تقولن لشيء أني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله " ، فلولا أن التنوين مستقبل ما جاز فيه غدا " . فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو .

وروي عن الدروي قال : " كان أبو يوسف يقع في الكسائي ، ويقول : أي شيء يحسن ؟ إنما يحسن شيئا من كلام العرب . فبلغ ذلك الكسائي ، فالتقيا عند الرشيد – وكان الرشيد يعظم الكسائي لتأديبه إياه – فقال لأبي يوسف : ما تقول في رجل قال لامرأته : أنت طالق طالق طالق . قال : واحدة ، قال : فإن قال لها : طالق أو طالق أو طالق ؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : طالق ثم طالق ثم طالق ؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : طالق وطالق وطالق ؟ قال : واحدة ...

" قال الكسائي : يا أمير المؤمنين ، أخطأ في اثنتين وأصاب في اثنتين . أما قوله : أنت طالق طالق طالق ، فواحدة ... لأن الاثنين الباقيتين تأكيد ، كما تقول : أنت قائم قائم قائم . وأما قوله : أنت طالق أو طالق أو طالق ، فهذا شك ، فوقعت الأولي التى تتيقن . وأما الوجهان الباقيان فثلاث ... لأنه نسق " .

وجاء في وفيات الأعيان عن الكسائي أنه قال : " من تبحر في علم يهدي إلى جميع العلوم " . فقال له محمد : " ما تقول فيمن سها في سجود السهو هل يسجد مرة أخرى ؟ " قال : " لا ، لأن النحاة تقول : المصغر لا يصغر " .

فقال محمد : " ما تقول في تعليق الطلاق بالملك ؟ " . قال : " لا يصح ، لأن السيل لا يسبق المطر " . (٢)

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء جـ١٣ ص ١٧٥ وأيضا الزجاجي : مجالس العلماء . المجلس ١٢١ ص ٢٥٧

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ٤٠

وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على دخول الأقيسة والنظائر وكثرتها في هذا العصر الذي أمتاز بالعقليات .العصر العباسي ، عصر النور والعلم والمعرفة . فإذا دخلت عند الخباز وجدته يتكلم في التفسير ، والعجان تلقاه يتحدث في الشعر ، والنساج يحدثك في الفقه ومذاهبه ... وبالليل تقام المحاضرات والمناظرات في المساجد ودور الخلفاء والأمراء ، فجدير بأن نسمي عصر الكسائي بالعصر الذهبي الإسلامي وكان الكسائي شخصية جذابة ، يبدو عليه الوقار والاتزان ... لذلك جعله الرشيد من طائفة المجالسين المؤانسين ، ولم يغير ذلك من أخلاقه وعاداته ، اللهم إلا لباسه . وشهد بأدبه يحيى بن خالد في المناظرة التى انتصر فيها اليزيدي على الكسائي بحضرة الرشيد وخرج فيها اليزيدي عن المألوف في حضرة الخليفة حتى قال يحيى : " والله لخطأ الكسائي مع أدبه ، أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك ! " . (١)

كان الكسائي رجلا صدوقا . قال عنه أبو اليزيد : " ما جربت على الكسائي كذبة قط " ويتجلى تقديسه للصدق فيما حكي عن الفراء قال : " دخلت على الكسائي يوما ، وكان يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ قال : هذا الملك – يعنى خالدا – يوجه إلى ليحضرني ، فيسألني عن شيء ، فإن أبطأت في الجواب لحقني منه عتب ، وإن بادرت لن آمن من الزلل " . قال : " فقلت له : يا أبا الحسن من يعترض عليك ؟ قل ما شئت فأنت الكسائي " . فأخذ لسانه ، وقال : " قطعه الله إن قلت ما لا أعلم ! " . ولئن دلت هذه القصة على صدق الرجل ، فإنها تدل من ناحية أخرى على مقدار مكانته ، وأن ما يقوله مقبول دون بحث أو تردد في قبوله .

ومما يروي في معرض ظرفه أن الرشيد لقيه في بعض طرقه ، فوقف عليه وسأله عن حاله ، فقال له الكسائي : " لو لم أجن من ثمرة الأدب إلا ما وهبه الله لي من وقوف أمير المؤمنين على ، لكان كافيا " .

حدث محمد بن إسحق النديم قال : " أشرف الرشيد على الكسائي ، وهو لا يراه ، فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها ، فابتدرها الأمين والمأمون – وكان مؤدبهما – فوضعاها بين يديه ، فقبل رأسيهما ثم أقسم عليهما ألا يعاودا . فلما جلس الرشيد مجلسه قال : أى الناس أكرم قدما ؟ قال : أمير المؤمنين ، أعزه الله قال : بل الكسائي ، يخدمه الأمين والمأمون ... وحدثهم الحديث " (٢)

وكان الكسائي دائما في موقف منافسة شديدة بينه وبين معاصريه ، فلا يبعد أن يضع فيه بعض حساده والحاقدين عليه ، كي يقللوا من مكانته ومنزلته . **وصف ابن الأعرابي الكسائي ، فقال :** " كان أعلم الناس " . وقال الخليل بن أحمد المحدث ، يشيد بفضل الكسائي : " وأجعل في النحو الكسائي عمدتي ، ومن بعده الفراء ، ما عشت سرمدا "

---

(١) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة جـ٢ ص ٢٦٤
(٢) ابن النديم : الفهرست ٦٣

وروي عن ابن توبة قال : " سمعت الفراء يقول مدحني رجل من النحويين فقال : ما اختلافك إلى الكسائي ، وأنت مثله في النحو ؟ فأعجبتني نفسي ، فأتيته مناظرة الأكفاء ، فكأني كنت طائرا يعرف من البحر بمنقاره " . (١)

ويقول أهل الكوفة : " لنا ثلاثة نحويين في نسق واحد ، لم ير الناس مثلهم ، وهم أبو الحسن على بن حمزة الكسائي ، **والفراء وثعلب " . وقال جعفر بن يحيى :** " لم ير أبدع في فنه من الكسائي في النحو " . **وقال أبو بكر بن الأنباري :** " لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء ، لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس ، إذ انتهت العلوم إليها "

وقال الشافعي رضي الله عنه : " من أراد أن يتبحر ، فهو عيال على الكسائي " . **وقال أبو بكر بن الأنباري :** " اجتمعت للكسائي أمور لم تجتمع لغيره ، فكان واحد الناس في القرآن : يكثرون الأخذ عنه ، حتى أن بعضهم ينقط المصاحف على قراءته ، ويتبعون مقاطعه ومباديه " . وروي صاحب المعجم أن الطبري أخذ في تفسيره المعاني من كتاب الكسائي .

هذه أمثلة من آراء النقاد في الكسائي . ونلمح فيها المكانة الممتازة التى كان يحتلها بين علماء عصره ، حتى لقب بشيخ مدينة السلام . ومن البديهي أن الذي قرب الكسائي من الخلفاء ، ورفع ذكره ، هو علمه .

وإذا كان الكسائي ليس بعالم فما الذي سوغ له الجلوس مع الخلفاء ومؤانستهم ... تعليم أبنائهم ؟ لا شك أنه النبوغ والعلم . (٢)

وقد قدم الكسائي مع أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فمرض مرضا خبيثا ، فأتاه هارون ماشيا ، فخرج من عنده وهو مغموم جدا ، فقال لأصحابه : ما أظن الكسائي إلا ميتا . وجعل يسترجع ، فجعل القوم يعزونه ، ويطيبون نفسه وهو يظهر حزنا ... فما لبث أن مات . وكانت وفاته برنبويه من كور الري ، هو ومحمد بن الحسن الفقيه في وقت واحد . وكانا قد خرجا مع الرشيد إليها . فقال الرشيد :

" دفنت الفقه والنحو برنبويه " . فقال أبو محمد اليزيدي يرثيهما :

أسيت على قاضي القضاة محمد	**فأذريت دمعي والفؤاد عميدا**
وقلت ، إذا ما الخطب أشكل ، من لنا	**بإيضاحه يوما وأنت فقيد ؟**
وأوجعني موت الكسائي بعده	**وكادت بي الأرض الفضاء تميد**
هما عالمان وتخرما	**وما لهما في العالمين نديد !**

---

(١)ابن الأنباري : الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة الاستقامة ١٩٤٥ ص ١٤٥ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ وما بعدها

ولما سمع الرشيد هذه الأبيات قال : يا يزيدي لئن كنت تسيء الكسائي في حياته ، فلقد أحسنت بعد موته . ولئن كنت تظلمه في حياته ، لقد أنصفته بعد موته . (١)

هذا وإن كان الكسائي قضى منذ أثني عشر قرنا ، إلا أنه بآثاره ، وسيظل اسمه مقرونا بكتاب الله تعالى روي أن أحد الصالحين رآه في منامه فسأله عما فعل الله به قال : " غفر الله لي بالقرآن " .

---

(١) محمد عبد الخالق عضيمة : المبرد وحياته وأثاره . مرجع سابق ص ١٢٢

الفراء أمير النحاة
توفي ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م

هو أبو زكريا يحيى بن زياد عبد الله الفراء ، مولي بني منقر ، وبالرغم مما بلغه الفراء من مكانة رفيعة بين النحاة ، ومنزلة عظيمة بين أعلام اللغة ، لم نجده يستأثر باهتمام الكتاب والمؤلفين . فالأقدمون تعرضوا له بما ليس فيه الكفاية وكأنهم على عجل حين يصل دور هذا الرجل ، فلا نعرف عن مناظراته إلا النزر القليل ، ولا عن حياته إلا القليل والبسيط . والأحدثون لم يكن بمقدورهم أن يكونوا للفراء طابعا ينتقونه مما بين أيديهم من نصوص وأحداث ، فكانوا أكثر تحفظا وتحرزا ، اللهم إلا صاحب كتاب (مدرسة الكوفة) (١) الذي استطاع أن يستشف طبيعة شخصية الفراء ويرسم لهذه الشخصية الصورة الناطقة التى تجلت له بعد دراسة مستفيضة لأسانيده وتلاميذه ، ثم راح يكتب عنه بكل ما في الجرأة من معني ، وبكل ما في الجدة من مواصفات ، فيقول : " ولا نعرف عن حياة الفراء الأولي كثيرا إلا أنه ولد بالكوفة ومن أصل فارسي لأنه لم يكن من ذوي الأسر التى يحسب الكتاب والمؤرخون لها حسابا ، ويملئون الصفحات بكل تافه من ألوان حياته المترفة ، فقد كان أبوه مولي لقبيلة عربية انتسب إليها كثيرا من الصحابة وغيرهم وهى قبيلة بني منقر ، ونشأ كما نشأ أولاد الفقراء يأخذ حقه من الحياة بالجهد والتعب ، ويفرض شخصيته على الزمن فرضا ، ولم يفتح التاريخ على يحيي بن زياد الفراء إلا وهو شاب عرفه زملاؤه بنقاذ الذهن ، ودقة الحس ، وقدر له أستاذه أبو جعفر الرواسي مستقبلا علميا جليلا " .

ويكاد يجمع النحاة الأقدمون والأحدثون ، أن الفراء من أعلم علماء الكوفة بالنحو بعد الكسائي، وقد أخذ علمه هذا عن الكسائي ، وهو عمدته ومن أساطين النحو ، وأجل أصحابه ، ثم أخذ عن أعراب وثق بهم ، كما أخذ نبذا عن يونس ، وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر منه ، وأهل البصرة يدفعون عنه هذا الإدعاء . ومهما كان فمن الثابت أن الفراء كان شديد التعلق بأستاذه الكسائي ، مأخوذا به ، معجبا بأدائه ، ملازما له ، لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان إذا سافر فهو رفيقه يحادثه ويسامره ، وإذا أقام فهو جليسه يذاكره العلم ويدارسه . وبعد أن خرج الفراء من تحت كساء أستاذه ...خرج وهو على تيه وزهو واعتداد بالنفس ، بعد أن نال من كل علم طرفا ، فراح يخوض غمار المناظرات مع إعلام اللغة دونما تهيب أو وجل ليخرج منها خروج الظافر المنتصر . (٢)

---

(١) مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة . مطبعة مصطفي البابي . مصر ١٣٧٧ هـ
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١٤٠ وأيضا ص ١٤٠ وأيضا ياقوت : معجم الأدباء جـ٧ ص ٢٧٦

لم يعد الخلفاء والأمراء والملوك في غني عن الاتصال بمثل هذه العينات البشرية النادرة ، فقد كانت مجالسهم تحفل بالأديب والفقيه واللغوي والقاضي والمؤنس والنديم ، وغالبا ما كان الخلفاء يعهدون إلى هؤلاء مهمة تعليم أولادهم وتأديبهم ، وكثيرا ما وجد الملوك عند هؤلاء الرأي الحصيف ، والمشورة الصائبة . فليس من بأس إذن ، أن يتردد الفراء على مجلس المأمون ليتبوأ مكانه فيه .

بينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء أبو بشر بن الأشرس وكان الواقف بباب المأمون ، قال ثمامة : فرأيت أبهة أديب ، فجلست إليه ففاتشته عن اللغة فوجدته بحرا ، وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيج وحده ، وعن الفقه فوجدته رجلا فقيها عارفا باختلاف القوم ، وبالنجوم ماهرا ، وبالطب خبيرا ، وبأيام العرب وأشعارها حاذقا ، فقلت له : من تكون ؟ وما أظنك إلا الفراء ، فقال : أنا هو ، فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون ، فأمر بإحضاره لوقته وكان سبب اتصاله به (١)

وصار الفراء يتردد إلى مجلس المأمون ، والمأمون يظاهر عليه من يسائله في النحو ويناظره في اللغة ، إلا أنه كان يهزمهم تباعا ، ويفحمهم ، والمأمون عالم قبل أن يكون حاكما ، خبير بأقدار العلماء ومراتبهم ، فقد أنس في الفراء حذقا وسعة إطلاع . يقول الخطيب في تاريخ بغداد (٢) : فأمره بأن يؤلف له ما يجمع به أصول النحو ، وما سمع من العربية ، وأمر أن يفرد له بحجرة من حجر الدار ، ووكل به له خدما وجواري يقمن بما يحتاج إليه ، حتى لا تتشوق نفسه إلى شيء ، حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وأتوا له بالوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين ، فكان يملي والوراقون يكتبون ، حتى صنف الحدود في سنتين . (٣)

الفراء يملي كتاب المعاني :

وبعد أن فرغ الفراء من تصنيف كتاب الحدود ، قال لأصحابه يوما : اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن الكريم ، وجعل لهم يوما ، فلما حضروا خرج إليهم – وكان في المسجد رجل يؤذن فيه ، وكان من القراء – فقال له : اقرأ ، مبتدئا بفاتحة الكتاب ففسرها ، ثم مر في الكتاب كله على ذلك ، يقرأ الرجل ويفسر الفراء . قال الراوي : " وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء **كتاب المعاني** ، فلم نضبطهم ، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا " . (٤)

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ص ٢٢٥
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد القاهرة
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ص ٢٢٧
(٤) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١٤١

وأدهش المأمون هذا الكتاب العظيم الذي استهوله القراء والمفسرون ، ونال ثناءهم وإعجابهم ، حتى قال قائلهم : " كتاب المعاني كتاب لا يمكن لأحد أن يزيد عليه " . فكانت الرغبة شديدة في نفس المأمون ، والظروف مواتية ، بأن يدفع بولديه إلى الفراء ليلقنهما النحو والصرف ، ويغرس في نفوسهما التأدب ، فما كان من الفراء إلا أن يكون بمستوي المسؤولية التي أنيطت إليه ، فلم يبخل على هذين الحدثين بجهد ، ولم يضن عليهما باهتمام ، حتى صارا شديدي التعلق بأستاذهما ، لا يأنسان إلا إلى قربه ومعسول أحاديثه ، فضلا عما كانا يكنان له من إجلال واحترام .

فقد نهض يوما إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى نعله يقدمان له فتنازعا أيهما يقدمها ، فاصطلحا أن يقدم كل واحد منهما فردا ، فقدماها ، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجه إلى الفراء من استدعاه ، فلما دخل عليه قال : من أعز الناس ؟ قال : ما أعرف أعز من أمير المؤمنين ، قال : بلي من إذا نهض يقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد منهما أن يقدم له فردا ، قال : يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها ، وقد روي عن ابن عباس (رضي الله عنه) " أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهما ركابيهما ، حين خرجا من عنده " فقال له بعض من حضر : اتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسن منهما ؟ فقال له أسكت يا جاهل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل ، فقال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا ، وألزمتك ذنبا وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع قدرهما ، وبين عن جوهرهما ، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وأن كان كبيرا عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه ووالده ومعلمه العلم وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك " (١)

الفراء يلحن أمام الرشيد :

بين يدي رواية متواترة عند كثرة من المؤلفين في النحو واللغة ، يذكرها الحنبلي في شذراته ، والزبيدي في طبقاته ، وابن خلكان في وفياته ، وكثيرون غيرهم . ومفاد الرواية أن الفراء دخل على الرشيد ، يوما ، فتكلم بكلام لحن فيه مرات ، فقال جعفر بن يحيى البرمكي : أنه قد لحن يا أمير المؤمنين ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن ؟ فقال الفراء : يا أمير المؤمنين أن طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ،فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت ، فاستحسن الرشيد قوله . ولا ندري مدي نصيب هذه الرواية من الصحة رغم تواترها . كل ما ندريه الآن ، أن عملاقا من عمالقة اللغة قد لحن ... ولحن مرات ، وأن نحويا من نحاة الكوفة ، كان في الكلام بحرا لا يجاري ، وحبرا لا يباري ، هذا النحو قد خانه الطبع فلحن أمام أدهي خليفة عرفته العصور العباسية ، كان عالما بأسرار اللغة ، متضلعا فيها .

---

(١) صابر أبو السعود : القياس في النحو ، ص ١٩٤ وما بعدها

ثم شاعت الرواية أن تلفت انتباه جعفر بن يحيى لهذا اللحن دون الرشيد ، ويعزو الفراء أخيرا لحنه واضطراب لسانه إلى عدم تحفظه من كلامه ، ولأنه رجع إلى الطبع ، وكان الفراء لم يدخل في حسبانه أن المقام يتطلب منه أن يتئد في نطقه ويتحفظ . من هذه النقاط وغيرهما يتجلى لنا تهافت الرواية وإسفافها وإنها موضوعة على الرجل ، أقحمها عليه حساده ومناوئوه ، ولمثل هذا يتعرض الرجال العظام دوما . (١)

الفراء يتعهد مدرسة الكوفة بالنمو :

يحدثنا التاريخ بأن أهل الكوفة امتازوا بالفقه والحديث والقراءة ، ثم تعاطوا بعد أن بات بينهم وبين البصريين شاو بعيد . ودراسة النحو في الكوفة إنما تبدأ بعد الكسائي ، فهو إمام مدرسة الكوفة .وفي رأي آخر أنهما الكسائي والفراء – رئيسا المدرسة وإليهما يعزي تأسيسها وتنظيم منهجها وبهما يبدأ تاريخها . "

" وإذا كان الكسائي قد وضع أسس هذه المدرسة الجديدة ، وجمع لها مادة درسها ، ورسم المنهج الذي يعتمد عليه إنشاؤها ، فإن الفراء قد تكفل بإتمام البناء وتعهد المدرسة بالنمو ، وأعاد النظر فيما جاء به الكسائي ، فأخذ منه ما يتفق مع طبيعة المدرسة وبني منهجها على أساس علمي جديد " وهو منذ البداية في كتابه معاني القرآن يضع أساسا لقاعدة قياسية فيقول الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من السفر ، ومن ثم يتضح منهجه فهو يضع القرآن الكريم نصب عينيه لأن الكتاب جاء من عند الله بلسان عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٢)

ثم تابع الفراء مسيرته ناشطا دون كلل ، وله في العربية قصب السبق في أغلب التخاريج النحوية الجديدة ، فتارة تراه يحمل العربية على الألفاظ والمعاني فيبرع ويستحق الصدارة ، وتارة يقلب المسألة على وجوهها المختلفة وله في كل وجه منها أكثر من تعليل وتفسير . وآراؤه النحوية هذه ، وتفسيراته لوجوه الإعراب يطغي عليها الطابع الفلسفي ، فمثلا حين يري الخليل بن أحمد "كلا " اسم ، يراها الفراء بين الأسماء والأفعال فيقول : فلا أحكم عليها بالاسم ولا بالفعل فلا أقول أنها اسم ، لأنها حشو في الكلام ، ولا تنفرد كما ينفرد الاسم ، وأشبهت الفعل لتغيرها في المكني والظاهر ، لأني أقول في الظاهر : رأيت كلا الزيدين ، ومررت بكلا الزيدين ، وكلمني كلا الزيدين ، فلا تتغير ، وأقول في المكني : رأيتهما كليهما ، ومررت بهما كليهما ، وقام إلى كلاهما ، فأشبهت الفعل ، لأني أقول : قضي زيد ما عليه ، فتظهر الألف مع الظاهر ، ثم أقول قضيت الحق ، فتصير الألف ياء مع المكني .

---

(١) الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب دار المسيرة ، بيروت ص ٨٣وأيضا الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١٤١ وأيضا ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ٢٢٨

(٢) مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة ص ٧٩ ، ١٢٧ وأيضا الفراء : معاني القرآن . تحقيق نجاتي والنجار ، دار الكتب ١٣٧٤ هـ جـ١ ص ١٤

ولم يخالف الفراء الخليل ، وحسب ، وإنما خالف أستاذه الكسائي في كثير من مذاهبه فرفع المعطوف على اسم "أن " أجازة فريق من النحاة في جميع الأمثلة أو بعضها ، ومنهم الكسائي الذي كان يجيز ذلك مطلقا . أما الفراء " فلم يمنع رفع المعطوف ، ولم يجوزه مطلقا بل فصل وقال : أن خفي إعراب الاسم يكون مبنيا أو معربا مقدر الإعراب ، جاز الحمل على المحل .... إلا فلا " (١)

ثم يعرض الفراء لهذا في تفسيره لقوله تعالي : " إن الذين أمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى " ، فأعرب " والصابئون " على أنها معطوفة على ـ (الذين) وعلل إعرابه هذا بأن " الذين " حرف على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه ، فلما كان إعرابه واحدا ، وكان نصب " أن) ضعيفا ، وضعفه أنه يقع على الاسم ولا يقع على الخبر جاز رفع الصابئين . وطابع الفلسفة واضح على هذه المسألة ، كما أن سمة التمحل والتهافت بينة فيها .

ووثق من قول أحد الأعراب ، فذهب إلى اسمية " نعم وبئس " لأنه سمع منه " والله ما هي بنعم الولد " وجوز إعراب العدد المركب قياسيا إذا أضيف استنادا إلى ما سمعه من أبي فقعس الأسدي ، وابن هيثم العقيلي : ما فعلت خمسة عشرك (٢) .

درس الفراء (كتاب) سيبويه عن كتب وروية ، حتى وجد بعضه تحت وسادته التى كان يجلس عليها ، ولكنه ، وبالرغم من ذلك ، كان زائد العصبية على سيبويه ، يتعمد مخالفة مذاهبه ومزاعمه في ألقاب الأعراب وتسمية الحروف ، وقيل : إنما كان لا يفارق (الكتاب) لأنه كان يتتبع خطاه ولكنته " فإذا صحت هذه القوله ففيها غلو وتعصب واضحان فالكتاب أكبر من أن ينال منه الفراء أو غيره . وبحسبك أن تعلم أنه كان يسمي " قرآن النحو " (٣)

مؤلفاته :

ترك الفراء مؤلفات كثيرة قيمة وأغلبها في النحو واللغة . فقد صنف : معاني القرآن ، البهاء فيما تلحن فيه العامة ، اللغات ، المصادر في القرآن ، آلة الكتاب ، النوادر ، المقصور والممدود ، فعل وأفعل ، المذكر والمؤنث ، الحدود ، مشتملة على ستة وأربعين حدا في الإعراب وله في غير ذلك .ومن الثابت أن القرآن المجيد هو المصدر الرئيسي ، الذي كان يصير إليه الفراء ، ويأنس فيه ضالته وتعليمه ، فقد كان يعزي إعجازه اللغوي إلى نزوله بلغه قريش التى خلت من مستشبع الألفاظ ، ومستقبح اللهجات ، كتلتلة بهراء ، وطمطمانية حمير ، وكشكشة ربيعة ، وعجعجة قضاعة ، وفخفخة هذيل ، وشنشنة اليمن وتمها ، واعتمد أيضا على القراءات المختلفة ، وبالرغم من أن هذه القراءات شاذة في نظر نحاة البصرة ، إلا أن الفراء صوبها واحتج بها . ومن الشعر وكلام العرب

---

(١) أبو الطيب : مراتب النحويين ص ٨٨

(٢) الأشموني : شرح جـ٤ ص ٧٠

(٣) كان المبرد إذا أراد إنسان يقرأ عليه كتاب سيبويه ، يقول له هل ركبت البحر ، تعظيما له واستصعا بلمافيه راجع السيرافي : أخبار النحويين البصريين ... جـ٥

اتخذ كثيرا من الشواهد لا فرق بين وصول تلك الشواهد عن طريق المشافهة ، أم عن طريق المناقلة .

فهذا أبو بكر الأنباري يقول : لو لم يكن لأهل بغداد من علماء إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس " (١) وقالوا : النحو للفراء والفراء أمير الأمراء في النحو (٢) ويقول أبو العباس أحمد بن يحيى : " لولا الفراء لما كانت العربية ، لأنه حصنها وضبطها (٣) . وقال السيوطي : " كان متدينا متورعا ، على تيه وعجب وتعظم " (٤) . وابن خلكان يعرض له فيقول : " كان أبرع الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب " (٥) كان في اللغة بحرا ، وفي الفقه عارفا ، وفي الطب خبيرا ، وبالنجوم ماهرا ، وبأيام العرب وأشعارها حاذقا . ومات الفراء بطريق مكة عام ٢٠٧ هـ ، عن سبع وستين سنة ، وقد قضى أكثر عمره في بغداد ، يتطلب العلم جثوا على الركب ، بين أروقة الجوامع وأفنية المساجد . يقول مسلمة بن عاصم : دخلت على الفراء في مرضه ، وقد زال عقله ، فسمعته يقول : أن نصبا فنصبا ، وأن رفعا فرفعا . (٦)

العسقلاني : تهذيب التهذيب جـ١١ ص ٢١٢
المرجع السابق ص ٢١٣
الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١٤٣
السيوطي : بغية الوعاة جـ٥ ص ٢٢٥
(٥) مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة ص ١٢٦

المبرد

(٢١٠ ـ ٢٨٥ هـ) (٨٢٥ ـ ٨٩٨ م)

المبرد : هو محمد بن يزيد ابن عبد الأكبر ، ولقب " المبرد " لأن أستاذه المازني لما صنف كتاب " الألف واللام " سأله عن مسألة وعويصة فأحسن الجواب : فقال له المازني : قم فأنت المبرد . أي المثبت للحق ، ولكن منافسيه في عصره وحاسديه كانوا يتخذون من هذا اللقب منفذا للإساءة إليه والنيل منه ، فيقول أنه المبرد بفتح الراء لا بكسرها وهو من أسرة نبيلة هى (ثمالة) ، وثمالة من قبيلة كبيرة لها شأنها في الجاهلية والإسلام ، وحسبك أن منها الأوس والخزرج أنصار الرسول ﷺ وفضلهم على الدعوة الإسلامية لا ينكر ، منهم دعاتها والمدافعون عنها والباذلون أموالهم وأرواحهم رخيصة في سبيلها ، وأول حكومة إسلامية نشأت في مدينتهم (يثرب) التى سميت المدينة المنورة ، فضمت خير البشر وخلفاءه وأصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن الأزد الغساسنة ملوك الأزد اليمن ، ولكنهم بعد انهيار سد مأرب اتجهوا إلى الشمال ، وبقي بعضهم في الجنوب ، ومنهم المهلب بن أبي صعرة وأبناؤه ، ولهم دورهم في تدمير الخوارج ،وقد كانت ثمالة تسكن السراة من أرض الحجاز ، ولكن المبرد ولد في مدينة البصرة من أسرة ثرية ، ومن دلائل شرفها أن ابنها محمداً النحوي الذي نترجم له و ، الذي يعرف يوم مولده ويوم وفاته ، فقد ذكروا أنه ولد في يوم عيد الأضحى من سنة ٢١٠ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٨٥ هـ (١)

أساتذته وتلاميذه :

وتلقى المبرد النحو واللغة والأدب من شيوخ عصره ، كالأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ، والجرمي والمازني ولم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني ، كما عرف منه ذلك ونوه به تلاميذه وفي مقدمتهم المبرد .

وكما كان للمبرد شيوخه . كان له تلاميذه ، منهم أبو إسحاق الزجاج ، وأبو على الصغار ، وابن درستويه ، وأبو الحسن الأخفش " الصغير " ، وكان المبرد زعيم مدرسة البصريين ، في الوقت الذي كان فيه أحمد بن يحيى ثعلب (٢) زعيم الكوفيين ، ويمتاز المبرد على ثعلب بفصاحة لسانه ، ووضاءة وجهه ، مما جعل الخلفاء والأمراء والوزراء يقبلون ، ويتنافسون في تكريمه .

---

(١) ابن جنى : الخصائص . تحقيق النجار ط. الهلال بالقاهرة ١٣٣١ هـ / جـ١ ص ١٩٦

(٢) ثعلب هو أحمد بن يحيى بن زيد . ولد ببغداد عام ٢٠٠ هـ وتوفي عام ٢٩١ هـ . كان معاصرا لأبي العباس المبرد وقامت بينهما مناظرات ومساجلات كان نحكم فيها للمبرد لمقدرته في الكلام من مؤلفاته : كتاب المصون وكتاب اختلاف النحويين وكتاب معاني القرآن وكتاب الموفقي في مختصر النحو وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب القراءات . وكتاب معاني الشعر . وكتاب التصغير وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف ، وكتاب ما يجري وما لا يجري وكتاب الهجاء وكتاب الأوسط وإعراب القرآن والمسائل وحد النحو وكتاب المجالس .

راجع ابن النديم : الفهرست ص ٧٤ وأيضا صابر أبو السعود : القياس في النحو أسيوط ص ١٣٦

مؤلفاته :

وللمبرد مؤلفات أشهرها " الكامل " و " المقتضب " في النحو ، و " الفاضل والمفضول " و " التعازي والمراثي " ، " ومعاني القرآن " والروضة والاشتقاق والأنوار والأزمنة والقوافي والخط والهجاء والمدخل إلى سيبويه والمقصور والممدود والمذكر والمؤنث وقواعد الشعر وقحطان وعدنان والمدخل في النحو وشرح شواهد الكتاب .

وكان المبرد قد ألف كتابه المقتضب في شيخوخته بعد أن أكتمل نضجه العقلي وعمق تفكيره . ولعل ذلك سبب ما يتصف به ذلك الكتاب من وضوح العبارة وبسط الأسلوب في عرضي قضايا النحو والصرف

وكتاب الكامل أشهر كتب المبرد ، وأكثرها فائدة للنحوي واللغوي والبلاغي ، وطالب الأخبار والأنساب ، لأنه قد حوي كل ذلك ، وقد يستطرد إلى مسائل الفقه والعقائد ، والتفسير و إلى كثير من العلوم الإسلامية ، ولأهمية الكامل قال عنه ابن خلدون إ " سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهي كتاب الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي على القالي البغدادي ، وما سوي هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها " .

ولكن كتاب الكامل ، حسب النظرة المعاصرة . لا يعد كتاب أدب بالمعنى الفني الحديث ، ولكنه كما قدمنا كتاب جامع في فنون المعرفة الدينية ، وكان المبرد واسع الأفق ، رحب الصدر ، متفتح الذهن ، لا يضيق بمناوئية ، ولا منافسيه ، حتى لقد روي الهجاء الذي قيل فيه ، فقد سئل ما أشد ما قيل فيك من هجاء ؟ قال قول الشاعر : سألنا عن ثمالة كل حي فقال القائلون ومن ثمالة ؟

فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جهالة وما أسهل الرد على قائل ذلك الشعر ، محمد بن يزيد لا يزيد قبيلته جهالة ، بل يرفعها ويرفع الأمة كلها إلى مواطن النجوم لما أداه للفكر العربي ، والبلاغة العربية من فن وعلم . (١)

---

(١) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة ترجمة المبرد وأيضا ياقوت : معجم الأدباء ترجمة المبرد

وإذا كنت بهذا التقديم للمبرد ، فلأني أود أن تتبين معالم أدب المبرد . ومدى رأيه في نقد الشعر ، وتأليف العبارة ، وإذا كان المبرد عني بالحديث عن الشعر من جميع نواحيه على مدى صفحات كتاب الكامل ، فإنه بعد المقدمة التى جعلها للنبي وأصحابه ، رصد الباب الأول لنقد الشعر ، الذي راعنا منه عنايته بتأليف العبارة ، فماذا قال ؟ وإلى أي حد يتفق والنقد الحديث ؟ وينبغي أن نعلم أنه كان مجددا ولا ينظر إلى القديم لقدمه ، فيطريه على طول الخط ولا ينظر إلى الحديث لحداثته فينقص من قدره ، **بل الميزان عنده واحد للقديم والحديث على السواء ، فالمدار على الإجادة أو كما يقول :** " وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطي كل ما يستحق ، وموقفي أنا معه موقف التلميذ المخلص والناقد معا ، ولست في هذا بعاق له ، ولا حائد عن طريقته ، بل سعيا إلى تبرئة سامته ، وتكفيلا لمذهبه وكان الأخفش الصغير (١) من خاصة تلاميذه في عصره ، ولكن الأخفش حين قرأ " الكامل " كتب تعليقات ناقدة ، مكملة منثورة في غضون الكتاب .

ولعلني أوافق الأخفش في أخذه على المبرد خطأه في بعض أسماء الأعلام ، ومما لم يلاحظه الأخفش خطأ المبرد في نسب خال هشام ابن عبد الملك ، فقد جعله من ولد هشام بن المنيرة ، والصواب أنه من ولد الوليد بن المغيرة ، فقد مدح جرير الخليفة هشام بن عبد الملك بقصيدة عصماء منها قوله :

سما بك خالد وبنو هشام إلى العلياء في الحسب الجسيم

قال أبو الحسن الأخفش " وهم أبو العباس في قوله : وبنو هشام ، وإنما وقع شعره وأبو هشام وهو الصحيح ، يريد إسماعيل ابن هشام ، وهو جده من قبل أمه " ولكن أبا العباس المبرد حين أورد النسب قال " : سما بك خالد يرد خالد بن الوليد ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ، وهذا صحيح ثم قال : لأن أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام ابن المغيرة وهذا خطأ ، لأن هشام الأخير أخو خالد بن الوليد ، وقد بني المبرد على الخطأ بيان منزلة (هشام بن المغيرة) فقال عنه أنه كان " أجل قريشي حلما وجودا ، وكانت قريش تؤرخ بموته كما كانت تؤرخ بعام الفيل ... قال الشاعر " زمان تناغي الناس موت هشام " ومن أجله يقول القائل : (٢)

فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

ووضع الأمور في نصابها أن تقول سما بك خالد وأبو هشام وهو الوليد بن المغيرة الذي لا يقل منزلة في قريش عن أخيه هشام ابن المغيرة ، وهشام أخو خالد سمي باسم عمه لمكانته في قريش ، وكان زعيم بني مخزوم عام غزوة بدر .

---

(١) الأخفش الصغير : هو أبو الحسن علي بن سليمان ، أخذ عن أبوي العباس : المبرد وثعلب وعن اليزيدي ولم يبلغ حد الكمال في النحو ، فكان يتبرم من السؤال فيه ، وله وقائع من ابن الرومي انتهت بالصداقة ورد مصر ثم عاد إلى حلب ضيقا على ابن مقلة .... ثم عاد إلى بغداد وله مصنفات منها كتاب التثنية والجمع توفي ببغداد عام ٣١٥ هـ راجع محمد الطنطاوي : نشأة النحو ... ص ١٧٧

(٢) ابن منظور : لسان العرب بولاق ١٣٠٧ هـ قصص جـ٨ ص ٣٤٤

أما هشام بن المغيرة فهو والد أبي جهل ، ومن الغريب أنه في فصل آخر أورد النسب سليما ، أقول هذا لأبرهن على أني مع المبرد في إحسانه ، وليس معه في أخطائه ... وإليك ما جاء منه في تأليف العبارة ، قال أبو العباس : " من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخم ، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه ، كما قيل لمحة دالة ، وقد يضطر الشاعر المغلق ، والخطيب المصقع ، والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق ، واللفظ المستكره ، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام عطتا على عواره ، وسترتا من شينه . وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ، كان ذلك له ، ولكن يغتفر السيئ للحسن ، والبعيد للقريب " ... (١)

وقبل أن نورد ما مثل به لمذهبه نناقش تلك القطعة في ضوء مفهومنا للكلام البليغ ، أشار أبو العباس المبرد إلى منهج العرب في الشعر والخطب والكتابة ، فبين خاصية العرب في حب الإيجاز . فالإيجاز مطلب صعب لا يحسنه كل قائل ، فهو يحتاج إلى حصافة العقل ، وتوهج الذهن وتملك اللغة ، والعربي الخالص فيه تلك الصفات ، وله اللمحة الدالة وتأليف العبارة تقتضي الوضوح ، ومن ثم قيل له بيان ، ولكن البيان يعتدره ما يشينه من استغلاق المعني ، واستكراه اللفظ ، فماذا ينبغي لمن وقع في صناعة الكلام ؟ (٢)

يري المبرد : أنه إذا أحيط بما يبينه من سياق العبارة . كان مقبولا " ويغتفر السيئ للحسن " ثم هو لا ينكر قول الآخر من أن المعني المستغلق ، واللفظ المستكره ، يكون العيب فيه أظهر وهذه قضية قام بها القدماء ، منذ عهد الجاحظ ، وقد وضحها وبين معالمها الإمام عبد القادر الجرجاني ، وأرجع كل نقص في العبارة إلى مخالفة النحو وقواعده ، وما من شك في أن المبرد وإن عفا عن الإساءة لمقارنتها للإحسان ، فإن أمثلته تضعه في جانب من ينكر استغلاق المعني ، واستكراه اللفظ وشتان بين هذا وبين استخدام اللفظ مهما كان حسنه أو قبحه ، فما دام اللفظ يتعاون مع سابقه ولاحقه ، ويبين عن مكنون ما في النفس ، فهو في قمة البلاغة ، ولا تحديد للفظ شعري أو غير شعري .

يقول أبو العباس مبينا نقده للكلام موردا الأمثلة لما يحسن وما يستهجن : ، فمن ألفاظ العرب البينة القريبة ، الحسنة الوصف الجميلة قول الحطيئة : وذلك فتى إن تأته في صنيعة إلى ما له لا تأته بشفيع وكذلك قول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٥
(٢) ابن جني : سر صناعة الإعراب جـ٣ ص ٨٣ وأيضا ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة نشر عبد المتعال الصعيدي القاهرة ١٩٥٣ ص ٥٨

وكما قال زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

ومما وقع كالإيماء قول الفرزدق (يهجو جريرا) :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضي عليك به الكتاب المنزل (١)

وهذه الشواهد لم يعلق عليها المبرد ما عدا البيت الأخير فإنه قال " فتأويل هذا أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهي الضعيف فقال : وقضي عليك به الكتاب المنزل " يريد به قول الله تبارك وتعالي : " **وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** " (٢)

ولو نظرت إلى قوله الحطيئة وقول زهير وهما مادحان لوجدت الألفاظ مفصلة على قدر المعاني ، فلا زيادة ولا نقصان ، وهذا ما يعرف في البلاغة بالمساواة تسمية الإيجاز والإطناب ، وهما يرسمان صورة مثلي للإنسان الرفيع والأسرة الكريمة ، أما عنترة فقد وصف نفسه بالشجاعة ، واحترس أن يكون دخوله في الحرب للمغانم ، فكان في بيته إطناب جميل ، لا يتم الوصف إلا به ، وهو قوله : " **وأعف عند المغنم " وهى جملة نسميها في البلاغة الإطناب " بالاحتراس "** .

والأبيات المختارة كلها تبين دور المبرد ونفاذه إلى الوقوف على الشعر الجيد المنشود ، وبه تدفع قول القائل : إن مختارات المبرد في الشعر ليست جيدة .

والمبرد وقد سبق عبد القاهر الجرجاني مثله في أن جمال تأليف العبارة يجيء حسب قواعد النحو التى تجيء أيضا ترجمة لما في نفس الشاعر أو الكاتب أو الخطيب ، فإذا ضعف المعنى في نفس القائل أو لم يتضح له ، ونبهت عليه طرق الأداء وقد اتخذ المبرد من الفرزدق سبيله إلى تطبيق مذهبه ، فأورد له شعرا غاية في التعقيد ، وشعرا غاية في الوضوح ، قال : ومن أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا تملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن المغيرة (المخزومي) ، وهو خال هشام بن عبد الملك ، فقال : وما مثله في الناس إلا ملكا ، يعني بالملك هشاما أبو أم ذلك الملك أبو هذا الممدوح . ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا ، وكان يكون إذا وضع الكلام في موضعه أن يقول : وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أم هذا المملك أبو هذا الممدوح ، فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد ، وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول :

---

(١) المرجع السابق ص ص ٥٨ - ٥٩ وأيضا ابن جني : الخصائص جـ٣ ص ٧٢
(٢) العنكبوت ٤١

تصرم مني ود بكر بن وائل ... وما كاد معني ودهم يتصرم
قوارص تأتيني ويحتقرونها ... وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

وكأنه لم يقع ذلك الكلام لمن يقول :
والشيب ينهض في الشباب كأنه ... ليل يصيح بجانبيه نهار

فهذا أوضح المعني وأغرب لفظا وأقرب مأخذا . هذا هو الكلام الذي وازن فيه المبرد بين شعر الفرزدق المعقد ، وشعره البين ، وأنت تجده أرجع ذلك إلى تأليف العبارة ، وإيقاع لفظها حسب المتعارف من قواعد النحو ، فالبيت " وما مثله في الناس ... " جاءه الفساد من التقديم والتأخير ، وفصل الصفة عن الموصوف على نقد المبرد ، اتخذوا هذا البيت مثالا للتعقيد ، الذي جاءه الوهن من مجافاة الشاعر لمنهج اللغة العربية . (١)

أما ما عاتب به قبيلة بكر بن وائل وما تحدث به عن الشيب ، فهو في غاية البلاغة . ألا تراه في العقاب يذكر (تصرم) التى تدل على تدهور العلاقة شيئا فشيئا ، ويورد الفاعل ، ثم يوضح ما أراده بقوله وما كاد مني ودهم يتصرم فتجد يتصرم ردا على الصدر ، مما يجعلك تقول معه وتنتهي إلى ما انتهي إليه ، والبيت الثاني يوضح ما جري قوارحي تأتيه بظنونها لا تؤذي ، وهى بتكرارها تملأ نفسه غيظا ، وهنا تكون القطيعة .

وبيت الشيب واضح الدلالة والتشبيه يقع موقعه ، والجمل تتقابل . الشيب ينهض في السواد ، يقابله ليل يصيح بجانبيه نهار ، فوصف الليل جعل التشبيه في مقام البلاغة الأصيل ، وكلمة ينهض تدل على ظهور شيء لم يكن ، وكلمة يصيح هى من صاح العنقود ، يصيح إذا استتم خروجه من أكمته وطال ، وهو في ذلك غصن ، تأليف العبارة حسب قواعد النحو ، وكل لفظ يؤدي الغرض فهو تشبيه حالة بحالة ، وهذا البيت في الشيب لقي حظوة عند عبد القاهر الجرجاني فجعله من التشبيه المصيب . ناهيك بتشبيه يجمع الحركة واللون ، وقد تلمح في يصيح " الصوت " . (٢)
يقول المبرد : ومن حسن الشعر وما يقرب مأخذه قول مخيس بن أرطأه الأعرجي ، والأحرج الحارث بن كعب من تميم ، لرجل من بني حنيفة يقال له (يحيى) ، وكان يصير إلى امرأة في قرية من قري اليمامة يقال لها (بقعاء) :

عرضت نصيحة مني ليحيى فقال غششتني والنصح مر وما بي أن أكون أعيب يحيى ويحيى طاهر الأخلاق بر ولكن قد أتاني أن يحيى يقال عليه في بقعاء شر فقلت له تجنب كل شيء يعاب عليك أن الحر حر

---

(١) المبرد : المقتضب ... تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية جـ٢ ص ١٥٥ وأيضا محمد عبد الخالق عضيمة : المبرد وحياته وأثاره . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٥ هـ ص ١٠٨ وما بعدها
(٢) المرجع السابق ص ص ١٠٨ ــ ١٠٩

لم يتعرض المبرد لشرحها تفصيلا ، ولكن عني ببعض فقراتها ، والمعني واضح ، فالشاعر يري أن صلة يحيى ببقعاء جعلته مضغة في أفواه الناس يلوكونها ، فنصحه ، فرماه يحيى بالغش ، مع أن الشاعر حريص على تنقية سيرة يحيى من الدنس ، لعلمه بطهارة أخلاقه ، وما عليه لو تركها حتى يسلم من ألسنة الناس ، ويسلموا من الإثم ؟ والشاعر مقتصد في تعبيره ، فكل معني له لفظ ، ولذلك يقول المبرد ... فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه ، وانظر إلى شرحه وتعليقه تجده يقول : وقوله " إن الحر حر " إنما تأويله أن الحر على الأخلاق التى عهدت في الأحرار ، ومثل ذلك " أنا أبو النجم وشعري شعري " أي شعري كما بلغك وكما كنت تعهد قولهم : الناس الناس أي الناس كما كنت تعهدهم ... وقوله " تجنب كلب شيء يعاب عليك " كقول عمر بن العاص لمعاوية حين وصف عبد الملك أبن مروان فقال : آخذ لثلاث تارك لثلاث : آخذ بقلوب الرجال إذا حدث ، ويحسن الاستماع إذا حدث ، وبايسر الأمرين عليه إذا خولف ، تارك للمراء ، تارك لمقاربة اللئيم ، تارك لما يعتذر منه (١)

كقوله : ... تجنب كل شيء يعاب عليك أن الحر حر ، والهدف من كل ما ذكرت وما لم أذكره ، أن أبين أن تأليف العبارة يجب أن يكون واضح الدلالة ، مرصوفا حسب قواعد اللغة ، ولو كان المعني عويصا يحتاج إلى كد الذهن ، فإن تأليف العبارة حسب القواعد يعين على الفهم ، والارتياح إلى التحصيل ، ومن ثم نرفض الشعر الحديث ، الذي يجيء تهويهات وتهاويل ، يكل الذهن عن بيان ما يعرضه الشاعر ، وقد يتصور الشاعر الحديث أن الرمز هو الأداء ، ولكن الرمز إذا زاد عن حده كان أصواتا لا تحمل معني ، وجميل من الشاعر أن يأتينا بالصور ، ولكن الصور ينبغي أن تكون مما يعكس مشاعر الشاعر ، ومما ترفضه أن يكون هناك أداء حسب التراث ، وأداء حسب اللغة المعاصرة ، فالفصحى هي الفصحى ، لها قواعدها ولها تراكيبها ، وإذا كان الأقدمون لهم معان وصور حسب رؤياهم ورؤيتهم ، فلنا نحن مثل ذلك في عصرنا ، فقد اتخذ الأقدمون وسائل القتال مثل السهم والسنان والسيف مجالا في الغزل وغيره ، فعلينا نحن المعاصرين أن نصنع صنيعهم حسب ما تملي المعاصرة . أما اللغة فهي الوعاء ، والوعاء يتضح بما فيه ... وأول المباديء في التعبير الوضوح .

ألا تري قول الله تعالي : " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان " (٢) فالبيان هو مطلب الإنسان فإذا ضاع البيان ضاع التأثير وفقد الارتياح ، وصرنا إلى التعقيد وهو شر ما يصاب به الأدب في ذلك الزمان ،

---

(١) المبرد : الكامل تحقيق د. تركي مبارك الحلبي ١٩٥٦ جـ١ ص ١٥٨ وما بعدها
(٢) الرحمن ١- ٤

إبراهيم بن السري الزجاج
توفي ٣١١ هـ / ٩٢٣ م

هو أبو إسحاق، ابراهيم بن السري بن سهل، الزجاج مولده سنة ٢٣٠ هـ أما نشأته فمجهولة من حيث التربية ومن المؤكد انه من أسرة فقيرة

ولو لم يكن فقيرا لما اضطر إلى العمل ، بمهنة الزجاج منذ حداثة سنه، فلقب با لزجاج، واشتهر بهذا اللقب وظل ملازما له حتى حين اصبح عالما لغويا نحويا شهيرا، ومؤدبا للوزراء، ونديما للخلفاء. درس النحو على ثعلب ثم تركه إلى المبرد حتى برع بين أصحابه .

شب ابن إسحاق عن الطوق، ووجد نفسه بحاجه الي ما يساعده علي هذه الحياة ، وما يجد خيرا من صناعة يستعين بها للحصول علي قوته، فعمل بمهنة الزجاج، وكانت هذه المهنة تكسبه كل يوم درهما ونصف الدرهم، وهذا كسب قليل لا يكفي الإنسان ليحيا حياة بسيطة ، وذلك لم يؤثر في نفس ابراهيم المحبة للعلم المتطلعة الي المجد، ولم يثبط همته العالية، فمال الي طلب العلم، وسعي إليه سعيا حثيثا وشغف بالأدب وعلوم اللغة شغفا عظيما، وجد من اجل ذلك دون كلل.. وقد وجد ضالته في حلقات الدروس التي كانت تزخر بها بغداد يوم ذاك، وفي الجوامع والمساجد وفي كل مكان. وقد لزم أول أمره أبا العباس احمد بن زيد بن سيار المشهور بثعلب المتوفى عام ٢٩١ هـ وأخذ عنه الشيء الكثير وقد كان ثعلب هذا عالم بغداد وإمامها ، وكان الزجاج أبرز تلاميذه وألمعهم، فجعل هذا أستاذه يفخر به ويعده ويدخره لساعة الضيق. وخير مثال لاعتماد ثعلب عليه حين طلب منه ان يناقش المبرد ليسكته ويفض الحلقة التى أحاطت به. (١)

لقاء الزجاج بالمبرد :

كان المبرد- المتوفى سنة ٢٨٥ هـ عالم البصرة ومنارها الشهير في زمانه. فلما استقدمه الخليفة المتوكل الي مدينة (سر من رأى) لفض النزاع في شان همزة(ان) في قوله تعالي :

" **وما يشعركم أنها إذا جاءت..**" مفتوحة هي مكسورة، أبدي من العلم والفضل ما جعل المتوكل يبقيه في (سر من رأى). وحين قتل المتوكل غادرها المبرد الي بغداد.. وظل يطوف فيها باحثا عن مأوي ولم يكن يعرف أحدا فيها وأخيرا انتهي به الطواف الي احد المساجد الملأي بالناس، إذا كان الوقت قد حان لأداء صلاة الجمعة.. فانتظر المبرد حتي فرغ الناس من أداء الفريضة ، وبدأوا يغادرون المسجد ليسعوا في مناكبها ، فوقف يتكلم بصوت عال كمن يجيب عن سؤال ، فلفت أنظار القوم، وجذبهم نحوه ، فتجمهروا حوله ، فواصل كلامه بأسلوب جميل ومنطق ساحر

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١١٩ ، ص ١٥٦وأيضا ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٣١٠

ولفت هذا الأمر عالم بغداد أبا العباس ثعلبا، وكان قد جمع حوله تلاميذه استعدادا لبدء الدرس، فما كان منه إلا ان طلب من أنبه تلاميذه إسكات هذا الصوت ، وفض تلك الحلقة ، وإعادة الهدوء الي المكان. فأسرع ابراهيم وهارون لمناقشة الزجاج من ان يجيبه عن سؤاله.. فما كان من المبرد إلا ان جود في الإجابة تجويدا بهر الزجاج وسحره، وأبقاه سادرا لا يدري ما يقول، ولا يعرف ماذا يعمل.. وعرف انه إمام لا يمكن الانتصار عليه ، وإمام محدث من العسير إسكاته، بل عالم عظيم وبحر زاخر ليس له أول ولا أخر.. وشيخ جليل يملأ السمع والعقل!! فأعجب به إعجابا شديدا، وأحس بأنه لا يستطيع ان يفارقه ، فاعتزم البقاء معه، لتلقي العلم علي يديه، وقال لزميله هارون: اذهب الي شيخك فلست مفارقا هذا الرجل (١)

التحمس للمذهب البصري في النحو واللغة :

وهنا تنتهي حياة الزجاج لتبدأ مرحلة يتلقى العلم فيها على يد المبرد فيصبح أشد المتحمسين للمذهب البصري في النحو واللغة ، إنه كان يتلقى دروس النحو مع غيره من علوم اللغة يوم كان يتلقى العلوم علي يد ثعلب، إلا أنه يريد اليوم شيئا جديدا. يريد ان يتخصص بالنحو فيكرس أكثر وقته ومعظم جهده له. ويريد أن يدرس النحو البصري الذي أعجبه منطقه وحججه ، ونظريته العقلية ، علي يد المبرد ، لا ذلك النحو الكافي الذي يميل الي الفطرة اللغوية ، ولا يعبأ بالمنطق في قليل أو كثير . قال أبو محمد درستويه النحوي: حدثني الزجاج، قال: كنت أخرط الزجاج ، فاشتهيت النحو، فلزمت المبرد لتعليمه. فالزجاج يشتهي النحو ويحب أن يأخذه عن أغزر عيونه وأعذبها موردا. لكنه لم يأخذه دون عناء، فقد اصطدم بادىء الأمر بصخرة صلدة لم يذللها إلا صبره وجلده، وزهده في المال مع فقره ، وقلة ذات يده، وحبه للنحو شغفه بالمبرد. فكيف تم ذلك ؟ (٢)

قال الزجاج : (وكان المبرد لا يعلم مجانا ، ولا يعلم بأجرة إلا علي قدرها . فلما سألته ان يعلمني قال لي: أي شيء صنا عنك ؟ قلت: أخرط الزجاج ، وكسبي في كل يوم درهم ونصف .. وسأعطيك كل يوم درهما علي أن تبالغ فى تعليمي، وذلك علي ان أعطيك هذا الدرهم إلي أن يفرق الموت بيننا ، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه..) وقد ظل الزجاج علي ملازمة أستاذه عهدا طويلا يتلقى العلم ويستفيد في كل ناحية.. ويخدم أستاذه في جميع أموره، ويقضي له شؤونه المختلفة، ويقدم له الدرهم كل يوم دون تلكؤ أو تأخير . وقد كان أستاذه لا يقصر في محض نصيحته ، وإعطائه ما أوتي من علم ومعرفة ، حتى بلغ الزجاج أعلى مراتب العلم ، واستطاع أن يستقل بنفسه ، وأصبح ذا درجة يمكنه معها أن يكون أستاذا .

---

(١) الزجاج : مجالس العلماء ... المناظرة من ص ١٦٤ ـ ١٦٧
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٦٠ وأيضا السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ١٠٨

وقد شهد له بذلك أستاذه ، فقد جاء المبرد كتاب " من بني (مارمة) بالصراة يطلبون منه معلما يعلم أولادهم النحو واللغة ، فدلهم على الزجاج فأرسلوا يستدعونه فأسرع إليهم وبدأ يعلم أولادهم النحو واللغة والأدب ، وبهذا يبدأ الزجاج دورا جديدا من حياته ، إذ أصبح معلما وأصبح ذا مورد ثابت يدر عليه مالا يعينه في هذه الحياة الصعبة ذات المطالب الكثيرة . ومع كل هذا ، مع مشاغله الكثيرة ، وبعده عن بغداد ، لم ينس أستاذه الذي كان له أكبر الفضل في تعليمه وبلوغه ما وصل إليه . فكان يرسل له في كل شهر ثلاثين درهم – وفاءا بالعهد – وبالإضافة إلى هذا كان يتفقده بين حين وآخر بما يستطيع . (١)

ولم تقف رعاية أستاذه له عند هذا الحد: ولم يقنع هو بما وصل إليه بل ظل يصبوا إلى المراكز العلمية ، وتهفوا نفسه إلى الغني والثراء ، والمجد والشهرة .... ولم تمض مدة على ذلك ، حتى طلب الوزير العباسي عبيد الله بن سلمان بن وهب من المبرد أن يدله على مؤدب لولده القاسم ، فلم ينس الأستاذ تلميذه الوفي ، فقال للوزير : " أعرف لك رجلا زجاجا يمكنه تعليم ابن الوزير ، وحضر الزجاج إلى بغداد ، وبدأ تعليم القاسم بن عبيد الله ، وكان ذلك سببا في غناه وشهرته وفي وفائه نحو أستاذه الذي لا يزال يرعاه ويدفعه إلى الأمام ... ولم يكن يقصر نحوه بالمال والعطايا بين حين وأخر

ومع دوران الأيام ودوامة الحياة التى لا ترحم نسي الزجاج أستاذه المبرد وتغافل عن بره وعطاءه . فما كان من المبرد إلا أن عاتبه بلين ، وذكره بلطف ، وحدثه بحديث العلماء . فحين حضر الزجاج مجلس أستاذه سأله قائلا : يا أبا إسحاق ! هل يقع حسد الإنسان إلا مع نفسه ؟ فقال الزجاج : لا . فقال المبرد فما معني قوله تعالي : " **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم** " ؟ فلم يفهم الزجاج قصد أستاذه من هذا السؤال ، فطلب أن يوضح قصده فقال المبرد : " ينبغي أن تعلم أن هناك أشياء قد بقيت عليك " . ففطن الزجاج لذلك وأعتذر لأستاذه ورجع إلى ما تعود عليه وأشترطه على نفسه ، ووعده بألا ينسي نذره بعد هذا ، ولا يعود إلى مثل هذه الهفوة . وقد كان ... ظل الزجاج محافظا على عهده مع أستاذه حتى حين أصبح نديما للوزراء والخلفاء . (٢)

وأصبح الزجاج أستاذا للقاسم ابن عبيد الله وأعجب التلميذ بأستاذه إعجابا شديدا ، لعلمه وأدبه وفضله ، فكان يجله ويحترمه و، ويقدره حق قدره ، ويظهر له ذلك كل حين ، وفي كل مناسبة ، ويبين أنه يرجوا أن يرد له دينه إذا ما استطاع ذلك . وقد لمح الزجاج هذا فيه ، وتأكد منه فقال له يوما : لا شك أنك مدرك مدي إخلاصي في خدمتك وتعبي في تعليمك وتأديبك ، فقد غذيتك العلم خالصا ، وأسديت لك النصح حتى صرت رجلا ، فلو أن الله تعالي بلغك مبلغ أبيك ، ووليت الوزارة فماذا تصنع بي ؟ فكيف يكون جزائي منك ؟ فأجابه القاسم ما أحببت . وهنا فكر الزجاج مليا ، وظل يقلب الأمر على شتي الوجوه ..

---

(١) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ص ١٠٨ – ١٠٩

(٢) المرجع السابق ص ١١٠

وعادت بـه الذكري إلى أيامه الأولي ، أيام الفقر والحرمان والتعب وشظف العيش ، ولما كان يحب أن يكون ثريا كثير المال شديد الغني لينسي تلك الأيام ، ولا يبعد شبح فاقتها المزعج ، أجاب : " تعطيني عشرين ألف دينار " . وقد حسب أن هذا أضخم مبلغ يسعد الإنسان ويجعل عيشه مرفها وحياته ناعمة ، إذ أنه قال : " وكانت غاية أمنياته " ورضي القاسم بهذا وجعله نذرا عليه ، لئن ولي الوزارة ليعطين أستاذه عشرين ألف من الدنانير ... ومضت السنون ، وتتابعت الأعوام وأصبح القاسم بن عبيد الله وزيرا .(١)

والزجاج لا يزال ملازما له ، فصار نديمه ورفيقه : يقضي معه الأيام والليالي ... وراودته نفسه أن يطلب من تلميذه الوفاء بالنذر ، فقد أصبح وزيرا ، لكن هيبة الوزير حالت دون ذلك ، فما استطاع أن يصرح له بذلك ولم تمض إلا ثلاثة أيام حتى قال القاسم لأستاذه : يا أبا إسحاق ، لماذا لم تذكرني بالنذر بعد أن من الله على بالوزارة ؟ فأجابه الزجاج : لم أك أحب أن أتسرع في هذا الأمر ، فقد تركته معتمدا على رعاية الوزير أيده الله ، واثقا منه بأداء ما عليه نحو أستاذه ، فهو لا يحتاج إلى من يذكره بنذر عليه في أمر خادم واجب الحق ، رباه وقدمه ، وأدبه وعلمه . وأعتقد الزجاج أنه قد أنجز الأمر ، وأصبحت الآلاف العشرون في قبضة يده .

لكن تلميذه قال : أنه الخليفة المعتضد يا أبا إسحق ... ولولا ما تعاظمني دفع ذلك المبلغ إليك . وأنني لا أستطيع معه أن أدفع لك ذلك . ثم قال : " أسمح بأن تأخذه متفرقا " . هدأت نفس الزجاج وأطمئن قلبه . ورضي باقتراح تلميذه الوزير . وقال " يا سيدي أفعل ما بدا لك . وتصرف كما تري ، فأنا لك مصغ ولأمرك مطيع . (٢)

فأقترح الوزير على أستاذه اقتراحا في غاية الطرافة إذ قال له : اعد لك مجلسا خاصا بين الناس ، وأجمع رقاع الشكوى والحوائج وغير ذلك مما يقدمه الناس إلى ، وقدمها بنفسك ، وأستعجل عليه مبلغا مناسبا يكون أجرا لهذا العمل . ولا تمتنع عن سؤالي في شيء ... إلى أن يجتمع لك مال النذر ... وفعل الزجاج هذا ... ويبدأ يعرض الرقاع كل يوم على الوزير فيوقع له فيها ويعيدها إلى أصحابها بعد أن يأخذ منهم ما يتيسر له من أجر . وكان القاسم يسأله أحيانا " كم ضمن لك على هذا ؟ " فيقول الزجاج : " كذا وكذا " ... فيعجب من قلة ما ضمن ، ويقول له : " غبنت يا أبا إسحق إن هذا يساوي كذا وكذا " .. فيرجع الزجاج إلى أصحاب الحاجة ويطالبهم الزيادة فيزيدون حتى يبلغ الحد الذي ذكره الوزير . واستمر الزجاج مدة من الزمن يعرض الرقاع ويحصل على أجر كبير حتى جمع أكثر من عشرين ألف دينار ، لكنه طمع في الزيادة والمال الوفير فاستمر في عمله ... وسأله القاسم بعد شهور وهو يعرض الرقاع عليه : يا أبا إسحاق ألم تحصل على مال النذر ؟ فأجابه الزجاج بالنفي . فسكت الوزير على مضض ... وسأله بعد ما يقرب من شهر السؤال نفسه ، فكان جواب الزجاج بالنفي أيضا ، خوفا من انقطاع الرزق ... وما زال حتى جمع ضعف النذر ، ولما سأله الوزير استحي أن يجيب بالنفي ، وغشي عاقبة الكذب ،

---

(١) المرجع السابق ص ١١١
(٢) المرجع السابق ص ص ١١١ - ١١٢

فقال : قد حصل ذلك ببركة الوزير ، أطال الله عمره فانبسط أسارير القاسم ، ويدأ عليه البشر ، وقال : فرحت ، والله يا أبا إسحق ، فقد كنت مشغول القلب ، أفكر في أمرك كثيرا ، الحمد لله الذي أتم نعمته بوفاء النذر ثم تناول الدواة فكتب إلى خازن المال أن يسلمه ثلاثة آلاف دينار صلة منه . فأخذ الزجاج فرحا ، وتسلم المال ... وقرر إلا يعود إلى مجلسه بعدئذ . وفي الصباح جاء الزجاج مجلس الوزير كعادته ، وجلس بالقرب منه . فأومأ إليه أن هات ما معك من الرقاع . فقال : لم أخذ اليوم من أحد رقعة ، ولم أجلس مجلسي المعتاد وكيف أقوم بهذا وقد تم الوفاء بالنذر ؟ فلم يرد القاسم بهذا الجواب ، وقال للزجاج : يا سبحان الله ، أتراني كنت أقطع عنك شيئا قد صار لك عادة ، وعلم به الناس ، وصارت لك به منزلة عندهم وجاه . وغدو ورواح إلى بابك ، ولا يعلم الناس سبب انقطاعه فيظنون ذلك ضعف جاهك عندي ، وتغير رتبتك لدي أعرض على الرقاع وخذ رسمك بلا حساب . فكاد الزجاج يطير فرحا ... وعاد إلى مجلسه من جديد . وأخذ يعرض الرقاع يوميا على الوزير ويقضي حاجات الناس ويفض مشاكلهم ، ويحصل على أجره حتى توفى القاسم بن عبيد الله ، إلى رحمة الله . وحصل بذلك على مال كثير .... وهكذا وهب الله الزجاج تلميذا وفيا جزاء وفائه لأستاذه . (١)

وظل الزجاج يعلو ويرتفع ، ويذيع صيته ، وهو ينادم الوزراء والأمراء ، حتى وقعت له حادثة جعلته نديم الخلفاء ... فإنه يقال أن أحد ندماء الخليفة المعتضد ذكر له كتاب (جامع النطق) الذي عمله أبو جعفر محمد بن يحيى بن أبي عباد النديم ، وقد جعل هذا الكتاب جداول . فأمر المعتضد وزيره القاسم بن عبيد الله أن يطلب من يفسر تلك الجداول ، فبعث بالكتاب إلى ثعلب وعرض عليه ، فلم يستطع حساب الجداول ، فأعاده قائلا : لست أعرف هذا . فأعطي الكتاب إلى الزجاج وتقدم به ، وعلت منزلته عند المعتضد حتى صار نديمه . وبذلك صار له رزقان : رزق الفقهاء ورزق الندماء . وأثري ثراء عظيما ... ومع هذا ظل وفيا لأستاذه المبرد . ولم يكن الوفاء وحده خير ما يتمتع به الزجاج ، فقد كان الرجل يتحلى بكل خلق كريم . وقد قال عنه ابن خلكان : " كان من أهل العلم والأدب والدين المتين " . فقد كان عالما يتمتع بخلق العلماء الأفاضل ، أديبا يمتاز بظرف الأدباء ، دينا يتحلى بورع الأتقياء من رجال الدين وأهل الإيمان المتين . (٢)

وكان من أهم ما سما به من الأخلاق السماحة والعفو عن الناس . وقد روي الناس في سماحته الكثير من القصص ، منها إنه أجتاز في يوم عيد النيروز بشارع الأنبار راكبا جوادا ، فصب عليه بعض الصبيان ماء ، فلم يغضب ولم يثر عليهم ، بل أخذ ينقص رداءه من الماء ، ويمسحه عن وجهه ، وهو يحاول أن يخفف من وقع الأمر ، وينشد :

---

(١) الزجاج : من مجالس العلماء ... المجلس ١٣٥ ص ٢٩٦ وأيضا السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ١١٢

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ترجمة الزجاج ص ٣١٠ وما بعدها

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه

وحدث خلاف بينه وبين أحد العلماء وأسمه (مسينة) ، أغضب الزجاج ، وأفلت منه شتم مسينة فكتب إليه يقول :

أبي الزجاج إلا شتم عرضي لينفعه قائمه وضره
وأقسم صادقا ما كان حر ليطلق لفظه في شتم حره
ولو أني كررت لفر مني ولكن للمنون على كره
فأصبح قد وفاه الله شري ليوم لا وفاه ال له شره

ولم يكد الزجاج يسمع بهذا حتى أسرع إلى مسينة واعتذر إليه وسأله فصفح عنه .

مؤلفاته :

لقد كان الزجاج مثال العصامي الذي وصل من أدني منزلة إلى أعلى المراتب .... وكان رجلا فذا خلف تراثا أدبيا علميا عظيما ، وثروة خالدة تبين مدي ما كان يتمتع به من النبوغ والذكاء . وقد ضاع أكثر هذه الكتب ولم يصل منها إلا القليل . بعضه قد طبع ، وبعضه الآخر لا يزال مخطوطا ملقي في بطون المكتبات ينتظر من يهتم به ويطبعه .

ومن كتبه :

(١) كتاب سر النحو (٢) كتاب الإبانة والتفهيم عن معني بسم الله الرحمن الرحيم (٣) كتاب خلق الإنسان (٤) كتاب خلق الفرس (٥) كتاب معاني القرآن (٦) كتاب ما فسر من جامع النطق (٧) كتاب الاشتقاق (٨) كتاب العروض (٩) كتاب القوافي (١٠) كتاب الفرق (١١) كتاب الأمالي (١٢) كتاب ما ينصرف وما لا ينصرف (١٣) كتاب مختصر في النحو (١٤) كتاب شرح أبيات سيبويه (١٥) كتاب الأنواء (١٦) كتاب وفعلت وافعلت (١٧) كتاب النوادر .

للزجاج تلاميذ كثيرون تلقوا العلم على يديه ، وتأثروا به وبفضله ، وحفظوا له العهد وأطالوا الود ، حتى أن أحدهم نسب إليه فقيل الزجاجي ، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق ، أصله من أهل نهاوند وتوفى سنة ٣٣٩ هـ . ومنهم ابن ولاد ، وهو أبو العباس أحمد ابن محمد من أهل مصر توفي سنة ٣٣٢ هـ

ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس توفى سنة ٣٣٨ هـ ، وأبو على الفارسي الذي كان أستاذا لكثير من العلماء كابن جني وغيره . (٢)

---

(١)الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ١١٩ وأيضا ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٣١٠
(٢) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ١١٤

ابن دريد الأزدي
صاحب معجم الجمهرة (١)
(٢٢٣ – ٣٢١ هـ) (٨٣٧ – ٩٣٣ م)

صاحب معجم الجمهرة هو ابن دريد الأزدي الذي ولد بالبصرة في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م . وأخذ العلم عن جماعة من كبار البصريين في زمانه كأبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي ، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي وغيرهم . وكان ممن أكسبوا مدرسة البصرة شهرة وازدهارا بتميزه بالعلم والشعر . ولزم البصرة حتى سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م حين هاجمها الزنوج ونكلوا بكثير من أهلها ، فرحل عنها مع عمه الحسين وقصد إلى عمان – وطن قومه الأزد - ، فأقام بها اثنتي عشرة سنة ثم عاد إلى البصرة ، وبعد ذلك خرج إلى فارس ووفد على عبد الله بن محمد بن ميكال ، وكان والي نيسابور عاصمة خراسان ، فنال حظوة في عينيه وعيني ابنه إسماعيل ، فمدحهما بقصيدته المشهورة ، وهناك ألف معجمه " الجمهرة " ولما عزل إسماعيل سنة ٢٨٠ هـ / ٩٢٠ م ، قدم ابن دريد إلى بغداد ، وعين له الخليفة المقتدر راتبا شهريا ليتوفر على العلم والتعليم .

ظهر المعجم الجمهرة في القرن الثالث للهجرة ، وقال صاحبه في مقدمته : وإنما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر .

مقارنة بين الجمهرة والعين :

نسج ابن دريد في تأليف معجمه على منوال " العين " للخليل ، إلا أن هناك اختلافا بينهما من ناحية الترتيب والتنظيم ، فالخليل كان يجمع كل الصيغ التى تشتق من مادة تحت مادتها ، فإذا كانت اسما ذكر مفرده وجمعه ، وإن كانت فعلا ذكر ماضيه فمضارعه فمصدره ثم الصفة منه ، فهو من هذه الناحية يميل إلى نوع من التنظيم والتنسيق في معالجة هذه الصيغ ، بينما نري صاحب الجمهرة يوزع صيغ المادة الواحدة على أبواب متباعدة ، ويحاول أن يربط بين الصيغ الفرعية والأصلية ، ولكنه في آخر الأمر يغلب عليه التشويش والفوضى ، إذ كثيرا ما كان يبدأ بالفعل اللازم والمتعدي والمجرد ، ويهمل إهمالا تاما قضية الفعل ، فلا يتطرق إلى ذكر مصدره والصفة منه . وفي الوقت نفسه ، لا نجد عند ابن دريد الدقة والوضوح في تفسيره للقواعد الصرفية والنحوية كما نجدها عند الخليل الذي – وإن سبقه في الزمن – فاقه في بعض المزايا .

---

(١) هذا المعجم نشره المستشرق كرنكو F,Krenkow في حيدر أباد بالهند عام ١٣٤٤ – ١٣٥١ هـ

على أن لابن دريد حسنات ومميزات ، فقد تجنب النظام الذي اتبعه الخليل ، فأهمل ترتيب معجمه على المخارج ، وسار على الترتيب السهل الشائع للألف باء ، وابتكر تبويبا جديدا في المواد نفسها ، وزاد الأبواب اللغوية من المعجم وصيغا كثيرة أهملها صاحب العين . وكانت هذه الزيادة من الكثرة **بحيث اعتمد عليها الموسوعي الكبير ابن التياني القرطبي في معجمه " الموعب "** الذي ظهر في صدر القرن الخامس ، وكان هذا المعجم من أضبط المعاجم وأصدقها رواية .

لقد اقتبس ابن دريد الشيء الكثير في اللغة والأدب والتاريخ ، واستمد الكثير من الشواهد القرآنية ، وعني بالمعرب والدخيل من الحبشية أو الرومية أو السريانية والعبرانية أو النبطية أو الفارسية ، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين على حد قول المسعودي صاحب مروج الذهب ، وأورد كذلك كثيرا من الألفاظ من لغات اليمن فاق بها الخليل ، ومع ذلك فقد رماه أبو منصور الأزهري صاحب معجم " تهذيب اللغة " وأحمد بن فارس صاحب معجم " مقاييس اللغة " بافتعال العربية وتوليد الألفاظ ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم وهذه التهمة التى رمياه بها لم تكن صحيحة ، لأنه لم يكن جامدا متزمتا في تفكيره كغيره من اللغويين ، إنما كان ذا عقلية جبارة يزينها التجدد والابتكار . (١)

لقد كان ابن دريد أكبر علماء عصره في اللغة وأقدر النقاد ، لذلك كان يطلق عليه **" أعلم الشعراء وأشعر العلماء "** . وكان ابن الطيب اللغوي يقول عنه في كتابه (مراتب النحويين) : " هو الذي انتهت إليه لغة البصريين وكان أحفظ الناس وأوسعهم علما وأقدرهم على الشعر ، وما أزدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر ابن دريد . وكان رجال اللغة يحتجون بأقواله ويستندون إليها ، منهم أكبر الموسوعيين وأوسعهم شهرة ابن منظور الذي ضم معجم " الجمهرة " من جملة ما ضم من معاجم في معجمه الضخم (لسان العرب) . ونظرا لقيمته اللغوية اختصره الصاحب بن عباد في كتاب سماه (الجوهرة) ولو وقفنا على أخباره وسيرته لوجدناها مملوءة بكل ما يبهج القلوب ويسر النفوس ... لا يخلو مجلسه من آلات الطرب والمطربين والمغنيين ، فهو يعطي العقل حقه والنفس حقها وحياته مزاج من العلم والنعيم . (٢)

الطعن في معجم الجمهرة :

لم يسلم هذا المعجم من مآخذ اللغويين ولذعات النقاد ، فقد طعن فيه نفطويه أحد أئمة النحو والأدب مدعيا إن كتاب الجمهرة مسروق من كتاب العين إلا أن السيوطي أنكر عليه ذلك بقوله " ولا يقبل فيه طعن لأنه كان بينهما منافرة عظيمة " ، والحقيقة أن نفطويه (٨٥٩ – ٩٣٥ م) كان متحيزا تحيزا شخصيا إذ كان يكن كراهية خاصة لابن دريد بسبب معاقرته الخمر . قال نفطويه هاجيا له :

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ص ٨١ وأيضا الأزهري: تهذيب اللغة ص ٢٩١ وأيضا ابن فارس : مقاييس اللغة ص ٢١٢

(٢) ابن الطيب : مراتب النحويين وأيضا ابن منظور : لسان العرب

ابن دريد بقره وفيه عي وشره
ويدعي من حمقه وضع كتاب الجمهرة
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره

فرد عليه ابن دريد بقوله :

لو أنزل الوحي على نفطويه لكان ذلك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعي اسمه مستأهل للصنع في اخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخا عليه

من هذه الأبيات نستطيع أن ندرك شاعرية صاحب الجمهرة الذي يذهب بالشعر كل مذهب ، فطورا يجذل وطورا يرق ، فاسمعوه يقول : (١)

غراء لو جلت الخدود شعاعها للشمس عند طلوعها لم تشرق غصن
غصن على دعص تأود فوقه قمر تألق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن : " احتكم " لم يعدها أو قيل " خاطب غيرها " لم ينطلق
وكأننا من فرعها في مغرب وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها " الويل حل بمقلة لم تطبق "

وقوله :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

ولاشك أن صاحب هاتين القطعتين كنز من كنوز اللغة لا يجاريه أحد في عصره قوة في الذاكرة وسعة في الإطلاع ،حتى ليقال بأنه أصبح نظيرا للخليل بن أحمد الفراهيدي ... وقد ألف ابن دريد كتابين الجمهرة والاشتقاق وهما يعتبران من أهم الكتب التى ألفت في اللغة والنحو ... (٢)

---

(١) ابن دريد الأزدي : جمهرة اللغة . تحقيق كرنكو . حيدر أباد الدكن بالهند جـ ٣ ص ٣٣٣
(٢) ابن درستوية : تصيح الفصيح . تحقيق عبد الله الجبوري بغداد ١٩٧٥ جـ١ ص ١٤٨ وما بعدها

القصيدة المقصورة :

وقد اشتهر صاحب " الجمهرة المقصورة بقصيدته التى مدح بها آل ميكال ، وهى تشتمل على مائتين وثلاثة وخمسين بيتا ، ينتهي كل بيت منها بألف مقصورة ، ويقال انه أحاط في هذه القصيدة بأكثر المقصور (٢). وقلده في هذا النوع من الشعر من جاء بعده من الشعراء ، وعني بشرحها والتعليق عليها عدد من كبار الشراح منهم : محمد ابن أحمد بن هشام اللخمي (٥٧٠ هـ / ١١٧ م) ، وأبو زكريا التبريزي (٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) ، والإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب " الجامع " في اللغة (ت ٩٥٣ هـ / ١٠٢١ م) وغيرهم كثيرون . ونظرا لشهرة هذه القصيدة وتداولها بين الناس ، نشرها أحمد جودت المقدسي المعروف بالعكاري الطرابلسي في طرابلس سنة ١٣١٩ هـ ، وترجمها المستشرقون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كما ترجمها بعضهم إلى اللاتينية .

وقد خمس القصيدة المقصورة سعد بن على الأربلي ، وعبد الله بن عمر الأنصاري الوزير (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) وشرف الدين الحسن بن الحسين بن على وغيرهم . وأورد هنا كنموذج لهذه القصيدة المشهورة ثلاثة أبيات مخاطبا فيها امرأة يذكر لها مشيبه وذهاب أيام لهوه : (١)

إما تري رأسي لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسودة ... مثل اشتعال النار في جزل الغضي
فكان كالليل البهيم حل في ... أرجائه ضياء صبح فانجلي

أما مطلعها فهو :

يا ظبية أشبة شيء بالها ... ترعي الخزامي بين أشجار النقا

قصائد أخرى مشهورة :

ولابن دريد قصائد أخرى مشهورة منها : " **المقصور والممدود** " نظمها في خمسة وعشرين بيتا يحتوي كل منها على كلمتين متماثلتين ، إحداهما مقصورة والأخرى ممدودة مع شرح فروق المعاني بينها في بعض الأحيان ، وله قصيدة في ثلاثة عشر بيتا عن أعضاء الإنسان المذكرة والمؤنثة ، وله أيضا قصيدة على حرف الظاء نظمها سنة ٣١٦ هـ وموجودة في المتحف البريطاني . وله مرثيتان الأولي في الإمام الشافعي ، والثانية في ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) وذكرهما الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٢ م) في كتابه " تاريخ بغداد " وله قصيدة يهجو فيها أبا نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٨ م) وله أيضا قصيدة يمدح فيها يحيي بن عبد الوهاب الكاتب . (٢)

---

(١) رمضان عبد الوهاب : فصول في فقه العربية ص ٢٩٢
(٢) ابن الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد

ونشر معجم " الجمهرة " في حيدر أباد بالهند في ثلاثة أجزاء سنة ١٣٤٤ هـ ، وطبع لها فهارس في جزء رابع بعناية كل من الشيخ محمد السورتي ، والمستشرق البريطاني كرنكوف (١٨٧٢ – ١٩٥٣) ومنه مختصر لا يعرف مؤلفه في المتحف البريطاني ، في قسم " براون للدراسات الشرقية " . وله غير " الجمهرة " كتب كثيرة منها كتاب مشهور موضوعه ، " اشتقاق أسماء القبائل "

يبحث في أسماء القبائل والعمائر وأفخاذها وبطونها وساداتها وشعرائها على شكل معجم ، ويتضمن فوائد لغوية جمة ، ونشره المستشرق الألماني فردينال وستفلد (١٨٠٨ – ١٨٩٩) في جونتجين ببروسيا في جزءين سنة ١٨٥٣ – ١٨٥٥ ، وقد نفدت نسخه ، فأعاد نشره محققا الأستاذ عبد السلام هارون بالقاهرة عام ١٩٥٨ .
وعرض لابن دريد وهو في التسعين من عمره فالج فبرئ منه ، ثم عاوده بسبب غذاء ضار تناوله ، وتوفي عام ٣٢١ هـ ، فيكون قد عاش ٩٨ سنة ، وقد رثاء جحظة البرمكي (٢٢٤ – ٣٤٢ هـ) بقوله :

فقدت بابن دريد كل فائدة ... لما غدا ثالث الأحجار والترب
وكنت أبكي لفقد الجود منفردا ... فصرت أبكي لفقد الجود والأدب

إسماعيل بن القاسم المعروف بتاج على القالي
" صاحب معجم البارع "
(٢٨٨ – ٣٥٦ هـ) (٩٠٠ – ٩٦٦ م)

ولد القالي ونشأ في مناز جرد من منطقة ديار بكر على ضفة الفرات عام (٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م) وطاف البلاد ، وسافر إلى بغداد وأقام فيها ووجد في بغداد أئمة الحديث واللغة وكبار الرواة ، منهم أبو داود السجستاني صاحب السنن المتوفى ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م وأبو بكر مجاهد المقري المتوفى ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، وإبراهيم بن السري الزجاج المتوفى ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وهو تلميذ المبرد ، وابن دريد صاحب الجمهرة في اللغة المتوفى ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م وغيرهم كثيرون ، فأخذ عنهم وذاع صيته في بغداد وتحدثت به الوفود ، وظل ببغداد ٢٥ عاما إلى أن عمت شهرته الآفاق . واتصل هناك بأكابر العلماء ، فأخذ الأدب عن أبي دريد وأبي بكر بن السراج والأخفش الأصغر ، وأبي بكر السجستاني ، وقرأ كتاب سيبويه حرفا حرفا . ولما لم ير – بعد دأب خمس وعشرين سنة قضاها في هذه المدينة – أن دراساته قد أينع ثمرها وآتت أكلها ، رحل إلى قرطبة بالأندلس ، وعند دخوله هذه المدينة استقبله وفد من وجوه قرطبة بينهم عدد من العلماء والشعراء ، ومدحه الشاعر المشهور يوسف بن هرون الكندي المعروف بالرمادي بقصيدة قال فيها :

روض تعاهده السحاب كأنه	متعاهد من عهد إسماعيل
قسه إلى الأعراب تعلم أنه	أولي من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت	فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق حال بعده فكأنما	نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت في غربنا	وتغيبت عن شربهم بأفول

هذه الأبيات التى استقبل بها القالي تدل على المكانة الرفيعة التى كان يتمتع بها عندما استوطن الأندلس في أيام عبد الرحمن الثالث الناصر بالله ، وقد تلقاه أميرها أبو العاص الحكم ابن عبد الرحمن الناصر بالحفاوة والإكرام . ويقال إنه هو الذي كتب إليه ، ورغبه في القدوم وكان معروفا بحبه للعلم ، وتشجيعه للعلماء ، وكانت لدي الحكم رغبة شديدة في اقتناء الكتب ، وكان يبعث بالتجار إلى الأقطار ومعهم الأموال لشراء الكتب وجلب المؤلفات النفيسة من الأقاليم والنواحي . ومما يذكر أن الحكم بعث بألف دينار من الذهب إلى أبي فرج الأصفهاني ليرسل له كتابه الأغاني فبعث له بنسخته قبل أن يخرجه إلى العراق .

واتخذ القالي من قرطبة مكان إقامة له قال ياقوت : " وانقطع بالأندلس بقيه عمره وهناك أملي كتبه ، أكثرها عن ظهر قلب وأخذ الحكم ينشطه على التأليف بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام ، فحفزه ذلك على تأليف كتب كثيرة في طليعتها معجم " البارع " الذي رتبة بحسب مخارج الحروف كما فعل الخليل بن أحمد صاحب " العين " ففرق بين بعض الأبنية التى حصرها الخليل في باب واحد ، وخصص لها ستة أبواب ، ثم اعتمد رهطا من اللغويين الموثوقين لهم . (٢)

فكان يستشهد بأقوالهم إزاء كل مادة وينسب كل قول إلى صاحبه . وهناك ناحية على جانب كبير من الأهمية في هذا المعجم وهى ضبط الحروف بالشكل التام خوفا من اللبس . ولم يكتف بذلك بل أورد أوزان الكلمة كوزن فعل وفعال وفعالة وفعله وفعله وما إلى ذلك من الأوزان التى يدل كل وزن منها على معني مختلف . وقد زاد في مادة قاموسه على كتاب الخليل مما حمل ابن خير على القول " وزاد على كتاب الخليل نيفا وأربع مئة ورقة مما وقع في " العين " مهملا ، فأملاه مستعملا ، ومما قلل فيه الخليل ، فأملي فيه زيادة كثيرة دون شاهد فأمل الشواهد فيه .

لقد تميز بالدقة والضبط والإتقان وأمانة النقل وهذا ما يتصف به العلماء والأكاديميون ، فقال عنه الحميدي الأزدي في معجم الأدباء لياقوت " كانت كتبه على غاية التقييد والضبط " وقد وصف جلال الدين السيوطي معجم " البارع " بقوله " وأصح كتاب وضع في اللغة على الحرف " بارع " أبي على البغدادي " . (٣)

---

(١) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة ص
(٢) ياقوت : معجم الأدباء . نشر أحمد فريد رفاعي . القاهرة ١٩٣٦ . صاحب معجم البارع
(٣) المرجع السابق ص ١٣٢ وأيضا السيوطي : الأشباه والنظائر في النحو ... ص ٨١

وقد تناول بعض المستشرقين معجم " البارع " بالدراسة منهم المستشرق البريطاني Fulton الذي كتب عنه مقالا مستفيضا أتي فيه على ذكر مخطوطاته ، ونشر صورة قسم مخطوط منه في لندن سنة (١٩٣٣) .ويوجد هذا المخطوط في المتحف البريطاني .

وبعد ظهور " البارع " بالأندلس في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ظهر للمؤلف كتاب آخر باسم " الأمالي " اشتهر بين المتأخرين والمتقدمين وسمي بالأمالي لأنه أملاه عن ظهر قلب . وقال القالي في مقدمة هذا الكتاب " وأودعته فنونا من الأخبار وضروبا من الأشعار وأنواعا من الأمثال ، على أني لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضربا من الشعر إلا اخترته ، ولا فنا من الخبر إلا انتحلته ، ولا نوعا من المعاني والمثل إلا استجدته "

ونشر كتاب " الأمالي " مع كتاب " النوادر والذيل " للمؤلف نفسه في جزئين في مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هجرية ولهذه الطبعة " فهارس أشعار الأمالي " أعدها المستشرقان البريطانيان كرنكو وبيفن وطبعت في ليدن بهولندا عام (١٩١٣) (١) .

ولما طبع كتاب " الأمالي " بمطبعة دار الكتب المصرية في أربعة أجزاء احتفل به أدباء مصر احتفالا دل على اهتمامهم به وتقديرهم له وشكر الدكتور أحمد زكي أبو شادي أنذاك من أهدي إليه نسخة منه .

وقد طبع الأمالي في المرة الأولي والثانية على نفقة ملتزمة إسماعيل يوسف بن دياب الذي سجل حقوق طبعه في المحكمة المختلطة إذ ذاك تحت رقم ٢٠٥ ثم سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٦ م طبع كتاب متصل بالأمالي وللبكري أيضا . واسمه سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ، وكان ذلك في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . وكان ذلك بتحقيق العالم الجليل عبد العزيز الميمني ، وألحق الأستاذ عبد العزيز الميمني جزءا ثالثا لسمط اللآلي وقال أنه ذيل للآلي كتب على هذا الجزء أنه شرح لذيل أمالي القالي ، ولصلة ذيله وتنبيه على أغلاطة المعدودة فيها للعاجز عبد العزيز الميمني ، ثم ألحق بكل ذلك فهارس وافية واستدراكات .

فالأمالي وذيله ونوادره والتنبيه على أوهامه ، وسمط اللآلي ، وذيل اللآلي ، كلها صارت أمرا متكاملا . جمعت من النفع والفائدة مالا يغني أحدها عن الآخر ، لأنها توضع وتنسب وتشرح كلها تعاون علمي وثيق وعناية بالتراث تشرح الصدور (٢) . وعلى ذكر كتاب " الأمالي " أقول – أتمني على الذين لم يطلعوا على هذا الكتاب من كتابنا وأدبائنا أن يبادروا إلى مطالعته وإمعان النظر فيه ، ففيه ثروة من المفردات والتعابير اللغوية ، والتراكيب الصحيحة وقصائد بلغت أعلى مراتب البلاغة والجودة ، كما انصح لحديثي العهد بالكتابة أن يقتنوا هذا الكتاب النفيس الذي سيوصلهم حتما إلى أعلى درجات الكتابة والإنشاء . وتوفي أبو على القالي في قرطبة سنة ثلاث مئة وست وخمسين هجرية (٣٥٦ هـ) رحمه الله .

---

(١) القالي : الأمالي . نشر كرنكو وبيفن . ليدن هولندا المقدمة
(٢) المرجع السابق ص ٣٦

أماكن الدراسة الآن محددة المعالم والبقاع ، ولها نظم وشروط في الأعمار والأجناس والتحصيل ، أما أماكن الدراسة في القرون الخمسة الهجرية الأولي فكانت مباحة لكل قاصد وراغب ، طالما كان له ميل إلى ذلك المعروض . قد يكون هذا في المساجد ، وقد يكون في مجالس عامة أو خاصة ، وقد تكون لدي الحاكمين وذوي الجاه واليسار ، ولكن لا يصل إليها في الحال الحاكمين والوجهاء والموسرين إلا الصفوة المختارة . وأخيرا يجيز الأستاذ من يرتضي علمه ، ويثق بكفايته فيصير من حقه أن يتحدث ويروي متى أنس في نفسه القدرة على الإلقاء والبيان .

والذي يلقي على الطلاب ليكتبوه هو " املاء " أو هو " املال " تقول أملي عليهم الأستاذ قصيدة يمليها املاء . ولك أن تقول أمل عليهم يمل املالا . وهذه كلمة " أمللت أمل املالا " لغة الحجازيين وبني أسد ، وبها جاء في القرآن في سورة البقرة " **فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل** " . (١)

وكلمة " أملي املاء " هي لغة بني تميم وقيس ، وبها جاء في القرآن في سورة الفرقان " وقالو أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا " . (٢)

والتلميذ يستملي أستاذه ، تعني بذلك أنه يسأله أن يملي عليه ، ومن هذا قالوا للذي يطلب املاء الحديث من شيخ أنه " المستملي " .

الأمالي كما يقول صاحب " كشف الظنون " جمع الاملاء ، وفسرها " وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالي عليه من العلم ، ويكتبه التلامذة ، فيصير كتابا ، ويسمونه الاملاء والأمالي . وعلماء الشافعية يسمون مثله التعليق " . (٣)

ويبدو أن الاملاء وجمعه الأمالي مثل الإعراب في النحو وجمعه أعاريب . وأعاريب أيضا جمع أعراب التى قد تكون جمع أعرابي . واملاء " مصدر " لكنه لما صار اسما جاز جمعه ، ومثله أحساس وأحاسيس ، وعلى وزنه أعصار وأعاصير .

---

(١) البقرة ٢٨٢
(٢) الفرقان ٥
(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . تحقيق مصطفي عبد الله مصر ١٢٧٤ هـ

على أن أفاعيل تكون جمعا لمثل أفعول ، كأسطول وأساطيل ، وأفعيل مثل أبريق وأباريق ، وأزميل وأزاميل . وأكثر ما تأتي أفاعيل جمعا لأفعولة مثل أسطورة وأساطير وأرجوزة وأراجيز وأنشودة وأناشيد . وأثفيه وأثافي وأغنية وأغاني وأحجية وأحاجي . ولك أن تخفف مثل الأغاني والأحاجي والأثاقي والأمالي فنقول الأغاني والأحاجي ... (١)

تختلف الأمالي باختلاف المملين :

ونحن نلحظ أن ما يملي يختلف باختلاف العالم المملي ، وتبعا لميله وما برع فيه . ويغلب في الأمالي أن يبدأ الأستاذ الدرس بآية من القرآن ، أو بحديث ، أو بالمأثور من الشعر أو النثر ، ثم يتلو ذلك شرح ما أملي ، متناولا اختلاف الإعراب أن كان نحويا ، ويستطرد في الأمثلة والشواهد ، أو متناولا ما في ذلك من لغة أن كان لغويا ، فيشرح الألفاظ وما يتصرف منها ومعانيها ، محتجا لذلك بالمأثور عن العرب وأقوال الأئمة السابقين ، ويحاول أن يأتي بالطريف الظريف ، ومن كان محفوظه الأدبي وافرا كان ما يأتي به ويورده أمتع وأجمل ممن كان همه غريب اللغة أو اختلاف الإعراب . ولا يخلو ما يأتي به الأديب من فائدة لغوية يسوقها ، أو إبداء رأي في توجيه إعرابي ، ولكنه يأتي بذلك على فوت وندرة ، كما تأتي التوابل بين الشهي من الطعام ، فلا تغلب ولا تطغي ولا تخلو الأمالي من مأثور الخطب ، ولطيف الحكم والأمثال ، وجزل التعابير . يتخلل كل هذا قصار الحكايات والأقاصيص وبعض الفكاهات .

وفي الأزمان السابقة ، حين لم تكن مطابع ، ولا توجد آلات الكتابة ومتطلباتها إلا بمشقة ، أنعم الله على أولئك السابقين بصفاء الأذهان ، وقوة الحافظة وقلة

وكتب الأمالي التى أوردها " حاجى خليفة " صاحب " كشف الظنون
" نذكر منها : أمالي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحنفي المتوفى ١٨٣ هـ وهى في الفقه . أمالي ابن دريد في العربية " لغة " . أمالي ابن الشجري المتوفى سنة ٥٧٢ هـ أملاه في أربعة وثمانين مجلسا وختمه بمجلس قصره على أبيات من شعر المتنبي تكلم عليها وذكر ما قاله الشراح فيها وزاد من عنده . أمالي ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ وأكثرها حديث . أمالي الزجاجي في النحو . أمالي ابن الحاجب أبي عمرو عثمان بن عمر النحوي المتوفى سنة ٦٧٢ وهى تفسير بعض الآيات وفوائد شتى عن النحو .

هذا ولما كان ما يملي يكون في مجالس متعددة قيل له " مجالس " ولما كان أكثره نوادر في اللغة والشعر قيل له نوادر ومما هو مطبوع ويتداوله الناس الآن :

أمالي اليزيدي ، أمال القالي ، أمالي الزجاجي ، أمالي ابن الشجري ، أمالي الشريف المرتضي ، المسماة " غرر الفوائد ودرر القلائد " ، وهناك مجالس ثعلب . والنوادر لأبي زيد ولأبي مسحل ... وغيرهما لكن المتعارف عليه الآن عند اطلاق كلمة " الأمالي " هو ما ألفه " القالي " وهو المراد بمقالتنا هذا .

أما إذا أردت الأمالي الخاصة بغيره فإنك تذكرها بالإضافة إلى صاحبها ، من ذلك " أمالي ابن الحاجب " وأمالي ابن الشجري ... ومثل ذلك في المتعارف عليه " الحماسة " ، أما غيرها فيذكر بالإضافة إلى صاحبه ، مثل حماسة البحتري ، وحماسة الخالدين وحماسة ابن الشجري أو تذكر موصوفة مثل الحماسة البصرية .

المشاغل ، والتوجه إلى العلم رغبة في العلم ، وعملا بما نصحوا به من أن العلم يرفع دورا لا عماد لها ، وأنهم إن كانوا سوقة فبالعلم يسودون ، وإن كانوا سادة فبالعلم يتجملون ويفوقون ، فعكفوا عليه يحفظونه ، فارتقوا بين الناس ، وجالسوا ذوي الجاه والسلطان . وصانوا لنا – خلفا عن سلف – كل ما نفع وأفاد ، أثبتوه أو أثبته تلاميذهم في بطون الكتب . فبقي منه بعض يقاوم البلي والحدثان .

يقول القالي في مقدمة كتابه الأمالي مبينا جهده في التحصيل :

" فأني لما رأيت العلم أنفس بضاعة أيقنت أن طلبه أفضل تجارة ، فاعتربت للرواية ، ولزمت العلماء للدراية ، ثم أعملت نفسي في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه ، حتى حويت خطيرة ، وأحرزت رفيعة ، ورويت جليلة ، وعرفت دقيقة وعقلت شاردة ... " ثم يقول مبينا أماكن إملائه ، وأنه لم يستغن بالكتب يقرأها ساعة الاملاء ، ذلك أنه وعي كل ما ألقاه على تلاميذه وحفظه :

" فأمللت هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبة (جمع يوم الخميس) ، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة " . أما الزهراء فقد كانت مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس ، اختطها عبد الرحمن الناصر من خلفاء بني أمية هناك ، وذلك في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) وعملها متنزها له ، ومسافة ما بين الزهراء وقرطبة ستة أميال وخمسة أسداس ميل كما يقول ياقوت في معجم البلدان .

مزايا الأمالي :

والقالي يبين لنا في الأمالي من مزايا فيقول " وأودعته فنونا من الأخبار ، وضروبا من الأشعار وأنواعا من الأمثال ، وغرائب من اللغات ، على أني لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضربا من الشعر ، إلا اخترته ، ولا فنا من الخبر إلا انتحلته ، ولا نوعا من المعاني والمثل إلا استجدته ، ثم لم أجله من غريب القرآن وحديث الرسول ﷺ " . واملاء الكتب من الذاكرة إذا تعدد يجعل بينها بعض الاختلاف في الألفاظ ، وبعض الزيادة أو النقص : ولهذا لا نستغرب أن نجد كتابا مخطوطا لمؤلف برواية عالم عنه ، فيه اختلاف عن مخطوط آخر لهذا الكتاب ، لاختلاف الراوي ، فمثلا " التهذيب " للأزهري برواية جنادة ، يختلف اختلافا كثيرا عن التهذيب للأزهري نفسه برواية غير جنادة عنه ، ومثل ذلك يقال في " أشعار الهزليين " ، وهذا أشبه بتعدد الطبعات للكتب الحديثة التى يتناولها مؤلفوها وهم أحياء بالتعديل والتنقيح .

والقالي ميال إلى اللغة ، وله فيها كتاب مؤلف ، ضاع أغلبه وبقي بعضه وطبع ، لهذا كانت عنايته في الأمالي تنصب على اللغة ، لكن عنايته برواية

المطولات من القصائد الرائعة كانت كبيرة ، فأنت تظفر في الأمالي بكثير من القصائد النادرة الجميلة التى كان حفظها من أهم ما أقام ألسنة الخطباء ، وأجرى أقلام الأدباء ، وحبب في مجالسة الرواة ، وجذب الطلاب إلى الاستماع للاستماع .

والأمانة في إسناد الأخبار لأصحابها . وذكر الفضل لأهل الفضل ، والاعتراف بالجميل لذويه ، ظاهرة تتمثل في مؤلفات التراث العربي ، لاسيما أوائلهم ، ممن جمعوا لنا الأشتات ووعوها ، والتقطوا المختارات ورووها .

السيرافي
(٢٨٤ – ٣٦٨ هـ) (٨٩٧ – ٩٧٨ م)

هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي ، من أصل فارسي وكان أبوه مجوسيا يسمي بهزاد فأسلم بعد ابنه فسماه ابنه " عبد الله " أجمع المؤرخون على أنه ولد بسيراف من بلاد فارس على الخليج الفارسي ، وإليها نسبه وبها اشتهر أما تاريخ ميلاده فقد اختلف فيه المؤرخون فقال ابن خلكان أنه ولد سنة ٢٨٤ هـ وقال ياقوت وابن النديم إنه ولد سنة ٢٨٠ هـ . (١)

بدأ السيرافي دراسته بسيراف فحفظ القرآن وتعلم مبادئ اللغة والفقه ثم رحل من مسقط رأسه قبل العشرين من عمره إلى عمان في سبيل العلم ، حيث درس الفقه الحنفي ، ثم عاد إلى سيراف ومنها إلى عسكر مكرم – مدينة من مدن الأهواز – حيث درس علم الكلام على أبي محمد بن عمر الصيمري ، ثم سافر إلى بغداد وظل بها حتى انتهى من دراسته ، كما قضي بها بقية عمره مدرسا وقاضيا ومفتيا .

وكان السيرافي مبرزا في علوم اللغة والنحو والفقه والتفسير والحديث والفرائض والعروض والقوافي والحساب ، وقام بتدريسها جميعها في بغداد وأخذ عنه بعض أشياخه فقد قرأ عليه النحو أبو بكر بن مجاهد ، وابن دريد ، وأخذ عنه القرآن والحساب ابن السراج ، وكانت له شهرة خاصة بشرح كتاب سيبويه ، فكان العلماء يسافرون إلى بغداد من جميع البلاد الإسلامية حتى من الأندلس نفسها ليشهدوا مجالسه ويغترفوا من مناهل علمه ، وكان متبحرا في فقه الأحناف ، فظل مفتيا بمسجد الرصافة ببغداد ما بين أربعين سنه أو خمسين ، فما وجد له خطأ ولا عثر له على ذله ، وكان يميل إلى الاجتهاد أحيانا ، ويفتي بما لا يتفق وفقه الأحناف . وكان ينوب في القضاء عن أبي محمد بن معروف في الجانب الشرقي ببغداد ، ثم في بغداد جميعها . وكان حظه حسنا . طلبه أولي الأمر للعمل بديوان الإنشاء فأبي .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ٣١٢ وأيضا ياقوت : معجم الأدباء . ص وأيضا ابن النديم الفهرست ص ١٣٣

كان رحمه الله عالما عاملا تقيا ورعا جمع بين شرف العلم والعمل ، وكان يكثر من قراءة القرآن الكريم ومن الصلاة في جوف الليل والصيام في النهار ، وكان إذا سمع شيئا فيه ذكر الموت والبعث بكي ، وكان زاهدا في الدنيا لا يقبل هدايا العظماء والحكام . ولم يعرف عنه أنه أخذ اجرا على فتوي أو على درس قام بتدريسه ، وعلى قضاء قضاه وكان من تقواه وورعه أنه لا يأكل إلا من كسب يده فكان قبل أن يذهب إلى القضاء أو التدريس أو الفتوي يقوم بنسخ عشر ورقات من الخطوط يبيعها لينفق على نفسه وقد ذاع صيته في جميع البلدان الإسلامية ، فكانت تأتيه الرسائل من الملوك والأمراء والعلماء يستفتونه في مسائل علمية ، ويخاطبونه بعبارات التبجيل والتعظيم ويلقبونه بشيخ الإسلام والإمام ويشيخ الشيوخ ، غير أنه كغيره من العلماء والعباقرة له خصوم وحساد يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وقد عرف أثنان من خصومه وحساده منهم أبو على الفارسي النحوي المشهور المتوفي سنة ٣٧٧ هـ فقد حنق على السيرافي لما شرح كتاب سيبويه ، وجعل هو وأصحابه يبحثون عن نسخة من شرح هذا الكتاب لانتقاده وإظهار العيوب والأخطاء فيه ، فلم يعثروا على المخطوط إلا في السنة التي مات فيها وجدوا في البحث عيبا أو خطأ .

وثاني الحساد هو أبو فرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني المشهور وقد هجا السيرافي بهذين البيتين

لست صدرا ولا قرأت على صدر   ولا عليك البكي بشاف
لعن الله كل نحو وشعر   وعروض يجيء من سيراف

مؤلفاته

١. قام بشرح كتاب سيبويه وتوجد نسخة خطية في دار الكتب المصرية
٢. شرح مقصورة ابن دريد
٣. ألفات الوصل والقطع
٤. شرح شواهد كتاب سيبويه
٥. المدخل لكتاب سيبويه
٦. الإقناع في النحو ولم يتم هذا الكتاب بل أتمه ابنه يوسف .
٧. كتاب يتعلق بقراءة القرآن اسمه الوقف والابتداء .
٨. صنعة الشعر والبلاغة
٩. أخبار النحاة البصريين طبع في بيروت سنة ١٩٣٦ م مع تعليقات للمستشرق ف . كرنكو . وقد صرح السيوطي في مقدمة كتاب (بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة) أنه أطلع على هذا الكتاب واستعان به في مؤلفه .
١٠. كتاب جزيرة العرب وهذا الكتاب اعتمد عليه ياقوت في تأليفه كتاب معجم البلدان ، هذا ما عرف من مؤلفاته فرحمه الله عالما أو في من سعة الثقافة والأخذ بأطراف العلوم والمعارف الشيء الكثير .

إسماعيل بن حماد الفارابي اللغوي المعروف بالجوهري
ت ٣٩٨ أو ٤٠٠ / ١٠٠٧ أو ١٠٠٩ م
صاحب المعجم الصحاح

هو إسماعيل بن حماد الجوهري وكنيته أبو نصر ، وهو ابن أخت أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي اللغوي (١) توفي سنة ٣٩٨ (أو نحو ٤٠٠ هـ) وهو أشهر من خاله ، ولم يشتهر بنسبة " الفارابي " كما اشتهر بنسبته الأخرى " الجوهري " وهو صاحب المعجم الكبير المسمي " الصحاح " الذي جمع فيه ما صح عنده من ألفاظ اللغة ، ومن أجل ذلك سمي كتابه " الصحاح " ألفه للبيشكي عبد الرحيم بن أبي منصور الأديب الواعظ الأصولي الوجيه ذي المآثر والآثار والمتوفى عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م الذي كان معتمد الناس في أيامه ، وقد غطت شهرته في اللغة على شهرة خاله ، لأن كتابه " الصحاح " لقي أعظم رواج بين العلماء والمدرسين والطلاب ، إلى أن ظهر " القاموس " المحيط للفيروز أبادي وكان من أسباب اشتهار الجوهري أيضا أن الفيروز أبادي في القاموس لم نعن بنقد كتاب كما عني بنقد الصحاح للجوهري ، ولهذا نجده يكثر من تخطئته في مئات المواضع في القاموس ، فيقول مثلا " ووهم الجوهري " ، ثم اختصر كتاب الصحاح في معجم صغير سمي " مختار الصحاح "وهو معجم مشهور كثير التداول إلى اليوم حتى بين ناشئة المدارس ، لأنه طبع عدة طبعات بعد أن رتبت كلماته على الطريقة المعجمية الحديثة ، ثم طبع الصحاح نفسه أخيرا بنفقة أحد وجهاء المملكة العربية السعودية .

ياقوت يصف معجم الصحاح ومؤلفه :

أحسن تصنيفه ، وجود تأليفه ، وقرب متناوله ، وأثر من ترتيبه على من تقدمه ... فهو أحسن من الجمهرة وأوقع من تهذيب اللغة وأقرب متناولا من مجمل اللغة وقد قرظه تلميذه إسماعيل بن عبدوس النيسابوري : (١)

هذا كتاب الصحاح ما	صنف قبل الصحاح في الأدب
تشمل أبوابه وتجمع ما	فرق في غيره من الكتب

(١) " الفارابي " نسبة إلى فاراب ، بلد وإقليم وراء نهر سيحون ، على تخوم بلاد التركستان ، بجانب طشقند (تاشكند) . وقد نسب إليها كثير . ومن أبنائها المشهورين الفيلسوف المعروف أبو نصر محمد بن محمد الفارابي أول فلاسفة الإسلام ، وقد عرف بمؤلفاته الفلسفية والموسيقية ، وله شعر قليل ولكنه جيد ، وقد عاش آخر حياته فترة في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب ، وتوفي في الشام سنة ٣٣٩ هـ . وجاء بعده الفارابي اللغوي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٥٠ (أو سنة ٣٧٠ م) .

وللجوهري نفثات شعرية مختلفة ، نقتطف منها :

يا ضائع العمر بالأماني أما ترى رونق الزمان
فقم يا أخا الملاهي نمضي إلى نهر نشتقان
لعلنا نجتني سرورا حيث جنى الجنتين دان
كأننا والقصور بها بحافتي كوثر الجنان
والطير فوق الغصون تحكي بحسن أصواتها الأغاني
وأيل الورق عندليب كالزير والبم والمثاني
وبركة حولها أناخت عشر من الدلب واثنتان
فرصتك اليوم فاغتنمها فكل وقت سواه فان

قال عنه ياقوت : " كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلما ، وهو إمام في علم اللغة والأدب .... " ولا غرو ، فهو مؤلف " تاج اللغة وصحاح العربية " الشهير " بالصحاح " . وكان إلى ذلك يجيد قول الشعر ويكتب الخط الذي يضرب به المثل في الحسن حتى شبه بخط ابن مقلة ، الذائع الصيت .

بيد أن زمانه لم ينصفه ، فإنه ما كاد يفرغ من تأليف " الصحاح " لم ينقح ولم يبيض منه إلا أبواب الألف إلى الضاد المعجمة ، حتى اعترته وسوسة ، فانتقل إلى الجامع الكبير بنيسابور فصعد إلى سطحه وقال : " أيها الناس إني عملت في الدنيا شيئا لم أسبق إليه "وضم إلى جنبيه مصراعي باب وتأبطهما بحبل وصعد مكانا عاليا من الجامع ، وزعم أنه يطير فوقع ومات ، وبقي بقية الكتاب مسودة غير منقحة ولا مبيضة ، فبيضه أحد تلاميذه فغلط في مواضع كثيرة غلطا فاحشا ، فتناوله كثير من العلماء في عصور مختلفة بالعناية والدرس تعليقا وتحقيقا ونقدا واختصارا ، وشرح شواهد .

ولعل كثيرا مما أخذ على هذا الكتاب مردة إلى أن الجوهري مات ، والكتاب مسودة لما يكمل تهذيبها بعد . قال التبريزي " وكتاب الصحاح هذا كتاب حسن الترتيب ، سهل المطلب لما يراد منه وقد أتي بأشياء حسنة وتفاسير مشكلات اللغة إلا أنه مع ذلك فيه تصحيف لا يشك في أنه من المصنف لا من الناسخ ، لأن الكتاب مبني على الحروف ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو يقع فيها أو غلط . غير أن القليل منه جنب الكثير الذي اجتهدوا فيه واتعبوا أنفسهم في تصحيحه وتنقيحه معفو عنه . وقد حقق الجوهري " بالصحاح " مقصدين كانا مطلب المعجميين في القرن الرابع الهجري : التزام اللفظ الصحيح وتيسير البحث عن هذا اللفظ . ويكاد ينعقد الإجماع على أن الجوهري أصاب بمعجمه الشهير هذين الغرضين معا . قال في خطبة كتابه : " وقد أودعت ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء " إسماعيل بن حماد المعروف بالجوهري)

وجعل علم الدين والدنيا منوطا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه بعد تحصيلها بالعراق رواية ، وإتقانها دراية ، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية ولم آل في ذلك نصحا ولا ادخرت وسعا . "

على أن التزام الصحيح وحده لم يكن وقفا على الجوهري . فقد سبقه إليه القالي والأزهري ثم معاصره ابن فارس . بيد أن معاجم الآخرين لم تقتصر على إيراد الصحيح فحسب ، ولكنها ساقت غير الصحيح أيضا ونقدته .

وجدير بأن نذكر – في ختام هذا التعريف المقتضب " بالصحاح " – أن الذي حمل الجوهري على اعتماد لام الكلمة (حرفها الأخير) أصلا لتأليفه هو تأثره بالقافية الشعرية المستندة على الروي (الحرف الأخير اللازم في كل بيت) وبذلك خدم الشعراء خدمة لا تنكر . وكذلك الناثرون الذين ينشدون السجعة . وقد تابعه في ذلك كبار معجميينا القدامى كابن منظور والفيروز أبادي والزبيدي وربما وجد الباحث عن شعر الجوهري حقيقة حاله المضطربة الحزينة :

لو كان لي بد من الناس   قطعت حبل الناس باليأس
العز في العزلة لكنه   لابد للناس من الناس

وقال أيضا :

وها أنا يونس في بطن حوت   بنيسابور في ظل الغمام
فبيتي والفؤاد ويوم دجن   ظلام في ظلام في ظلام

وبعد ، فهذا نابغة من نوابغ اللغة العربية ، تختم حياته ختاما مؤلما سواء كان فشلا في الطيران ، أم اختلاطا ووسوسة ، حملاه على أن يلقي بنفسه من عل في ذلك ريادة الطيران .

عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م
الإمام النحوي ومن علماء الكلام

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ هـ / والذي اتفق العلماء على أنه كان ذا أقدم راسخة في علوم البلاغة والنحو والكلام والفقه ، وهو صاحب الكتابين النفيسين والأثرين الجليلين دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . ومما يمتاز به عبد القاهر في كتاباته اعتماده على التذوق الأدبي للنص الذي يتعرض له وتحليله العلمي لأفكاره ومعانيه . وقد افتتح عبد القاهر الحديث عن الدافع له إلى تأليف كتاب دلائل الإعجاز هو البحث عن تلك الدلائل التى كانت الشغل الشاغل لكل علماء البلاغة والنقد في ذلك الوقت . وقد أدرك عبد القاهر أن الطريق إلى معرفة الإعجاز هو استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها .

للوقوف على أسرار الجودة والتعرف على مصادرها ومن ثم يمكن استخلاص مقاييس عامة تنطبق على البيان العربي كله

الجرجاني ونظام الجملة العربية :

حين نحاول البحث عن نظام الجملة العربية في كتب القدماء من اللغويين نراهم يشيرون إليه في ثنايا كتبهم إشارات سريعة تكاد تنتظم معظم أبواب النحو ، والبعض في فصول البلاغيين . ويندر أن نري بينهم من قصر على مثل هذا البحث كتابا مستقلا أو فصولا من كتاب ، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني فعني بهذا الأمر كل العناية في كتاب دلائل الإعجاز حين يبدأ كلامه بقوله :

" واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التى تراها في قولك : زيد منطلق ، زيد ينطلق ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق ؛ وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها في قولك : إن تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج ، وفي الحال إلى الوجوه التى تراها في قولك : جاءني زيد مسرعا ، وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع ، وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له " ويري عبد القاهر أن الفرق في طرق نظم الكلام كثيرة لا تكاد تحصي ، ودقيقة تحتاج إلى التفتيش عنها . (٢)

ونلاحظ على عبد القاهر في علاجه لتنظيم الكلام أمورا :

١. ميله على طريقة المتكلمين ، إلى الجدل المنطقي الفلسفي ومحاولته التقريب بين أساليب الكلام والمنطق العقلي العام ، ولذلك أكثر من التمثيل بعبارات من صنعه ، لا نكاد نري شواهد لها فيما روي من اللغة .

٢. نري عبد القاهر في الكثير من مواضع الكتاب أديبا وناقدا أكثر منه لغويا ، فهو يشبه نظم الكلام وترتيب الكلمات بنظم اللؤلؤ والجواهر في سمط نفيس ، ثم يعود ويشبهه بالأصابع التى تعمل منها الصور والنقوش حين يؤلف منها الفنان الماهر أبدع الرسوم وأجمل المناظر .

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز تصميم الإمام محمد عبده والشيخ محمد الشنقيطي طبعة المنار : المدخل ص ٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٦١

أمـا نقده للشـواهد الشـعرية فـي كـتابه ، فهـو أشـبه بـنقاد زمانـنا حين يحاولـون التعريف بنواح من الجمال فـي قـول مأثـور ، من مثل قوله : أنظر إلى موضـع الفاء فـي قـوله " فقد لاقيتنا فرأيت حربا " وأنظر إلى موضع الفاء وثم قبلها ، وأنظر إلى الفصل والاستئناف في قوله : " تريدين قتلي قد ظفرت بذلك وأنظر إلى قوله : " قد كنت أحسب " وإلى مكان هذا الاستئناف ، وانظر إلى التنكير في قوله كيت ، وانظر إلى التعريف والإشارة في قوله كذا ... الخ

٣. كان عبد القاهر يهدف بعلاجه لنظم الكلام إلى أمور أوسع . فنري عبد القاهر يعقد فصلا عنوانه : **" في النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع "** ، عرض فيه لأنواع من البديع وطرق البيان ، ويبعد فيه عن النظام النحوي والتركيب اللغوي من حيث صحته أو خطؤه فهو يتلمس في النظام نواحي من الجمال ، وأمورا لطيفة دقيقة ؛ ولذا لم ير في نثر الجاحظ إذ يقول **" جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا ... الخ "** ذلك النظم الكلامي الذي ينشده هو .

٤. لم يفرق عبد القاهر كغيره من كل اللغويين القدماء ، بين ترتيب الكلمات في الجمل النثرية ، وترتيبها في الأبيات الشعرية فنراه في غالب الأحيان يبني قاعدته على أمثله فرضية من صنعه هو ، ثم يسوق آيات من القرآن الكريم ، ومعها شواهد من الشعر لتأييد كلامه ، فإذا رأي في نظام الشعر خروجا عن المألوف بدأ يتأول هذا ، حتى يجعل ما ينطبق على النثر ينطبق على الشعر أيضا ومع كل هذا ، أو رغم كل هذا ، نري عبد القاهر قد عرض في كتابه لشيء مما نهدف إليه هنا في نظام الجملة ، حين تحدث عن التقديم والتأخير مع الاستفهام والنفي والخبر للثبت ، وحين تحدث عن الفصل والوصل ، وحين تحدث عن القصر والاختصاص وما يتصل به . (١)

وقد حذا حذوه وسلك مسلكه أولئك الذين جاءوا بعده من البلاغيين السكاكي والخطيب القزويني والسبكي وغيرهم ، واستقر لهم ذلك العلم الذي سموه البلاغة ، وفصلوا أبواب هذا العلم في شروح مشهورة مألوفة تسمي " شروح التلخيص "

ويعرض البلاغيون لنظام الجملة في مواضع متناثرة من كتبهم : حين يتحدثون عن الفصاحة في الكلام ، وحين يعرضون لبعض أحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل ، وحين يتحدثون عن القصر ، وحين يتحدثون عن الفصل والوصل .

أما النحاة فقد قسموا علمهم تقسيما تقليديا ، ورثوه عمن قبلهم وبوبوه على ذلك النظام المألوف المعروف في كتبهم . ولذا نري بحثهم في ترتيب الكلمات قد جاء متناثرا في تلك الأبواب ، يشار إليه إشارات سريعة . (٢)

---

(١) طه حسين : البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر (مقدمة كتاب نقد النثر) مطبعة الجامعة ١٩٣٧ ص ٧ وما بعدها

(٢) محمد خلف الله أحمد : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده لجنة الترجمة والتأليف والنشر القاهرة ١٩٤٧ ص ١١٥ وما بعدها

ونحن في بحثنا لنظام الجملة العربية ندرك تمام الإدراك أن هذا النظام قد اختلف إلى حد ما باختلاف العصور . ففي عصرنا الحديث مثلا قد تأثر بنظام اللغات الأوروبية في مواضع كثيرة ، وأصبح الآن بعض ما كان يعد غريبا على نظامها في العصور الإسلامية الأولي ، سائغا مقبولا بين جمهرة المتعلمين ، نقرؤه في الصحف وبعض المؤلفات الحديثة .

فإذا اقتصرنا على تلك العصور التى سماها القدماء بعصور الاحتجاج ، والتى استمدوا منها قواعد اللغة ومسائلها ، وحاولنا استقصاء ما تخضع له الجملة العربية في نظام كلماتها ، رأينا الأمر يستلزم مؤلفا خاصا لمثل هذا الاستقصاء ، وذلك لأن تعابير اللغة كثيرة ، وأساليبها متباينة . فمنها الإثبات والنفي ، ومنها التعجب والاستفهام ، ومنها التأكيد وغير التأكيد ، ونحو ذلك مما نراه منبثا في معظم أبواب النحو . وربما تطلب كل من هذه الأساليب تغييرا خاصا في نظام الكلمات وترتيبها .(٢)

لذلك اكتفينا ببحث أهم ما تخضع له أركان الجملة الأساسية من نظام عند عبد القاهر الجرجاني، وموضع كل من هذه الأركان في الجملة العربية .

فإذا انتقلنا إلى الحديث عن كتاب عبد القاهر الأخر وهو أسرار البلاغة فإننا نجد أنه يتناول في هذا الكتاب علم البيان بصفة خاصة ، ويدلي في هذا المجال بآراء سديدة أكثر تحررا من الطابع الجدلي ، وانطلاقا من قيود المنطق وحججه وأكثر اصطباغا بروح النقد وأكثر تفهما لأغراض الأدب إلا أن عبد القاهر يكرر في فاتحة كتاب هذا اهتمامه بالمعني وإكباره له وهو بذلك يؤكد فكرة النظم التى عالجها في كتابه دلائل الإعجاز ، ويتكلم عبد القاهر عن السجع والجناس بين فنون البيان المتماثلة : كالتشبيه والمجاز والاستعارة والتمثيل ، وذكر أن البلاغة في السجع والجناس راجعه إلى المعني وليس إلى اللفظ ولعله أراد أن يجعل فكرته عن البلاغة وتبعية اللفظ للمعني ، وقد ذم عبد القاهر الاستكثار من التجنيس والسجع حتى لا تفقد العبارة حسنها البياني ، ويتواري المعني وراء هذه الصناعة المتكلفة . ويتحدث عن الاستعارة وتعريفه لها ويقسمها إلى مفيدة وغير مفيدة ثم يتكلم عن فائدتها فيقول : إنها تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ويعرض أمثلة ناصعة لها في الشعر العربي ، ويعالج عبد القاهر موضوعي التشبيه والتمثيل ويوضح الفرق بينهما مع عدم اجحاده لأثر الذوق في تقدير النص الأدبي . وفي أخر الكتاب يتكلم عبد القاهر عن الحقيقة والمجاز مقسما المجاز إلى عقلي ولغوي ويبين الفرق بينهما : وهكذا نجد أن الجرجاني عبقرية فذة وعقلية نادرة تتناول مسائل البلاغة تناولا فريدا يدل على سعة افقه ووفره معارفه ، ودقة تحليله ونجاحه في التوفيق بين ما يتطلبه الذوق الأدبي ومناهج التفكير الموضوعي المنظم

---

(١) المرجع السابق ص ص ١١٦ ــ ١١٩

(٢) شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ ص ١٨٩ وما بعدها

دراسات حول تدوين علم الصرف

يحتل علم الصرف مكانة سامية بين علوم العربية . إذ لا فصاحة إلا بسلامة بنية الكلمات التي يحاك منها نسيج اللغة وقد قيل ان الصرف ميزان العربية وقد فهم القدماء درس الصرف فهما صحيحا حين جعلوه مع النحو علما واحدا ، أو حين أشار بعضهم إلى ضرورة دراسته قبل النحو على ما قدر أبو الفتح ابن جني في شرحه على تصريف أبي عثمان

مادة صرف يدور معناها في اللغة حول التغيير من حال إلى حال (١)

ومنه قوله تعالي : " ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم " (٢)أي غيرها ونقلها من طريق الهداية إلى طريق الضلالة هذه الآية الكريمة نزلت في شأن المنافقين وقوله تعالي : انصرفوا معناه : أنهم غيروا مكانهم لكراهتهم ما أنزل الله تعالي ولذلك استحقوا أن يصرف الله قلوبهم أي يغيرها .. فلا تهتدي إلى الحق ، ومن ذلك قوله تعالي : **" وتصريف الرياح " (٣)** أي تغييرها وتحويلها من حال إلى حال ويتضح من هذا أن الصرف معناه التغيير والتبديل . والصرف هو العلم الباحث في أبنيه الكلمة العربية . وعن الأحوال التي تعرض لها غير الإعراب والبناء

وكقوله تعالي : **فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا (٤)** والصرف هنا كما يقول الزمخشري : إما صرف العذاب أو التوبة أو الحيلة وكقوله تعالي **ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما " (٥)** والمعني : حوله عنا وزحزحنا عنه

ولعلم الصرف جانبان : جانب نظري : وهو دراسة المفردات اللغوية وفهم معانيها **وجانب عملي :** وهو محاكاة تلك المفردات صياغة ودلالة .

ولذلك يعرف علم الصرف بأنه العلم الباحث في أبنية الكلم العربية من حيث وجود كل منها على هيئة مخصوصة وعن الأحوال التي تعرض لها غير الإعراب والبناء **والمراد بالأبنية :** الصيغ ، والأوزان ، والهيئات ، وكلها بمعني واحد " عدد حروف الكلمة المرتبة ، وحركاتها المعينة ، وسكونها ، مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كل في موضعه " الماضي ، والمضارع ، واسم الفاعل ، واسم المفعول واسم التفضيل ، والصفة المشبهة ، واسم الزمان ، واسم المكان ، والتصغير والنسب .... الخ **والمراد بكيفية صياغة الأبنية :** الطريقة التي يعرف بها انتزاع الفروع من الأصول كقولهم : " يصاغ اسم المفعول من الثلاثي بوزن مفعول ، ومما زاد عليه بوزن المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة ، وفتح ما قبل الآخر " فإننا بهذه الطريقة نستطيع أن نصوغ من " القتل والنصر والفهم " مقتول ، ومنصور ومفهوم ، ومن" الانطلاق والبعثرة " منطلق – بفتح اللام – ومبعثر – بفتح الثاء – وهكذا . (٦)

---

(١) إبراهيم الانكاوي : دلالات الأفعال في علم التصريف ، مطبعة الأمانة ١٩٩٠ ص ٩ وأيضا عبده الراجحي : التطبيق الصرفي دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٤ ص ٥ أنظر لسان العرب مادة " صرف "

(٢) سورة التوبة ١٢٧

(٣) سورة البقرة ١٦٤

(٤) سورة الفرقان ١٩

(٥) سورة الفرقان ٦٥

(٦) انظر شرح التصريح على التوضيح جـ٢ ص ٨٠

والمراد بأحوال الأبنية : التغير اللفظي الذي يحدث في الكلمة لعلة في ذاتها لاستقلالها بنفسها ، وذلك كالإدغام في نحو " مد وامتد " ، والوقف مثل " حضر المدرس " بتسكين السين ، والتقاء الساكنين في كلمة نحو " قم " و " لم يقم " ، والإمالة كما في قوله تعالى : " والضحى والليل إذا سجى " (١) ، وتخفيف الهمزة مثل " ايت " ، والإعلال والإبدال والتعويض في نحو " قال ، واضطر ، وزنه " .

والمراد بما يعرض لها : التغير اللفظي الذي يحدث في الكلمة لأمر طاريء عليها كالإدغام في كلمتين ، والتقاء الساكنين أيضا في كلمتين نحو ط قل لأخيك ادخل الجامعة " ، فإن الإدغام في " قل " والتخلص من التقاء الساكنين في " ادخل " ليس لعلة في ذات الكلمة ، وإنما لأمري طاريء عليها بانضمام غيرها إليها .

والتغيرات التى تحدث في بنية الكلمة تكون لغرضين :

الغرض الأول : معنوي :وهو تحويل الكلمة الواحدة إلى أبنية مختلفة لضروب من المعاني ، وذلك كالتحويل إلى اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة ، المشبهة ، واسم التفضيل ، واسم الزمان واسم المكان ، واسم الآلة ، والتحويل إلى التثنية والجمع ، والنسب والتصغير وذلك كتحويل " الفهم " مثلا إلى فهم يفهم وافهم وفاهم ، ومفهوم .... الخ

الغرض الثاني : لفظي : وهو تغيير الكلمة عن أصل وضعها لغير معنى طاريء عليها وإنما لغرض آخر كالإلحاق ، أو التخفيف ، أو التخلص من التقاء الساكنين ، وينحصر هذا التغيير في الزيادة ، والحذف والإعلال ، والإبدال ، والتعويض ، والفك والإدغام (٢) .

والغرض اللفظي حكم للغرض المعنوي ، لأنك إذا أردت مثلا صياغة الماضي من القول قلت : " قول " – بفتح القاف والواو – لأن نظيره من الصحيح " جذب " ، وهذا هو الغرض الأول ، ثم ينشأ حكم لفظي لتلك الكلمة وهو إعلالها بقلب عينها ألفا فتصير " قال " ، وهذا هو الغرض الثاني .فالغرض المعنوي عملي ، لأنه إنتاجي ، والغرض اللفظي نظري ، لأنه تنظيمي (٣) .

---

(١) سورة الضحى ١

(٢) المرجع السابق ص ١١وأيضا غريب نافع : الصرف القياس جـ١ ص ٩

(٣) المرجع السابق ص ٩

موضـع علـم الصـرف : الذي لا شك فيه أن الصـرف لا غني عنه في الدرس اللغوي والعربي علـى وجه الخصـوص ، لكن الذي لاشك فيه أن الصـرف لم يلقي حتـى الآن مـا ينبغي له من الدرس الذي يعين علـى تقديمه في صورة تيسر الإفادة منه والصـرف هو الألفـاظ العربية من حيث الصحة والإعلال والزيادة والأصـالة ... الخ ، ويختص بالأفعـال المتصـرفة ، والأسماء المتمكنة ، فلا يدخل التصـريف الحروف بأجمعها ، لأنها مجهولة الأصل (١) .

كمـا لا يدخل الأفعـال الجامدة ،وهـي التـى لم تختلف أبنيتها ، لسلب الزمان من مفهومها كنعم وبئس وعسي وليس ، لأنها تشبه الحروف في الجود (٢) .
ولا يـدخل الأسـماء المبنـية أصـالة كالضـمائر ، وأسـماء الشـرط ، وأسـماء الاستفهام ، وأسـماء الأفعـال ، وأسـماء الإشـارة ، والأسـماء الموصـولة لأنهـا تشـبه الحروف في الجمود .

حصر مسائل علم الصرف وفائدته :

معلوم أن مسـائل هذا العلم بأسرها تدور حول " الأفعال المتصـرفة ، والأسماء المتمكنة " ، غير أنـه إذا نظر إلـى هذه المسـائل باعتبار وقوعها فـي هذين النوعين فإنها تنقسم إجمالا إلى ثلاثة أقسام :

الأول : مـا يختص بالأفعـال ، وذلك كتقسيمها إلى جامد ، ومتصـرف ، ومتعد ، ولازم ، ومبنـي للمعلوم ، ومبنـي للمجهول ، ومؤكد ، ومـا إلى ذلك من التقسيمات المتعددة ، وما يتصل بها من التغيير عند إسنادها إلى مختلف الضمائر .
الثانـي : مـا يختص بالأسماء كتقسيمها إلـى جامد ومشتق ، ومذكر ومؤنث ، ومفرد ومثنـي وجمـع ، ومصـغر ومكبر ، وكيفية النسب إليه وغير هذا من تقسيماته الخاصة به .
الثـالث : مـا يعـم النوعين كالتجـرد والـزيادة ، والحـذف والإلحـاق والإعـلال بأنواعه ، والإمالة ، والإدغام ، والتقاء الساكنين والوقف .
وعلـم الصـرف علـم جلـيل القـدر ، عظـيم الشـأن ، رفـيع المنـزلة ، فيه نستطيع أن نحقق ما يلي :
١. صـون اللسـان عن الخطأ في المفردات ، ومراعاة قانون اللغة في الكتابة ، وبذلك لا نقع في هوة التحريف .
٢. بمراعاة قـواعد علـم الصـرف والتزام قوانينه ، تخلـو مفردات الكلام من مخالفة القياس التـى تخل بالفصاحة ، ومـن هنا حكم الصـرفيون علـى كلمة " الأجلل " بأنها مخالفة للقياس ، وعلى كلمة " أستبيع " بأنها مجانية للصواب (٣) .

---

(١) أحمد كحيل : التبيان في تصريف الأسماء جـ١ ص ٣ وأيضا عبده الراجحي : التطبيق الصرفي ص ٩
(٢) المرجع السابق ص ٣
(٣) إبراهيم الادكاوي : دلالات الأثقال . مرجع سابق ص ١٤ وأيضا ابن مالك : شرح الأشموني على ألفية بن مالك مطبعة عيسي الحلبي القاهرة (بلا تاريخ) جـ٤ ص ٣٤٨

٣. يمكننا من معرفة ما يشذ من الجموع والمصادر والمشتقات ، وما يطرد في لغتنا ، وما يقل ، وما يندر ، وغير ذلك من مباحث هذا العلم .

٤. بأصوله وقواعده نستطيع معرفة الزائد والأصلي من أحرف الكلمة ، وبذلك يسهل علينا الوصول إلى معرفة مدلولها ، وفهم مرماها بالرجوع إلى المعاجم اللغوية طبقا لما نطقت به العرب .

٥. يمكن للخطباء والشعراء والكتاب من تلوين الخطاب ، والتنويع في الأسلوب عن طريق الاشتقاق والنحت ، وما إلى ذلك مما يقوم به القياس الصرفي ويحققه ، وبذلك تسمو اللغة ويتألق بيانها ويعلو شأنها ، وفي ذلك محافظة على القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والتراث العربي الخالد

استمداد علم الصرف : يستمد علم الصرف من كلام الله تعالي ، ومن أحاديث رسول الله ﷺ ومن قول العرب " شعرا ونثرا " .

الفرق بين الصرف والنحو ومتن اللغة وفقه اللغة :

علم الصرف : يبحث عن أحوال أبنية الكلمة ، لأن عليه المعول في ضبط صيغ الكلم ، ومعرفة تصغيرها والنسبة إليها ، والعلم بالجموع القياسية والسماعية والشاذة ، ومعرفة ما يعتري الكلمات من إعلال أو إدغام أو إبدال (١) .

وأما علم النحو : فيبحث عن أحوال أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء ، أي من حيث ما يعرض لها في حال تركيبها ، فيه نعرف ما يجب عليه أن يكون آخر الكلمة من رفع أو نصب أو جر أو جزم أو لزومها حالة واحدة بعد انتظامها في الجملة .

فعلم الصرف – كما سبق – لا يعنيه استحقاق آخر الكلمة من رفع أو نصب أو جر أو جزم ، فذلك شأن علم النحو . ولا يعنيه أمر الكلمات العربية من حيث معانيها تفصيلا ، فإن ذلك شأن متن اللغة . ولا يعنيه – أيضا – ترابطها ، ودوران كل مجموعة منها حول معني واحد ،فذلك شأن فقه اللغة .

---

(١) الاستراباذي : شرح الشافية . تحقيق محمد الزفزاف وآخرين القاهرة ١٣٥٦ هـ جـ١ ص ١ ، ٢

ولنضرب مثلا : فكلمة " غافل " في قول المتنبي :

تصفو الحياة لجاهل ولغافل　　　عما مضى منها وما يتوقع

فعمل " متن اللغة " أن يدلك على معني الكلمة فيقول : غافل الشخص الذي يغيب عن باله بعض الأمور .

وعمل " فقه اللغة " : أن يدلك مثلا على أن هذه الكلمة تدور حول الترك والنسيان ، وما ليس له فطنة ، فالغفلة : غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره ، وقد استعمل فيمن تركه إهمالا وإعراضا كقوله تعالي :

" **وهم في غفلة معرضون** " ومغفل : أي ليس له فطنة ، وأغفلت الشيء إغفالا ، وتركته إهمالا من غير نسيان ، ورجل غفل : لم يجرب الأمور وهكذا (١) .

وعمل النحو : أن يتعرف على موقع الكلمة من الإعراب فيقول : " لغافل " استحقاقها الجر ، لأنها سبقت بحرف الجر " اللام " وعلامة الجر الكسرة .

أما عمل الصرف : فإفادتك أن الكلمة مأخوذة من " الغفلة " ، وأنها حولت إلى بناء اسم الفاعل للدلالة على الذات المتصفة بالحدث .

أهمية دراسة علم الصرف :

في أول الأمر كانت قواعد الصرف مختلطة بغيرها بعد قواعد النحو بمعني أنها لا تتمتع بالاستقلال عنها بل كانت ضد أحكام النحو وقضاياه . وبعد ذلك بدأ العلماء في تلخيص مسائل الصرف من النحو في محاولة تجعله مستقلا متميز الموضوع ، يعود الفضل في ذلك لصاحب كتاب الخصائص " بن جني " هو الذي فتح الطريق لاستقلال الصرف ، وتبعه بدراسة أصوله وشرح مسائله ووضع الشروط والأحكام

١. **الاشتقاق** أداة من أدوات التوسع والنماء والثراء اللغوي وأن المتحدث بالعربية محتاج إلى التعرف على ما يمكن أن يحول به الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة ، فإذا عرف معني " اللعب " مثلا ، فإنه يستطيع أن يدلك على الماضي والمضارع والأمر بكلمة " لعب ، يلعب العب " ، وعلى الذات الفاعلة التى وقع منها الحدث بكلمة " لاعب " ، وعلى الزمان أو المكان الذي وقع فيه اللعب بكلمة " ملعب " وهذا كله اشتقاق يتعرف عليه بعلم الصرف

٢. **وفي الذوات** ، يمكن أن تعرف لفظ " قراء " ومدلوله ، وبعلم الصرف يمكن أن تثنيه ، وأن تجمعه ، وأن تصغره وتنسب إليه وهكذا .

---

(١) إبراهيم الادكاوي : دلالات الأفعال في علم التصريف ص ١٦ وما بعدها وراجع مادة (غفل) في المصباح المنير

٣. وفي التراكيب ، قد تحتاج إلى إسناد الفعل لنفسك أو لغيرك ، وقد تحتاج لتوكيده بنون مثقلة أو مخففة ، فبمعرفة أصول علم الصرف يبين لك ما يؤكد من الأفعال ، وما لا يؤكد ، والتغييرات التى تطرأ على الفعل للوصول إلى ذلك الإسناد .

٤. وفي القرآن الكريم من ضروب الامالة والوقف ما يجب التعرف على أصله وعلى سره ، وبعلم الصرف نتمكن من معرفة هذه القضايا .

واضع علم الصرف :

لم يعرف على وجه التحديد من الذي وضعه أو متى وضع ؟ وتضاربت الآراء في ذلك . **فبعضهم يري أن أول واضع له هو معاذ بن مسلم الهراء الكوفي** المتوفى سنة ١٨٧ هـ فقد استخلص مسائل الصرف من كتب العلماء والذين تقدموا عليه . وقد أشتغل بالنحو مع ابن أخيه أبي جعفر بن الحسن الرواسي وهو من علماء الطبقة الأولي من الكوفيين ، وعده المؤرخون واضع علم الصرف . وألف كتبا في النحو والصرف ، ولكن لم يصلنا شيء منها ، وقد تابعهم المتأخرون على هذا الزعم ، واستندوا إلى قول السيوطي : " ومن هنا لمحت أن أول من وضع علم الصرف معاذ " وجاء من بعده فجزم به ، وليس على لمح السيوطي معول . (١)

وقيل : أن أبا عثمان المازني النحوي البصري المتوفى سنة ٢٤٩ هـ هو أول واضع له ، وهو من علماء البصرة ومن تلاميذه أبو العباس المبرد وكان بارعا في النحو والأدب والصرف **ومن مؤلفاته : كتاب التصريف** وقد شرحه ابن جني في كتاب اسمه المنصف . (٢) ومما يؤثر عنه أنه قال عن أهل العلم : أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف ، وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة ، والشعراء فيهم هوج وأصحاب النحو فيهم ثقل ، وفي رواة الأخبار الظرف كله والعلم هو الفقه

ويبدو أن الرأي القريب إلى الصواب هو : أن واضعه أبو الأسود الدؤلي بتوجيه من أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، لأن النحو الذي وضعه كان خليطا بمسائل صرفية ، وقيل : أن أبا الأسود أول ما وضع **في علم النحو هو باب التعجب ، والتعجب من أبواب الصرف (٣) .**

وقيل أن أبو الفتح عثمان بن جني المولود بالموصل عام ٣٣٠ هـ والمتوفى عام ٣٩٢ هـ. قد اجمع أصحاب التراجم على أنه من أعلم أهل التصريف وله في مجال الأدب قسط كبير ، وله مؤلفات كثيرة منها الخصائص وسر صناعة الإعراب والمحتسب والمنصف . (٤) ولم يوجد من هو أدق منه في فن التصريف . وكان المتنبي يعجب به ويقول : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس وابن جني من فحول الشعراء وعلماء التصريف ومن مؤلفاته كتاب التصريف الملوكي الذي يضم كثيرا من أحكام الصرف وقواعده

---

(١) السيوطي : الأشباه والنظائر في النحو ص وايضا أحمد المراغي : تهذيب الصرف ص ٤
(٢) ابن جني : الخصائص ص ٨٩
(٣) ابن الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء . تحقيق محمد أبو الفضل القاهرة ١٩٦٧ ص ٤ ـ ٥
(٤) صابر أبو السعود : القياس في النحو العربي ... أسيوط ١٩٧٨ ص ٣٣٢ وأيضا إبراهيم الانكاوي : دلالات الأفعال ص ١٨

مراحل نشأة علم الصرف وتطوره

درج علم الصرف مع النحو ، فبذور الصرف نبتت مختلطة ببذور النحو ، فقد ولد توءمين ، لأن الباعث على وضعهما ، والداعي إلى تأسيس قواعدهما كان واحدا في الحالتين ، أنه اللحن الذي تسرب إلى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم فإذا رأينا أبا عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤ هـ) يسمع رجلا ينشد قول المرقش الأصغر :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره   (ومن يغو) لا يعدم على الغي لائما

فقال له أبو عمرو : أقومك أم أتركك تتسكع في طمتك ، فقال : بل قومني ، فقال : قل : (ومن يغو) بكسر الواو ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل " وعصي آدم ربه فغوي " (١) لأن باب " فتح " خاص بحلقي العين أو اللام ، وقياسه " فعل – بفتح العين – يفعل – بكسر العين " أي غوي يغوي ، فكان ينبغي عليه أن يكسر الواو . وما روي من أن رجلين اختصما إلى عمر بن عبد العزيز ، فجعلا يلحنان ، فقال الحاجب : (قما) فقد آذيتما أمير المؤمنين ، فقال عمر : " أنت والله أشد إيذاء لي منهما " . فنلاحظ أن الحاجب حذف عين الأمر الأجوف عند إسناده لألف الاثنين وهى لا تحذف ، لأنها ليست من ضمائر الرفع المتحركة .

وروي أن نبطيا (٢) سئل لم اشتريت هذه الأتان ؟ (٣) فأجاب . " أركبها وتلد لي " بفتح اللام من الفعل " تلد " والقياس كسرها لأنه مثال غير حلقي (٤) ، قال تعالي : " لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " (٥) . وعدي بن زيد – من الشعراء الجاهلين يقول :

ويلومون فيك يا ابنه عبد الله   والقلب عندكم (موثوق) والصواب (موثق) ، لأن الفعل أوثق غير ثلاثي ، ولهذا أنكره الأصمعي (٦) .

ونجد المتنبي يقول :

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة   ففي الناس (بوقات) لها وطبول

فهذا كلام غير فصيح لاشتماله على كلمة (بوقات) ، وهى مخالفة لما نقل عن الواضع ، لأن القياس الصرفي يقتضي جمعه جمع تكسير لا جمع مؤنث سالما .

---

(١) سورة طه ١٢١
(٢) الأتان : أنثي الحمير والجمع آتن ، وأتن
(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ٢ ص ١٥٩
(٤) الاستراباذي : شرح الشافية ... جـ١ ص ١١٧
(٥) سورة الإخلاص ٣ ، ٤
(٦) محمد الطنطاوي : نشأة النحو ص ١٧

وكما ظهر اللحن في الصرف ظهر أيضا في النحو يقول ياقوت : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يسيئون الرمي ، فقرعهم فقالوا أنا قوم (متعلمين) ، فأعرض مغضبا وقال : " والله لخطؤكم في لسانكم ، أشد على من خطئكم في رميكم ". وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه مر على قوم يكتبون (لأبو فلان) فقال : يارب يلحنون ويرزقون (١) .

وروي أن سبب وضع سيدنا علي – رضي الله عنه وكرم الله وجهه – لهذا العلم أنه سمع أعرابيا يقرأ : " لا يأكله إلا الخاطئين " ، فوضع النحو (٢) والصواب الخاطئون . وهكذا انتشرت جرثومة اللحن في المفردات وفي التراكيب ، فأعدت الخاصة حتى صاروا يعدون من لا يلحن . قال الأصمعي : " أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن الفرية ، والحجاج أفصحهم " (٣) . وانتقل اللحن من الحاضرة إلى البادية قال الجاحظ : " قالوا وأول لحن سمع بالبادية هذه عصاتي " ، والصواب هذه عصاي ومن ذلك قوله تعالي : **" قال هى عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى "** (٤) .

لهذا كله كان الفزع يهدد اللغة ، وبذلك يستعصي فهم القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، لأن اللغة العربية وعاء القرآن والحديث والشعر والنثر . فحماة اللغة هبوا يضعون الأصول القواعد ، لكي يزول هذا الخطر ، فوهبوا أنفسهم لدرء هذا اللحن وكرسوا حياتهم لخدمة العربية .

علم الصرف مر بأطوار ثلاثة هي :

١. **طور الوضع والتكوين** ، وتبدأ هذه المرحلة من عصر أبي الأسود الدؤلي (المتوفى سنة ٦٩ هـ) إلى عصر معاذ بن مسلم الهراء (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) .

وتمتاز هذه المرحلة بنظام الجمع بين القضايا النحوية والصرفية ، ومعالجتها في كتاب واحد، وتناول المسائل النحوية والصرفية على حد سواء ، فقد درسوا (التعجب ، والتفضيل ، والصفة المشبهة ..... الخ) في ضوء البنية والتراكيب ، كما تعرضوا للمبني المجهول في باب (النائب عن الفاعل) ، إلا أنهم في الغالب الكثير ، قد أفردوا مسائل الصرف بأبواب مستقلة مثل : " أبنية المصادر ، أسماء الفاعلين والمفعولين ، المقصور والممدود ، والتصغير ، النسب ، الإمالة ، الوقف ، نوني التوكيد الإعلال ، الإبدال ، الإدغام " .

---

(١) القفطي : انباه الرواة جـ٢ ص ٣١٩
(٢) محمد الطنطاوي : نشأة النحو ص ١٧
(٣) المرجع السابق ص ١٠
(٤) سورة طه ١٨

وقد تجلي هذا المنهج واضحا في " الكتاب " لسيبويه (المتوفى سنة ١٨٠ هـ) و " المقتضب " للمبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) ، وشرح المفصل لابن يعيش " (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، و " التسهيل " لابن مالك و " منهج السالك " للأشموني (المتوفى سنة ٩٢٩ هـ) .

٢ـ طور استقلال علم النحو عن علم الصرف :

أول من أفرد مسائل الصرف بالبحث والتأليف معاذ بن مسلم الهراء (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) ولم يصل إلينا من مؤلفاته شيء .

وأول كتاب وصل إلينا في هذا العلم – فيما أعلم – هو كتاب التصريف للمازني (المتوفى سنة ٢٤٧ هـ) ، وابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) أعجب بكتاب المازني فشرحه وسماه " المنصف " وتبدأ هذه المرحلة من عصر معاذ إلى عصر ابن جني . (١)

٢. طور النضج والكمال ، وتبدأ من عصر ابن جني إلى عصرنا الحاضر ، وفي هذا الطور تسابق العلماء في ميدان التصريف فألف الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) كتابه " العمدة في تصريف الأفعال " ، وألف الميداني (المتوفى سنة ٥١٨ هـ) كتاب " نزهة الطرف في علم الصرف (٢) " وألف أبو البقاء العكبري (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) كتاب " الترصيف في التصريف " ، وألف ابن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) كتابه " الشافية " وقد حظيت بعناية العلماء ، فشرحوها شروحا مختلفة أدقها شرح المحقق رضي الدين الاستراباذي (المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) وظهر " التصريف العزي " للعلامة الزنجاني (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ) ولامية الأفعال لابن مالك (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) ، و " مراح الأرواح " للشيخ أحمد بن مسعود (المتوفى سنة ٧٠٠ هـ) .

---

(١) طبع كتاب المنصف في ثلاثة أجزاء وقام بتحقيقه الأستاذين إبراهيم مصطفي وعبد الله أمين عام ١٣٧٩ هـ

(٢) وحول هذه المصنفات دارت الشروح ، وتنوعت التعليقات فشرح " التصريف العزي " مجموعة من العلماء على رأسهم العلامة سعد الدين التفتا زاني (المتوفى سنة ٧٩٣ هـ) ، والشيخ السيد الشريف الجرجاني (المتوفى سنة ٨١٦ هـ) .

وشرح " لامية الأفعال " مجموعة من المحققين ، أشهرهم الشيخ بدر الدين بن مالك (المتوفى سنة ٦٨٦ هـ) ، والشيخ شمس الدين البرماوي (المتوفى سنة ٨٣١ هـ)

وقد ترسم المحدثون خطأ الأقدمين ، فتبعوا منهجهم ، واقتدوا بهم فظهر كتاب " يواقيت التصانيف في الأبنية والتصاريف " للشيخ عبد الحافظ الأزهري (المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ) ، وكتاب " عنوان الظرف في علم الصرف " للشيخ هارون البنجاري الأزهري (المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ) ، وكتاب " شذا العرف في فن الصرف " للشيخ الحملاوي (المتوفى سنة ١٣٥١ هـ) ، وكتاب " مرآة الظرف في فن الصرف " للشيخ تادرس الطهطاوي (المتوفى سنة ١٣٥٣ هـ) و " تهذيب التوضيح " للشيخ أحمد المراغي (المتوفى سنة ١٣٧١ هـ) و " تصريف الأسماء " للشيخ محمد الطنطاوي (المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ) و " دروس التصريف " للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد (المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ) .

وقد ألفت المؤلفات النافعة في هذه المرحلة مستقلة استقلالا كاملا عن النحو ، وتمتاز هذه المرحلة بعناية العلماء بتبويب مسائل علم الصرف ، وضبط مفرداته ، وكثرة التدريبات على قواعده .

وهذه المراحل الثلاث متداخلة حيث لا يوجد فاصل زمني يحدد كل مرحلة على حدة ، فليس في الاستطاعة وضع حد توقيتي ينفصل به كل طور عما يسبقه أو يعقبه ، وعلى هذا الأساس فإن تحديد هذه الأطوار إلى التقريب أقرب منه إلى التحقيق ، ونحمد الله على جمع قضاياه ، وتهذيب مسائله ، ونحن على درب هؤلاء العلماء نسير ، فجزاهم الله عن العربية خير الجزاء ، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

الفصل الخامس
دراسات حول تدوين البلاغة
المعاني ، البيان ، البديع

البلاغة والبيان في العصرين الجاهلي والإسلامي :

بلغ العرب في الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان ، وقد صور الذكر الحكيم ذلك في مواضع مثل : (**الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**) (**وإن يقولوا تسمع لقولهم**) (**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**) كما صور شدة قوتهم في الجدل بمثل : (**فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد**) (**ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون**) . ومن أكبر الدلالة على ما حذفوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته . وهى دعوة تدل على ما أوتوه من الفصاحة والقدرة على الكلام ، ويروي أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الألداء استمع إليه وهو يتلو بعض آي القرآن ، فقال : " والله لقد سمعت من محمد لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق " (١)

ويعرض علينا **الجاحظ** في بعض فصول كتاب " **البيان والتبيين** " كيف كانوا يصفون كلامهم في شعرهم وخطابتهم ويروي أن الرسول الكريم استمع إلى بعض خطبائهم ، فقال : إن من البيان لسحرا (٢) . فبلغاؤهم من الخطباء والشعراء لم يكونوا يقبلون كل ما يريد على خواطرهم ، بل ما يزالون ينقحون ويجودون حتى يظفروا بأعمال جيدة ، وهى أعمال كانوا يجيلون فيها الفكرة ، ويعاودون النظر ، متكلفين جهودا شاقة في التماس المعني تارة والتماس اللفظ المتخير تارة ثانية ، يقودهم في ذلك بصر محكم يميزون به المعاني والألفاظ بعضها من بعض ، بحيث يصونون كلامهم عما قد يفسده . وقد وقف الجاحظ في بيانه مرارا ينوه بما كانوا يرسلونه في خطابتهم وكلامهم من أسجاع محكمة الرصف ، وكرر القول في أن من شعرائهم " من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ... وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا وشاعرا مفلقا " (٣)

---

(١) الزمخشري : تفسير سورة المدثر مغدق : كثير المياه
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر جـ١ ص ٢٢٢
(٣) المرجع السابق جـ٢ ص ٩
(٤) المرجع السابق البيان والتبيين جـ ١ / ص ٣٤٩
(٥) المرجع السابق البيان والتبيين جـ٢ ص ١٤
(٦) البيان والتبيين ٩/٢

ولقد لقبوا ألقابا شعرائهم تدل على مدي إحسانهم في رأيهم مثل المهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمنتخل والأفوه والنابغة ، وكأنما كان هناك ذوق عام دفع الشعراء ومن وراءهم من الخطباء إلى تدوين كلامهم وتجويده . ومما لاشك فيه أن أسواقهم الكبيرة هى التى عملت على نشأة هذا الذوق ، وخاصة عكاظ بجوار مكة ، إذ كان الخطباء والشعراء يتبارون فيها ، وكل يريد أن يحوز قصب السبق لدي سامعيه دون أقرانه . ويظهر أنه كان لقريش في ذلك الحكم الذي لا يرد ، ففي الأغاني " أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردودا . ويبدو أن من الشعراء النابهين من كان يقول في هذه السوق مقام القاضي الذي لا تدفع حكومته ففي أخبار النابغة الذبياني أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه ، فمن نوه به طارت شهرته في الآفاق . وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم ، ويقال إنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت ، وفضل الخنساء على بنات جنسها . وثار حسان عليه ، وقال له : أنا والله أشعر منك ومنها (١)

وفي تعليقات النابغة وملاحظاته ما يدل على أن شعراء الجاهلية كان يراجع بعضهم بعضا وأنهم كانوا يبدون في ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء في المعاني والألفاظ . ويروي عن طرفة بن العبد أنه لاحظ على المسيب بن علس أنه وصف في بعض شعره البعير بوصف خاص بالناقة ، فقال ساخرا به : استنوق الجمل (٢) فالشاعر من أمثال زهير والحطيئة حين ينظم قصيدة يظل يتأمل في أعطافها ، فيحذف – أو يزيد – بيتا ، ويصلح عبارة هنا أو هناك ويصفي الأبيات من شوائبها ، ويخلص القوافي من أدرانها تاما .

والحقيقة أن ما قدمناه عن العصر الجاهلي لندل على أن الشعراء حينئذ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور ، وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية ، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات ، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات ، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام في معارضة البليغة .

---

(١) الأصفهاني (طبعة الساسي) جـ٢١ ص ١١٢
(٢) المرجع السابق جـ٩ ص ٣٤٠ وأيضا السكاكي : مفتاح العلوم . مطبعة الحلبي ١٩٣٧ ص ص ١٩ - ٢١

وأخذت تنمو هذه العناية بعد ظهور الإسلام ، بفضل ما نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة ، أما القرآن فكانت آياته تتلى في آناء الليل وأطراف النهار ، وأما الرسول فكان حديثه يذيع على كل لسان ، وكانت خطبه ملء الصدور والقلوب ، وفيه يقول الجاحظ إنه " لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ... وهو الكلام الذي ألقي الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معني ولا أبين في فحوي من كلامه ﷺ (١) وفي أخبار الرسول ما يدل على أنه كان يعني أشد العناية بتخير لفظه ، فقد أثر عنه أنه كان يقول : " لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي " كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه (٢) . وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى خطباء مفوهين ، كانوا يستضيئون في خطابتهم بخطابة الرسول الكريم وآي الذكر الحكيم . وربما كان مما يدل على شيوع دقة الحس حينئذ ما يروي عن أبي بكر من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ ، إذ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : "لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا وعافاك الله " (٣). ويضرب الرواة مثلا لبلاغة عمر أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شد قيه شاء ، وكان على لا يبارى فصاحة وبلاغة . (٤)

وإذا تحولنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية تزدهر ازدهارا عظيما ، وفى كل لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب ، أما في السياسة فيشتهر من ولاه بنى أمية زياد والحجاج ، وفى زياد يقول الشعبي :" ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسئ إلا زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما "(٥)

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين جـ ٢/ ص١٧
(٢)المرجع السابق الحيوان (طبعة الحلبي) جـ١ / ص ٣٣٥
(٣)المرجع السابق البيان والتبيين جـ ١/ ص ٢٦١
(٤)المرجع السابق البيان والتبيين جـ١ / ص ٢٦
(٥) المرجع السابق البيان والتبيين جـ ٢/ ص ٦٥

وفى الحجاج يقول مالك ابن دينار : " ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج "(١) . ومن خطباء الشيعة زيد بن الحسين بن على وكان لسنا جدلا يجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته (٢). ومن خطباء المحافل سبحان وائل وقد خطب بين يدي معاوية بخطبه باهرة سميت من حسنها باسم الشوهاء (٣)، ومثله صحار العبدى الذي راع معاوية بخطابته ، فسأله : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، فقال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطيء (٤) أما خطباء الوعظ فقد بلغوا الغاية من روعة البيان وفي مقدمتهم غيلان الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء ، ويقول الجاحظ إن أدباء العصر العباسي كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيلان ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية (٥) ويشيد ببلاغة واصل مدللا عليها بإسقاطه الراء من كلامه للثغته فيها ، مع ما انتظم له من الطلاوة والجزالة (٦) ونري الجاحظ يسوق ملاحظات الناس على الخطباء ، كما يسوق ملاحظات الخطباء أنفسهم ، وخاصة أصحاب الوعظ منهم ، إذ كان تلاميذهم يتحلقون حولهم ، وكانوا يدربون على إحسان الأداء وقرع الأدلة بالأدلة الناصعة .

والحق أن الملاحظات البيانية كثرت في هذا العصر فقد تحضر العرب واستقروا في المدن والأمصار ، ورقيت حياتهم العقلية ، وأخذوا يتجادلون في جميع شئونهم السياسية والعقيدية ، فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة ، ونما العقل نموا واسعا فكان طبيعيا أن ينمو النظر في بلاغة الكلام ، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان ، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب ، بل أيضا في مجال الشعر والشعراء ، بل لعل مجال الشعر كان أكثر نشاطا لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه ، وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقواد والأجواد أبوابهم ، وكانوا يجعلون جوائز كل منهم بقدر شعره وبراعته فيه ، لكي يتخير كل منهم معانيه وألفاظه بحيث تصغي لها القلوب والأسماع ، وتساق إليه الجوائز الضخمة . وأخذ الشعراء – بحكم استقرارهم في المدن – يلقي بعضهم بعضا في المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم وفي حضرتهم فكثرت المحاورات – بينهم من جهة وبينهم وبين سامعيهم من جهة ثانية – في براعاتهم وفي بعض معانيهم وأساليبهم .

وقامت في هذا العصر سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية ، بل لقد تحولا مسرحين كبيرين ، يغدو عليهما شعراء البلدتين ومن يفد عليهما من البادية ، لينشدوا الناس ما صاغوه من أشعار . واستطاع جرير والفرزدق أن يتطوروا في سوق المربد بفن الهجاء (٧)

---

(١) الجاحظ البيان والتبين جـ ١ ص ٩٦
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٢٩٥
(٣) المرجع السابق جـ١ ص ١٤
(٤) المرجع السابق جـ١ ص ١١٨
(٥) المرجع السابق جـ١ ص ١١٢
(٦) المرجع السابق جـ١ ص ٣٧٩
(٧) الأصفهاني : الأغاني جـ١٠ ص ١٥٢

القديم ، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة في حقائق عشيرتي الشاعرين وحقائق قيس وتميم ، ويحاكيهما كثير من الشعراء ، ويتجمع لهم الناس يصفقون كلما مر بهم بيت نافذ الطعنة ويهتفون ويصيحون (١) . ومن يقرأ أخبار جرير الذي كان يهاجيه ثلاثة وأربعون شاعرا يجد أن الدافع إلي اشتباكه مع بعض الشعراء يعود إلى تقبيحهم لبعض قوله وإلى تقبيحه لبعض أقوالهم وبيان أنها تخرج على قواعد التعبير الجيد ...

وكان كثيرا ما يتعرض بعض السامعين للشعراء وهم ينشدون ، فيبدون بعض ملاحظاتهم البيانية والتعبيرية ، من ذلك ما يقال لشعراء أمثال الكميت وذو الرمة ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن الملاحظات البيانية في العصور القديمة جاهلية وإسلامية لم تغب عن أذهان البلاغيين حين أصلوا قواعد البلاغة ، وهى بحق تعد الأصول الأولي لقواعدهم كما يقول أستاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

تطور التأليف البلاغي المدون :

البلاغة فن ملازم للأدب العربي منذ مولده قبل البعثة النبوية بنحو قرنين من الزمان ، فهي في شعر العرب وخطبهم ووصاياهم وحكمهم وأمثالهم ، وما كان في أدبهم من إعجاب الناس إنما مرجعه لما أشتمل عليه من فنون البلاغة التي تأخذ بالألباب وتستولي على المشاعر .

والبلاغة من العلوم العربية التي لم يطرأ عليها تطور يذكر منذ استقرت بشكل نهائي على يد أبي يعقوب السكاكي في أوائل القرن السابع الهجري ت ٦٢٦ هـ ، فعلوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع ظلت على نفس الصورة التى تركها عليها السكاكي ومدرسته . والفنون التى تتدرج تحت كل علم من هذه العلوم لا تزال في مجملها على النحو الذي حددها عليها السكاكي وتلاميذه .

على أن البلاغة العربية قبل أن تصل إلى مدرسة السكاكي (١) كانت قد قطعت رحلة طويلة ، طولها أربعة قرون منذ نشأت على نحو ساذج متواضع في بداية القرن الثالث الهجري على هامش العلوم الأخرى حتى استقرت على صورتها تلك التى أشرنا إليها . فقد اتبع السكاكي منهج عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة في التذوق والتحليل والتعليل وليس من اليسير تتبع تفاصيل تلك الرحلة في ثنايا الكتب خلال المرحلة منذ القرن الثالث وحتى نهاية القرن الخامس ، وحسبنا أن نحدد مراحلها الأساسية التى يمكن تلخيصها في ثلاث مراحل هى :

---

(١) للسكاكي المتوفى عام ٦٢٦ هـ كتاب مفتاح العلوم الذي خصص القسم الثالث منه للبلاغة وقد قسم البلاغة لأول مرة إلى علوم ثلاثة : المعاني والبيان والبديع ووضع لكل منها قواعده راجع : السكاكي : مفتاح العلوم مطبعة مصطفي الحلبي ١٩٣٧ ص ١٩٧ وما بعدها

أولا – مرحلة النشأة على هامش العلوم الأخرى .
ثانيا - مرحلة التكامل المشترك .
ثالثا – مرحلة الاستقرار والتفرد .

في المرحلة الأولى : لم تكن للبلاغة العربية ملامح محددة ، **أما في المرحلة الثانية** فإن ملامح البلاغة ابتدأت في التبلور والتحدد ، **أما في المرحلة الثالثة والأخيرة** فإن ملامح البلاغة تبلورت بشكل حاسم ونهائي ، وانفردت قضاياها ومباحثها بمؤلفات وكتب خاصة . هى مؤلفات وكتب بلاغية خالصة ، حتى وإن حملت في بعض الأحيان بصمات من العلوم اللغوية التى نشأت البلاغة وتكاملت في كنفها .

ومن خلال الوقفة المتأنية أمام كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث يمكن أن نخرج بتصور متكامل لرحلة البلاغة العربية عبر تاريخها الطويل . فكثير ما كانت تلك المراحل تتداخل وهذا واضح بشكل خاص في المرحلة الثانية التى ظلت بدايتها تحمل ملامح من المرحلة الأولى . بينما اختلطت نهايتها ببداية المرحلة الثالثة التى ابتدأت قبل أن تنتهي المرحلة الثانية بشكل نهائي بفترة طويلة . (١)

ولكن يظل مع هذا كله لكل مرحلة سماتها العامة الأساسية التى تميزها عن بقية المراحل ، ولا يعنينا كثيرا بعد ذلك متى ابتدأت هذه المرحلة ومتى انتهت تلك ، وإنما يشغلنا النتاج العلمي المدون الذي يحمل ملامحها . ودراسة الظواهر العلمية التى شاعت في كل مرحلة نتيجة التدوين ، وهذا ما سنحاوله في الصفحات التالية . (٢)

العلوم التى ساهمت في نشأة البلاغة :

نشأت – شأن كل علم في بدايته – مجرد أفكار وملاحظات متناثرة على هامش العلوم العربية والإسلامية الأخرى التى سبقتها إلى الوجود ، والتى لم تكن بدورها قد تبلورت على نحو نهائي .

إن أهم العلوم التى احتضنت البلاغة في نشأتها ثلاث هى **" العلوم القرآنية " " العلوم الأدبية " و " العلوم اللغوية "** .... وقد لا يبدو في احتضان مجموعتي " العلوم الأدبية " و " العلوم اللغوية " لنشأة البلاغة العربية شيء من الغرابة ، فالبلاغة ذاتها علم أدبي لغوي يتعامل مع النصوص الأدبية من حيث هى إبداع أدبي أولا ، ومن حيث هى بناء لغوي ثانيا . ولكن ما يستوقف النظر بحق هو مساهمة " العلوم القرآنية " في احتضان نشأة البلاغة العربية بنصيب قد يفوق نصيب " العلوم الأدبية " واللغوية " مجتمعتين .

---

(١) على عشري زايد : البلاغة العربية تاريخها ، ومصادرها ، ومناهجها . مكتبة الشباب ١٩٨٢ ص ٩ وما بعدها
(٢) المرجع السابق ص ١١

ويقتضي الأمر وقفة فاحصة أمام العلوم الثلاث وبيان الدور الذي قامت به في نشأة البلاغة العربية ونموها . (١)

١ـ العلوم القرآنية :

والمقصود من مصطلح " العلوم القرآنية " هنا مجموعة العلوم التى اهتمت بالنص القرآني الكريم ، سواء من ناحية شرحه وتفسيره **كعلم التفسير** . أو من ناحية بيان وجوه إعجازه **كعلم الكلام** . والصلة بين علم التفسير والبلاغة واضحة ومنطقية . فالتفسير علم يهتم في مجمله بتحليل النص القرآني من نواحيه اللغوية والبيانية . وتحليل الجانب البلاغي في القرآن مستوي من مستويات التفسير ، أما الصلة بين البلاغة وعلم الكلام فقد تبدو في نقطة اللقاء وهى قضية الإعجاز القرآني ، فلقد كانت هذه القضية أهم القضايا التى عني بها علم الكلام منذ نشأته ، حتى لقد أفراد لها علماء الكلام كتبا خاصة مثل **" النكت في إعجاز القرآن " للرماني** ، و **" بيان إعجاز القرآن " للخطابي** و **" إعجاز القرآن " للباقلاني** وغيرهما من الكتب التى تعد من أمهات الكتب الكلامية . ولكن هذه القضية كانت قضية بلاغية بمقدار ما كانت قضية كلامية ، فقد كان الجانب البلاغي في القرآن الكريم هو أبرز وجوه إعجازه ، ومن ثم فقد بدأ علماء الكلام يطرحون في مؤلفاتهم التى تعرض للإعجاز القرآني بعض الملاحظات والأفكار البلاغية التى ظلت تنمو ، والاهتمام بها يتزايد ، حتى أصبحت معظم الكتب التى تؤلف حول الإعجاز القرآني كتبا بلاغية أكثر مما هى كتب كلامية ، وبخاصة في المرحلة الثانية من رحلة البلاغة العربية . (٢)

ونحن نعرف أن قضية الإعجاز القرآني نشأت في الأساس نشأة بلاغية ، فقد نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ ، وأنكر مشركو قريش كون القرآن وحيا من الله ، وزعموا أنه من عند محمد ، فتحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، فلم يستطيعوا بالطبع ، فظل يتدرج معهم في التحدي إلى حد مطالبتهم بالإتيان بسورة من أقصر سوره ... فعجزوا . ولقد كان مشركو قريش يدركون بفطرتهم اللغوية الناصعة أن في النظم القرآني شيئا يخرج عن طوق البشر واستطاعتهم ، هذا الشيء الذي عبر عنه واحد من أشد جبابرة قريش عتوا ومكابرة – وهو الوليد بن المغيرة – أروع تعبير " لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، أن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلي " (٣) ... واضح من عبارة الوليد إن أبرز ما بهره في القرآن بلاغته

---

(١)المرجع السابق ص ١٢
(٢) المرجع السابق ص ١٣
(٣) الزمخشري : الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في جودة التأويل المكتبة التجارية القاهرة ١٩٥٤ جـ٤ ص ١٥٨ وأنظر أيضا سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٨٨

ولقد كان العرب في بداية الدعوة الإسلامية على قدر من الفطرة اللغوية تمكنهم من إدراك الإعجاز القرآني ، ولكن بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، ودخلت في الإسلام شعوب ليس لسانها العربية ، ولا تتوافر لها مثل هذه الحاسة اللغوية العربية المرهفة التى تمكنهم من إدراك الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، بدأ يتبلور إحساس قوي بالحاجة إلى الاهتمام بقضية الإعجاز القرآني بشكل عام ، والجانب البلاغي من هذا الإعجاز على وجه الخصوص . ومن هنا نشأت قضية الإعجاز القرآني على المستوي العلمي ، وانتدب علماء الكلام للتصدي ، ومن هنا الارتباط بين علم الكلام والبلاغة .

وقد حرص علماء الكلام على حذق فنون البيان ، والتمرس بأساليب القول حتى يتمكنوا من شرح عقائدهم وإيصالها إلى الناس ، والدفاع عنها ضد هجوم الخصوم ، وكل هذه الجوانب تقتضي مهارات بلاغية خاصة ، حرص زعماء المذاهب الكلامية على توفيرها لأنفسهم ولأتباعهم ، ولعل فيما يرويه لنا **الجاحظ عن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة** من إسقاطه حرف الراء من كل كلامه – حيث كان يلثغ فيه – أكبر شاهد على حرص هؤلاء المتكلمين على هذه المهارات والقدرات البلاغية لأنفسهم

(١) كما أن ، في تأليف الجاحظ – وهو من كبار علماء المعتزلة كتبا في البيان الخالص مثل كتاب " **البيان والتبيين** " وغيره ما يؤكد حرص هؤلاء المتكلمين على النبوغ في الجانب البلاغي ، وما يقوم شاهدا على قوة الارتباط بين علم الكلام والبلاغة .

أما **علم التفسير** فقد كانت صلته بالبلاغة أسبق من صلة علم الكلام بها ، بدأت صلة البلاغة بعلم التفسير منذ نشأة المحاولات الأولي لعلم التفسير هذه المحاولات تتمثل في أول مؤلفات اشتملت على ملاحظات بلاغية ذات شأن ، فكتاب " **مجاز القرآن** " **لأبي عبيدة معمر بن المثني (ت ٢١٠ هـ)** وهو من المحاولات الأولي في مجال تفسير القرآن من المؤلفات الأولي التى حوت بعض الآراء والأفكار البلاغية ذات القيمة ، حتى أن بعض مؤرخي البلاغة يعدونه أول كتاب في علم البلاغة .

وكان علماء الدراسات القرآنية ، ومعدود في تلك المرحلة بلاغيين بقد ما كانوا متكلمين أو مفسرين وحسبنا أن نشير إلى أسماء **الرماني والخطابي والباقلاني وابن قتيبة** وسواهم من علماء الكلام والتفسير . الذين كانوا في الوقت ذاته ممن أرسوا دعائم علم البلاغة . وحسبنا أن نشير إلى أن أهم كتب الدراسات القرآنية في هذه الفترة هى في نفس الوقت من أهم مصادر البلاغة ،

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين جـ١ ص ١٤

مثل " مجاز القرآن " لأبي عبيدة ، و " معاني القرآن " للفراء ، و " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة ، و " تلخيص البيان في مجازات القرآن " للشريف الرضي ، و " النكت في إعجاز القرآن " للرماني ، و " بيان إعجاز القرآن " للخطابي و " إعجاز القرآن " للباقلاني ، و " الجمان في تشبيهات القرآن " لابن ناقيا البغدادي و " بديع القرآن " لابن أبي الإصبع .

بل أنه من الممكن اعتبار البلاغة ذاتها في تلك المرحلة علما قرآنيا ، ونحن نجد واحدا من علماء البلاغة – وهو يحيى بن حمزة العلوي صاحب " الطراز " – يعرف البلاغة من بين ما يعرفها به بأنها " علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز " (١) .

٢. العلوم الأدبية :

كان طبيعيا أن تكون العلوم الأدبية هى المهد الطبيعي الذي يحتضن نشأة الدراسة البلاغية ، فالبلاغة ذاتها ليست سوي واحد من تلك العلوم الأدبية ، ومحور اهتمامها النص الأدبي من حيث تحليل عباراته وتراكيبه تحليلا فنيا . ولعل أبرز مظاهر تأثير العلوم الأدبية في تلك المرحلة من مراحل حياة البلاغة العربية يتمثل **في موسوعة الجاحظ " البيان والتبيين "** هذه الموسوعة التى ضمنها الجاحظ الكثير من الفنون الأدبية ، والتى اختلط فيها النقد بالأدب بالبلاغة على النحو الذي يعكس طبيعة التأليف العلمي في تلك المرحلة ، وقد احتوي الكتاب على مجموعة من أهم الأصول البلاغية الأولي التى قامت عليها دعائم علم البلاغة ، والتى جعلت مؤرخي البلاغة يعتبرون الجاحظ واحدا من الآباء الشرعيين الأول لعلم البلاغة ، وعلى الرغم من أن الكتاب لا يشتمل على نظرية علمية متكاملة ، أو حتى على قضايا محددة وإنما هى أفكار بلاغية متناثرة هنا وهناك وسط حشد هائل من النصوص والأخبار الأدبية وتراجم الأدباء هذه الآراء هى الأصول الأولي لصرح البلاغة العربية . (٢)

---

(١) يحيى بن حمزة العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز القاهرة ١٩١٤ جـ١ ص ١٣وأيضا على العشري زايد : البلاغة العربية ... ص ١٦

(٢) المرجع السابق ص ١٨

ويضـم كـتاب " **البيان والتبيين** " إلى جانب آراء الجاحظ البلاغية الخاصـة ، مجموعة من الآراء والأفكار البلاغية لبعض العلماء الآخرين الذين لم يتركوا لنا كتبا في البلاغة ، ومن هؤلاء العلماء الذين احتفظ لنا الجاحظ ببعض آرائهم البلاغية بشر بن المعتمر الذي نقل لنا الجاحظ صحيفته المشهورة التى اشتملت على عدد من الأفكار والملاحظات البلاغية والنقدية ذات الشأن . كفكرة ضرورة مراعاة مقتضيات الأحوال والمقامات الأدبية ، هذه الفكرة التى اعتمد عليها علماء البلاغة المتأخرون في تحديد مفهوم مصطلح البلاغة ، حين عرفوها بأنها " مراعاة الكلام لمقتضي الحال " (١)

وقد ظلت العلوم الأدبية تمارس هى الأخرى تأثيرها على البلاغة العربية لفترة طويلة خلال مرحلتي النشأة والنمو ، وكان لتلك المعركة الأدبية الكبرى التى قامت منذ بداية العصر العباسي بين أنصار الجديد – أو ما أطلقوا عليه اسم " البديع " وأنصار التقاليد المحافظة – التى أطلقوا عليها اسم " **عمود الشعر** " – كان لهذه المعركة أثرها البالغ في نضج البلاغة العربية ونموها ، حيث أسفرت عن مجموعة من المؤلفات الأدبية والنقدية حول الشعراء الذين يمثلون كلا الاتجاهين – وبصفة خاصة **حول أبي تمام الذي يمثل الاتجاه البديعي التجديدي ، والبحتري الذي يمثل الاتجاه المحافظ** – وقد أسهمت هذه المؤلفات في بلورة ملامح البلاغة العربية وتحديد سماتها . إذ عكف أصحاب هذه المؤلفات على الأدوات البلاغية يطورونها ، ويستخدمونها في تقويم نتاج الشعراء الممثلين لكل من الاتجاهين مما ساعد على بلورة هذه الأدوات ونضجها .

٣. العلوم اللغوية :

كانت علوم اللغة بدورها مجموعة العلوم التى نشأت البلاغة على هامشها وترعرعت في كنفها ، فقد قام اللغويون والرواة بدور هام في طرح القضايا والأفكار البلاغية الأولي من خلال استنباطهم لقواعدهم ومبادئهم اللغوية من النصوص الأدبية ، وإذا كان الهم الأول لأولئك اللغويين والرواة هى رواية النصوص الشعرية والنثرية واستنباط القواعد اللغوية منها . فإنهم كانوا يعرضون لبعض الجوانب الأسلوبية والتعبيرية في هذه النصوص ، لأن مجرد استخلاص قاعدة لغوية من نص ما يقتضي تحليل البناء اللغوي لهذا النص ، وتناول الجوانب الأسلوبية فيه ، ومن ثم فقد تناثرت هنا وهناك عبر مؤلفات هؤلاء اللغويين الأول بعض الأفكار والملاحظات البلاغية العامة ، التى كانت بمثابة الأصول الأولي التى قام عليها علم البلاغة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ وأيضا الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ١٣٥

ومن أمثال الأصمعي ، وثعلب ، والفراء . وغيرهم ، بل إنه ينسب إلى بعضهم أنه وضع مؤلفات في بعض الموضوعات التى أصبحت فيما بعد من المباحث الأساسية للبلاغة ، مثل " الأصمعي الذي يشير ابن المعتز في كتابه " البديع " إلى أنه ألف كتابا في التجنيس ، حيث يقول في تعريفه للتجنيس : " التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر ، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها ، على السبيل التى ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها " (١) ولا نتوقع بالطبع أن يكون مثل هذا الكتاب دراسة للتجنيس بمفهومه البلاغي ، ولعله حصر لبعض الألفاظ التى تتشابه في حروفها شأن معظم الرسائل والمؤلفات اللغوية في تلك الفترة التى كانت في الغالب تحصر مجموعة من المفردات التى يجمعها جامع لغوي ما . على أن هذه الإشارة من ابن المعتز تؤكد دور علم اللغة في نشأة البلاغة العربية ، واحتضان نموها وتطورها . وقد بلغ هذا الدور فيما بعد إلى حد أن واحدا من علوم البلاغة الثلاثة – وهو علم المعاني – ينشأ نشأة لغوية خالصة ، بل أنه يعد جزءا من النحو بمعناه الواسع . وهذه حقيقة فطن إليها عبد القاهر الجرجاني أول من أرسي قواعد علم المعاني على نحو متكامل في كتابه " دلائل الإعجاز " حيث يعرف " النظم " – الذي يشمل مباحث علم المعاني وأبوابه – بأنه مراعاة معاني النحو .

وليس أدل على أهمية دور العلوم اللغوية في نشأة البلاغة من أن أول كتاب احتوي بعض الأفكار البلاغية المتبلورة هو أساس كتاب لغوي ، ومؤلفه هو أبو عبيدة معمر وبن المثني التيمي المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، وأعني بهذا كتاب " مجاز القرآن " الذي يعده بعض مؤرخي البلاغة أول كتاب معروف من كتب البلاغة العربية ، وإن كان علماء التفسير في نفس الوقت يعدونه أول كتاب معروف من كتب التفسير ، ولكن الكتاب قبل ذلك كله كتاب لغوي ، وهو على أية حال من أهم الكتب التى تحمل أبرز ملامح هذه المرحلة من مراحل حياة البلاغة ،وتداخل مفهوم العربية ، ومن ثم فإنه يستحق وقفه نتعرف من خلالها على القيمة العلمية لهذا الكتاب ، وعلى مكانته بين الكتب البلاغية . (١)

سمات التأليف البلاغي في القرون من الثالث إلى الخامس الهجري :

اتسمت الكتابة البلاغية في تلك المرحلة بغياب المنهج العلمي ، فالعلوم في نشأتها لا تتبلور لها مناهج محددة . ولم يكن الأمر مقصورا على البلاغة وحدها . بل لقد اتسعت هذه الظاهرة لتشمل كل العلوم العربية والإسلامية وأبرز السمات التى تمثل افتقار المؤلفات البلاغية إلى المنهج العلمي أربع : عدم التبويب ، واضطراب مدلولات المصطلحات ، واختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى ، وعدم تميز علوم البلاغة الثلاثة بعضها عن بعض .

---

(١) شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١ وما بعدها وأيضا على عشري زايد : البلاغة العربية ص ٢٢

١ـ عدم التبويب :

لم تعرف المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة التبويب العلمي الدقيق الذي هو أبرز خصائص المنهج العلمي ، وإنما كان طابعها الخلط والاستطراد الذي يخرج بالقارئ إلى موضوعات وقضايا فرعية أخرى ، ويضل القارئ وسط هذه الاستطرادات الكثيرة العثور على الخيط الأساسي في فكرة المؤلف .

ويبعثر المؤلف الحديث عن القضية الواحدة أو الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب مما يجهد القارئ في لم شتات الفكرة وجمع أجزائها ويكرر المؤلف الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب بدون مبرر منهجي واضح ، ولم يكن هناك ترابط بين موضوعات تلك الكتب مما يفقدها وحدتها العلمية .

وظاهرة عدم التبويب من ظواهر الكتابة عند الجاحظ ، فعلى الرغم من أن كتابيه الكبيرين " **البيان والتبيين** " و " **الحيوان** " من أهم المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة فإن افتقار الكتابين إلى التبويب الدقيق يجعل الإفادة الكاملة منهما على قدر كبير من الصعوبة والعسر ، ويقتضي قارئهما بذل الكثير من الجهد في سبيل استخلاص آراء الجاحظ المبعثرة بدون تنسيق خلال الكتابين ، ومن ويحاول الاهتداء إلى آراء الجاحظ من كتبه عليه أن يستوعب تلك الكتب من أولها إلى أخرها لكي يستطيع أن يجمع تلك الأفكار المشتتة . (١)

ولقد فطن العلماء منذ وقت مبكر إلى تفشي هذه الظاهرة في كتابات الجاحظ ، حتى أولئك الذين لم تنج كتبهم منها ، وإن لم يكن بمثل وضوحها ، وقد فطن أبي هلال العسكري إلى هذه الظاهرة وأشار إليها في مقدمة " **الصناعتين** " وقال أن وجود هذه الظاهرة في البيان والتبيين " كانت من بين الأسباب التى دفعته إلى تأليف كتابه ، فمع أن كتاب " البيان والتبيين " في رأيه كتاب " كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما أشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة .... إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، وضالة بين الأمثلة التي لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير " (٢) .

---

(١) د/ بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب العربي طـ٥ ـ مكتبة الأنجلو ص ١٨٠
(٢) أبو هلال العسكري : الصناعتين ـ تحقيق البخاري وأبو الفضل طـ٢ ـ الحلبي القاهرة

وحاول الجاحظ أن يدافع عن هذه الظاهرة في كتابه " الحيوان " بأنه لما قال الخليل بن أحمد لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه قال أبو شمر : إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه ، وذلك مثل كتابنا هذا ، لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على الحق ، وصعوبة الجد ، وثقل المئونة ، وحيلة الوقار لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم ، وفهم معناه ، وذاق ثمرته .... الخ (١) .

والتبرير الأكثر إقناعا يكمن في طبيعة الجاحظ الموسوعية ، حيث كان رجلا متعدد الثقافات والمعارف والاهتمامات العلمية ، فكانت موسوعيته تغلبه ، فلا يستطيع لها كبحا بالإضافة إلى طبيعة العصر ذاته من حيث المستوى العلمي ، إذ أن معظم العلوم العربية والإسلامية كانت ما تزال تخطو خطواتها الأولي ، تتلمس طريقها نحو النضج والتبلور . فكان طبيعيا أن تكون المحاولات الأولي على هذا النحو من الاختلاط وعدم التحدد .

وقد أخذت كل مؤلفات المرحلة بخطها من عدم التبويب . وإن تفاوتت تلك الخطوط

٢. اضطراب مدلول المصطلحات :

تردد في كتب المؤلفين في تلك المرحلة مصطلحات " **بلاغة** " و " **فصاحة** " و " **بيان** " و " **بديع** " و " **مجاز** " و " **كناية** " و " **تشبيه** " و " **استعارة** " و " **إيجاز** " و " **إطناب** " ... الخ . ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك المصطلحات بمدلولات علمية خاصة ، على نحو ما تحدد لها فيما بعد من مدلولات ، وإنما كانت تدور في مؤلفاتهم عامة أقرب ما تكون إلى دلالتها اللغوية الوضعية ، أي أن هذه الكلمات كانت بالنسبة لهم مفردات لغوية عادية أكثر منها مصطلحات بلاغية ذات مدلول علمي محدد . وإن كان بعضهم قد حاول أن يضفي على بعض هذه الكلمات نوعا من الدلالة الخاصة ، التى تبتعد به قليلا عن دلالته اللغوية ، وغير أن هذه المحاولات كانت جهودا فردية لم يقدر لها أن تنال حظا من الإتقان والذيوع يرقي بها إلى مستوي المصطلح العلمي ، وعلى هذا فقد ظلت هذه المصطلحات في تلك المرحلة مضطربة الدلالة ، بين مؤلف وآخر ، بل يختلف لدي المؤلف الواحد ، وفي الكتاب الواحد ما بين موضع وآخر . ومن الملاحظ أن مدلولات البلاغة كانت أكثر اضطرابا وعمومية من المصطلحات الجزئية ، كمصطلحات " **التشبيه** " و " **الإيجاز** " و " **الإطناب** " مثلا وهذه الأخيرة كانت تستعمل في مدلولات شديدة القرب من مدلولاتها البلاغية التى تحددت لها فيما بعد ، وإن لم تكن هى نفس هذه المدلولات بالتحديد .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٨٨ وما بعدها

أما المصطلحات الثلاثة البيان والبديع والمعاني ويمكن إليها مصطلح " المجاز " فقد كانت على قدر كبير من العمومية والاضطراب ، وقد أورد الجاحظ مصطلح البلاغة في كتابه " البيان والتبيين " عددا وافرا من التعريفات التى لا تكاد في مجملها تلتقي بالتعريف الذي حدده البلاغيون لهذا المصطلح فيما بعد وهو " مطابقة الكلام لمقتضى الحال بعد مراعاة فصاحته " . ولا يكتفي الجاحظ بتعريفات البلاغة لدي فصحاء العرب وبلغائهم وعلمائهم – على كثرة ما ساق من التعريفات المنسوبة إلى هؤلاء – وإنما أورد عددا من تعريفاتها لدي الأمم الأخرى كالفرس والروم واليونان والهنود (١)

ويكتفي الجاحظ بالوقوف على الحياد بين هذه التعريفات بحيث لا يرجح تعريفا على أخر ولا يناقش بعض هذه التعريفات بما يفيد قبوله لها على ما هى عليه ، كما فعل بالنسبة لتعريف العتابي الذي أجاب حين سأله بعضهم عن البلاغة بأنها " كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبة " (٢) حيث يناقشه مبينا ما يترتب عليه من خطأ إذا ما أخذ على معناه الظاهر ومبينا قصد العتابي الحقيقي من هذه العبارة لأن " من زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معني القائل جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب . والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا ... وإنما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء " (٣) .
كما أنه يعلق على بعض هذه التعريفات بما يفيد إعجابه – وإن لم يعبر عن تنبيه له صراحة – مثل قوله : " وقال بعضهم – وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه – لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه .فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " (٤) . ويخلط الجاحظ بين مصطلح " البلاغة " وغيره من المصطلحات كمصطلح " الفصاحة " فهو " في كل ما ذكر لا يضع بين البلاغة والفصاحة حدا فاصلا ، فكثيرا ما تأتيان مترادفتين ، وهما عنده البيان بمعناه الواسع قبل أن يقيده المتأخرون " (٥) .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ١١٣
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٦٢
(٣) المرجع السابق ص ١١٥
(٤) أحمد مطلوب : مصطلحات بلاغية .... بغداد ١٩٧٢ ص ٤٤
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٧٦

ولم يكن مصطلح " البيان " بأسعد حظا من زميله " البلاغة " من حيث اضطراب مفهومه وعدم تحدده ، على الرغم من أن الجاحظ قد جعله عنوانا على كتابه الشهير " البيان والتبيين " . و " البيان " في عنوان الكتاب وفي الفصل الذي عقده الجاحظ في الكتاب تحت عنوان " البيان " ليس مقصودا به المدلول البلاغي الدقيق للمصطلح – أي معرفة كيفية إبراز المعني الواحد في صور متفاوتة في وضوح الدلالة على هذا المعني " – وإنما مقصود به معناه اللغوي الشامل ، أي ما يرادف الوضوح والظهور والكشف ، وهو بهذا المعني أعم من مصطلح " البلاغة " ذاته ، الذي أصبح " البيان " بمدلوله البلاغي فرعا من فروعه فيما بعد ، وهو أعم من هذا المصطلح حتى بدلالته اللغوية العامة التى استعمله بها الجاحظ ، لأن البلاغة بهذا المفهوم عند الجاحظ محصورة في إطار الكلام البليغ ، أما البيان فهو عنده " اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعني ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر ، والغاية التى يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعني ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع " (١) .

ويحدد الجاحظ أنواع الدلالة الموصلة إلى البيان والكشف ويحصرها في خمسة أشياء :

١. اللفظ ٢. الإشارة ٣. العقد ٤. الخط ٥. دلالة الحال

وواضح من هذا التقسيم أن مفهوم البيان عند الجاحظ أوسع كثيرا من مفهومه البلاغي المحصور في إطار فرع من فروع البلاغة الثلاثة ، بل أوسع حتى من كلام بليغا كان أو غير بليغ ، إذ أن نوعين فقط من بين أنواع الدلالة الخمسة هما اللذان يتصلان بالكلام ، وهما دلالة اللفظ ودلالة الخط أما الثلاثة الباقية فلا صلة لها بالكلام ، ومن هنا يتضح لنا اضطراب دلالة مصطلح " البيان " عند الجاحظ ، الذي كان أكثر مؤلفي المرحلة اهتماما بهذا المصطلح وسعيا وراء تحديد مدلوله ،

أما مصطلح " البديع " – الذي سيصبح في المرحلة التالية على امتداد حقبة طويلة من تاريخ البلاغة العربية أهم المصطلحات البلاغية وأكثرها شيوعا – فإنه لم يلق في هذه المرحلة مثل حظ مصطلحي " البلاغة " و " البيان " من الرواج وحفاوة العلماء والمؤلفين . " ولعل الجاحظ كان أول من اعتني بالبديع وصوه ، وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة ... ولكنه لم يشر إلى فنونه ، بل كان يطلق هذا المصطلح إطلاقا " (٢) .

---

(١) الجاحظ : الحيوان . جـ١ ص ٤٥
(٢) أحمد مطلوب : مصطلحات بلاغية ص ٨٢

وقد تردد المصطلح مرات معدودة في كتاب " البيان والتبيين " بمعني قريب من دلالته اللغوية ، بما يرادف الجدة والطرفة والبراعة ، وذلك في حديثة عن كلثوم بن عمرو العتابي ، وعن منصور النمري ، ومسلم بن الوليد الأنصاري ، وأشباههما . وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع ولم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة " (١)

ويذهب الجاحظ إلى أن " البديع " مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان " ويحدد الجاحظ طابع كل شاعر من رواد البديع الأوائل ، " فـ الراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب في البديع " (٢)

وهكذا نجد الجاحظ يحصر البديع في نطاق الشعر . وإن لم يحدد خصائص هذا البديع وحدوده ، ولم يضع مفهوما واضحا محددا للمصطلح ، مما يجعله مشاركا لمصطلحي " البلاغة " و " البيان " في غموض مفهومه واضطرابه

٣. امتزاج القضايا بقضايا العلوم الأخرى :

من الطبيعي أيضا في هذه المرحلة أن تختلط قضايا البلاغة وتمتزج بموضوعات العلوم الأخرى التى نشأت البلاغة على هامشها ، وأن يكون هذا الامتزاج سمة من سمات التدوين في العلوم البلاغية ، وقد ساعد على بروز هذه السمة في مؤلفات تلك المرحلة عاملان بارزان :

أولهما : أن العلوم العربية والإسلامية التى نشأت البلاغة على هامشها لم تكن قد تبلورت لها معالم واضحة محددة واتسمت تلك المرحلة من حياة العلوم باختلاط قضايا البلاغة بقضايا العلوم الأخرى ، ومن ثم فقد تداخلت هذه العلوم وتشابكت إلى الحد الذي يندر معه العثور على كتاب خالص لعلم من العلوم في تلك المرحلة ، وقد رأينا كيف كانت تتشابك في الكتاب الواحد قضايا علوم عدة ، بصورة تجعل مؤرخي كل علم من هذه العلوم يعدون هذا الكتاب من بين كتب العلم الذي يؤرخون له ، والمثال البارز لذلك كتاب " **مجاز القرآن** " ، لأبي عبيدة ، حيث يعده علماء التفسير كتاب تفسير ، ويعده اللغويون كتاب لغة ، ويعده مؤرخو البلاغة كتاب بلاغة ، والذي ساعد على توزيع الكتاب بين هذه العلوم الثلاثة ، أن أيا منها لم يكن قد بلغ مرحلة النضج والتبلور النهائي وإنما كانت كلها في مرحلة البداية (٣)

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٥١
(٢) المرجع السابق ص ٥٥
(٣) المرجع السابق ص ٥٦

العامل الثاني : أن علماء تلك المرحلة كانوا علماء موسوعيين تتعدد معارفهم وتتنوع ثقافاتهم ، الأمر الذي ترتب عليه عدم وجود المؤلف المتخصص في البلاغة ؛ فمؤلف كالجاحظ مثلا كان أديبا ومؤرخا وناقدا ومتكلما ومعتزلا وما يقال عن الجاحظ يقال عن أبي عبيدة ، وثعلب ، والفراء وغيرهم ممن وضعوا اللبنات الأولى في صرح البلاغة العربية . حيث كان هؤلاء جميعا لغويين ونقادا ومؤلفين في العلوم القرآنية قبل أن يكونوا بلاغيين ولقد كانت أبرز العلوم التى امتزجت بقضايا البلاغة هى مجموعة العلوم القرآنية واللغوية والأدبية ، وقد رأينا مدي امتزاج قضايا البلاغة بقضايا المجموعتين الأوليين في " مجاز القرآن " أما امتزاج القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأدبية فلعل مثالها كتاب الجاحظ " البيان والتبيين " الموسوعة الأدبية التى حوت الكثير من الأفكار والآراء النقدية والبلاغية ، ومن النصوص الأدبية ، وتراجم كبار الأدباء والكتاب وأخبارهم ، وقد امتزجت القضايا البلاغية بقضايا الأدب والنقد في هذا الكتاب إلى الحد الذي جعل أبا هلال العسكري يعتبر هذا الخلط في كتاب الجاحظ سببا من أسباب تأليف كتابه " الصناعتين لكي يشيد بكتاب الجاحظ وبقيمته العلمية ، فالبلاغة وأقسام البيان مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه ، كما أن هناك كثيرا من آراء الجاحظ وأفكاره البلاغية الصائبة قد تناثرت في كتاب الحيوان واختلطت بموضوعاته ، كبعض آرائه في التشبيه ، وغيره من الموضوعات البلاغية . (١)

٤. عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة :

لم يكن من المتوقع أن تتميز علوم البلاغة الثلاثة ويستقل بعضها عن بعض في المرحلة المبكرة من تاريخ البلاغة التى لم تكن فيها البلاغة ذاتها كعلم قد استقلت عن سواها من العلوم الأخرى التى نشأت على هامشها . فعلى الرغم من أن علماء تلك المرحلة قد اكتشفوا كثيرا من الأساليب البلاغية ، وأشاروا إلى كثير من الفنون التى أصبحت فيما بعد هى الركائز التى نهض عليها كل علم من علوم البلاغة الثلاثة ، فإن تصنيف هذه الفنون وهذه الأساليب إلى ثلاث مجموعات يمثل كل منها فرعا من فروع البلاغة الثلاثة قضية لم تطرح في مؤلفات هذه المرحلة ، ولم يكن هناك أي نوع من الفصل بين الفنون التى نهض عليها فيما بعد علم البيان – مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز الإيجاز والإطناب ، والتقديم والتأخير ، وخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى ... وغير ذلك من المباحث التى اندرجت فيما بعد تحت علم المعاني – التى صنفت في المرحلة الثالثة من حياة البلاغة وإذا كان مصطلحان قد عرفا واستخدما في مؤلفات تلك المرحلة ، وهما مصطلحا " البيان " و " البديع " فإنهما لم يستخدما في مدلولهما الذي تحدد لهما فيما بعد ، أي باعتبارهما عنوانين على فرعين من فروع البلاغة الثلاثة ، ويكفي القول أن مدلول مصطلح " البيان " عند الجاحظ كان أعم من مدلول مصطلح " البيان " فرعا من فروعه ، كما أن الجاحظ كان يطلق اسم " البديع " على بعض الفنون التى صارت في المراحل التالية تحت علم البديع – كالالتفات والمذهب الكلامي والتشبيه ، كما فعل في تعليقه على بيت الأشهب بن رميلة (٢)

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٢١١
(٢) المرجع السابق ص ٢١٣

هم ساعد الدهر الذي يتقي به   وما خير كف لا تنوء بساعد

حيث يقول : " قوله " هم ساعد الدهر " إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع ولعل هذا الإطلاق لمصطلح " البديع " هو الذي دفع علماء البلاغة اللاحقين على الجاحظ إلى استخدام مصطلح البديع بهذا المفهوم طوال المرحلة الثانية . وشطرا طويلا من المرحلة الثالثة ، على نحو ما سنعرف

مرحلة التكامل المشترك لتبلور البلاغة :

في هذه المرحلة ابتدأت ملامح علم البلاغة تتبلور وتتحدد . حيث بدأت الملاحظات البلاغية والآراء والأفكار المتناثرة في مؤلفات المرحلة الأولي تنمو وتتضح لتصبح أبوابا وفصولا متكاملة في نتاج المرحلة الثانية . إلا أن هذا النتاج ظل يحمل من سمات المرحلة الأولي بعض خصائصها ، وبخاصة سمة امتزاج قضايا البلاغة وموضوعاتها بقضايا العلوم الأخرى حيث لم تستطع البلاغة أن تتحرر تماما من آثار العلوم الأخرى ، التي نشأت ونمت على هامشها ،وإن أخذ الامتزاج في هذه المرحلة الثانية شكلا جديدا مخالفا في طبيعته ومداه لما كان عليه في المرحلة الأولي ، فلم يعد امتزاجا غير متكافئ بين أفكار وملاحظات عامة من ناحية وقضايا ومباحث على حظ ملموس من التبلور والنضج من ناحية أخرى ، على نحو ما كان عليه شأن البلاغة والعلوم الأخرى في المرحلة الأولى ، كما لم تعد البلاغة مجرد لمحات متناثرة وسط حشد من قضايا العلوم الأخرى وموضوعاتها ، وإنما أصبح الامتزاج متكافئا ومتعادلا بين قضايا متصارعة في نضجها وفي حجمها معا من الجانبين ، تتجاوز في إطاره الفصول والأبواب المخصصة للقضايا والمباحث البلاغية مع الفصول والأبواب المخصصة لقضايا العلوم الأخرى ومباحثها في مؤلفات تلك المرحلة ، والعلوم التى امتزجت قضاياها بقضايا البلاغة في هذه المرحلة هى ذاتها المجموعات الثلاث التى نشأت البلاغة على هامشها في المرحلة الأولي ، غير أن دور علم الكلام قد صار أكثر وضوحا وأهمية في هذه المرحلة ، حيث أصبح واحدا من العلوم التى تمتزج قضاياه بقضايا البلاغة في مؤلفات تلك المرحلة إلى الحد الذي يمكن معه اعتبار هذه المؤلفات كتبا بلاغية بنفس القدر الذي يمكن اعتبارها كتبا كلامية ، بل إن الجانب البلاغي في بعض هذه المؤلفات قد طغي على الجانب الكلامي بحيث أصبحت تلك المؤلفات كتبا بلاغية أكثر منها كتبا كلامية ، على الرغم من أن أصحابها متكلمون ، وأنها قد كتبت أساسا في موضوعات كلامية ، كما هو الشأن في كتاب " **النكت في إعجاز القرآن** " **لأبي الحسن الرماني** الذي يعد واحدا من الكتب الرائدة حول قضية الإعجاز القرآني ، وهو في الوقت ذاته واحد من المصادر الأساسية الأولي في البلاغة العربية ، فالجانب البلاغي في هذا الكتاب طاغ على الكلامي ، بحيث لا يحتل هذا الأخير سوي أربع من صفحات الكتاب البالغ عددها ستا وثلاثين صفحة . (١)

---

(١) الروماني : النكت في إعجاز القرآن ... تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام دار المعارف . القاهرة

وقد حصر الرماني وجوه الإعجاز القرآني في سبع جهات هى : البلاغة ، وترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرف ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة . وقد اختص البلاغة وحدها من بين هذه الوجوه بالقدر الأكبر من اهتمامه ، وقسمها إلى عشرة أبواب هى : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . وتناول هذه الأبواب بالتفصيل في الصفحات الاثنتين والثلاثين الأولي ، أما الوجوه الستة الباقية فقد حصرها في الأربع صفحات الأخيرة .

وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب فقد ترك أثرا بارزا في مسار التأليف البلاغي ، وتأثر به كثير من البلاغيين والنقاد والمتكلمين الذين جاءوا بعد الرماني ، **وبعضهم عارضه كما فعل الباقلاني في " إعجاز القرآن "** وبعضهم اقتبس منه بعض العبارات أو نقل عنه **بعض الأفكار كابن رشيق في " العمدة " وابن سنان الخفاجي في " سر الفصاحة "** ، بل أن بعضهم نقل عنه فصولا برمتها كما فعل أبو هلال العسكري في " الصناعتين " الذي نقل عنه فصلا من أهم فصول الكتابة وهو الفصل الخاص بالتشبيه دون إشارة إلى صاحبه

وطغيان الجانب البلاغي في هذا الكتاب يجعل الكتاب أقرب إلى كتب البلاغة الخالصة أما الكتاب الأخر الأكثر تمثيلا لطبيعة هذه المرحلة فهو كتاب الباقلاني " إعجاز القرآن " . (١)

---

(١) عني المحققان الفاضلان والدكاترة خلف الله وسلام عناية مشكورة بتتبع كتاب " النكت في كتب اللاحقين .

- **" مجاز القرآن (١) " لأبي عبيدة معمر بن المثني التيمي ت ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م**

تروي لنا كتب التراجم سبب تأليف أبي عبيدة لهذا الكتاب أنه كان يوما في مجلس الفضل بن الربيع فسأله إبراهيم بن إسماعيل أحد كتاب الفضل عن قوله تعالي في شجرة الزقوم (**طلعها كأنه رءوس الشياطين**) ، وكيف يشبه الله سبحانه وتعالي هذه الشجرة برءوس الشياطين على سبيل التخويف والوعيد ، والعادة في التخويف والوعيد أن يكون بما مألوف للناس ومعروف لديهم . والعرب لم يروا الشياطين حتى يخيفهم بتشبيه طلع شجرة الزقوم برءوسها ، فأجاب أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالي إنما خاطب العرب على قدر كلامهم. فامرؤ القيس يقول في توعد خصمه :

أيقتلني والشر في مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

والعرب لم يروا الغول قط . ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به .

وقد استحسن الفضل هذا الجواب واستحسنه السائل . ومنذ ذلك الحين عزم عبيدة على وضع كتاب عن مثل هذه الأساليب في القرآن الكريم . ولما عاد إلى البصرة وضع كتابه " مجاز القرآن " (٢) .

وتدلنا هذه الرواية على منهج الرجل في تأليف هذا الكتاب ، فهو يعرض للأساليب الدقيقة في القرآن الكريم فيحللها تحليلا لغويا ، ويستشهد لها بمحفوظه الوفير من التراث الشعري والنثري العربي . ومن استعمالات العرب اللغوية . وهو يعرض لسور القرآن بالترتيب ، فسيتخرج من كل سورة ما يعتقد أنه في حاجة إلى تفسير فيفسره ، وفي خلال تحليله اللغوي لبعض هذه الأساليب وتفسيره لها تتناثر بعض الأفكار والملاحظات البلاغية هنا وهناك . وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز هو أبو عبيدة معمر بن المثني في كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة . وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية " (٣) .

فأبو عبيدة قد يستخدم المجاز بمعني التفسير اللغوي للآية الكريمة أو بعض مفرداتها ، فمثلا في تأويله لقوله تعالي (الرحمن الرحيم) من سورة الفاتحة يقول الرحمن مجازه ذو الرحمة ، والرحيم مجازه الراحم " فلا يزيد في بنيانه لمجاز الآية الكريمة على التفسير اللغوي لمفرداتها ، ثم يمضي يستدل لاشتقاق كلمتين بمعني واحد من لفظ واحد بنماذج من شعر العرب تنهج نفس المنهج في الاشتقاق ، وحين يعرض لتفسير قوله تعالي (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) يذكر أن " مجازه لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوها ، وقالوا في المثل " تحسبها حمقاء وهى باخسة " أي ظالمة ".(٤)

---

(١) أبو عبيدة معمر بن المثني التيمي : مجاز القرآن ... تحقيق محمد فؤاد سزكين طـ٢ نشر مكتبة الخانجي ١٩٧٠

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء . دار المأمون . القاهرة جـ١٩ ص ١٥٨

(٣) شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٩

(٤) أبو عبيدة : مجاز القرآن جـ١ ص ٢١

وقد يشرح مجاز الآية بتعدد أوجه القراءات في الآيات التي فيها أكثر من قراءة مثل قوله : " ومن مجاز ما جاء على لفظين وذلك لاختلاف قراءات الأئمة فجاء تأويله شتى ، فقرأ بعضهم قوله (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) وقرأها آخرون (فتثبتوا) ... " (١) كما قد يطلق المجاز على تعدد الأوجه الإعرابية في الآية ، ففي تأويله لقوله سبحانه وتعالي (سورة أنزلناها) يقول : " ومن مجاز ما جاء من مذاهب وجوه الإعراب قال (سورة أنزلناها) رفع ونصب " (٢) ففي هذه المواضع وأمثالها – وهي كثيرة – نجد أبا عبيدة يستخدم مصطلح " المجاز " في مدلولات أبعد ما تكون عن مدلوله البلاغي المعروف الذي تحدد له فيما بعد . والذي يقابل الحقيقة .

ولكن أبا عبيدة في مواطن قليلة في الكتاب يستخدم مصطلح " المجاز " في سياقات شديدة القرب من مدلوله البلاغي . فأحيانا يستخدمه في سياق تأويله لبعض الآيات التى تشتمل على ما أطلق عليه البلاغيون " المجاز المرسل " . وأحيانا أخرى يستعمله في سياق تأويله لآيات تشتمل على ما سماه البلاغيون فيما بعد " المجاز العقلي " وهو في الحالتين كلتيهما يؤول الآيات بما يعني بإدراكه للعملية المجازية فيها . ففي تأويله مثلا لقوله تعالي (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) يقول " مجاز السماء هنا مجاز المطر ، يقال ما زلنا في سماء أي في مطر ، وما زلنا نطأ السماء أي أثر المطر " (٣) . ففي الآية بالفعل مجاز في استعمال كلمة السماء بمعنى المطر . وهو ما أطلق عليه البلاغيون " المجاز المرسل " وعرفوه بأنه الكلام المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة ، تفريقا بينه وبين الاستعارة التى تكون العلاقة فيها المشابهة .

وفي تأويله للآيتين الكريمتين (وآتينا من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة) و (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع) يؤول مجاز الآيتين بصورة يتضح فيها وعيه بعملية المجاز العقلي أو المجاز الإسنادي - أتمثله في إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي – فيهما ، حيث يقول في تأويله للآية الأولي : " ومن مجاز ما يحول فعل الفاعل إلى المفعول أو إلى غير المفعول قال : " ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة) والعصبة هي التى تنوء بالمفاتح " ويقول في تأويله للآية الثانية : " ومن مجاز ما وقع على المفعول وحول إلى الفاعل قال : (كمثل الذي ينعق بما لا يسمع) والمعني على الشاء المنعوق به وحول على الراعي الذي ينعق بالشاء " (٤) ... فهو يدرك أن الفعل في كل من الآيتين مسند إلى غير فاعله الحقيقي ، لأن الفاعل الحقيقي في الآية الأولي هو العصبة وليس المفاتح التى أسند الفعل إلى ضميرها ، والفاعل الحقيقي في الآية الثانية هو الراعي وليس هو الشياه التى أسند الفعل إلى الضمير العائد لاسمها الموصول ، حيث تشبه الآية الكريمة الكفار الذين لا يفيدون من دعوة الرسول ولا يعونها بالشياء التى لا تعي صيحة راعيها لتنبهها إلى الخطر .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ١٣

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٦

(٣) المرجع السابق جـ١ ص ١٨٦

(٤) المرجع السابق جـ١ ص ١٢

وهو يزيد الأمر شرحا في موضع آخر حيث يقول : " إنما الذي ينعق الراعي ، ووقع المعني على المنعوق به وهى الغنم ، تقول ، كالغنم التى لا تسمع التى ينعق بها راعيها ، والعرب تريد الشيء فتحوله إلى شيء من سببه ، فيقولون أعرض الحوض على الناقة ، وإنما تعرض الناقة على الحوض ... وفي القرآن (ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة) ما أن العصبة لتنوء بالمفاتح، أي تثقلها "(١)

ففي هذه المواضع كلها يتضح إدراك أبي عبيدة لطبيعة العملية المجازية في الآيات سواء كان المجاز فيها لغويا أو عقليا ، ولكن عدم قصره إطلاق مصطلح " المجاز " على مثل هذه الآيات يؤكد أن مفهوم المجاز عنده كان أعم بكثير من المدلول الذي حدده البلاغيون المتأخرون للمصطلح . ومن المصطلحات التى استخدمها أبو عبيدة أيضا في كتابه واضطرب مدلولها عنده **مصطلح " الكناية "** الذي استخدمه بأكثر من مدلول فهو تارة يستخدمه بمعني " الضمير " النحوي ، ولعل هذا أكثر مدلولات المصطلح دورانا في الكتاب ، ففي تفسيره لقوله تعالي(إياك نعبد) يسمي الضمير " إياك " في الآية كناية المفعول وفي تفسيره لقوله تعالي فظلت أعناقهم لها خاضعين) يسمي الضمير المضاف إليه " هم " كناية (٢) .

وتارة أخرى يطلقه على ما يقابل الاسم الظاهر كما فعل في تأويله للآية الكريمة (إنما صنعوا كيد ساحر) حيث اعتبرها " من مجاز ما جاء من الكنايات في مواضع الأسماء بدلا منهن " واعتبر أن " معني ما معني الاسم – مجازه أن صنيعهم كيد ساحر " (٣) .

وإلى جوار هذه المدلولات التى استخدم بها أبو عبيدة مصطلح " الكناية " والتى تبعد عن مدلوله الذي حدده البلاغيون اللاحقون له نجده يستخدم المصطلح في مواضع قليلة بمدلوله البلاغي الدقيق . ففي تفسيره لقوله تعالي (وإن كنتم مرضي أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) يقول : " .... (أو جاء أحد من الغائط) كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة في البطن . وكذلك فقوله تبارك وتعالي (أو لامستم النساء) كناية عن الغسيان) (٤)

ومن المصطلحات البلاغية التى استخدمها أبو عبيدة مصطلح " التشبيه " وهو يستخدمه في الكتاب بمدلول قريب من مدلوله البلاغي ، ويقرنه تارة بمصطلح " الكناية " وتارة أخرى بمصطلح " التمثيل " أو " المثل " ففي تفسيره لقوله تعالي (نساؤكم حرث لكم) يقول عنه إنه " كناية وتشبيه " (٧٣/١) وواضح أن الآية صورة من صور التشبيه الذي أطلق عليه البلاغيون اسم " التشبيه البليغ " وهو الذي حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ص ٦٣ – ٦٤
(٢) المرجع السابق ص ٢٤ ، ص ١٢
(٣) المرجع السابق جـ١ ص ١٥
(٤) المرجع السابق جـ١ ص ١٥٥

هذه هى أبرز المصطلحات التى استخدمها أبو عبيدة في " مجاز القرآن " والتى تمثل أبرز جهوده في المجال الأول من المجالين اللذين حددنا فيهما جهوده البلاغية في كتابه .

أما فيما يتصل بالمجال الثاني وهو اكتشاف بعض الفنون والأساليب البلاغية التى جاء البلاغيون فيما بعد فدرسوها بالتفصيل ووضعوا لها المصطلحات ، فقد اكتشف أبو عبيدة – بالإضافة إلى الفنون الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها – **وهى " المجاز " و " الكناية " و " التشبيه "** – عددا من الفنون البلاغية الأخرى وإن كان لم يطلق على تلك الفنون أسماء على نحو ما فعل في الفنون الثلاثة السابقة ولكن إشارته العامة لهذه الفنون كانت من الأسس التى أرسي عليها البلاغيون اللاحقون بناء هذه الفنون فمن الفنون التى اكتشفها واهتم بها **" الإيجاز بالحذف "** وقد كانت إشاراته إلى هذا الأسلوب البلاغي ، وحتى الأمثلة التى اختارها له واحدا من الأسس التى قامت عليها كل دراسة لاحقة للإيجاز بالحذف الذي أصبح مبحثا هاما من مباحث علم المعاني .

فحين يفسر أبو عبيدة قوله تعالي (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) يعتبره " من مجاز ما حذف وفيه مضمر " .. " فهذا محذوف فيه ضمير مجازه وسل أهل القرية ومن في العير " وقد ظل هذا المثال من أكثر أمثلة الإيجاز بالحذف دورانا في دراسات البلاغيين المتأخرين حتى ليكاد يكون هو المثال التقليدي للإيجار بالحذف . وأبو عبيدة يكرر نفس التحليل في كل موضع يحس بأن فيه محذوفا ، ويحاول في بعض الأحيان أن يلتمس بعض المبررات الفنية لهذا الحذف ، ويقترب كثيرا من المبررات التى اكتشفها البلاغيون المتأخرون وعللوا بها بعض أمثلة الحذف . (١)

ففي تفسير قوله تعالي (فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) يقول : " العرب تختصر لعلم المخاطب بما أريد به فكأنه خرج مخرج قولك فأما الذين كفروا أسودت وجهوهم فيقال لهم أكفرتم " (ثم يمضي كعادته يضرب الأمثلة لهذا الحذق من الشعر العربي . وتعليل حذف بعض أجزاء الجملة بالعلم بالمحذوف واحد من الأسباب الأساسية التى اعتمدتها الدراسات البلاغية للحذف . (٢)

ومن الأساليب البلاغية التى أشار إليها أبو عبيدة وأصبحت فيما بعد من المباحث الأساسية في علم المعاني أيضا خروج الاستفهام عن ظاهر معناه إلى أغراض بلاغية أخرى كالتقرير والإنكار وما أشبه ذلك من المعاني التى يخرج إليها أسلوب الاستفهام لمقتضيات بلاغية ، فحين يعرض لتفسير الآية الكريمة (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) يقول : " جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالي (إني جاعل في الأرض خليفة) ولكن معناها معني الإيجاب ، أي أنك ستفعل . وقال جرير فأوجب ولم يستفهم لعبد الملك بن مروان : (٣)

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٨

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٠٠ (٣) المرجع السابق جـ١ ص ص ٣٤ – ٣٦

ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب : ألست الفاعل كذا ؟ ليس باستفهام ولكن تقرير وفي مواضع أخرى كثيرة يحلل أبو عبيدة أساليب الاستفهام التى خرجت عن حقيقتها إلى أغراض بلاغية أخرى . ويطرح كثيرا من الآراء الصائبة في هذا المجال .

ومن الأساليب البلاغية التى انتبه إليها أبو عبيدة أيضا أسلوب " **التقديم والتأخير** " ، وقد أصبح هذا الموضوع بدوره من الموضوعات الأساسية في علم المعاني ، وإن كان أبو عبيدة لم يهتم كثيرا باستشفاف الأغراض البلاغية لتقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم في الآيات التى أشار إلى أن فيها تقديما وتأخيرا ، وإنما اكتفي ببيان موضع التقديم والتأخير . كلما فعل مثلا في تفسير قوله تعالي : (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كما جاءهم رسول بما لا تهوي أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) حيث يكتفي بالإشارة إلى أن " (فريقا كذبوا) مقدم ومؤخر مجازه كذبوا فريقا ، (وفريقا يقتلون) مجازه يقتلون فريقا " وهكذا يفعل في بقية مواضع التقديم والتأخير التى أشار إليها . (١)

ومن الأساليب البلاغية الهامة التى اكتشفها أبو عبيدة ونبه إليها أسلوب " **الالتفاف** " وإن لم يطلق عليه هذا الاسم الاصطلاحي ولكنه حدده تحديدا دقيقا ، وما زالت الأمثلة التى أشار إليها أبو عبيدة واكتشف ما فيها من التفاف تتردد في كتب البلاغة إلى الآن كأمثلة للالتفاف ، مثل قوله تعالي (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) التي يعتبرها " من مجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى الغائب " ، وكذلك قوله تعالي (ثم ذهب إلى أهله يتمطي ، أوليك فأولي) التى يمثل بها على أنها " من مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد " (٢).

هذه هى أبرز جهود أبي عبيدة البلاغية في كتابه " مجاز القرآن " وهى كما اتضح محدودة القيمة من الناحية العلمية ، ولكن إذا ما وضعنا في الاعتبار أن هذه الجهود – سواء من ناحية طرح بعض المصطلحات البلاغية ، أو من ناحية اكتشاف بعض الفنون والأساليب البلاغية – كانت من المحاولات الأولي في تاريخ البلاغة العربية اتضحت لنا قيمتها التاريخية الكبرى ، وهذه القيمة التاريخية هى التى ينبغي أن تشغل دارس تدوين تطور البلاغة العربية في الدرجة الأولي ، وهذا هو ما جعلنا نمنح كتاب أبي عبيدة هذا القدر من الاهتمام الذي قد لا نمنحه لكتب أخرى تفوق هذا الكتاب في قيمتها العلمية ، سواء من ناحية غزارة المادة البلاغية فيها ، أو من ناحية عمق النظر العلمية ، أو من ناحية دقة التبويب والالتزام بالمنهج العلمي ، ولكنها لا تداني " مجاز القرآن " في قيمته التاريخية .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ١٧٣
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١١

- " تأويل مشكل القرآن " :لابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم) ت سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م

كان ابن قتيبة عالما غزير العلم واسع المعرفة ، لم يترك لونا من ألوان الثقافة إلا ونهل منه مهما كان مصدره ومن أهم مؤلفاته أدب الكاتب ، الأنواء ، المعاني الكبير ، تأويل مختلف الحديث الميسر والقداح ، والأشربة ، عيون الأخبار ، الشعر والشعراء ومشكل القرآن ... وفي هذا الكتاب يزداد البحث البلاغي واللغوي تبلور ونضجا ، فالأفكار البلاغية واللغوية المتناثرة في مؤلفات المرحلة الأولي تصبح أبوابا وفصولا مستقلة في " **تأويل مشكل القرآن** " والملاحظات العابرة السريعة هناك تصبح وقفات علمية متأنية هنا . تبحث وتحلل وتعلل ، والآراء المبعثرة تتجمع وتتلاحم لتصبح قضايا علمية كبيرة . فإذا ما أخذنا قضية لغوية كقضية " تعدد القراءات في القرآن الكريم " تلك القضية التى لم تحظ من أبي عبيدة أحد لغويي المرحلة الأولي بأكثر من إشارات سريعة كلما صادفته آية فيها أكثر من قراءة ، ولم تكن هذه الإشارات تتجاوز في الغالب التنبيه على أن أبوابا لكل من " **المجاز** " و " **الاستعارة** " و " **الحذف والاختصار** " في الآية أكثر من قراءة ، ولم يفعل ذلك إلا في مواضع محدودة وليس في كل المواضع فيها تعدد قراءات ولو تتبعنا هذه القضية في المرحلة الثانية فإننا نجدها تحظي من كتاب ابن قتيبة بباب كامل يبحث فيه المؤلف القضية من جوانبها اللغوية المختلفة . ويرد فيه على الذين يأخذون على القرآن الكريم ظاهرة تعدد القراءات فيه ، ويحاولون أن يهاجموه من هذه الناحية ، ويجعل محور رده الحديث الشريف " نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف ، فاقرأوا كيف شئتم " ويفسر ابن قتيبة " سبعة الأحرف " في الحديث الشريف تفسيرا لغويا حيث يذهب إلى أن المراد " سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن " ـ وقد تدبر المؤلف أوجه الخلاف في القرآن فوجدها سبعة أوجه كلها خلافات لغوية ، وكلها نزل به القرآن تيسيرا على الناس حتى يستطيع كل منهم أن يقرأ حسب عادته اللغوية ، " فالهزلي يقرأ (عتي حين) يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها ، والاسدي يقرأ : تعلمون وتعلم و (تسود وجوه) و (ألم أعهد إليكم) " بكسر حرف المضارعة (٢) .

ولم تكن قضية " **تعدد القراءات في القرآن** " هى القضية اللغوية التى استأثرت بباب كامل من أبواب كتاب ابن قتيبة ، فثمة قضايا لغوية أخرى أفرد لها أبوابا مستقلة كقضية " **ادعاء اللحن في القرآن** " التى أفرد لها بدورها باب يبحث فيه جوانبها اللغوية ويرد فيه على الذين يدعون اللحن على القرآن الكريم .

وكما نضجت القضايا اللغوية وتبلورت في " تأويل مشكل القرآن " نضجت بالمثل القضايا والفنون البلاغية وأصبحت ملاحظات أبي عبيدة العابرة عن المجاز والحذف والاختصار والكتابة وغيرها من الفنون البلاغية أبوابا مستقلة في كتاب ابن قتيبة ، حيث عقد و " الكناية والتعريض " وغيرها من الأبواب التى أصبحت مباحث وفنونا بلاغية مستقلة .

---

(١) ابن قتيبة : تأويا مشكل القرآن ... تحقيق السيد صقر . مكتبة الحلبي القاهرة ١٩٥٥
(٢) المرجع السابق ص ص ٢٦ ـ ٣٠

ولكن على الرغم من أفراد ابن قتيبة أبوابا مستقلة في كتابه لهذه الفنون البلاغية فإن مفهومات هذه الفنون لم تتحدد عنده على نحو حاسم ، فمفهوم" المجاز " مثلا ظل عند ابن قتيبة أوسع بكثير من مفهومه البلاغي الذي تحدد له فيما بعد . وهو ما يقابل الحقيقة أو استخدام الكلام في غير معناه اللغوي الوضعي ، فابن قتيبة يحدده تحديدا يقترب به كثيرا من مفهومة عند أبي عبيدة وذلك حيث يقول : " وللعرب المجازات في القرآن ومعناها طرق القول ومأخذه " ويعد من بين هذه الطرق **الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار** ... وغير ذلك من الأساليب البلاغية التى تتوزع بين علوم البلاغة الثلاثة . (١)

فمفهوم المجاز إذن عند ابن قتيبة يقترب إلى حد كبير من مفهومه عند أبي عبيدة فهو عند كليهما يعني الطرق والأساليب التعبيرية التى يعبر بها عن مضمون معين ، والمجاز بهذا المفهوم أعم بمفهومه البلاغي ، لأنه يشمل كل الأساليب والفنون بكثير من المجاز البلاغية بما فيها المجاز البلاغي بالطبع . وإن كان مفهوم المجاز عند ابن قتيبة أكثر تحديدا ودقة منه عند أبي عبيدة . وأقل بعدا عن مفهومه البلاغي . لأن مفهوم المجاز عند أبي عبيدة يشمل طريقة تفسير الآيات أو تأويلها أو شرحها ، بالإضافة إلى طرق وأساليب التعبير فيها . وهذا المعني الأخير هو الذي قصر عليه ابن قتيبة مفهوم المجاز ، هذا بالإضافة إلى ابن قتيبة قد خص المجاز بباب مستقل حاول فيه أن يحدد مفهومه نظريا وفنيا ، بينما لم يفعل أبو عبيدة شيئا من هذا . (٢)

- **" إعجاز القرآن " : للقاضي أبي بكر الباقلاني ت سنة ٤٠٣ / ١٠٦٢ م**

يري الباقلاني أنه يستحيل على الأعجمي أو العامي ، أن يدرك إعجاز القرآن ، لأنه لم تتح له من الثقافة اللغوية أي قدر ، بل يستحيل على متوسطي الناس أن يدركوا إعجاز القرآن ، ويري الباقلاني أن المتناهي في إدراك علم الشعر وحدة ، أو الخطابة وحدها ، أو الكتابة كذلك ، لا يدرك إعجاز القرآن إدراكا تاما . ويوضح الباقلاني بجلاء ، كيف ينظر فصحاء العرب إلى عظمة أسلوب القرآن ، لأن القرآن الكريم اللغة المشتركة بين العرب جميعا ، لغة الأدب والشعر والخطابة والكتابة (٣)

يهتم الكتاب بقضية الإعجاز القرآني ، وصاحبه متكلم أشعري ، له كتبه المعروفة في علم الكلام ، وهذا الكتاب من أنضج الكتب التى ألفت حول الإعجاز القرآني ، وهو في الوقت ذاته من المصادر التى أسهمت في مسار البلاغة العربية . والقضايا البلاغية تختلط في الكتاب بالقضايا الكلامية اختلاطا متوازنا ، فتنفرد القضايا البلاغية ببعض الفصول ، فقد خصص فصلا للحديث عن " **البديع من الكلام** " وفصلا آخر عن " **وصف وجوه البلاغة** " ، يتتبع فيه وجوه البلاغة العشرة التى أوردها الرماني في " النكت " . وتتفرد القضايا الكلامية ببعض فصول الكتاب فقد أفرد فصلا في أول الكتاب عن " أن نبوة النبي صلي الله عليه وسلم معجزتها القرآن " وفصلا آخر خصصه لبيان " **وجه الدلالة عن أن القرآن معجز** "

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ (٢) المرجع السابق ص ١٨
(٣) رمضان عبد التواب : فصول في فقه اللغة . مكتبة الخانجي ط٢ ١٩٨٣ ص ٨١

. والبعض من فصول الكتاب شركة بين القضايا البلاغية الكلامية ، كالفصل الذي كتبه عن " **جملة وجوه إعجاز القرآن** " حيث يحصر الإعجاز القرآني في هذا الفصل في مجموعة وجوه بعضها كلامي وبعضها بلاغي والذي يعنينا هو أن نبين القيمة البلاغية لهذا الكتاب ومدي تمثيله لطبيعة المرحلة الثانية من حياة البلاغة العربية ، وأن نتعرف على إسهامه في تطوير التأليف البلاغي (١)

والباقلاني في الفصل الذي عقده " في جملة وجوه إعجاز القرآن " يحصر وجوه الإعجاز في ثلاثة وجوه وهي :

الأول : اخباره الصادق عن الغيوب الأمر الذي يخرج عن طوق البشر واستطاعتهم . **الثاني :** اخباره عن قصص الماضين وسير الأمم الخالية منذ آدم عليه السلام وحتى بعثه محمد ، على الرغم من أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أميا لا يحسن القراءة والكتابة ، ولا يعرف شيئا من كتب المتقدمين وقصصهم وأخبارهم
الثالث :نظمه البديع ، وتأليفه العجيب ، وبلاغته المتناهية التى لا يستطيع البشر أن يحاكوها .

ويوجه الباقلاني عنايته إلى هذا الوجه الثالث ، حيث يحاول أن يثبت تميز الأسلوب القرآني والبلاغة القرآنية على أسلوب البشر وبلاغتهم ، وينهج في ذلك طريقا جديدا يختلف عن الطرق التى انتهجها سابقوه في إثبات إعجاز القرآن عن طريق بلاغته . فهو يرفض فكرة إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن عن طريق ما فيه من بديع ، وذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه . لأن البديع في حد ذاته غير معجز ، **وإنما المعجز هو الصورة الباهرة التى وجد عليها في القرآن** . **واتساقه مع سائر النظم القرآني اتساقا عجيبا ورائعا** ، بينما نجد أن الشعر أو النثر البشري قد يحتوي على التشبيه البليغ أو الاستعارة الجديدة ولكن يوجد إلى جوارها التعبير الساقط واللفظ المبتذل . وهذا ما أجهد الباقلاني نفسه طوال الكتاب لإثباته .

والباقلاني يستعمل البديع بمفهومه العام الذي كان شائعا في عصره ، **فالبديع عنده يشمل كل الوجوه والفنون البلاغية** ، أي **أنه يضم فنونا من علوم البلاغة الثلاثة التى لم تكن تحددت حتى ذلك الحين وهى المعاني والبيان والبديع** ، فهو يعد مثلا الاستعارة والتشبيه من البديع ويعتبر المساواة وبعض صور الإطناب من البديع ويرفض الباقلاني أيضا فكرة التوصل إلى إثبات إعجاز القرآن عن طريق أقسام البلاغة العشرة التى ذكرها الرماني حيث يعقد فصلا بعنوان " فصل في وصف وجوه البلاغة " يلخص فيه كلام الرماني الذي يشير إليه ولا يصرح باسمه حيث يقول " ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام " وبعد أن ينتهي من تلخيص هذه الوجوه يشير إلى أن البعض يري أنه من الممكن التوصل إلى إعجاز القرآن من هذه الوجوه ، ولكنه يرفض هذا الرأي وينتهي الباقلاني إلى أن مثل هذه الوجوه البلاغية ليست معجزة في حد ذاتها ،

---

(١) حقق الأستاذ السيد صقر كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ونشرته دار المعارف بمصر ١٩٥٤ ويمكن للراغب في المزيد من المعرفة للرجوع إليه

وإنما المعجز في هذه الوجوه هو أولا حسنها البالغ وسموها ، وثانيا ارتباطها واتساقها مع بقية الكلام على نحو بالغ الروعة والتكامل ، بحيث لا يحس القارىء بأي قدر من التفاوت البلاغي في هذا الكلام الرباني الذي يضارع بعضه بعضا في البلاغة والفصاحة . (١)

والباقلاني يحصر إعجاز القرآن البلاغي ، أو بديع نظمه – على حد تعبيره – في وجوه عشرة ، بعضها يرجع إلى القرآن في جملته .وبعضها يرجع إلى بعض أساليبه ، وبعضها يرجع إلى مفرداته ، وبعضها يرجع إلى حروفه ، وإن كان لا يصف هذه الوجوه العشرة ، فمما يرجع إلى جملته كونه خارجا عن المألوف من كلام البشر والمعروف من تنظيم خطابهم ، فليس هو بالشعر ولا بالنثر ، وليس هو بالسجع ... إلى آخر ما هو معروف للبشر من أجناس الكلام . وهو يجهد نفسه كثيرا في محاولة إثبات مخالفة القرآن في جملته لجنس الكلام البشري كما إنه خارج عن المألوف من كلام الجن أيضا .

ومما يرجع إلى جملته أيضا أنه لم يعهد للعرب مشتمل على ما في القرآن من فصاحة وبلاغة ومعان في مثل طول القرآن ، وإنما عرفت لهم مقطوعات نثرية قصيرة وقصائد شعرية معدودة لم تخل مع ذلك من نقص وعيب .

ومما يرجع أيضا إلى جملته أن القرآن على تعدد أغراضه ومراميه من قصص ومواعظ وأحكام وترغيب وترهيب لا يتفاوت في بلاغته فهو دائما على درجة واحدة من البلاغة السامية ، بينما نجد أن الشعراء والأدباء المجيدين إنما يجيدون في بعض الأغراض دون سواها ، فالذي يجيد في المدح لا يجيد في الهجاء مثلا ، والذي يبرع في الخطب لا يبرع في الحكم والأمثال ونحو ذلك .

أما ما يرجع إلى أساليبه فيذكر الباقلاني أن القرآن الكريم أشتمل على كل الأساليب البلاغية التى تبني عليها أجناس الكلام البشري من إيجاز وإطناب ، ومجاز وحقيقة ، واستعارة وتصريح ، كل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة .

ويذكر من ذلك أيضا أن بلاغته لا تتفاوت في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، ولا من طريقة من طرق القول إلى طريقة أخرى . ويذكر من ذلك أخيرا أننا إذا أخذنا عبارة قرآنية ووضعناها في ثنايا أي كلام نظما كان أو نثرا فإنها تكون هى واسطة العقد في هذا الكلام " كالدرة التى ترى في عقد من الخرز " على حد تعبيره (٢)

أما ما يرجع إلى مفرداته فمن ذلك أن القرآن استعمل بعض المفردات في المعان ومدلولات جديدة لم تكن مألوفة في البيئة العربية قبل الإسلام وابتعد عن المفردات المستكرهة ، الثقيلة على السمع .

---

(١)الباقلاني : إعجاز القرآن ... تحقيق السيد صقر . دار المعارف ١٩٥٤ ص ٣٩٦
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٨ وما بعدها

أما ما يرجع إلى حروفه فهو أن بالقرآن ثماني وعشرين سورة افتتحت بحروف مقطعة من الحروف العربية الثمانية والعشرين . وقد اشتملت هذه السور على أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء – أي نصف حروف الهجاء – وهذه الحروف الأربعة عشر اشتملت على نصف كل قسم من الأقسام التى انقسمت إليها حروف العربية . حيث اشتملت على نصف حروف الهمس ونصف حروف الجهر ، كما اشتملت على نصف حروف الحلق ، ونصف حروف الأطباق ونصف الحروف الشديدة (الانفجارية) وهذا التنظيم والتقسيم البديع هو بدون شك وجه من وجوه الإعجاز الناصعة في القرآن . والقاسم المشترك بين هذه الوجوه هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر ، وهذه هى القضية الأساسية التى شغل الباقلاني نفسه بها على امتداد صفحات كتابه ، وهو في سبيل إثبات ذلك يعمد إلى تحليل بعض النماذج الأدبية الرائعة التى اتفق الجميع على بلاغتها ليبين ما فيها من عيوب تعبيرية . ويحلل في مقابل ذلك آيات وسورا من القرآن ليبين ما فيها من بلاغة لا تتفاوت ولا تهبط .

وأجهد الباقلاني نفسه لاصطياد العيوب في نماذج الشعر التى اختارها وشهود له أنه قال ذلك عن ذوق نقدي بارع ، ويكفيه أنه جرؤ على هذه المهمة الصعبة ، فقد كان من بين النماذج التى اختارها للتحليل وبيان ما فيها من عيوب معلقة امرىء القيس ، وقصيدة البحتري المشهورة :

أهلا بذلكم الخيال المقبل   فعل الذي نرجوه أم لم يفعل

وهو يركز على إبراز ما في هذين النصين – اللذين اتفق الجميع على بلاغتهما – من عيوب بلاغية وقصور في التعبير ، ولاشك أن من ينتدب نفسه لمثل هذه المهمة لابد أن يكون على قدر كبير من رهافة الذوق الأدبي ، ومن سعة الإلمام بطرائق التعبير . وقد كان الباقلاني في مستوي هذه المهمة وإن لم تخل محاولته من تعسف وتحامل على الشعراء الذين يعرض لتحليل شعرهم .

وهو يختار معلقة امرىء القيس لأن امرىء القيس – على حد تعبيره – كبيرهم الذين يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله . وقائدهم الذين يأتمون به ، وإمامهم الذي يرجعون إليه " (ص ٣٢٨) فهو إذا بين " سقوط منزلته عن منزلة نظم القرآن ، وأنه لا يلحظ بشعره غبار ذلك النظم .... لم نحتج أن نتكلم على شعر كل شاعر . وكلام (كل) بليغ ، والقليل يدل على الكثير " (١).

---

(١) المرجع السابق ص ص ٣٢٨ - ٣٢٩

أما اختياره لقصيدة البحتري فإنه يختارها " لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على كل من في عصره ، ومنهم من يدعي له الإعجاز غلوا ، ويزعم أنه يناغي النجم علوا " (ص ٣٧٣) . ويختار هذه القصيدة بالذات لأنها من أروع شعر البحتري . وينقل عن البحتري نفسه أنه يعدها أجود شعره . (١)

وهو يحلل كلا من هاتين القصيدتين في حوالي الأربعين صفحة ، ويتحامل على الشاعرين في كثير من المواضع للانتهاء إلى الحط من شأن قصيدتيهما توصلا إلى إثبات قصور البيان البشري مهما علا وارتفع عن بلاغة القرآن السامية ، هذا وقد تناثرت خلال الكتاب مجموعة من الآراء والأفكار البلاغية والنقدية البارعة من مثل **نظرته إلى ضرورة " وحدة العمل الأدبي ، وموقفه من قضية المحسنات البديعية .** وموقفه على قدر من النضج فيما يتصل بموضوع وحدة العمل الأدبي ، وقد تجلي هذا الموقف في أكثر من موضع وبأكثر من صورة في الكتاب ، يمكن تلخيصها فيما يلي

أولا : محاولته تحليل بعض السور القرآنية تحليلا فنيا يبين ما بين آياتها من ترابط على تعدد الأغراض فيها . كما فعل بالنسبة لسورة " غافر " وسورة " فصلت " ، ويري أن هذا من وجوه إعجازهما .

ثانيا : في نقده لقصيدتي " امرئ القيس " و " البحتري " كان من أهم ما أخذه عليهما من مآخذ عدم ترابط أبياتهما من ناحية وامتلائهما بالحشو والتطويل والتكرار غير المفيد من ناحية أخرى ، وهو في كل هذه الملاحظات ينطلق من إحساسه بضرورة توافر الوحدة الفنية في العمل الأدبي الجيد ، ويري أن كل ما يخل بهذه الوحدة يعد عيبا ومأخذا على هذا العمل الفني .

أما موقف الباقلاني من قضية " المحسنات البديعية " فلم يكن أقل نضجا وتفتحا من قضية " وحدة العمل الفني " فهو لا يفتأ يلح على انتقاد هذه المحسنات إذا لم يقتضيها المعني ويستلزمها السياق الفني ، أي أنه ببساطة يعد هذه المحسنات أدوات فنية تعبيرية تكتسب قيمتها الفنية من الدور التعبيري الذي تؤديه ، فإذا لم تؤد دورا في العمل الأدبي كانت عيبا من العيوب وليست مزية من المزايا ،هذه من أبرز الجوانب البلاغية في كتاب " إعجاز القرآن " للباقلاني ، **وبهذه الجوانب أصبح الكتاب واحدا من أهم المراجع البلاغية ، ويعد في ذات الوقت من أهم المراجع الكلامية .** وبقيت في النهاية ملاحظتان عامتان حول الكتاب :

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧٣

أولاهما : أنـه نمـوذج لاختلاط العلوم الأدبيـة – نقدا وبلاغـة وأدبا – بالعلوم القرآنية

ثانيتهما : أن الكتاب نمـوذج لتمرس علمـاء الكـلام بالفنون البلاغية والأدبيـة ، ورهافـة حاستهم الأدبيـة ، ودربـة ذوقهم الفنـي ، ووفـرة حصيلتهم من التراث الأدبي شعره ونثره .

ولقد نمـا دور العلوم اللغوية والأدبيـة في تلك المرحلة بنفس القدر الذي نمـا به دور العلوم القرآنية ، وإن كـان الدور الأكبر للعلوم اللغوية في تلك المرحلة ظل كما كـان فـي المرحلة الأولـي يمـارس فـي ظل القرآن الكريم ، والاهتمام بالقضايا اللغوية التى يثيرها . (١)

وإذا كـانت القضـايا اللغوية التـى تعرض لهـا عبيدة فـي كتابه " مجـاز القرآن " مجرد ملاحظات سريعة ، وآراء عامة ينقصها النضج والتبلور والعمق فإنها في هذه المرحلة بلغت درجة ملموسة من العمق والنضـج العلمي ، وأصبحت هذه القضايا مباحث متكاملـة تحتل فصولا مستقلة فـي مؤلفـات المرحلة الثانية . والمثال الواضح لذلك " تـأويل مشـكل القرآن " لابن قتيبة . أبي محمد عبد الله بن مسلم . المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وهو من أوائل الكتب التى تمثل هذه المرحلة . ومن ثم فإنه يحمل بعض سمات المرحلة الأولي وخصـائصها إلى جوار تمثيله لكل سمات المرحلة الثانية .

(١) العربية لغة البيان القرآني ولسانه، ولاشك فـي هذا على إجماله ، فقد قال الله تعالي : إنا أنزلناه قرآنا عربيا . يوسف ٢ . واللغة تعني مناحي ثلاثة هى المادة والشكل والروح ولكل أبعاده ومظاهره وأسسه . أما مادة اللغة فهي الألفاظ . وأما شكل اللغة فهو ذلك البناء التركيبي القائم على تجميع الألفاظ في هيئة معينة . وأما روح اللغة فمعاني التعبير وأخيلته ، حيث تتباين اللغات في معانيها وأخيلتها . ولغة البيان القرآني هى العربية ، وأن عربية القرآن ضرورة يحتمها النص القرآني ، ويسلم بها الواقع التاريخي ، ويوجبها العقل . راجع الإمام الشافعي : الرسالة . تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٤١

مفهوم المعاني والبيان والبديع :

▪ **المعاني** (١) أحد فنون البيان الثلاثة . تبحث فيه الألفاظ التى تطابق مقتضى الحال ، وتسدد خطى المتكلم أو الكاتب ، فلا يخطئ في تأدية أغراضه ، والمراد بأحوال الألفاظ استعمال التقديم والتأخير منها ، أو الذكر والحذف ، أو التعريف والتنكير ، أو التأكيد وعدم التأكيد ، وما شابه ذلك ، فإن كل حالة منها تختلف عن الأخرى و تقتضي استعمالا خاصا وترتيبا معينا في الكلمات التى تؤلف العبارة ، ففن المعاني يرشدنا إلى الطريق القويم و إلى الأساليب المتبعة في مراعاة هذه الحالات والتعبير عنها بدقة ، و منزلة المعاني من البيان كمنزلة الفصاحة من البلاغة .

(٢) **ينحصر هذا الفن في تسعة أبواب هى :** أحوال الإسناد الخبري ، أحوال المسند إليه ، أحوال المسند ، أحوال متعلقات الفعل ، القصر ، الإنشاء ، الفصل و الوصل ، الإيجاز و الإطناب و المساواة ، مخالفة مقتضى الظاهر

(٣) أطلق على فن المعاني و فن البيان مجموعين اسم علم البلاغة و عرف هذان مع فن البديع بعلم البيان

▪ **البيان :** (١) لغويا : المعروف أن علم الصرف ينظر فى أبنية الألفاظ ، و النحو ينظر فى إعرابها و يبحث فى حالة كل ما دخل منها فى تكوين العبارة . أما البيان فإنه ينظر فى صور التركيب ، و مواضع استخدامها صورة صورة ، من تقديم و تأخير و تعريف و تنكير و إطناب و إيجاز ، و حقيقة أو مجاز ، و ذلك لتحسين الكلام و إكسابه رونقا جديداً و هو ثلاثة فنون :

أ . **فن المعاني** : يُحترز به عن الخطأ وتأدية المراد ، و بذلك يكون متعلقاً بالأمور اللفظية

ب . **فن البيان** : يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، و يحترز به عن التعقيد المعنوي ، و بذلك يكون متعلقاً بالمضمون ، أي بالأمور المعنوية ، و هى الطرق المختلفة التى نورد بها المعاني و ينحصر فى ثلاثة أبواب **التشبيه ، و المجاز ، و الكناية**

جـ . **فن البديع** : يقصد به تحسين الكلام و بذلك يتعلق باللفظ و المضمون معاً

(٢) يطلق على الفنيين الأولين أسم : علم البلاغة وعلى الثلاثة مجتمعة : علم البيان ، و يقوم علم البيان على قواعد و أصول يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من اللفظ تتباين فى وضوح دلالتها العقلية على ذلك المعنى كما تتباين فى مجالها ، ومدي إيحائها و لم يفرق العرب بين علم البيان وفن النقد الأدبي تفرقة واضحة متميزة كما فرقوا بين الصرف و الإشتقاق مثلا على قرب أبحاثهما

البديع : علم تعرف به وجوه تحسين الكلام و هو قسمان :

أ . **معنوي** : و هو أنواع منها : الطباق (الجمع بين متضادين فى الجملة) و مراعاة النظير و الجمع بين النظير و ما يناسبه على غير تضاد) و الأرصاد و المشاكله و المزاوجة ، و المبالغة ، و العكس و الطي ، و النشر ، و الجمع و التفريق و التقسيم و التجديد و التورية و الإشتراك ، و الإيهام ، والتوجيه و التدبيج ، و التلميح ، و براعة الطلب .... إلى آخره .

ب . **لفظي** : و هو أنواع فيها الجناس (تشابه منطوق لفظين) ورد العجز على الصدر ، و القلب والسجع والموازنة والتشريع ولزوم ما لا يلزم ... الخ وشرط التحسين فى المعنوي واللفظي أن يتم بعد رعاية مطابقة معتبرة فى علم المعاني ، و رعاية وضوح الدلالة المعتبر فى علم البيان .

كتاب البديع لعبد الله بن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م

ألف عبد الله بن المعتز كتاب " البديع " سنة ٢٧٤ هـ ، و سنه إذ ذاك لا تزيد عن سبعة عشرة عاماً ، فقد ولد عام ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م قبل مقتل جده الخليفة المتوكل بأربعين عاماً ، و أصبح والده الخليفة .. و يجمع المؤرخون على جمال وجه الخليفة العباسي و أنه أحسنهم شكلاً ، و أصفاهم طبعاً ، و أكثرهم إقبالاً على الحياة ، و قتل الجند الخليفة المعتز ، و لم يكن ولده عبد الله قد جاوز الثامنة أو التاسعة ، و هكذا نشأ فى بيئة الأحزان و سفك الدماء ، فأقبل على العلم و انقطع للتأليف ، و ابتعد عن السياسة ، و اهتم بتأليف كتاب " البديع " و قد مكنه من تأليفه و تأليف غيره من الكتب اعتكافه بعد مقتل والده المعتز سنة ٢٥٥ هـ . (١)

ومن أوائل من اهتم بدراسة بديع ابن المعتز من الكتاب العرب ، زكي مبارك فى كتابه (النثر الفني فى القرن الرابع) . و لكنه لم يعتمد فى دراسته لبديع ابن المعتز على كتاب البديع ، بل على ما ورد فى الكتب القديمة من مقتبسات من كتاب البديع . و الغريب ألا يطلع زكي مبارك على كتاب البديع حتى يوم نشره دراسته هذه سنة ١٩٣١ ، مع أن كراتشكوفسكي كان قد نشره سنة ١٩٥٢ مع مقدمة له بالفرنسية . و ليست الطبعة الإنجليزية التى أشرت إليها سوى ترجمة للطبعة الفرنسية .

---

(١) وكان أول من أقدم على تحقيق هذا الكتاب ونشره ، المستشرق الروسي المشهور كراتشكوفسكى **Kratchkovsky** ، معتمداً على النسخة الخطية الوحيدة الوجوده فى مكتبة الأسكوريال بمدريد . و قد نشر هذا الكتاب فى سلسلة جب Gibb بلندن سنة ١٩٣٥ ، و إلى جانب النص العربي الكتاب نجد دراسة طويلة باللغة الإنجليزية . و الأستاذ كراتشكوفسكى من كبار المستشرقين الروس ، و هو مترجم كتاب " الأيام " إلى الروسية ، و عضو الأكاديمية بلننغراد . و مما يذكر أنه قام فى الحرب العالمية الثانية ، و تحت وابل من القنابل ، بنقل المخطوطات العربية من مكتبة لننغراد إلى مكان أمين . و هو مؤلف كتب كثيرة قيمة منها : كتابه عن الجغرافيين العرب ، و كتابه عن المخطوطات العربية ، و كتابه عن الأدب العربي الحديث .

و في سنة ١٩٣١ ألقى طه حسين محاضرة في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ليدن بهولندة ، بعنوان " الصلة البلاغة العربية و البلاغة الإغريقية " و في هذه المحاضرة تحدث طه حسين عن بديع ابن المعتز ، و ميز بين اتجاهين في البلاغة العربية : الاتجاه العربي ، والاتجاه الإغريقي.

وقد تفرد الأب لويس شيخو من بين الكتاب جميعا بقوله في كتابه (علم الأدب) : أنه ليس من الثابت أن كتاب البديع من تأليف ابن المعتز . و الرد على لويس شيخو سهل : فكل المقتطفات الواردة في الكتب القديمة والتي أشير إلى أنها مأخوذة من كتاب البديع لأبن المعتز ، موجودة في هذه المخطوطة الوحيدة : فابن رشيق ينقل عن ابن المعتز تقسيمات البديع ، والآمدى ينقل عنه مقدمته التى يشرح فيها رأيه فى البديع ، و في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري مقتطفات كثيرة من كتاب البديع . و كل هذه المقتطفات موجودة في المخطوطة التى حققها كراتشكوفسكى و نشرها .

يبدأ ابن المعتز كتابه بتحديد غايته من تأليفه . و هو الرد على الأدباء المحدثين و الأعاجم الذين يدعون أن البديع إنما هو مخترع ، و لم يكن موجوداً في الأدب العربي ، فيقول : (ليعلم أن بشارا ، و مسلما ، و أبا نواس ، و من تقيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن (أي البديع) ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم ، حتى سمى بهذا الاسم ، ثم أكثر حبيب بن أوس الطائي منه ، فأحسن فى بعض ذلك ، و أساء فى بعض ، و تلك عقبى الإفراط .و إنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت و البيتين فى القصيدة ، و ربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع .)

و يقول : (و إنما غرضنا من هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من أبواب البديع .) و يقول : (و ما جمع فنون البديع ، و ما سبقني إليه أحد .) بهذه العبارات حدد ابن المعتز غايته من تأليفه كتابه . (٢)
و لنا على هذه العبارات تعليق :

أما أن ابن المعتز لم يسبق إلى جمع البديع ، فهذا صحيح ، إذ ليس بين أيدينا كتاب فى البديع سابق له . و لكن هذا لا يعنى أن ابن المعتز هو المبتكر لهذا الفن ، ذلك لأن كلمة البديع وردت فى مؤلفات من سبقوه ، و كان هذا الفن معروفا قبله . وفضل

---

(١) و قد نشرت هذه المحاضرة ، فيما بعد ، كمقدمة لكتاب (نقد النثر) (القاهرة ١٩٣٣) الذي اشترك في تحقيقه طه حسين وعبد الحميد العبادي .
و واضح من كتاب البديع أن ابن المعتز لم يتأثر فيه بالبلاغة الإغريقية ، و أصالته فيه لا مجال للشك فيها : فهو أولاً قد كتبه و هو في مطلع شبابه ، قبل أن يطلع على الثقافات الأخرى اطلاعاً يتيح لها الظهور فى إنتاجه . و هو ثانياً قد كتب هذا الكتاب دفاعا عن عروبته ضد تيار الشعوبية و الثقافات الأجنبية . و هذا ما يجعلنا نرفض قول محمد مندور في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) بأن ابن المعتز قد تأثر في كتابه بالبلاغة الإغريقية
(٢) ابن المعتز : كتاب البديع ص ص ١ ــ ٣

ابن المعتز فى كتابه انه كان أول من جمع ألوان البديع ، و خصص لها كتابا . وله فضل آخر هو أنه لم يجمع فقط أنواع البديع التى كانت معروفة إلى زمنه ، بل زاد فأضاف إليها أنواعا أخرى كان هو أول من وضع أسمائها .

و البديع عند ابن المعتز يعنى كل ما فى الأسلوب من ألوان بلاغية . أما معنى " البديع " كما نفهمه اليوم ، فمعنى متأخر ، جاءنا من السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) عندما قسم علم البلاغة إلى : علم المعاني ، و علم البيان ، و علم البديع ، و معنى البديع هنا : المحسنات اللفظية .

و طريقة ابن المعتز فى كتابه : أن يورد اللون البديعي ، ثم يورد عليه استشهادات من القرآن الكريم ، و الحديث النبوي ، و كلام الصحابة ، ثم كلام الأعراب و بلغاء الكتاب . و بعد ذلك يذكر شواهده من الشعور ، مبتدءا من الجاهلي ، فلإسلامي ، فشعر المحدثين . فإذا فرغ من هذا انتقل إلى الاستشهاد بما عيب من هذا اللون .

والبديع عند ابن المعتز ثمانية عشرة نوعا ، هى : الاستعارة ، التجنيس ، المطابقة ، رد إعجاز الكلام على ما تقدمها ، المذهب الكلامي ، الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف ، الهزل الذي يراد به الجد ، حسن التضمين ، التعريض و الكناية ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء.

والأنواع الخمسة الأولى هى البديع الحق عنده ، و لكنه أضاف إليها الأنواع الباقية حتى لا يحتج عليه محتج فى المستقبل بأنه قد أهمل ما حقه الذكر ، و تأكيداً منه على أنها ليست من البديع سماها محاسن الكلام و الشعر و تعبيرا عن هذا المعنى يقول ابن المعتز : (قدمنا أبواب البديع الخمسة و كأني بالمعاند الغرم بالاعتراض على الفضائل . قد قال : البديع أكثر من هذا ، أو قال : البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها .. لذلك أحببنا أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، و يعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة ، اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق فى المعرفة ، فمن أحب أن يقتدي بنا ، و يقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، و من أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ، و لم يأت غير رأينا ، فله إختياره) .

وقد أثبتت الأيام أن تحوط ابن المعتز كان فى محله ، إذ كثرت الأبواب التى أدخلت فى البلاغة كثرة فاقت ما عدده ابن المعتز ، حتى جعلها ابن رشيق القيرواني صاحب (العمدة) خمسة و ستين بابا من الشعر ، و بلغ بها شرف الدين التيفاشى السبعين ، و زادها ابن أبى الإصبع إلى التسعين ، و أخيرا جمع منها صفى الدين الحلي مائة و أربعين نوعا فى قصيدة نظمها فى مدح الرسول .(١)

و نحن إذا نظرنا في كتاب البديع ، لا نجد فيه لابن المعتز غير تعليقات نادرة كأن يشرح كلمة لغوية أو يعلق تعليقا عابرا مستحسنا هذا القول أو مستهجنة . و مع هذا فإن للكتاب ميزات كثيرة :

- **فهو يعكس لنا صورة عن غزارة المصادر الأدبية في هذه الفترة من تاريخنا :** فابن المعتز يستشهد في كتابه بشعر مائتي شاعر تقريبا ، و لا يستشهد بشعر لشاعر واحد إلا مرة في الغالب .

- **و هو يدلنا دلالة واضحة على أن الاهتمام بالاستشهاد بشعر المحدثين قد بدأ منذ القرن الثالث الهجري** ، و بهذا يثبت بالدليل خطأ ما جاء به جولد زيهر و بروكلمان من أن الاستشهاد بشعر المحدثين لم يبدأ إلا في القرن الرابع الهجري : فابن المعتز يستشهد في كتابه كثيرا بشعر المحدثين و لا نلمس أنه يؤثر عليهم القدماء ، و هو يستشهد بشعر شعراء لا نعرف عنهم الكثير اليوم ، و لكن يبدو أنهم كانوا مرموقين في زمانهم

و هو كتاب له قيمة كبيرة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب : فهو قد حدد خصائص مذهب البديع ، و كان أول كتاب في هذا الموضوع ، و منه وضع ابن المعتز المصطلحات و حدد معانيها ، و عليه أعتمد من **أتوا بعده كقدامة بن جعفر ، و الآمدى ، و العسكري ، و ابن رشيق** . كما نقل النقد إلى طور جديد يتعدى الوقوف عند الأخطاء النحوية أو اللغوية ، إلى دراسة الصورة الأدبية بما فيها من معان و ألفاظ ، آي أنه نظر إلى الأثر الأدبي ككل ، لا كأجزاء منفصلة .

و هو بأسلوبه يهدف إلى تنمية الذوق الأدب بكثرة إيراده للشواهد ، و ما يستشهد به بن المعتز يدل على ذوق رفيع ، و إطلاع واسع على ثقافة عصره . و مناقشاته فيه ، على قلتها ، تدل على تفهم عميق للغة و أساليبها و إذا كان لنا من مأخذ على ابن المعتز في كتابه هذا ، فهو : أنه قد أحس بالجمال و القبح بذوقه السليم المصقول ، و لكنه لم يبين لنا سبب استحسانه أو استهجانه .

ابن جنى ت ٣٩٢ هـ
من أعلام الصرف وفقه اللغة والأصوات

هو الإمام أبو الفتح عثمان بن جنى الأزدي ولد نحو (٣٠٢ هـ) وكان أبوه مملوكا روميا لفهد الأزدي من أعيان الموصل ، وعاصر بدء العصر العباسي الثاني حين استولى بنو بويه سنة ٣٣٤ على بغداد فانفصلت بعض الأقطار الإسلامية من الدولة العباسية ، وقد نبغ فى عصر ابن جني أعلام كثيرون من أشهرهم أستاذه أبو على الفارسي (ت٣٧٧ هـ) وأبو منصور الأزهري صاحب التهذيب (ت٣٧٠ هـ) وابن فارس (٣٩٥هـ) والجوهري صاحب الصحاح (ت٣٩٨هـ) والمتنبي الشاعر (ت٣٥٤هـ) وغيرهم. (١)

وقد درس ابن جنى العلم على يد أبى بكر بن الحسن المعروف بابن مقسم ، وهو من القراء ، وكان هذا راوية ثعلب وقد توفى (٣٥٤هـ) وأحمد بن محمد الموصلي وروى عن أبى الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ، وعن محمد بن هارون الرويانى عن أبى حاتم السجستاني، وعن محمد بن سلمة عن المبرد. كما كان يأخذ عن الأعراب أمثال أبو عبد الله الشجري. ويبدو أيضا أنه كان يرحل فى طلب العلم فهو يحكى عن شيوخ سمع منهم فى العراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التى أتاها و أقام بها.

وقد جلس وهو شاب يدرس العربية فى جامع الموصل، فمر به أبو على الفارسي فوجده يتكلم فى مسألة قلب الواو وألفا فى نحو قال وقام. فاعترض عليه أبو على فوجده مقصرا، فنبهه على الصواب وقال له تزببت وأنت حصرم. فسأل ابن جنى عنه. فلما عرفه وقرأ عليه تصريف المازنى نشأت صحبه علمية حميمة بين الشيخ أبى على الفارسي، وتلميذه ابن جنى عز مثلها فى ميدان طلب العلم ، إذ استمرت أربعين سنة كاملة فى تعاون كامل ، وكان لها ثمرات فى حياة كل منهما ونتاجه .. نظرات صادقة وتحليلات عميقة وآراء ناضجة من كثرة الدرس والدأب فى سبيل فقه اللغة وكشف أسرارها ..... (٢)

وقد أخذا فى صحبتهما الطويلة بسمة من أهم سمات البحث العلمي وهى إتباع ما يريانه حقا حيثما كان. فقد كانا على مذهب البصريين فى النحو وكانا مع ذلك لا يأبيان الأخذ عن الكوفيين أو البغداديين، كما كان كلاهما حر النظرة والرأي بالنسبة لصاحبه يقبل رأيه أو يخالفه .. وهذه أمارة الاجتهاد وطريق الابتكار.. وقد ندر فيما جاء بعدها من النحويين المجتهدون والمفكرون. (٣)

---

(١) ابن جني : الخصائص . تقديم المحقق ص ٩ وأيضا ابن الجني : سر الصناعة ص ٣٢
(٢) ابن جني : الخصائص ص ١٦
(٣) ابن جني : سر الصناعة ص ٣٤

وقد بلغ ابن جنى بدراساته اللغوية ونتاجه الغزير درجة الإمامة واعترف له المتأخرون بذلك ،وأخذ أكابرهم عنه كما أخذوا عن أبى عمرو الخليل وسيبويه.. وقد كان خلف أستاذه أبا على الفارسي بعد وفاته (٣٧٧هـ) فى التدريس ببغداد، ودان له تلاميذ أبى على ومنهم أئمة كبار كعبد السلام البصري، والسمسمي ، وعلى بن عيسى الربعى (٤٢٠هـ) ، وقال عنه أن فضل الله العمرى لم ير مثله فى توجيه المعاني، وقال عنه الثعالبى في يتيمة الدهر "هو القطب فى لسان العرب وإليه انتهت الدراسة فى الأدب" . وعلى غير ما هو معتاد بين اللغويين والشعراء- كان بين المتنبي الشاعر العظيم وبين ابن جنى معرفة وتقدير متبادل لم يأنف معه ابن جنى من قراءة ديوان المتنبي على الشاعر نفسه، ثم شرح الديوان بعد ذلك، وكان المتنبي يجله ويقول:"هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس ، ويقول أيضا إن ابن جنى أعلم بشعري منى وكان إذا سئل عن مسألة غامضة فى شعره أحال السائل على ابن جنى ومن ذلك أن سائلا سئل أبا الطيب المتنبي عن قوله :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا

كيف أثبت الألف فى تصبرا مع وجود لم جازمة. وكان من حقه أن تقول أم لم تصبر!؟ فقال المتنبى:" لو كان أبو الفتح هنا لأجابك" والجواب بأن هذه الألف بدل من نون التوكيد الخفيفة كقول الأعشى:

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا (١)

ابن جنى من أعلام الصرف وفقه اللغة والأصوات:

برز أبو الفتح عثمان بن جنى فى علوم اللغة بصفة عامة. وفى الصرف وفقه اللغة والأصوات بصفة خاصة. فأما فى الصرف فقد قال فيه ابن الانبارى فى نزهة الألباء فى طبقات الأدباء، وياقوت فى معجم الأدباء "لم ينصف أدبه فى التصريف ولا تكلم فيه ولا أدق كلاما منه" ومازال شرحة لكتاب التصريف لأبى عثمان المازني، والمسمى المنصف من أمهات المراجع وأصلها فى هذا العلم. (٢)

---

(١) ابن جني : سر الصناعة ص ٣٨
(٢) المرجع السابق ص ٤١

وأما فى الأصوات فهو الذي قد ميز هذا العلم باسمه، وخصص له كتابه سر الصناعة واستوفى فيه مباحثه ، وسجل فيه نظراته الثاقبة ، التى مازالت إلى يومنا هذا محل الإعجاب والتقدير من مدارس علم الأصوات الحديثة، لصدقها مع تقدم عهدها. وأما فى فقه اللغة فمن الصعب أن تقارن نظراته وكشوفه فى هذا المجال بجهود سابقة أو لاحقه. وقد أودع كتابه الخصائص من فقه اللغة وأسرارها كنوزا ... ولا ينبغي أن نترك هذه النقطة دون إشارة إلى أن تحرره فى منهجه العلمي مقترن بتواضع علمي يكافئه. فهو يجيز مخالفة إجماع البصريين والكوفيين. إذا كان فى رأيهم مخالفة للنصوص أو القياس وذلك انه لم ير ممن يطاع أمره فى قرآن ولا سنة أنهم لا يجتمعون على خطأ ... وإنما هو علم منتزع من استقراء هذه اللغة فكل من فرق له عن علة صحيحة وطريق نهجه كان خليل نفسه، وأبا عمرو فكره. ويضرب لذلك المثل بتأويلهم هذا حجر ضب خرب بأنه مما شذ عن القياس وغلط فيه العرب حيث توهموه صفة للضب. وقال النحويون إنه جر بالمجاورة ثم يؤوله ابن جنى بان لا أصل "خرب الجحر" ثم حذف المضاف إليه. ولهذا نظائر كثيرة جدا ومنه قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

فالأصل مزمل فيه...

ولكن ابن جنى لا يترك القضية مرسلة هكذا فيقول "إلا أننا مع هذا. لا نسمح لأحد بالأقدام على مخالفة الجماعة التى قد طال بحثها .. والقوم الذين لا نشك فى أن الله سبحانه وتقدست أسماؤه قد هداهم لهذا العلم الكريم.. إلا بعد أن يناهضه اتقانا. فإذا هو حذا على هذا المثال وباشر بإمعان تصفحه أحناء الحال أمضى الرأي فيما يريه الله منه غير معاز به ولا غاض من السلف رحمهم الله فى شئ منه.

ولقد زين ابن جنى علمه بتواضع أشرنا إليه ، وبعفة لسان وقلم جعلته ينير أسماء أعضاء الجنس إذا وردت فى شعر يستشهد به إلى وزنها تكرما وتصونا وبحلم وجد يكافئان أن علمه ، فقد قال لكاتب شبهه بالقرد "ما هذا القول يا أبا الحسين أعزك الله ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي أو أمجن فتمجن بي". ثم بعرفان لنعمة الله عليه يقول:

شكرت الله على أنعمه وما أولاه من أرب
زكت عندي صنائعه فوفقني وأحسن بى
خولني وخولني وتولني ونوه بى
وآخر من يقاد منى وإعلاني وأرغم بى

وقد توفى ابن جنى ببغداد سنة ٣٩٣ .

كتبه :

خلف ابن جنى ثروة علمية كبيرة أودعها كتبه التى قاربت الخمسين عدا ، ومن أهمها نفعا كتاب (سر الصناعة) فى الأصوات ، وكتاب تفسير تصريف المازنى فى الصرف ، والمحتسب فى شرح شواذ القراءات والخصائص فى فقه اللغة ، وقد طبعت ثم له كتب فى شرح دواوين الهذليين والمتنبي والحماسة ، وغيرها وكتب فى التصريف التعاقب والمقصور والممدود والألفاظ المهموزة والمذكر والمؤنث وغيرها ، وكتب فى العروض وغير ذلك من العلوم العربية.

كتاب الخصائص وهدفه :

هذا كتاب من أفضل كتب بن جنى ومن أجل مؤلفات فقه اللغة إن لم يكن من أجلها على الإطلاق فهو لفقه اللغة ككتاب سيبويه للنحو.

وقد تبين أن هذا الكتاب يتناول الأقيسة والعلل التى قامت عليها قواعد اللغة النحوية والصرفية والاشتقاقية ، كما يتناول أدلة حكمة اللغة وإتقان بنائها. وذلك هو ما وصفه بأنه أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه ، كما تبين أن أحدا قبل ابن جنى لم يتناول هذه الناحية بما يكفى ، وأخيرا يتبين أن مادة الكتاب ومسائله كانت تتوارد على ابن جنى آنا بعد آن حيث تتكشف له العلاقات والروابط والعلل منتشرة بحسب ما تثير البحوث وتستجيب القريحة ، فيودعها ابن جنى جانبا عالما بأهمية ما تكشف له مترقبا أن يتم له تكشف ما غمض من جوانب ، وأن تتهيأ له الصورة والظروف التى تيسر جمعها فى كتاب ، وهكذا تم له إنشاء هذه السفر الخالد ،وقد يزيد ما سبق وضوحا عرض أبواب الكتاب بشئ من الإجمال.

صورة عن محتويات الخصائص:

بدأ ابن جنى الكتاب بالكلام على المصطلحات اللغوية: الكلام والقول، اللغة، النحو، الاعراب، البناء، واستطرد إلى موضوع نشأة اللغة. ثم بدأ فى تناول الأصول والكلام على نوعية علل العربية (أكلامية هى أم فقهية) ثم بعد الكلام على معنى الاطراد (الذى هو مظهر الجريان على قياس وعلية) ومقابلة الشذوذ، ثم عقد أبوابا للمقاييس وأحكامها (جواز القياس على الأقل تعارض السمع والقياس والاستحسان ، تخصيص العلل، العلة الموجبة والمجوزة، وتعارض العلل .. وهكذا فى أحكام العلل وضوابطها، ووجوه الأخذ بها والاعتماد عليها، وإرادة العرب إياها، متناولا كل ذلك فى نحو أربعين بابا، ومطبقا كل وجه أو حكم يتناوله فى مسألة أو مشكلة لغوية.. ثم عقد أبوابا تتناول الاحتجاج باللغات(اللهجات) والتزام رواة اللغة بلغاتهم (الفصيح قد[1] يجتمع فى كلامه لغتان، تركب اللغات ومخالفة بعض ما ورد لما عليه الجمهور وامتناع العربي من الكلام بما يجيزه القياس والأخذ عن أهل المدر والوبر ..

---

(١) ابن جني : الخصائص جـ١ ص ١٩٠

عشرة أبواب يتناول فى أخرها التتابع في وضع اللغة ثم يأخذ فى أبواب تتناول المعاني والعلاقة بين الألفاظ والمعاني (الصلة بين الألفاظ المتفقة الحروف مع زيادة أو اختلاف نسق أو إبدال أو تلاق فى التصريف..) واستطرد إلى ترافع الأحكام ثم فى أبواب تتناول التلاقي في المعاني مع اختلاف المباني أو مع تقلب النسق وحده أو التغير فى بعض الحروف أو مع تعاقب الألفاظ) ثم عقد بابا لإ مساس الألفاظ أشباه المعاني ثم أبوابا تشبه ما سبق فى أحكام العدة . ثم أبوابا تتناول أحكاما للحروف (الزيادة والتعويض والنيابة) والحركات (مضارعتها للحروف، ومحلها منها ، وعلاقتها بالسكون) ثم أبوابا فى الرجوع إلى الأصل ، ثم بابا لشجاعة العربية تتناول فيه الحذف (حذف الاسم والفعل والحرف) والتغيير فى التركيب للجملة (بالتقديم والتأخير والفروق والحمل على المعنى) والتحريف ، وأبوابا فى الحقيقة والمجاز وإيراد المعنى بغير لفظه المعتاد وأبوابا فى مسائل صرفية ونحويه وعاد فعقد أبوابا فى أحكام العلل وبابا فى السلب وأبوابا فى تفسير ظواهر صرفيه، وأبوابا فى الحركات من حيث طولها وإبدالها، وعاد إلى بعض ضوابط العلة. ثم عقد بابا فى ما فات سيبويه من الأمثلة (أي الصيغ) .. وعاد للضوابط وبابا لأثر المعرفة اللغوية فى تصحيح العقيدة وفى العلاقة بين المعنى والإعراب والتفسير على المعنى وقوة اللفظ لقوة المعنى .. وأخيرا عقد بابين لأغلاط العرب وسقطات العلماء وأعقبها بباب فى ثقة الرواة وختم بأبواب فيها ضوابط وتدريب على كشف العلاقات...

ولعلنا بعد هذا العرض السريع لرؤوس موضوعات الخصائص تتبين صحة ما استخلصناه من مقدمه ابن جني لكتابه هذا من أن مسائله كانت تتكشف له فى الحين بعد الحين. فلما جمعها بدت كعقد من اللآلئ تمثل ضوابط أصول اللغة وعللها وتتخللها حلى تمثل استطراداته الثمينة .

كتب الاشتقاق المدونة في العربية :

أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع التناسب في اللفظ والمعني . ويعد الاشتقاق عاملا رئيسيا من عوامل نمو اللغة ، إذ يسهم في تكثير ثروتها واتساعها لكل ما يأتي به الزمان من اختراع أو اكتشاف

حظي موضوع الاشتقاق بعناية الكثير من علماء العربية منذ القرن الثاني للهجرة وعالجه العلماء في مؤلفاتهم اللغوية مثل ابن جني في الخصائص وابن فارس في الصحابي والسيوطى في المزهر وعالجه العلماء في مؤلفات أفردوها له وقد أتت عوادي الزمن على كثير مما ألفوه ، ولم يبق منه إلا القليل . ومن ابرز الكتب التى دونها علماء العرب لهذا الموضوع

١. كتاب الاشتقاق لأبي على محمد بن المستنير بن أحمد ، المعروف بقطرب ت ٢٠٦ هـ
٢. كتاب الاشتقاق لأبي الحسن بن سعيد المعروف بالأخفش الأوسط ت ٢١٥ هـ
٣. كتاب الاشتقاق لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ت ٢١٦ هـ مطبوع في القاهرة عام ١٤٠٠ هـ .
٤. كتاب اشتقاق الأسماء لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي ت ٢٣١ هـ
٥. كتاب اشتقاق الأسماء لأبي الوليد عبد الملك بن قطن المهري القيرواني ت ٢٥٦
٦. كتاب المشتق لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ت ٢٨٠ هـ
٧. كتاب الاشتقاق لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ت ٢٨٥
٨. كتاب الاشتقاق لأبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم اللغوي ت حوالي ٣٠٠ هـ
٩. كتاب الاشتقاق لإبراهيم بن السري بن إسحاق الزجاجي ت ٣٦١ هـ
١٠. كتاب الاشتقاق لأبي بكر محمد بن سري بن سهل السراج ت ٣١٦ هـ وقد نشر مرتين في بغداد ودمشق عام ١٩٧٣
١١. كتاب اشتقاق أسماء القبائل لأبي بكر بن الحسن بن دريد الأزدي ت ٣٢١ هـ ونشر مرتين في ألمانيا ١٨٥٤ م وفي القاهرة ١٩٥٨
١٢.كتاب الاشتقاق لأبي محمد بن عبد الله بن جعفر بن درستويه ت ٣٣٠ هـ
١٣. كتاب الاشتقاق لأبي محمد بن عبد الله بن جعفر بن درستويه ت ٣٣٠ هـ
١٤.كتاب الاشتقاق لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ت ٣٣٧ هـ
١٥.كتاب الاشتقاق لأسماء الله عز وجل لأبي جعفر النحاس السابق
١٦. كتاب أسماء الله تعالي وصفاته المستنبطة من التنزيل وما يتعلق بها من اللغات والمصادر والتأويل لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ت ٣٣٧ هـ مطبوع في دمشق وبغداد .
١٧.كتاب الاشتقاق لأبي عبد الله بن أحمد بن خلويه ت ٣٧٠ هـ
١٨.كتاب الاشتقاق الكبير لأبي الحسن على بن عيسي الرماني ت ٣٨٤ هـ

١٩. كتاب الاشتقاق الصغير للرماني السابق .
٢٠. اشتقاق الأسماء لأبي القاسم يوسف بن عبد الله الزجاجي ت ٤١٥ هـ
٢١. اشتقاق الأسماء لأبي عبيد البكري الأندلس ت ٤٨٧ هـ
٢٢. كتاب أسماء المواضع والبلدان لعلي بن محمد الخوارزمي ت ٤٨٧ هـ

الفصل السادس
دراسات حول تدوين المقال والرسائل في الأدب

العربية لغة القرآن

يقول ابن جني في كتابه الخصائص " ونزل القرآن بلغة العرب التي كانوا ينظمون بها شعرهم ويلقون بها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم ، ومصداق ذلك قوله تعالي في سورة إبراهيم " **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** " ، وجاءت صفة " مبين " نعتا للسان العربي وللقرآن اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم ، **(وهذا لسان عربي مبين)** ،

ولما سمع الوليدبن المغيرة رسول الله ﷺ يتلو القرآن الكريم عاد إلى قومه – وهو العربي الذي شهد أسواق العرب في عكاظ والمجنة وغيرها ، وسمع الكثير من روائع الشعر الجاهلي – وقال : " **والله لقد سمعت من محمد أنفا كلاماً ما هو من كلام البشر ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه** " ،

وهذه كلمة رجل لم يؤمن ولكنه يعرف مدي العلاقة بين بلاغة القرآن وبلاغة اللغة الجاهلية ، ويأخذ في اعتباره كما يأخذ كل من عايش نزول القرآن وجود عدة لغات وقت التنزيل ، ومدي أهمية اختيار الله سبحانه للعربية وتشريفها على سائر اللغات باختيارها لغة لكتابه القرآن ،

(إنا جعلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون) ،

ويعرف الباحثون هذه الحقيقة مضافا إليها أن أمما عديدة قد ماتت وماتت لغاتها : كالسنسكريتية واللاتينية والأشورية والسريانية ، أما العرب فقد حفظ القرآن لغتهم ، لقد ضمن لها القرآن البقاء والخلود ،

يقول أحد البلغاء : أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على يد الحياة وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة في العالم اليوم ، كما ماتت لغات حية كثيرة في سالف العصور ن إلا أن " العربية " فستبقي بمنجاة من الموت ، وستبقي حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر ، ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالقرآن هو الحصن الحصين الذي تحتمي به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ووسائلها الهدامة ،

ولقد يعطينا الضوء على ما نحن بسبيله أن نستعرض هذه المحادثة التي جرت بين المرحوم كامل كيلاني والمستشرق فنكل ، يقول المرحوم الكيلاني فيا روي: كانت بيني وبينه صلات وثيقة ، وكان يأخذ برأيي في المشاكل التي تقابله في

الأدب لما يعتقده في من الصراحة ، ففي ذات يوم همس في أذني متهيباً قال خبرني عن رأيك بصراحتك المعهودة أأنت ممن يعتقدون إعجاز القرآن • أما لعلك تجاري جمهور المسلمين الذين كانوا ينقلون ذلك كابراً عن كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفي على أحد ، وهو يحسب أنه قد ألقي سهماً لا سبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت : لكي نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده ، فلنحاول ليظهر لنا : أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده • فلنجرب أن نعبر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون : فأمسك بالقلم وأمسكت به فكتبنا نحو عشرين جملة متميزة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعني • فقلت له مبتسماً ابتسامة الظافر الواثق : الآن تتجلى لنا بلاغة القرآن بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه في هذا المعني • فقال : هل أدي القرآن هذا المعني بأبلغ مما أديناه • فقلت : لقد كنا أطفالاً في تأديته • فقال مدهوشاً ، وماذا قال : قلت • قال تعالي :

" يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد "

وصفة أو كاد وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة •

وقال : صدقت نعم : صدقت •

وفي نظرة الباحثين الغربيين من المستشرقين بالرغم من كل محاولات التزييف يبدو واضحاً دور القرآن وأهمية أثره : **يقول بروكلمان :** بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدي لا تكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم ، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى •

يقول نولدكه : بالرغم من نظرة أمثالنا الغربيين إلى القرآن من حيث الوحي ، فإننا على ثقة من أن كل كلمة فيه وكل حرف منه هو اليوم كما كان في أيام محمد •

ويقول جاك بيرك : لقد ظل القرآن دائماً برغم الدعوة إلى دراسة الشعر الجاهلي أعظم نصوص اللغة ، ذلك أن القرآن بمعني الكلمة المنزلة ، وعلماء الكلام يجمعون على سمو الأسلوب القرآني الذي لا يمكن الإتيان بمثله • أما الباحثون فإن تقريرهم لأثر القرآن الكريم في اللغة العربية يتمثل في عدة نقاط أساسية :

الأولي : أن القرآن الكريم المرجع الأول لرواة اللغة العربية ، وقد اعتمد كنقطة استقرار واستنتاج • وقد حفظ عدداً من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الأسلوب العربي ، وقد أغني اللغة بمصطلحات كثيرة في مجال العبادات والعقائد والمعاملات كما قدم أسلوباً جديداً •

ثانياً : أحدث القرآن أثراً بعيد المدى في الفكر الإسلامي في جميع جوانب الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية •

ثالثاً : فضل القرآن في انتشار اللغة العربية على نحو لم تعرفه أي لغة أخري في العالم •

رابعاً : غير القرآن العرب تغييراً تاماً ، اجتماعيا ونفسياً ، وفتح أمامهم آفاق النظر والتأمل والفكر ٠

خامساً : أصبح القرآن سوراً للغة العربية الفصحى يدفع عنها كل أذى ، ويرد عنها كل عادية ٠ وبذلك حفظ اللغة العربية الفصحى مما خضعت له سائر اللغات من التقهقر والتشعب والضياع والاندثار :

" ونحن نقرأ القرآن الكريم اليوم باللفظ والصوت والأداء والوصل والفصل والوقف التي كانت في أيام الرسول لا نخل بلفظة أو كلمة أو حرف من حركة أو همسة أو نبرة ، وبهذه العناية البالغة بالقرآن الكريم عاشت اللغة العربية الفصحى في ثوبها الذي كان لها قبل ستة عشر قرناً أو تزيد ، وكما كانت قبل ألفي عام أو تزيد ٠ ومضى المسلمون بعد ذلك يتقنون ألسنتهم بلغة القرآن ويقومون كلامهم بكلامه ويطبعون أساليبهم على أساليبه تضمينا واقتباساً وحفظاً ، لا محاكاة وتقليداً ٠ ومن هنا أصبح الطفل العربي اليوم يقرأ نماذج من الشعر الجاهلي ٠ فلا يتعثر في لفظها ، ولا يتردد في معناها ، وأن أثر القرآن لم يقتصر على العرب وحدهم ٠ بل تعدي إلى غير العرب ٠

سادساً : كان له أثره البعيد المدى في اللغات المختلفة ٠ أما اللغة الفارسية فقد فقدت شخصيتها القديمة وظهرت الفارسية الجديدة ٠ وقد تشكل نصف معجمها كما تشكلت أساليبها وأوزانها من العربية ، حتى صارت لساناً آخر غير اللسان الجاهلي ٠ وكذلك الأمر في اللغة التركية ، ولغة الأكراد ، وسائر لغات آسيا وأفريقيا ، فقد فقدت كل لغة من هذه اللغات أكثر خصائصها الجاهلية ودخلت في عربية القرآن ٠

سابعاً : ارتبطت بين العربية وبين القرآن صلة جعلت من العسير ترجمة القرآن إلى لغة أخرى ٠ وأن هذه الترجمة مهما تكن درجة جودتها تسمي **(ترجمة معاني القرآن)** أما القرآن نفسه فإن للأسلوب العربي بخصائصه الثابتة التي هي جزء لا ينفصم عن جوهره ولا يمكن التجاوز عنه **(وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) والعربي كل من يفقه اللغة العربية ولو كان من الزنوج ٠**

من هنا كانت الدعوة الصادقة الملحة : تعلموا تعبيرات القرآن ولا تجعلوا للكلمة العربية الإسلامية مدلولا خارجاً عما تريدون أنتم وعما هو لها بالفعل ٠

ومن هنا قول محمد إقبال : كنت أتلو القرآن أيام الطلب كل صباح بدون فهم ٠ فقال لي والدي كلمة غيرت مجري حياتي ٠ قال يا إقبال : اقرأ القرآن وكأنه نزل عليك ٠

منذ ذلك الوقت كرست جهدي ووقتي لدراسة العربية حتى أفهم القرآن وكأنه نزل علي :

وقد انتبه إلى هذا المعني (المستشرق براون) حين قال :

نحن نختلف مع المسلمين في كوننا نعتبر كتابنا مقدساً سواء أقرأناه في اللغة الأصلية أم في لغتنا الحالية • أما المسلمون فيعتبرون القرآن كلام الله وأنه لتنزيل من رب العالمين وأن الله هو الذي يخاطبهم وليس النبي محمد •

ولذلك فإن القرآن لا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى لأن المترجم مضطر أن يورد في ترجمته قدراً من التفسير يستعين به على إظهار معانيه بالإضافة إلى ذلك فإن المسلم سواء أكان فارسياً أم تركيا أم هنديا أم أفغانيا أم من أهل الملايو فإنه يرتل القرآن باللغة ويتلفظ بالشهادة باللغة العربية •

يضاف إلى ذلك أننا نجد لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية ، ولو أن أحداً أراد أن يكتب شيئاً بالفارسية بحيث تكون خلواً من الألفاظ العربية لتعسر عليه الأمر " •

ولا ريب أن واحداً من أعلام أفغانستان هو **العلامة صلاح الدين السلجوقي** كان صادقاً وهو يحدث العرب فيقول : هذا القرآن معاشر العرب يجمعنا وإياكم بل يحفظنا وإياكم ، كما حفظ كيانكم وحمي اللغة العربية من الاندثار في حين أن اللغتين الشقيقتين : السريانية والعبرية اللتين كانتا أوسع نطاقاً من العربية قد ماتتا وانقرضتا منذ أمد بعيد وعلينا أن نجاهد لكي يبقي القرآن ولغة القرآن الخيط الذهبي الذي يؤلف بين قلوبنا ديناً وثقافة كي لا تنفصم العروة التي كنا معتصمين بها والتي جاهد في سبيلها الآباء •

اللغة العربية وتدوين الكتاب العربي :

لحكمة ما كانت معجزة النبي محمد عليه السلام كتابا ، وكتابا عربيا مبينا ولحكمة ما سمي هذا الكتاب بالقرآن – والقرآن من القراءة – فكانت هذه دعوة للمسلمين أن يقبلوا دائما على قراءته والاستماع إليه ما فيه من حكم • ولحكمة ما كانت أول آية أنزلت على الرسول من هذا الكتاب هي قوله تعالي :

" اقرأ بسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • أقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم " • ولحكمة ما أقسم الله سبحانه وتعالي فيما أقسم به بالقلم • فقال عز من قائل : " ن . والقلم وما يسطرون " • ولحكمة ما أقسم الله سبحانه وتعالي مرة أخرى بالكتاب فقال عز من قائل : " **حم والكتب المبين • إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون "** •

وعلى هدي من هذه الآيات الكريمة كانت دعوة الرسول عليه السلام للمسلمين أن يطلبوا العلم في كل وقت وفي كل مكان ، فهو القائل : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " وهو القائل : " اطلبوا العلم ولو في الصين " وزاد فجعل طلب العلم فريضة فقال : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة • "

العربية لغة العلم والحضارة :

واتصلت الحضارة الإسلامية العربية بغيرها من حضارات الدول المجاورة فأثرت فيها وتأثرت بها ، ونشطت حركة التأليف ، وظهر من بين المسلمين علماء أعلام من عرب ومستعربين نبغوا في كل فنون العلم وفروعه ، وسلاحهم في هذا كله كان شيئين : قلما وكتابا عربيا ٠

وانتشرت مع حركة التأليف والترجمة اللغة العربية فعمت جميع أنحاء العالم الإسلامي ، بل أصبحت في وقت ما هي لغة العلم والحضارة ، بحيث كان يجد العالم – أي عالم – نفسه مضطرا إلى تعلم اللغة العربية ليستطيع مسايرة البحث العلمي ومتابعته ٠

ونجحت اللغة العربية في القضاء على كثير من اللغات التي كانت مستعملة في البلاد التي دخلها الإسلام ٠ ولم تمض غير قرون ثلاثة حتى كانت اللغة العربية هي لغة الجميع في العراق وسوريا ومصر وشمال أفريقيا ، وانمحت لغات كثيرة كانت سائدة في هذه البلاد منذ قرون ٠

وليس أدل على قوة اللغة العربية من أن حروفها أصبحت حروف لغات كثيرة ظلت حية قائمة في بعض أجزاء العالم الإسلامي ، فأصبحت لغات كثيرة تكتب حتى اليوم بالحروف العربية ، وفي مقدمتها اللغة الفارسية واللغة التركية (إلى أن اصطنع مصطفي كمال أتاتورك الحروف اللاتينية) واللغة السواحلية في شرقي أفريقيا ، واللغة الاندونيسية إلى أن حلت محلها الحروف اللاتينية منذ سنوات قليلة ٠ ولغة الأردو في الباكستان والهند ٠ والسر في هذا كله هو أن اللغة العربية هي اللغة التي سجل بها علماء المسلمين كل إنتاجهم العلمي والحضاري ، وفي كلمة واحدة بأن السر في هذا " الكتاب العربي " ٠

وبلغ من شغف المسلمين بالكتاب أن أنشأوا الخزانات في كل بلد من بلادهم ، وأقبلوا في نهم على اقتناء الكتب بحيث أصبحت المكتبات الخاصة تنافس المكتبات العامة ، وبحيث كان طلبة العلم وكبار العلماء يرحلون من أقصي الأرض إلى أدناها سعيا وراء عالم يأخذون عنه أو مدرسة يحضرون دورسها ، أو كتاب يطلعون عليه أو يبذلون الغالي والرخيص في سبيل اقتنائه ٠

ونبغ من المسلمين علماء أعلام في كل إقليم وفي كل قطر وفي كل مدينة من مدن العالم الإسلامي ، ولاعتزاز المدن بعلمائها ، ولاعتزاز العلماء بأوطانهم كانوا ينسبون أنفسهم إلى هذه الأوطان واشتهروا بهذا النسب بحيث أصبحوا يعرفون به ولا يعرفون بأسمائهم ، ودارس التراث الإسلامي يعرف هذه الأسماء معرفة أكيدة :

الخوارزمي – والرازي – والطبري – والبخاري – والبلخي – والسمرقندي – والخويي – والهروى – والطوسي – والنيسابوري – والأصفهاني

ـ والقمـي ، والشـيرازي ـ والـبيروني ـ والفيـروز بـادي ـ والسـهر وردي ـ والـبيهقى ـ والديـنوري ـ والفـارابي ـ والـبغدادي ـ والموصـلي ـ والدمشـقي ـ والمقدسـى ـ والـبياني ـ والنابلسـي ـ والحمـوي ـ والشـيزري ـ والسـكندري ـ والسيوطى ـ والدمياطي ـ والمصـري ـ والادفوى ـ والاسنوي ـ والطنطاوى ـ والشرقاوي ـ والهوريني ـ والسخاوى ـ والدسوقي ـ والجبرتي ـ والقلقشندى ـ والتونسـي ـ والتلمسـاني ـ والفاسـى ـ والمراكشـي ـ والشـنقيطي ـ القرطـبي ـ والطرطوشي ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

ولـو صـنفت هـؤلاء جميعـا لوجدت مـنهم المفسرين والمحدثين والمؤرخين والجغرافيين والـرحالة والأدبـاء والشـعراء والفلاسفة والأطـباء ، وعلماء الموسيقي والنبات والكيمياء والفلك والهندسة والجبر والرياضيات بوجه عام ٠

اختلفت الأجناس والكتاب العربي واحد :

وكان سر عظمة هؤلاء جميعا أنهم ساهموا في إتمام بناء الحضارة الإنسانية ، وأنهم أودعوا نتاج أبحاثهم كتبا وكتبا عربية مع أنهم ينتسبون إلى أجناس وبلاد متعددة ، فكان منهم التركستاني ، والخراساني ، والإيراني ، والعراقي ، والسوري ، والمصـري ، والمغـربي ، والأندلسي ، ولكنهم ألفوا جميعا بالعربية ، وأصبح تراثهم الفكـري تـراثا لكل مسلم أيا كـان موطنه ، وغير المسلم كذلك ، فالمصري يعتز بابن خلدون المغربي والقرطسـي الأندلسـي اعتزازه بمن نبت فـي مصـر مـن علمـاء مـن أمـثال السـيوطي والسكندري والدمياطي والاسنوى وغيرهم ، والمغربي يعتز بهؤلاء جميعـا وبغيـرهم مـن العلماء السوريين والعراقيين والفرس اعتزازه بمن ظهر في المغرب والأندلس من علماء ٠

فهذا الإنتاج الغني الضخم هو تراث مشترك لكل متكلم بالعربية ، كل يعتز بـه ويعتبره ملكا له وجزءا من حياته ، لا لشيء إلا أنه كتب بالعربية في كتاب عربي ٠

ومع تيار الإنسانية الذي يسود العالم الآن أصبحنا نـري كل شعوب العالم تقبل علـى قـراءة الـتراث الفكري العربي ودراسته وترجمه عيونه إلى لغاتهم ، فكتب الخـوارزمـي وجابـر حيـان وابـن الهيـثم الجاحظ وابن سينا والزهراوي والإدريسـي والمسـعودي وابـن حوقـل وابن رشـد وابـن خـلدون ، وابـن شـداد ، وابـن بطوطـة والمقريزي وابن مـاجد وغيرهم تـرجمت إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسـية ، وهـي موضـع دراسـة فـي كـبريات الجامعـات الأوربيـة والأمـريكية والروسية ٠

قـوة العرب مرجعها إلى " كتاب " وتكشف هذه الدراسة للمستعمرين أن سر قـوة الـدول العربية في الماضي إنما يرجع إلى " كتاب " إلى كتاب عربي مبين ٠ هو القرآن الكريم ، بدراسته وبالتعلق بـه اسـتطاع أي عربي أن يـتحدث إلى أي عربي فيفهم عنه ويحس أنه أخوه ، فيتألم لألمه ويفرح لفرحه ٠

وقد أدهشت هذه الظاهرة أحد كبار المستشرقين من الفرنسيين فقال قولته المشهورة : " عجيب أمر هذا العالم العربي الإسلامي ، إنه كالطبلة إذا ضربت على طرف منها سمعت دوي الضربة في كل طرف من أطرافها " .

وكان إلى جانب القرآن الكريم كتب عربية أخرى كثيرة تقوم بنفس الدور في ربط أواصر الأخوة بين كل العرب ، وتوحد آفاق التفكير بين الجميع ، فأنت إذا أحصيت كتب النصوص التي كانت تدرس في جامعات الأزهر والزيتونة والقرويين وفي كل مدارس تركستان وإيران والعراق والشام والحجاز واليمن ومصر والمغرب والأندلس لوجدت أنها كتب واحدة ، ولوجدت أن المتن في بعضها من تأليف مغربي ومن شرح أو تحشية مصري، أو من تأليف فارسي وشرح يمني وهكذا .

فالكتاب المدرسي كان موحدا منذ قرون وقرون – ثم نأتي نحن في القرن العشرين ونبدأ في بحث مشكلة توحيد الكتاب العربي المدرسي !! ..

وقد أدرك الغرب خطورة وحدة اللغة وخطورة وحدة الكتاب ، وعلموا أن هذا السلاح لو ظل موجودا بأيدي العرب فإن أيام الهيمنة الفكرية ستصبح قصيرة ، وستستعيد الشعوب العربية استقلالها في أقرب وقت ممكن ، ولهذا بدأ الغرب يضع مخططاته على أساس القضاء على اللغة العربية باعتبارها أكبر مقوم من مقومات الوحدة ، فجعل المدارس تحت أشرافه ، وأنشأ مدارس جديدة جعل التعليم فيها كله بلغته ، ونشأت أجيال وأجيال لا تعرف شيئا عن لغتها أو تراثها الفكري والديني والحضاري وإنما تعرف لغة المستعمر وتعرف كل صغيرة وكبيرة عن حضارته وتراثه الفكري .

نشأت أجيال عربية لا تعرف شيئا عن الخوارزمي العالم الرياضي ، أو عن " ابن النفيس " الطبيب أول مكتشف للدورة الدموية ،أو عن " الطوسي " الفلكي ، أو عن " الإدريسي " الجغرافي ، أو عن " المقريزي " المؤرخ ، أو عن " ابن خلدون " منشئ علم العمران والاجتماع ، أو عن " الجاحظ " الأديب ، أو عن " ابن رشد " الفيلسوف ، ولكنها تعرف كل صغيرة وكبيرة عن فولتير ورسو ومنتسكيو ولافونتين وديكارت وجته وشكسبير .

وظلت هذه الشعوب العربية تقاوم وتناضل سنين طويلة إلى أن كتب الله لها النصر واستعادت استقلالها ، وبدأت تبني البيت وتقيم صروحه من جديد ، فإذا بها تجد تراثا متعفنا ، وجدت بناء يملأه السوس الذي ينخر في عظام الوحدة العربية ويكاد يقضي عليها ، وجدت هذا التعليم بلغات لم تكن يوما ما لغتها القومية ، وجدت كتبا مليئة بالسموم ، فلا تعرض لأي شيء عربي إلا انتقصت من دوره وحقرت من شأنه ، ولا تعرض لأي شيء أوروبي إلا مجدته ورفعت من ذكره .

وبدأ المخلصون المؤمنون يعملون لخلع هذه الصورة وإعادة الصورة القديمة ، بدأوا دعوتهم للعودة إلى التعريب و الكتاب العربي واللغة العربية ، وأدرك

الغرب خطورة هذه الدعوة ، وأدركها معه أصحاب الثقافة الأوروبية من أبناء البلاد فراحوا جميعا يحاربون اللغة العربية والكتاب العربي بكل الأسلحة ، وأشاعوا عديدا من الأكاذيب والخرافات حول قدرة اللغة العربية أن تكون لغة علم ، وحول قدرة الكتاب العربي أن يكون أداة تعليم . ومن عجيب أن هذه الأكاذيب والخرافات وجدت من يستمع لها ويقتنع بها ويحاول ترديدها والاستدلال بها .

فقالوا فيما قالوا أن العلم الحديث علم أوروبي بجزئياته ومصطلحاته وأوصافه وتعابيره ونسوا أن العرب كانوا يوما ما قادة العلم ، وأنهم وضعوا بالعربية مصطلحات ما اكتشفوا وما اخترعوا ، فمنشئ علم الجبر هو الخوارزمي ، ومن اسمه اشتق اسم علم الجبر و المصطلح الرياضي اللوغارتيمات ، ومكتشف الدورة الدموية هو الطبيب العربي ابن النفيس ، وابن الهيثم العربي كشف عن كثير من نظريات علم الضوء ، وكانت مكتشفاته أساسا لكل أبحاث الأوروبيين في هذا العلم بعد ذلك ، ونسوا أن الأوربيين عندما نقلوا عن الحضارة العربية أخذوا معظم المصطلحات العلمية العربية كما هي وترجموها إلى لغاتهم حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ منها ، ولكنهم لم يحلوا العربية كلها محل لغاتهم ليتمكنوا من دراسة علم العرب ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فكلمات الجبر والكحول والكيمياء والسكر والصابون والليمون والقطن ودار الصناعة ومئات غيرها أصبحت كلمات أوروبية .

وقد شهد العالم العربي حركتين من حركات الترجمة ، ولم تقف خرافة المصطلحات في سبيل العرب ، ففي العصر العباسي عصر الترجمة والتأليف والتدوين والنشر ترجمت في العراق كتب الحضارات اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية ، وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ترجمت في مصر ولبنان وسوريا آلاف الكتب العلمية عن اللغات الأوروبية الحديثة إلى اللغة العربية .

وفي أيدي ملايين الطلبة العرب اليوم مئات من الكتب المدرسية العربية في كل علم وفن كانت أدوات دراستهم في مختلف مراحل التعليم إلى أن تخرجوا وحصلوا على أعلى الدرجات العلمية ، ومن هؤلاء الخريجين الوزراء والرؤساء ومديرو الإدارات الحكومية جميعا يديرونها باللغة العربية ، ومنهم الأطباء العالميون والمهندسون العالميون الذين يشرفون على إقامة أكبر وأضخم المؤسسات العمرانية والصناعية داخل بلادهم وخارجها .

ومنهم أساتذة الجامعات والمؤلفون الذين يؤلفون باللغة العربية ، ويترجمون إلى اللغة العربية أحدث الإنتاج العلمي الأوروبي الحديث دون أن يجدوا صعوبة .

وقالوا فيما قالوا أن المصطلحات العلمية تعرب بألفاظ متعددة في البلاد العربية المختلفة ، ونسوا أن هذا أمر طبيعي في هذه المرحلة ، وأن الأمور ستستقر على وضع موحد مع تقدم الأبحاث اللغوية ، ومع تنظيم أعمال المجامع اللغوية ، وبسائط العلم التي نريدها للتلميذ في المرحلتين الابتدائية والثانوية قد استقرت

مصطلحات في الكتب المدرسية منذ سنوات ، ولم تعد موضع خلاف ، ونحن لا نريد إلا أن تكون اللغة العربية لغة تعلم ليعتز الشاب العربي بلغته فيعتز بتراثه الفكري ويعتز بقوميته .

الكتاب العربي سلاحنا في الماضي والمستقبل :

من البديهي أن نشعر بالخزي حين نري كل شعب من شعوب العالم يعتز بلغته فيجعلها لغة العلم والدراسة والكتابة والحديث في البيت والشارع والمحافل الدولية ، وتبقي بعض شعوبنا تشكك في قيمة اللغة العربية ومقدرتها ؟! رغم أننا نعلم و نسمع أن دويلة إسرائيل قد أحيت اللغة العبرانية الميتة التي لا يعرفها إلا الإسرائيليون وجعلتها لغة التعليم في جميع مدارسها وجامعاتها ، في حين بقيت بعض الدول العربية تتردد في استعمال اللغة العربية كلغة تعليم ، وكلما خطت في هذا السبيل خطوة تراجعت خطوات؟!

وبعد ، لقد كان الكتاب العربي سلاحنا القوي للوحدة في الماضي فما أحراه أن يكون سلاحنا للوحدة في المستقبل .

تدوين المقال والرسائل في الأدب
منذ القرن الثاني للهجرة وحتى الخامس

يتناول تاريخ الأدب المدون الأمور التالية :

١. دراسة الأدب نفسه شعرا وكتابة وخطابه .
٢. دراسة الأدباء أنفسهم شعراء وكتابا وخطباء .
٣. التعرف بأهم الإنتاج الأدبي في كل عصر .
٤. تجلية الحياة الثقافية وبخاصة ما يتصل باللغة والأدب وعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف والسنة والسيرة والتاريخ والفقه وعلوم البلاغة فإذا ما أردنا بعض التفصيل قلنا :

في العصر الجاهلي يعرض تاريخ الأدب لنشأة اللغة العربية ولهجات القبائل ، واختلافها ، وأطوار تهذيب اللغة ، وأثر الأسواق التجارية والاجتماعات الأدبية وموسم الحج في تقارب هذه اللهجات .

ثم يعرض للشعر الجاهلي وأوليته وأنواعه من غزل وفخر ووصف ومدح وهجاء وفخر ورثاء وحكمة ، ويوثق هذا الشعر ، ويناقش دعوي أنه منحول كله ، ويثبت أصالة أكثره ، ويقتبس من هذا الشعر ، صور الحياة العربية المتعددة ، ويبين خصائصه الأسلوبية والمعنوية والخيالية ، ويوضح تأثره بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وتأثيره في العرب ويعرض لمكانة الشعراء في المجتمع العربي عند الملوك والأمراء ، وزعماء القبائل وعند الشعب ، ويترجم لبعض هؤلاء الشعراء

مثل امرىء القيس وطرفة وزهير ولبيد وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزوة وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وأمية بن أبي الصلت .

ثم يبين السبب في خلو الشعر الجاهلي من القصص ومن الملاحم ، ويعرض للقصائد السبع أو العشر المشهورة التى أطلق عليها بعض القدماء كلمة المعلقات ، ويناقش دعوى التعليق هذه (١)

ثم يعرض للنثر في العصر الجاهلي ولعوامل الشك فيه ، فيعرض للخطابة في العصر الجاهلي ، ويبين مكانتها وموضوعاتها ، وخصائصها الفنية ، وعادات العرب فيها ويدرس بعض الخطباء مثل قس بن ساعدة الإيادي وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ويعرض للأمثال العربية وبقاء كثير منها بنصه الذي قيل به إلى اليوم ، كما يعرض للحكم وللوصايا (٢)

٢. وفي صدر الإسلام يتناول تاريخ الأدب تبيين الآثار العظيمة للإسلام في نفوس العرب وفي لغتهم وفي أدبهم ، ويعرض للقرآن الكريم وبلاغته وإعجازه ، وللحديث النبوي الشريف وبلاغته وأثرهما في تغيير العقلية العربية .

ثم يتناول الشعر وموضوعاته ، ويهتم بما جد في الإسلام كالدعوة إلى الجهاد وإلى تقوى الله ، وبما أبطله الإسلام كالغزل الفاحش ، ويترجم لبعض الشعراء مثل الحطيئة وأبي الهذلي ومعن بن أوس والنابغة الجعدي والخنساء وحسان بن ثابت .

ويعرض للنثر ممثلا في الخطابة الدينية والحربية وفي الرسائل التى كان النبي عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون يرسلونها إلى ولاتهم وغيرهم ، ويترجم لبعض الخطباء مثل الإمام على بن أبي طالب .

وفي العصر الأموي ازدهرت الخطابة السياسية والدينية والعقلية وخطابة المحافل واتسعت دلالة كلمة أدب وأصبح لها معني جديد هو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب . ولا يجب أن ننسي أن العصر الأموي كانت فيه ثقافة أخرى هي القرآن الكريم والحديث الشريف وهذه هي الثقافة الدينية وارتقت الكتابة رقيا عظيما لاسيما كتابة الرسائل السياسية وعالجت مسائل العلم والتاريخ (٣) يوضح تاريخ الأدب فنون الشعر فيه من غزل ومدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف وحكمة وسياسة وعصبية ؛ ويعني بالحديث عن الغزل العذري وكثرته .

كما يعني بالحديث عن الغناء وأثره في الشعر ، وبالحديث عن كثرة الرجز ، وعن نشأة الرواية والرواة وكثرتهم .

---

(١) السيوطي المزهر جـ١ ص ٥٠٠ وأيضا الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٢٧١
(٢) البغدادي : خزانة الأدب طبعة بولاق جـ ٢ ص ٧٧ وأيضا الأصفهاني : الأغاني جـ١٥ ص ٥١
(٣) زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع القاهرة ١٩٥٧ جـ١ ص ٣٤

ويترجم لبعض الشعراء مثل الفرزدق وجرير والأخطل وعمر ابن ربيعة وجميل بثينة والكميت بن زيد وكثير عزة .

ويعرض للخطابة بأنواعها ، ويترجم لبعض الخطباء مثل الحجاج وزياد وقطري وأبي حمزة الخارجي وعبد الملك بن مروان .

ويدرس الكتابة الديوانية ، كما يعرض للكتابة العلمية ولبدء التدوين في علوم شتي مثل التفسير والحديث والفقه والنحو والتاريخ ، ويبين ما جد في الكتابة الديوانية ، ويترجم لأشهر كتاب المقال والرسائل في العصر الأموي وهو عبد الحميد بن يحيى

وفي أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة نشأت علوم اللغة العربية النحو والصرف والبلاغة واتسع نطاق كلمة أدب وألفت كتبه مثل البيان والتبيين للجاحظ ٢٥٦ هـ والكامل للمبرد ت ٢٨٥ هـ . وعيون الأخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ونجد في هذه الكتب اللغة والشعر والنثر والصرف والنحو والبلاغة والتاريخ لأنهم فهموا الأدب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة (١)

وفي العصر العباسي يدرس تاريخ الأدب الحياة السياسية الذي ينقسم إلى أربعة عصور ، لكل عصر منها طابعه وآثاره في حياة اللغة والأدب والثقافة والعلوم .

كما يدرس ما طرأ على العرب وعلى اللغة العربية من آثار اختلاطها بالأعاجم وبخاصة الفرس والاهتمام بالترجمة في الطب والفلك والرياضة والقصص ويعرض لانتشار اللغة العامية ، ويتناول العقلية العربية وتطورها وتأثير البيئات الجديدة من طبيعية وثقافية واجتماعية فيها .

ويتناول الشعر مبينا أغراضه المتعددة من مدح وهجاء ورثاء ووصف وغزل وسياسة وحكومة وشعوبية ونظم للعلوم والفنون ومجون وخمريات وزهد ، ومبينا خصائصه في معانيه وأخيلته وأساليبه وآثار العلوم والفلسفة والمنطق فيه .

ويترجم لبعض الشعراء مثل عبد الله بن المعتز والبحتري وأبي تمام وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء المعري وأبي فراس الحمداني ومهيار الديلمي .
ويعرض للكتابة ممثلة في الكتابة الديوانية وفي التوقيعات والرسائل الفنية والقصص والمقامات وفي لغة التأليف والتصنيف ، ويبين حياتها وأسباب رقيها في فترة وضعها ، ويترجم لبعض الكتاب مثل عبد الله ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والحريري وأبي حيان التوحيدي وبديع الزمان الهمذاني ، وإذ كانت القصص قد ازدهرت في ذلك العصر يعني تاريخ الأدب بنشأتها وأنواعها ويوازن بينها وبين القصة

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص ٣١٠ وأيضا السيرافي : أخبار النحويين البصريين . كرنكو ص ٢٢

كذلك يعني بالمقامات ، فيعرض لنشأتها ويعرف بها ، ويحلل مقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري المتوفى عام ٣٩٨ هـ والذي اشتهر بحافظة قوية شديدة ينشر أي قصيدة يسمعها واشتهر بسرعة ارتجالها وكان يعرف الفارسية ، ونال من التمجيد والثناء في القرن الرابع الهجري ما لم ينله غيره . وقد عني في رسائله بتطبيق أساليب التصنيع عناية فائقة . مع المبالغة والتهويل ... وكان يجنح للغريب والجناس وابتكر مقامات الحريري ... وهي قصص قصيرة تحفل بالحركة التمثيلية والحوار بين شخصيين . والمقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين يتخذون الأدب والشعر وسيلة إلى كسب المال (١)

ويعرض للخطابة في ذلك العصر والمناظرات الكلامية التى حمل لواءها المعتزلة أصحاب واصل بن عطاء والتى تظل أياما في أصول الدين ، فيبين أنها كانت في أول العصر العباسي قوية مزدهرة ثم جعلت تضعف حتى اقتصرت على خطب الجمعة والعيدين ، ويوضح خصائصها في فترة ازدهارها ، ويبين صفاتها في فترات ضعفها ، ويترجم لبعض الخطباء مثل داود بن على والمنصور والمأمون وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكي .
ولقد ازدادت دلالة كلمة أدب اتساعا في بعض فترات من العصر العباسي ، إذ دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعلمية ، فالفلسفة أدب ، والصيد والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب والأديب هو المثقف المستنير اللبق ، أدخل بعض العلماء في الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية متأثرين بأرسطو ، فقد سمي العلوم الرياضية الأدب في تقسيمه للعلوم المأثور عنه .

ولم يكن عجيبا أن إخوان الصفا تأثروا بهذا كله ، فأدخلوا في معاني الأدب أحيانا السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة .
وقد بدت ملامح المقال في الأدب العربي منذ القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة في رسائل الأدباء وفصول البلغاء التى تناولت أشياء من الفكر والاجتماع والأدب والنقد وعبرت عن ذاتهم وأفكارهم الشخصية والموضوعية في موضوعات محددة ، وصور مركزة .
كما حفلت الرسائل الأخوانية بموضوعات أنفرد الشعر بها – كالغزل والمديح والوصف والفخر والهجاء – تحمل سمات المقال ، وتبدو فيها خصائصه . ولولا تكلف الأدباء منذ القرن السادس الهجري المحسنات اللفظية والصور البديعة لتطورت الرسالة ، وكانت المثل المبكر لفن المقال ، كما عرفته الآداب الأوربية الحديثة . فقديما قال مفكروا العرب الأول : لكل مقام مقال .
وإذا تصفحنا كتب الأدب ، وتعرفنا على آثار أعلامه ، لوقفنا على أمثله مدونة في شتي النواحي الأدبية والفكاهية والسياسية والاجتماعية تؤيد ، وتدعم ما أذهب إليه فإلى بعض الأعلام وآثارهم :

---

(١) أنظر الفصل الخاص بهذه الثقافة في الجزء الأول من ضحي الإسلام لأحمد امين . وأيضا ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ٢ ص ٣٣٧

الحسن البصري توفى ١١٠ هـ :

ولد الحسن في عام ٢١ هـ أي في سنين حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان والده من أسري فارس واسمه يسار ، وأمه من اكسبايا آلت ملكيتها إلى السيدة أم سلمة أم المؤمنين وقد ولد الحسن في أحضان أم سلمة ، فتربى في أحضان النبوة ، وفاضت عليه أم المؤمنين ، بعطفها وشفقتها وقد التقي بالصحابة في عهد عثمان ، وتلقي عليهم وأخذ عنهم ، واختص بسير الآخرين حتى إذا جاء عهد على بن أبي طالب كان قد بلغ الرابعة عشرة من عمره ... تلقي علمه من أكثر من ثلاثمائة من الصحابة ، وكان مهتما بمعرفة سير السابقين من الرسل وأخبارهم ، وقد تضافرت الأسباب لكي تجعل من الحسن البصري عالما مخلصا تقي القلب . والتقي في عصره بنوعين من العلماء ، أحدهما علم النبوة الذي حمله الصحابة عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت ، **ومعاذ بن جبل** (١) ، وثانيهما علوم العقل العربي بعد الاختلاط بالأمم وتراث الحضارات والديانات القديمة . وقد أخذ من هذه العلوم ما يتفق مع الهوى الإسلامي

وفي عهده ظهرت الفرق والتشيع والخوارج، وكانت المناهج الفقهية قد بدأت تتميز ... وكان الحسن ذا ذكاء مدرك عميق ، حتى أن بعض شيوخه من الصحابة كان يحيل عليه ما يجيئه من الأمثلة في الدين ، واتصف بشجاعة الرأي . وكان ذلك في العصر الأموي ، وكان زاهدا مقبلا على الحلال من الطيبات ، ويستحسن الغناء الذي لا يختلط بإثم ، ولم يكن متعصبا ، يفتح صوره لكل أصحاب الديانات الأخرى ولذا كان يحضر دروسه اليهود والنصارى ، ويواسيهم ويعزيهم إن كان ما يوجب العزاء .

وكان الحسن فصيحا في العربية ، نشأ نشأة عربية ، وإن كان من أصل فارسي ، قالوا أنه تجول بوادي القرى . وقد مارس المواعظ ، وعمل على الدعوة إلى الحق ، حتى آتاه الله القول المبين ، قال فيه الأعمش فقيه العراق ومحدثه : " ما زال الحسن يعتني بالحكمة حتى نطق بها " . وقد قال بعض معاصريه إذ سمعه : " لله دره ، إنه لفصيح إذا لفظ ، نصيح إذا وعظ " . ولقد كان الحجاج يري أنه أخطب أهل البصرة

وهو في خطبه ومواعظه ذو لفظ سهل متخير عذب ، قد جملته معاني الدين والورع والتقي . وقد سمعته أم المؤمنين عائشة يتكلم ، فقالت "ومن هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين " .

---

(١) **معاذ بن جبل** : ولد في المدينة قبل الهجرة بعشرين سنة وقبل البعثة بسبع سنين ، دخل في الإسلام على يدي مصعب بن عمير وعبد الله بن مكتوب أثناء وجودهما في المدينة . حفظ القرآن ، وكان يتلوه كما أنزل وإن قراءته له كانت تخلب القلوب وتهز الأفئدة لجمال الصوت أو حسن الأداء والخشوع . وبرز معاذ أيضا في مجال الفقه والاجتهاد حتى أن النبي ﷺ وصفه : أعلمهم بالحلال والحرام . تقلد وظائف القضاء والتعليم في اليمن وجمع الصدقات من الحياة . توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه راجع ابن كثير : السيرة النبوية وأيضا ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٣ ص ٥٨٣

بهذه الصفات يعد الحسن البصري من أقوي رجال الفكر الإسلامي شخصية ، وأشدهم نفوذا ، أجلته العامة ، ورفعته الخاصة ، وهابه الحكام واستحيا من سمته القساة الطغاة .

وكان ذا سمت حسن ، في مظهره الجسمي قوة وجمال ، ومع ذلك كان سيدا في ذات نفسه ، قد استولي على أهوائه فجعلها أمة ذلولا ، فكان ذا خلق قوي ، لا يطلب من الناس أمرا إلا إذا كان هو أسبق إلى الأخذ به . قيل لبعض أصحابه الملازمين له : بأي شيء بلغ الحسن فيكم ما بلغ وكان فيكم علماء وفقهاء . فقالوا : كان إذا أمر بشيء أعمل الناس له ، وإذا نهي عن شيء أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط سريرته أشبه بعلانيته منه . ولهذه الشخصية القوية كان له أثر في كل الفرق الإسلامية التى ظهرت في عصره ، وكل فرقة تدعي أنه منها ، فالمعتزلة يدعون أنه كبيرهم وأهل السنة يدعون أنه منهم ، وهو بين الفقهاء والمحدثين الوعاظ في الرعيل الأول . (١)

علمه وآراؤه :

كان الحسن من أعلم السلف بسيرة النبي ﷺ ، وسيرة الصحابة ، وأخبار السابقين ، وكان من المحدثين الذين نقلوا علم الرسول عن طريق الصحابة ، وكان من الفقهاء المدركين ، وكان سيد الوعاظ ، وكان من الذين خاضوا بعض الخوض في علم العقائد الذي كان يبتعد عن القول فيه الفقهاء والمحدثون ، وهو بمجموع هذه العلوم كان فريدا . ولكنه في الحديث لم يبلغ مبلغ كباره كسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، ونافع مولي عبد الله بن عمر ، وعكرمة مولي عبد الله بن عباس والأعمش . ولم يبلغ في الفقه مبلغ إبراهيم النخعي ، ولا علقمة ، ولا ابن شهاب الزهري ، وبلغ في الوعظ والتأثير في الناس ما لم يبلغ أحد منهم ذلك .

ولذلك لم تؤثر عنه مجموعة فقهية كالتي أثرت عن غيره ، كما لم تؤثر مجموعات روايات من الأحاديث كالتي أثرت عن غيره من التابعين . ولكن أثرت عنه مع مواعظه آراء في أصول الدين ، وهي إن لم تجمع في مكان واحد ، تجدها قائمة في كلامه ، وأن كانت منثورة فيه . (٢)

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد . تحقيق أحمد أمين وآخرين القاهرة ١٩٥٣ جـ ٢ ص ٢٦٠ وأيضا الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٤

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٢ ص ٢١٦

المعرفة مقياس الأخلاق :

فهو يري أن الإيمان الصادق يدفع إلي العمل والمعرفة الصحيحة تدفع إلي الأخلاق المستقيمة ، حتى اعتبر مقياس الأخلاق الفاضلة هو المعرفة ، وأن ذلك الرأي منبث في كلام الحسن ، ومن ذلك قوله في إجابة من سأله عن الرجل بذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، فهو يقول " ما أعرف هذا من أخلاق المؤمنين " . ومن ذلك قوله أيضا : يري ذلك في خشوعه ، وزهده ، وحكمه وتواضعه " .

وإذا كان الإيمان يستلزم العمل حتما ، فإن مرتكب الكبيرة من الذنوب المصر عليها لا يمكن أن يكون عند الحسن مؤمنا ، إلا إذا تاب توبة نصوحا ، وأخلص من بعدها في العمل لله تعالي . (١)

مسألة مرتكب الكبائر شغلت عصر الحسن البصري :

ومسألة مرتكب الكبيرة شغلت العصر الذي عاش فيه الحسن ، فمن وقت أن خرج الخوارج على الإمام على بن أبي طالب ، وكفروه ، لأنه قبل التحكيم بينه وبين معاوية ، واعتبروا ذلك كبيرة – في زعمهم – توجب الكفر ، تكلمت في مرتكب الكبيرة كل الفرق الإسلامية . فالخوارج كما تري كفروه .والمعتزلة قالوا أنه ليس بمؤمن ولا بكافر ، بل هو في منزلة بين الإيمان والكفر ، ويصح أن يقال عنه أنه مسلم ، وهو مخلد في النار إن لم يتب توبة نصوحا .

والمرجئة قالوا : أنه مؤمن مقصر ، ولكن كان منهم أهل البدع الذين قالوا أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا يضر مع الكفر طاعة ، فهو إن كان مقصرا فهو غير مؤاخذ ، ورحمة الله وسعت كل شيء . ومن أولئك المرجئة من لم يقعوا في بدعة ، فإنهم قالوا : إن تاب توبة نصوحا فإن الله يقبل توبته ، كما وعد سبحانه بذلك ، وإن لم يتب فهو في أمر الله ومشيئته ، إن شاء عذبه بما ارتكب ، وإن شاء غفر له ، وإن الله يغفر الذنوب جميعا إن شاء الله ، وينسب ذلك القول إلى أبي حنيفة النعمان ، بل أنه لا يوجد في المأثور من أقوال أئمة الفقه ما يعارضه .

وكان رأي الحسن غير هذه الآراء جميعا ، فهو يري أن المذنب الذي لا يتوب توبة نصوحا لا يوجد عنده أصل الإيمان ، بل يعده منافقا في إعلانه الإيمان ، وهو غير مؤمن ، وهو يقول في ذلك : " الناس ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف وقومه ذكر يوم القيامة ، وأما الكافر فقد قمعه السيف وشرده الخوف ، وأما المنافق ففي الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة " . (٢)

---

(١) المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٤٩ وأيضا الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ١١٢
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٢ ص ١٦٣

ومسألة الجبر والاختيار شغلت عصر الحسن :

وهناك مسألة أخري شغلت عصر الحسن أيضا وهى مسألة الجبر والاختيار ، فالجهم بن صفوان ومن معه ، ادعوا أن الإنسان مجبر غير مخير ، ولا إرادة له فيما يفعل ، بل ينسب الفعل له ، وهو من الله . والمعتزلة قالوا أن العبد يخلق أفعال نفسه ، وهو محاسب بها ، وذلك بقوة أودعها الله إياه ، وبها كان الحساب والثواب والعقاب . والحسن قال أن الحسنات بتوفيق الله ، والمعاصي بعمل العبد ، وهو يقول في ذلك : " كل شيء بقضائه وقدره إلا المعاصي " . ويريد من ذلك أن المعاصي لا يريدها الله تعالي . (١)

معاوية اغتصب الخلافة عند الحسن البصري :

والحسن كان يري أن الخلافة انتهت بالراشدين ، وأن معاوية اغتصبها ، وأنه ليس في بني أمية عادل إلا عمر بن عبد العزيز ، ومع ذلك كان لا يدعو إلى الخروج عليهم ، ويمنع معاونة الخارجين ، لأنه يري أن وجود حكومة أولي بالإتباع من الفوضى ، لأنه كان يري أن الفتن يقع فيها من المظالم ما لا يقع من حاكم مستبد في سنين ، وكان يري في هذا أن الحكام لون من ألوان الشعب ، فإن استقام استقاموا ، . ووجد قوما يدعون على الحجاج ، فقال أخشي إن عزل الحجاج أو مات تول عليكم القردة والخنازير . " كما تكونون يولي عليكم " .

وكانت فيه محبة لآل على ، فإنه عندما بلغه مقتل الحسين رضي الله عنه بكي وانتحب ، وقال واحسرتاه ماذا لقيت هذه الأمة ، قتل ابن دعيها ابن نبيها ، اللهم كن له بالمرصاد ، " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " .

وللحسن البصري رسائل عظيمة جليلة : ، لعبت دورا هاما في حياة الناس الاجتماعية اعتمدت فيها على الأسلوب السهل الذي يخاطب الوجدان ، وينادي القلب ويغوص إلى أعماق النفس فيهزها بما يسرد من أمثلة ، ويقدم من صور . مثل رسالته التى كتبها للخليفة عمر بن عبد العزيز في صفة الإمام العادل ، ومما جاء فيها : أعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، وإنصاف كل مظلوم ، ومفرغ كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الذي يرتاد لها أطيب المراعي ويذودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكتقيها من أذي الحر والقر...

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .....

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ١١٤

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولازمه ، فتبؤ بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك .

والرسالة طويلة تتميز بالأسلوب الوعظي الذي يقوم على تبصير الناس بأحوال دينهم وأخرتهم . وتعد نوعا من المقالات الاجتماعية التى تهدف إلى بث المثل الأخلاقية الجيدة . (١)

عبد الحميد ابن يحيى الكاتب
ت ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م
(العصر الأموي)

عبد الحميد بن يحيى مولى فارس لبنى عامر نشأ بالشام فى أخريات الدولة الأموية ، ونجمها إلى غروب، كان فى أول الأمر معلما ينتقل، ثم كتب بديوان الرسائل فى عهد هشام بن عبد الملك ورئيسه آنذاك سالم ، فتخرج عليه . ثم عرفه مروان بن محمد – وكان واليا على الجزيرة وأرمينية – فأتخذه كاتبا له، فلما تولى الخلافة سنة ١٢٧هـ (٧٤٤ م) عينه كاتب للدولة ثقة به، ورغبه فى الانتفاع بعمله وذكائه وخبرته. ولقد توالت المحن على مروان فى السنوات الخمس التى قضاها خليفة إلى أن هرب إلى مصر وتبعه العباسيون إليها فقتلوه وانتهت الدولة الأموية بمقتله، وأثناء هذه المحنة لم يفارق عبد الحميد مروان بن مر ، وإن كانت الروايات يؤكد أنه قتل معه . وأما عن ثقافته فقد تزود عبد الحميد من القرآن واللغة الشعر والأخبار و****وتتلمذ فى الديوان لزوج أخته سالم مولى هشام بن عبد الملك ورئيس ديوان الرسائل فى عهده . وأغلب الظن أن الصلة التت قامت بين عبد الحميد وسالم عرفته بعض ما يتبعه اليونان فى نثرهم ورسائلهم، إذ كان سالم متمكن من اللغة اليونانية حيث يترجم فيها ، وهو الذي ترجم بعض رسائل أرسو إلى الإسكندر ، كما أن صداقته لابن المقفع كشفت له عن النثر الفارسي واليوناني معاً ، فمن المعروف أن ابن المقفع كان يجيد الفارسية ، وقد ترجم منها كتاب كليلة ودمنة، والأدب الكبير والأدب الصغير، ولعله أيضاً كان يعرف اليونانية ، وذلك لأنه قام بترجمة بعض كتب أرسو فى المنطق والجدل والقياس. إلى جانب أنه مارس الكتاب فى العصر الأموي حيث كتب لداود بن عمر بن هبيرة، ثم كتب لعيسى بن على عم الخليفة المنصور. وبهذا استطاع عبد الحميد بن يحيى بامتلاكه ناصية اللغة العربية وحذفه لها ، وإلمامه إلمام علم و معرفة ببعض النظم المتبعة فى اللغة اليونانية والفارسية أن يجد فى النثر الفني العربي حتى عدت القمة التى وصل إليها النثر الفني فى عهده منسوبة إليه .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥

تميزت كتابة عبد الحميد بعدة خواص ، بعضها جديد أو فيه تجديد ، حتى لقد خيل إلى بعض الدارسين منذ عهد بعيد أن عبد الحميد أول كاتب، فالأدب عرف كثيراً من الكتاب أصدق عاطفة منه ، وأرقى فكراً، وأجود أسلوباً ، *** المتوفى ٤٠٢هـ ، إلا أنهم لا ينالوا من الشهرة مثل ما نال عبد الحميد لأنه كان وزيراً، وكانت له حاشية تدعوا له وتذيع اسمه، وتبالغ فى وصفه، ولم يكونوا هم كذلك، والحق أن النثر الفني كان معروفاً قبل عبد الحميد فلم يخترعه أو يستدعيه ... وإنما كان النثر الفني قد بلغ طورا من النضج ومن التطور قبل عبد الحميد ثم جاء عبد الحميد فظهر هذا التطور على قلمه فتوافرت براعته الأدبية ليس فى صنع رسالة فحسب وإنما أيضا تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولهذا حق للنثر الفني أن يتطور تطوراً واسعا عن عبد الحميد . وأن يشتهر بصناعة الكتابة حيث جدد فى الشكل برع فى الصياغة وأجاد التعبير عن المعاني وتأنق فى اختيار الألفاظ والمفردات الدالة ، وأخذ نفسه فى تقسيم الجمل كي تتساوى فى طولها، كأنما قد وزنها. وعنى بالخيال وبالتضاد فى طباق أو مقابلة ليزيد الفكرة وضوحا وتأييدا .

ولا شك أن أبلغ كتاب العصر الأموي هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب وقد سماه الجاحظ فى بيانه عبد الحميد الأكبر، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجا لهم وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : فتحت كتابة الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد . ولكم كان أبى العباس القلقشندى بارعاً وأميناً حين أشار إلى الأستاذ الأول لفن الكتابة العربية ، فذكر أنه وضع الأساس الأول لآداب هذه الكتابة فى رسالته التى عنوانها: " إلى الكتاب، والتي أولها " أما بعد .. حفظكم الله يأهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإن الله عز وجل – جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وبعد الملوك المكرمين أصنافاً وإن كانوا فى الحقيقة سواء، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة، والعلم والرواية، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون، فليس أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب، فتناقشوا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين .. وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل، ثم بالعربية فإنها ثقاب ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، واقرؤوا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تصبوا إليه هممكم، وتحابوا فى الله عز وجل وفى صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

ويمضى عبد الحميد الكاتب فى رسالته ليحدد للكتاب ما ينبغي أن يكون عليه طعامهم وسكنهم، بالبعد عن التبذير، ويحذرهم من الانشغال بالتدبير عن العمل. ويحذرهم من الغزو ." ولا يجاوز الرجل منكم – فى هيئة مجلسة ، وملبسه، ومركبه، ومطعمه ومشربه، وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره – قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم – خدمة لا تحملون فى خدمتكم على

التقصير، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التصنيع والتبذر، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرتم لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متآلف الشرف، وسوء العاقبة في الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلها، ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب .

واعلموا أن التدبير آفة متلفة وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن نفاذ عمله ورؤيته، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه، وليود في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعه للشاغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه ، وامداده بتسديده ، مخافة وقوعه في جميل صنعته، وقوة حركته، وإنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على ما تأمله غير جاف .

ولا يقل أحد منكم انه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير، من مرافقه في صناعته، ورأى أن صاحبه أعقل منه، وأحمد في طريقته، وعلى واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله عز وجل تناوه ، من غير اعتزاز برأيه، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيرة، وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته، بل أن عبد الحميد الكاتب في هذه الرسالة يوصى الكتاب بالدور الذي تقوم به في حياتنا المعاصرة اتحادات الكتاب في الرعاية الاجتماعية لأعضائها، إذ يقول:" وأن نبأ الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه، وشاوروه، واستظهروا بفضل تجربته، وقدم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه احفظ منه على والده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمدة ، فلا يضفيها إلا إلى صاحبه، وان عرضت مذمة فليحمها هو من دونه، وليحذر السقطة والزلة، والملل عند غير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب ، أسرع منه إلى القراء ، وهو لكم ، أفسد منه لها "

ويحدد عبد الحميد الكاتب دوره عند توليه مسئولية قائلا:" وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفاً ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكماً، وللأشراف مكرما، وللغى موفرا، وللبلاد عامراً، وللوعيه متآلفاً، وعن إيذائهم متخلفاً ".

ويمضي عبد الحميد مع الكتاب يوجههم بأسلوب التغيير الذي ينبغي أن يلجأ إليه الكاتب قائلاً: " وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألف حيلة وأجمل وسيلة، قد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهجها شبوبا أتقاها ممن قبل يديها، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها في طريقها فإن استمرت عطفها يسيراً ، فليس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم، وجربهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، شريف صنعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو جاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه، ومدارته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التى لا تحير جوابا، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، إلا فأمعنوا – رحمكم الله – فى النظر، واعملوا فيهما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة، والاستثقال والجعفرة، ويصير منكم إلى الموافقة، ويصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله تعالى ".

قد يغضب القارئ المعاصر أو يضحك من تشبيه عبد الحميد لمهمة المؤلف بمهمة البهيمة ولكن التشبيع فى عصر عبد الحميد لم يكن يثير غضباً ولا ضحكاً ، بل كان متوافقاً مع ظروف العصر والبيئة .

ورسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب معروفة وجميلة، وهى من عيون النثر العربي إلى يومنا هذا...ثم هى جماع الأخلاق والفضائل التى يجب أن يتحلى بها الكاتب قديماً وحديثاً .

وهكذا كانت مدرسة عبد الحميد بن يحيى ، التى تعتبر امتدادا طبيعيا لمدرسة الكتابة ، التى بدأت بحيي بم يعمر وأمثاله كالحجاج وقطري بن الفجاءة . لقد جعل عبد الحميد بن يحيى من الكتابة مهنة لها مبادئ وأصول وتقاليد ودستور ، فصلها فى دراسته المشهورة إلى الكتاب ، التى بين فيها مكانة الكاتب وشرف مهنته . كما ركز على الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الكاتب من خلق وعلم وأدب وفقه ودين، وحفظ لكتاب الله وتعلم اللغة ورواية للأشعار ومعرفة بأيام العرب والعجم ، ثم هو يحضهم فيها على احترام الناس ، ويطلب منهم الكياسة والنظافة والأناقة . كل ذلك فى رسالته المطولة التى جعلت منه إماماً لمدرسة الكتاب .

عبد الله ابن المقفع
(١٠٦ ـ ١٤٢ هـ) (٧٢٤ ـ ٧٥٩)

هو عبد الله بن المقفع ، والده من مدينة جوز في بلاد فارس ، سعي في تحصيل الثقافة الفارسية ثم توطن والده البصرة وكانت مجمع رجال العلم والأدب ، وفيها منتدى الأدباء والشعراء بعد أن أصبح يافعا تعلم العربية وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة واجتمع له عاملان هامان : عامل الثقافة الفارسية وفيها ثقافة اليونان والهنود وعامل الفصاحة العربية ، فقابل الدنيا بسلاح الفكر وسلاح اللسان ، وما هو إلا زمن قصير حتى أصبح للشاب الفارسي حديث في العلم والفصاحة يمكن اعتباره أهم نقلة في تاريخ اللغة والأدب العربيين في مضماري الأسلوب والمضمون ، وهى نقلة دعا إليها أمران : انتقال العرب من حياة البداوة إلى حضارة المدن ، ثم تغلغل غير العرب في مجال التأليف الأدبي ... (١)

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٢ والجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٣٥٥

لقد فشل الشعوبيون الذين ادعوا تفوق الشعوب غير العربية على الشعب العربي ، في الانتقاص من مكانة اللغة العربية ، واعترفوا بأن لغة القرآن قد صارت عند المسلمين ، أيا كانت لغتهم الأصلية ، جزءا لا ينفصل عن حقيقة الإسلام ... غير أنهم استنكروا أن تظل القواعد العربية تعتمد كلية على الاستعمال اللغوي عند عرب البادية ، لا يسوق واضعوها في شواهدهم شاعرا محدثا فقط . وساءهم أن يعد البدو حجة لا يعتروها الشك في جميع مسائل اللغة ، وأن يكون أبلغ أيات التقريظ التي توسم بها لغة أحد الكتاب أو المثقفين أنه ينطق أو يكتب كما يتكلم البدوي . غير أن حياة الأمة – خاصة منذ بداية العصر العباسي – كانت بعيدة عن حياة البدو بعدا كبيرا ، وكان أصحاب النفوذ في تلك الدولة ، ومعظمهم من الفرس ، لا يشعرون بالصلة النفسية الداخلية بحياة العرب وطبيعتهم وقيمهم الخلقية والفنية ، وما كان بوسعهم أن ينطقوا كما ينطق البدو ، ولا أن يصبوا أفكارهم الحديثة الثرية العميقة في قوالب اللغة القديمة ، فكان لابد من تغيير جذري في أساليب العربية ، وتطوير اللغة تطويرا يساير ما طرأ على حياة الأمة من تغيير ، ويسمح بالتعبير عن أفكار ومعان لم تخطر ببال العرب قبلهم .

وقد كان ابن المقفع هو الرائد في هذا المجال . طرح العربية القديمة جانبا ، واتخذ العربية مثله الأعلى وتبني أسلوبا عربيا شفافا مبسطا يتكيف وفق الأغراض والمعاني . كما طرح الثروة الفياضة في المادة البدوية القديمة ، ومترادفاتها الخاصة بعالم الظواهر ، واتجه إلى التبسيط الموائم للهدف ، والتركيب النحوي الواضح ، وتجنب الجمل التعبيرية المتنوعة الدلالة ، وتصفيف الكلام ، وصيغ التعجب والاستغاثة ، والتداخل العسير الفهم ، وكل ما شاكل ذلك مما يستفيض في لغة البدويين.

كان يري أن تقليد القدماء حجرة عثرة في طريق كل تطور في الأسلوب . فاختار لموضوعاته أسلوبا أنيقا رائقا ، وبيانا ناصعا شفافا لم يسبق إليهما ، وحرص على التخلص من الطابع الوحشي للعربية القديمة ، وأن يستبدل لغة سهلة منسكبة واضحة . هي في استوائها وعذوبتها في متناول الإفهام .

وسرعان ما احتذيت لغة ابن المقفع ، واستخدمت في الأدب من قبل المثقفين والكتاب في العالم الإسلامي .

وإذا كانت ثقافة ابن المقفع مدينة في أكثر معانيها للفرس ، وكان هو شديد التحيز لهم ، راغبا في إحياء أمته بنشر آدابها وسياستها وتاريخها ، فقد كان أسبق من كتب العربية إلى تطعيم أدبها بالتأثيرات الأجنبية ، وتوسيع أغراضها ومعانيها ومفاهيمها

---

(١) كرد علي : رسائل البلغاء ط ٣ ص ٣٥

وقد ترجم إلى العربية كتبا كثيرة من اللغة الفارسية ، فكان بذلك أول دعاة الوحدة العقلية التى تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر الأجيال والقرون بين أمم الشرق ، اختلافها ، والتى حققته الثقافة الإسلامية بعده على أحسن وجه أيام كانت هذه الحضارة الحية قوية مؤثرة في حياة الأمم والشعوب .

وقد ترجم كتاب " كليلة ودمنة " (١) إلى أكثر من عشرين لغة ، أخذ معظمها عن الترجمة العربية لابن المقفع . وكان للكتاب بالأخص أثر عميق في الأدب العربي ، إذ حذا الكثيرون حذوه ، سواء في أسلوبه أو في استخدام الرمز الذي يمكن به استنكار معايب الحياة السياسية والمظالم الاجتماعية في العهود التى تغيب فيها حرية التعبير الصريح عن الرأي .

وقد أراد ابن المقفع نفسه تدارك عيوب النظم الاجتماعية والسياسية في العصر العباسي عن طريق الدعوة إلى تطبيق الصالح من النظم الفارسية . وكان لفكرة الأصيل فضل آخر ، فهو أول من أوضح من العرب أن نبل الأخلاق قد يأتي عن طريق الفكر والفلسفة كما عن طريق الدين . وفي رأيه أن رجال الخلق قد يكون خلقهم تدينا أو تفلسفا .

وكان يفخر بأن باعثه الخلقي فلسفي محض ، إن تمسك بالمكارم فلأن في المكارم شرفا ورفعة ، ولو لم يأمر بها دين لكانت في ذاتها مطلبا نبيلا . فهو رجل مدني وعالم مدني ، لا رجل دين ولا عالم دين . إن كتب في الإيمان لم يورد ما يشهر بإلمامه بتفاصيل دين بعينه ، وإن تعرض للأخلاق بررها تبريرا عقلانيا محضا ، وقل أن يستشهد في دفاعه عنها بآية أو حديث .

عبد الله بن المقفع هو أحد رواد التصنيف والترجمة عن الفارسية . بل هو يمثل مرحلة تطور طبيعي من ساحة الكتابة إلى ساحة التصنيف التى تؤدي بعد ذلك إلى مرحلة التأليف . وليس ذلك عليه بكثير ، فقد نشأ في البصرة عند بني الأهتم الفصحاء ، وخالط الأعراب ، وأخذ عنهم الفصاحة واستقامة الكلام . ثم اتصل بحكام بني أمية على عهد مروان بن محمد وعمل كاتبا لهم ، أي أنه كان سوي العود مكتملا أسباب الثقافة العربية التى تؤهله للكتابة في الربيع الأول من القرن الثاني . بعدها اتصل بعيسي بن علي – عم السفاح ، أول العباسيين – وأسلم على يديه ، أي على يد عيسى ، وتسمي باسمه هذا الذي يعرف به كتب الأدب والتاريخ ، بعد أن كان معروفا باسم روزبه ابن دادزويه . عاش عبد الله بن المقفع حتى زمن أبي جعفر المنصور ، الذي قتله سنة اثنتين وأربعين ومائة هجرية لأسباب اختلف حولها جمهرة الرواة .

---

(١) نال هذا الكتاب من الشهرة والنبوغ في مشارق الأرض ومغاربها ما لم ينله كتاب غيره ، ويعد المعلم الأول لكل ذي حكمة وبيان ، وهو هندي الأصل وصنعه بيدبا الفيلسوف الهندي ، ولكن الفرس زادوا فيه ، وصبغوه صبغة فارسية ، وهو النواة التى نشأ من حولها الأدب القصص عن الحيوان والطير والحشرات .
راجع عيسى ناصر : كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع . تراث الإنسانية العدد ٣ المجلد الرابع ص ١٧٩ وما بعدها وأيضا عبد الوهاب غرام : مقدمة كليلة ودمنة دار المعارف ص ٣٥ وما بعدها

هذا وقدم ابن المقفع ثلاثة أعمال أدبية وعملا واحدا مترجما . وأما الأعمال الثلاثة فهى كتاب الأدب الصغير ، الذي كان القصد منه تهذيب النفس حيث أشتمل على أقوال حكيمة ونماذج أخلاقية . وتغلب على الكتاب صفة الجمع أكثر من صفة التأليف ثم كتاب " الأدب الكبير " أو الدرة اليتيمة ، وهو مجموعة أكبر من القول الحكيم ، ومزاج من أمثال وثقافات متعددة المنابع والمصادر ، بين فارسية ويونانية وإسلامية . والعمل الثالث هو " رسالة الصحابة " وليس المقصود بالصحابة هنا صحابة رسول الله ﷺ ، وإنما الذي قصده الأصحاب المقربون إلى الأمراء والخلفاء . وهذه الرسالة تشكل نقدا لنظام الحكم وتوجيها له وقد كتبها لبنيياس .

وأما العمل المترجم فهو كتاب " كليلة ودمنة " .والكتاب هندي أصلا نقل إلى البهلوية على أيام كسري أنوشروان ، ثم تولي ابن المقفع نقله من البلهوية إلى العربية الناصعة البليغة ، حيث يعرف أسلوبه فيه بالأسلوب السهل الممتع .

" ينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : احدها وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ، والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه . والغرض الرابع – وهو الأقصى – مخصوص بالفيلسوف خاصة " .

وهكذا يكون ابن المقفع قد صرح في مقدمة كتابه بثلاثة أغراض ظاهرة سطحية وكتم الغرض الأساسي من هذا الكتاب القيم المشهور .

وقد دخل كتاب ألف ليلة وليلة وعي أفراد الشعب العربي وخالط تكوينهم الذهني ، وتوالت طبعاته في العالم العربي منذ بداية الطباعة فيه وإلى اليوم ، و لقد جعل عبد الله بن المقفع نفسه من المنصور العباسي بمثابة بيدبا الفيلسوف الهندي من الملك الهندي دبشليم ، وهو لذلك يقول في مقدمة الكتاب : " فلما استوثق له الأمر ، واستقر له الملك ، طغي وبغي وتجبر وتكبر . وجعل يغزو من حوله من الملوك ، وكان مع ذلك مؤيدا مظفرا منصورا ، فهابته الرعية . ولما رأي ما هو من الملك والسطوة عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم .... إلى آخر المقدمة "
والواقع أن الذي يهمنا هنا هو هذه اللغة السهلة ، وهذا الأسلوب الواضح الرائق ، الذي وصل إليه القلم العربي (١) ، فأصبح العقل من خلاله قادرا على التعبير والابتكار والتأليف والترجمة فابن المقفع يعتبر ظاهرة واضحة المعالم في مرحلة التأليف الفكري العربي .
ويكفي القول بأنه لم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربي شيئا في الأدب والعلم لا تحس فيه أثر اللغة والمنقول عنها إلا ابن المقفع . فترجماته آية في البلاغة العربية التى توصف بالسهل الممتنع .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء جـ١١ ص ٢٦٧ وأيضا كرد علي : رسائل البلغاء ص ٣٦

ابن المقفع ، وهو الذي خلف قلمه للناطقين بالعربية ثروة من الفكر والبيان تتلمذت عليها القرون التى تلته ، حتى لقد قيل إن كتاب العربية يدينون بطريقة الترسل في صناعة الكتابة لعلمين من أعلام العصر العباسي : أولهما عبد الحميد الكاتب ، وثانيهما عبد الله بن المقفع .

والصفحة التى أود عرضها هي مجموعة أرائه في الصداقة والأصدقاء كما كتبها في كتابيه " الأدب الصغير " و" الأدب الكبير " . ولابد من مصارحتكم بأنه لم يكتبها مرتبة مبوبة متتالية كما سأعرضها عليكم ، لأن هاتين الرسالتين ليستا إلا مجموعة من أفكاره وآرائه لم يعمد فيها إلى التبويب العلمي ، والتنسيق المنطقي ، وبعبارة أخري : إن ما ستسمعونه هنا هو أفكار ابن المقفع ، غير أن جمعها ، وترتيبها ، وربطها بعضها ببعض هو من الأمور المستحدثة.

والمتتبع لكلام ابن المقفع في " الصداقة " لا يمكن أن يخطيء أن له فيها رأيا ممحصا ، لأبد أن يكون قد أعمل فيه الفكرة ، واستخلصه من تجاربه . وإذا صح الاستنباط من أن آراء ابن المقفع في الصداقة ثمرة تجاربه الشخصية فلابد أنه كان سعيدا محبوبا في أصدقائه ، على خلاف المتنبي مثلا ، فله في الصداقة رأي يخالف رأي كاتبنا العباسي ، لأن المتنبي كان شقيا في حياته ، منكودا في أصدقائه أو لعلهم كانوا هم المنكودين فيه .

اختيار الأصدقاء والصفات اللازمة فيهم :

" أعرف الفضل في أهل الدين والمروءة في كل كورة ، وقرية وقبيلة فليكونوا هم إخوانك وأعوانك ، إخوانك وأصفياءك ولطفاءك ، وثقاتك وخلطاءك " الأدب الكبير (١) : " إذا نظرت في حال من ترتاد لإخائك فإن من كان من إخوان الدين فليكن فقيها ، غير مراء وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرا ليس بجاهل ولا كذابا ولا شريرا ولا مشنوع " .

ونحن نري أنه يشترط في الصداقة سلامة الدين والمروءة والسماحة والعلم والصدق والسلامة من الشر والشناعة ، وجدير بنا أن نلاحظ أن الكاتب لا يتقيد في اختيار أصدقائه بخطوط الطول أو العرض ، بل يبحث عن أصلحهم في كل إقليم وقرية وقبيلة . ولاشك أنه في هذا يردد رأي الإسلام الذي سوي بين جميع الناس – لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

- حرمات الصداقة : وماذا يقدم ابن المقفع لمثل هذا الصديق الذي يشترط فيه كل هذه الشروط ؟ والجواب عن ذلك صريح فيما ينادي به الكاتب من معاملة الأصدقاء ، فارقا بينهم وبين المعارف الذين يقلون عنهم درجة ، والعامة الذين لهم حق دون ذلك ، غير ناس معاملة الأعداء . استمعوا إلى أبلغ ما كتب في هذا الصدد : " أبذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ، ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك ، وإنصافك ، واضنن على كل واحد بدينك وعرضك " (٢)

---

(١) ابن المقفع : الأدب الكبير ص ٧٤
(٢) ابن المقفع : الأدب الكبير ص ٦٢

ويكرر هذا الرأي مرة أخري إذ يقول : " لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل وفيما بينك وبين صديقك الرضاء . وذلك العدو خصم تصرعه بالحجة وتغلبه بالحكام وإن الصديق ليس بينك وبينه قاض فإنما حكمه رضاه " . (١)

• **الثقة بالصديق :** ومثل هذه الصداقة لا تخضع لهواجس الريب ، ومزعجات الشكوك ، فلاحد للثقة القائمة بين الصديقين حتى لو رأي أحدهما صاحبه يخالط عدوه لم يقلق لذلك ، فإنما هو أحد رجلين : إن كان رجلا من إخوان الثقة فانفع مواطنه لك أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك ، أو لعورة يسترها منك ، أو غائبة يطلع عليها لك . فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ثقتك وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأي حق تقطعه من الناس ، وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟ (٢)

• **والتسامح معه :** وطبيعي أن يسود هذه الصداقة جو من التسامح الذي لا يفتأ بن المقفع يصفه لنا بعبارات متعددة : " انظر من صاحبت من الناس ، من ذي فضل عليك . بسلطان أو منزلة أو من دون ذلك من الأكفاء والخلطاء والأخوان فوطن نفسك في صحبته على أن تقبل منه العفو ، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك قبله ، غير معاتب ولا مستبطيء ولا مستزيد " . (٣)

ومثل هذه الصداقة لا تنقطع : فابن المقفع حين يصطفي خليلا لا يفرط فيه ولا تجد التهمة إلى قلبه سبيلا . فهو ليس كالمتنبي الذي يشك في كل صديق ، ولا يأمن صاحبا :

ولما صار ود الناس خبا ... جرت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام

بل هو إذ يتخذ صديقا يتخذه مدي الحياة :

" أجعل غاية نيتك في مؤاخاة من تؤاخي ومواصلة من تواصل توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك ، وإن ظهر منه ما تكره ، فإنه ليس كالملوك الذي تعتقه إذا شئت ... ولكنه عرضك ومروءتك . فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه ، فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلا من إخوانك – وإن كنت معذرا – نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال فيه .. " . (٤).

---

(١) المرجع السابق ص ص ٧٢ – ٧٣
(٢) المرجع السابق ص ص ٦٦ – ٦٧
(٣) المرجع السابق ص ١٠
(٤) المرجع السابق ص ٧٣

ويزيد ذلك وضوحا إذ يقول: " والمودة بين الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك مثل كوب الذهب هو بطيء الانكسار ، هين الإصلاح . والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها ، بطي اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدني عبث . ثم لا وصل له أبدا . (١)

والكريم يمنح الرجل مودته عن لقيه واحدة ، أو معرفة يوم ، واللئيم لا يصل أحدا إلا عن رغبة أو رهبة " .

وقد أعدم ابن المقفع في عهد الخليفة المنصور ، قيل بتهمة الزندقة ، وقيل بسبب رسالة أرسلها إلى الخليفة وتعرف باسم " رسالة الصحابة " التى نقد فيها نظام الحكم وبين وجوه إصلاحه ، وكان وقت مقتله في السادسة والثلاثين من العمر .

---

(١) ابن المقفع : الأدب الصغير ص ٧١

الجاحظ (١٥٩- ٢٥٥ هـ)

هو أبو عثمان بن بحر بن محبوب. لا يدانيه كاتب في سعة ثقافته.وكان دائرة معارف عصره. يتميز أسلوبه برشاقة وخفه وسلاسة بيان. كتب في السياسة والاجتماع والاقتصاد والحيوان والنبات ونحو ذلك. رسائل وفصول من الآثار الخالدة للنماذج العليا للمقال في الأدب العربي القديم. ولما كان الجاحظ رجل يتمتع بعقليته غاية في النشاط وكان يميل إلى الفكاهة ولذا نري مؤلفاته يشيع منها الاستطراد والاسترسال بأسلوب شيق ممتع ، مع خبرة بأهل عصره وتغلغل في أسرار مجتمعه وإحاطة بكل ما يجري حوله .

ويتفجر العصر العباسي، من خلال معارفه الزاخرة، ونشاطه الحضاري الكبير، ترجمة وتعريبا وتأليفا ودفاعا عن العربية وهجوما عليها (فيما يسمى بالشعوبية) ، يتفجر هذا العصر عن الجاحظ – شيخ العربية، الواسع الانتشار، الغزير الإنتاج، الذي يصطنع لغة الاتصال الحية بالجماهير كما ينبغي أن تكون.

فقد انتشر ظواهر الجدل والمناظرة في عصر الجاحظ انتشارا اعترف به حيث يقول " وقد تناولت المناظرات كل جوانب المعرفة وكأنما كانت المناظرة والمحاورات لغة العصر مناظرات ومحاورات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي حيث روح المناظرة أصبحت شهور من الشهوات العقلية ومن المؤكد: إن احتدام النزاع بين الفرق المختلف قوى روح الجدل في البيئة العباسية، ولكن ذلك لا يحل المشكلة لأن دائرة المناظرات قد اتسعت حتى شملت كما يقول كل شئ فهناك مفاخرات ومناظرات بين بعض البلدان، وبين أصحاب المهن المختلفة بل وبين الحيوانات المختلفة كالكلب مع الديك والمعز مع الضأن وأخرى بين الصيف والشتاء وبين الأسود والأبيض، وبين الجواري والغلمان. ولقد كان هناك تحزب من جانب الأعاجم ، وتعصب من جانب العرب ، وصراع بين الأفكار وجوانب كلامية ومناقشات كلها تذوب فيما يكتب الجاحظ . لكي يظل الكاتب الإنساني للعرب الذي أسهم في تكوين الفكر في هذه الفترة وما بعدها . فقد أعطي بعض الأبعاد الجديدة للكثير من قضاياهم الأخلاقية وأفاض من سخريته وذكائه لكي يخرج بالنثر العربي من حدوده الكلاسيكية إلى حيث يصبح ظاهرة اجتماعية .

كان الجاحظ دائرة معارف زمانه، كتب وألف في كل شئ، كتب عن الإنسان والحيوان والطير والنبات والطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة والدين والأخلاق والطباع والتربية والتعليم، وكتب عن البخلاء وعن البيان والتبيين وعن أخلاق الملوك، وألف عشرات الرسائل عن المغنين والنساء والقرآن والنبوة وصناعة الكلام والتجارة .. إلى آخر هذه الآثار، والتي تنطق بعبقرية هذا الكاتب الفذ، الذي استحدث في النثر العربي لغة جديدة هي التي نسميها اليوم: لغة الاتصال بالجماهير، لغة مرنة طيعة، تمزج بين الجد والهزل، والسخرية والتظرف، بين نوادر المولدين وكلام الثقات العارفين، بين حكمة الهند وفلسفة اليونان وآداب الفرس وشعر العرب وكل ما

عرفه الفكر الإنساني في عصره من علوم وآداب ومعارف، بين عقل العالم الحصيف وروح الفنان الخلاف المتمرد الجموح ..

ونتأمل هذه الكلمات النافذة، التي يضع الجاحظ من خلالها دستور لغة الاتصال بالجماهير- وهو أستاذها المعلم- لمن في عصره، ولمن سيجيء من بعده، وكأنه يتحدث إلى كل الأجيال من بعده .. فيقول: " ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك المعاني .. وقبيح" بالمتكلم أن يفتقر إلي ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا حدث أو خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل .. ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل. (١)

ثم يستطرد الجاحظ، محددا خصائص لغة الاتصال بالجماهير، كما نطالعها من خلال كتاباته وآثاره، بعيدة عن الحوشية والتقعر والإيغال في الغلظة والصعوبة، يقول الجاحظ: " فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المتعقد، مغرقا في الإكثار والتكلف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموض علي السامع، بعد أن ينسق له القول، وما زال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة،فالمعنى بعد مقيم علي استخفائه، وصارت العبارة لغوا وظرفا خاليا" .. هذه الدعوة إلى لغة سهلة ميسرة واقعية، تلائم مستويات التعبير ومقتضياته، وتحقق النظرية البلاغية المأثورة: " لكل مقام مقال "، لغة تحفل بالاستطراد والتكرر تأكيد لمعنى أو إبرازا لصورة مرسومة، غنية بمصطلحات العصر ومفاهيمه ومواضعاته، تخاطب السوق والخاصة، هي الدستور الأول للغة الاتصال بالجماهير التي اصطنعها الجاحظ، ونفض بها عن الصدور لغة التراث الجامد المحافظ، لغة الدواوين والصنعة والتكلف، وفتح بها ميادين جديدة للتعبير عن كل موضوعات العصر ومستحدثاته وأفكاره وهمومه ..

لقد كانت كتابات الجاحظ بمثابة الصحافة الواسعة الانتشار في ذلك العصر، ولذا فقد كان طبيعيا أن يقوم هذا الأديب الكبير - وهو دائرة معارف عصره - باصطناع هذه اللغة الجماهيرية، محدثا بها ثورة هائلة في تاريخ النثر العربي والكتابة العربية.

---

(١) فاروق شوشة : الجاحظ ولغة الجماهير مقالة بمجلة العربي العدد ١٥٦ نوفمبر ١٩٧١ ص ١٦١ وما بعدها

الجاحظ: كتاب الحيوان. تحقيق وشرح عبد السلام من ط ٢/ مطبعة ١٩٦٥ مطبعة مصطفى الحلبي جـ٣ ص ٣٦٨

وأيضا أحمد كمال زكي : الجاحظ دار الكاتب العربي اعلام العرب العدد / ٦٢ / ١٩٦٧ وأيضا ابن النديم : الفهرست ص ١٧٥

عالج الجاحظ باللغة العربية موضوعات الحياة كلها :

عالج الجاحظ في كتاباته ورسائله موضوعات الحياة كلها، وساعدت مقدرته الفنية علي أن يتناول - في بساطة ويسر - قضايا الدين ومشكلات المنطق والفلسفة وقضايا الجدل والحوار، بأسلوب سهل ممتع، يتوجه به إلى الخاصة والعامة، دون أن يفقد صفاته الفنية في أي مجال من المجالات القول. واستطاع – من خلال هذا التنوع في موضوعاته وهذه السهولة المنقطعة النظير في صياغته وتناوله وعرضه لهذا الموضوعات، أن يكون بحق صحافة عصره ذيوعا وانتشارا بين الناس وتتبعا واهتماما منهم. وهو – في هذا المجال – يتفوق كثيرا علي كل من سبقه من كتاب النثر العربي في عصوره الأولي، والذين أتيح لهم أن ينهضوا بالنثر نهضات متتابعة، لكنهم تظل بالنسبة للجاحظ – محدودة الأثر والقيمة، كابن المقفع وسهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب ..

ونتيجة لهذه السهولة والغزارة، فقد كانت المعاني لديه " مبسوطة" إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية (١) ومن هنا أيضا، كانت هذه الواقعية المباشرة في تناوله لعنصر موضوعاته، وكان هذا التصوير الحسي، يجسد من خلاله نموذجه البشرى – الذي يتناوله في لوحاته القلمية – تجسيدا دقيقا مذهلا، يتجاوز كل خيال، ذلك أن دقته في واقعيته، وجماله في بساطته وتفاصيله الجزئية الصغيرة .. وهو لون من أدب الصورة سبق إليه الجاحظ منذ قرون، وافتن فيه وأبدع .. نطالع له مثالا فريدا في هذا الصورة القلمية التي رسمها لقاضي البصرة عبد الله بن سوار .. يقول الجاحظ: " كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار، لم ير الناس حاكما قط ولا زميتا ولا ركينا ولا وقورا حليما، ضبط من نفسه، وملك، كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصبا، لا يتحرك له عضو، ولا يلتفت ولا يحل حبوته، ولا يحول رجلا علي رجل، ولا يعتمد علي أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى محله، بل كثيرا ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق، ثم يصلي العشاء الأخيرة وينصرف. فالحق يقال: لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرك يده، ولا يشير برأسه .. وليس إلا أن يتكلم .. ثم يوجز ويبلغ بالكلام اليسر المعاني الكثيرة .. الخ.(٢)هذه اللوحة القلمية البارعة تكشف عن قدرته الفائقة في الوصف والتصوير، والتقاط لدقائق الحركات والهيئات، وتفننه في النفاذ إلى قلب القارئ وعقله من بين ثنايا السطور.

---

(١) الجاحظ : البيان والتبين حـ ١ ص ٩١. وأيضا : معجم الأدباء جـ١٦ ص ٥٦ وما بعدها وأيضا ابن الأنباري : نزهة الألباء ص ٢٥٤

(٢) الجاحظ : كتاب الحيوان مرجع سابق حـ ٣ ص ٣٤٣.

كلام العامة ونوادر المولدين :

ومن عناصر لغة الاتصال بالجماهير، التي استحدثها الجاحظ وقعد لها القواعد والأصول، نقله لكلام العامة ونوادر المولدين علي ما هو عليه، لا يعربه ولا يغيره عن أصله، لأنه يرى أن العراب يفسد نوادر المولدين، فهو يذكر كلاما ملحونا – أي غير متقيد بقواعد الإعراب- في حديث بينه وبين أبي إسحاق النظام .. فيقول: " فلما جزانا حده، وتخلصنا منه، قال ابراهيم في كلام له كثير، يعدد خصاله المذمومة فكان آخر كلامه أن قال: " أن كنت سبع فاذهب مع السباع".

ويعلق الجاحظ على هذا بقوله: " ولا تنكروا قولي وحكايتي عنه بقول ملحون، من قولي (أن كنت سبع) ولم أقول (أن كنت سبعا، ثم يقوله: (وأنا أقول أن الإعراب يفسيد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الإعراب، لان سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة، فإذا أدخلت علي هذا الأمر – الذي أنما اضحك بسخفة وبعض كلام العجمة التي فيه – حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل – وحولته الي صورة ألفاظ الإعراب الفصحاء أهل المروءة والنجابة، انقلب المعني مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته (١)

ويؤكد الجاحظ هذه الفكرة أكثر منمرة فى سياق كتاباته وكأنه يرى فيها مذهبا لابد من أتباعه، في كل ما يتصل بكلام العامة أو نوادر المولدين وأخبارهم وأحاديثهم، وقد يرى فيه أصحاب الدعوة الواقعية الحديثة الذين يونادون بالتقيد بالعامية فى كتابة الحوار الذي يرد علي السنة الشخصيات القصصية والمسرحية التي تنتمي إلى مجالات ومستويات شعبية يرون في الجاحظ نصيرا متقدما لهم يشير الي أصالة دعوتهم و عراقتها..

يقول الجاحظ: " ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام الإعراب فأياما وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفظها، فإنك أن غيرتها بأن نلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين البلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطعام، فيأكلا وأن تستعمل فيها الأعراب أو أن تتخير لها لفظا حسننا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له، ويذهب أستطابتهم إياها، واستملاحهم لها (٢)

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان مرجع سابق جـ٣ ص ٢٨٢

(٢) الجاحظ البيان والتبيين جـ٤ ص ١٥٩ وأيضا ياقوت : معجم الأدباء جـ١٦ ص ٧٤ وأيضا المسعودي : مروج الذهب جـ٤ ص ١٠٩ وأيضا طه الحاجري : الجاحظ حياته وأثاره دار المعارف ص ١٥٣ وأيضا فاروق شوشة : الجاحظ ص ١٦٤

ثم يؤكد الجاحظ نفس الفكرة فى منايبة أخرى فيقول : " وان وجدتم في هذا الكتاب لحنان أو كلام غير معرب، ولفظا معدولا عن جهته، فعلموا إنما تركت ذلك لان الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده.. إلا أن أحكي كلاما من كلام متغافلى البخلاء، وأشحاء العلماء كسهل ابن هارون وأشباهه. (١)

وهكذا، تتكامل من خلال هذه النصوص الصريحة للجاحظ، صورة هذه اللغة التي نسميها اليوم لغة الاتصال بالجماهير أو لغة الحياة، كما استحدثها الجاحظ، محدثا بها ثورة هائلة فى تاريخ النثر العرب، ثورة تركت ظلها علي من عصارة أو جاء بعده من الكتاب أو الأدباء كابن قتيبة وأبي حيان التوحيدي وأبى المطهر الأزدي والمحسن التوخي وغير همن الذين ترسموا خطاه، وأفادوا من مغامراته القلمية الواسعة في شتى الفنون و الموضوعات والمجالات، ومن لغته السهلة المتنعة بعناصرها الرئيسية من واقعية مباشرة، وفكاهة،وخلط الجد بالهزل، ومن دعابته وتهكم وسخرية، وجدل وحوار، ومن ترخص وتجاوز في نقل كلام العامة والولدين مجارات لهم وتحررا من قواعد الإعراب وضوابطه. وتلك هى سمات لغة الاتصال بالجماهير كما عرفناها نحن منذ مطالع القرن العشرين علي أقلام الرواد من العلماء والأدباء والكتاب .. والتي نجد لها نموذجا رائدا وفريدا مطالعنا من خلال عصر النهضة والانبعاث هو رفاعة رافع الطهطاوى، وأمثال له كثيرون.

الجاحظ وكتاب البخلاء :

البخلاء كتاب مشهور لأديب مشهور، هو للجاحظ قدم الجاحظ لكتابه هذا بمقدمة طويلة دافع بها عن الكتب الكثيرة التي يولفها في موضوعات مختلفة، ثم تكلم عن البخل والبخلاء عامة يذكر الجاحظ ضروب الطعام المألوف في ذلك العصر وأنواع الدعوات إليه والمناسبات التى تتيحها ، ويتكلم عن أطعمة العرب وما تسمي واورد الجاحظ بعض المأكولات الفاخرة والعادات المتبعة على الموائد واللياقة الاجتماعية وكيفية ، تقدم الطعام للضيف صاحب المنزلة الخاصة عند العرب وكيفية الضيافة والإكرام والمبالغة في تنسيق الموائد وألوان الطعام ، وقد ذكر الجاحظ صورة غاية في الدقة عن أدب المائدة والعادات السيئة عند الأكل ومنها التطفل أو الإتيان بغير دعوة والمجشع أي الحريص على الطعام والفضولي وأحاديث الموائد وزمزمه الأكل . وغير ذلك ... ثم جاء بسطرين أثنين قبل أن يبداء بسرد قصص البخلاء فقال: " نبداء بأهل خراسان لإكثار الناس في أهل خراسان، ونخص أهل مرو (عاصمة خراسان) بقدر ما خصوا به.في هذين السطرين وضع الجاحظ قاعدة من قواعد نشر الكتب. ان اكثر الكتب رواجا هي الكتب المؤلفة فى الموضوعات التي يكثر الكلام فيها، بين الناس سواء كانت تلك الموضوعات مهمة أو غير مهمة. (٢)

---

(١) طه الحاجري : الجاحظ حياته وأثاره . حيث حق أستاذنا الدكتور طه الحاجري الانتاج الفكري للجاحظ ص ٣٢١ وما بعدها وأيضا أحمد كمال زكي : الجاحظ .كتاب البخلاء ص ١٣٧ وما بعدها وأيضا الجاحظ : البخلاء ص ٣٣

ابن قتيبة الكاتب الناقد الأديب
(٢١٣ – ٢٧٦ هـ) (٨٣٨ – ٨٨٩ م)

ولد أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة سنة ٢١٣ه - ٨٢٨ م وقد اختلف المؤرخون فى مكان مولده فقال فريق منهم ابن النديم ، وابن الأثير انه ولد فى الكوفة ، وقال فريق آخر منهم السمعانى والقفطى انه ولد فى بغداد ، ونشأ بها وترعرع وكانت يومئذ مهد العلم ، وعش الأدب ، وموطن الثقافة ، وقضى بها الشطر الأكبر من حياته يأخذ العلم عن علمائها ، ويتلقى معارفه عن أعلامها من أئمة اللغة ، وأقطاب الأدب ، وعلماء الحديث أمثال حاتم السجستانى الذي كان إماما فى علوم القران واللغة والشعر ، وأبى الفضل الرياشى اللغوي النحوي ، واسحق ابن راهويه الذي جمع بين الحديث والفقه ، والذي كان أحد أئمة الإسلام ومن أصحاب الشافعي .

وأقام بالدينور طوال فترة تولية القضاء فنسب إليها وقد أخذ العلم عنه عدد من تلاميذه الذين أصبحوا من أئمة اللغة ورجال الفقه والحديث ومنهم ابنه القاضي أبو جعفر أحمد بن قتيبة الفقيه الأديب ، وابن درستوية النحوي المشهور ،وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ .

وقد كان له صلة بأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير ت\الدولة العباسية يومئذ حيث ألف عن الدنايا ،ويترفع بها عن الصغائر ، ويحض الناس على مكارم الأخلاق ويجعل من نفسه القدوة الصالحة لهم .

كما كان متواضعا لا يتعالى على الناس ، ولا يدعى لنفسه ما ليس لها ، ويأخذ العلم والمعرفة عن أي إنسان .

يقول فى مقدمة كتابه أدب الكاتب "ونحن نستجيب لمن قبل عنا وانتم بكتابنا أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه " وتوفى سنة ٢٧٦ ه – ٨٨٩ م فى بغداد .

مؤلفاته :

كان ابن قتيبة عالما يمثل ثقافة عصره ، وكان أديبا وناقدا ضليعا فى الحديث والفقه وعلوم القران . تعددت جوانب ثقافته ، وتنوعت مناحي معرفته ، وشهد له معاصروه بالفضل وغزارة المادة ، وسعة الاطلاع ، يقول عنه السيوطي " كان رأسا في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ثقة دينا فاضلا " .
ولذلك كثرت مؤلفاته ، وتنوعت مادتها ، وتعددت مناحيها فله مؤلفات في الأدب واللغة والنحو و التاريخ ، وله مصنفات في الفقه وله في الأشربه والأنواء والأمثال وتعبير الرؤيا ، وله في الاجتماع ولكن من المؤلم ألا يصل إلينا من هذه المؤلفات إلا عدد يسير .

وقد نشر القسم الأدبي بدار الكتب المصرية الجزء الأول من كتاب عيون الأخبار سنة ١٩٢٤ م وقامت المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بطبعة مصورا عن الطبعة الأولي في سنة ١٩٦٣ م وفي المقدمة التى كتابها رئيس القسم الأدبي بدار الكتب يومئذ كلمة عن وصف الكاتب وترجمة المؤلف ذكر فيها من مؤلفاته سبعة وأربعين كتابا نكتفي بأن نذكر منها أدب الكاتب والمعارف ، وعيون الأخبار ، وطبقات الشعراء وكتاب الأشربة وكتاب المعاني الكبير وكتاب تأويل مشكل القرآن وكتاب تأويل مختلف الحديث .

أما الكتب التى لم تصل إلى أيدينا من مؤلفاته فقد ذكرها مؤلفو كتب السير والتراجم والطبقات أمثال ابن خلكان وفيات الأعيان وابن الأنباري في نزهة الألباب ، والقفطى في انباه الرواة ، وصاحب كشف الظنون وابن النديم في كتاب الفهرست .

يعد كتاب عيون الأخبار من أشهر كتب ابن قتيبة ، وأعظمها أهمية ويعد من أفضل الكتب التى تقدم للقراء مادة طيبة تصقل أذهانهم ،وتزيد معارفهم ، وقد ألفه ليستفيد منه الخاصة والعامة وينتفع به طلاب الدنيا والآخرة ، ووضح ذلك في مقدمته حين قال : ولم أر صوابا أن يكون كتابي هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون ساقتهم . فوفيت كل فريق منهم قسمه ، ووفرت عليه سهمه " .

كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة :

وكان لما ترجم من المؤلفات الفارسية والهندية واليونانية أثر في التأليف العربي، ظهرت سماته في القرن الثالث الهجري بوضوح.
وكان ابن قتيبة من أولئك الذين انتفعوا فنفعوا، واستفادوا فأفادوا. حيث قدم في مجال التثقيف مؤلفات كثيرة من بينها كتابه " عيون الأخبار".
وهذا الكتاب يظهر فيه تحديد الموضوعات التي سيتكلم عنها ويبسط القول فيها. وقد سمي كل موضوع " كتابا ". وتسمية الموضوع كتابا لم ينفرد به ابن قتيبة، بل تلك ظاهرة واضحة في المؤلفات السابقة، ففي كتب الحديث مثلا "كتاب الصلاة " " كتاب الزكاة " " كتاب الصيام " "كتاب الحج" .. الخ.
وهذه هي الكتب أو الموضوعات العشرة التي يحويها " عيون الأخبار":-

- **الكتاب الأول:** كتاب السلطان – وقد تحدث فيه عن محل السلطان واختلاف أحواله وسيرته، وصحبته وآدابها، واختيار العمال، والمشورة والرأي، واتباع الهوي ، والقضاء، والشهادات والأحكام والحجاب.
- **الثاني:** كتاب الحرب – وقد تحدث فيه عن آداب الحرب ومكايدها، وأخبار الجبناء والشجعان والفرسان وأشعارهم، وعن السلاح والعتاد.
- **الثالث:** كتاب السؤدد – وقد أسهب فيه عن السيادة والهمة والمجازفة، واختلاف الهمم، والتواضع والكبر والعجب والحياء والعقل والحلم

والغضب، والعز والذل، والهيبة والمروءة والتوسط في الأشياء والغلو والتوسط في الدين.

- الرابع: كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة- وقد تحدث فيه عن تشابه الناس في الطبائع وذمهم ورجوع المتخلق الي طبعه، والحسد، والغيبة والسعاية، وسوء الخلق، وسوء الجوار، والسباب والشر والحمق وطبائع الإنسان. (١)
- الخامس: كتاب العلم والبيان- وقد تكلم فيه عن العلم والكتب والحفظ والقرآن والحديث، والأهواء والكلام في الدين والرد علي الملحدين والأعراب واللحن والبيان والاستدلال بالعين والإشارة والشعر وحسن التشبيه فيه، والأبيات التي لا مثيل لها ثم سرد عدة خطب للخلفاء الرشيدين،ومشاهير الإسلام.
- السادس: كتاب الزهد- وقد تكلم فيه عما أوحي الله جل وعز إلى أنبيائه عليهم السلام، والدعاء والمناجاة، والبكاء والتهجد والموت والكبر والمشيب والدنيا، ومقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك وبعض المواعظ من كلام الزهاد.
- السابع: كتاب الاخوان- وفيه تحدث المؤلف عن الحث علي اتخاذ الإخوان واختيارهم،والمحبة والأنصاف في المودة ومدارة الناس وحسن الخلق والجوار، والتلاقي والزيارة والمعاتبة، والتعازي والتهاني والقرابات والولد، والاعتزاز وعتب الاخوان، والتباغض والعداوة، وشماتة العداء.
- الثامن: كتاب الحوائج – وفيه تحدث عن أستنجاح الحوائج، ومن يعتمد في الحاجة ويستسعى ، فيها والإجابة إلى الحاجة ، والرد عنها ، والموعيد وتنجزها، وحال المسؤل عن السؤال والترغيب في قضاء الحاجة واصطناع المعروف، والقناعة والاستضعاف والحرص والإلحاح.
- التاسع: كتاب الطعام – فالذي تحدث فيه عن صنوف الأطعمة. وأخبار من أخبار العرب في مأكلهم ومشاربهم، وأداب الآكل،والجوع والصوم، والضيافة، وأخبار البخلاء والقدور والجفان، وسياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره، والحمية ، وشرب الدواء والمياه والاشربة، واللحوم ومشاكلها ومدار الأطعمة ومنافعها ،وأنواع كثيرة من منافع النبات والبقول والحبوب والفاكهة. (٢)
- العاشر: كتاب النساء الذي تحدث فيه عن أخلاق النساء وما يختار منهن ما يكرهه،والأكفاء من الرجال، والحسن والقبح، والطول والقصر، والمهور وسياسة النساء ومعاشرتهن.

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٤٧
(٢) ابن منظور : لسان العرب جـ٦ ص ٨٧

كل كتاب من هذه العشرة فيه عناصر مترابطة، فمثلا كتاب السؤدد فيه الأخبار عن مخايل السؤدد، وعن الهمة السامية، والخطار بالنفس لطلب المعالي، والتواضع، والكبر والعجب، والحياء والعقل والحلم والغضب، والعز والهيبة والذل والمروءة.

وكتاب النساء فيه الأخبار عن اختلاف النساء في أخلاقهن وخلقهن، وما يختار منهن وما يكرهه، واختلاف الرجال في ذلك. والحسن والجمال. والقبح والدمامة وسياسة النساء ومعاشرتهن..

ولا تحسب أن هذه موضوعات إنشائية جافة بل فيها طريف الحكايات، وبديع الكلمات، من نظم ونثر مما هو مأثور عن العرب وغيرهم، في القديم، وما كان في عهده أو قريب منه،فهو لا يقتصر علي القديم بالنسبة لعهده ويعلل ذلك فيقول: (١)

"وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين، إذا كان متخير اللفظ، لطيف المعني، لم يزد به عندنا تأخر قائله، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه. فكل قديم حديث في عصره.. ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم، ووضع الموجود، ورفض المبذول، وحب الممنوع، وتعظيم المتقدم وغفران زلته، وبخس المتأخر والتجني عليه. والعقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم."

إنه كتاب يجد كل إنسان فيه ما يعجبه، مهما تختلف إلا مزجه وتتباين الثقافات. قد تنكر شيئا أو تعجب له، لأنه كان في عهد غير عهدك. وبيئة غير بيئتك، ولكن هناك أشياء مشتركة، ترتاح إليها النفوس السليمة في كل زمان ومكان.

وكتابه " عيون الأخبار" ألفه بحيث يرضى مختلف الأذواق والطبقات، ويقرر هو ذلك فيقول: (٢)

" ولم أر صوابا أن يكون كتابي هذا وقفا علي طالب الدنيا دون عوامهم، ولا علي ملوكهم دون سوقتهم، فوفيت كل فريق منهم قسمه، ووفرت عليه سهمه، أودعته طرفا من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها، والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا، ويتكلمون به إذا افترقوا.. ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة. وكلمة معجبة، وأخري مضحكة ، ولأروح بذلك عن القارئ من كد الجد واتعاب الحق، فان الأذن مجاجة، وللنفس حمضة ، والمزح إذا كان حقا أو مقاريا، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلا، ليس من القبيح، ولا من المنكر، ويبعده عن الكبائر بل الصغائر ، إنما يريد أن يسكت المتزمتين والذين يضيقون واسعا. ويعرفون أن الناس ليسوا جميعا مثلهم، وفي ذلك يقول:

---

(١) ابن الأنباري : نزهة الألباب ص ٣٨٢
(٢) ابن النديم : الفهرست جـ٣ ص ١١٢

" وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة، وما روى عن الأشراف والائمة فيهما، فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه، أوتستحسنه، أو تعجب منه أو تضحك له، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به، وأعلم أنك أن كنت مستغنيا عنه بتنسيكك فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه. وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ علي ظاهر محبتك. ولو وقع فيه توفى المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه، ولعرض عنهم من أحبابنا أن يقبل إليه معك ... وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا علي عادة السلف الصالح في إرسال النفس علي السجية، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع. ولا تشعر أن القوم قارفوا وتنزهت. وثلموا أديانهم وتورعت ".

فهو يرى إذن أن العابسين الذين يبسطون وجوههم للبشر، ولا يحلون شفاههم بالبسمات، إنما هم يرائون، ويحسبون انهم يفعلون ذلك ورعا، فيذكرهم ان السلف الصالح لم يكونوا كذلك. فهم مزحوا وتفكهوا ولم يقترفوا بذلك إثما ولم يمسوا دينهم السليم

ومن رأى ابن قتيبة الذي يقدمه نحس أنه يدافع قوما كانوا يرون أن كل كتاب لا يؤلف في التفسير والحديث والفقه لا ثواب فيه، ولا منفعة ترجى من ورائه. ولقد أحسن فيما ساقه " فان هذا الكتاب- وان لم يكن في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام- دال علي معالي الأمور، ومرشد لكريم الأخلاق زاجر عن الدناءة، ناه عن القبيح، باعث علي صواب التدبير وحسن التقدير ورفق السياسة وعمارة الأرض وليس الطريق إلى الله واحدا ولا كل الخير مجتمعا في تهجد الليل، وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام. بل الطرق إليه كثيرة. وأبواب الخير واسعة. وصلاح الدين بصلاح الزمان. وصلاح الزمان بصلاح السلطان وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير.

مصادر عيون الأخبار :

وعيون الأخبار جمعت معلوماته من مختلف الثقافات، انه رواية عن الأئمة، واستدلال بالآيات والأحاديث. وتطعيم بالحكم والأمثال، سواء أكان ما يروى عن العرب أم عن غيرهم من الأمم، فمثلا يقول: " قراءة في كتاب للهند: ليس من خله يمدحبها الغنى إلا ذم بها الفقير، فان كان شجاعا قيل أهوج، وان كان وقورا قيل بليد، وان كان لسنا قيل مهزار، وان كان زميتا – آي قليل الكلام – قيل يحيى وقرأت كتابا من أرسطاطا ليس إلى الاسكندر، وفيه " املك الرعية بالحسان إليها تظفر بالمحبة منها، فان طلبك ذلك منها بإحسانك هو أدوم بقاء منه باعتسافك. واعلم انك إنما تملك الأبدان فتخطها إلى القلوب بالمعروف"

ومثلا يقول: قال كسرى: احذروا سلة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع. وقال الشاعر

خلقان لا أرضى اختلافهما تيه الغنى ومذلة الفقير
فإذا غنيت فلا تكن بطرا وإذا افتقرتا فته علي الدهر

واصبر فلست بواجد خلقا آدني إلى فرج من الصبر

وهو ينقل عن كتب ابن المقفع وعن كتب الجاحظ، يقول:" وفي كتاب كليلة ودمنه". أو يقول: وقال ابن المقفع وقراءة في أدب ابن المقفع. وعن الجاحظ قال عمرو بن بحر، أو قال الجاحظ أو يقول: وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه.
ومما يرويه بطريق السند قوله حدثنا الرياشي عن أبي زيد قال: دخلنا علي أبي الدقيش وهو شاك، فقلنا له: كيف تجدك؟ قال أجدني أجد ما لم أشتهي، واشتهى ما لا أجيد. ولقد أصبحت في شر زمان وشر أناس، ومن جاد لم يجد، ومن وجد لم يجد".
إنها حكمة رائعة، تستحق أن تروي ، فيها دقة المعاني وتقرير الحقائق، في أسلوب بديع خلاب.

العلم عند ابن قتيبة :

والعلم يطلب في كل مكان، والحكمة تلتقط ولو من أفواه المجانين، ولا ينبغي أن يتعالى المرء مهما بلغ من المراتب ووفرة المعلومات ، فالعاقل من يشعر بأنه أزداد معرفة تفتحت أمامه أفاق أوسع تبهره ، وعرف أنه فوق كل ذي علم عليم، وما أحسن ما نسب إلى الإمام الشافعي: وإذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي .
وابن قتيبة يلم بهذه الناحية فيقول:

" وأعلم أنا لم نزل نلتقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال، عما هو فوقنا في السن والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وبالغات الكتاب في فصول من كتبهم. وعمن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنن لحداثته، ولا عن الصغير قدرا لخساسته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها، فضلا عن غيرها. فان العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذه نفعه. ولن يزري بالحق أن نسمعه من المشركين، ولا بالنصيحة أن نستنبط من الكاشحين. ولا تضير الحسناء أطمارها ".

في سنة ١٨٩٩ إلى ١٩٠٨ طبع من عيون الأخبار في " جوتينجن" الكتب الأربع الأولى وهى "كتاب السلطان" "وكتاب الحرب" "وكتاب السؤدد" "وكتاب الطبائع والأخلاق" بتحقيق المستشرق الألماني "بروكلمان". وطبع في القاهرة الكتاب الاول وهو " كتاب السلطان" سنة ١٩٠٧ . ثم بدأت دار الكتب في أخراج عيون الأخبار فطبعت كتبه العشرة في أربع مجلدات، المجلد الاول ظهر سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ والمجلد الثاني ظهر في "١٣٤٦- ١٩٢٨ " والمجلد الثالث في "١٣٤٨- ١٩٣٠" والمجلد الرابع ١٣٤٩- ١٩٣٠ .

وفي نهاية الجزء الرابع فهارس متنوعة لجميع أجزاء عيون الأخبار تبدأ من صفحة ١٥١ إلى ٢٩٧ ويلي ذلك إصلاح للخطأ واستدراكات تصل إلى صفحة ٣١٥، أما ما

بين التعريف بابن قتيبة في أول المجلد الرابع وبين الفهارس والاستدراكات فهو الكتاب العاشر المسمى " كتاب النساء"

نماذج مما في عيون الأخبار ، السخاء بدون تظاهر :

حدثني سهل ابن محمد عن الأصمعي قال: هارون الأعور- أن قتيبة ابن مسلم قال: أرسلني أبى الى ضرار ابن القعقاع ابن معبد ابن زرارة فقال: قال له: قد كان في قومك دماء وجراح، وقد احبه ان تحضر المسجد فيمن حضر، قال: فأتيته فأبلغته، فقال: يا جارية، غدينى. فجاءت بأرغفة خشن، فثردتهن في مريس – المريس تمر وزيت- ثم برقتهن أي خلطتهن – فأكل – قال قتيبة: فجعل شأنه يصغر في عيني ونفسي، ثم مسح يده وقال: الحمد لله، حنطة الأهواز وتمر الفرات وزيت الشام، ثم أخذ نعليه وارتدى، ثم أنطلق معي وأتى مسجد الجامع، فصلي ركعتين ثم أحتبي، فما رأيت حلقة إلا تقوضت إليه. فاجتمع الطالبون والمطلوبون فأكثروا الكلام فقال الى ماذا صار أمرهم، قالوا: الى كذا وكذا من ابل،قال: هى علي. ثم قام.

ومثل في الحلم وتقدير الوحدة :

قيل للأحنف ما أحلمك، قال: تعلمت الحلم من قيس ابن عاصم المنقري، بينما هو قاعد بفنائه، محتب بكسائه، أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله أبن أخيك. فو الله ما حل حبوته حتي فرغ من كلامه ثم التفت الى ابن له فى المجلس فقال له : قم فأطلق عن أبن عمك وواري أخاك وأحمل الى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة ثم أنشأ يقول:

انى أمرو لا شائن حسبي دنس يغيره ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم بيض الوجه أعفة لسن
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن

ثم قال علي القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك وأقللت عددك لا يبعد الله غيرك.

ومثل في الفهم والحق :

" وحدثني أبو حاتم الأصمعي عن العمرى قال:

قال رجل لعمرو بن الخطاب رضى الله عنه: أن فلان رجل صدق. قال: سفرت معه؟
قال: لا. فكانت بينك وبينه خصومة، قال: لا . فهل ائتمنته علي شئ؟ قال: لا. قال: فأنت الذي لا علم لك به، أراك رايته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد.

ومثلان لفهم للشريعة :

سمع الحسن رجلا يعيب الفالوذج فقال: فتات البر بلعاب النحل. بخالص السمن. ما عاب هذا مسلم وقال – أي الحسن البصري – لفرقد السبخي، يا أبا يعقوب، بلغني انك لا تأكل الفالوذج. فقال يأبا سعيد أخاف ألا أودى شكره فقال. يا لوكع، وهل تودى شكر الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء؟ أما سمعت قوال الله تعالى (**يا أيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) " (١)**

---

(١) البقرة ١٧٢

ابن طبا طبا الناقد العربي (١)
ت ٣٢٢ هـ /٩٣٣م

هو محمد ابن أحمد، وطبا طبا لقب جده الثالث: ابراهيم، وينتهى نسبه بالحسين بن على بن أبى طالب.ولد ابن طبا طبا فى مدينة أصبهان ولا يحفظ التاريخ عام ميلاده، وإن ذكر وفاته سنة ٣٢٢هـ، آي أنه عاش فى الشطر الثاني من القرن الثالث، وجزء من القرن الرابع للهجرة. ولم تكن الحياة السياسية يومئذ للدولة العباسية قوية مستقرة، بل أصابها الضعف والانحلال منذ قتل الأتراك الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ ، فضاعت هيبة الخلافة، ولم يعد للخليفة سلطان ولا نفوذ إلا فى قليل من الأحيان، وكثيرا ما شب الخلاف بين أبناء الأسرة العباسية لا سيما وأن ولى أمرها صبى لا يستطيع أن يقود شئون الخلافة. فى هذا العهد عاش ابن طبا طبا، ورغم هذا الاضطراب السياسي فقد وجد الازدهار العلمى بسبب انكباب العلماء على الكتب يجمعون فيها خلاصة تجاربهم، وما وصلوا إليه من آراء، بل يبدو أن هذه الحياة السياسية الصاخبة المضطربة جعلت العلماء ينصرفون عنها إلى الدراسة والإنتاج.

ومن الثابت تاريخيا أنه نشأ فى بيئة عربية خالصة وعاش فى أصبهان تلك المدينة الحالمة الساحرة، ثم تفتحت عيناه على كتب العرب السابقين فى النقد والبيان، تفتح على الأساليب الجيدة والرديئة ، وفاضت قريحته بالشعر الصافي الجيد معتمدا على ذوقه الروحي وحسه الشعري وشعوره الوجداني، فحقق تفوقا على أدباء عصره من خلال المناظرات التى دارت بينه وبين أدباء مدينته.

منهجية الشعر:

نستطيع أن نتعرف على ثقافة ابن طبا طبا من المنهج الثقافي الذي وضعه وأوجب على الشعراء أن يأخذوا به، فقد كان شاعرا، ومن المرجح أن يكون قد عمل بهذا المنهج، فإنه يرى ضروريا أن يتزود الشاعر بأدوات الشعر وهى:

التوسع في علم اللغة، والبراعة فى فهم الأعراب، والرواية لفنون الآداب والمعرفة بأيام الناس وانسابهم، ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب فى نظم الشعر، والتصرف فى معانيه ، في كل فن قالته العرب فيه، وسلوك منهاجا فى صفاتها، ومخاطباتها وحكاياتها، وأمثالها.

ولا بد أن يكون قد درس ذلك، وأن يكون قد أضاف إليه معرفة واسعة بتقاليد العرب وعاداتها.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن ابن طبا طبا يمكن الرجوع إلى المراجع التالية
ابن طبا طبا : عيار الشعر تحقيق حسن كامل الصيرفي ١٩٦٧ دار المعارف وأيضا شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٧ وما بعدها وأيضا عبد الحي دياب : فصل في النقد الأدبي ص ٣٦ وأيضا غنيم هلال : النقد الأدبي الحديث ص ٢١٥ وما بعدها وأيضا كتاب الصناعتين ص ٦٩ وما بعدها

ويظهر إن ابن طبا طبا كان رجلا مشغوفا بالعلم، مكبا على تحصيله، مقبلا على العلماء يأخذ عنهم ما رووه في حب واستزادة، حتى صح له أن يفتخر ويقول:

حسود مريض القلب يخفى أنينه ويضحى كئيب البال منى حزينه
يلوم علي أن رحت فى العلم راغبا أجمع من عند الرواة فنونه
وأسلك أبكار الكلام وعونه وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمي، دعني أغالى بقيمتى فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وكان مغرما بالكتب يعدها أغلى من الأصدقاء، ويقول:

إذا فجع الدهر امرأ بخليله تسلى، ولا يسلى لفجع الدفاتر

كتابه في العروض:

وهو يؤمن بأن "من صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التى هى ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به".

ولكنك تعجب أن يذكر له ياقوت ضمن ما صنفه كتابا فى العروض لم يسبق إلى مثله، فلعل كراهيته لهذا العلم دعته إلى أن يصمم على تذليله، إلى درجة تمكنه من التأليف فيه، أو لعل وصف كتابه بأنه لم يسبق إلى مثله يؤذن بأنه نهج فى عرض هذه المادة نهجا جديدا يسهل استيعابها للدارسين.

رواية الحديث :

ولعله كان مغرما كذلك برواية الحديث، وإن لم تكن له فيه آثار، أو لعله ، وهو كان يرى أن لو نشر الرسول لكان من كبار حفاظ الحديث ورواية كأبى هرير ة:

ولو نشر النبى لكنت منه مكان "أبى هريرة" غير مين

وكانت "أصبهان"، تعنى برواية الحديث وحفظه. وأعان ابن طبا طبا على طلب العلم ما عرف به من الذكاء والفطنة وصفاء القريحة، وصحة الذهن والكياسة.ومما يروى للدلالة على سرعة حفظه أن أحد الرواة ذكر أن ابن طبا طبا دخل إلى دار حملت إليها من بغداد نسخة من شعر "عبد الله بن المعتز" فطلب استعارتها ولم يستجاب لطلبه، فطلب المكوث فى الدار لعله ينظر فيها، ثم طلب محبرة وورقا، ثم أخذ يكتب عن ظهر قلبه مقطعات من الشعر، حتى إذا فرغ من نسخها أحصيت الأبيات التى قيدها، فبلغ عددها مائة وسبعة وثمانين بيتا حفظها من شعر ابن المعتز فى ذلك المجلس، واختارها من بين سائرها كان ذلك فى آخر أيامه.وساعده عليه

أيضا أنه كان غنيا يستطيع أن يفرغ للدراسة والإطلاع، ويدلنا على غناه أنه يقول لمن يزهده فى طلب العلم بحجة أنه لا يجلب الغنى:

إذا عد أغنى الناس لم أك دونه   وكنت أرى الفخر المسود دونه

فهو غنى، ولكنه لا يكتفى من الحياة بالغنى وحده، بل يريد إلى جانبه مجدا علميا يجلب له الفخر والسؤدد، وإذا كان ابن طبا طبا غنيا يكرة الفقر ويرى أن الحر يؤثر الموت علية، إذ يقول:

قد يصبر الحر على السيف   ويجزع الحر من الحيف
ويؤثر الموت على حالـه   يعجز فيها عن قرى الضعيف

فإنه كان يحب القصد فى الغنى، ويكرة الاسراف فيه، ويرى الشراهة فى جمع المال مهلكة لصاحبها، اذ تصرفه عن المجد العلمى، ولعلنا ندرك ذلك من قوله:

أن فى نيل المنى وشك الردى   وقياس القصيد ضد السرف
كسراج دهنه قوت لـــه   فإذا غرقته فيه طفـــى

ومما لا ريب فيه أن ذلك خير الأوضاع لطلب العلم والتفرغ له، غنى لا تصحبه شراهة إلى الازدياد.

مؤلفاته :

ولم يقتصر ابن طبا طبا على التحصيل وحده، بل ترك لنا إنتاجا أدبيا بقى بعضه وباد بعضه، فمن ذلك:

١- كتاب "عيار الشعر" الذى جمع آراءه فى النقد الأدبي، وقد حققه وعلق عليه، وقدم له، ونشره سنة ١٩٥٦ م الدكتور طه الحاجرى، والدكتور محمد زغلول سلام، وقد قام ابن طبا طبا بتأليف هذا الكتاب إجابة على سؤال سائل عن علم الشعر وهذا السائل تلميذ نابه لأبن طبا طبا حظي بتقديره ورعايته، ومما جعله يستجيب له فيؤلف كتابه ذاك. وقد أقام ابن طبا طبا كتاب عيار الشعر على المقدمة ثم متن الكتاب. وقد عرض فى المقدمة أربع قضايا رئيسية هى مفهوم الشعر وصنعة الشعر وأساليب الشعر العربى وفنونه والمقاييس التى يقاس بها الشعر الجيد من الرديء، ولما كانت ثقافة الشاعر تمثل الركيزة والمنطق لممارسته العملية الشعرية ، فإننا نجد ابن طبا طبا يوضح أدوات الشعر التى تهئ للنظم وتعين عليه والتى سبق ذكرها.

٢- كتاب "تهذيب الطبع" ولعله هو كتاب "الشعر والشعراء" الذى نسبه إليه "ابن النديم" فى كتابه: "الفهرست". أما كتاب تهذيب الطبع فقد أشار إلية الناقد فى أكثر من موقع فى كتابه "عيار الشعر"، فهو يبين الغرض من تأليفه إذ يقول: "وقد جمعنا ما اخترناه من أشعار الشعراء فى كتاب سميناه : "تهذيب الطبع" يرتاض

من تعاطى قول الشعر بالنظر فيه، ويسلك المنهاج الذى سلكه الشعراء ، ويتناول المعاني اللطيفة كتناولهم إياها، فيحتذي على تلك الأمثلة فى الفنون التى طرقوا أقوالهم فيها".

٣- وله "كتاب فى العروض" قال عنه ياقوت: (أنه لم يسبق إلى مثله)

٤- وكتاب "سنام المعاني"، ومازال محفوظا.

٥- وكتاب فى "المدخل فى معرفة المعمى من الشعر" ، وعنوانه يدل على موضوعه، فهو شرح لأبيات غامضة المعنى، يدل على تعمق صاحبه فى فهم غريب الأشعار، وإدراك معانيها الغامضة.

٦- وكتاب فى "تقريظ الدفاتر" سبق أن أشرنا إليه.

٧- وكتاب فى "الشعر والشعراء" نسبه إليه "ابن النديم"، ولعله كتاب" تهذيب الطبع" الذى لم يذكره له صاحب الفهرست.

٨- وديوان شعره.

ولم يبق لنا سوى كتاب "عيار الشعر"، وبضع قصائد وأبيات متناثرة أوردها معجم الأدباء، ومحاضرات الأدباء وتحفة العجائب وطرفة الغرائب، وكتاب التشبيهات، والمحمدون من الشعراء وأشعارهم، والمصون فى الأدب.

وقد يورد بعض هؤلاء بيتا أو بيتين، ثم يقول: (وهى أبيات كثيرة ذات أوصاف) ، ويقول القفطى فى كتابه: (المحمدون من الشعراء) : وأكثر شعره فى الغزل والآداب.

قصيدة ليس فيها كاف أو راء :

ومما يذكر أن ابن طبا طبا كان يؤمن، لتمكنه من اللغة، بمقدرته على أن يتجنب من الكلمات ما يصعب النطق به على من بلسانه عيب يحول بينه وبين النطق ببعض الحروف، ويروى عنه أنه قال: (والله أنا أقدر على أبى الكلام من واصل بن عطاء).

ويروون للتدليل على ذلك أن ولدا لأحد الأعيان الرجال كانت به لكنة شديدة حتى كان لا يجرى على لسانه حرفان من حروف المعجم، هما: الراء والكاف، يضع الغين مكان الراء والهمزة مكان الكاف، فكان إذا أراد أن يقول: "كركى" يقول: "أغ أى" ، فعمل ابن طبا طبا قصيدة فى مدح أبيه ، حذف منها حرفي لكنة الولد، ولقنه إياها، حتى رواها لأبيه، ففرح بها فرحا شديدا. ومن تلك القصيدة:

يا سيد دانت له السادات ... وتتابعت فى فعله الحسنات
وتواصلت نعماؤه عندى فلى ... منه هبات خلفهن هبات

وهى قصيدة طويلة تبلغ تسعة وأربعين بيتا ختمها بقوله:

لو واصل بن عطاء البانى لها ... تليت ، توهم أنها آيات
لولا اجتنابى أن يمل سمعها ... لأطلتها ما خطت التاءات

وليس شعره ما يرفعه، حتى إلى درجة أوساط الشعراء، ولكنه مما لا شك فيه أن معالجته لنظم الشعر جعلت له نظرات صائبة في النقد الأدبي، لأنها ناشئة عن ممارسة وتجربة.وكثير من آرائه في النقد الأدبي لم تفقد مع الزمن صحتها وجدتها. بل أن له بعض التعبيرات التى تشبه إلى حد كبير التعبيرات الحديثة.

كيفية نظم الشعر:

فمن أثر ممارسته لنظم الشعر هذا الرأى الذى أبداه فى طريقة قرض الشعر، وأغلب الظن أنه كان يتبع هذا النهج فى صنع قصائده، يقول "ابن طبا طبا": إذا أراد الشاعر بناء الشعر عليه فى فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه اياه من الألفاظ التى تطابقه، والقوافى التى توافقه، والوزن الذى يسلس له القول عليه، فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرومه أثبته، وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى، على غير تنسيق للشعر، وترتيب لفنون القول فيه، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله. فإذا كملت له المعانى، وكثرت الأبيات، وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها، وسلكا جامعا لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد أداه اليه طبعه، ونتجته فكرته، فيستقصى انتقاده، ويرمى ما وهن منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية. وأن اتفقت له قافية قد شغلها فى معنى من المعانى، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الثانى منها فى المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذى هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه ، وطلب لمعناه قافية تشاكله، ويكون كالنساج الحاذق ... وكالنقاش الرفيع الذى يضع الأصباغ فى أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها، حتى يتضاعف حسنه فى العيان.

تلك هى الخطة التى أوصى ابن طبا طبا بانتهاجها فى نظم القريض أن يختار الشاعر الوزن والقافية، ثم يتقبل ما يجود به خاطره من شعر يتعلق بالمعنى الذى يريد النظم فيه، ثم يقوم بتثقيفه وترتيبه، حتى تصبح القصيدة مترابطة منسقة. واختيار الشاعر للوزن والقافية مما يطالب به ابن طبا طبا صانع الشعر، حتى لا يقع فى وزن يصعب علية المعنى فيه. وقد كرر الدعوة إلى اختيار القافية فى موضع آخر من كتابه بعد أن حصر ألوان القوافى، فقال:"اختر من بينها أعذبها، وأشكالها للمعنى الذى تروم بناء الشعر عليه " ، وذلك حتى لا يقع الشاعر فى قافية لا تسلس لخواطره، ولا تنقاد لمعانيه.

وحدة القصيدة ضرورة :

وإذا كان ابن طبا طبا قد دعا إلى أن يضع الشاعر بين أبياته ما يربط بين هذه الأبيات حتى تتسق القصيدة، فذلك لأنه دعا إلى وحدة القصيدة دعوة حارة، وهو فى ذلك يشبه آراء النقاد المحدثين اذ يقول: (وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره، ..) فان قدم بيت على بيت دخله الخلل... فإن الشعر إذا أسس تأسيس كلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها،

لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة، فى اشتباه أولها بآخرها، نسجا حسنا، وفصاحة وجزالة ألفاظ، ودقة معان، وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا، حتى تخرج القصيدة كلها كأنها مفرغة افراغا. تقتضى كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها، مفتقرا إليها.

ولكن ينبغى أن نشير هنا إلى أن ابن طبا طبا مع دعوته إلى وحدة القصيدة والتلاؤم بين أجزاءها، لم يمنع أن تشتمل القصيدة والتلاؤم بين اجزائها، لم يمنع أن تشتمل القصيدة على الغزل والمدح، على أن يتخلص من أحدهما إلى الآخر بألطف تخلص، بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله، بل يكون متصلا به، وممتزجا معه.

الصدق فى الشعر ضرورة :

ألح ابن طبا طبا على ضرورة الصدق، والمقصود صدق ابن التجربة ونكاد اليوم نعبر كما عبر ناقدنا العربى القديم عندما قال بعد حديثه عن أسباب تاثير الشعر فى النفس: (فإذا وافقت هذه المعانى هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها، لا سيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس، بكشف المعانى المختلجة فيها، والتصريح بما كان يكتم منها، والاعتراف بالحق فى جميعها).

هذه النظرة الصائبة، إلى الصدق فى الشعر يرى ابن طبا طبا أنها كانت متحققة فى شعراء الجاهلية وشعراء صدر الإسلام.

نظرة من المبالغة والإغراق فى الشعر :

غير أن شيئا يحتمل الكذب فيه فى حكم الشعر، ذلك هو الإغراق فى الوصف، والإفراط فى التشبيه، ويورد الناقد أمثلة للأبيات التى أغرق قائلوها فى معانيها.

ويبدو أن ابن طبا طبا لم يكن راضيا عن هذا الإغراق، فإنه يقول بعد ان أورد أمثلة:

(وقد سلك جماعة من الشعراء المحدثين سبيل الأوائل فى المعاني التى أغرقوا فيها)، فالتعبير بجماعة يشعر باتجاهه الذى لا يرضى عن هذا الاغراق، كما أنه عندما تحدث عما يجب على الشاعر أن يتبعه، كان من ذلك أن يتعمد الصدق والوفق فى تشبيهاته وحكاياته، وأن حرارته فى الحديث عن الصدق تدل على كراهته البالغة والإغراق.

الألفاظ كسوة المعاني ، والكسوة زينة :

وللشعر الجيد صفات يجب أن تتحقق فيه، وأخرى يجب أن يبرأ منها، **فمما ينبغي أن يتحقق فى الشعر:**

جودة معناه، فالكلام الذى لا معنى له كالجسد الذى لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: الكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه.

وأن تشاكل الألفاظ المعاني، بمعنى أن يتأنق الشاعر فى اختيار ألفاظه حتى تبدو المعاني فى صورة قوية رائعة، فإن الألفاظ للمعاني كالمعرض للجارية الحسناء التى تزداد حسنا فى بعض المعارض دون بعض. وكم من معنى حسن شين لمعرضه الذى أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه، وكم من زائف وبهرج قد نفقا على نقادهما، وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها ولو جليت فى غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها.

وهو بذلك كنقاد العرب الذين يعنون عناية كبرى بالصياغة وجمال عرض المعانى، ولم يحدد ابن طبا طبا، القبح فى المعنى، ولكنه ضرب الأمثلة للمعانى الواهية.

وأحسن الشعر ما وضعت فيه كل كلمة فى موضعها، حتى تطابق المعنى الذى أريدت له، من غير حشو يجتلب، كأنما جئ به لإكمال الوزن، ومن غير تفريق بين الكلمة وأختها، وأن تكون سهلة على اللسان، غير مستكرهة فى مكانها ولا متعبة.

ومن الكلمات التى ينبغى أن توضع فى مكانها قافية البيت، ، فينبغى أن تكون قد جاءت لمعنى يكمل به معنى البيت، لا ليتم بها وزن الشعر ليس غير، فيكون ما قبلها مسوقا إليها، ولا تكون مسوقة إليه، فتقلق فى مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، ومعنى ذلك أن القافية ينبغى أن يسوق إليها معنى البيت، فتأتى لتكمل معناه، وتكون لذلك مستقرة فى مكانها غير قلقة ولا متعبة، أما إذا تم المعنى بدونها، واستجلبت القافية قسرا، ليكمل وزن البيت من الشعر فحسب، فبأنها تكون قلقة لا تتصل بما قبلها.

أما ما ينبغى اجتنابه فى الشعر، فالتفاوت فى نسجه، فإذا أسس الشاعر شعره على أن يأتى فيه بالكلام البدوى الفصيح لم يخلط به الحضرى المولد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها ، وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القياد.

ودعا ابن طبا طبا الشاعر أيضا إلى اجتناب سفساف الكلام، وسخيف اللفظ، والمعانى المستبردة، والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، وجعل هذه الأشياء كأنما هى رقعة بالثوب الجميل. ودعا إلى أن يستعمل الشاعر المجاز ما يقارب الحقيقة، ولا يبعد عنها ، ومن الاستعارات ما يليق بالمعانى التى يأتى بها.

الشاعر والعقل :

وعاب ابن طبا طبا أن تزيد قريحة الشاعر على عقله، ومعنى زيادة القريحة أن يستغرق الشاعر فى فنه، يبحث عن معنى له قيمته فى حد ذاته، بقطع النظر عن الظروف الأخرى، ومن الأمثلة التى ساقها الناقد العربى لذلك قول جرير:

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إلى قطينـــا

فالشاعر هنا قد استغرق فى فن الفخر بنفسه، ومما لا شك فيه أن فخره يزداد قوة بأن يكون قريبا لخليفة دمشق، وأن يكون الخليفة بحيث لا يرد له طلبا، فلو أنه طلب منه أن يجعلهم خدما له لنفذ الخليفة له ما يريد. ونسى جرير فى غمرة الفخر أن الخليفة أكبر من أن يؤمر ولذلك يروى أن الخليفة قال له: جعلتنى شرطيا لك. أما لو قلت : لو شاء ساقكم إلى قطينا، لسقتهم إليك عن آخرهم.

وابن طبا طبا فى هذا المقام يشبه النقاد المحدثين فى نظريتهم الموضوعية إلى الشعر، فإن الشعر إذا كان ذاتيا، يصور تجربة ذاتية للشاعر، يختص بها، ولها سماتها ومعالمها التى تخصه وحده، فإن على الشاعر أن يتخذ هذه التجربة الذاتية موضوع تأمله، يحكم فيها عقله، وينفذ فيها ببصيرته، ويعرضها على تفكيره، ليقبل منها ما يرضاه عقله، ويرفض ما لا يرضاه. ولذلك جعل ابن طبا طبا جماع الأدوات التى يحتاج إليها الشاعر كمال العقل الذى به تتميز الأضداد، وعليه أن يحضر ذهنه عند كل مخاطبة ووصف، ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها.

الشعر المقبول:

وجعل ابن طبا طبا مقياس قبول الشعر ورفضه أن يورد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجه ونفاه فهو ناقص.

ويعلل ابن طبا طبا لقبول الفهم الناقد للشعر الحسن، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرهه لما ينفيه، بأن كل حاسة من حواس البدن انما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها ورودا لطيفا باعتدال ، فالعين تألف المرأى الحسن، وتنأى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل الرائحة الطيبة، ويتأذى بالنتن الخبيث، والفم يتلذذ بالمذاق الحلو، ويمج البشع المر، والأذن تتشوف للصوت الجميل الخفيض الساكن، وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم، وتتأذى بالخشن المؤذى، وكذلك الفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، ويتشوف إليه، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر. وعلة كل حسن مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفى الاضطراب.

ويذكر لقبول النفس للشعر علة أخرى، تلك هى أن تجد الشعر مترجما عما تحس به، فإذا ورد عليها فى حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له، وحدثت لها أريحية وطرب.

ولا ينسى ما للوزن من أثر فى النفس، فللشعر الموزون ايقاع يطرب الفهم لصوابه، وما يرد عليه من حسن تركيبه، واعتدال أجزائه.

فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ، فصفا مسموعه ومعقوله تم قبوله، وأن نقص جزء من أجزاءه التى يعمل بها، وهى اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ، كان انكار الفهم اياه على قدر نقصان إجزاءه. ومثال ذلك الغناء المطرب الذى يتضاعف له طرب مستمعه المتفهم لمعناه ولفظه، مع طيب ألحانه، فأما المقتصر منه على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطرب.

ولحسن الشعر وقبول الفهم اياه علة أخرى، وهى موافقته للحال التى يعد معناه لها، كالتحريض على طلب القتال عند طلب المغالبة، وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق، واهتياج شوقه، وحنينه إلى من يهواه. ويسجل ابن طبا طبا أثر الشعر فى النفس، فيرى أنه يمازج الروح، ويكون أنفذ من نفث السحر، وأخفى دبيبا من الرقى، وأشد اطرابا من الغناء.

الشعر الجيد يمكن نثره:

وله مقياس يقيس به الشعر المحكم المتقن، هو أن ينثر، فالأشعار الانيقة الألفاظ، الحكيمة المعانى، العجيبة التأليف، هى التى اذا نقضت وجعلت نثرا، لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة تأليفها، أما الأشعار المموهه فهى التى لا يصلح نقضها لبناء يستأنف منه.

الشعر واستكراه القوافي:

كثيرا ما يعقد ابن طبا طبا الموازنة بين الشعر والنثر، فللشعر فصول كفصول الرسائل، بل انه يرى الشعر رسائل معقودة، والرسائل شعرا محولا. ويرى الشعر المتقن هو الذى يخرج خروج النثر فى سهولة، وعدم استكراه قوافيه أو التكلف فى معانيه. ويورد من الأمثلة ما يبين به ما بين الشعر والنثر من أخذ وعطاء، وكل ذلك مع اعترافه بما لموسيقى الشعر من أثر عميق فى النفوس.ومن الشعر الرائق سمعا، الواهن معنى والشعر عند ابن طبا طبا أنواع: فمنه شعر محكم النسج، متمكن القوافى، كقول أبى ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجع — والدهر ليس بمعتب من يجزع
وإذا المنية أنشبت أظافرها — ألفيت كل تميمة لا تنفـــع
والنفس راغبة إذا رغبتها — وإذا ترد إلى قليل تقنـــع

ومنه شعر حسن الألفاظ المستعذبة الرائقة سماعا، الواهية معنى، كقول جرير:

ان الذين غدوا بلبك غـادروا — وشلا بعينك لا يزال معينـا
غيضن من عبراتهن، وقلن لى: — ماذا لقيت من الهوى ولقينا

الشعر فى حاجة إلى التهذيب :

وابن طبا طبا لا يكتفى بما يرد على الخاطر من أول الأمر، ولكنه يدعو إلى أن يعاود الشاعر شعره بالتهذيب والتثقيف والنقد، وقد سبق أن رأيناه عندما كان يتحدث عن الإنتاج الأدبى يدعو الشاعر إلى أن يتأمل ما قد أداه إليه طبعه، فيستقصى انتقاده، ويرم ما وهن منه.

وفى موضع آخر يدعوه إلى ألا يظهر للناس شعره إلا بعد اصلاحه، وثقته من جودته.ويرى الشاعر قديرا على التثقيف والتهذيب، حتى يسلس له القول، ويطرد له المعنى.

- **الشاعر يبتكر ولا يعيش على معانى الشعراء**

ويدعو الشعراء إلى الإبتكار، ويكره ان يعيش الشاعر كلا على الشعراء، يغير على معانيهم، فيودعها شعره، ويخرجها فى أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التى يتناول منها ما يتناول، ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يستر سرقته، أو يوجب له فضيلة. على أنه مع ذلك لا يحرم على الشاعر أن يأخذ معنى سبق به على شريطة أن يبرزه فى أحسن من الكسوة التى كان عليها، وحينئذ لا يعاب، بل يكون له فضله واحسانه، فلا بد من عمل يبذله الشاعر، وجهد يؤديه، وإلا صار شعره كالشئ المعاد المملول.

وهو، مع دعوته إلى الابتكار نبه إلى ضرورة أن تكون عين الشاعر يقظة متنبهة لما يجد فى الزمن من أمور تخالف العصور السابقة، ليكون فى الشعر غرائب مستحسنة، وعجائب بديعة مستطرفة، من الصفات وحكايات ومخاطبات فى كل فن توجبه الحال التى ينشأ قول الشعر من أجلها.

- **ومطلع القصيدة وحسن التخلص**

وعنى ابن طبا طبا عناية خاصة بمطلع القصيدة، وحسن التخلص فيها، ولعل ذلك راجع إلى أن المطلع له أثره فى السامع وجذب انتباهه إلى ما يلقيه الشاعر، وللأثر الأول فى النفس عمقه وبقاؤه.

وعنايته بحسن التخلص ليبقى للقصيدة انسجامها وترابطها. فينبغى للشاعر أن يحترز فى مفتتح أشعاره مما يتطير به، أو يستجفى من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء، ووصف أقفار الديار، وتشتت الآلاف، ونعى الشباب، وذم الزمان، ولا سيما فى القصائد التى تضمن التهانى، وتستعمل هذه المعانى فى المراثى، ووصف الخطوب الحادثة، حذرا أن يتطير السامع، وان كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه.

ويرى ان حسن التخلص، والتلطف فى وصل مقدمة القصيدة بالغرض منها، مما أبدعه المحدثون من الشعراء، دون من تقدمهم.

ابن طبا طبا يعجب بالأقدمين من الشعراء:

وناقدنا العربى هذا يحمل للمتقدمين كل تقدير واكبار، ويؤمن بما وهبوه من طبع دقيق، فاذا اتفق لك فى أشعار العرب التى يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول فابحث عنه، ونقر عن معناه، فانك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدق طبعا من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته.

ولكنه مع ذلك ينقدهم، كما رأيناه عند تصريحه بأننا نجد عندهم أبياتا لا يلتئم شطراها، كما سبق أن مثلنا. ولا يتعصب ضد المحدثين من الشعراء، ويراهم قد سلكوا منهاج من تقدمهم بل يراهم قد أبدعوا وأجادوا، ويعرف لهم ذلك بخاصة فى حسن التخلص وجمال القوافى. وهو صريح فى تقريره ان تقدم الزمن لا يكسب الشعر مزية وفضلا، ويقدر كذلك أن المولدين فى أشعارهم بعجائب، وان كانوا قد استفادوا ممن تقدمهم، ولكنها تسلم لهم إذا ادعوها للطيف سحرهم فيها.

غير أن له فى القدماء والمحدثين رأيا لا نتفق معه فيه، وربما كان متأثرا فى ذلك بابن قتيبة، اذ يرى أن أشعار المحدثين متكلفة غير صادرة عن طبع صحيح ، لا مكان له من الصحة ، فكثير من الشعراء المحدثين مطبوع يصدر شعره عن قريحة فياضة لا شك فيها، والحكم بأن العرب لم يكونوا يجدون مشقة فى انتاج شعرهم مما لا يقره تاريخ أدبهم، فمن شعرائهم من كان يتوفر على انتاجه وقتا طويلا، حتى يخرج انتاجه مهذبا مصفى، ويعترف ابن طبا طبا بأن صناعة الشعر أشق على شعراء زمانه منها على من كان من قبلهم، ويعلل ذلك بأن القدماء قد سبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وكان من نتيجة ذلك أن المحدثين اذا أتوا بما يقصر عن معانى السابقين، لم يتلق شعرهم بالقبول.

ولعل السر فى هذه المشقة أن المحدثين لم يفتحوا من أبواب الشعر غير تلك الأبواب التى كانت للسابقين، ولو أنهم طرقوا أبوابا أخرى لوجدوا مجال القول واسع الميدان.

حفظ الجيد من الأشعار ذخيرة :

ومنهجه فى تربية الذوق والتدريب على الانتاج الأدبى الجيد هو الاتصال بالنصوص الأدبية، لتأملها وتقويم اللسان بها، لا ليعيش كلا عليها، ومن أجل ذلك ألف كتابه: (تهذيب الطبع)، وأكثر من الشواهد فى (عيار الشعر)، فعلى الشاعر، كما قال: "أن يديم النظر فى الأشعار التى قد اخترناها، لتلتصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها فى قلبه، ويذهب فى ذلك إلى ما يحكى عن خالد بن عبد الله القسرى قال: (حفظنى أبى ألف خطبة، ثم قال لى: تناسها، فتناسيتها، فلم أرد بعد ذلك شيئا من الكلام إلا سهل على)، فكان حفظه لهذه الخطب رياضة لفهمه، وتهذيبا لطبعه، وتلقيحا لذهنه، ومادة لفصاحته، وسببا لبلاغته، ولسنه وخطابته. ولا يزال لهذا الرأى وجاهته فى تربية الذوق، وتثقيف الشاعر، وتقويم طبعه.

- **كتب النقد التى سبقت ابن طبا طبا وتأثر بها**

وشهد العصر الذى عاش فيه ابن طبا طبا بعض الكتب التى ألفت فى النقد الادبى، وورث بعضها. منها:

١- فمن ذلك كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، ويظهر انه قرأ هذا الكتاب، وتأثر ببعض آراءه، رغبة منه فى تقسيم الشعر، فاننا نجد بين التقسيمين كثيرا من التشابه.

٢- ومن كتب ذلك العصر كتاب (قواعد الشعر) لثعلب، ولا نكاد نجد صلة تربط بين الكتابين، لا من حيث المادة، ولا من حيث الاتجاه، ولا من حيث المعالجة لما اتفقا فيه من بعض الموضوعات.

٣- أما صلته بابن المعتز فيقول عنها ياقوت: "ذكر أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصبهانى قال: سمعت جماعة من رواة الأشعار ببغداد يتحدثون عن عبد الله بن المعتز أنه كان لهجا بذكر أبى الحسن: (ابن طباطبا)، مقدما له على سائر أهله، ويقول: ليس فى ولد الحسين من يشبهه". وكان يعرف شعر ابن طبا طبا.

ويذكر ابن طبا طبا أنه مشتاق دوما إلى " عبد مشتاق دوما ، أو يرى شعره، فأما لقاؤه فلم يتفق له، لأنه لم يفارق أصبهان قط، وأما ظفره بشعره، فانه اتفق له فى آخر أيامه.

ومن الجائز أن يكون ابن طباطبا قد عرف بعض من شعر عبد الله بن المعتز وعرف كتابه في البديع وربما كان لذلك أثره فى اكثار ابن طباطبا من الشعر فى الطبيعة، وفى تأليف كتبه، فهو أمير علوى، ليس بغريب أن يتشبه بأمير عباسى. غير أن هناك فرقا كبيرا فى اتجاه كتابى الرجلين، فإذا كان اتجاه ابن طباطبا اتجاه علميا لبيان نظم الشعر، وما ينبغى أن يتحقق فيه ليكون جيدا، ودراسة أسباب تأثير الشعر فى النفس، فان كتاب البديع لبن المعتز يحدد صاحبه هدفه بقوله: قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرءان واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله علية وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون "البديع"، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس، ومن تقبلهم، وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم، فعرف فى زمانهم، حتى سمى بهذا الاسم..

وتحدث "المبرد" فى كتابه: "الكامل"عن التشبيه، قبل ابن طباطبا، ولكن لم يبد أثر واضح لهذا الفصل فى كتاب عيار الشعر. ونجد أيضا كتاب نقد الشعر، لقدامة ابن جعفر وقد تعرض الناقدان لأمور اشتكا فى الحديث عنها: فمن ذلك حديثهما عن العروض، وأن وزن الشعر يعود إلى طبع فى الشاعر، لا إلى تعلم ذلك العلم، ولا يحتاج أحدهما فى ذلك أن يأخذ عن صاحبه.

أثر بن طباطبا فيمن جاء بعده :

وظهرت آراء ابن طباطبا وبدا أثره فيمن جاء بعده من النقاد:
فرأينا المرزباني فى كتابه الموشح يروى آراءه فى الشعر، وقد ينقل عنه عدة صفحات متوالية، وأما صلته بأبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين، فقد رأيناه ينقد بعض شعره، كقوله:

فيا لائمى، دعنى أغالى بقيمتى   فقيمة كل الناس ما يحسنونه

ونجد المرزوقى فى مقدمته لشرح الحماسة ينقل بعض آراءه، موافقا لها كنقله رأيه فى أن الشعر هو ما أن عرى من معنى بديع لم يعر من حسن الديباجة، وما خالف هذا فليس بشعر.

ويشارك ابن خلدون ابن طبا طبا رأيه فى تربية الذوق الأدبي إذ يرى وسيلة ذلك مخالطة كلام العرب، فبها تحصل الملكة لتذوق الكلام، ويستعان على نظمه. ووجدنا صدى لآرائه فى طريقة نظم الشعر، وضرورة تثقيفه وتنقيحه عند ابن أبى الإصبع المصري، فرأيناه يوصى الراغب فى نظم القريض أن يحصل المعنى قبل اللفظ، وأن يعمل الأبيات مفرقة بحسب ما يجود بها الخاطر، ثم ينظمها بعدئذ.

ويظهر أن آراء ابن طبا طبا كان لها صدى فى أوساط النقد الادبى وكان كثير من العلماء يحتجون بها، وكان بعض النقاد يعارض بعضها، ويخطئه. وقد رأينا صدى ذلك فى كتاب ألفه الآمدى فى (إصلاح ما فى عيار الشعر لابن طبا)، كما حدثنا بذلك ابن النديم فى كتابه الفهرست.

ولسنا ندرى مآخذ الآمدى على الناقد العلوي، لأن الكتاب لم يرد إلينا. ولسنا ندعى أن آراء ابن طبا طبا فى النقد الأدبي وإنتاج الشعر صحيحة كلها، ولكننا نقول إنها آراء جديرة بإنعام النظر والعناية.

وبعد فهذه دراسة لناقد عربي مضى عليه أكثر من ألف عام، ولا تزال لآرائه جدتها وحيويتها، ولها مكانتها فى مجال المناقشة والموازنة بين ما اهتدى إليه الآباء منذ القدم، وما وصلنا إليه فى العصر الحديث.

أبو الفرج الأصفهاني وكتاب الأغاني (١)
(٢٨٤-٣٥٦هـ) (٨٩٧-٩٦٦م)

هو بن الحسين بن محمد ، د بأصفهان سنة ٢٨٤هـ وتوفى ببغداد سنة ٣٥٦هـ. ويتصل نسبه بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بالمشرق.

وقد جمع كتابه **الأغاني** فى ما يقرب من خمسين عاما، وأهداه إلى سيف الدولة بن حمدان، فكافأه بألف دينار. ولما بلغ ذلك الصاحب ابن عباد قال: لقد قصر سيف الدولة، وإنه ليستحق أضعافها. روى أن الحكم المستنصر أحد خلفاء بنى أمية بالأندلس بعث إلى أبى الفرج ألف دينار فبعث إليه نسخة من الأغاني قبل أن يخرجه بالعراق.ويروى عن الصاحب ابن عباد أنه كان إذا سافر استصحب معه أحمالاً من الكتب على عدة من الإبل، فلما ظفر بنسخة من الأغاني اصطحبها قبل غيرها من الكتب. (٢)

وترجع شهرة كتاب الأغاني من يوم تأليفه وحتى يومنا لكثرة تردده فى كل بلد عربي، وفى كثير من غير البلاد العربية، وسيظل اسمه مترددا ما دام على الأرض ناطق باللغة العربية، لا يخلو من قارئ له، أو ناقل عنه، أو سامع بعض ما جاء فيه.
ذلك أن صاحبه أبا الفرج أودعه الكثير والكثير من الأشعار والأخبار، واللطائف والطرائف، فصار غاية يبحث عنها كل مثقف، ويتطلع إليها كل أديب ومتأدب.وما حاول أحد قراءة بعض هذا الكتاب إلا شُغف به حبا، وأكبَّ عليه قراءة. وأوغل فيه استقصاء، ثم خرج من كل هذا بثروة واسعة فى الثقافة واللغة والأسلوب الفني البليغ.
أما القصص التى تتناثر فى أثنائه، فتمتاز بحسن العرض، وجمال السبك، ودقة الملاحظة.

وكل أعلام الأدب ممن مضى ومن بقى وممن سيأتون يذكرون أو سيذكرون فضله عليهم فى أساليبهم الممتازة وعباراتهم الرائقة.
يقول صاحب الكتاب يعرض علينا بعض ما قاله عنه، مقدماً له، حاكياً عن نفسه وفعله .

---

(١) من يرغب في معرفة المزيد من المعلومات عن الأصفهاني يمكن الرجوع إلى محمد أحمد خلف الله : صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني " الرواية " ط ٣ دار الكاتب العربي ١٩٦٨ وهذا الكتاب خلاصة لكتابين أولهما الأغاني وثانيهما مقاتل الطالبين . الأول في طبعة بولاق والثاني في طبعة بغداد وطبعة القاهرة .
(٢) الصاحب بن عباد (٣٢٦ ــ ٣٨٥ هـ) أحد أعيان الأدب الذين ملكوا زمام هذا الفن وبرزوا فيه ، وبه عرفوا وذاع صيتهم وقد فاق في أدبه وفي تنوع فنونه أدباء عصره نثرا وشعرا . وقد اجتمعت له من أسباب القدرة والتمكن في فنون القول فهو تلميذ ابن العميد الذي أخذ عنه أصول فن الكتابة راجع بدوي طبانة (الصاحب من عباد الوزير الأديب العالم لعرب ١٩٦٤

"هذا كتاب ألفه على بن الحسين بن محمد القرشى، الكاتب المعروف بالأصبهانى وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه، من الأغانى العربية قديمها وحديثها، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره. وصانع لحنه، وطريقته من إيقاعه... ولم يستوعب كل ما غُنّى به فى هذا الكتاب، ولا أتى بجميعه، إذ كان قد أفرد لذلك كتاباً مجرداً من الأخبار، ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر، واعتمد فى هذا الباب – على ما وجد لشاعره أو مغنيه، أو السبب الذى من أجله قيل الشعر، أو صنع اللحن – خَبَراً يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه، على أقصر ما أمكنه، وأبعده من الحشو والتكثير بما تقلُّ الفائدة فيه.

وأتى فى كل فصل من ذلك بنتف تشاكله، ولُمَع تليق به، وفِقَر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى مثلها؟، ومتصرّفاً فيها بين جدّ وهزل، وآثار وأخبار، وسِيَرٍ وأشعار، متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك فى الجاهلية، والخلفاء فى الإسلام، تجمل بالمتأدبين معرفتها، وتحتاج الأحداث إلى دراستها، ولا يرتفع مَنْ فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها، إذ كانت مُنتخبة من غُرر الأخبار، ومنتقاة من عيونها، ومأخوذة من مظانّها، ومنقولة عن أهل الخبرة بها، فصدَّر كتابه هذا ويبدأ فيه بذكر المائة الصوت المختارة لأمير المؤمنين الرشيد رحمه الله تعالى"...وبعد أن يذكر أنواع ما جاء به وما أضافه من الألحان يقول...

"وأتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم، ثم سائر الغناء الذى عَرَفَ له قصة تستفاد، وحديثاً يستحسن، إذ ليس لكل الأغاني خبر، ولا فى كل ما له خبر فائدة، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع"... (١)

غاية الأصبهاني الغناء وأصحابه:

لم يكن الهدف من تأليف الكتاب هو الشعراء، وإنما الغاية من تأليفه ذكر الغناء والمغنين. والغناء يجرى فيما قاله الشعراء، لذا جاء ذكرهم تبعاً، لكن ما كتبه عنهم من أنساب وأخبار وطرائف، ومن نقد للشعر أو استحسان صيَرهم بحيث يبدو للقارئ أنهم هم المقصودون بالتأليف، مما جعل كتابه مرجعاً أدبياً وتاريخياً حافلاً، لاسيما أن طرائق الغناء المذكورة استَبْهَمَ بعضُ شرحها على طول الزمن، وجدَّتْ بدلَها أنواع وأشكال وفنون. وظلت الأساليب الأدبية، والأوصاف الباهرة، والمعاني العميقة، والألفاظ الرشيقة، تتحدى الزمن عذوبة وحلاوة، تقيم الألسنة وتيسر الصياغة البارعة لمن شاء.

وقد نبهنا إلى أنه لم يصنفه أبواباً على طرائق الغناء، أو على طبقات المغنين فى أزمانهم ومراتبهم، أو على ما أغنى به من شعر شاعر، وأنه لم يستوف فى الموضع كلَّ ما قيل.ثم بَيَّن المانع من ذلك والباعث على ما فعل. (٢)

---

(١) الخطيب : تاريخ بغداد جـ١١ صفحات ٢٩٩ ، ٣٥٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤١٥
(٢) ابن شاكر : عيون التواريخ مخطوط دار الكتب المقدمة

والحق أن الكتاب حافل بالأخبار والآثار التى لا تملها النفس. كل هذا يسوقه بطريقة السند إلى من كان أصلاً فى النص المروى. أو الكتاب الذى نقل منه. حريص على أن ينسب الفضل إلى ذويه، ويتبين مدى الجهد المبذول فى البحث والاستقصاء وكثرة المراجع.ويجد أكثر علماء الأدب فى عصرنا أن المشكلة التى يضيقون بها فى كتاب الأغاني هى كثرة الأسانيد

"حدثنا فلان عن فلان... ... ..." وتعدد الرواية للخبر الواحد لاختلاف فى ألفاظ أو لاختلاف أحد الرواة. وتلك كانت إحدى الميزات التى يعتزُّ بها المؤلفون القدامى، ليوثقوا عملهم وليبرئوا أنفسهم مما قد يكون فى الخبر من غرابة. والذين يُعنون بالتمحيص والتدقيق يهمهم أن يعرفوا رواة الأخبار، بعد أن يعرفوا شيئاً من حياتهم، ومدى صدقهم وصلتهم بالأحداث، ومن هذا يستطيعون الحكم على النص ومدى الاستعداد لتقبله والرضا عنه. (١)

والحق أن المشتغلين بالدراسات الأدبية والشعرية الأصلية، والباحثين وراء الخبر الصحيح، ينتفعون كل الانتفاع بذكر الرواة، لأن ذلك يرشدهم إلى المنبع الذى تسلسل عنه الخبر، وبعض الرواة له كتب مطبوعة، أو ما تزال مخطوطة وتحتاج إلى تصحيح وتحقيق. فمثلاً لابن الكلبي كتاب فى الأنساب ولابن سعد كتاب فى التراجم يسمى الطبقات، ولابن سلام كتاب فى طبقات الشعراء. وللبلاذرى كتاب اسمه أنساب الأشراف وكتاب اسمه فتوح البلدان وللزبير بن بكار كتاب فى نسب قريش.. وهكذا، وكل هؤلاء وغيرهم ممن لهم آثار، روى عنهم أبو الفرج الأصفهاني، أو نقل من كتبهم أو روى عمن روى عنهم.

ونستطيع بالرجوع إلى مؤلفاتهم أن نجد نصوصه التى ذكرها منطبقة على ما فى كتبهم الخاصة بهم، وبهذا نتأكد من أن ما أثبته لم يكن أخباراً مفتعلة، ولا نصوصاً زائفة. (٢)

تراجمه وأشعاره:

والتراجم التى فى "الأغاني" تقرب من سبعمائة، لشعراء وشاعرات، ولمغنين ومغنيات، ولحروب وغزوات.أما من نُسب إليهم شعر فيه، فإنهم لا يقلون عن ألف ومائتين.

والشعر الذى جاء فيه يتجاوز ثلاثين ألف بيت من الشعر، منه ما جاء مفردا، أو مع بيت أو بيتين، ومنه ما جاء مقطوعات، ومنه ما جاء قصائد. ذاكراً بحوره وأوزانه، و أحاديث، وأمثال، وطرائف ولغة ونوادر... (٣)

---

(١) الأصفهاني : الأغاني جـ ٢ ص ٢٢٠ ، ٢٥٨
(٢) ياقوت : معجم الأدباء جـ٣ ص ١٣٠
(٣) المرجع السابق ص ١٣١

تحقيق كتاب الأغاني وطباعته :

طبع كتاب الأغاني فى مطبعة بولاق بالقاهرة فى سنة ١٢٨٥ هجرية ١٨٦٨م فى عشرين جزءا. وكان الاعتماد فى طبعه على نسخة خطية غير وافية. زادها سوءاً أن الكلمات كانت من غير ضبط، والكلام بدون علامات الترقيم.

وجاء المستشرق رودلف برونكي **Brunkes** الأمريكي الجنسية، والألماني الأصل (١٨٥٨ - ١٩١٧) فراجع التراجم الموجودة فى العشرين جزءاً، وذلك على مخطوطات للأغاني وجدها فى ألمانيا فى مدينة ميونخ. ووجد بعض التراجم والأخبار لم تذكر فى طبعة بولاق. فجمع ما وجده، ورتبه ترتيباً هجائياً، وطبعه فى جزء واحد، سمّاه الجزء الواحد والعشرين، ومازال بعض الناس يحسبون أن هذا الجزء هو مجلد مستقل من أغاني أبى الفرج الأصفهاني، وأنه كان مفقوداً فوجد، وأنه كان آخر أجزائه، فى حين أنه أشتات متفرقة لنقص الأصل الذى اعتمد عليه.

وجاء المستشرق الإيطالي جويدى Ignazio Guidi (١٨٤٤-١٩٣٥) فعمل فهرساً لطبعة بولاق والجزء الواحد والعشرين، وطبع هذا الجزء باسم "جداول الأغاني" وهو فى الحق كان نافعاً أشد النفع، على الرغم مما جاء فيه من خطأ وتوهم ونقص، تبعاً لنقص الأصل الذى اعتمد عليه.

وفى سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥) طبع كتاب الأغاني فى مطبعة التقدم، نقلاً عن طبعة بولاق والجزء الواحد والعشرين. وألحق بهذه الطبعة فهارس مترجمة عن فهرس المستشرق الإيطالي جويدى واشتهرت باسم "طبعة الساسى" لأنه ناشرها.

وفى سنة ١٩٢٥ دفعت الرغبة أحد الكرام الأجلاء المقدرين للعلم والأدب، وهو المرحوم السيد على راتب، بالقاهرة فوجه خطاباً إلى وزير المعارف إذ ذاك يعلن تبرعه لإعادة طبع الأغاني ليخرج الكتاب فى عناية وإتقان. ولقي معروفه أحسن القبول. وبدأت دار الكتب فى إصدار هذا الكتاب، مع ضبط وشرح وفى أحسن إخراج، وبفهارس وافية فى آخر كل جزء على حدة، حدث فى بعضها نقص، لنقص فى كفاية القائمين بها، أو عدم التدقيق فى القراءة.

وكان إلى سنة ١٩٥٠ لم يصدر منه إلا أحد عشر جزءاً تقريباً تعادل حوالي عشرة أجزاء من طبعة بولاق، فى مدة بلغت خمساً وعشرين سنة. على الرغم من وجود مطبعة لدار الكتب كاملة المعدات ، وعلى الرغم مما تحويه الدار من المراجع والمخطوطات التى لا تحصى والتى لا تتيسر للمشتغلين بالتحقيق بتمامها.

وحتى الآن صدر من الأغاني طبعة دار الكتب سبعة عشر جزءاً، وبقى ما لا يقل عن ثمانية إذا ساروا على تقسيمهم السابق. ومن عمل على نشره دار الفكر، ودار مكتبة الحياة ببيروت، ثم دار الثقافة ببيروت أيضا، وقد طلبت الدار حوالي سنة ١٩٥٨ من الأستاذ عبد الستار فراج تحقيق الأجزاء الباقية من الأغاني، والتى كانت بعد الرابع عشر من طبعة دار الكتاب، وقام فعلاً بتحقيق الخامس عشر والسادس

عشر.. حتى وصل إلى نهاية الكتاب، فبلغ ثلاثة وعشرين جزءاً، معتمداً فى ذلك على مخطوطات مختلفة، وأضفت الزيادات الموجودة بها من تراجم وأخبار فى الأقسام الباقية، ثم أضفت إلى ذلك كله الفهرس فى جزأين فصار خمسة وعشرين جزءاً، على أن اهتمام الناشر بأن يكمل الكتاب جعله ينقل طباعته إلى بيروت.

بعض مختصراته وترتيبها:

ومن عهد قديم بدأ الاختصار لكتاب الأغاني، والتخير لرواية واحدة، من الروايات المتعددة للخبر الواحد، مع حذف رجال السند.

وأهم مختصر له هو ابن منظور صاحب لسان العرب، فقد حذف الأسانيد، ورتبه ترتيباً هجائياً، ولكن ليس بالدقة التى ترتب بها الأعلام فى الحرف الواحد، والمهم عنده أنه أورد أولاً فى الكتاب يجئ أولاً، فمثلاً الأحوص يتقدم فى الترتيب فى مختصره على أبان اللاحقى، ذلك أن الأحوص أسبق فى أجزاء الأغانى التى عملها أبو الفرج الأصفهانى. والمهم عند ابن منظور أن كلاً منهما يبدأ بحرف الهمزة. وهكذا يفعل فيما أوله باء، وفيما أوله تاء إلى آخر التراجم.وسمى هذا الكتاب **"مختار الأغانى الكبير"** طبع فى القاهرة محققاً.

ومن المعاصرين لابن منظور أديب اسمه **محمد بن سالم المعروف بابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ**، وقد اختصر أيضاً كتاب الأغانى، ولكنه جعله على النظام الذى سار عليه أبو الفرج الأصفهانى، بدون ترتيب على حروف الهجاء، غير أنه حذف بعض التراجم وكثيراً من النصوص.وطبع هذا المختصر بالقاهرة، واسمه "تجريد الأغانى" بتحقيق أستاذنا الدكتور **طه حسين والأستاذ إبراهيم الإبيارى.**

والمهم فى "مختار الأغانى" لابن منظور و**"تجريد الأغانى"** لابن واصل الحموى أنهما بأسلوب أبى الفرج نفسه دون تغيير، ما عدا الاختصار الذى أجريناه فيه.ومن الذين رتبوا الأغانى بعد طبعه فى مطبعة بولاق المرحوم الأستاذ محمد الخضرى، وكانت طريقته فى الاختصار والترتيب، إذ رتب الشعراء على القبائل العربية التى تنتمى إليها نسباً أو ولاء. فإذا كانت تعرف قبيلة الشاعر ربما عثرت عليه بسهولة، وإلا فعليك أن تقلب جميع الأجزاء.

أما المصطلحات التى وضعها أبو الفرج ليبين طريقة المغنى فى تناول هذا الشعر، من أمثال قوله: "خفيف رمل بالبنصر" أو قلوه "ثقيل أول مطلق فى مجرى البنصر" أو قوله "خفيف ثقيل بالسبابة فى مجرى الوسطى".

فإن محاولات جرت لرسمها على الطريقة الحديثة، وممن فعل ذلك "الدكتور الحفنى. وله فى ذلك بعض المؤلفات. كما حاول شرحها بعض الأوروبيين، ونجد فى مجلة المجمع العلمى العراقى بحثاً مطولاً عنها. وهذا كله يعنى أهل الفن الموسيقى والمغنين. أما الذى يعنينا قراء وكاتبين فهو ما يشتمل عليه من أخبار ومعلومات وأساليب ومعان.

الحق أن كتاب الأغانى فيه ثروة أدبية كبرى، لم تجتمع فى غيره من الكتب. وهى كما قال عنها صاحبه. يجمل بالمتأدبين معرفتها. ويحتاج الأحداث إلى دراستها، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها".أنه كتاب فيه مجال للدراسات عظيم، ومعين للبحث لا ينضب. وروضة تنعم فى مغانيها النفوس.

أبو حيان التوحيدي
ت ٤١٣ هـ

من أعلام الحركة الفلسفية الأدبية في القرن الرابع الهجري ، عاصر رقي الحياة العقلية وتقدم العلوم والفنون وتنوع الثقافات والحركات الفكرية . جمع أبو حيان بين التراث اليوناني والثقافة العربية . مما أهله للقيام بدوره الحضاري في عصر المجالس الأدبية والندوات ، فكان أديب الثقافة الرفيعة والفكر الممتاز في كل منتدي وهو المحقق الناقد

ليس غريبا على إنسان اتخذ من القلم حرفته ، أن يجيء إنتاجه الفكري خصبا وافرا ، خصوصا وأنه عاش أكثر من ثمانين عاما .

وقد أورد ياقوت الرومي في معجمه ثبتا بأسماء بعض كتب أبي حيان ، فنص على ثمانية عشر كتابا هى : (١) الهفوات لابن الصابي (٢) الصداقة والصديق . (٣) الرد على ابن جني في شعر المتنبي (٤) الإمتاع والمؤانسة (٥) الإشارات الإلهية . (٦) الزلفى . (٧) المقابسات (٨) رياض العارفين . (٩) تقريظ الجاحظ . (١٠) مثالب الوزيرين . (١١) الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي . (١٢) الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة . (١٣) الرسالة البغدادية . (١٤) الرسالة في أخبار الصوفية . (١٥) الرسالة الصوفية (١٦) الرسالة في الحنين إلى الأوطان . (١٧) البصائر والذخائر . (١٨) المحاضرات والمناظرات (١) . (١)

وهناك كتب أخرى لم يشر إليها ياقوت ، بينما أشار إليها التوحيدي نفسه في ثنايا كتبه ، مثل كتاب " **النوادر** " وكتاب " **الكلام في الكلام** " . وقد زعم المستشرق مرجليوث أن للتوحيدي كتابين آخرين هما كتاب " **التذكرة التوحيدية** " وكتاب " **أخبار القدماء وذخائر الحكماء** " ، وربما كان هذان الكتابان هما كتاب " **الرسالة البغدادية** " وكتاب " **البصائر والذخائر** " باسمين مختلفين . وفي استطاعتنا أن نضيف إلى هذه القائمة كتبا أخري تم نشرها بالفعل ، مثل كتاب " **الهوامل والشوامل** " ، وكتاب " **رسالة في العلوم** " و كتاب " **رسالة الحياة** " ، وكتاب " **رسالة في علم الكتابة** " . هذا علاوة على " **رسالة الإمامة** " (المعروفة برواية السقيفة) و " المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتي ابن يونس القنائي " (وهى واردة بنصها في الجزء الأول من الإمتاع والمؤانسة) (٢) ، مما اضطلع بنشره بعض الباحثين في كتب أو رسائل قائمة بذاتها . ولا نستبعد أن تكون للتوحيدي كتب أخري لم يصل إلينا نبؤها ، فإن المعروف عن أبي حيان أنه كان غزير الإنتاج ، حريصا على النقل والرواية ، محبا للبحث والجدل . ولئن كان موضوع هذه الكتب لم يقف عند الفلسفة والأدب ، بل قد أمتد أيضا إلى الكلام والفقه والشريعة والتصوف والنحو واللغة الا أن أبا حيان قد التزم في معظمها أسلوبا واحدا إلا وهو أسلوب المحاورة والمسامرة ، فجاءت كتبه " سهلة المآخذ ، بعيدة عن التكلف والتعسف ، برينة من اللبس والغموض " .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء جـ١٥ ص ٥ ـــ ٨

(٢) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة . تحقيق ونشر أحمد أمين وأحمد الزين . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ٣ أجزاء ٣٩ ـــ ١٩٤٢ جـ٢ ص ٤٣

وسنحاول فيما يلي أن نتتبع موضوعات هذه الكتب ، مبتدئين بالمنشور منها ، دون إغفال لما وصل إلينا نبؤه من المخطوط أو المفقود منها .

١٧ ـ وأول ما نشر من كتب أبي حيان التوحيدي هو الكتاب الذي نشره سنة ١٣٠١ هجرية أحمد فارس الشدياق ـ صاحب مكتبة الجوائب بالقسطنطينية ـ حاويا رسالتين هامتين : الأولي منهما في " الصداقة والصديق " ، والثانية في " العلوم " . ولئن كانت طبعة هاتين الرسالتين قد جاءت حافلة بالأخطاء ، إلا أنها كانت الخطوة الأولي في سبيل تعريف الجمهور بإنتاج أبي حيان . وقد جمع التوحيدي في الرسالة الأولي معظم ما كتب عن الصداقة والصديق شعرا ونثرا ، لا عند العرب في الجاهلية والإسلام فحسب ، بل وعند اليونان والفرس وغيرهم من شعوب العجم أيضا . ولكننا نستطيع أن نستخلص من ثنايا هذا الكتاب أن التوحيدي قد كتبه في مرحلة متأخرة من حياته ، بدليل قوله : " ... كان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة والصدق أني ذكرت شيئا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير ، فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدي وسبعين وثلاثمائة ، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة والأحوال على إذلالها جارية ، فقال لي ابن سعدان ... دون هذا الكلام وصله بصلاته مما يصح عندك لمن تقدم ، فإن حديث الصديق حلو ، ووصف الصاحب المساعد مطرب ، فجمعت ما في هذه الرسالة . وشغل (ابن سعدان) عن رد القول فيها ، وأبطأت أنا عن تحريرها ، إلى أن كان من أمره ما كان ، فلما مر على ذلك بعض سنين ، عثرت على المسودة وبيضتها ... " ولعل هذا هو السبب في أن الرسالة قد جاءت عديمة التبويب والترتيب ، يكثر فيها الاستطراد والاستشهاد ، ويقل فيها الخلق والابتكار ، وإن كانت لا تخلو من ذوق في الاختيار . (١)

ولا تنحصر قيمة هذه الرسالة فيما احتوت عليه من حكم عربية وأجنبية في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والوفاء والغدر والوفاق والخلاف وما إلى ذلك فحسب ، وإنما تتجلي قيمتها بصفة خاصة فيما انطوت عليه من تفرقات لفظية دقيقة بين بعض الألفاظ المتشابهة التى شاع استعمالها كمترادفات ، فضلا عما جاء فيها من إنكار لمفهوم " الصداقة " بالمعني الأرسطاطي لهذه الكلمة . والتوحيدي يبدأ كتابة بقوله : " وقبل كل شيء ينبغي أن تثق بأنه لا صديق ولا من يشبه بالصديق " (٢) .
وأغلب الظن أن انعدام ثقة التوحيدي بالناس هو الذي أملي عليه هذه الحملة العنيفة على الصداقة والأصدقاء ، خصوصا وأنه قد أتم تأليف رسالته هذه في الدور الأخير من حياته " حين كان ينبغي آلام الغربة والفقر ومتاعب الشيخوخة " . ولا غرو فقد عاني أبو حيان الكثير من جراء عجزه عن التجانس مع أهل عصره ، حتى لقد انتهي به الأمر إلى الكفر بالصداقة ، والحكم عليها بأنها لفظ أجوف خلو من كل معني ! (٣)

---

(١) حسن السندوبي : مقدمة المقابسات . القاهرة ١٩٢٩ ص ١٨
(٢) أبو حيان التوحيدي : في الصداقة والصديق . القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٦
(٣) إبراهيم الكيلاني : أبو حيان التوحيدي . دار المعارف ١٩٥٧ ص ٣٩

ويروي لنا التوحيدي أن فيلسوفا سئل ذات يوم : " من أطول الناس سفرا ؟ " فقال : " من سافر في طلب الصديق " ! وأما عبارة أرسطو القائلة بأن " الصديق إنسانا هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك " ، فإن التوحيدي يعلق عليها بقوله : " أن الحد صحيح ، ولكن المحدود غير موجود " ! وفي هذا يختلف أبو حيان مع أستاذه أبي سليمان المنطقي ، فإن أبا حيان كان يري أن " عبارة أرسطو رشيقة ، ولكننا لا نظفر منها بحقيقة " بينما ذهب أبو سليمان إلى أن أرسطو " قد أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التى يتصادق المتصادقان بها . آلا ترى أن لهذه الموافقة أولا منه يبتدئانها ، وكذلك لها آخر ينتهيان إليه ؟ وأول هذه الموافقة توحد ، وأخرها وحدة . وكما أن الإنسان واحد بما هو به إنسان ، كذلك يصير بصديقه واحدا بما هو صديق : لأن العادتين تصيران عادة واحدة ، والإرادتين تتحولان إرادة واحدة ... "

. ويستطرد أبو سليمان السجستاني فيقول أن إنكار قيام الوحدة بين الأصدقاء إنما يرجع إلى أن الناس قد أصبحوا يحيون حياة التناكر والتنابذ والفرقة ، فهم على غاية " الافتراق للحسد الذي يدب بينهم ، والتنافس الذي يقطع علائقهم ، والتبادر الذي يثير البينونة فيهم " . ويمضي أبو حيان في عرض رأي أستاذه أبي سليمان فيروي لنا كيف أنه كان يعلي من شأن الصداقة ، على اعتبار أنها ليست مجرد صلة تقوم على الأخذ والعطاء ، بل هى رابطة شخصية تقوم على التبادل النفسي والتجاوب الروحي . وهذا هو الأصل في التفرقة بين " الصداقة " و " العلاقة " : فإن " الصداقة " أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، في حين أن " العلاقة "هي من قبيل العشق والكلف والهوى والصبابة ، وهذه كلها أمراض تطرأ على النفس الضعيفة ، دون أن يكون للعقل فيها أدنى مدخل . ومن هنا فإن الصداقة هى من شيم ذوي الشيب والكهولة ، في حين أن العلاقة هى أقرب دائما إلى نفوس الشباب من الذكور والإناث (١) .

والظاهر أن أبا الحيان التوحيدي لم يكن يريد لرسالته في الصداقة والصديق أن تطول إلى هذا الحد ، فإننا نراه يعتذر في خاتمتها عن كثرة الإطناب والإسهاب ؛ وكان ظنه في أولها أن تجيء لطيفة خفيفة يسهل انتساخها وقراءتها " فماجت بشجون الحديث ، وروادف من الطيب والخبيث ، فاقبل حفظك الله هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته . على أنك لو علمت في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أي حال تمت ، لتعجبت ، وما كان يقول في عينك منها يكثر في نفسك ، وما يصغر منها بنقدك يكبر ، والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة وعاقبة مفضية إلى كرامة ، فقد بلغت شمسي رأس الحائط ، والله أستعين ... " (٢) .

---

(١) أبو حيان التوحيدي : الصداقة والصديق ص ٢٧ ــ ٤٥
(٢) المرجع السابق ص ٩٩

وأما رسالة العلوم التى ألحقت بذيل كتاب " الصداقة والصديق " فهى عبارة عن بحث صغير في حوالي تسع صفحات ألفه التوحيدي للرد على القائلين بأنه " ليس للمنطق مدخل في الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير في الأحكام . " والكتاب ينطوي على دفاع عن العلم ، مع اهتمام بتحديد أنواع العلوم من فقه ، وسنة ، وقياس ، وعلم كلام ، ونحو ، ولغة ، ومنطق ، وعلم نجوم ، وحساب ، وهندسة ؛ وبلاغة ، وتصوف ولئن كانت معظم هذه التعريفات مأخوذة عن الحدود المأثورة التى كانت شائعة في عصره ، إلا أننا نجد أبا حيان يصوغها بعبارته الجزلة الدقيقة ، متوخيا تحديد معالم كل علم ، والتمييز بينه وبين ما عداه من العلوم الأخرى . ومن خير التعريفات الواردة في هذه الرسالة تعريف أبي حيان للبلاغة والفقه والتصوف ... ونحن نجد التوحيدي يقول في خاتمة حديثه عن التصوف : " وقد لحق الطريقة حيف لكثرة الدخلاء فيها ، كما لحق لكثرة مدعيها .

ومتى صح تصفحك ، علمت أن شيئا من هذه المعارف عند أصحابها ليس على حقيقة ما ينبغي ... الخ " وهذه العبارة إنما تدلنا على أن التوحيدي قد كتب رسالته في العلوم للحملة على بعض أدعياء العلم ممن اعتبرهم دخلاء على الدراسة العلمية الصحيحة ، في عصر اختلط فيه الغيث بالسمين ، والزائف بالأصيل !

١٨ ـ وقد كان الكتاب الثاني الذي نشر لأبي حيان التوحيدي هو كتاب " المقابسات " الذي تولى تحقيقه ونشره بمصر حسن السندوبي سنة ١٩٢٩ ، وكان قد طبع قبل ذلك بمدينة بومباي طبعتين حجريتين سنة ١٣٠٥ و ١٣٠٦ هـ على يد ميرزا محمد شيرازي . وهناك نسخة خطية من هذا الكتاب موجودة بجامعة ليدن بهولنده .

وقد وصف لنا المستشرق ما يرهوف كتاب " المقابسات " فقال أنه " يحتوي على ١٠٦ مقابسة أو محاورة بين العلماء ، وتدور حول التعاريف الفلسفية والطبيعيات والمنطق والإلهيات وموضوعات أخرى ... وليس لهذه المحاورات التى كتب المؤلف بعضها من عنده قيمة كبيرة . فهي موضوعة في قالب أدبي ، والملح تسودها إلى جانب التلاعب بالألفاظ . ولكن المهم هو الوسط العلمي الذي يدخلنا أبو حيان فيه : فجماعات من العلماء تجتمع غالبا حول أبي سليمان السجستاني في بيته أو تتقابل في سوق الوراقين في سوق أمام باب البصرة في بغداد ، حيث يوجد أكثر من مائة وراق بحوانيتهم . وكانت الجماعة مكونة من أناس مختلفي المشارب والنحل : فكانت تجمع بين المسلمين المختلفي المذاهب ، والنصارى ، والصابئة ، والعلماء الذين رحلوا إلى بغداد في الشرق ، ومن شيراز في الجنوب ، ومن حدود الإمبراطورية البيزنطية في الشمال ، لكي يحصلوا العلوم في قلب الإمبراطورية الإسلامية ... " ونحن لا نوافق ما يرهوف على قلة جدوى المحاورات التى نقلها إلينا أبو حيان ، فإن صياغتها في القالب الأدبي لا تنتقص من قيمتها العلمية (١)

(١) ماكس مايرهوف : من الإسكندرية إلى بغداد . بحث مترجم في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ترجمة عبد الرحمن بدوي . مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٠٠ ص ٨٩

، بل هي تدلنا على أن التوحيدي كان واحدا من أولئك " الأدباء الفلاسفة " أو " الفلاسفة الأدباء " الذين حاولوا في القرن الرابع الهجري أن يحيلوا الفلسفة إلى ثقافة شعبية يفيد منها العامة من الناس ، وينهلون من معينها شتي ألوان المعرفة . (١)

وهذا هو السبب في تنوع موضوعات " المقابسات " ، فإننا نراها تدور أحيانا حول موضوعات فلسفية صرفة كالعلة والمعلول ، والمكان والزمان ، والخالق والمخلوقات ، والتوحيد والتنزيه ، بينما تجدها تتطرق في أحيان أخرى لمواضيع نفسية وأخلاقية كتباين الأخلاق لدي الإنسان ، وكتمان السر وإفشائه ، وولوع كل ذي علم بعلمه ، وحقيقة الضحك وأسبابه ، وحديث النفس وما يغلب عليها ويصير ديدنا لها ، واختلاف العلماء في بطلان الرقي والعزائم والصداقة وفلسفة الحب والعشق .... الخ . وهناك موضوعات أخرى متفرقة يرد ذكرها أيضا في المقابسات كالحديث عن النثر والشعر وأيهما أشد أثرا في النفس ، وصلة الطبيعة بالصناعة في الفن ، وعلاقة النحو بالمنطق ، والفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة ، وعلة اختلاف الأجوبة في المسائل العلمية ، ومشكلة الحظوظ والأرزاق ... الخ . وهذا التنوع الكبير في موضوعات " المقابسات " يجعل من الكتاب متحفا فكريا عجيبا ، بحيث يخرج منه القارىء مقتنعا بما قاله أبو حيان من أن الحق " شيء نسبي " فهو " لم يصبه الناس من كل وجوهه ، ولا أخطأوه من كل وجوهه ، بل أصاب منه كل إنسان جهة " (٢) .

ولئن كان التوحيدي يورد لنا في " المقابسات " الكثير من الآراء التى ينسبها إلى أستاذه أبي سليمان المنطقي ، وإلى مفكرين آخرين مثل أبي زكريا الصيمري ، وأبي الفتح النوشجاني ، وأبي بكر القومسي ، وأبي اسحق الصابي ، والخوارزمي ، ويحيى ابن عدي ، ووهب بن يعيش الرقي ، وأبي محمد العروضي ، وأبي الحسن على بن محمد البديهي ، وأبي اسحق النصيبي وغيرهم ، الا أننا نجد أسلوبه في الرواية واحدا ، مما يوحي بأنه قد أعاد صياغة هذه الآراء بأسلوبه الخاص ، إن لم يكن قد أضاف إليها بعض آرائه الخاصة . والتوحيدي يعترف بأنه قد وجد نفسه بإزاء " فائته لا علم له بها ، وزيادة لا يطمئن متن الكلام إلا بها " (٣) فكان لابد له من تنقيح بعض ما وصل إلي سمعه ، وسد الثغرات فيما غاب جزء منه عن ذاكرته .... ونحن نميل إلى الظن بأن فلسفة التوحيدي الخاصة هى التى أملت عليه نوع المختارات التى حرص على إيرادها ، وهى التى دفعته إلى تذكر بعض الآراء ونسيان غيرها . وليس من شك في أن الذاكرة جهاز عضوي حي يتطور ويتغير ،

---

(١) وصف ياقوت الرومي : في كتابه معجم الأدباء . أبو حيان التوحيدي بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق المتكلمين ومتكلم المحققين وإمام البلغاء ، وأخذ الدكتور زكريا إبراهيم بهذه التسمية عنوانا لكتابه عن التوحيدي في سلسلة اعلام العرب

(٢) أبو حيان التوحيدي : المقابسات : مقابسة ٦٤ ص ٢٥٩

(٣) المرجع السابق ص ١٢٤

لا مجرد آلة صماء تقوم بتسجيل الأحداث والأفكار دون تشويه أو تمويه . فليس من المستبعد أن يكون التحريف قد دخل إلى بعض الآراء التى سجلها أبو حيان ، كما أنه ليس كما يمنع من أن يكون هو نفسه قد قصد إلى ذلك قصدا ، للتصريح ببعض الآراء التى لم يكن يجرؤ على المجاهرة بها ، أو للتلميح ببعض الأفكار التى كان يخشى نسبتها إليه .

ومهما يكن من شيء ، فإن التوحيدي مسئول عن جانب غير قليل من الآراء التى أوردها لنا في كتابه " المقابسات " ، خصوصا وأننا نراه يتبناها في مؤلفات أخري له ، مما يحملنا على الظن بأنه لم يوردها إلا لاقتناعه بها ، أو لإيمانه بقيمتها ، أو لحرصه على تنبيه الأذهان إليها .

ونحن لا نوافق البعض على ما ذهب إليه من غموض " المقابسات " ، واضطرابها ، وكثرة التلاعب فيها ، بل نحن نري – على العكس من ذلك – أن التوحيدي كان مهتما في هذا الكتاب بتحديد معاني الألفاظ ، والتمييز بين المترادفات ، والكشف عن صلة الفكر باللغة ، أو المنطق بالنحو . وليس من العسير على الباحث المتمهل أن يستخرج من ثنايا الأفكار الواردة في المقابسات فلسفة متماسكة قوامها التساؤل عن النفس الإنسانية ، والبحث عن " الوحدة " فيما وراء " الكثرة " ، والكشف عن دور " الإنسان " في دراما الطبيعة والحياة . وليست " النبرة الصوفية " التى تطغي على بعض نصوص المقابسات سوي مجرد صبغة روحية أراد لها أبو حيان أن تكون بمثابة الغلاف الخارجي أو القشرة السطحية لبعض آرائه الجريئة في النفس البشرية ، والأخلاق الإنسانية . وإذن فإن فضل التوحيدي في كتاب " المقابسات " لا ينحصر في نقل الأفكار والمساجلات التى كانت تدور في الأوساط العلمية في عصره ، بل هو يمتد أيضا إلى عملية تنقيح الآراء ، وغربلتها ، وإعادة صياغتها ، والتعبير عنها بأسلوب أدبي ناصع . وإذا كانت بعض آراء التوحيدي قد اختلطت ببعض آراء السجستاني ، كما اختلطت من قبل آراء أفلاطون بآراء أستاذه ستراط ، فلعل هذا مما يجعل لكتاب " المقابسات " قيمه كبري في تاريخ الصلات الفكرية بين علمين هامين من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري .

١٩ - وأما الكتاب الثالث الذي نشر من كتب التوحيدي فهو كتاب " الإمتاع والمؤانسة " الذي اضطلع بتحقيقه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين . وقد ظهر هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء . والمتأمل في هذا الكتاب يعجب لثقافة أبي حيان الواسعة إذ يحرر في هذا الكتاب من كل علم وفن : فأدب وفلسفة وحيوان وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث ولغة وسياسة وفكاهة ومجون وتحليل لشخصيات العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس . ويفرق التوحيدي في هذا الكتاب بين العلم والفن فالعلم يحاول تفسير الظواهر الطبيعية والمعرفة العلمية تفسير محايد للظواهر ، بينما الفن ذاتي للإنسان عما يحيط به من ظواهر . والفن ينبع من ذات الإنسان ومن داخلة . وهذا الفن من أخص خصائص الإنسان باعتباره سمه حضارية من ناحية ولونا اجتماعيا من ناحية أخري وأحد أشكال حرية الإنسان ثالثا .

والفن هو الذي ينعش الحياة في صورها الثلاث العاطفة والعقل والإرادة . والفن عند التوحيدي ينسحب على الرسم والنحت والشعر والموسيقي والخط ، فإنها جميعا تخرج من ذات الفنان ونفسه المبدعة ، وكلها تمت إلى معني الرفعة ، وكلها تتصل بالجمال . وكلها تجمعها العاطفة والخيال وهنا تثار مشكلة الإبداع الفني ، ويحاول التوحيدي تفسير هذه الظاهرة بإظهارنا على العلاقة القائمة بين الطبيعة والفن أو الصناعة ، فالصناعة تحاول التشبه بالطبيعة ، في حين أن الطبيعة لا تتشبه بالصناعة والطبيعة وراءها قوة إلهية قادرة مدبرة ، فكيف للصناعة البشرية أن تساويها أو أن تكون مستعلية عليها .

ويقف التوحيدي عند مشكلة الصدق الفني ، ويبين لنا كيف أن الفنان البليغ يتبع منطقا آخر غير منطق الصدق في الحياة الواقعية ، لأن الفنان لا يقتصر على المحاكاة بل هو يعبر عن السانحة اللطيفة والباردة الخفية باللفظ والتعبير الصادق والخلو من التكلف . وهكذا يقدم لنا التوحيدي دراسة شاملة مستفيضة لفن البلاغة والكتابة الفنية عبر عنه بقوله : أحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه ، وتلألأ رونقه ، وقامت صورته بين شعر كأنه نثر ، ونثر كأنه شعر ....

أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة : جـ٢ صفحات ٣٩ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ وما بعدها

الفكاهة والطرافة عند أبي حيان التوحيدي :

في المجلد الأول من كتابه " البصائر والذخائر " علق أبو حيان التوحيدي على فكاهة مجونية أوردها فيه ، فقال " إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل ، الجارية على السخف ، فإنك لو أضربت عنها جملة ، لنقص فهمك ، وتبلد طبعك ولا يفتق العقل شيء كتصفح أمور الدنيا . ومعرفة خيرها وشرها ، وعلانيتها وسرها ... فاجعل الاسترسال بها ذريعة إلى إحماضك ، والانبساط فيها سلما إلى جدك ، فإنك متى لم تذق نفسك فرح الهزل كريها الجد " .

كان أبو حيان يدرك جيدا أن القاريء بعد انغماسه في الجد بات محتاجا إلى الترفيه والطرفة والنكتة ، فيورد جملة من النوادر والطرائف والحكايات والنكات المنقولة والمسندة ، ويستقيها من أي مصدر كانت : من الخاصة والمثقفين وذوي المراتب ، أو من العامة والصعاليك والطفيليين والحمقى ، فالمهم عنده أنها تؤدي إلى الغرض المنشود ، وهو التفريج عن نفس القاريء وإضحاكه ، وإدخال المسرة إلى نفسه المكدودة بعناء العمل ومضايقات الحياة ومنغصات العيش . ويستطرد أحيانا إلى التبرير والتعليل لماما ، كما فعل في الجزء الثاني من كتابه " البصائر والذخائر " .

ولدي الإمعان في تبريرات التوحيدي وتعليلاته ، ألفيت أنها على جانب كبير من الصحة ، إذ إن علماء النفس والأطباء في هذا القرن ، قد أجمعوا على أن للضحك تأثيرا قويا في حياة الفرد ، لاعتقادهم أن البشاشة تكسو الوجه إشراقا وجمالا ، وأن المرح يؤثر في طباع الإنسان وميوله فيغدو أنيسا وديعا هادئا لطيف المعشر ، وعلى النقيض من ذلك دائم العبوس : فأخلاقه تتصف بالضيق والانقباض ، ويغلب على نفسه الاكتئاب والنفور . إذ ليس كالضحك والفكاهة عامل يبعث على إراحة الأعصاب ويحول دون التشنج والتصلب اللذين يصيبان الأعصاب والشرايين والعضلات والقلب ، فتضطرب وظائف أعضاء البدن وتغيب البسمة عن المحيا ، ويبدو القطرب على الوجه ، ويشعر المرء بالتباريح الجسمية والروحية . وهذا ما حدا بعدد كبير من أطباء هذا العصر إلى مداواة بعض الأسقام والعلل بالوسائل الطبيعية المؤدية إلى ارتياح النفس وانشراح الخاطر ، فإلى الابتسام والضحك ، حتى إن جامعة طبية أعلنت عن تقديم جائزة ثمينة لمن يصف عقارا يجدي جميع الأسقام ، فنال الجائزة من وصف الضحك والابتسام لمداواتها . وهذا يذكرني ببلدة أبيداروس في بلاد الروم قديما وهي اليوم تدعى أبيدروا حيث كان مسرح ضخم لإله الطب ، وكان يؤمه كثير من المرضى لمعالجة أسقامهم باللهو والطرف والضحك .

وكذلك نلاحظ أن الصحافة المعاصرة كثيرة الاهتمام بالنكات الطريفة والنوادر اللطيفة والرسوم الكاريكاتورية بقصد إضحاك القراء والناس على مختلف فئاتهم في هذا العصر الزاخر بالإرهاق والمشاكل والجري المسعور خلف المادة والضنك الشديد في توفير ضرورات العيش حتى إن الصحف تخصص جوائز ثمينة أحيانا لأحسن نكتة لأبدع نادرة ، بل ترصد مبلغا معينا لكل نكتة أو نادرة ،

أما شركات الأفلام فإنها سخية ، وبنوع خاص مع الممثلين الهزليين وأقطاب الفكاهة ، إذ تغدق عليهم مبالغ طائلة وأجورا مغرية اعتقادا منها أنهم خير وسيلة لتخفيف هموم الملأ والتفريج عن كروبهم .

ويسوق لنا التوحيدي بعضا من كلام الجاحظ وهو أحد أساطين الفكاهة الرزينة في الأدب العربي ، إذ قال عن المزاح : " المزح متفاوت الأشكال في السخف ، كما إن الجد متفاوت الأقدار في الوزن ، فلم نقصد إلى الباطل ولا إلى ما لا يرد نفعا في عاجل ولا مرجع له في آجل ، بل إنما أردنا أن يكون ذلك الضحك إجماما (دافعا) للقوة وتنشيطا على العمل " .

أما مسائل كتاب " الهوامل والشوامل " فهي لم تخل من طائفة تمت إلى الموضوع بصلة ، منها المسألة الثامنة والسبعون وهي كيف يهون على بعض الناس أن يجعل نفسه ضحكة ، أو مخنثا مغنيا لعابا ، ولعله يكون من بيت ظاهر الشرف ، وربما لم يعد عليه ذلك بنفع مادي . والمسألة السابعة والثمانون ، وهي ما علة كثرة غم من كان أعقل ، وقلة غم من كان أجهل ؟ والمسألة الحادية بعد المئة وهي قد نري من يضحك من عجب يراه ويسمع أو يخطر على قلبه ثم ينظر إليه ناظر من بعد فيضحك لضحكه من غير أن يكون شاركه فيما يضحك من أجله ، وربما ضحك الناظر على ضحك الأول . فما الذي سري من الضاحك المتعجب إلى الضاحك الثاني ؟ والمسألة الثالثة بعد المئة : لم قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا ، وما في حياتهم من فائدة على الدين والدنيا ؟ ولا يفوتني في هذا العرض الإشارة إلى كتاب " الإمتاع والمؤانسة " لأبي حيان ، المتميز بختام كل محاضرة ليلية تقريبا بملحمة الوداع ، يطلبها الوزير أبو عبد الله بن سعدان من التوحيدي قبل مبارحته ، وقد الفيت فيه أن الليلة الثامنة عشرة قد كرست للهزل والفكاهة .ومن رام التفكه بنوادر وملح التوحيدي فعليه بالرجوع إلى المجلدات الثلاثة التى ظهرت حتى لأن من " البصائر والذخائر " فإنه واجد فيها الكثير مما يسر الخاطر ويسري عن النفس . هذا وتختلف نوادر أبي حيان التوحيدي من حيث الطول والقصر ، فبعضها لا يتجاوز السطرين وبعضها بلغ خمسة أضعاف ذلك . وإليك أيها القاريء الكريم مثالا على كل منهما :

حاذقة ومتخلفة : كان لبعض الظرفاء مغنيتان ، إحداهما حاذقة والأخرى متخلفة ، فكان إذا قعد معهما وغنت الحاذقة خرق قميصه وإذا غنت الأخرى قعد يخيطه .

أماني طفيلي : قصد قوم من الطفيليين وليمة ، فقال رئيسهم : اللهم لا تجعل البواب لكازا في الصدور ، دفاعا في الظهور ، طراحا للقلانس ، هب لنا رأفته ورحمته ويسره ، وسهل علينا إنه . فلما دخلوا تلقاهم ، فقال متكلمهم : غرة مباركة ، موصول بها الخصب ، معدوم معها الجدب . فلما جلسوا على الخوان ، قال : جعلك الله كعصا موسي وخوان إبراهيم ومائدة عيسى في البركة ! ثم قال لأصحابة : افتحوا أفواهكم وأقيموا أعناقهم وأجيدوا اللف ، وأترعوا الأكف ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب ، كلوا على اسم الله تعالى !

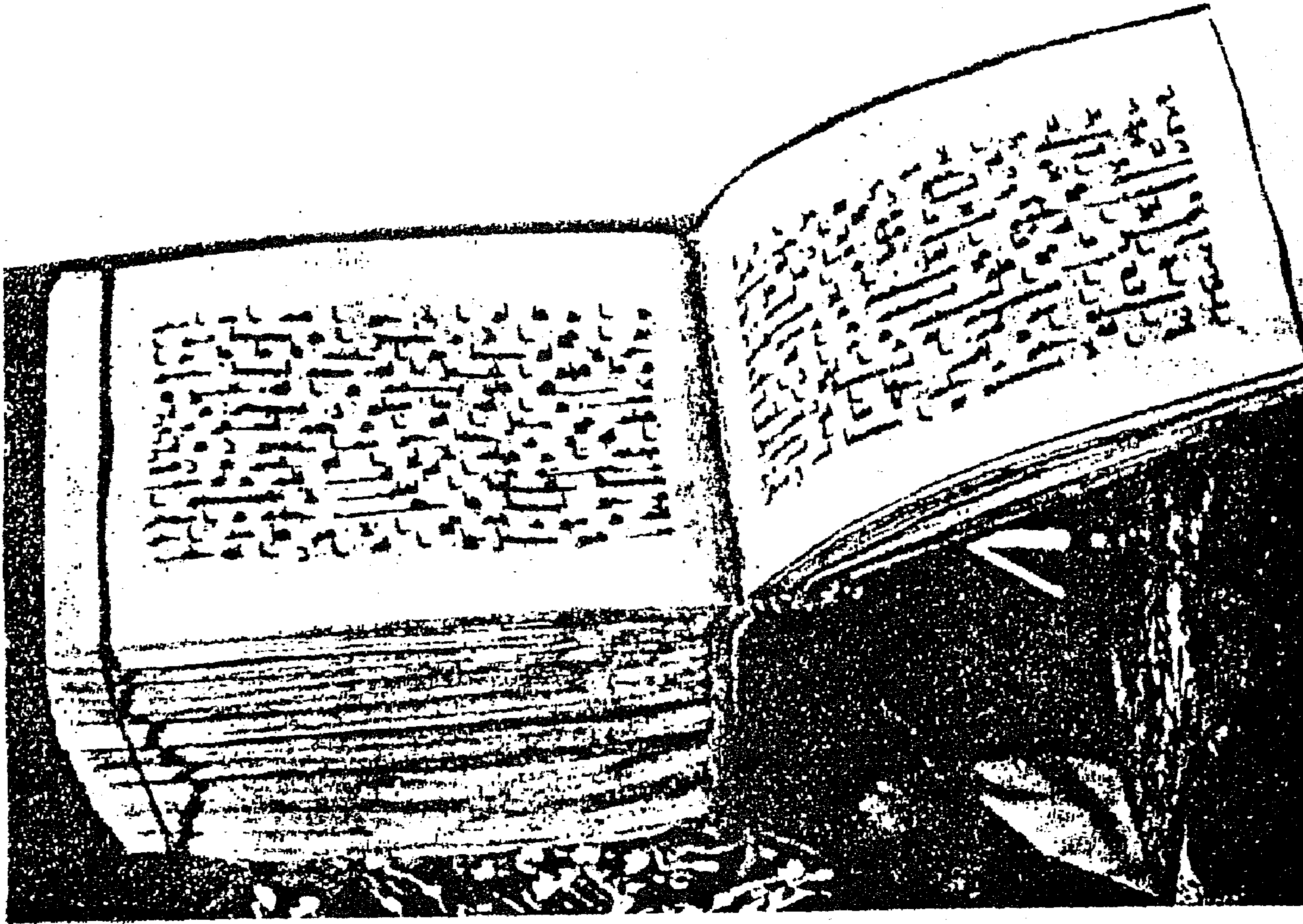
ملحق صور بعض صفحات المصاحف و المخطوطات العربية ومنها يتضح نوع الخط المستخدم فى الكتابة والنسخ كالخط الكوفى والنسخ والفارسى والثلث والنستعليق . والرقعة الدارج وغير ذلك كما تظهر بوضوح طريقة كتابة الحواشى الجانبية .

صورة رسالة النبي محمد ﷺ إلىٰ كِسرىٰ ملك الفُرس يدعُوه فيها إلى الإسلام. (عن الأصل المحفوظ في خزانة هنري فرعون- بيروت)



صدر كتاب النبي محمد (ﷺ) إلى المُنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، يدعوهُ فيه إلى الإسلام عُثر على أصل هذا الكتاب في دمشق (نقلاً عن ZDMG)

ورقة من مصحف بخط كوفي من أواخر القرن الثاني للهجرة، منقوط إعراب (محفوظ في لينينغراد بمكتبة معهد الدراسات الشرقية، رقم ٣٢٢)



صفحتان من المصحف المنسوب إلى الإمام علي، المحفوظ في المشهد الحسيني بالقاهرة (نقلاً عن مجلة المصوَّر المصرية، العدد ٢٢٦٥، ٨ مارس ١٩٦٨).

ورقة من المصحف المنسوب إلى عثمان بن عفان ، المحفوظ في متحف طوب قبو سراى باستانبول (رقم H.S 194 ، الورقة 367B)

ورقة من المصحف المنسوب إلى عقبة بن عامر ، المكتوب سنة ٥٢ هـ .
محفوظ في متحف قبو سراى باستانبول (أمانة رقم 40 ، الورقة 130 b)

ورقة من المصحف المنسوب إلى الإمام علي محفوظ في خزانة الإمام الرضا بمشهد.

ورقة من مصحف في متحف الآثار الإسلامية باستانبول (رقم 87) من أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري (من مجموعة الوثائق الأموية)

ورقة من المصحف الذي كتبه علي بن هلال ، المعروف بابن البواب ، سنة ٣٩١ هـ (محفوظ في خزانة جستر بيتي بدبلن – ايرلندا)

الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا
قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية
ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك
الكتاب من اختلافهم ولغطهم

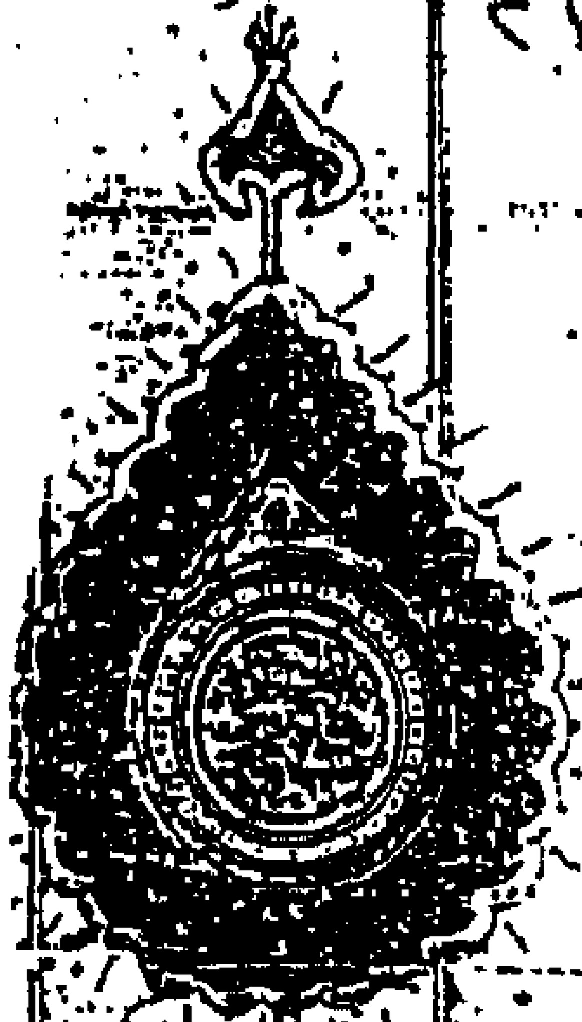
بلغ السماع على مولاي والدي [illegible]

كتاب الأيمان
والنذور

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ومحمد بن رمح قال
أخبرنا الليث ح وحدثنا قتيبة بن سعيد قال
حدثنا الليث عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن
عباس أنه قال استفتى سعد بن عبادة رسول الله صلى الله
عليه وسلم في نذر كان على أمه توفيت قبل أن تقضيه قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم اقضه عنها وحدثنا يحيى بن
يحيى قال قرأت على مالك ح وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة
وعمرو الناقد وإسحق بن إبراهيم عن ابن عيينة ح
وحدثني حرملة بن يحيى قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني
يونس ح وحدثنا إسحق بن إبراهيم وعبد بن حميد قالا
أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر ح وحدثنا عثمان بن

صفحة من مخطوط للحديث بالخط النسخي

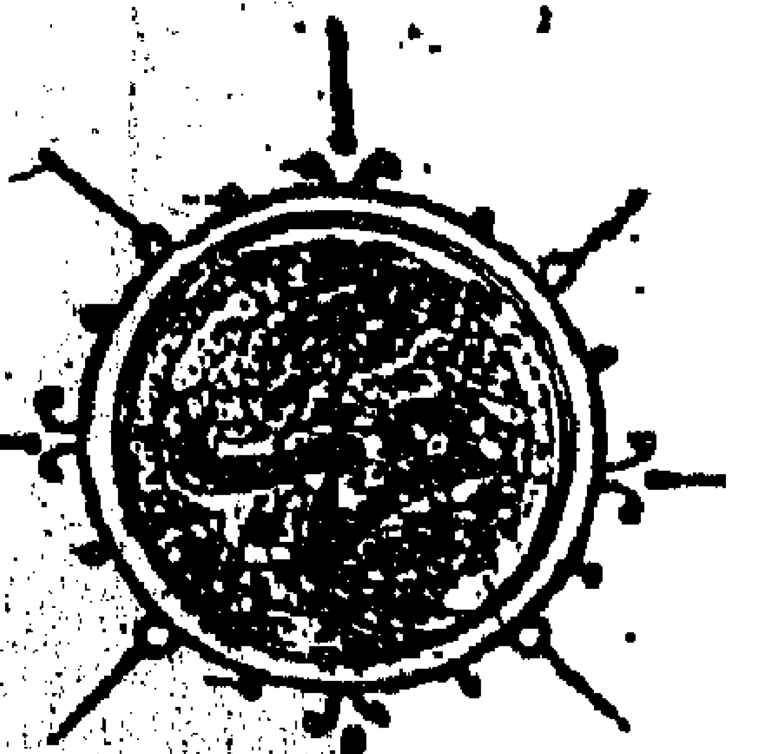


بسم الله الرحمن الرحيم
عم يتساءلون عن النبإ العظيم
الذي هم فيه مختلفون كلا
سيعلمون ثم كلا سيعلمون
ألم نجعل الأرض مهادا والجبال
أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا
نومكم سباتا وجعلنا الليل
لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا
فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا
وهاجا وأنزلنا من المعصرات
ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا
وجنات ألفافا إن يوم الفصل
كان ميقاتا يوم ينفخ في الصور
فتأتون أفواجا وفتحت السماء
فكانت أبوابا وسيرت الجبال

فكانت

صفحة من مصحف بالخط الثلث

يؤمرون ۞ وقال الله لا تتخذوا إلهين



اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون



وله ما في السماوات والأرض وله

الدين واصبا أفغير الله تتقون ۞ وما

بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر

صفحة من مصحف بالخط الثلث

على الجبيرة وان ضره المسح على الجراحة الا انه يمسح على الجبيرة ومن كان ببعض اعضائه
جراحة فان كان الغالب صحيحا غسله ومسح على الجبيرة في الباقي وان
كان الغالب جريحا تيمم وغسل الصحيح ساقط عندنا وان كان النصف صحيحا
لم يذكر في ظاهر الرواية وعن محمد رحمه الله انه لو كان عاجزا عن غسل اليدين
والوجه يتيمم ولو عجز عن غسل اليد خاصة لا يتيمم هذا النص عن ابي يوسف
رحمه الله قال صاحب شرح الطحاوي بهذا يثبت ان النصف
كالاكثر المستحاضة وصاحب الجرح السائل اذا حبسا عن ثبوت الحكم الدم
وذكر البقالي رحمه الله في جوامع الفقه ولو ربط الجرح ومنع الرباط
الخروج من السيلان فان لم ينشف الخرقة فهو كالصحيح وان نشف الخرقة
فهو سائل وكذا المفتصد اذا منع الرباط الخروج فهو كالصحيح وكذا المستحاضة
وانه روي عن محمد رحمه الله وابن سلام والهندواني رحمهما الله ان لم يجاوز
الى ظاهر الحشو لا ينقض الوضوء وهو المختار بخلاف الحائض لانها كل
ما جاء منها صغيرة وكبيرة فهو انها لا تسيل بخلاف دم الاستحاضة المسافر
اذا تيمم لعدم الماء ثم مرض مرضا يبيح له التيمم لو كان فيهما لم يجز له
الصلاة بذلك التيمم وجعل الاول كان لم يكن لانه اختلاف اسباب الرخصة
بمنزلة الاحتساب في الرخصة الاولى عن الباقية ويصير الاولى كان لم يكن
ونظيره مسألة ايلاء المريض اذا ابانها ثم مرض ثم المرأة ويعيش مريضا
الى ان انقضت المدة فيه ما للسان عند زفر رحمه الله وعندنا بالجماع
وينظر في ايلاء المريض وقد كتبنا في مختلفات القاضي ابي عاصم رحمه
زفر رحمه الله

كتاب الصلوة

المريض اذا وجد الى الصلوة فالسنة ان يستلقي على قفاه ورجلاه الى
القبلة وقال الشافعي رحمه الله ينام على جنبه كما يوضع في اللحد وبهذا لو
فعل جاز والاول اولى ذكره قاضي خان رحمه الله في جامع الصغير وذكر
قاضي خان رحمه الله في باب صلوة المريض من الجامع الصغير ويصلي
على جنبه كما يوضع في اللحد ومن يستطيع الاستلقاء على القفا
النفية او جعل الستر والى رحمه الله يعني لا يكون وذكر ابو
عبد الله الجرجاني رحمه الله ما يدل على الجواز هكذا ذكره الامام الصفار
رحمه الله

صفحة من مخطوط بالخط الرقعة الدارج

نسايس وعكس ... وحبيث وحب

فصل وقد يجيء الجمع مبنيا على غير واحده

المستعمل نحو أراهط وأباطيل وأعاريض

وأحاديث وأقاطيع وأهال وليال وحمير

وأمكن فصل وجمع الجمع يقال في كل أفعل

وأفعلة أفاعل وفي كل أفعال أفاعيل نحو أكالب

وأساور وأناعيم وقالوا جمائل وجمالات

ورجالات وكلابات وبيوتات وحمرات وجزرات

صفحة من مخطوط فى النحو بالهوامش وبالخطين النسخ والرقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ورحمته

قال أبو عبيد في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه

صفحة من مخطوط في الحديث بالخط الثلث

فان الحروف ام الاول حرفي الكاف والنون قال تعالى

انما امرنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون

وقد اراد بما كان في غامض علمه من ايجاد الكائنات والمخلوقات

وخفض الارضين ورفع السموات واستخلاف خليفة المكنونات

جامع لمفترقات المكونات وسماه آدم وعلمه اسماء ما تاخر

وما تقدم فمن جملة ما اعلم به ما يختص من ذريته جيلا بعد جيل

الى حصول نفخة اسرافيل وامره باعلام خواص بنيه بذلك

النبأ العظيم فتلقى عنه ولده شيث ثم انوش ثم الاخص

فالاخص الى ادريس عليه السلام وهلم جرا الى ان تمت

الادوار ومرت الاكوار وانتهى الامر الى الدورة السابعة

المحمدية فانحصر فيما اتاه الله الاول والاخر والباطن والظاهر

قال تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء

وشيء انكر النكرات فالكتاب المبين حاوي للعلوم الخفية

والخلقية ما شذ عنه شيء فهو الامر المعجز لكون امة السبع

المثاني حوت علوم المحسوسات والمعاني اذا تاملها الحاذق

النحرير والعلامة الخبير وجدها الانموذج الجامع والنور الساطع

اللامع في اول اية منها جميع معاني ما اشتملت عليه من

الحقيقة والخلقية / نسخة: الحقيقة والخليقة وعلوم الخليقة صح

صفحة من مخطوط في التفسير وبالخط الفارسي

وهذا

كتاب انشاء الدوائر للامام محيي الدين
ابن العربي ايضا قدس الله سره
العزيز ونفعنا به
آمين بجاه النبي
الامين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الانسان فى صورته وخصه بسريرته وجعل
له المضاهاة والمباهاة مقدمتين لتصحيح نتيجة معرفته فطورا
يضاهي به حضرة ذاته وصفاته وطورا يضاهي به حضرة مخلوقاته
والصلاة على النبي الجامع للمبادى الاول والمقابل حضرتي الابد
والازل النور الساطع الذى ليس له فى المستور خلف حجاب ليس كمثله
شئ ذلك حقيقة الحقائق والنشأ الاول المبرز على صورة المخلوقات
والخالق منه من باب الشكل ومنه من باب الحقائق ومنه من باب
الاسم والوصف ومنه من باب الخلائق محمد صلى الله عليه وسلم اما
بعد فان الله سبحانه وتعالى لما عرفني في حقائق الاشياء على ما هي عليه خلقها
واطلعني كشفا على حقائق نسبها واضافاتها اردت ان ادخلها في
قالب الشكل الحسي ليقرب مأخذها على صاحبي الولي عبد الله بدر الحبشي
وليسهل على من كل بصره عن ادراكها ولم تسبح دراري افكاره في
افلاكها فيتبين له اين مرتبته في الوجود وما الشرف الذي حصل

ص وجعل المضاهات
ص بجامع حضرة الازل
ص والمستور
ص الحقيقة
ص وعلى آله وشرف وكرم
ص لمن
ص ودراري
ص تحصل

باب الحائي ٥٤	باب الدال ٦٢	باب الذال ٧٤	باب الراء ٨٥	باب الزائي ١٠٣	باب السين المهملة ١٠٥
باب الشين ١١٣	باب الصاد المهملة ١١٦	باب الضاد المعجمة ١٢٠	باب الطائي ١٢٤	باب الظائي ١٢٧	باب العين المهملة ١٢٧
باب الغين ١٣٧	باب الفائي ١٣٤	باب القاف ١٤٤	باب الكاف ١٦١	باب اللام ١٦٦	

بيان فهرست امراض هذا الكتاب من الرأس الى القدم واقع اولا

صداع سوء مزاج باش اغريسي ١٣١	شقيقه يارم باش اغرسي ١٥٣	قرانيطس ١١٠	البرغس ١١١	الصلع ١٣٢	سعفه ١٤١	السهر ٨٨
السبات ٤٣	التمدد تشنج ٧٣	كابوس ١١٠	الارق ١٤٥	الحمق وزوال العقل ١٤٤	الماليخوليا ٧	القطرب ٣٨
العشق ١٥٦	حب عاشق ١٣	الصرع ١٣١	سكته ٣٥	الفالج ٨	الرعشه ١١٤	الموت فجاة ٣٦
امراض العين ٧	الرمد ٦٥	الطرف ١٤	السبل ١٧٩	الجهر	الحول ١٧٣	الوردينه ٣٧
الناظر	الودقه ١٦١	النفصد ٦٤	الطرش ١١٤	رعاف ١٤٠	العطوس ١٠٤	الكلف ١٤٤
القلاع ١٣٤	القلاع ١٥٢	الثوع ١٣٩	البحر ٧٦	الخناق ١٥٠	الفواق ١٥٨	السعال ١٧٦
ابو	الجنب ١٢	الظهر ٤١	الحارب ١	خفقان ١٥٠	النياطن ١٣٦	المكد ٧١
بصب ٢	امراض المعدة ٣	الذرب ١٥	البنح ٤٤	الهوع تهوع ١٣٦	التهوع ١٠	
القي ٦	السيل ١٧٧	الارق برقان ١٤٠	العطش ١١٠	امراض الطحال ١٧٤	ديابيطس ١٠٨	
بقولنج ٤٩	المغص ١٢٠	الهيضة ١٢٣	السهل ١٧٧	الفتق ١٥٨	العرق ١٣٠	

« قاموس الأطبا » الذى ألفه عالم عربى فى القرن الحادى عشر للهجرة

أهم المرجع العربية

إبراهيم الإدكاوي :

- دلالات الأفعال في علم التصريف . مطبعة الأمانة ١٩٩٠

إبراهيم أنيس :

- الأصوات اللغوية طـ ٢ ١٩٥٠
- من أسرار اللغة : القاهرة ١٩٥٠

أحمد الشرباصي :

- قصة التفسير . الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥

أحمد فريد رفاعي :

- عصر المأمون . المجلد الأول . مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٧

أنستاس الكرملي :

- نشوء اللغة العربية واكتمالها . المطبعة العصرية ١٩٣٨

الأصفهاني – أبو الفرج – على بن الحسين بن محمد الأموي ت ٣٥٦ هـ

- الأغاني : طـ دار الكتب ، بولاق

الأصمعي أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب ت ٢١٥ هـ

- الأصمعيات طـ برلين ١٩٠٢
- غريب الحديث

أمين الخولي :

- مالك . تجارب حياة . وزارة الثقافة إعلام العرب العدد ١١ / ١٩٦٢

ابن الأنباري : أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٥ هـ

- نزهة الألباء في طبقة الأدباء ، نشر على يوسف ١٣٨٦ هـ
- الأنصاف في مسائل الخلاف . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار إحياء التراث (بدون)
- كتاب الأضداد
- الأغراب في جدل الإعراب . تحقيق سعيد الأفغاني ١٩٥٧

البطليوسي أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن السيد ت ٥٢١ هـ

- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب . المطبعة الأدبية بيروت ١٩٠١

البغدادي : أبو بكر ، أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ

- تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش دمشق ١٩٤٩
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع . مخطوط
- الرحلة في طلب الحديث ، طـ ١٩٧٥
- شرف أصحاب الحديث طبع لاهور ، الباكستان ، ١٩٦٤
- الكفاية في علم الرواية . دار الكاتب العربي

البغدادي : عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣ هـ

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ
- فتوح البلدان . مصر ١٩٠١

الترمذي :
- في أبواب التفسير ١٢٩٢ هـ

تمام حسان :
- مناهج البحث في اللغة ١٩٥٥

ابن تيمية :
- المقدمة في أصول التفسير

الثعالبي :
- فقه اللغة ....
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . دار الكتب العلمية بيروت بدون

الجاحظ : أبو عثمان – عمرة بن بحر بن محبوب ت ٢٥٥ هـ
- البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر مكتبة الحلبي ، ١٩٤٨
- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨
- المحاسن والأضداد ، الخانجي ، ١٣٢٤
- رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون القاهرة

الجرجاني : عبد القاهر ت ٤٧١ هـ
- أسرار البلاغة ، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا / ، ط صبيح ، ١٩٥٩
- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تعليق محمد عبده والشنقيطي، ط المنار ، القاهرة . / ١٩٦١

ابن الجزري : شمس الدين ، محمد بن محمد ت ٨٣٣ هـ
- النشر في القراءات العشر ، ط دمشق ، ١٣٤٥ هـ وأيضا تصحيح على الضباع . القاهرة

ابن جني : أبو الفتح ، عثمان بن جني ت ٣٩٢ هـ
- الخصائص . تحقيق محمد على النجار دار الكتب ، دار الهدي ، بيروت ١٣٧٢ هـ
- سر صناعة الإعراب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ط١ ، القاهرة ١٣٧٤ هـ
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها تحقيق على الجندي ناصف وآخرين . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٦ هـ
- المنصف ، تحقيق الأستاذين إبراهيم مصطفي وعبد الله أمين . مطبعة الحلبي ط١ القاهرة ١٩٥٤
- اللمع ، تحقيق عبد الله بن الحسين الكعبري ، القاهرة ١٩١٣

جواد على :
- تاريخ العرب قبل الإسلام . مطبوعات المجمع العلمي العراقي

الجواليقي : أبو منصور بن أحمد ت ٥٣٩ هـ
- المعرب ، شرح وتعليق أحمد شاكر ط ليدن

الجوذية : ابن قيم ،
- أعلام الموقعين عن رب العالمين . دار الجيل . بيروت

ابن أبي حاتم : محمد بن عبد الرحمن ت ٣٢٧ هـ
- آداب الشافعي ومناقبه ، القاهرة ، ١٩٥٣
- الجرح والتعديل ــ الهند ، بدون

حاجي خليفة ؛ مصطفى بن عبد الله كاتب حلبي ت ١٠٦٦ هـ
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق مصطفي عبد الله بمصر ١٢٧٤ هـ

ابن حزم :
- الإحكام في أصول الأحكام ...

حسين نصار :
- المعجم العربي نشأته وتطوره ، دار الكاتب العربي ، ١٣٧٥ هـ

الحسيني هاشم :
- أصول الحديث النبوي دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢

الحنبلي : ابن العماد :
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت
- مناهل العرفان ....

أبو حنيفة الدينوري ، أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ
- الأخبار الطوال ، ط السعادة ١٣٣٠ هـ

ابن خلدون :
- المقدمة ، تحقيق د. على عبد الواحد وافي

ابن خلكان :
- وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٧١

خليل يحيى نامي :
- دراسات في اللغة العربية دار المعارف

ابن أبي داود السجستاني : عبد الله بن سليمان الأشعث ت ٣١٦ هـ
- كتاب المصاحف

الداني :
- جامع البيان في القراءات السبع . مخطوط دار الكتب المصرية
- المحكم في نقط المصاحف . تحقيق د. عزة حسنى دمشق ١٩٦٠

ابن دريد
- جمهرة الكلام
- الاشتقاق . تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٨

الذهبي :
- سير أعلام النبلاء . تحقيق محمد نعيم العرقسوسي مطبعة الرسالة ١٩٨٢
- تذكرة الحفاظ ، دار أحياء التراث العربي بيروت ١٩٥٩
- معرفة القراء الكبار

ابن رشيق : أبو على - الحسن بن رشيق القيرواني ت ٣٦٣ هـ وقيل ٤٥٦ هـ
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ١٩٣٤
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه تصحيح النعساني ١٩٠٧

رمضان عبد التواب :
- فصول في فقه اللغة العربية مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٨٣
- مناهج تحقيق التراث بين القدامي والمحدثين بدون
- المصادر اللغوية ، القاهرة ١٩٨٨
- التطور اللغوى مظاهره وعلله وقوانينه ، مكتبة الخانجي ، ١٩٩٠

الزبيدي : أبو بكر / محمد بن الحسن ت ٣٧٩ هـ
- الواضح في علم العربية . تحقيق أمين على السيد ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٥
- طبقات النحويين واللغويين . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، نهضة مصر ، ١٩٥٥
- على متن الدرة .

الزجاجي : أبو القاسم ، عبد الرحمن ابن إسحاق ت ٣٣٧ هـ
- الآمالي . مكتبة الخانجي ١٣٢٤ هـ
- مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام هارون ، الكويت ، ١٩٧٤
- اشتقاق أسماء الله ، تحقيق د. عبد الحسين المبارك . العراق ١٩٧٤
- الإيضاح في علل النحو . تحقيق مازن المبارك طـ١ المدني ١٩٥٩
- الجمل ، تصحيح ابن أرشنباط جول كرنوبل الجزائر ١٩٢٧

الزركشي :
- البرهان في علوم القرآن

الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر ت ٥٨٣ هـ
- الفائق في غريب الحديث . تحقيق البجاوي وأبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٤٥
- أساس البلاغة ، بدون

الرامهرمزي ، الحسن بن عبد الرحمن
- المحدث الفاضل بين الراوي والداعي ، طـ بيروت ١٩٧١أصول النحو ، تحقيق عبد الحسين الغتلي . مخطوط جامعة القاهرة رقم ٨٦١ نحو
- الموجز في النحو . تحقيق د. مصطفي الشويحي وبن سالم ١٩٦٥

السجستاني : أبو حاتم – سهل بن محمد ت ٢٥٥ هـ
- كتاب المعربين من العرب ، تصحيح الخانجي ، ١٩٠٥

السخاوي .
- الوسيلة
- جمال القراء

ابن سعد : أبو عبد الله ، محمد بن سعد بن ميع الزهري ت ٢٣٠ هـ
- كتاب الطبقات الكبري ، طـ بريل في ليدن ١٣٢٢ هـ وطبعة دار التحرير ١٩٦٨

سعيد الأفغاني : • في أصول النحو ط٣ جامعة دمشق ١٩٦٤
السمرقندي / أبو الليث ، • بحر العلوم
ابن السكيت : أبو يوسف ، يعقوب بن إسحاق ت ٢٤٤ هـ • تهذيب الألفاظ ، تحقيق الأب شيخو ، بيروت ، ١٨٩٥
ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي ت ٢٣١ هـ • طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط ، دار المعارف ، القاهرة • مقدمة شرح الإمام الزبيدي
سيبويه ، أبو بشر ، عمرو بن عثمان ت ١٨٠ هـ • الكتاب ، المطبعة الأميرية ببولاق . بدون
السيد أحمد عبد الغفار : • ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ، دار الرشيد ، الرياض ١٩٨٠
ابن سيده ، أبو الحسن ، علي بن إسماعيل ت ٤٥٨ هـ • المخصص ، المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة ١٣١٦ هـ
السيرافي ، أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله ت ٣٦٨ هـ • كتاب ، أخبار النحويين البصريين ، تحقيق كرنكو باريس ، ١٩٣٦
السيوطي : جلال الدين ، عبد الرحمن ابن أبي بكر ت ٩١١ هـ • المزهر في علوم اللغة وأنواعها . تحقيق محمد جاد المولي وآخرين دار أحياء الكتب العربية . القاهرة . ١٩٥٨ • تنوير الحوالك شرح موطأ مالك . طبعة عيسي الحلبي • الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، بيروت • شرح شواهد المغني ، لجنة التراث العربي ، مصر ١٣٢٢ هـ • بغية الوعاة ، تحقيق أبو الفضل ، ط السعادة ، ١٣٢٦ هـ • الأشباه والنظائر في النحو ، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ، ط ١ • الاقتراح في علوم أصول النحو تحقيق أحمد محمد قاسم ط١ القاهرة ١٩٧٦ • الإتقان في علوم القرآن ، ط الحلبي ، ١٩٣٥ • الإحكام في أصول الأحكام المعارف ١٩١٤ • تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، ط ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ١٩٦٦ • حسن المحاضرة . تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل دار أحياء الكتب العربية عيسى الحلبي ١٩٦٧ • أسباب النزول

الشحات السيد زغلول :

- أبي بن كعب ... الرجل والمصحف . دار النجاح ١٩٧٧
- الاتجاهات الفكرية في التفسير " طـ ٢ ١٩٧٥
- جهود المسلمين في توثيق الحديث طـ ١٩٨٦

شوقي ضيف :

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي طـ١٠ دار المعارف
- الفن ومذاهبه في النثر العربي طـ٩ دار المعارف
- البلاغة تطور وتاريخ ، ط ٥ ، دار المعارف ، ١٩٨١
- العصر الجاهلي ، طـ ،٩ دار المعارف ،
- العصر العباسي الأول طـ٧ دار المعارف
- العصر العباسي الثاني ، طـ٣ ، دار المعارف ، ١٩٧٣
- المدارس النحوية ، طـ ٤ ، دار المعارف ، ١٩٦٨
- كتاب السبعة في القراءات ط لابن مجاهد ، طـ٢ ، دار المعارف

الشوكاني :

- إرشاد الفحول

صابر بكر أبو السعود :

- القياس في النحو العربي ، مكتبة الطليعة ، أسيوط ، ١٩٧٨

صاعد الأندلسي : القاضي أبو القاسم ، صاعد بن أحمد الأندلسي ، ت ٤٦٢ هـ

- طبقات الأمم ، مطبعة السعادة بمصر ، بدون

صبحي الصالح :

- علوم الحديث . مطبعة دار العلم ١٩٧٣
- دراسات في فقه اللغة . دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٨٠

ابن الصلاح :

- مقدمة في علوم الحديث ، دار الكتب ، ١٩٧٤

الصولي : أبو بكر ، محمد بن يحيى ت ٣٣٦ هـ

- أدب الكتاب ، تصحيح الأثري ،مطبعة السلفية ١٣٤١ هـ

الطبري : أبو جعفر ، محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ

- التاريخ ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة مصر ، وطبعة بريل في ليدن
- جامع البيان في تفسير القرآن . تحقيق محمود محمد شاكر، طـ دار المعارف القاهرة .

طه حسين :

- البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، مطبعة الجامعة ، ١٩٣٧

أبي الطيب :

- مراتب النحويين

عباس بيومي عجلان :

- دراسات في الحديث النبوي الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤

عباس حسن :

- اللغة والنحو بين القديم والحديث ، دار المعارف ١٩٧١ .

ابن عبد البر ، أبو عمر ، يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ت ٤٦٣ هـ .

- مختصر جامع بيان العلم وفضله ، مصر ١٣٢٠ هـ
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، طـ١ ، ١٣١٨ هـ

ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨ هـ

- العقد الفريد . تحقيق بن سعيد العريان ، طـ الأستقامة ، ١٩٤٠

عبد الرحمن السيد :

- مدرسة البصرة النحوية ، نشأتها وتطورها . سجل العرب ، طـ١ ١٩٦٨

عبد الحليم محمود :

- السنة ، مكانتها وتاريخها ، المكتبة الثقافية ، العدد ١٦٦

عبد الحليم الجندي :

- الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول ، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ .

عبد السلام هارون :

- تهذيب سيرة القرآن القاهرة ١٩٨٧

عبد الصبور شاهين :

- تاريخ القرآن القاهرة ١٩٦٦

عبد الفتاح الشيخ :

- فقه العبادات ، معهد الدراسات الإسلامية ، القاهرة ،١٩٩١

عبد الله أمين :

- الاشتقاق، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طـ١ ، ١٩٥٦

عبد المنعم ماجد :

- تاريخ الحضارة الإسلامية ، الأنجلو ؛ القاهرة ، ١٩٨٨

عبده الراجحي :

- التطبيق الصرفي ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٤

أبو عبيد ، القاسم بن سلام :

- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية

أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧ هـ

- معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفي السقاط ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥
- اللآلي في شرح أمالي القالي ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، ١٩٣٦

أبو عبيدة معمر بن المثني ت ٢٠٨ / ٢١٣ هـ

- مجاز القرآن . تحقيق محمد فؤاد سزكين ، طـ٢ ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٧٠
- النقائض تحقيق الصاوي ، ١٩٣٥
- كتاب الخيل ، الهند ، ١٣٥٨ هـ

العز بن عبد السلام :

- الفوائد

العسقلاني : أبو حجر

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب العلم ،
- الإصابة في تمييز الصحابة ، ط١ ، دار الثقافة العربية ، مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ
- تهذيب التهذيب ، ط الهند ، ١٣٢٥ هـ

على الجندي ناصف :

- سيبويه إمام النحاة ، لجنة البيان العربي ، بدون

على عبد الواحد وافي :

- نشأة اللغة عند الإنسان والطفل .
- فقه اللغة ، ط٤ ، دار نهضة مصر ، ١٩٥٦

ابن فارس ، أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥ هـ

- الصاحبي في فقه اللغة ، المكتبة السلفية ١٩١٠ .
- معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون دار أحياء الكتب العربية ،

الفراء ، أبو زكريا ، يحيى بن زياد ت ٢٠٤ هـ

- معاني القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي وآخرين . الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠

الفراهيدي : الخليل بن أحمد ،

- الجمل في النحو . تحقيق د. فخر الدين قباوة مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٥

القالي أبو علي ، إسماعيل بن القاسم بن عيذون ت ٣٥٦ هـ

- الأمالي ، دار الكتب ، بدون

ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ

- تأويل مختلف الحديث ، تحقيق السيد صقر ، القاهرة ، ١٣٢٦
- تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ١٩٥٤
- أدب الكاتب . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط٤ السعادة بمصر ١٩٦٣
- الشعر والشعراء ، ليدن ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٠٢
- عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣
- المعارف ، تصحيح الصاوي ، المطبعة الإسلامية بمصر ١٣٥٣ هـ
- المسائل والأجوبة في الحديث واللغة ، مكتبة القدسي ، ١٣٤٩ هـ

القرطبي : ا

- لمقدمة

القفطي . أ
- نباه الرواة على أنباء النحاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٧٣
- تاريخ الحكماء . ليبزج ١٩٠٣

ابن كثير : الحافظ الدمشقي
- البداية والنهاية
- تفسير القرآن العظيم

محمد عبد الخالق عضيمة :
- المبرد حياته وأثاره المجلس الأعلي للشئون الإسلامية ١٣٨٥ هـ .
- المغني في تصريف الأفعال . مطبعة العهد الجديد . ط٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥

محمد فؤاد عبد الباقي :
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر . بيروت ١٩٨٧

محمد حسين الذهبي :
- علم التفسير . دار المعارف ١٩٧٣

محمد على الأشقر :
- الجوانب من تاريخ القرآن ، طبعة النجف الأشرف بالعراق

محمد أبو زهرة :
- أحمد بن حنبل ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربي مصر ، بدون

محمد الطنطاوي :
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، دار المعارف ، ١٩٧٣

محمد على قطب :
- علوم الحديث ، ط٣ ، دار الأمصار ، ١٩٧٥

محمد محمد أبو زهو :
- الحديث والمحدثون ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٤

محمد نجيب المطيعي :
- تبسيط علوم الحديث ، وأدب الرواية ، بدون

محمد يوسف موسي :
- التشريع الإسلامي وأثره في الفقه ، القاهرة ، ١٩٦٠

محمود أبو رية :
- أضواء على السنة المحمدية مطابع دار المعارف ١٩٨٠
- أبو هريرة شيخ المضيرة دار المعارف القاهرة

محمود حجازي :
- علم اللغة مدخل تاريخي تعارف في ضوء التراث واللغات السامية ، الكويت ، ١٩٧٣

محمود عباس حمودة :
- دراسات في علم الكتابة العربية القاهرة ١٩٨١

المسعودي : أبو الحسن ، على بن الحسين ت ٣٤٥ هـ
- مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية طـ٢ ١٩٤٨

مصطفي السباعي :
- السنة ومكانتها في التشريع ، طـ٢ ، دمشق ، ١٩٧٨ .

مصطفي صادق الرافعي ،
- تاريخ آداب العرب ، أخراج محمد العريان
- تحت راية القرآن مصر ١٩٢٦ .

مصطفي مندور :
- اللغة بين العقل والمغامرة إسكندرية ١٩٧٤

المقريزي : تقي الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ
- امتاع الأسماع . تصحيح محمود شاكر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١

مهدي المخزومي :
- مدرسة الكوفة وأثرها في النحو واللغة ، الحلبي ، ١٩٥٥

ناصر الدين الأسد :
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، طـ٥ ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٨

ابن النديم ، أبو الفرج – محمد بن إسحاق بن يعقوب ت ٣٨٥ هـ
- كتاب الفهرست . المكتبة التجارية مصر . بدون

النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب
- سنن النسائي – مطبعة الأزهر ١٩٣٠

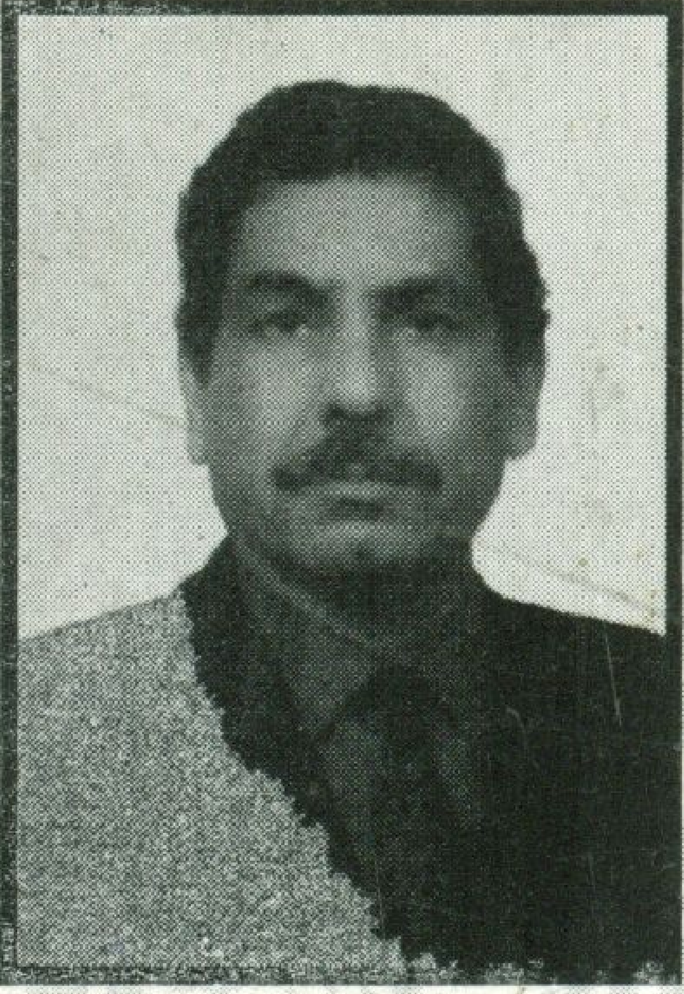
الواقدي . أبو عبد الله ، محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ
- مغازي رسول الله ، جماعة نشر الكتب القديمة ، ١٩٤٨
- منهج الفرقان في علوم القرآن ، بدون

ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٨ هـ
- شذور الذهب في معرفة كلام العرب . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار الفكر بيروت
- معني اللبيب . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة صبيح ، القاهرة بدون ،
- السيرة النبوية . تحقيق مصطفي السقا وآخرين . مطبعة الحلبي ١٩٣٦
- الهيثمي : مجمع الزوائد ، بدون

ياقوت ، أبو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦ هـ
- معجم البلدان ، الخانجي
- معجم الأدباء . دار المأمون . القاهرة ١٩٣٦
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب . الرفاعي . بدون

المراجع الأجنبية
Allen, Thomas W. - Homer: The Origins and Transmission, Oxford, 1924
Della Vida , Giorgio Levy - Pre - Islamic Arabia ;The Arb Heritage, New Jersy , 1944.
Grohmann , Adolf - Form The World of Arabic Papyri , Cairo , 1952 .
Hamidullah , M - Some Inscriptions of MEDINAH OF The Early Years of HIJAH ; Islamic CULTURE , Vol.13 No .4,October 1939 .
Krenkor - The Use of Writing For The Preservation of Ancient Arabic Poetry ; A Volume of Oriental Studies to E.G. Brownem Edited BY J.W . Arnold .
Margoliouth , D.S. - The Orgins of Arabic POETRY ; JRAS, July 1925P . 417- 449
Miles , G.G. Early Islamic Inscriptions Near Ta 'if in The Hijaz, JNES , Vol,7,1948
O'Leary . De Lacy - Arabia Before Mohammad , 1927

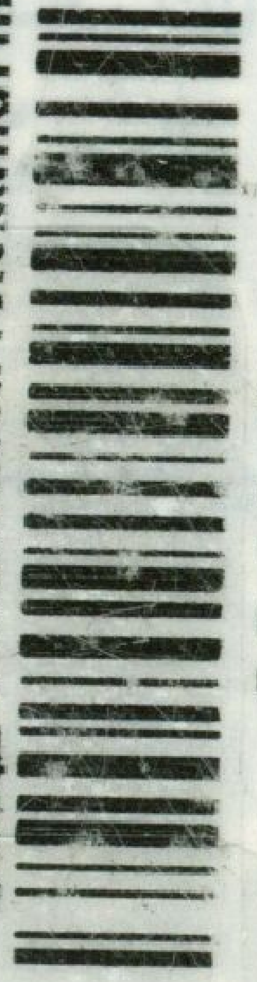
مطابع جامعة المنوفية



هذا الكتاب :

كان السبب القوى لنشأة وتدوين الدراسات اللغوية عند العرب ، الإختلاط عند العرب والعجم ، وخيف على الإسلام وكتابه ومبادئه من هذا الإختلاط ، مما دفع طائفة من الرواد وعلماء اللغة للبادية لجمع اللغة من العرب الخُلَّص ، ويعد الفراهيدى أول من نظر إلى التدوين اللغوى ، فقد عرف قيمة الدراسات الصوتية وصلتها باللغة ، وقد تابع سيبويه أستاذه مع دقة فى التحليل والتفصيل ،وألف معجمه العين ، وكانت الدراسة اللغوية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى هى الإملاء والإفتاء والتعليم والرواية ، فلما جاء القرن الرابع كثرت العلوم وامتزجت الثقافة العربية بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية والأديان المسيحية واليهودية مما وسع دائرة الفكر وتوقد العقل ، فاتجهت دراسة اللغة إلى مناحى جديدة وظهرت دراسات فى اللغة لم يسبق لها مثيل فى مجالات التفسير والفقه والتشريع و النحو والصرف وعلوم البلاغة ، المعانى والبيان والبديع ، وتوالى التأليف فى متن اللغة وفقهها وظهرت مؤلفات فى المقال والرسائ... بداية القرن الخامس الهجرى ومع اهتمام العلماء بالإشتقاق وال... ومعانى الألفاظ والمتضاد والمترادف والإبدال وغير ذلك .

عبد ...



رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٢٠٠٣/٧٧٨١

I.S.B.N . 977.5800.42.0

مطابع جامعة المنوفية